

نبيل راغب



أنور السادات

رائدًا للتأصيل الفكري



دار المعارف بمصر

الفكر السائد

رأى الأستاذ فيصل الفكري

لُفُوهُ السَّادِ

رَأْسُ التَّأْصِيلِ الْفِكْرِي

نَبِيْل رَاغِب



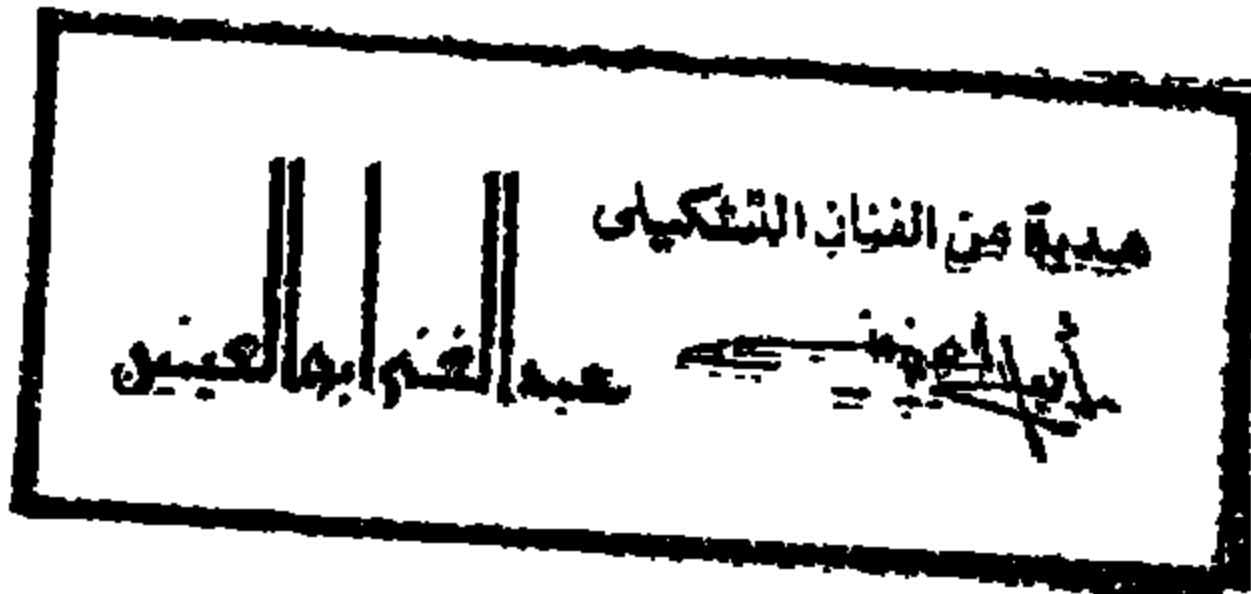
دارالمعارف بمط

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٢٠٠٢ ع .

الإهداء

إلى أبطال وأجيال السّادس من أكتوبر العظيم
أتشرف بإهداء هذه الدراسة

نبيل الغب



شكر وتقدير

من المعروف أنه لم ولن يوجد الكتاب الذى يستطيع أن يقوم باحث بتأليفه بمفرده . وإنما يعتمد الباحث فى بنائه الجديد على الأسس التى وضعها من سبقه فى نفس المضمار ، وعلى التوجيهات والإرشادات التى يتفضل بها أساتذته ، وعلى المساعدات والخدمات التى يقدمها الزملاء والأصدقاء .

ولهذا تعتبر هذه الدراسة ثمرة مجهودات كثيرة تضاف إلى المجهود الذى قام به الباحث الذى يود أن يقدم أعمق الشكر والتقدير لكل من ساهم فى إقامة هذا البناء الجديد ، وبصفة خاصة الأستاذ حسن إمام عمر الذى قدم كل مساعدة ممكنة فيما يختص بالإنجازات الأدبية والفنية للرئيس السادات ، وأيضاً الدكتور محمد سليمان الذى حرص على توفير كل خطب الرئيس وأحاديثه بين يدي الباحث ، والمهندس داود أنطون داود الذى ساهم فى تزويد الباحث بالنظريات والتطبيقات العلمية والتكنولوجية الحديثة . كذلك لا ينسى الباحث أن يعترف بجميل الأستاذ فوميل لبيب ، والدكتور رشاد رشدى ، والأستاذ فوزى عبد الحافظ ، وذلك للمساعدات القيمة التى قدموها بكل حب وحماس .

كذلك يشكر الباحث موظفى قسم الوثائق والمعلومات بدار التحرير لتوفيرهم كل أعداد جريدة « الجمهورية » ومجلة « التحرير » التى نشرت فيها كل مقالات ودراسات الرئيس السادات ، وأيضاً يذكر بالتقدير موظفى دار الكتب والوثائق وموظفى مكتبة جامعة القاهرة لتمكينه من استعارة كتب الرئيس السادات ومؤلفاته . وبالإضافة إلى ذلك فقد قام أمناء مكتبة المتحف البريطانى بلندن بمجهود مشكور فى تقديم كل المراجع التى تعالج النظريات السياسية والمفاهيم الفكرية والاتجاهات الاجتماعية التى تتصل بمضمون الدراسة ، وذلك أثناء وجود الباحث فى إنجلترا .

وأخيراً لا ينسى الباحث الدور المخلص والقيم الذى قامت به زوجته ، فقد ساندته وساعدته فى كل سطر خطه فى هذا الكتاب ، وفى كل ليلة سهرها من أجل إنجازها على مدى السنوات الثلاث الماضية .

إلى كل هؤلاء أقدم كل الحب والتقدير والوفاء ، لأنه لولا مساعداتهم القيمة لما كان فى الإمكان أن يخرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود بهذه الصورة .

نبيل راغب

الجيزة - أغسطس ١٩٧٤

مضمون الدراسة

صفحة	
١١	منهج الدراسة
١٥	الفصل الأول : المنهج العلمى
٦١	الفصل الثانى : مفهوم الإيمان
٩٥	الفصل الثالث : الضرورة الأخلاقية
١٢١	الفصل الرابع : الممارسة الديمقراطية
١٤٧	الفصل الخامس : التعمير الحضارى
١٧٣	الفصل السادس : الوعى بالتاريخ
١٩٩	الفصل السابع : الشخصية المصرية
٢١٥	الفصل الثامن : روح القرية
٢٢٥	الفصل التاسع : الكيان الأسرى
٢٣٥	الفصل العاشر : قضية الشباب
٢٤١	الفصل الحادى عشر : المرأة الجديدة
٢٥١	الفصل الثانى عشر : معنى الفن
٢٧٣	قائمة المراجع

منهج الدراسة

قد يتعجب القارئ ، الذى قرأ لى من قبل كتباً فى الأدب والفن والنقد ، كيف لناقد مثلى يعمل فى تدريس الأدب الإنجليزى بالجامعة أن يدس أنفه فى مجال الدراسات السياسية الذى لا يرتبط بصميم تخصصه ولكنى أبادر فأطمئنه إلى أننى لا أدعى القيام بدور الكاتب السياسى ، وهذا الكتاب ليس كتاباً سياسياً ، ولكنه كتاب ينهض على الفكر الإنسانى الرحب الذى قد تشكل السياسة جزءاً صغيراً منه ، ولكنها بالطبع ليست كل شيء ، بل ليست بالمحور الذى تدور حوله الدراسة . فالمحور هو فكر الرئيس أنور السادات ونظرته إلى المجتمع والحياة والكون . وهذه النظرة بل هذه الفلسفة التى تتميز أول ما تتميز بالتأصيل الفكرى ، تبلور العلاقة العضوية بين الأصالة والمعاصرة . فالتأصيل الفكرى لا يعنى هنا مجرد إحياء التراث القديم ، بل يعنى فى الوقت ذاته ربطه بعجلة الحضارة المعاصرة بحيث يتخلص من السلبيات التى تعوق تقدمه وتطوره ، ويكتسب الإيجابيات التى تدفعه إلى الأمام حتى يواكب المسيرة الحضارية للعصر .

فالتأصيل الفكرى يهدف أساساً إلى الحفاظ على الملامح المميزة والمقومات الرئيسية للشخصية القومية بكل جوانبها المصرية والعربية على حد سواء ، وفى نفس الوقت يتخذ من هذه الشخصية المميزة قاعدة صلبة لينطلق منها إلى آفاق المستقبل ، ويتخذ منها أسلوباً أيضاً للتعامل الدولى بحيث لا نفقد هويتنا فى خضم الأحداث السياسية والاتجاهات الفكرية والتيارات الاجتماعية والمفاهيم الاقتصادية ، فهذه كلها ظواهر لجوهر واحد يتجسد فى شخصية الأمة . والأمة التى تفقد شخصيتها ، تفقد بالتالى احترام العالم لها ، وقدرتها على توجيه دفة الأحداث لصالحها ، والأسلوب الذى يمكن الأمم الأخرى من التعامل معها على أساس من منهج علمى محدد . ومن هنا كان إصرار الرئيس السادات على ما أسماه بالصمود الفكرى ، أى الاحتفاظ برؤوسنا هادئة رغم موجات الاستفزاز ، والثقة فى حساباتنا رغم حملات التشويش ، والتمسك بمبادئنا عالية مهما هبت علينا العواصف وهى كثيرة ومتتابعة .

ولعل ريادة الرئيس السادات للتأصيل الفكرى قد تمثلت عملياً فى كل الأساليب الاستراتيجية التى اتبعها ، والقرارات المصرية التى اتخذها ، وعلى الأخص قرار الحرب الذى يبلغ ذروة الخطورة فى حياة أية أمة وفى حساب أية قيادة . وكان منهج التأصيل الفكرى هو الإطار أو السياج المتين المرن الذى استطاع أن يتصدى لكل معارك الحرب النفسية واستعدادات العدو الضخمة ومخاطر التأثير والتأثير الدوليين ، وكان أيضاً المنطلق الذى صدر منه قرار الحرب التاريخى على حد قول الزعيم فى خطابه فى ٢٤ يوليو ١٩٧٤ :

« لقد صدر القرار عن إرادة وطنية وقومية خالصة وهو معنى أحرص دائماً على تأكيده وتكراره أهم ما يجب أن نحرص عليه دائماً فى الحاضر والمستقبل ، ولأن تأكيد الإرادة الوطنية كان المنطلق الأساسى لحركتنا منذ بدأنا الإعداد لثورة ٢٣ يوليو ولأن معظم ما تعرضنا له طوال ٢٢ سنة من تحديات كان مرجعه حرصنا على حرية هذه الإرادة الوطنية لأنها إذا رسخت فى ضمير قيادتنا وقواعدنا اليوم وغداً فهى الضمان الوحيد للمستقبل » .

وأى باحث يتصدى لدراسة معنى القرارات الأساسية الكبرى التى اتخذها القائد ، سوف يجد أن المنطلق الذى يربط بينها جميعاً هو : تحرير الإرادة الوطنية المصرية وجعل القرارات المصرية كلها مصرية ١٠٠ ٪ ، والحرص على مقومات الشخصية المصرية من خلال تجربة اجتماعية مصرية لم تقصر فى الاستفادة من شتى التجارب التى تصلح

لتربة هذا الوطن بصفة خاصة ، وأيضاً الرفض المطلق لتجميد هذه التجربة الحية في أى قوالب صماء سواء كانت من صنعنا أو من صنع غيرنا ، ذلك لأن التأصيل الفكرى يعتمد أساساً على التعمق والاجتهاد والاطلاع أيضاً على تجارب الغير دون عقد .

والتأصيل الفكرى منهج علمى شامل يربط الماضى بالحاضر ثم يعمل بكل إمكانياته على استشراف آفاق المستقبل ، أى أنه يجمع بين التفكير والتجديد وتصحيح السليبيات وإدراك المتغيرات وحشد الإيجابيات وتنقية التراث من كل المعوقات والرواسب والشوائب . ويؤكد الرئيس السادات أنه إذا كانت المظاهر المادية للحضارة المصرية العريقة قد اندثرت فإن جذورها مازالت متأصلة فى ضمير أبسط الناس ، ومن هنا يتحتم تعريضها لهواء العصر وشمس بيئتنا . فشجرة الحضارة المصرية الأصيلة لن تنمو بثمار تضاهى متطلبات العصر إلا إذا كانت جذورها راسخة فى تربة الوطن . وهذه المتطلبات لا يمكن أن تعتمد فى تحقيقها على الإغراءات السهلة التى سرعان ما تتبدد آثارها ولا يبقى منها لشعبنا وخصوصاً لأجيالنا المقبلة أى شئ . ولذلك فالتأصيل الفكرى هو الضمان الذى يمكننا من اجتياز مرحلة البناء الصعب ، ذلك لأنه ليس مجرد بناء اقتصادى مادى فحسب ، إنه بناء فكرى ونفسى وروحى وحضارى أيضاً . وكما يوضح الزعيم فإن حرصنا على توفير الموارد المادية التى تمكننا من البناء يجب ألا يطغى على اهتمامنا بتوفير المصادر الفكرية والعلمية التى تمكننا من الارتقاء بالبناء وإتقانه . وهذه المصادر ليست التيارات الوافدة أو المفاهيم المستوردة أو الأفكار الجاهزة ولكنها المناهج العلمية الحديثة التى تساعدنا على استغلال طاقتنا الوطنية وإمكانياتنا القومية على خير وجه . ولذلك يؤكد الزعيم فى خطابه فى ٢٧ يوليو ١٩٧٤ :

« إن هذا الصمود الفكرى فى تقديرى هو سلاح من أهم الأسلحة التى علينا أن نتسلح بها فى هذه المرحلة بالذات فالسلاح الذى يزرع اليقين ويقوى الثقة بالنفس لا يقل أهمية عن السلاح الذى يطلق النار وحين أقول بالصمود الفكرى لا ينصرف ذهنى إلى الجمود فالعكس تماماً هو الصحيح إن الجمود الفكرى نوع من الرجعية والتخلف والتحجر وهو يؤدى بصاحبه إلى الخروج عن منطق العصر ومن يختار لنفسه أن يبقى قاعداً جامداً والعالم يهرول إلى الأمام هو فى الواقع يحكم على نفسه بانعدام القدرة على التأثير على مجرى الحوادث والمساهمة فيها ، وخدمة شعبه وأمتة من خلالها ولكننى أقول مع ذلك إننا ونحن فى عصر حافل بالمتغيرات : المتغيرات على كل المستويات السياسية والدولية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية فإننا رغم ضرورة الدراية المستمرة بكل هذا إلا أنه من المهم أن يكون لنا الأساس الواضح الذى يستند إليه العمود الفقرى القومى الذى ينهض بالجسد كله مهما تحركت فى هذا الجسد أطرافه وأينما سارت به قدماه . »

ذلك هو العمود الفقرى الذى يربط هذه الدراسة من أول فقرة إلى آخر فقرة فيها ، وذلك هو المحور الذى يدور حوله فكر أنور السادات وفلسفته منذ بدأ التفكير والقراءة فى صباه وشبابه المبكر ومنذ بدأ الكتابة والتأليف ، وذلك عندما كتب مذكراته فى السجن عام ١٩٤٦ حتى أصدر « ورقة أكتوبر » عام ١٩٧٤ . فالخط الفكرى عند السادات يمتاز بالاتساق والترابط والتناغم ولم يتغير منذ البداية ، ومن المستحيل العثور على نبرة تتناقض مع نبرة أخرى . وبالطبع فالاتساق الفكرى لا يعنى الجمود ، ولكنه يعنى النظرة الموضوعية التحليلية التى تضع دائماً الأمور فى نصابها بصرف النظر عن الظروف الطارئة أو الضغوط المؤقتة . أى أن الاتساق الفكرى هو البوصلة التى ساعدت الزعيم على قيادة السفينة وسط بحار الأهوال ومحيطات العواصف ودوامات الأمواج ، صحيح أن مؤشر البوصلة لا يغير اتجاهه أبداً ، ومع ذلك فهو يقود السفينة إلى بر الأمان . ولأن السفينة لا يمكن أن تسير بدون القبطان ، ولأن القبطان لا يمكن أن يهجر السفينة ، فهذه الدراسة ليست دراسة عن السادات فقط ولكنها دراسة عن مصر أيضاً ، ولذلك سيرى القارئ فكر السادات

من خلال مصر ، والشخصية المصرية من خلال السادات .
 ولم تحرص هذه الدراسة على بلورة العلاقة العضوية بين فكر السادات وتراث مصر فحسب ، بل أدركت أن فكرة
 تمتد ليلتحم بتراث الحضارة العربية العريقة ثم ينطلق من هذه الأصالة القومية إلى مجال المعاشة المعاصرة للحضارة
 العالمية بكل ما تحمله من إيجابيات فكرية وإنجازات علمية وابتكارات تكنولوجية . ففلسفة التأصيل الفكرى عند
 السادات فلسفة إنسانية حضارية شاملة تنظر إلى الإنسان في جوهره الأصيل وليس إلى مظهره المؤقت ، ولذلك فهى
 فلسفة أشمل من أن تحصر تحت بنود التصنيفات المتعسفة والتقسيمات الضيقة التى تقسم الفكر الإنسانى إلى يمين أو
 يسار ، إلى تقدمية أو رجعية . . إلخ من هذه التصنيفات المستوردة التى تحيل الإنسان إلى مجرد لافتة لا تحتوى على أى
 مفهوم نابع من الإنسان نفسه . لأنه فى عصرنا هذا لا يختلف اثنان حول مفاهيم الحضارة الإنسانية وما تشمله من
 تطور وتقدم ، فالمهم هو العمل الجاد والمثمر والملموس من أجلها وليس مجرد الكلام المقنع بقناع الحذقة الفلسفية
 والسفسطة العقائدية . ومن هنا كان إصرار السادات على أن زمن الأقوال قد انتهى ولم يعد هناك أى معيار سوى الأعمال
 المثمرة الملموسة . ولم تعد المسألة مسألة الانتماء إلى اليمين أو اليسار ولكنها أصبحت مسألة من يعمل أولاً يعمل من أجل
 التعمير الحضارى لهذه الأمة .

وقد أكرت هذه الدراسة من المقتطفات الواردة من كتابات وأقوال السادات ، سواء كانت من باب المذكرات
 أو الخطوط أو الكتب أو المقالات أو الدراسات أو الأبحاث أو الخطب أو البيانات أو الأحاديث أو الكلمات . . إلخ .
 وذلك حتى لا تمثل هذه الدراسة حاجزاً بين القارئ وبين الاستيعاب المباشر لفكر السادات وخاصة الجزء الذى يتمثل
 فى المذكرات والمقالات والكتب والدراسات والأبحاث التى كتبت منذ حوالى ربع قرن والتى لم يتسن للجيل المعاصر
 أن يطلع عليها بعد . وأيضاً بالنسبة للأجيال المقبلة التى تميل إلى التعرف بالتاريخ من خلال الكتب التى كتبت أثناء
 هذه الحقبة الحاسمة والمصيرية من تاريخنا الحديث ، أكثر من ميلها إلى دراسة التاريخ ذاته بأحداثه ومواقفه وقراراته
 واتفاقياته ومعاهداته التى لا تتوفر إلا للباحث الأكاديمى المتخصص الذى يحاول بدوره استيعابها وبلورتها فى دراسات
 وكتب يقدمها لهذه الأجيال . ولذلك فهذه الدراسة موجهة إلى الأجيال المقبلة من أمتنا بقدر ما هى موجهة إلى جيلنا
 المعاصر .

وسيلاحظ القارئ أن التاريخ سيسجل للسادات دوره كرائد فكرى بنفس الدرجة التى سيسجل بها دوره كقائد
 سياسى . فإن ما قدمه من فلسفة للتأصيل الفكرى يضيف الكثير إلى البناء الذى بدأه رفاعة الطهطاوى وجمال الدين
 الأفغانى ومحمد عبده وأحمد لطفى السيد وغيرهم من رواد الفكر الحديث فى الأمة العربية . ورغم أن القرارات السياسية
 المصرية كانت تجسيدا لفكر السادات وفلسفته إلا أن خطورتها تكاد تشغل الناس عن الخط الفكرى المتسق الذى
 يربطها ببعضها البعض برباط عضوى . ولهذا فقد هدفت هذه الدراسة إلى تزويد القارئ بالضوء الهادئ التحليلي
 الموضوعى المتأنى لكى يتتبع الخط الفكرى الذى يربط بين الجوهر الفكرى والمظهر السياسى . فليست السياسة كل شئ
 فى فكر القائد ولكنها مجرد الجانب التطبيقى لفلسفته الشاملة ببعديها النظرى والعملى ، والتى تتمثل عناصرها فى المنهج
 العلمى ، ومفهوم الإيمان ، والضرورة الأخلاقية ، والممارسة الديمقراطية . والتعمير الحضارى ، والوعى بالتاريخ ،
 والشخصية المصرية ، وروح القرية ، والكيان الأسرى ، وقضية الشباب ، والمرأة الجديدة ، ومعنى الفن .

وهذه العناصر تمثل بدورها فصول هذه الدراسة التى ينهض عليها بناؤها العضوى ، وهو عضوى لأن كل فصل
 يؤدى بالضرورة إلى الذى يليه فهذه الفصول عبارة عن تنويعات جانبية على الخط الرئيسى المتمثل فى فلسفة التأصيل
 الفكرى عند أنور السادات ، وهى الفلسفة التى تبلور العلاقة العضوية بين الأصالة القومية والمعاصرة العالمية . فعلى سبيل

المثال سيجد القارئ أن المنهج العلمى هو الامتداد الحى لمفهوم الايمان وليس نقيضه كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . وقس على ذلك العلاقة العضوية بين الضرورة الأخلاقية والممارسة الديمقراطية ، فالحرية الشخصية معناها المسئولية الأخلاقية وهذا بدوره مرتبط بالتعمير الحضارى من خلال الوعى بالتاريخ . ثم تأتى الشخصية المصرية لتحتوى كل هذا بأبعادها المتمثلة فى روح القرية والكيان الأسرى وقضية الشباب والمرأة الجديدة . بعد ذلك يبرز معنى الفن ليضيف اللمسة الأخيرة لكل العناصر السابقة . هكذا يؤثر كل فصل فى الفصول الأخرى ويتأثر بها ، إذ أن تأثيره وتأثيره لا يقتصران على الفصل السابق له أو الفصل الذى يليه .

وفى نهاية الدراسة سيكتشف القارئ النظرية المتكاملة التى تحتوى فكر الرائد فى وحدة عضوية متفاعلة وحية ، وهى النظرية الفكرية التى نهض عليها بناء الدراسة واتخذ منها هيكله الأساسى . ولكنها نظرية ذات أبعاد خصبة وأعماق متعددة وأغوار عميقة بحيث يتعذر على دراسة واحدة أن تشمل كل هذه الجوانب ، ولذلك إذا شعر القارئ بأن هذه الدراسة قد قصرت فى بعض الجوانب ، فعذرها فى ذلك خصوبة وغزارة وشمولية الموضوع الذى تناولته بالبحث والتحليل . وأملنا أن تتبع هذه الدراسة دراسات أخرى بأقلام مفكرينا المعاصرين حتى تسد النقص الذى قد تكون هذه الدراسة قد عجزت عن تلافيه .

والآن تبدأ سياحة القارئ الممتعة فى أرجاء العالم الفكرى عند أنور السادات ، وستكون هذه الدراسة بمثابة الدليل فقط فى هذه السياحة ، الدليل الذى يرشد ويوضح أما الهضم والتذوق فمن مهمة القارئ فى هذه الرحلة الفكرية الممتدة عبر الماضى والحاضر والمستقبل .

الفصل الأول المنهج العلمى

إن من يتوافر على دراسة وتحليل فكر أنور السادات ومؤلفاته يتضح له أن المنهج العلمى هو الخط المميز لكل أفكاره ودراساته التى تبلورت حتى قبل التحاقه بالمدرسة الحربية فى ٦ أكتوبر عام ١٩٣٦ . فالعوامل والخصائص التى ميزت فكره وفلسفته تعد بمثابة نسيج عضوى يمد جذوره فى صميم التربة المصرية التى تمثلت فى قرية ميت أبو الكوم حيث ولد فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩١٨ ثم يمتد هذا النسيج العضوى ليعطى آفاق المستقبل حتى بعد ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ . وهو نسيج عضوى لأنه يمتاز بالتآلف والتناسق بعيداً عن التطورات الطارئة والتغيرات المفاجئة . وتلك أولى خصائص المنهج العلمى الذى يبعد كل البعد عن التناقضات التى تعوق تطوره المنطقى وتفقده ملامحه المميزة . وهذا المنهج هو الذى يكشف فكر السادات وفلسفته ليس فقط فى نظرية سياسية بل فى نظرية فكرية شاملة تحتوى على كل جوانب الحياة من سياسة واقتصاد واجتماع وثقافة وتعليم وحضارة .

والمنهج العلمى عند السادات يحتم عدم الفصل بين الأقوال والأعمال ، وهذا الاتجاه قد تأكد فى كتابه « معنى الاتحاد القومى » الذى صدر مع البدايات الأولى للثورة عندما يقول ص ٤ :

« فنحن نعمل بوحى فطرى تمليه علينا غريزتنا فى طلب الحرية والاستقلال والعيش فى سلام ، وكثيراً ما نعمل أولاً ثم نفلسف بعد ذلك ونفكر . »

نحن الآن فى مرحلة العمل ، فى مرحلة الكفاح الغريزى من أجل الحرية والبقاء ، ولهذا فأعمالنا تعتبر فى الوقت نفسه فكراً وفلسفة ، أو تعبر فى الوقت نفسه عن فكر وعن فلسفة . »

وكان السادات أراد أن يوجه هذا التنبيه المبكر إلى الأمة العربية لكى تدرك أن صوت الأعمال مهما كان خافتاً فإنه لا بد وأن يعلو على الأقوال الرنانة والألفاظ الطنانة . وأن أفضع مأساة يمكن أن تتردى فيها أمة هى أن تقول شيئاً بينما تفعل شيئاً آخر . وهذا الخط العلمى فى التفكير يمتد حتى عام ١٩٧٤ لكى يبرز فى « ورقة أكتوبر » عندما يقول السادات :

« إن أهم ما طرأ على منطق التعليم والبحث فى العالم هو زوال المسافة بين الفكر والعمل . وبالتالي لم يعد التعليم مسألة مقررات دراسية جامدة تقف مهمة التعليم عند استيعاب الطالب لها . ولكن أصبح التعليم مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بحركة المجتمع ، ومتطلباته . »

ومعنى ذلك أن التعليم والتثقيف العام صار لهما هدفان متلازمان :

الأول : هو إيجاد الفرد المتعلم المستنير ، بحيث يكون أكثر فهماً واتساقاً مع مجتمعه وعصره ، وأكثر قدره على استيعاب ثمار المعرفة الإنسانية والاستمتاع بها ، وأكثر فهماً للقضايا العامة فى بلاده وفى محيطه وبيئته التى يعيش فيها .

والثانى : هو تزويده بخبرة متقدمة محددة ، تمكنه من القيام بالدور الذى يتناسب مع هذه الخبرة فى شتى

مواقع العمل والإنتاج فى بلاده . »

وعلى هذا فإن المنهج العلمى لا يعنى سوى تطبيق العلم على العمل ، ولا شك فإن استمرار العلاقة العضوية بين

العلم والعمل هو أكبر ضمان لاطراد التقدم فى شتى المجالات . فالعلم الحديث لا يعنى التعقيد الأكاديمى الذى أغرم

به العلماء التقليديون ، وهو تعقيد وضع الكثير من الحواجز بين المعاهد العلمية والحياة اليومية وأوهم الكثيرين أن طبيعة الدراسة العلمية هي طبيعة معقدة لا يسهل عليهم هضمها أو استيعابها . وأدى هذا بدوره إلى نسيان حقيقة بسيطة ولكنها جوهرية وهي أن العلم الإنساني كله قد بدأ بملاحظة الحياة المعاشة في كل ظواهرها المتغيرة ، ثم تقننت هذه الملاحظة في نظريات ومفاهيم محددة . ولكن بسبب انفصال العلم عن العمل فإننا نردد في بعض الأحيان من المفاهيم ما لا ندرك كل أبعاده إدراكاً علمياً وموضوعياً . وفي كتابه « معنى الاتحاد القومي » يوضح السادات هذا القصور الفكري الذي يجب أن نتخلص منه فيقول :

« نحيا معنا الآن في لحظتنا التاريخية المجيدة الراهنة كلمات تتداولها ببساطة ، ونعبر بها عن أشياء كثيرة تدور في خواتمنا ولكننا قد لا نستطيع تحديد معناها أو الإحاطة بها إحاطة تفصيلية .

فكلمة القومية العربية مثلاً ، إن معناها الظاهري واضح وبسيط ولا يحتاج إلى إعمال فكر أو بحث تاريخي ، ولكننا نقولها ونحن لا نغني ذلك المعنى البسيط فقط ، إنما نحن نحاول أن نعبر بكلمة القومية العربية عن أشياء ومعانٍ ومدلولات كثيرة ندركها بوجودنا ، ولكننا لم نستطع بعد أن نحددها التحديد العلمي الواضح ، ولهذا فجعل البحث في مدلول كلمة القومية العربية وأبعادها في حاجة إلى دراسات ومؤتمرات وكتب كثيرة قبل أن نجرؤ على القول أننا قد أحطنا بها إحاطة كاملة » .

ومن الواضح أنه لو اتبعنا المنهج العلمي الذي نادى به السادات في الخمسينيات لكان من الممكن تفادي النكسات التي تعرضت لها الأمة العربية في الستينيات وبلغت ذروتها في هزيمة ١٩٦٧ . فالمنهج العلمي هو الأداة الحاسمة التي تجنبنا الدخول في متاهات وطرق جانبية تشتت الانتباه وتضيع الهدف وتعمم الرؤية . والسياسة بالذات من العلوم الحديثة الحافلة بهذه المتاهات التي يتعرض لها العاملون بها ، فتعقيدات العلم التقليدي قد تغرى الدارس بالجري وراء التفاصيل الثانوية وترك جوهر القضية دون أن يتناوله بالمعالجة . ولذلك يجب على المشتغل بالسياسة أن يمتاز بوضوح الفكر قبل أن يتبحر في تفاصيلها وتفريعاتها . وخاصة أن السياسة من العلوم التي تحتاج إلى تطبيق مستمر على الواقع ، وهو واقع قد يتغير من يوم إلى آخر ، بل من ساعة إلى أخرى . والسياسي الذي يعتمد في حكمه وتقييمه للأمور على مقاييس ثابتة لا بد سيجد نفسه عاجزاً عن استيعاب المتغيرات المتلاحقة والمتشابكة للمشكلات الراهنة . وهذا يؤكد أن العلم الذي يعجز عن ملاحقة تيار الحياة لا بد أن يوضع في المتحف ، لأن الحياة تفرض نفسها دائماً على العلم وليس العكس . وما العلم إلا محاولة منهجية لفهم الحياة وإدراك أبعادها . وقد أوضح السادات هذا المفهوم في كتابه « قصة الثورة كاملة » عندما قدم تعريفاً منهجياً لمفهوم السياسة ص ١٠ :

« ما هي السياسة ؟ هل هي علم يدرس ، مثل الميكانيكا ، أو مثل الطب والكهرباء ، فينبغ فيها الأذكياء ، ويتبحر فيها ذوو المواهب ويمارسها أصحاب الكفاءات ويعرف أسرارها خريجو المعاهد التي تدرس فيها السياسة كما يدرس الطب والكهرباء ؟

ولكي نناقش المسألة ببساطة أكثر أقول : هل السياسة مهنة أو حرفة يمارسها المرء ، مثلما يمارس أى عمل آخر ، تخصص فيه وفهم قواعده ؟

إذا قال لك أحدهم إن فلاناً هذا سياسي داهية ، وألمحى لا يشق له غبار ، فلا تستمع على الإطلاق لهذا الكلام ، لأن السياسة ليست حرفة يجيدها إنسان ويصبح عالماً بخبائرها ، بينما يفشل فيها آخر !

صحيح أنه توجد في كل بلاد الدنيا معاهد تدرس فيها السياسة وعلوم السياسة ، لكن تلك المعاهد لا يتخرج منها ساسة على الإطلاق . . بل يتخرج منها موظفون يحدد لهم العمل الذي يقومون به ويظل عملهم ثابتاً لا يتغير ،

بينما العالم من حولهم يدبر شئونهم ويغير من نظمهم .

فمن هم الساسة الحقيقيون ؟

إنهم الشعب . . !

فالساسة هم الحاجة . . والشعور بالحاجة هو الذى يدفع المرء إلى الكفاح من أجل تحقيق حاجاته . . هنا تصبح المسألة سياسة ! » .

بهذا الوضوح الفكرى يعرف السادات السياسة بعيداً عن التعقيدات الأكاديمية والسفسطة النظرية . فالمنهج العلمى يحتم الموضوعية ، أى تثبيت البحث على الجوانب المتعددة للموضوع المطروح . ويذكر لنا العالم الفرنسى جوزيف لالاند أننا نطلق إصطلاح « المنهج العلمى » على مجموعة من المعارف والأبحاث التى وصلت إلى درجة كافية من الوحدة ، والضبط والشمول ، بحيث تفضى إلى نتائج متناسقة ومتماشية مع البدايات الأولى . فلا تتدخل فى ذلك أذواق الدارسين ومصالحهم الشخصية . إنما هناك ثمة موضوعية خالصة تؤيدها مناهج محددة للتحقق من صحتها . والسياسة الناجحة تعتمد على هذه الموضوعية العلمية . صحيح أنها قد تعتمد فى بعض الأحيان على مناهج محددة ، ولكن هذه المناهج قابلة للتغيير إذا حتمت المشكلات الراهنة مثل هذا التغيير . أى أن السياسة علم وفن فى نفس الوقت ، وأنشاط فكرى ينهض على جانبيين : أحدهما علمى والآخر تطبيقي .

والعلاقة العضوية بين الجانبين لا توجد فقط فى علم السياسة بل يسهل تتبعها فى العلوم التجريبية الأخرى ، فبين العلم والتكنولوجيا ارتباط وثيق ، فالتكنولوجيا تعتمد على العلم ولا تعدو أن تكون تطبيقاً له . بل إن العلم نشأ أول ما نشأ من النشاط التكنولوجى ، وانبثقت أصوله من القواعد العملية . وليس من شك فى أن الصعوبات التى تواجه فى التطبيقات هى فرص لتحقيق التقدم العلمى . وقد قيل إن معظم مكتشفات لويس باستير الهامة يرجع الفضل فيها إلى المشكلات التطبيقية التى واجهته . وعلى هذا يقول السادات فى نهاية الباب الثانى من « ورقة أكتوبر » :

« إننا نرفض دعاوى الجمود باسم التمسك بالمبادئ . فنحن الذين صنعنا مبادئنا ونحن القادرون على تطبيقها التطبيق المناسب للظروف الجديدة ، ولكننا نرفض بنفس القوة الدعوة إلى التخلي عن المبادئ التى ارتضاها شعبنا بحجة تغير الظروف . فالمبادئ الأساسية لا تتغير بتغير الظروف وإلا لما كانت ترقى لمستوى المبادئ ، وإنما الذى يجب أن يتغير هو التطبيق » .

والعلم الحديث لا ينى عن تركيز الانتباه وحصر العناية فى تطبيقات العلم ، فهو لا يعترف أن غايته ينبغي دائماً أن تكون المعرفة لذاتها . فالغاية النظرية والغاية العملية للعلم غايتان متلازمتان متكاملتان . ولذلك لا يحمل بنا أن نناقض بين المعرفة التطبيقية والمعرفة العلمية ، بحيث نقول - كما قال القدماء - إن المعرفة التطبيقية تنصب على المحسوس وهدفها العمل ، بينما المعرفة العلمية تبعد عن كل اهتمام عملي تطبيقي ، وتبغى إدراك الحقيقة على مستوى الأفكار الخالصة المجردة . ففى العلم الحديث لا تنفصل النظرية عن التطبيق . ومن ثم فليس بينهما اختلاف فى الطبيعة ، ففى إحدهما كما فى الأخرى ، يبدأ الإنسان من الإحساسات ، ويكتشف بين الكيفيات التى يدركها علاقات ثابتة أو قوانين ، وتتيح له هذه القوانين بالتالى أن يمارس نشاطه العلمى .

ومن الواضح أن الملاحظة والفروض والبراهين ، التى يعتمد عليها المنهج العلمى ليست بالخطوات الجديدة على الفكر الإنسانى . ولكن بينما تستخدم هذه الخطوات فى معظم الأحيان بطريقة تلقائية ، فإن المنهج العلمى يقوم بتنظيمها وتنسيقها ولا يعتمد عليها عفواً ، بل يقصد إليها قصداً ، وتطبق بغاية الدقة والانتباه والحيطة . ولقد نوه رينيه ديكارت بأهمية المنهج العلمى وضرورته ، فليس يكفى أن يكون لدينا عقل سليم ، بل ينبغي أن نستخدمه استخداماً

سليماً . وإذا كان ثمة اختلاف بين الناس في مستوى الذكاء ، فلا يرجع هذا إلى تفاوت في ملكاتهم الطبيعية ، وإنما إلى اختلاف المناهج التي يتبعونها .

ولكل علم منهجه الخاص به ، أى لكل علم القواعد والعمليات المرتبطة بطبيعته ، والتي تتيح له أن يحصل على المعرفة الصحيحة في طريق بحثه عن الحقيقة . ومن الملاحظ أنه أياً كان المنهج المتبع ، فإن العقل يستبدل بالمعارف المختلطة التي تزوده بها التجربة ، مبادئ دقيقة مؤلفة من عناصر محددة وواضحة . إن العقل يحلل الواقع إلى عناصر يمكنه بفضلها أن يعيد تأليفه . فالعمليتان الجوهريتان لكل علم هما التحليل والتأليف . وقد قيل إن كل معرفة هي تحليل بين تأليفين : التأليف الأول هو بمثابة ضوء يسطع على الكل فيوضحه ، والتأليف النهائي هو الدقة والتحديد والتميز .

ولكن العقل الموضوعي لا يمكن أن يتحول إلى أداة باردة لا تحس ولا تشعر ، فالنفس البشرية قد جبلت من عقل وعاطفة . وعلى العقل البشرى أن يتحكم في العاطفة ويحيلها إلى طاقة دافعة وبناءة ، وكلما ازداد تحكم العقل كان هذا إيذاناً ببلوغ الإنسان أرقى مراتب الموضوعية . ورغم أن الشعب المصرى معروف بعواطفه الجياشة وانفعالاته الصاخبة إلا أنه قادر على تحويل هذه العواطف والانفعالات إلى طاقة عاقلة ومنطقية في أوقات المحن والأزمات ، وهذا ما عناه السادات في خطابه أمام مجلس الأمة في ٧ أكتوبر ١٩٧٠ بعد وفاة عبد الناصر عندما قال :

« إن الأيام الماضية ، في حياتنا كانت أيام حزن عظيم ، ولكن هذه الأمة الخالدة استطاعت بصمودها الفذ أن تحول مشاعر حزنها العظيم إلى طاقة قوة عظيمة ، فخرجت من كل ما عانت بأسرع مما قدر أحد ، وقررت وصممت وحسمت » .

هذا هو المنهج العلمى الكامن في الشخصية المصرية التي استمدت مقوماتها الأساسية من حضارة إنسانية تعد الحضارة الأم لكل حضارات هذا العالم . وإذا كان هذا المنهج يسمح بوجود العاطفة فلا يعنى أنه يسلس لها القياد ، بل إن هدف السادات الفكرى هو التأكيد على خاصية التعقيل أو العقلانية في الشخصية العربية بصفة عامة ، وخاصة أن المنهج العلمى هو لغة العصر بالنسبة لكل دول العالم المتقدمة ، أما العاطفة فأصبح مجالها الفنون بصفة عامة . والسياسة - كعلم حديث - لا تحتل شطحات العاطفة التي غالباً ما تتبخر تحت شمس الحقائق العلميه الراسخة . ومهما بدت العاطفة قوية ومشحونة ومتدفقة في أول الأمر فإنها سرعان ما تتبدد إذا لم يضع لها العقل العلمى المنهج الذى ينظمها ويستفيد من طاقاتها المشتتة . وفي هذا المعنى يتحدث أنور السادات إلى مجلة « تايم » الأمريكية في ١٣ مايو ١٩٧٤ فيقول :

« أشعر أننى لا أستطيع أن أكون مفهوماً بالنسبة للآخرين في عالم اليوم ، مالم أستخدم نفس الأساليب التي يفهمها الناس في بقية أجزاء العالم . إننا نحن العرب سريعو الانفعال . نفور بسرعة ثم نهدأ . ولكننا هنا في مصر الآن ، نستخدم لغة يمكن فهمها في جميع أنحاء العالم . والإنسان اليوم يجب أن يكون إنسان عالمه المحيط به . إننى أقول ما أعنى ، وأعنى ما أقول ، لا استناداً إلى عاطفية فوارة ، بل على أساس من التقدير العاقل للأمور . وليس صواباً ما يقال من أننا ننتهج أساليب تختلف عن تلك التي ينتهجها العالم العربى . ولكننا نحاول أن نقنع إخواننا العرب بانتهاج الأساليب التي يمكن للعالم أجمع أن يفهمها » .

ولذلك نجد السادات ينادى في مناسبات عديدة أنه ضد التشنج ، بمعنى أن صراع الحياة لا يكون ناجحاً إلا إذا رجحت كفة العقل ، لأن العاطفة غالباً ما تدخل في طرق مسدودة ومتاهات جانبية مما يضيع الوقت ويشتت الجهود ، وضياح الوقت والمجهود يعنى أن الآخرين يسبقوننا في مضمار الصراع بمسافات مضاعفة . فالوقت الذى لا نكسبه لا بد أن نخسره بمعنى أنه لا توجد منطقة محايدة بين الكسب والخسارة في صراع الحياة . وأى مفكر لا بد

أن ينظر إلى هذه الاعتبارات بعين الفحص والدرس . وهى الاعتبارات التى ركز عليها أنور السادات عند توليه رئاسة الجمهورية . فنجدته يقول فى ذكرى الأربعين لجمال عبد الناصر فى ٦ نوفمبر ١٩٧٠ :

« بدأت الحركة الإيجابية بما فيها من إمكانية الصواب والخطأ . . بما تحمله من قدرة العقل أو وحدة العاطفة . . بما يدفعها من رؤى المستقبل أو بما يشدها من رواسب الماضى .

ذلك هو صراع الحياة الذى لا نستطيع - مهما تمنينا - أن ننسى اعتباراته وأحكامه وضروراته مهما كان بعضها ثقيلا علينا ونحن نعيش فيه ونعانى تفاصيله بينما هى تجرى أمامنا » .

فالمنهج الموضوعى هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى التقدم الحضارى ، وهنا يلتقى السادات مع الفيلسوف الإنجليزى برتراند راسل الذى ينظر إلى التقدم الحضارى من ناحيتين : الأولى فردية والثانية اجتماعية ، فالتقدم الحضارى يتمثل فى الفرد فى صفاته العقلية والعاطفية . فلا بد للفرد من الناحية العقلية من قدر معين من المعارف العامة ، والمهارة الفنية فى مهنته ، وعادة تكوين الرأى بالشواهد والدلائل ، ولا بد له من الناحية العاطفية من قدر معين من الحياد الموضوعى ، والرحمة بالآخرين ، وشئ من ضبط النفس والبعد عن التشنج . أضف إلى ذلك صفة لا هى بالعقلية ولا بالعاطفية ، بل ربما كانت فسيولوجية ، وهى صفة الإقبال على الحياة والاستمتاع بها . ومن مطالب التقدم الحضارى فى المجتمع سيادة القانون ، والعدالة بين الناس ، وأهداف لا تنطوى على إلحاق الأذى بأى قطاع من قطاعات الجنس البشرى ، والتوفيق بذكاء بين الوسائل والغايات .

ويرى برتراند راسل تطبيقاً لمنهجه العلمى فى دراسة السياسة والسلوك الإنسانى ضرورة الإحاطة بكل الارتباطات بين إحساسات الإنسان وانفعالاته وعواطفه ورغباته ، وبين ما ينبغى أن يكون عليه سلوكه الإنسانى من نصيح واتساق وضبط . فليس من المستطاع تخيل الإنسان وقد خلا من الرغبة والانفعال والعاطفة ، فلو فعلنا لقات علينا دقة تقدير السلوك الإنسانى تقديراً علمياً سليماً . إن فى الإنسان صراعاً لا محيص عنه بين العقل الموضوعى والعاطفة الذاتية . ومع كون حياة الانفعال حياة خطيرة على الإنسان فرداً وجماعة ، فليس فى وسعنا مع ذلك أن ننكر ما للشحنة الانفعالية فى الإنسان من قيمة عظيمة ، إذ لو وجهت التوجيه الصحيح لأفضت به إلى أن يقف مواقف حضارية وإنسانية منقطعة النظير . إن الإنسان يقف بين طرفين : طرف العاطفة والانفعال والاندفاع وطرف العقل والحكمة والانضباط ، وليس من شك فى أن سعادته مرهونة بتحقيق التوازن داخله بين الطرفين . وفى رأى برتراند راسل أن الحل الوحيد للكثير من متاعب الإنسانية يكمن فى سيادة المنهج العلمى والروح الموضوعى ، وليس يعنى به نمو البراعة وتقدم المهارات فى الأجهزة والتكنيك ، وإنما عادة الحكمة بالاستناد إلى الدليل والبيئة . إن العلم للخير والشر على حد سواء وعلى الإنسان أن يختاره للخير بالتشرب بالروح العلمى . فالمنهج العلمى له أخلاقياته الخاصة به ، وهذه الأخلاقيات تتمثل فى الموضوعية المجردة الخالصة . ومن هنا كان إعجاب أنور السادات بشخصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد سأله قارئة على صفحات مجلة « التحرير » فى ١ مارس ١٩٥٤ عن الشخص الذى كان مثلاً وقدوة له ، وماذا أعجبه فيه حتى اتخذ مثلاً ، فأجاب :

« إنه بلا شك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عرفته وأنا أقرأ له فى ظروف كانت نفسى فيها منهوكة خائرة ، نعم خائرة ، فما راعنى إلا قوة هذا الرجل الرائعة فى مختلف الاتجاهات . كانت نفسه قوة ، وكانت روحه قوة ، وكان خلقه قوة ، ولكن ، لم تكن كل هذه القوى من ذلك النوع الذى يتضارب فينتج الخير مرة والشر مرة أخرى ، وإنما كانت قوى منسجمة متوافقة ، جعلت من حياة هذا الرجل وتصرفاته أسطورة خالدة فيها العدل وفيها الصراحة وفيها الصبر وفيها الإيمان القوى المطلق نحو قبيلته فى الجاهلية ، ثم تحول هذا الإيمان بعد الجاهلية إلى الله وإلى الدين ،

وإلى كل ما هو كريم وشريف على ظهر هذه الأرض .

لقد كان هذا الرجل يسيطر على نفسه دائماً ويبدأ بها . . . ففي المجاعة جاع وهو أمير الناس بأشق مما جاعوا ، وفي أهله أقام الحد على ابنه بنفسه حينما أخطأ كأقسى ما تقام الحدود ، ثم بكاه بعد أن مات من قسوة هذا الحد بكاء أب كريم حبيب يعرف حلاوة الأبوة ، ويعرف أيضاً واجبه أمام الله ، وأمام الناس الذين ولاه الله أمرهم ليسلك بهم أسلم الطرق فما حاد أبداً عن الطريق المستقيم .

والسادات من المفكرين الذين ينتهجون مسلكاً معيناً متى اقتنعوا بالفكرة ، الكامنة وراء هذا المسلك ، فالمنهج العلمى عنده يحتم عدم الفصل بين الفكر والسلوك ، بل إنه لا يوجد فكر بدون سلوك يترجمه ويجسده أمام الناس ، فإعجاب السادات بعمر بن الخطاب ليس لمجرد الاستمتاع الفكرى المجرد ببطولته ومثاليته ولكن لاقتناعه أن هذا السلوك الموضوعى الصارم لابد وأن يتبع حتى ولو كان على حساب السعادة الشخصية للإنسان . وهذا يذكرنا بموقف السادات من استشهاد أخيه الأصغر عاطف السادات في حرب أكتوبر ، فعاطف عنده لم يكن سوى أحد الطيارين الأبطال الذين استشهدوا من أجل تحرير مصر ، وكلهم أبناء الزعيم السادات كما قال عندما سمع نبأ استشهاد أخيه . وهذا قمة الموضوعية المجردة والضبط الصارم لعواطف الإنسان الفطرية . هكذا ترجم السادات فكره الموضوعى إلى سلوك مادى ملموس ، وهذا يدل على أن المنهج العلمى الصارم كان الرائد له فكراً وسلوكاً .

والتنفيس عن العواطف المكبوتة صحى طالما أنه لن يأخذ زمام المبادرة من العقل . فإذا سيطرت العاطفة فلا مكان للعلم في حياتنا لأننا لن نجد لغة مشتركة نتخاطب بها . وقد استفاد الاستعمار البريطانى من هذا بحيث وقف بالمرصاد لكل محاولة علمية للتخلص منه ، أما الطفرات العاطفية فكان يترك لها العنان كنوع من التنفيس عن مرسل العواطف المكبوتة ، وكانت هذه الطفرات تنهى من نفسها في أغلب الأحيان عندما يتم التخلص من الشحنة المكبوتة . أما إذا بدت في الأفق أية بوادر منهجية لتنظيم الشحنة العاطفية وتحويلها إلى ثورة بالمفهوم العلمى فإن الاستعمار البريطانى يبادر على الفور إلى وضع حد لكل شيء . ولذلك يوجه السادات نصحه دائماً إلى أجيال الشباب بأن تهتم بالمنهج العلمى أولاً وقبل كل شيء ، وخاصة أنه كثيراً ما يقع الشباب أسيراً لعاطفته الجامحة فينسى الهدف الرئيسى من حياته العلمية وقد ينتهى به الأمر إلى تدمير نفسه إذا لم يجد ما يدمره . فالعاطفة نارتأكل نفسها في نهاية الأمر إذا لم تجد ما تأكله في طريقها . ولذلك فهى ضرورة حتمية أن تنظم هذه العاطفة الفطرية داخل أطر علمية ومقاييس موضوعية ومناهج مدروسة وذلك بالتوفيق بين الوسائل والغايات ، فلا يعقل مثلاً أن يقوم الشباب بمظاهرة مخربة منادين خلالها بالبناء والتعمير . فالسلوك لا يجوز أن ينفصل عن الفكر . وفي ٤ أكتوبر ١٩٥٤ كتب السادات على صفحات جريدة « الجمهورية » يعبر عن رأيه في حيرة الشباب بين العاطفة والعقل ، بين الاندفاع والتفكير ، بين الذات والموضوع ، فيقول :

« منذ وقت طويل وأنا أريد أن أتوجه إلى إخوانى وأبنائى من الطلبة بالحديث . .

فأريد أن أحدثهم أننا اليوم غيرنا بالأمس . . فإن الثورة قد غيرت ضمن ما غيرت واجب كل واحد منكم

نحو بلاده . . .

كنا فيما مضى ونحن طلبة نستقبل العام الدراسى وكلنا أمل أننا بتجمعنا في المدرسة نستطيع أن نعلن سخطنا بالأحزاب على الأوضاع القائمة ، وكان يلذ لنا أن نخرب في هذه المظاهرات كل ما يقع بين يدينا . . .

وأذكر ذلك اليوم من سنة ١٩٣١ حينما خرجنا في مظاهرة ضد صدق وأخذنا نحطم القوانين وعربات الترام لا لشيء إلا لأن حكم صدق كان ضد إرادة الشعب . . ولقد كان الهدف صحيحاً ولكننى أعترف اليوم أننا كنا

نخطئ في تطبيق الوسيلة بالتخريب . . .

أما اليوم وقد أصبح حكم مصر في يد أبناء من صعيد مصر وريفها ، وقضى إلى الأبد على أولئك الذين احترقوا السياسة قرابة نصف قرن فائروا وأثرت محاسبيهم والأصهار . . .

قضى على كل هذا إلى الأبد . . .

وأكثر من ذلك فإن العقدة الكبرى في حياتنا ، قد حلت بحمد الله وتوفيقه باتفاق الجلاء . .

فما هو واجبكم اليوم ؟

إن كفاحكم يجب أن يستمر . . . ولكن على صورة أخرى . . يجب أن يكون كفاح عقول ، وكفاح نبوغ وتحصيل ، وأنتم تقرءون كل يوم عما يحدث في البلاد الأجنبية من كشف واختراع وابتكار أساسه كل المجهود الشخصي ولا أظنكم تجهلون أن مصر في هذه الحقبة من تاريخها في حاجة قصوى إلى عقولكم ومبتكراتها وإلى جهودكم ومخترعاتها . . .

لقد تخلفنا طويلا عن ركب الحضارة . . لا لعب في تكويننا أو لنقص في عقولنا ، وإنما لأننا انصرفنا بمشاكلنا الخاصة عما يجب أن نؤديه نحو وطننا . إن معركة الحرية التي بدأت منذ قيام هذه الثورة لن تثمر ، ولن تصل بهذا الشعب إلى مكانه اللائق إلا بالجهد المتضافرة من كل فرد يعيش على أرض هذا الوطن .

وإن مسئوليتكم في إتقان الدرس والتحصيل تساوى تماماً مسئولية الحاكم في رعاية العدل والمساواة . «

يقول السادات هذا الكلام لأن الاستعمار كان قد آل على نفسه أن يدمر كل محاولة جادة للعلم والتعليم ، فقد استطاع المستعمرون استخدام بعض العقول الضيقة في محاربة العلم والقضاء على الثقافة الحقيقية ، ووقف انتشار التفكير العلمى . وقد تقدمت هذه العقول الضيقة إلى المواطنين بالقشور دون اللباب ، وساهمت مع المستعمرين في إخفات صوت العلم والفكر والمنطق وترويج الجهل والسطحية . فقد أدرك الاستعمار أن العبودية الفكرية بماتحملة من عقد ومركبات نقص أخطر بكثير من العبودية السياسية ، وعبودية الفكر أخطر سلاح موجه ضد التأصيل القومى والعقل الخلاق والنظرة الابتكارية . ولذلك تحول التعليم إلى مجرد تلقين للنظريات والقواعد العلمية دون محاولة فهم المنهج الذى أدى إليها أو الذى يمكن أن يطورها فيما بعد . وكان نتيجة ذلك أن اقتصر دورنا على دور المتلقى السلبي وانتفى من حياتنا دور المفكر الإيجابي الذى تنهض تجربته الحضارية على الأخذ والعطاء . فكان من المؤسف أن نعيش حالة على الحضارة العلمية في الغرب بينما تنهض أسس هذه الحضارة الحديثة على ما قدمته الحضارة المصرية والعربية من قبل . فقد تمكن الاستعمار من كبت الروح العلمى وهو الشرط الأساسى لكل تقدم حضارى حقيقى .

والروح العلمى هو الحافز الذى يدفع العالم إلى البحث ويهديه إلى النظر السليم ويساعده على الريادة العلمية والإنجازات التى يمكن أن يضيفها إلى ما سبقه في الميدان العلمى . ويقتضى الروح العلمى في العالم أن يجمع إلى دقة الإحساس وعمق الملاحظة وطول الدأب والمثابرة ، صفاء الذاكرة ونفاذ التأمل والقدرة على التجريد وصرامة الحكم . هذا بالإضافة إلى الصبر والنزاهة والشجاعة والإخلاص والإنصاف . وغاية العلم هى تحديد طابع الأشياء لا في علاقاتها بنا بل في علاقاتها بعضها مع البعض الآخر . فالروح العلمى يقتضى تنحية كل اعتبار ليس له علاقة بالجهد المبذول نحو الموضوعية المتجردة ، وخاصة الاعتبارات الانفعالية أو العقائدية ، ولذلك يخطو الباحث العلمى بتؤدة وتبصرون عن يقين وتثبیت فالروح العلمى هو في صميمه روح نقدى لا يعتمد على التلقى السلبي ، والعالم لا يروم المعرفة فحسب بل يبغي الفهم والاستيعاب والاقتناع أيضاً . وليس في وسعه أن يتقبل الوقائع كمعطيات تجريبية قائمة ، وإنما يتطلع إلى سبر غورها وإدراك كنهها ، وبفسيرها يخضعها للفكر . فهو يجمع بين الموضوعية أى تسجيل خصائص الظواهر

كما هي عليه ، وبين المعقولة ، أى صياغة هذه الخصائص صياغة عقلية محكمة . وهذان الهدفان هما اللذان يبعثان الحياة فى الروح العلمى .

وقد يبدو أن ثمة تعارضاً بين معرفة العالم ورده إلى الفكر الخالص إذ قد يعنى رده إلى الفكر رده إلى ذاتيتنا ، وفى هذا مجافاة للموضوعية ولكن هناك مسلمة عامة تسقط هذا الاعتراض ، وهى أن هناك اتساقاً بين نظام الأشياء ونظام العقل . وفى هذه المسلمة تعبير عام عن مبدأ الحتمية الذى ينهض عليه العلم . ونظراً لإيمان السادات العميق بالمنهج العلمى فإنه يؤكد أن التشرب بالروح العلمى هو الشرط الأساسى للتقدم الحضارى ، فالمنهج العلمى لا يفرض من الخارج بقدر ما يتولد من الداخل . صحيح أنه من الضرورى الاستفادة من آخر المنجزات العلمية فى العالم حتى نعيش على مستوى العصر ، ولكن هذا لا يكفى . فلا بد من استيعاب هذه المنجزات وسبر غورها وإدراك كنهها واستخراج المنهج الذى أدى إليها . بعدها يمكن تأصيل هذا المنهج ومد جذوره فى الفكر القومى . وهذا ما نادى به أنور السادات فى بيانه إلى مجلس الشعب فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ فى البندين السابع والتاسع من البيان . يقول فى البند السابع :

« إن علينا أن ننتفتح على آفاق التقدم ، ذلك أن الحواجز فى عالمنا الجديد لن تكون حواجز بين الألوان أو الأجناس ، وإنما سوف تكون الحواجز بين التقدم والتخلف ، والعلم يجرى بسرعة خارقة . ونحن لا نستطيع الاكتفاء بالحديث عن العلم دون أن نخوض عوالمه وإلا كنا نكتفى بتشخيص المشكلة ونستغنى فى ذلك عن علاجها .

نحن أكثر من غيرنا لا أمل لنا إلا فى العلم . ونحن أكثر من غيرنا مدعوون إلا الأخذ بأسبابه . وتلك ضرورة لا يصنعها اتفاق ذلك فى حاضرتنا مع ماضى حضارتنا فقط ، وإنما هى ضرورة تصنعها حتمية أن تتفق آمالنا العريضة مع منجزاتنا الحقيقية .

وأول خطوة على هذا الطريق هى التعليم ، الذى يجب أن نتقل به بأسرع ما يمكن ، من بقايا القرن التاسع عشر إلى آفاق عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء . »

وفى البند التاسع من نفس البيان يقول الزعيم :

« عن طريق استيعاب كل ما قدمت ، وعن طريق تفهمه فإننا نستطيع أن نقول أنه سوف يكون بإمكاننا أن نقيم على هذه الأرض دولة عصرية لا يكون الحديث فيها عن العلم والتكنولوجيا مجرد شعارات ، ولكن يتحول فيها العلم والتكنولوجيا إلى أسلوب عمل . وإلى تحقيق عملى لأهداف مجتمع أمامه مسئوليات عظيمة وتملأه آمال أعمق . »

وليس أسلوب العمل الذى يتحدث عنه القائد هنا سوى المنهج العلمى الذى يربط ما بين العلم والإنتاج بطريقة عضوية ، فالتقدم الصناعى والحضارى فى أى دولة أصبح رهناً بتقدم البحث العلمى النظرى والتطبيقات فيها . وإن المشكلات التى يجب أن يتصدى لها البحث العلمى نفسه هى تلك التى تطرحها أساساً احتياجات الإنتاج وتطويره . وقد أصبح التسابق بين الدول فى مجال الإنتاج يستند إلى قدرتها فى السبق إلى الوصول إلى حلول للمشكلات العلمية التى تثيرها ضرورات تطور الإنتاج وسرعة وضع نتائج الدراسات العلمية موضع التطبيق الفعلى فى مجال الإنتاج . وقد ترتب على ذلك أن قدراً متزايداً من البحوث العلمية تنهض به الوحدات الإنتاجية ذاتها أو المعاهد والمنظمات التى ترتبط بالوحدات الإنتاجية وتتبعها عضوياً . وأصبحت قضية الإسراع بوضع نتائج الأبحاث العلمية موضع التطبيق العملى هى إحدى القضايا الهامة التى يتوقف على حلها مدى قدرة الدولة على إحراز قصب السبق فى ميدان تطوير الإنتاج ومضاعفته وتحسينه كماً وكيفاً .

وقد تعدت العلاقة بين العلم والإنتاج مرحلة مجرد استخدام المواد الخام الموجودة فعلاً في الطبيعة أو التي ينتجها العمل الإنساني مستخدماً الطبيعة في ذلك إلى مرحلة جديدة أصبح فيها الإنسان المعاصر قادراً على إنتاج مواد جديدة لها نفس صفات المواد الموجودة في الطبيعة أو ربما فاقتها في بعض الخصائص . كما استخدم الإنسان المنهج العلمي في التحكم في مواصفات الكثير من المنتجات الطبيعية ذاتها مما أدى إلى توفير المواد الأولية ذات الخصائص الملائمة للاستخدامات الجديدة والمتطورة بدلا من خضوع الأبحاث العلمية والعمليات الإنتاجية ذاتها لطبيعة المواد الخام التي تنبأها الطبيعة والتي كانت تفرض على الإنسان فرضاً . وقد كان هذا نتيجة لتطور البحث العلمي في مجالات الكيمياء والفيزياء والأحياء والكون مما أدى إلى حلول هذه المواد المتطورة بصورة متزايدة محل المواد الأولية الطبيعية في كثير من المجالات العلمية والإنتاجية على حد سواء .

وعندما يقول الرائد السادات إن العلم يجري بسرعة خارقة فإنه يقصد أن العلم ، في مجال الإنتاج ، قد تعدى مرحلة استبدال العمل اليدوي بالعمل الآلي إلى مرحلة جديدة تحل فيها الآلة لا محل العمل اليدوي للإنسان فحسب ، بل ومحل عمله الذهني أيضاً . فقد أصبحت الآلة قادرة على القيام بعمليات ذهنية بسرعات مذهلة وبكفاءة أعلى مما يستطيع الذهن البشري . وقد فتحت هذه الحاسبات الإلكترونية المجال واسعاً لاختيار أفضل المناهج العلمية ولحل مشكلات التحكم الآلي في الإنتاج ولوضع أحسن البرامج لعمليات الإنتاج المختلفة والتوزيع والنقل وغيرها . وبذلك أصبحت مشكلات البحث العلمي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتطور قدرات هذه الآلات الإلكترونية ، وأصبح الاتصال بين وحدات الإنتاج وفروعها قائماً على التنظيم التكنيكي المتكامل المترابط والذي لا يسمح بأى تشتيت للمجهود أو إضاعة للوقت أو تكرار لعمليات سبق القيام بها . فقد أصبح التخطيط المنظم حتمية ضرورية لا مفر منها ولذلك يقول الزعيم في لقائه مع أساتذة الجامعات في ٨ يناير ١٩٧١ :

« إن الوقت الآن هو للتفكير والتخطيط المنظم . إن مشاعرنا وعواطفنا لا تحتاج إلى من يستثيرها أو يحركها . إن المعارك الكبرى واللحظات الفاصلة تحتاج بعد الإيمان العميق بالهدف والاستعداد الكامل للبذل في سبيله ، تحتاج إلى التفكير المنظم ، وتحتاج إلى التخطيط الدقيق والقوى .

والقوة ، أى قوة مهما بلغ حجمها ، تصبح قوة عمياء إذا لم يكن المنظم لها تخطيطاً دقيقاً . والعمل ، أى عمل ، مهما بلغت قوة اندفاعه ، لا يصل أبداً إلى هدفه ، إذا لم يكن موجهه واندبر له موجهاً منظماً ودقيقاً . الفكر هو الأساس ، والتخطيط الدقيق هو الإطار » .

ويقصد الزعيم بهذا أن دولة مثل جمهورية مصر العربية تملك الإمكانية الفعلية لتنمية جيل علمي وفني قادر على الاستفادة من الإنجازات التكنولوجية للعصر وقادر أيضاً على المشاركة فيها ، مهما كانت هذه المشاركة محدودة . والتخطيط العلمي الدقيق يؤكد لنا أن تحقيق مثل هذه الاستفادة والمشاركة يقتضى إعادة تحديد الأولويات في عملية الإنتاج والتنمية وذلك بإعطاء العلم والبحث العلمي أهمية كبرى . فالمشاركة في الجهود المبذولة من أجل تحقيق التقدم العلمي هو شرط أساسي لتحقيق درجة من الاستقلال تقف فيها الدولة على قدم المساواة مع غيرها من الدول وتتبادل مع الغير ما يمكن أن تصل إليه من نتائج جديدة ومن معرفة فنية متقدمة . والشرط الأساسي لتحقيق هذا بالنسبة للدول النامية هو التخصيص في عدد محدود من مجالات الإنتاج . فالنفقات الباهظة للبحث العلمي تجعل من المستحيل على كل من الدول الصغيرة أو حتى المتوسطة أن تتحمل العبء الذي يمكن أن ينتج من عدم التخصيص والمنهج العلمي يوضح لنا أن خير تخصص للدول الصغيرة هو ذلك التخصص في المجال الذي تبتين فيه قدرات خاصة على المساهمة في تطويره وتقدمه . ولذلك فالمسألة - كما يقول السادات - ليست في حجم القوة ولكن في كيفية

استخدامها علمياً ومنهجياً .

والتركيز على بعض مجالات البحث العلمى والإنتاج القومى لا يعنى إغفالاً كاملاً لإنتاج العديد من السلع الأخرى والقيام بالأبحاث العلمية فى المجالات المتعددة ، ولكنه يعنى أن الدولة تعتمد فى هذه المجالات الأخرى على الاستفادة من الخبرة العالمية بينما تعمل على الوصول فى مجال تخصصها وتركيزها على مستوى من المعرفة والخبرة التى يمكن أن تصدرها للخارج . وهذا بدوره يمنح الدول النامية السياسة الدائمة ذات المدى البعيد التى تدعم الإنتاج حتى تشارك فى الإنجازات العلمية الصناعية ولا تكتفى بمجرد استبدال الواردات وتصدير المنتجات الخام كما هى أو نصف مصنعة . فما زالت مشاركة الدول النامية فى الأسواق العالمية للمنتجات الصناعية مشاركة قليلة وغير محسوسة وذلك راجع إلى أن نفقات التقدم التكنولوجى وتطوير البحث العلمى وتطويره والاستمرار فى تطبيقه يحتاج إلى نفقات واستعدادات باهظة ، وتكلفتها غالية ، ولكنها بكل المقاييس والمعايير الاقتصادية عملية مربحة ولا بد أن تؤتى ثمارها ، ويمكن بحسن الاختيار والإصرار على المنهج العلمى المناسب الوصول إلى نتائج عملية وإيجابية . ومثال على هذا ما يحدث فى سويسرا وبلجيكا وهولندا وهى دول لا تمتلك إمكانيات صناعية كبيرة ولكنها تعرف إمكانياتها القومية وتعرف أيضاً كيف تستغلها بالأسلوب العلمى الفعال .

ولكى يتحول العلم والتكنولوجيا إلى أسلوب عمل لتحقيق أهداف المجتمع - كما يقول السادات - يجب وضع الاستراتيجية التى تحدد مجالات البحث العلمى والإنتاج القومى على أسس اقتصادية ، وعلمية ، كما يجب الاقتناع بأنه لا يمكن دخول كل مجالات التكنولوجيا فى وقت واحد . واختيار هذه المجالات يعتمد على الإمكانيات المتاحة التى تختلف من بلد إلى آخر طبقاً لظروفها واقتصادها وحضارتها وخصائصها القومية بصفة عامة . وإذا كنا نريد الانتقال بالتعليم من بقايا القرن التاسع عشر إلى آفاق عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء فيجب وضع حد لعملية الانفصال بين الاندفاع إلى التعليم والعلم وبين الخبرة والتجربة العملية ، فالتحامهما معاً أمر حتمى تنهض عليه الثورة العلمية الخلاقة الأصيلة . وأما استمرار استيراد الآلات والخبرة ، والتدريب فى الخارج واستقدام الخبراء بغير تأصيل للتدريب المحلى فى البيئة والظروف الطبيعية التى تقوم فيها الصناعة نفسها ، فهذا اتجاه غير علمى لأن المنهج العلمى فى الإنتاج يحتم تطوير هذا إلى قدرة ذاتية نابعة من صميم الكيان الحضارى للأمة نفسها . . ومن هنا تظهر ضرورة توثيق الصلة بين مراكز الإنتاج الصناعى ومراكز التعليم والتدريب بكل أنواعها ومستوياتها المختلفة . ولذلك فإنه من الضرورى العناية بعناصر تطوير الإنتاج وترشيده علمياً عند إنشاء الوحدات الإنتاجية . فالعملية ليست مجرد المحافظة على استمرار الإنتاج ومراقبة جودته وإنما تتعدى إلى تطويره كماً وكيفاً حتى يتمكن من مواكبة العصر .

والتأصيل الفكرى الذى ينادى به السادات يؤكد لنا أنه لا يكفى لرفع مستوى الخبرة العلمية والتكنولوجية مجرد تدريب الأفراد سواء فى الخارج حيث مراكز الصناعة المستوردة ، أو فى الداخل حيث أقيمت الصناعة وبدأ إنتاجها ، ولكن المهم هو توصيل ما تحصل نتيجة التدريب إلى التطبيق الصناعى وإلا أصبح العلم ومعه التكنولوجيا حبيسة عقول العاملين يتكلمون عنها ولا يمارسونها ، ولهذا يوضح السادات أنه « بإمكاننا أن نقيم على هذه الأرض دولة عصرية لا يكون الحديث فيها عن العلم والتكنولوجيا مجرد شعارات » . ومع التسليم بأن نقل التكنولوجيا عن الدول المتقدمة لا يكفى وحده ، إلا أنه من الثابت أنه لا بد من عملية النقل أولاً ثم التأصيل ثانياً . ومن أهم شروط التأصيل القضاء على الانفصال القائم بين المجتمع الصناعى والزراعى فى مصر وبين المجتمع العلمى ، فقد تبين أن دفعات التقدم المتزايدة فى الدول الكبرى كانت نتيجة للعلاقة العضوية بين المجتمعات الثلاثة على أرض الواقع والتجربة العلمية المعاشة .

إن الترابط بين العلم والإنتاج الصناعى والزراعى قد أدى إلى زيادة كبيرة فى سرعة ظهور منتجات جديدة فى الأسواق العالمية وإلى سرعة ظهور وسائل وطرق جديدة للإنتاج ، إن بعض هذه المنتجات أو الوسائل ليست مجرد تحسينات طفيفة على أنواع من السلع قائمة بالفعل ، ولكنها تتضمن تغييرات أساسية فى طبيعة المنتجات وفى وسائل الإنتاج . وتشير بعض التقديرات إلى أن أكثر من ٨٠ فى المائة من المنتجات التى تباع فى الأسواق فى الدول المتقدمة صناعياً وزراعياً لم تكن ظهرت قبل نحو عشر سنوات ويزيد باستمرار المعدل الذى تظهر به المنتجات الجديدة فى الأسواق ووسائل الإنتاج الجديدة فى الصناعة والزراعة على حد سواء . وعلى هذا فسرعة التطور التكنولوجى تفرض على الوحدات الإنتاجية ضرورة متابعة التطور العلمى والتنبؤ بالتطورات المحتملة فى مجالات العلوم المختلفة باعتبار ذلك شرطاً أساسياً من شروط التخطيط الطويل الأجل الذى لا بد وأن تمارسه كافة المشروعات الضخمة إذا أرادت الاستمرار والنمو . وبدون هذا التنبؤ بالتطور العلمى المحتمل فإن كثيراً من المشروعات الحالية التى قد تحتاج إلى مقادير هائلة من الأموال ، قد لا تستطيع تعويض الاستثمارات التى حدثت أو يحتمل أن تحدث فيها بالفعل . وهذا معناه أن التخطيط الحالى للمشروعات لا يجب أن يأخذ فى الاعتبار التطور التكنولوجى الحالى فقط ، بل يجب أن يدرس احتمالات التطور العلمى المقبل فى عديد من المجالات العلمية وما قد يكون لهذه الاحتمالات من آثار على الإنجاز المتاح للمشروع فى المستقبل .

ولا شك فإن جزءاً هاماً من الإنفاق على البحث العلمى يتم عن طريق المشروعات فى خلال الفترة السابقة للإنتاج . فالإنتاج الحديث يحتاج إلى أبحاث علمية فى مجالات متعددة وهى أبحاث تستغرق عادة وقتاً وجهداً طويلاً نسبياً . وتتطلب الاستمرار فى الإنفاق عليها حتى ولو لم تصل إلى نتائج سريعة لأن أى توقف فى الجهود اللازمة لتطوير المنتجات أو للوصول إلى نتائج علمية جديدة تغنى ضياع الجهد السابق دون الاستفادة منه . فالاستمرار فى مثل هذا النوع من الإنفاق حتى ينجح المشروع فى تحقيق النتائج المرجوة هو وحده الطريق المؤدى إلى الاستفادة مما سبق إنفاقه من وقت وجهد . وقد ثبت عملياً أن المشروعات الأكثر قدرة على الانتظار هى فى نفس الوقت الأكثر قدرة على تمويل البحوث العلمية والاستفادة بنتائجها العملية . ولذلك فإن أفضل الوسائل لتمويل الإنفاق على البحوث العلمية هو التمويل الذاتى عن طريق المشروع ذاته . وهذا يعنى أن أقدر المشروعات على تمويل الإنفاق اللازم فى فترات البحث والإعداد هى تلك التى تعتمد على مصادرها الداخلية ومن هنا فإن المشروعات الضخمة التى تحقق ربحاً تجارياً مجزياً والتى تسيطر على أسواق عديدة هى أقدر من غيرها على توفير الأموال اللازمة للإنفاق على البحث العلمى . فمن المعروف أن وضع نتائج البحوث العلمية موضع التطبيق العملى وبدء الإنتاج الكبير لسلع جديدة على أساس الاستفادة من النتائج الإيجابية التى وصل إليها البحث العلمى ، تتطلب فترة طويلة ، من التخطيط والإعداد تشمل كثيراً من أعمال التصميم وحل العديد من المشكلات الجانبية التى لا بد وأن تبرز أثناء العمل ، وإجراء الاختبارات على المنتجات الأولية لتحسينها ودراسة اقتصادياتها وإمكان خفض تكاليف إنتاجها وغير ذلك من الدراسات اللازمة . وقد يقتضى تطبيق نتائج البحوث العلمية تطويراً فى أدوات الإنتاج المستخدمة فى المشروع نفسه وابتكار آلات وأدوات خاصة ، كما قد يتطلب تدريب أعداد جديدة من العاملين والفنيين . ولهذا يقول السادات فى خطابه إلى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى يوليو ١٩٧٢ :

« إن الدولة لا تملك فى مجال الثقافة أكثر من أن توفر سبيل التعليم ، وتبهيئ ظروف البحث العلمى ووسائل نشر المعرفة ، ويبقى بعد ذلك أن تطوير الثقافة هو من عمل المثقفين أنفسهم ، والمثقفون المصريون مطالبون بمزيد من الجهد من أجل بحث علمى أصيل يجعلنا نسهم فى تراث البشرية ببعض ما نأخذ منه ، وتكنولوجيا مصرية تغنى عن

اعتمادنا على الخارج ، وتستجيب لظروف بلادنا الخاصة .

وهذا يعني أن دولة المؤسسات التي نحرص عليها يجب أن تستفيد من هذه المؤسسات كل على حدة ، فإذا كانت الحكومة المركزية قد وفرت سبل التعليم والبحث العلمي فعلى عاتق المؤسسات يقع عبء تطوير التعليم والبحث العلمي لأن حاجة كل مؤسسة من البحث العلمي تختلف عن حاجة المؤسسات الأخرى بحكم اختلاف الهدف والوسيلة والطبيعة . ولا يعقل أن نتوقع من الحكومة أن تبحث لكل مؤسسة عن المنهج العلمي الذي يضمن تطويرها . فالحرية التي منحت لهذه المؤسسات حتى تتصرف طبقاً لأهدافها وخصائصها لا تعني الحرية في الحصول على الامتيازات ولكنها الحرية في تطوير وسائل البحث العلمي حتى تساهم المؤسسة في تقدم المجتمع ككل . وتنوع المؤسسات إلى درجة كبيرة يرجع إلى طبيعة العصر نفسه ، فهو عصر العمليات المعقدة والمتناقضة والمتغيرة التي ترجع إلى الثورة العلمية التكنولوجية بما تحويه من محطات للطاقة الذرية ، ومصانع تعمل آلياً بشكل كامل ، وطائرات فاقت ضعف سرعة الصوت ، وحاسبات الكترونية قادرة على حل أعقد المسائل الرياضية خلال ثوان . هذه كلها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس في عالمنا المعاصر .

والدولة التي ترغب في مواكبة العصر لا يجب أن تحمل الحكومة ما لا تطيق نظراً لطبيعة العصر المعقدة . هنا يبرز الدور الحيوي للمؤسسات المتخصصة التي نجحت في دول كثيرة أخرى في أن تجعل فداناً من الأرض يغل أكثر مما كانت تغله عشرة أفدنة في بداية القرن الحالي على سبيل المثال . وما ينطبق على الزراعة يكاد ينطبق تماماً على بقية فروع التخصص العلمي . فالعلوم عديدة وموضوعاتها متمايزة ومناهجها مختلفة . فبينما تستند العلوم الرياضية إلى البرهان ، تنهض العلوم الطبيعية والإنسانية على التحقق من الوقائع والاعتماد على التجربة . وتبلغ المعارف من التنوع حداً لا يزعم أحد معه أنه يستطيع أن يحيط بها كلها . ومن هنا نشأ التخصص فغداً لكل تخصص مجاله المحدد . ولئن كان للتخصص العلمي منافعه ، من حيث إن التخصص وحده يمكنه أن يخطو قدماً بمجال تخصصه ، فإن للتخصص من ناحية أخرى عيوبه . إذ قد يتحول البحث في إطار التخصص إلى روتين آلي ، وقد يغالى الباحث فيضخمه في أهمية المجال الذي تخصص فيه ، وقد يؤدي به هذا إلى إهمال سائر المجالات التي لم يتخصص فيها . وبذلك قد يقف التخصص حجرة عثرة في طريق التقدم العلمي . هنا تبرز أهمية التنسيق الاستراتيجي الذي يجب أن تقوم به الحكومة بين المجالس القومية المتخصصة بحيث يكمل عمل كل مجلس عمل المجالس الأخرى . أي أن دور الحكومة في الدولة العصرية يتركز في التخطيط العلمي الدقيق والدراسة الموضوعية الشاملة أما التنفيذ العملي فتتركه أمراً إلى المؤسسات على اختلاف أنواعها . والمنهج العلمي الحديث يحتم تنظيم الطاقة القومية - سواء كانت مادية أو فكرية - فيما بين الوحدات التي تخرجها إلى حيز التنفيذ حتى لا يحدث تكرار أو تشتيت أو تشويه أو تضيق . وما لا شك فيه أن دراسة الكثير من الموضوعات في مختلف المجالات الرياضية والمادية والإنسانية ، تتطلب الاستعانة بعلوم عديدة ، والتقدم العلمي ذاته ليس سوى ثمرة تضافر وتعاون بين العلوم . ولذلك على الرغم من ضرورة التخصص وأهميته يجب أن تكون هناك نظرة شمولية هي بمثابة واسطة عقد بين مختلف العلوم ، ويؤدي هذا بنا إلى فلسفة عامة تتجلى فيها وحدة المعرفة . وهي الفلسفة التي تخلق ما نسميه بالمنهج العلمي ، فالمنهج العلمي في صميمه قدرة عقلية على التخطيط السليم والتنظيم الهادف وفلسفة نقدية وتصحيحية لكل ما يطرأ على التخطيط من عيوب وثغرات . ذلك هو الروح العلمي الذي يجب أن نتحلى به وذلك هو العصر الذي يجب أن نعيشه بكل أبعاده سواء استمتعنا بحياة السلام أو كتب علينا صراع الحرب . ولذلك يقول السادات في كلمته في مؤتمر اتحاد الجامعات العربية في ٧ فبراير ١٩٧٣ :

« الأمة العربية - أيها الإخوة - تمتحن هذه الأيام امتحاناً رهيباً في معركتين ضاريتين .

معركة مع التخلف ، في عصر تغيرت فيه من حولنا الدنيا ، وقفزت أكثر الشعوب بالعلم والخبرة والتنظيم ، قفزات نقلتها من عصر إلى عصر آخر جديد تماماً . ورغم الجهود المضنية والصادقة التي تبذل في كل بلد عربي . فلا تزال أكثر شعوبنا واقفة على أعتاب العصر ، ولا تزال - رغم ضخامة الإنجازات في بعضها - قاصرة عن ملاقة مستوى الطموح العربي .

أما المعركة الثانية فهي معركة عدوان ماكر تلتقي فيه أكثر من مصلحة ، ويتعاون فيه علينا أكثر من حليف يعرفون جميعاً ما تنطوي عليه الأرض العربية من كنوز ومصادر للخير والنماء ، وما يزخر به العمل العربي من قدرة وخبرة ، وما تمتلئ به النفوس العربية من إصرار على اللحاق والسبق ، ويعرفون أن التقاء هذه العناصر كلها من شأنه أن يفجر في هذه المنطقة من العالم طاقة لا حدود لها ، وأن هذا التفجير حين يتم فسوف يكون لنا ولهم شأن غير الشأن الذي يحبون . لذلك كان التآمر ، وكان العدوان ، وكانت محاولات التجزئة ، ومحاولات احتلال الأرض ، ومؤامرات احتلال النفوس . ولعبت الصهيونية العالمية دورها المعروف لخدمة هذا التحالف العدواني ، جزءاً منه ، وطلبة له ، وشريكاً فيه . وكان ما كان من عدوان عسكري متكرر باركه وشارك فيه الاستعمار العالمي . ووقف العالم العربي كله يواجه الامتحان الرهيب لإرادته ولصلابته ولقدزته على خوض معاركه بسلاح العصر .

بهذا المنهج العلمي الدقيق يحلل السادات موقف الأمة العربية من متطلبات العصر ، وبنفس المنهج تم التخطيط لحرب أكتوبر المجيدة مما أدى إلى الانتصار الباهر الذي أذهل العالم المعاصر كله . فالمنهج العلمي يعمل في وقت الحرب بنفس الكفاءة التي يعمل بها في وقت السلم . فإذا كان العدو مدججاً حتى أسنانه بأحدث أسلحة العصر الاليكترونية فمن الطبيعي جداً أن نحاربه على مستوى العصر ، ولهذا يقول السادات في « ورقة أكتوبر » :

« من الخطأ الجسيم أن نقول عن العبور الظاهر إنه معجزة ، لأن المعجزة بطبيعتها أمر خارق يفوق الطاقات العادية للبشر ولا يمكن تكراره ، وإنما يجب أن ننظر إليه على أنه ذروة للعمل الوطني ، علينا أن نتمثل دروسه ، لكي نتخذه نمطاً ترتفع إلى مستواه كل جوانب العمل الوطني .

إن أعظم تقدير لأيام القتال المجيدة ليس التغنى بها ، وإنما استلهاهم معانيها لكي نحرز في مختلف مجالات العمل الوطني ما أحرزناه من نجاح في العمل العسكري .

ليكن شعارنا دائماً أنه ما دمنا قد استطعنا في ساحة القتال ، فإنه يجب أن نستطيع بنفس المستوى في كل مجال . إن المقاتلين هم صفوة من أبناء هذا الشعب . وما صنعوه في مواجهة العدو الشرس الغادر المدجج بالسلاح يستطيع أبناء هذا الشعب أن يصنعوه في مواقع الإنتاج والخدمات ، لتقهر التخلف ونتخلص من السلبات الموروثة ونؤكد بالإنجاز أن مصر أكتوبر هي مصر المستقبل .

إن النصر في أكتوبر لم يكن مصادفة ، ولم يحدث في غفلة من الزمان كما يريد العدو أن يوحي ، وإنما هو ثمرة عوامل كثيرة وأصيلة تجعله أمراً وارداً وطبيعياً وليس حدثاً فريداً .

والمنهج العلمي لا يستوعب هذه العوامل الكثيرة والأصيلة إلا في ضوء العمل الوظيفي لها ككل . وهذه العوامل كما يحللها السادات هي : الوطنية المصرية والقومية العربية ومنجزات ثورة يوليو وحركة التصحيح ووضوح الرؤية والاستقرار المعيشي والحرية السياسية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والتخطيط العلمي والإيمان الأصيل والممارسة الديمقراطية . وهذا التضامن بين هذه العوامل واعتماد بعضها على البعض الآخر في كل متسق هو الذي خلق إمكانية الانتصار العظيم . والمنهج العلمي لا يعزل عاملاً عن العوامل الأخرى بحجة تحليله في ضوء مستقل وموضوعي خاص

به ، لأن لكل عامل مغزى ، ولا يفسر هذا المغزى إلا في ضوء الصورة الشاملة ، فالحدث السياسى لا يفسر إلا من خلال النسيج التاريخى الممتد من الماضى إلى الحاضر . والسلوك الفردى لا يحلل إلا في ضوء حركة المجتمع المعاصر . والتنبؤ بالمستقبل لا ينهض إلا على استيعاب دروس الماضى مع تجنب سلبياته وتأکید إيجابياته . فلا ينبغي الاعتقاد بأن المنهج العلمى يصل - حتى في مجال المادة - إلى إعادة بناء دقيقة للعالم من عناصر بسيطة وعوامل منفصلة . فالطبيعة الحديثة لم تعد ترى الذرة متجزئة ، بل هى مركبة من علاقات ، وأى عامل في الوجود هو نسيج من علاقات متشابكة ومتلاحمة ، والطبيعة نسيج سداه علاقات ولحمته صفات . ولذلك فإن انتصار أكتوبر المجيد كان الامتداد العضوى للمنهج الذى درس القضية تحت ضوء تحليلى شامل واستطاع أن ينطلق إلى المستقبل اعتماداً على إيجابيات الشخصية المصرية وتجميع طاقاتها المشتتة . فالأمر ببساطة أن كل العوامل والعناصر والظواهر في الطبيعة لها خصائص ميكانيكية أو فيزيقية أو كيميائية أو بيولوجية أو فكرية . . إلخ وهذه الخصائص لها علاقاتها وقوانينها المستقلة عن الإرادة والضمير الإنسانى . ولكن في استطاعة الإنسان أن يسيطر عليها عن طريق استيعابها وتحديد الخط الذى تسير فيه . وليس إهماله في دراسة هذه القوانين والعلاقات سوى الإهمال في حق حياته ومستقبله وسعادته ، فتجاهل قوانين الصراع لن يلغيها بل ستبقى كما هى وسيكون تأثيرها ضاراً على مستقبل الإنسان إذا لم يحاول دراسة حركتها واتجاهاتها حتى يستطيع تكييفها أو تكييف حياته لكى لا يقع بين شتى الرحى ولكى يستطيع تحقيق أهدافه بسرعة . فأهم وظيفة للمنهج العلمى هو دراسة القوانين وتحليل العلاقات بين العوامل المختلفة حتى نستطيع التحكم فيها ووضعها في خدمة المجتمع الجديد . ولذلك فإن الأفكار والآراء والنظريات العلمية لا تبقى كمنهج علمى إلا إذا اتفقت مع قوانين الطبيعة عن طريق استيعابها . وفي هذا يقول هنرى بونكاريه في كتابه « قيمة العلم » :

« أيقن لنا أن نتكلم في سبب ظاهرة من ظواهر الكون ، ما دام كل جزء من أجزائه مرتبطاً بكل جزء ارتباطاً عضوياً ؟ ! إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد ، بل نتيجة أسباب غير متناهية في العدد . إن أية ظاهرة مهما يكن شأنها ليست في الغالب إلا نتيجة للكون كله في لحظة مضت . »

وقبل بونكاريه بقرون عديدة جاء الفيلسوف العربى ابن باجة الذى حلل العلاقات بين العوامل السابقة والمعاصرة واللاحقة في كتابه « تدبير المتوحد » فقال : « إن لفظة « التدبير » هنا إنما تعنى ترتيب الأفعال وفقاً لما يمليه العقل من غايات مقصودة » وبهذا يحدد ابن باجة المنهج العلمى الذى يجب أن نلتزم به في تفسيرنا للسلوك الفردى والاجتماعى حتى نستطيع تحقيق أهدافنا بعيداً عن التششت والتكرار والضياغ . فيجب أن تصدر أفكارنا وأفعالنا عن صميم العقل الواعى الذى يتخذ من المنهج العلمى نبراساً له . وهو المنهج الذى يعمل على تنمية مداركنا ، وتوسيع أفقنا ، وتعميق رؤيتنا .

ويتفق بونكاريه أيضاً مع الفيلسوف العربى الكندى الذى ينظر إلى العالم على أنه وحدة واحدة ذات علاقات داخلية تمنحها الشكل المميز لها . ولذلك فأحداثه مرتبطة بعضها ببعض ارتباط العلة بالعلول ، والسبب بالمسبب . ويتفق ابن حزم مع الكندى في أن قانون العلية هو الذى يحكم الوجود ، وإذا استطاع الإنسان إدراك كنهه فإنه يمكن أن يكون سيد موقفه إلى حد كبير ، فخلف كل الكائنات والأشياء ، تكمن الأسباب والعلل وهو هنا يلتزم بقوله تعالى : « وجعلنا لكل شئ سبباً » . فالشئ الذى لا سبب له أو علة ، إنما هو عدم لا وجود له . وعنده أن العلة العليا لكل شئ هى مشيئة الله . ومن ثم ، فالعلم هو معرفة الأسباب ، والعلل . ومن الواضح أن ابن حزم كان يمثل المفكر العربى الناضج الذى يؤكد لنا أن المنهج العلمى كان من خصائص الحضارة العربية والتراث الشرقى قبل أن يحصل عليه الغرب ويوظفه في خدمة حضارته . كان ابن حزم يمتاز بعين فاحصة ، ناقدة ، كاشفة عن عيوب

مجتمعه ، ما ظهر منها وما بطن ، فنجدته يأخذ على الناس تقيدهم بالعادات الذميمة ، والتقاليد البالية ، وإيمانهم بالخرافة والسحر ، والتنجم ، وبأن أقدارهم مكتوبة على جباههم ، فلا نجاة لهم من المكتوب . كانت هذه المعتقدات سبباً في تشييط همم الناس وتقاعسهم عن النظر إلى الحياة نظرة علمية ، لذلك نجدته يقدم تفسيراً علمياً لمفهوم القدر في كتابه : « الرد على بن النغريه اليهودي ورسائل أخرى » فيقول ص ٢٣٣ :

« تزعم يا أخى أن القدر ينهضك إلى الخطأ ، وأن القدر يثبطك عن الصواب ، ولعلك تزعم أن القدر معك إذا أردت الشر ، وليس معك إذا فعلت الخير . كلا ، فلئن قلت ذلك فقد ضللت وكفرت . عليك أن تعمل ولا تطالب ربك بما تعمل ، فلا ينبغي أن تتخذ من القدر سبباً للكسل والوهن في العمل . وأعلم أنك لن تجازي إلا بعملك ، ولن تحاسب إلا بسعيك وإلا بما قدمت يداك » .

وهذا المنهج العقلاني الواضح يذكرنا برد السادات على قارئة على صفحات مجلة « التحرير » في ١ مارس ١٩٥٤ عندما سألته عن مدى اعتقاده في الفأل وقراءة الكف وتحضير الأرواح وتفسير الأحلام فكان رده حاسماً قاطعاً :

« أنا لا أعتقد لا في الفأل ولا قراءة الكف ، ولا في تحضير الأرواح . أما عن تفسير الأحلام فأني وبحكم قراءتي في الكتاب عن سورة يوسف وما ورد فيها عن الأحلام وتفسيرها ، فأنا أؤمن بها . وخاصة عندما كنت في مثل سنك وفي أثناء تعليمي الثانوي ، وأيام الامتحان » .

وهذا الرد تأصيل للفكر العلمي العربي والذي نجد منه مثلاً في كتاب « الآثار الباقية » للبيروني عندما يقول في مقدمته :

« يجب علينا إذا طلبنا الحقيقة أن نصنئ عقولنا من جميع المعتقدات الفاسدة ، والعادات البالية المستهجنة ، والخرافات التي تعمى الناس عن الحقائق ، وأن نتحرر من النزعات المسفة ، والرغبة في الاستعلاء والتشامخ » .

ونفس الاتجاه العربي الأصيل يردده ذو النون المصري الذي يؤكد أن الله عز وجل قد منح الإنسان العقل لكي يدرك به الكون المحيط به ، والإنسان الذي يهمل العقل يعبر بطريقة غير مباشرة عن عدم اهتمامه بصنعة الله وفضله على الإنسان ، وهذا جحد ما بعده جحد . يقول ذو النون المصري :

« فما خلع الله على عباده خلعة أحسن من العقل ، ولا قلده قلادة أجمل من العلم ، ولا زينة بزينة أفضل من الحلم وكمال الخلق ، فن أدرك طريق الآخرة ، فليكثر مساءلة الحكماء ، ومشاورتهم ، وليكن أول شيء يسأل عنه العقل ، لأن جميع الأشياء لا تدرك إلا بالعقل » .

ونفس الاتجاه العلمي العقلاني يمثله ابن سينا ، مما يدل دلالة واضحة على أن المنهج العلمي كان ملازماً للعقل العربي في كل مراحل ازدهاره الفكري . فقد قام منهج ابن سينا على التجربة والاستقراء ، فهو يلاحظ الظواهر ، ويجمع المعلومات التي تحيط بالموضوع ، ويرتبها ترتيباً منطقياً ، ثم يستخرج منها النتائج التي هي بمثابة القوانين الكلية . وعلى هذا الأساس فإن ابن سينا استطاع أن يرسى تقاليد المنهج الاستقرائي التجريبي قبل أن يجيء به الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون بعدة قرون ، كذلك أمكن لابن سينا أن يضع قواعد للتجريب وذلك في مستهل كتابه « القانون في الطب » . ومعنى هذا أن المنهج العلمي الذي يريد السادات إرساء تقاليده في الفكر العربي ليس بدخيل عليه وإنما هو تأصيل فكري لخاصية أهملناها طويلاً . وكان نتيجة الإهمال أن سبقتنا الأمم الأخرى في مضمار الحضارة رغم أننا كنا أول من منحها الدفعة الأولى التي استمدت منها كل طاقتها الحضارية الحالية . وقد آن الأوان لكي نخلص هذه الخاصية الجوهرية من الشوائب التي علق بها لكي نسير على هداها ونستعيد مجدنا الحضاري . ولذلك يقول السادات في لقائه مع أساتذة الجامعات في ٨ يناير ١٩٧١ :

« لا أظن أن هناك لحظة في تاريخ مصر الحديثة تحتاج إلى فكر وعقل جميع مثقفها وكل القادرين على البحث والدراسة فيها كهذه اللحظة التي نعيشها الآن من نضالنا .

إن هذه اللحظة - أيها الإخوة والأخوات - تحتاج إلى كل شعاع مضئ وإلى كل رأى سديد وإلى كل اجتهاد . . . تحتاج إلى كل هذا ولكل ما يبغى وجه الوطن وحده ويستلهم مصلحة الشعب دون غيرها ، ويضع نصب عينيه مصير أمة عربية تنتظر الآن كل واحد من أبنائها لكي يؤدي واجبه ويتحمل مسؤوليته ، ويشارك في تقرير المصير . واحترام السادات للعقل البشرى والمنهج العلمى خط واضح في فكره منذ بدأ التخطيط من أجل تحرير مصر . فقد كان العقل المفكر وراء قضية أمين عثمان العميل البريطانى الشهير ، يقول إحسان عبد القدوس موضحاً الخصائص الأساسية في فكر السادات في مجلة « الجديد » في ١ يوليو ١٩٧٣ :

« كنت متفقاً في الرأى تماماً مع البوليس السياسى - رغم اختلاف أهداف كل منا - على أن هذه المجموعة من الشباب الثائر ، قد تحركت نحو هدفها بتوجيه دقيق من عقل ثائر كبير - ما زال شخصه مجهولاً ، رغم أن التفاصيل الدقيقة للخطة التى نفذت ، تؤكد وجوده - ولم أتردد يوماً في كتابة مقال بمجلة « روز اليوسف » اعتبره الكثيرون حتى من أخلص الأصدقاء وأكثرهم حماساً ، نوعاً من التهور سيجلب لى المزيد من المتاعب ، ويرفع رصيدى المتضخم من غضب السلطة ، وهى ترانى أؤيد علناً ، وعلى صفحات المجلة ، مقتل أمين عثمان . الباشا الذى يعبر عن رأى لندن أكثر مما يفهم لغة القاهرة . . وإذا كان البوليس السياسى قد اعتبر مقالى - يومها - دليلاً جديداً على انحرافى عن الولاء للسلطة الممثلة فى الملك وحكومته ومن خلفهما الوجود الاستعمارى لإنجلترا . . فقد كتبت هذا المقال تحية من صحفى ثائر . . إلى الجندى المجهول الذى يخفى وراء العملية كلها ، والذى استطاع أن يبعث الرعب فى قلب كل المتعاونين مع الإنجليز وعملائهم فى مصر . . وكأنه يقول لهم فى مكمنه . . هذا هو المصير الذى ينتظر كل من تسول له نفسه خيانة الشعب » .

ولعل التنكيل والتشريد والاضطهاد والمطاردة وكل ألوان العذاب التى عاناها السادات على أيدى السلطة الحاكمة لها ، كانت نتيجة لعقله المفكر ومنهجه العلمى فى وضع الخطط وتنفيذها بدقة فى الوقت المناسب . فلم يكن الاستعمار يخاف من الشباب المتحمس الطيب الذى لا يحاربه إلا بالعاطفة المتقدة وحدها لأنها سرعان ما تنطفئ بتغير الظروف . أما الشباب الواعى الذى يفكر فى إطار تخطيطى منظم وعلى أساس منهج علمى يضع فى اعتباره كل الاحتمالات والمفاجآت والإمكانات ، فإن الاستعمار يجد أنه لا مناص من التخلص من هذا النوع من الشباب لأنه سيسبب له الكثير من المتاعب والقلق لطول باعه فى الكفاح ولأن أنفاسه لن تقطع بسرعة . ولذلك كان لا بد من أن يقع السادات فى براثن البوليس السياسى . والسبب الرئيسى فى هذا يوضحه إحسان عبد القدوس عندما يقول :

« أول ما أثار انتباهى فى شخصية - الرئيس - السادات . . هو قوة الإرادة ، والقدرة الواضحة على التخطيط والتنظيم . . شئ آخر أثار انتباهى منذ بداية معرفتى بالرئيس السادات . . هو ذكاؤه الحاد . . وقدرته على الكتمان والاحتفاظ بالسر . . سره أو سر غيره » .

وكانت هذه الخاصية واضحة لكل من عرفوا السادات ، فقد كتب إميل زيدان فى تقديمه لمذكراته « ثلاثون شهراً فى السجن » التى نشرت بمجلة « المصور » عام ١٩٤٨ أن : « السادات هو أكبر المتهمين سناً ، وأقوامهم شخصية ، وأوسعهم ثقافة ، وأنضجهم عقلاً ، وأكثرهم تجربة » . ولذلك كانت نظرتة العلمية تؤكد أن محاربة الاستعمار تقتضى التخلص الفعلى من أعوانه ، فلا يكفى أن تهمهم بالخيانة ونهتف بسقوطهم ، لأن الحناجر المدوية لن تصل فى فاعليتها إلى مستوى الفعل الحاسم الواعى المنظم والمنهج العلمى يحتم التقييم الموضوعى والمشاركة

الإيجابية ولا يقتصر على الرفض السلبي للدور الذى يقوم به أعوان الاستعمار أو الزعامات التقليدية التى تستند إليها .
فثلاً نجد السادات يحدد مفهوم الزعامة السياسية التقليدية تحديداً علمياً فى مقال له بجريدة « الجمهورية » فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٤ فىقول :

« موضوع اليوم هو الزعامات السياسية . . ما هى . . وما مسئولياتها ، وعلى أى أساس تقوم ، وكيف تقوم أصلاً ؟ . . . عدلى وصدق . وعبد الهادى والنقراشى والهلالي ، وعباس حليم أيضاً الذى كان ذات يوم يتزعم العمال ! وقد يعترض أحدهم فيقول إن هؤلاء ليسوا زعماء . . بل كانوا رجالاً من الطائرين على السياسة المصرية ما لبثوا أن جرفهم طوفان الشعب . . أى ثورته . وأنا لا أوافق على هذا الرأى فهم - هؤلاء الساسة - قد لعبوا أدواراً خطيرة فى تاريخ ثورة الشعب المصرى . ولا يعنينا هنا قيمة تلك الأدوار وأثرها على مستقبل الشعب . . فنيرون مثلاً لعب دوراً فى تاريخ الشعب الرومانى ، وكانت همجته سبباً فى يقظة رائعة عصفت بالإمبراطورية الرومانية التى قامت على البطش . والقياس هنا مع الفارق طبعاً .

وأعود إلى موضوعنا فأقول إن الزعامة السياسية هى باختصار مصالح طبقة معينة تبلورت وتجمعت فألقت - تلك الطبقة - مسئولية حماية تلك المصالح أو تحقيقها إن لم تكن موجودة على كاهل شخص ينتمى إلى هذه الطبقة ، ويشترط فى هذا الشخص أن يكون كفاحه فى سبيل معتقدات طبقته وأهدافها ضخماً مستمراً إلى حد أن جميع أفراد الطبقة المذكورة ينادون به زعيماً . . ليقودهم فى الطريق .

هذا هو التعريف العلمى للزعامة السياسية فى هذا العصر الحديث .

بهذا الأسلوب العلمى المحدد كان السادات يكتب مقالاته الصحفية فى جريدة « الجمهورية » منذ إنشائها فى ٧ ديسمبر عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٥٨ عندما ترك الصحافة وتفرغ لمهام سياسية أخرى . ورغم أنه كان يكتب مقالاته فى جريدة يومية يتابعها القارئ العادى غير المتخصص ورغم أن الصحافة فى ذلك الوقت كانت ما زالت تعتمد على الخبر التجارى المثير بصرف النظر عن موضوعية الرأى والفكر ، رغم كل هذا كان الأسلوب العلمى المحدد هو المميز لكل مقالات السادات دون استثناء . فقد أراد تحويل جريدة « الجمهورية » تحت رئاسة تحريره إلى منبر للرأى الحر الصادق والفكرة العلمية الموضوعية . ولذلك فهو يختم نفس المقالة بنفس التقييم الموضوعى للدور الذى قامت به الزعامات السياسية فى مصر ما قبل الثورة بصرف النظر عن نوعية هذا الدور ، لأن الذى يهيمه كباحث علمى الأثر الذى تركه هذا الدور فى تاريخ مصر الحديث حتى يمكنه تحديد الطريق بالنسبة لمسيرة المستقبل . ولذلك يختم المقالة بتحديد العلاقة العضوية بين الاستعمار والإقطاع فيقول :

« إن المسألة بصراحة هى قصة الاستعمار فى مصر . . وإذا ذكرنا الاستعمار فى مصر فنحن لا نستطيع أن نتجاهل الطبقات التى ارتبطت به وبأهدافه . . فأصبحت مصالحها رهناً ببقائه !

فالاستعمار فى مصر خلق طبقة الإقطاعيين لكى يتحكم عن طريقهم فى محصول الأراضى الزراعية الرئيسى - القطن - ويتحكم عن طريقهم أيضاً فى ملايين العبيد العاملين فى مزارعهم .

وإذا كنا نعلم كم من مقالات حماسية ومتشجعة تغطى صفحات الصحف اليومية فى ذلك الحين وتنعت الإقطاعيين بالخيانة والعمالة والرجعية ، عندئذ سندرك الدور الريادى الذى قام به السادات فى تعقيل الصحافة المصرية وترشيدها من خلال جريدة « الجمهورية » . فقد كانت الصحافة فى نظر الكثيرين فى ذلك الوقت مجرد تجارة لا تنتمى إلى قداسة الرسالة بصلة ، ذلك راجع إلى أنه أتى على الصحافة فترة طويلة كان محترفوها من الفاشلين الحاقدين على المجتمع ، أو من أولئك الذين أتموا دراستهم المتوسطة أو العالية ولكنهم فشلوا فى معترك الحياة العملية فى مجال

مهنتهم المتخصصة كالمحاماة مثلاً أو خاب سعيهم في الحصول على وظيفة حكومية أو غير حكومية . فما كان أيسر لهذا الصنف من الكتاب الذين يفتقدون إلى كل المناهج العلمية والمعايير الموضوعية أن يصبحوا كتاباً صحفيين من نجوم المجتمع المثقف . فقد اختاروا الطريق السهل المفروض الزأخر بالكلام الفارع والأخبار الملفقة من نسج خيالهم ، وكذلك السباب والشائم طمعاً في ابتزاز المال أو إشباعاً لما يعتل في صدورهم من حقد وضغينة على الناجحين في أعمالهم ، أو المدح والثناء من أجل الحصول على المال السهل الحرام وبذلك تحولت الصحافة إلى سوق للتجارة والمال وبورصة للعقود والصفقات .

وفي رأى السادات - كرائد للتأصيل الفكرى - أن دور النشر التي تصدر صحفاً ومجلات ولا تهدف فقط إلا إلى ما يعود عليها من ربح من الإعلان والدعاية والتوزيع هي مؤسسات تجارية وليست دوراً صحفية . كما أن الذين يعملون في هذه المؤسسات من محررين ومخبرين ومراسلين ومندوبين ليسوا صحفيين وإنما هم كتبة أجراء ، لا حول لهم ولا قوة ، ولا رأى موضوعى ولا تفكير علمى ولا شخصية ناضجة تميز كتاباتهم . ولذلك يكتب في جريدة « الجمهورية » في ٧ ديسمبر ١٩٥٤ ، أى في الذكرى الأولى لإنشاء الجريدة ، فيقول :

« كان وضعنا يحتم علينا أن نعد إلى جانب الإمكانيات المطلوبة لكل جريدة يومية رأياً قوياً يتفق مع أهداف ثورتنا . . . فقد ينجح صحفي لأنه بارع في « الفبركة » والإثارة ومخاطبة غرائز الجماهير ، وقد ينجح صحفي آخر لأنه يسبق دائماً في نشر الأخبار . . . وقد ينجح صحفي ثالث لأنه يجيد التلاعب بالألفاظ . . . أما نحن فكان علينا أن نكون « ثواراً » لا صحفيين فقط ! .

كان علينا أن ننشر الحقائق لا الأوهام . . . كان علينا أن نقول في كل صباح للشعب حقيقة جديدة ، كانت خافية عليه بحكم وضع « الصحافة » في العهد التي مضت .

كان علينا أن نقف إلى جوار الأحرار في مصر وفي خارج مصر . . . كان علينا أن ندعو إلى ما نؤمن به . . . إلى حرية كل الشعوب ، وحقوق كل الشعوب ، وأمن كل الشعوب . . . كان علينا أن نثور على صفحات « الجمهورية » مثلما ثرنا في الميادين الأخرى .

أى أنه عندما أعاد السادات إلى الصحافة حريتها بعد حرب أكتوبر المجيدة ، كان ينفذ نفس الخط الفكرى الذى نادى به منذ عشرين عاماً . وهذا يدل على المنهج العلمى الذى يميز تفكيره والذى لم يخالطه أى تناقض بمرور الأعوام . فقد كان يؤمن أن على الصحفي أن يتسلح بالمنهج العلمى الواضح ، وهذا المنهج لن يتأتى إلا عن طريق الثقافة الشاملة والإطلاع الواسع في كل ميادين المعرفة الإنسانية من علم وفن وفلسفة . وكان هو أول من طبق هذا على منهجه كصحفي وهذه عادته دائماً ، لا يدعو إلى القيام بعمل ما إلا ويكون أول من يقوم به هو نفسه حتى يثبت عملياً أن المنهج العلمى السليم لا يحتمل أى انفصال بين الأقوال والأعمال . ولذلك نجده - على سبيل المثال - يطبق منهج علم النفس على الخط الذى يجب أن تسلكه الدول الصغيرة بحيث تتخلص من عقد النقص التى غالباً ما تقف عقبة في سبيل تحررها وتقدمها ، فيقول في ١٠ ديسمبر ١٩٥٦ على صفحات « الجمهورية » :

« إن أخطر ما يفتك بالدول الصغيرة ويوقعها فريسة للدول الاستعمارية ، هو ذلك الشعور بالنقص الذى تغرسه تلك الدول الاستعمارية في نفوس الشعوب الصغيرة . إن هذه العقدة هي أفثك أسلحة الاستعمار اليوم ، والإنسان يتلفت حوالبه الآن ويأسف لأن دولا صديقة من الدول الصغيرة ترك شعوبها فريسة لهذه العقدة . . . وأخطر من كل هذا أن تكون هذه العقدة لدى حكام هذه الشعوب . . . وسبيل الاستعمار دائماً هو غرس هذه العقدة في نفوس الحكام أولاً . ثم توصيلها للشعوب عن طريق هؤلاء الحكام وعن طريق العملاء الآخرين الذين يبيعون أنفسهم للاستعمار .

على هذه الدعوة إلى الأصالة القومية والاعتزاز بالنفس والوطن يقيم السادات مقالته ، مستخدماً في ذلك منهج علم النفس الذي يوضح أن عقد النقص يمكن أن تصيب الشعوب كما تصيب الأفراد ، ولكن أثرها على الشعوب أكثر تدميراً لأنها تعوق تقدمها عندما تقارن نفسها - بعين الألم والحسرة والسخرية - بالشعوب الأكثر تقدماً . وهذا بدوره يشبط عزيمتها مما يضاعف الفجوة الحضارية بينها وبين الشعوب التي سبقتها في مضمار الحضارة . ومن المعروف في علم النفس أن عقد النقص يمكن أن تفقد الشعوب الرغبة في العمل والتقدم بسبب روح اليأس المدمرة وجو السخرية المريرة الذي يسيطر على مزاجها فيجعله سوداوياً . ولذلك يختم السادات مقالته بدعوة صريحة إلى التأصيل الفكري والقومي فيقول :

« يجب أن تتحرر الشعوب الصغيرة من خرافات الاستعمار وأساطيره ، لأنها كالسوس تنخر في مقاومة هذه الشعوب . . وأفنتك هذه الأساطير سيظل هو الشعور بالنقص . . فإلى متى سيظل بعض الحكام يحطمون مقاومة شعوبهم ، لأنهم مرضى بهذه العقد ؟ ! »

وهذا ما حاولت إسرائيل أن تستغله بعد هزيمة ٥ يونيو عام ١٩٦٧ فقد دأبت على أن تبث كل عقد النقص الممكنة في نفس الشعب العربي عن طريق تركيز الأضواء على أسطورة جيش إسرائيل الذي لا يقهر ، وقد أدرك السادات مغزى هذه الحملة النفسية واضعاً في اعتباره أننا نعيش في عصر العلوم الحديثة وليس في عصر الأساطير الخرافية . وبذلك تكون إسرائيل سائرة في اتجاه مضاد لتيار العصر . وبتابعنا المنهج العلمي في التخطيط لحرب التحرير نكون قد أخذنا العصر والعالم كله إلى جانبنا . ومن هنا كانت حتمية انتصار أكتوبر المجيد . وهذا يذكرنا بحديث السادات مع الصحفية اليوغوسلافية دارا يانكوفيتش في ٢٧ مايو ١٩٧٣ والذي يلتقي فيه الضوء العلمي التحليلي على نفسية الشعب العربي وماذا سوف يحدث في حالة المواجهة العسكرية مع إسرائيل فيقول :

« مفيش شك هناك في الموقف العربي سلبيات ولكن أيضاً هناك في الموقف إيجابيات أكثر من السلبيات ، للأسف ناس كثير ما بتعرفش سيكلوجية أو نفسية الشعب العربي ، لما ييجي يوم المواجهة مع إسرائيل كل هذه الخلافات وكل المحاولات اللي بتعملها أمريكا عاشان تصدع من الجبهة العربية كل ده بيدوب وينتهي يوم ما بتحصل المواجهة فعلاً مع إسرائيل . »

وهذا ما حدث بالفعل أثناء وبعد حرب أكتوبر المجيدة مما يوضح لنا المدى الذي يمكن أن يبلغه المنهج العلمي والتحليل الموضوعي في التنبؤ بالمستقبل والثقة به ، لأنه كان من الحتمي أن ينتصر المنهج العلمي الذي اتبعه العرب في التخطيط للحرب على الأسطورة الخرافية التي داعبت أحلام قادة إسرائيل وأثرت بالتالي على أفكارهم وسلوكهم . ولم يكن المنهج العلمي العربي خافياً على أحد بل كان الرئيس السادات يبشر به في معظم خطبه وأحاديثه حتى يترسب في العقل الباطن ويتحول إلى قطعة من الوجدان العربي ، فيقول مثلاً في افتتاح دورة المجلس الوطني الفلسطيني في ٢٨ فبراير ١٩٧١ :

« إن هدفنا في هذه المرحلة ، وبعملنا السياسي ، هدف ثلاثي :

أولاً - تعميق التزام الصديق .

ثانياً - تحييد الخصم .

ثالثاً - عزل العدو . »

ثم يضيف الرئيس :

« إن التحرير لا يتحقق بمجرد الفوران العاطفي أو بمجرد الرغبة فيه وإنما يتحقق التحرير باحتواء منطق العدو

وتطويق سياسته وفي هذا الجو فإن التحرير ينجز مهمته .

ولسنا من الذين يقبلون أن يحاسبوا الناس بأقوالهم ولكننا من الذين يريدون أن تكون الأفعال أساس الحساب .

لا نقبل بغير ذلك من رفاق نضالنا ، ونقبل به من هؤلاء الرفاق في النضال إذا وجهوه إلينا . »

ثم يختم السادات خطابه موضحاً كل الاحتمالات التي يمكن أن تطرأ على الموقف العربي ، ومؤكداً الخط

الاستراتيجي الذي يتحتم اتباعه فيقول :

« إن من المحتمل أن تكون هناك استراتيجيات متعددة في مواجهتنا للعدو ، ولكننا نرى أن من الضروري والحتمي

أن تكون هذه الاستراتيجيات المتعددة كلها صادرة وتابعة من استراتيجية واحدة عظمى تكفل تحقيق الإرادة

العربية .

ويتحتم على العقل العربي الثوري أن يحدد المراحل اللازمة للتحقيق المستمر والمترابط بين الاستراتيجيات المتعددة

وبين الاستراتيجية العربية الواحدة العظمى وهذا هو التحدي الذي تواجهه الآن . »

وامتداداً لنفس المنهج العلمي ، نجد السادات - بعد عام بالضبط من خطابه هذا الذي أعلن فيه استراتيجيته -

يؤكد في حديثه مع مجلة « نيوزويك » في ٢٨ فبراير ١٩٧٢ :

« إنكم تريدون أن تضعونا في حالة يأس ، ولكنكم لن تنجحوا في ذلك ، إن فيتنام الشمالية ليست في حالة

يأس رغم الانتقام الرهيب والخسائر التي توقعها بها أمريكا . إن إسرائيل ستدفع الثمن غالياً ، وتذكر كلماتي هذه .

فإن هناك مفاجأة كبرى تنتظرهم . »

وليس هذا رجماً بالغيب لاتفاقه تماماً مع ما حدث في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ولكنه استقراء للمنهج العلمي الذي

يدرس القضية من كل جوانبها الثابتة والمتغيرة ثم يبنى النتائج على الأسباب الموضوعية التي سبقتها . فقد كان السادس

من أكتوبر نتيجة حتمية للخط المنهجي الذي اتبعه السادات منذ توليه رئاسة الجمهورية والقيادة العليا للقوات المسلحة

ولذلك كان متأكداً من المفاجأة الكبرى التي تنتظر إسرائيل ليس على سبيل التفاؤل أو التبشير أو الدعاية ولكن على

سبيل الدراسة والبحث والإعداد العملي لذلك اليوم التاريخي . وعندما جاء اليوم كان سلوك السادات سلوك الرائد

العظيم الذي يعرف موقع خطواته جيداً . لقد ضرب لنا المثل الأعلى في ضبط النفس وتجنب التشنج وبعد النظر مهما

كانت الأحداث التي يمر بها الوطن جسيمة ومهما كانت الأيام التي يعيشها مصيرية . . ولا شك فإن تماسك القائد

شرط أساسي لتماسك الأمة وخاصة في اللحظات التي يحدد فيها مستقبلها لأجيال عديدة قادمة . وإن كان السادس

من أكتوبر في نظر الشعب العربي هو يوم الملحمة الأسطورية فإنه في نظر السادات ذروة الخط المنهجي الذي بدأه

عندما تولى رئاسة الجمهورية في أكتوبر ١٩٧٠ . ولذلك كانت أيام المعركة المجيدة بالنسبة له أيام عمل لاحقة

لسنين الكفاح الصابر والإيمان الواثق والعمل الصامت والمنهج العلمي .

وقد يندهش القارئ عندما يعلم أن هذه الاستراتيجية العربية الشاملة التي ينادي بها السادات وينفذها الآن

بالفعل كانت الخط المميز لفكره منذ قيام الثورة . ولكن الظروف الموضوعية حددت له دور المفكر أكثر من القيام

بدور المنفذ . نجده ينادي بنفس المنهج في كتابه السياسي الخطير « قصة الوحدة العربية » الذي صدر عام ١٩٥٧

فيقول ص ١٥ :

« أريد أن أقول إن مصر قد درست في اهتمام زائد - أخيراً - السياسة العربية في هذه المنطقة من الشرق الأوسط . .

وكانت دراسة شاملة عميقة اعتمدت على الواقع والتاريخ ، فاستمدت اتجاهاتها من مآسي الماضي ودروس الماضي

ومحن الماضي .

درست مصر - إذن - السياسة العربية وعلاقاتها بالعالم العربي ، بواقعه وبظروفه ، وبأهدافه ومصالحه . ثم درست أيضاً علاقات هذا العالم العربي بالكتل المختلفة ، وذلك بعد أن درست ميثاق الضمان الجماعى ، واستعرضت مصر خلال دراستها هذه كل المآسى التى حلت بالعرب كأمة نتيجة للسياسات المتناقضة ، التى لا تستمد أصولها من الواقع والتاريخ والتجارب العديدة على مر السنين !

ثم أقول إن مصر بعد أن تمت دراستها تلك قررت أن تبلور سياستها هى ، وتحددها تحديداً واقعياً واضحاً ، وانتهت - أى مصر - إلى جعل تلك السياسة داخل إطارين لا تخرج عنهما :

الوطنية المصرية ، والقومية العربية ، بحيث لا يظهر تناقض بينهما ، وبحيث لا تكون مصلحة مصر وسلامتها ومصالحها عاملاً من عوامل إلحاق الضرر بمصالح وسلامة دولة عربية أخرى .

وهذا هو نفس الخط الذى برز فى خطاب السادات فى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٣ يوليو ١٩٧٢ عندما علق على قراره بإنهاء مهمة الخبراء السوفيت بأن المعركة أصبحت وطنية قومية بحته ولن تخوضها سوى الوطنية المصرية والقومية العربية ، وأثبتت هذه الاستراتيجية الواقعية العلمية نجاحها الباهر فى حرب أكتوبر المجيدة ، مما يدل على أننا لو كنا طبقناها علمياً وعملياً منذ نادى بها السادات فى كتابه « قصة الوحدة العربية » لكان فى إمكاننا تجنب النكسات التى تعرضت لها الأمة العربية . بل إننا نجده يحدد هذه الاستراتيجية فى ٩ فبراير ١٩٥٤ على صفحات مجلة « التحرير » بوضوح لا يحتمل أى لبس وذلك فى مقاله بعنوان « إني أخشى على الشعوب العربية من نفسها » فيقول :

« ليس لمصر أن تبيع لنفسها التدخل فى أى شأن من شئون شقيقاتها العربية . . سواء كانت هذه الشئون داخلية أو خارجية ، فلكل بلد عربى أن ينتهج السياسة التى يرتضيها شعبه ، ولكل بلد عربى ساسته المسئولون عن خيره ورفاهيته . »

والتفكير الموضوعى يؤكد أنه لا توجد أية دولة على وجه الأرض تقبل أن تتدخل فى شئونها دولة أخرى مهما كانت العلاقة وثيقة بين الدولتين ، وإذا كان للوحدة أن تنشأ بين دولتين فلا بد أن يكون هذا على أساس التدخل بين المصالح الحيوية والأهداف المشتركة للدولتين المعنيتين . وبون شاسع بين التدخل بين المصالح وبين التدخل فى الشئون الداخلية أو الخارجية . والضمان الوحيد لقيام الوحدة على أساس علمى مدروس هو الايمان الواثق بأن الإنجازات التى يمكن أن تتم من خلال الوحدة لا يمكن للدول المعنية أن تقوم بها بدونها . أى أنها حتمية ضرورية للقوة والحضارة والتقدم والحياة على مستوى العصر الذى لا يلتفت كثيراً إلى الكيانات الصغيرة . وعلى هذا ينجم السادات مقالته تلك بقوله :

« ومصر تؤمن إيماناً صادقاً ، بأن أى ضعف أو تفكك يعترى أية دولة عربية ، إنما هو مصيب بقية الدول العربية كلها . فضعف لبنان يوهن عزم سوريا ، وضعف سوريا يهدم لكيان العراق ، وضعف العراق انهيار لكل هذه الدول ، وكل حدث فى أية دولة من هذه الدول لا بد أن يترك أثره وصداه فى مصر . »

وقد بلغ المنهج العلمى حداً كبيراً فى تفكير السادات لدرجة أنه مكنه من التنبؤ عام ١٩٥٤ بما حدث فى هزيمة عام ١٩٦٧ . فقد كتب مقالة بعنوان : « أيها العرب . . هل آن لنا أن نتحد ؟ » فى مجلة « التحرير » فى ١٣ أبريل ١٩٥٤ وفيها حذر من أن طريق العبارات الإنشائية والخطب الرنانة الذى سلكه العرب لن يجدى فتىلاً أمام المنهج العلمى الإسرائيلى الذى أدرك جيداً أن المستقبل ترسمه الأعمال المدروسة أما الأقوال المعسولة فصيرها أدراج الرياح . وإذا استمرت الحال على هذا الوضع فسيأتى اليوم الذى تدق فيه إسرائيل أبواب العريش أو القنطرة أو الإسماعيلية . ولنترك المقالة نتحدث عن نفسها كنوع من الشهادة التاريخية :

« لقد ظلت الدول العربية منذ عام ١٩٤٨ تقول إنها ستفعل بإسرائيل كذا وستصنع بإسرائيل كيت . . وظل زعماء العرب يلقون الخطب الرنانة ، ويكتبون المقالات المنمقة ، في اتحاد العرب وتآزر العرب ، وفيما بينهم من حب ووفاء ، وظلوا يترنمون ببطولة الأجداد وشجاعة الآباء . . وما زالوا حتى الآن ينظمون القصائد والأشعار في هذه المعاني . . وما زالوا حتى الآن يجتمعون وينفضون ، وينفضون ويجمعون ، ثم تطلع علينا الصحف بأن الجامعة العربية قررت تنفيذ مشروع الضمان الجماعي وأنه لم يبق غير وضع الطرق التي ينفذ بها هذا المشروع . . كل هذا واليهود الصهيونيون لا يقولون شيئاً . . بل يمسون بينادقهم ومدافعهم الرشاشة ، تارة يصوبونها نحو الأردن لبييدوا أهل قرية عربية ، وتارة يصوبونها نحو سوريا ليقتلوا بضعة عشر نفساً من الأهالي العزل ، أو من حراس الحدود ، وفي كل مرة يجلس زعماء العرب ليكتبوا احتجاجات رائعة الأسلوب ، أخاذاً الألفاظ ، منمقة المعاني ثم يتلقى مجلس الأمن أو هيئة الأمم هذه الاحتجاجات لتأخذ طريقها إلى مصيرها المحتوم . . وهو الضياع والإهمال والتلاشي بين جسام المسائل التي تهتم الدول الكبرى وتهتم شعوبها . .

هذه حقيقة نعرف بها كارهين .

ولكن هناك حقيقة أخرى . . هذه الحقيقة هي أن مصر لا تملك أن تفرض على الدول العربية سياسة معينة . . ولست أذيع سراً إذا قلت إن حكومة مصر تعلم حق العلم أن إسرائيل تسليح نفسها ، وتحصن حدودها ، وتزيد من أسلحتها ، وأن كل نقطة من الدم تنفق في شرايين إسرائيل لتزيدها قوة . . تعلمها مصر حق العلم ، وتعمل في الوقت نفسه على أن تزيد في شرايينها أضعاف ما تزيده إسرائيل . ولو غفلنا عن هذه الحقيقة فلا بد أن نفتح أعيننا يوماً لنجد إسرائيل تدق أبواب العرش أو القنطرة أو الإسماعيلية . »

هذا هو المنهج العلمي الذي يلقي الضوء الموضوعي على الحقائق الراهنة ولو كان كارهاً . فأول شرط لأي منهج علمي هو مواجهة الحقائق مهما كانت مريرة ثم دراستها وتحليلها حتى يمكن توجيه دقتها للصالح العام بعد ذلك . أما دفن الرأس في الرمال كما تفعل النعامة فهو خداع صريح للنفس وليس للعدو على الإطلاق . ولذلك يكتب السادات مقالة في مجلة « التحرير » في ١٢ يناير ١٩٥٤ بعنوان : « أخرجوا رؤوسكم من تحت الرمال » وفيها يقول بصراحة موضوعية :

« نحب أن نصارح السادة الزعماء ، في جميع الدول العربية ، بأن الشعوب العربية قد سئمت تلاعب الاسعمار بعقول زعماء العرب ، وأن هذه الشعوب باتت تنتظر من هؤلاء السادة ، أن يكونوا أكثر التزاماً للجد وابتعاداً عن التواكل والهزل ، لأن كل اجتماع لهم ، لا يتقدم بالشعوب العربية خطوة ، يتأخر بها عدة خطوات . نريد أن يدرك هؤلاء الزعماء ، أن الشعوب العربية لم تعد تغفر لهم ترفقهم بالمستعمرين ، أو إحجامهم عن البت في خطير المسائل بالحزم والإخلاص والصراحة . .

نريد أن يدرك هؤلاء السادة أن الشعوب العربية لا يمكن أن تغفو أو تتغافل عن التسوية و « المطوحة » ، فإن كل دقيقة تضيق من رصيد استعداداتنا تضاف إلى رصيد خصومنا من الاستعداد . .

ونستطيع أن نصيح بملء أفواهنا ، باسم الشعوب العربية كلها ، قائلين للسادة المجتمعين من زعماء الدول العربية : « أيها السادة . . انفضوا . أو انفضوا . »

ونحن لا نطالبكم بأن تنفضوا على شعب معين ، ولا على أمة بعينها ، ولكننا نطالبكم بأن تنفضوا على العمل المشترك ، العمل الذي يشعرنا بأنكم قد أخرجتم رؤوسكم من تحت الرمال . »

ولم يقتصر الأسلوب العلمي في مقالات السادات على مواجهة الحقائق ووضع النقاط على الحروف والاستشهاد

بالتاريخ والاتفاقات والمعاهدات والمستندات التي لا تقبل أى جدل ، بل إنه يتكلم بلغة الأرقام التي لم يتعود العقل العربى على تقبل جفافها ، وذلك فى جريدة يومية مثل « الجمهورية » لا يطلع عليها سوى القارىء العادى . ولكن السادات يرى أنه آن الأوان للتفكير بأسلوب موضوعى ومنهج علمى حتى لا نضيع الوقت والمجهود فى الجسدل واختراع البراهين المنطقية التي تساند رأينا ، لأنه لا شئ من كل هذا يستطيع أن يقف فى وجه لغة العلم . ولا شك فإن الأرقام لا تحتمل أى تأويل أو تهويل أو تهوين لأنها تضع الحقائق عارية من كل تزييف أو تلوين . ولذلك يكتب السادات مقالة بعنوان « أرقام » بتاريخ ٩ أغسطس ١٩٥٦ فى جريدة « الجمهورية » يرد فيها على أنتونى إيدن - رئيس الوزراء البريطانى فى ذلك الوقت - الذى أمعن فى قلب الحقائق واستخف بعقول العالمين بأن وصف قرار تأميم شركة قناة السويس بأنه اغتصاب وسرقة من جانب مصر ورتب على ذلك أن مصر لا يوثق بكلمتها ونسى أو تناسى أن شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية بنص عقد الامتياز ، وأن جميع الاتفاقات والمعاهدات منذ إنشاء القناة إلى يومنا هذا بما فيها معاهدة الآستانة عام ١٨٨٨ وتنازل تركيا فى معاهدة لوزان ومعاهدة ١٩٣٦ واتفاق ١٩٥٤ ، كل هذه الاتفاقات تنص صراحة على أن القناة جزء لا يتجزأ من مصر . ولنترك المقالة توضح بالأرقام كم تكبدته مصر فى سبيل إنشاء القناة . يقول السادات :

« تحدثت فى مقالاتى السابقة بالمنطق والمعاهدات ومن التاريخ الرسمى . . واليوم أتحدث بالأرقام . . وما هى تفاصيل التكاليف التى تكبدتها مصر . . إن كل رقم من هذه الأرقام يحكى مأساة وتاريخاً :

٣,٤٢٦,٠٠٠	جنيه	قيمة أسهم مصرفى القناة
٣,٣٦٠,٠٠٠	»	قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة .
٤٠٠,٠٠٠ -	»	ثمن أراضى تفتيش الوادى
١,٢٠٠,٠٠٠	»	تعويض للشركة طبقاً لاتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩
١,٢٠٠,٠٠٠	»	نفقات إنشاء الترعة الحلوة
١,٤٠٠,٠٠٠	»	نفقات حفلات افتتاح القناة
٥,٨١٤,٠٠٠	»	فوائد وسمرة ونفقات تحكيم

فيكون المجموع هو ١٦,٨٠٠,٠٠٠ ستة عشر مليوناً وثمانمائة ألف جنيه . .

وتكلفت القناة كلها ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات . . ثم توالى بعد ذلك الكوارث . .

إن من يلتقى نظرة سريعة على هذه الإحصائية الخطيرة لن يطرأ على باله أنها مقالة صغيرة فى جريدة يومية ، ولكنه سيظن أنها صفحة من رسالة جامعية للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه . وهذا يدل على مدى اتساع الخلفية العلمية والثقافية التى يكتب السادات من واقعها . فهو يضع الأرقام والحقائق والوثائق والمستندات تحت تصرف القارىء العادى حتى يوسع من أفقه ويعمق من بصيرته لكى يتمكن من تكوين رأى موضوعى خاص به وبذلك يساهم فى تكوين الرأى العام الذى يعبر عن فكر الأمة كلها وسلوكها . ومن هنا كان إعجاب أنور السادات بآراء الفريق عزيز المصرى التى كثيراً ما أدلى بها إلى صغار الضباط الذين عملوا تحت قيادته ومنهم أنور السادات نفسه . لقد اعتاد عزيز المصرى أن يقول لهم :

« اقرأوا . . اقرأوا كل كتاب . . اقرأوا فى السياسة ومذاهبها . . والاقتصاد وفنونه ، والاجتماع وأبوابه . . اقرأوا وأضيئوا فى رؤوسكم هذا المصباح الذى وضعه الله فيها لكى يضاء لا لكى يهمل ويهال عليه التراب . . اقرأوا . . ثم اضربوا فى الأرض . . واعرفوا الناس ، وجربوا بأنفسكم كل شئ . . ولا تتقيدوا بدعوة ،

ولا بزعم . . ولا تربطوا أنفسكم برأى ، قد ترون غيره غليظاً إذا ما استنارت بالعلم رؤوسكم . «
وقد سجل السادات بنفسه رأى عزيز المصرى فى « الجمهورية » بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٥٤ عندما كان ينشر كتابه « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » مسلسلاً لأول مرة على صفحاتها . ويقصد عزيز المصرى بهذا الكلام أن التقيد الحقيقى بالدعوة أو بالرأى أو بالزعم لا بد أن ينهض على أساس علمى ، لأن الارتباط القائم على الانفعال السريع والحماس الطارىء لا بد أن يضعف فى نهاية الأمر بخمود الانفعال وانطفاء الحماس . هذا هو القانون الذى يحكم حركة الانفعال الحماسى ، أما القانون الذى يحكم الاقتناع الموضوعى والنظرة العلمية فيؤكد لنا أن مرور الأيام وتغير الظروف لن يؤثر بالسلب على هذا الاتجاه ، هذا إذا لم يؤثر بالإيجاب . فالأمانة العلمية تقتضى وضع الحق فى نصابه بصرف النظر عن كل الاعتبارات الذاتية التى تتغير من وقت لآخر طبقاً للظروف النفسية والضغط اليومية .

وهذه الأمانة العلمية هى التى جعلت السادات يمسك عن تناول حرب فلسطين بالدراسة فيما يختص بأثرها على التمهيد لثورة يوليو ١٩٥٢ عندما بدأ فى تأليف كتابه « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » . إذ أنه لم يمارس هذه الحرب على الطبيعة وما كتب عنها لم يكن كافياً للباحث العلمى لكى يدلى برأى موضوعى فيها . وعلى صفحات « الجمهورية » بتاريخ ٣٠ مارس ١٩٥٤ يعمد السادات إلى تأصيل مفهوم الأمانة العلمية فى وجدان القارئ العادى فيقول :

« إن قصة حرب فلسطين على حقيقتها قصة مثيرة مفجعة . . هى مأساة حقاً ومأساة من النوع الذى لا ينسى . . ولقد حاولت أن أكتب الصفحات الخاصة بالتمهيد لهذه الثورة فى أثناء حرب فلسطين . . ولكننى أمسكت . . فما أعرفه أنا عن هذه الحقبة من حياة شعب مصر وجيشها أعرفه بالسمع ، لا بالممارسة والتأثر والانفعال . . وعندما أتذكر ما كنت أسمعه خلال تلك الأيام من مآسى الحرب ، وخيانة القيادات ، ترتبط هذه الذكريات بأيامى الخاصة ، ومتاعبى الشخصية إذ كنت إذ ذاك سجيناً . . فلم يكفى حبس حريتى ، ولكن كان مقدراً على أيضاً أن أحرم من خوض هذه الحرب المقدسة ، التى طالما تآقت نفسى لخوضها . . وأيام السجن يمكن أن تكون لها صفحات . . وأيام الحرب ، لها بدورها صفحات . . وإن ارتاحت نفسى إلى ذكر صفحات من أيام سجنى فى يوم من الأيام ، فلن ترتاح لكتابة شئ عن أيام الحرب التى لم أخضها ، والتى خاضها زملاء لى ، كاتبون . . »

وإذا كانت الأمانة العلمية تحتم على الدارس ألا يتناول موضوعاً ما بالبحث والكتابة والمعالجة إلا إذا اختبره شخصياً وجمع بين يديه المادة العلمية الخصبة التى تمكنه من دراسته ، فإن هذه الأمانة تحتم أيضاً أن يعالج الواقع المادى الملموس الذى يعيشه بموضوعية علمية قائمة على تحليل الجوانب المتعددة لهذا الواقع دون محاولة منه لفرض مبادئ مسبقة أو مقاييس جاهزة أو قوانين معدة أو معايير مستوردة . وهناك قانون فى علم الحياة يقول إننا لو استوردنا نباتاً معيناً من بقعة أخرى وقمنا بزراعته فى التربة الجديدة دون مراعاة للظروف البيئية والجغرافية والبيولوجية الجديدة ، فسوف يحدث أمر من اثنين : إما أن يموت هذا النبات الجديد لعدم تمكنه من التأقلم مع الظروف الجديدة أو أن يفسد التربة بتشعبه فيها وإدخاله عناصر غريبة فيها . وما ينطبق على التربة الزراعية ينطبق على الشخصية القومية لأن القوانين العلمية يمكن أن تطبق على مستويات متعددة وجوانب مختلفة من الحياة الإنسانية . فلا بد أن يوضع فى الاعتبار قانون النسبية وقانون الاحتمالات والثوابت والمتغيرات ولا بد من الاستعانة بعلم التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع وكذلك علم النفس وعلم الحياة وكل العلوم التى يمكن أن تساهم فى تطوير الأمة وتقديمها دون مساس

بخصائصها الجوهرية وأصالتها الفكرية وشخصيتها القومية . فهذه هي الثوابت التي يجب رعايتها والحفاظة عليها عن طريق التأصيل والبلورة والتجسيد ، لأنه لا يوجد شعب على وجه هذه الأرض يستطيع أن يحيا بأصالة دون هذه الثوابت التي يفخر المواطن الحق بالانتماء إليها . بل إن هذا لا ينطبق فقط على شخصية الأمة بل ينطبق أيضاً على شخصية الفرد . وحكم الناس على شخصية فرد معين ينهض على الخصائص الثابتة المميزة لشخصيته . أما إذا فقد هذه الخصائص فإن حكم الآخرين يصدر فوراً بأنه عديم الشخصية . ونحن نعلم جيداً كم يحمل هذا الحكم في طياته من إهانة بالغة . ولنا أن ندرك الآن أنه لو فقدت أمة ما خصائصها القومية بحكم التبعية أو التقليد أو فقدان الثقة في الذات فإذا سيكون حكم الأمم الأخرى عليها ؟ واضح جداً أنه سيكون نفس الحكم الذي صدر على الفرد عديم الشخصية . وإنعدام الشخصية القومية لا يعنى إلا فقدان كل الضوابط والمقاييس والمعايير والأطر التي يمكن لأية أمة أن تعبر عن نفسها من خلالها ، وبالتالي تصبح إمعة بين الأمم التي تفخر بأصولها وجذورها وتقاليدها . ومن الواضح أيضاً أن هناك بوناً شاسعاً بين التقاليد والتقليد . فالتقاليد القومية تعنى المحافظة على تراث الأمة وحضارتها وثقافتها مع نظرة أصيلة على منجزات العصر والاستفادة من كل ما يمكن أن يضيف جديداً نافعاً إلى هذا التراث ، أى أن التقاليد الحقيقية تعنى الأصالة مع المعاصرة ، أما التقليد فيعنى المعاصرة فقط ، أى التقليد الأعمى الذي يجعل الأمة لا في العير ولا في النفير وبالتالي تفقد وزنها بين مختلف شعوب العالم المعاصر . ولذلك يطبق السادات نفس المنهج العلمي في كتابة « معنى الاتحاد القومى » فيقول ص ٥ :

« والخطأ دائماً يأتي من محاولة تطبيق ما يحدث في بلد ما على ما يحدث في بلاد أخرى ، وكذلك من محاولة تطبيق ما حدث في بلاد أخرى خلال فترات تاريخية مماثلة على ما يحدث في بلد ما . إن هذا التطبيق الأعمى يؤدي دائماً إلى نتائج وخيمة ، بل أحياناً إلى مأس دامية . .

وإذا أخذنا البلاد التي استعمرت فترة من فترات تاريخها ثم تحررت واستقلت ، نجد أن كل بلد منها قد ثار على الاستعمار وتحرر بطريقة اختلفت من بلد إلى آخر .

قضية التحرر واحدة دائماً ، ولكن الكيفية التي يتم بها هذا التحرر لا بد أن تختلف تبعاً لاختلاف الظروف والأوضاع والملابسات .

فهى تختلف مثلاً تبعاً لـ :

- * اختلاف نوع الاستعمار
- * اختلاف الكيفية التي تم بها الاستعمار والسيطرة
- * اختلاف طبيعة الشعب المستعمر وجغرافيته
- * المرحلة التاريخية السابقة على الاستعمار
- * المحاولات التي قامت للتخلص منه وخبرة الشعب الذاتية في الكفاح ضده .
- * وضع البلد المستعمر من العالم وكذلك وضع البلد المستعمر
- * المرحلة التاريخية التي تم فيها الاستعمار
- * المرحلة التاريخية التي يتم فيها التحرر
- * الوضع العالمى .

وليست هذه بالتأكيد هي كل العوامل ، فقد أوردناها على سبيل التمثيل لا الحصر . .

ولكننا لو أخذنا بلداً كمصر مثلاً فنحن حينئذ لا نستطيع أن نطبق عليها ما حدث في الصين ، ولا ما حدث

في أندونيسيا ، ولا ما يحدث الآن في الجزائر . . كل بلد من هذه البلاد سلك ويسلك إلى الحرية طريقاً مختلفاً عن الطريق الذى سلكه غيره لأختلاف العوامل السابقة في هذا البلد عنها في البلاد الأخرى . . ولهذا ، ومن حيث إن الطريق الذى يسلكه كل شعب إلى التحرر مختلف ، فلا بد أن يكون الوضع بعد التحرر مختلفاً أيضاً .

صحيح أن الدول المختلفة تكون قد استقلت وتحررت وانتقلت من بند المستعمرات إلى بند الدول ذات السيادة ولكن الأوضاع في هذه البلاد المستقلة لا بد أن تكون مختلفة ، وإن تمتعت جميعها بالحرية والاستقلال . والاختلاف هنا ليس عامل ضعف ، إنه عامل قوة ، فالشعب حين يثور على القوة الاستعمارية التى تستعبده يختار دائماً أنسب الطرق لإنجاح ثورته ، واختياره هذا لا يكون وليد الصدفة ، ولا تنفتح عنه عبقرية واحد من الناس ، ولكنه اختيار مستمد من خبرة الشعب الطويلة التى تكونت لديه خلال العشرات أو المئات أو ربما الألوف من السنين التى كان عليه فيها أن يكافح أعداءه ويخلص بلاده من ربقتهم .

ولهذا فإن وسائل المقاومة التى يستنبطها كل شعب تختلف أيضاً - تبعاً لاختلاف الظروف المشار إليها - من بلد إلى آخر ، ولكن الأمر المؤكد هو أن الوسيلة التى يختارها الشعب هى أنسب وسيلة مقاومة بالنسبة له ولتاريخه وظروفه . . « وهذا ما قصده السادات عندما كرر أكثر من مرة في خطبه وأحاديثه قبل السادس من أكتوبر المجيد أن قرار الحرب سيكون مصرياً مائة في المائة فنجدته مثلاً يقول في حديثه مع الصحيفة اليوغوسلافية دارا يانكوفيتش في ٢٧ مايو ١٩٧٣ ، أى قبل أكتوبر المجيد بحوالى أربعة شهور .

« أنا باقول إحنا طول عمرنا قرارنا من إرادتنا إحنا ، وإحنا الى نملك قرارنا . . يوم ما تكتمل التعبئة الشاملة علشان المواجهة الشاملة إحنا ما بنعملش حساب لقاءات الكبار أو مناقشات الكبار . وادى إحنا شفنا لقاء قبل كده تم في عشرين مايو في السنة الماضية بين نيكسون وبريجينيف في موسكو وشفنا أنه ما طلعتناش بنتيجة أبداً بل للأسف تأخرت القضية . . لذلك المواجهة الشاملة ببساطة معناها إنه لما نكمل إعدادنا كاملاً ، وقضيتنا في أيدينا وبناخذ إحنا قرارنا في الوقت الى نراه إحنا مناسب لنا . . »

وفي نفس الحديث يقول السادات فيما يختص بأصالتنا القومية في اختيارنا للاشتراكية كمنهج فكرى وحياتى أننا : « بلد اختار الاشتراكية بمحض حريته ليس إرضاء للاتحاد السوفيتى أو إرضاء لأى أحد . . ليه ؟ لأنه حل حتمى لمشاكلنا ، اخترنا الاشتراكية وبالتالي فنحن ضد الإمبريالية والاستعمار من ناحية المبدأ . »

وبرغم اختيارنا للاشتراكية ووقوفنا ضد الإمبريالية والاستعمار فقد اتينا مهمة الخبراء السوفيت لأن هذا لا يتعارض ببساطة مع ذلك . ولعزمنا على أن يكون قرارنا للحرب مصرياً مائة في المائة ونفس الوضع بالنسبة لانتصارنا ونحن لم ننه مهمة الخبراء السوفيت إلا بدافع من التأصيل القومى والفكرى لأنه لم يحدث في التاريخ أن حارب شعب من أجل شعب آخر وعلى أرضه ، فهذا بطبيعته يناقض التفكير العلمى الموضوعى . ولذلك كان قرارنا قومياً وليس مجرد مناورة سياسية :

« وأول من يعترف بهذا الاتحاد السوفيتى ، إن إحنا في هذه القرارات ما اتفقناش مع أمريكا من خلف ظهر الاتحاد السوفيتى أو لعبنا لعبة الشرق والغرب أو اشتغلنا بوجهين أو بسياستين ، إنما كان لنا وجه واحد وسياسة واحدة وأول من يعترف بهذا هو الاتحاد السوفيتى لأنه ثبت له إن القرارات وطنية وليس بيننا وبين الغرب أى اتفاق أو اتصال . »

وليس هذا خطأ جديداً على فكر السادات وفلسفته وإنما ترجع أصوله إلى البدايات الأولى لاشتغاله بالسياسة .

فثلاً نجده يعلن - أيام عمله سكرتيراً عاماً للاتحاد القومي - أن الاشتراكية مأخوذة أصلاً من تقاليد ريفنا . فيقول في خطاب قومي في مؤتمر عقد في بلدة التلين بمركز منيا القمح في ٤ يونيو ١٩٥٩ :

« أنه كان لابد من أن نجد النظام الذي يكفل للشعب أن يحكم نفسه بنفسه ، ولذلك كان لازماً أن نبتدئ من القرية الصغيرة التي هي أصل البلاد . . إن الحياة فيها تقوم على التعاون والمجاملة في السراء والضراء وهو ما يسمونه في الخارج بالاشتراكية ونحن نريد أن يعم هذا النظام وهذه الروح التي هي أساس الحكم الديمقراطي السليم الذي يقوم على أن نعتبر أنفسنا عائلة واحدة يؤمن بعضها ببعض الآخر » .

وفي ١ مايو ١٩٥٩ يؤكد السادات نفس التأصيل الفكري النابع من دراسة واقعنا الحي وخلفيتنا الثقافية وتاريخنا القومي وجذورنا العقائدية . وأى منهج آخر ينادى بغير هذا لابد أن يكون مغرضاً وحاملاً في طياته المبادئ المستوردة والغريبة والتي لن تؤدي إلا إلى التبعية والتقليد وفقدان الثقة بالنفس وبالمستقبل وبالوطن ، لأن أبناء الوطن الواحد سيشعرون أن لهم أولياء أمور يعيشون في وطن آخر لا يمت إليهم إلا بصلة المعاصرة . ومع ذلك فأولياء الأمور هؤلاء يفكرون ويخططون لهم كما لو كان الوطن قد فقد كل الكفاءات القومية والعقول الوطنية والإمكانات الأصيلة . وأى تفكير علمي بسيط لابد وأن يرفض هذه التبعية التي لا تهدف إلا إلى تدمير الشخصية القومية التي نمت وترعرعت على مر آلاف السنين منذ عصر بناء الأهرام وما قبلهم . وعلى هذا ينادى السادات في المؤتمر الشعبي الذي عقد في سوهاج في ١ مايو ١٩٥٩ بأن :

« الأصل عندنا هي الوطنية . لقد كافحنا منذ مئات السنين في سبيل استقلالنا وحريتنا . فإذا كان هناك - في هذا الوطن - من يريد أن يجعل من نفسه عميلاً لدولة أجنبية ، فليعلم أن وطننا هذا وطن الأشراف الأبطال ، ولا مكان له بيننا .

إننا نمد يد الصداقة إلى كل من يريد صداقتنا . إننا نريد الصداقة الشريفة . صداقة الند للند . نحن لسنا دولة كبرى ، ، ولا نملك القنابل الصاروخية وإنما نحن نقف هذا الموقف لأننا نملك ما نؤمن بأنه أقوى من هذا . نحن نملك الإيمان بالله سبحانه وتعالى . ونملك القلوب المؤمنة بهذا الشعب . وهذه القوة لا يمكن أن تقهر ، لأن قوتها من قوة الله » .

وقبل هذا التصريح بعامين تقريباً يرز السادات منهج التأصيل القومي والفكري على صفحات جريدة « الجمهورية » في ٢٥ فبراير ١٩٥٧ فيقول :

« قوميتنا ووحدتنا لا شرقية ولا غربية ، وإنما هي تراث الأجيال مما علمته لنا أدياننا ، وما تركه لنا أجدادنا العرب من نخوة وإباء ، لا تقبل الضيم ولا تنام على استخذاء . »

هذا هو المنهج العلمي الذي يمثل العمود الفقري لفكر السادات وفلسفته . فهو لا ينادى بهذا على سبيل إشعال النخوة الوطنية أو إثارة الشعور القومي على طريقة شعراء العرب في العصر الجاهلي الذين أرسلوا القصائد حمماً نارية لإلهاب الحماس القبلي حتى يهب أبناء القبيلة للذود عن حياضها ، ولكن السادات ينادى بهذا لأنه المنهج العلمي الوحيد الذي يمكن لأمة أن تعتمد عليه في اللحاق بركب العصر الحضاري ، هذا الركب الذي لا يفسح مكاناً للتابعين والمقلدين واللاهئين وراء مجد الآخرين . وإذا أردنا أن نلحق بالركب وأن نتبوأ مكانتنا العالية القديمة فلا بد من دراسة واقعنا وتاريخنا وشخصيتنا دراسة علمية موضوعية بعيدة عن أية مؤثرات غريبة أو دعايات أجنبية أو إحياءات مدسوسة .

وبما أن ثورة الثالث والعشرين من يوليو كانت من العلامات البارزة على طريق تاريخنا القومي فإن السادات كان

أول من طلب من فئات الشعب المختلفة دراستها واستيعاب جوانبها التاريخية والقومية . فأعظم خدمة يمكن أن يؤديها الشعب تجاه ثورته هو دراستها وليس مجرد الانفعال السريع بها ، لأن عمر الانفعال قصير بحكم طبيعته العاطفية البعيدة عن كل فكر عقلاني أو منهج علمي . أما الدراسة الموضوعية فكفيلة بتحويل هذه الثورة إلى جزء نابض حي من وجدان الأمة يتفاعل معه عن طريق الأخذ والعطاء ، التقييم والتصحيح ، الفهم والاقتناع ، الاستيعاب والإقناع . ولذلك نادى السادات على صفحات « الجمهورية » في أغسطس ١٩٥٤ بضرورة تفهم الشعب لحقيقة الثورة وليس مجرد الانفعال الحماسي الذي يمنع كل التحام حقيقي بين الثورة والشعب . يقول السادات :

« يجب أن يتفهم الشعب حقيقتها ، ومن ثم يبدأ في دراستها ، ومعرفة اتجاهاتها لكي يمضي معها وهو مؤمن بأن ثورته كان لا يمكن أن تتم إلا بهذا الأسلوب . . »

الطريق - إذن - الذي يجب أن نسلكه لكي نصل منفعلين مع الثورة ، مؤمنين بها ، حريصين عليها ، مبهورين من كل عمل جليل تقوم به . هو أن ندرسها . ندرس ظروفها . وواقعها التاريخي ثم بعد ذلك ترسخ مبادئها في أذهاننا ، وتلتصق بعقولنا ، وتمتدح بنفوسنا . »

ولعل رغبة السادات في أن يدرس الشعب الثورة ، هي أن يتعلم الشعب مفهوم المنهج العلمي . فلا شك أن التخطيط العلمي البارع هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى نجاح الثورة وجنبا ما حدث لثورات عام ١٩١٩ ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٦ ، ١٩٥١ . رغم أن السادات يطبق نفس المنهج العلمي على هذه الثورات فيقول في كتابه « معنى الاتحاد القومي » ص ١٢ :

« الواقع أننا نقول إن ثورات ٣٦ و ٤٦ و ٥١ فشلت ، ولكننا نقول إنها فشلت مجازاً ، فالثورة إذا قامت لا بد أن تنجح ، إن فشلها في ذاته يعد نجاحاً ، لأن الدروس التي يستخلصها الشعب منها هي نفسها العوامل التي تكتب النجاح لما يتلوها من ثورات . . »

وعناصر الفشل في أية ثورة ماضية هي نفسها عناصر النجاح في أية ثورة قادمة . وتلك الثورات التي فشلت رسبت في ضمير الشعب المصري حقيقة كان قد بدأ يحسها ويدرك كنهها من تلك الضربات الخلفية . . »

أي أن المنهج العلمي يحتم على الإنسان إذا بدأ مشروعاً ما أن يدرس المشروعات المماثلة التي سبقته حتى لا يكرر نفس الأخطاء التي وقعت فيها من قبل ، وحتى لا يضيع الوقت والمجهود والإمكانات التي يمكن الاستفادة بها في الإنجاز الجديد من حيث الإضافة والحذف والتعديل والتقييم والتصحيح . أي أن ثورة يوليو المجيدة هي امتداد للثورات المصرية التي سبقتها عبر تاريخنا القومي . وإذا اختلفت عنها فهذا يرجع إلى ارتباطها أكثر بالمنهج العلمي الذي حافظ على طاقتها من التبدد وعلى نجاحها من الاحتمالات غير المتوقعة . وهذا المنهج إذا درس بعناية ونفذ بدقة فإنه يأتي بما يشبه المعجزات في كمالها وروعها . ونقول بما يشبه المعجزات لأن السادات يؤمن بأن المعجزة بطبيعتها أمر خارق يفوق الطاقات العادية للبشر ولا يمكن تكراره كما يقول في « ورقة أكتوبر » . ولكن في استطاعة الشعوب الإتيان بالمعجزات التي تقع في حيز القدرة البشرية ، وهذا ما يطلق عليه أحياناً اصطلاح « عبقرية الشعب » . وفي هذا المعنى يتحدث السادات عن كيفية نجاح ثورة يوليو المجيدة في كتابه « معنى الاتحاد القومي » ص ١٧ :

« لم تكن طبعاً في عصر المعجزات التي تهبط من السماء فذلك العصر كان قد انقضى . ولكن يبدو أننا في عصر معجزات . . معجزات تنبع من الأرض ، وتقوم بها الشعوب . الشعوب التي إذا قررت شيئاً فلا بد أن تحققه لأن مشيئتها من مشيئة الله ، وإذا قررت أن تحققه حققته ولو اقتضاها الأمر القيام بمعجزة . . وشعبنا أيضاً كانت مشيئته

في حركة الشعب العادية . . إن ما يصلح في زمن السلم لا يصلح في زمن الحرب ، وما يصلح في وقت الكبت لا يصلح أبداً ساعة الثورة . .

الإنسان حين يكبت يصبر ، ولكنه حين يثور يفعل ويضرب ، وقانون الصبر غير قانون الضرب . . وفي زمن السلم قد تقول لرئيسك لا فيلفت نظرك فقط ولكن في زمن الحرب قد تقول لا فيطلق عليك الرصاص في الحال . . «
تلك هي المتغيرات النسبية التي لا بد أن توضع في الاعتبار ، وأن تدرس دراسة علمية منهجية حتى تقل نسبة السهو والخطأ إلى أقل درجة ممكنة . ولذلك كان التمهيد للثورة من أصعب المهام الدقيقة التي بدأها السادات مع زملاء كفاحه عام ١٩٤٤ . فعندما استعرضوا حالة الجيش ، وجدوها حالة أليمة غير مشجعة ، فلم يكن لضباط الجيش إذ ذاك أي رأى عام . ويفترض السادات أنه لو كان كل ضابط صغير إذ ذاك ساخطاً في نفسه ، فإن هذا السخط لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة عملية ، ما لم يصبح سخطاً عاماً ، محدد الأسباب ، دافعاً إلى التكتل والعمل من خلال خطة منهجية مدروسة ترتب النتائج المتوقعة قياساً على الأسباب الموضوعية . فلذلك كانت حتمية لا مهرب منها أن تخلق المجموعة الثائرة رأياً عاماً بين ضباط الجيش ، حتى يستطيع هذا الرأى العام أن يحرك الجيش كله نحو هدف واحد ، بصورة منظمة منسقة تؤتي ثمارها على حد قول السادات نفسه .

ويحلل السادات العوامل التي عاصرت التمهيد للثورة فيوضح أن جماعة الضباط الأحرار لم يكن يغيب عن ذهنها ما سبق من أحداث خلال الفترة الأولى من أيام الحرب ، فكان لابد من الاستفادة من دروس الماضي وتجاربه . ولكن كان مجهود الضباط الأحرار محدوداً لأنهم كانوا يعملون اعتماداً على أنفسهم وليس بناء على رأى عام موحد وموجه بين الضباط ، ولذلك كانت أعمالهم فردية ، أو شبه فردية . وقد تأكد للسادات ألا جدوى هناك من أي عمل فردى لا يحكمه منهج علمى شامل يجمع الطاقة كلها ثم يكثفها في شحنة فعالة ، فالعمل كان يجب أن يكون عملاً جماعياً كبيراً يأتي نتيجة لرأى عام يجمع الضباط . أو كما يقول القانون الكيميائى المعروف باسم قانون فعل الكتلة أو الثقل أن اتجاه التفاعل الكيميائى يتأثر بحسب الكتل المشتركة فيه ، بمعنى أنه إذا كانت كتلة المادة المشتركة في التفاعل كبيرة بالنسبة لكتل المواد الأخرى فإن اتجاه التفاعل يأخذ شكلاً مختلفاً عما لو كانت تلك الكتلة أقل من الكتل الأخرى المشتركة معها في التفاعل . وإذا طبقنا هذا على الرأى العام الثورى فسنجد أنه إذا كانت كتلة الرأى المشتركة في التفاعل الواحد كبيرة فعنى هذا أنه يمكن تحديد الاتجاه الذى سيسير فيه التخطيط الثورى على أساس علمى .

أما المشكلة الثانية التي كان يفكر فيها السادات مع جماعة الضباط الأحرار فهي انعزال الجيش عن الشعب ، وتسخيروه دائماً ضد كل حركة شعبية تقوم في البلاد . فقد كان الشعب في تلك الفترة يتحمل عبء الثورة والتضحية الجسيمة والاستشهاد برصاص السلطات المصرية والإنجليزية على حد سواء . ولذلك كان أهم بند في التخطيط العلمى للثورة أن يطمئن الشعب إلى جانب الجيش ، وأن يدرك أن هذا الجيش معه ، لا عليه ، وعلى الأقل ، أن يدرك أن هذا الجيش ، إن لم يستطع أن يكون معه بحكم ظروفه وواقعه ، فلن يكون عليه بحكم مصريته . .
واستقرت جماعة الضباط الأحرار على منهج علمى طويل المدى ، والسير خطوة خطوة حسب برنامج مرسوم على الوجه التالى :

- ١ - خلق رأى عام قوى بين ضباط الجيش .
- ٢ - إشعار الضباط أن عليهم مسئولية كمواطنين ، لا تقل عن مسئولية أفراد الشعب العاديين . .
- ٣ - وضع تخطيط تدريجى لبث الوعى السياسى بين الضباط حتى يصبح من الممكن توجيههم إلى أن يكون

للجيش نفسه دور في عملية إنقاذ البلاد ، أو أن يكون على الأقل محايداً بين الشعب والسلطات الحاكمة العملية . بحيث لا يشترك في تسديد الضربات إلى الشعب إذا تقدم أحد لحمل تبعة الإنقاذ .

أما الهدف البعيد الرئيسى والذي لا يجب أن يغيب عن أعين منفذى التخطيط حتى لا يدخلوا في متاهات جانبية هو الوصول بأية خطة من الخطط المحكمة إلى تغيير النظام الملكى القائم فى البلاد . وكانت أولى خصائص تلك الخطة هى نبذ السرية نبذاً تاماً فى المراحل المبكرة من مراحل الدعوة ، لأن السرية توحى بالتآمر ، وتنبذ بالخطورة ولا تستطيع أن تجمع الأنصار بسهولة ، إذ أن عامل الخوف والحذر قد يتغلب فى آخر الأمر . أما فى جو العلنية الصريحة فيمكن تكوين الصداقات وتعزيزها ، واختيار الأشخاص الذين يبدو إخلاصهم وقدرتهم على العمل دون إثارة لغط أو شكوك فى صفوف الضباط أو فى الأوساط الحاكمة . وعلى هذا الأساس قامت جماعة الضباط الأحرار بين جماعات الأصدقاء فى الجيش بإثارة المناقشات العلنية فى جميع مشكلات الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، الداخلية والخارجية . وبالفعل انتشرت المناقشات العلنية بين الضباط بصورة مبشرة ناجحة ، وبدأت تسمع نفس المناقشات فى أماكن متفرقة ، وبدأت ترى الضباط يلتقون فإذا هم متفقون فى السخط ، متفقون فى التفكير فيما يجب عمله من أجل إنقاذ الوطن والوفاء بحاجاته . ومعنى هذا أن رأى العام قد بدأ يتكون ، وأن عقبة كبيرة من عقبات الطريق قد بدأت فى الزوال .

ويشرح السادات الخطوة التالية من المخطط العلمى الثورى فيقول إنه كان لابد بعد ذلك من التوجيه ، فقد رأى ببصيرته النافذة ونظرته العلمية أن هذا السخط عندما ينمو ، يمكن أن يكون خطراً كبيراً ، إذا لم يصحبه توجيه سديد قائم على منهج علمى محدد يعرف جيداً الخطوة التى تؤدى إلى الخطوة التالية وهكذا . فقد وضع السادات فى اعتباره أنه كان من المحتمل بل من المتوقع أن تقع أحداث كالتى كانت تقع بين شهر وآخر ، وبين يوم وآخر من تلك الأيام العصيبة السوداء ، وإذا بالساحطين ينفجرون فرادى ، أو ينفجرون دون وعى ، فيؤخرون الحركة بدلا من أن يساعدوا على تقدمها ، ولذلك كان من الضرورى الالتزام بالتفكير العلمى المنظم حتى لا يحدث أى تشبث أو تضيق أو تشويه ، وخاصة أن من الممكن لبعض الهيئات أو الجماعات إذ تشعر بهذه الروح الجديدة تدب بين ضباط الجيش أن تحاول ضمهم إليها بصورة أو بأخرى ، وعندئذ تفلت من الجيش قيادته ، إلى أيد قد لا تحسن التوجيه ولذلك قررت جماعة الضباط الأحرار تطوير المخطط الثورى حتى يتلاءم مع الظروف الجديدة ، وهو تطوير يحتمه المنهج العلمى الذى يؤمن أنه لا توجد قاعدة ذهنية غير قابلة للتغيير . ومن هنا كان إيمان السادات العميق بالقانون الرياضى المعروف بقانون المتغيرات والذي يقول إن الحدث المتغير هو الذى يتوقف حدوثه على عدد من الجزئيات المتغيرة وهو يأخذ شكلاً أو قيمة هى حصيلة أو مجموع المتغيرات الأخرى . وهذا القانون الأساسى فى الرياضيات البحتة يعنى أن قيمة الحدث المتغير لا تثبت قيمته على حال واحدة وأن تقدير فعل هذا الحدث يتوقف على الزمن الذى يقدر فيه بعد قياس كل عامل داخل فيه على حدة وتقدير هذه العوامل مجتمعة معاً .

ولذلك كان من المنطقى أن يتطور المخطط الثورى بحيث تتفق جماعة الضباط الأحرار على أساسين آخرين تعتبر المحافظة عليهما عاملاً جوهرياً من عوامل النجاح - أولاً : العمل على ألا يتأثر الضباط بالأحداث الجارية أى تأثر يدفعهم فرادى أو جماعات على القيام بأى عمل دون وعى أساسى ، ودون خطة حكيمه مرسومة ، ودون منهج علمى . ثانياً : العمل على أن يحتفظ ضباط الجيش باستقلال تفكيرهم ، فلا يرتبطون كأفراد ، أو كجماعات بأية هيئة أو حزب خارج نطاق الجيش ، لأن الجيش عنصر خطير يجب أن يظل توجيهه فى الأيدى القادرة على تقدير خطره ، فلا يكون أداة فى يد أحد أو جماعة من الناس . وكان لابد لصمان هذين العنصرين من نشاط علمى منظم تسيطر

على توجيهه جماعة الضباط الأحرار نفسها .

وبدأ التنفيذ العملي للخطّة ، فبالتدريج وجدت حلقتان كبيرتان مجتمعان علنا ، وفي نطاق واسع ، وعلى أساس الصداقة أيضاً لكي تبث الأفكار ، وتحذر الضباط من التأثير بالحوادث تأثيراً فردياً ومن الارتباط بأية جماعة أو فرد خارج نطاق الجيش . وبالفعل بدأت الفكرتان ترسخان في نفوس الضباط ، وأصبحتا جزءاً لا يتجزأ من الرأي العام المنتشر الموحد بين ضباط مختلف الأسلحة . وبذلك اطمأن السادات إلى أن الجيش لن يقوم بأى عمل أخرق ، أو أحمق ، وأن الضباط سيظلون بمنأى عن التأثير الفردي ، وأنهم لن يعملوا إلا جبهة واحدة منظمة . وبطبيعة الحال لم تكن سيطرة التنظيم قد شملت جميع الجيش ، ولا نسبة كبيرة منهم ، بل كانت في الجيش العناصر السلبية التي لا تضر ولا تفيد ، والتي لا يمكن الاعتماد عليها في أى شيء . وكانت في الجيش عناصر أخرى مستقلة عن هذا التكوين ، رفض تنظيم الضباط الأحرار التعاون معها . وكانت في الجيش عناصر انتهازية ، لم يكن من الصعب تحديدها ، واتقاء خطرهما .

ومثلما كان من المستحيل الوصول إلى السيطرة الكاملة على جميع ضباط الجيش وعناصره ، فقد كان من المستحيل منع الضباط من التأثير بالأحداث الجارية في البلاد ، ولكن المبدأ الذي اتفقت عليه جماعة الضباط الأحرار ، منذ البدء ، وهو ألا يؤدي هذا التأثير إلى أى عمل فردي . قد ظل سائداً طول الوقت ، وكان تأثير الضباط بالمتغيرات الجارية ، عاملاً مساعداً لا كتمال صفوفهم حول الفكرة والهدف البعيد ، ولتحديد دورهم تحديداً واضحاً لا يحتمل أى لبس . . . وكان من أهم المتغيرات التي حدثت هي حرب فلسطين التي خسر فيها تنظيم الضباط الأحرار كثيراً من الأعضاء . ولذلك حان الوقت للقيام بعمل حاسم حتى لا يتحول الزمن إلى عامل مضاد لحركة الضباط الأحرار . وخرجت المنشورات السرية لتقضى مضاجع قادة الجيش ورجال القصر وحكامهم . ولم تكن المنشورات ذات لهجة حماسية جوفاء بل تحدت فيها أهداف الشعب بوضوح وبأسلوب علمي .

وكان من رأى السادات ألا يحدد في المنشورات مطلباً للجيش أو لضباطه وجنوده ، كل كلمة في تلك المنشورات كانت مستمدة من اتجاهات رأى العام في البلاد ، فالشعب يريد العدالة الاجتماعية والقضاء على المستعمر وأذنابه ورفض الأحلاف العسكرية والدفاع المشترك . وقد طبع تنظيم الضباط الأحرار مئات المنشورات لتأييد وجهة نظر الشعب ، ومضى كل أعضاء التنظيم يكتل ضباط الجيش في جميع الوحدات استعداداً لاندلاع الثورة الشعبية . وأقبلت الأحداث والمتغيرات لتدفع عجلة التاريخ بسرعة ، فقام الضباط الأحرار بواجبهم الوطني في عمليات الفدائيين في منطقة القناة خلال عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ رغم إرادة القصر ، والحكومة ، وكان نجاح فكرة تكوين تشكيلات ثورية داخل الجيش أكثر مما قدرت الهيئة التأسيسية للحركة ، وقد أصبح في كل وحدة من الوحدات العسكرية ، أفراد منضمون لتنظيم الضباط الأحرار ، ونجحت الفكرة إلى حد كبير ، بينما الأمور في البلاد تتطور بشكل سريع ومثير ، فقد وقع حريق القاهرة في يناير عام ١٩٥٢ ، واجتمع تنظيم الضباط الأحرار لتغيير الخطّة كلها حتى تتلاءم مع الظروف الجديدة الطارئة ، وكانوا قد قدروا مدة خمس سنوات للقيام بالعملية الكبرى ، لكن السادات اعتبر ذلك الحدث الضخم نذيراً لكل التنظيم بالإسراع في تنفيذ الخطّة الجديدة . وبالفعل اجتمع التنظيم وقرر الضباط الأحرار أن يكونوا على استعداد خلال شهر واحد .

وأثناء حريق القاهرة ، صدرت الأوامر لجميع الضباط الأحرار في القاهرة بمقاومة أعمال التخريب لأن القصر والاستعمار وأعوانهما سيمضون في ضرب الحركة الوطنية بكل وسيلة ، ولا سبيل إلى مقاومة هؤلاء الأعداء إلا بثورة ، وليس بالتخريب أو الخطب الرنانة . والثورة عمل علمي في الدرجة الأولى وليست مجرد فورة طارئة ولذلك يجب ألا تدخل

في متاهات جانبية تبدد من طاقتها وتشتت من شحنتها . وقد حرص السادات دائماً من خلال عمله في تنظيم الضباط الأحرار على ألا يخرج أحداً عن إطار الموضوعية العلمية ، ولذلك كانت النتيجة أن نجحت هذه الثورة التاريخية التي غيرت خريطة الشرق الأوسط كله إن لم تكن قد غيرت خريطة العالم المعاصر كله . ونجاح الثورة أكبر دليل على مقدرة المنهج العلمي على تحقيق أهداف وأخطرها دون المجازفة والمقامرة بأرواح المشتركين في هذا العمل التاريخي .

والمنهج العلمي الحقيقي الشامل لا يقبل أية تجزئة ، بمعنى أنه من المستحيل أن يطبق هذا المنهج على جانب واحد من الحياة ثم تترك الجوانب الأخرى تتحرك بعفوية وعشوائية . ولذلك يجب أن يكون المنهج شاملاً ، ومن هنا كان اهتمام السادات بالجبهة العسكرية مساوياً لاهتمامه بالجبهة الداخلية ، ومن هنا أيضاً كان إصراره على أن يسير التحرير موازياً للتعيمير عندما تولى رئاسة الجمهورية ، لأن الخطين لا ينفصلان عن بعضهما البعض ، فهذا يساند ذاك وهكذا . وجسم الأمة عبارة عن وحدة عضوية لا تقبل الانفصال أو التقسيم . ولذلك يقول أنور السادات في الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب في ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ :

« إن علينا وراء جبهة القتال عملاً اقتصادياً واجتماعياً لا يجب أن يتوقف لحظة . ذلك أنه فضلاً عن المعركة فإنه يجب ألا يغيب عنا أن هدف ثورتنا الأصيل هو بناء حياة حرة لشعبنا . ونحن على سبيل المثال لم نبني السد العالي لكي نحارب ، وإنما حاربنا لكي نبني السد العالي .

إن معركة البناء الاقتصادي والاجتماعي تتصل من هنا اتصالاً وثيقاً بمعركة ميدان القتال ، معركة القتال شرف الوطن . ومعركة البناء الاقتصادي والاجتماعي في وطننا معركة واحدة » .

فالهدف من قتالنا هدف حضاري ، نحن لا نحارب من أجل الحرب ولكن من أجل التقدم والرفاهية والحياة الحرة لشعبنا . ولذلك يجب الاهتمام بعلوم الإدارة حتى لا يحدث تكرار أو تشتت أو ضياع . فخير أسلوب للتوفيق بين متطلبات وواجبات كل من الشعب والجيش يكمن في التنظيم والإدارة . في نفس الخطاب يقول أنور السادات :

« إذا استطعنا أن نصنع مفهومنا متطوراً لإدارة الدولة ، وإذا استطعنا أن ننقذ من الضياع ما هو ضائع منها الآن . إذا استطعنا ذلك . . فليس نخالجننا شك في أننا سنكون قادرين على مواجهة تحدى العصر . خصوصاً وأن هناك مسئولية ذات طابع خاص وصارم سوف تواجهنا فور انتهاء الحرب ، وهي مسئولية تعمير ما تركته الحرب من آثار خصوصاً في منطقة القناة » .

إلى هذا الحد البعيد تصل رؤية القائد في استشراف آفاق المستقبل ، فقد قال هذا الكلام قبل أكتوبر ١٩٧٣ بثلاث سنوات وكأنه كان يرى ببصيرته العبور الملحمي وتحطيم خط بارليف ثم مسئوليات النصر وتعمير ما دمره العدو في الحرب . واستشراف آفاق المستقبل بهذه الدقة العلمية ليس من باب التخمين أو إشباع الانفعال ولكنه قائم على حسابات علمية . وقد لا يعلم البعض في العالم العربي أن هناك عالماً حديثاً قائماً بذاته اسمه « علم المستقبل » يدرس إمكانيات الحاضر وكيف تؤدي إلى تحقيق احتمالات المستقبل ، فلم يعد المستقبل مهنة قارئ الكف وضاربى الودع وغيرهم من المنجمين بل أصبح الميدان الذي يتسابق فيه العلماء والمفكرون بكل إنجازاتهم وإمكانياتهم العلمية والفكرية من أجل رفاهية بلادهم ومواجهة تحدى العصر . ومن هنا كان التخطيط العلمي الشامل لعام ٢٠٠٠ الذي ورد ذكره في « ورقة أكتوبر » حيث يقول المعلم :

« إن تجربة حرب أكتوبر قد أثبتت أن التخطيط العلمي السليم هو أساس كل عمل ناجح . وأن التخطيط الاقتصادي الذي أخذنا به منذ أربعة عشر عاماً قد ساعدنا على إحراز مكاسب محققة ، ولعب دوراً أساسياً في ضمان

الصمود الاقتصادي . وتجربة الشعوب النامية كلها تؤكد أن التنمية لا يمكن أن تتم بشكل تلقائي ، بل لابد لها من تخطيط . بل إن التخطيط كأسلوب علمي لتوجيه الاقتصاد القومي قد تأكدت فاعليته فثبتته الدول الرأسمالية . ولا شك أننا ، إذا أردنا حقاً أن تكون استراتيجيتنا الحضارية الشاملة للمستقبل قائمة على أسس مدروسة ، تربط بين تلك الأهداف التي أشرت إلى بعضها ، وتجعل خطونا نحو التقدم متوازناً . فإن حاجتنا سوف تكون أشد إلى الالتزام بمبدأ التخطيط .

فالتنمية ليست عملاً عفوياً ، يتم كيفما اتفق ، في تلقائية كاملة . إنما التنمية عمل علمي يقوم على التنبؤ بالمتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية ، وبعد التصور الوطني لمواجهتها في آجال زمنية معينة . إن العالم كله بشتى نظمته السياسية والاجتماعية ، يهتم بعالم جديد ، هو عالم المستقبل ، ويحاول أن يستشف اتجاهات التطور في حدود ربع القرن المقبل ، أي إلى سنة ٢٠٠٠ ، وترسم كل دولة منها تطورها في خطط طويلة الأمد . وما نحن نرى دول العالم كلها تسرع إلى إعادة دراسة مستقبلها على ضوء المتغيرات التي تتدافع كل يوم . من ندرة خطيرة في الخامات الأساسية للصناعات ، إلى خطر متزايد من انخفاض المواد الغذائية المتاحة ، إلى مظاهر التضخم التي تحتاج العالم ، إلى الحركة الجديدة لرؤوس الأموال من أماكنها التقليدية إلى أماكن أخرى . وكلها أمور تدفع العالم إلى إعادة النظر في كثير من الأفكار والتوقعات السابقة .

ولا يمكن أن نعيش في هذا العالم ونحن نفكر من سنة إلى أخرى . بل لابد كما قلت من تصور جريء لاستراتيجية حضارية شاملة ، ولابد لهذا كله من التخطيط العلمي السليم .

ولأن تحركنا المقبل سيكون أكثر اتساعاً في شتى مجالات التقدم والبناء ، ولأننا نريد كما قلت سابقاً أن نستخدم كل المحركات والروافد المالية والاقتصادية الممكنة ، فإن هذا يجعلنا أكثر حاجة إلى الأخذ بمبدأ التخطيط في حياتنا . والانفتاح الاقتصادي يزيد من أهمية التخطيط ، لأن خير وسيلة لاجتذاب المستثمر هي أن نعرض عليه مشروعات مدروسة مرتبطة بعضها ببعض . لأن نجاح أى مشروع على حدة يتوقف إلى حد كبير على تقدم الاقتصاد في مجموعه واطراد التنمية . وكذلك لأن وفود رأس المال إلى البلاد دون تخطيط لاستقباله ، يمكن أن يخل بتوازن الاقتصاد القومي ، ويحدث آثاراً جانبية لا يستهان بها مثل التضخم . أو ظهور الاختناقات هنا وهناك . على أن هذا كله يحتاج إلى تغيير وتطوير في فلسفة التخطيط وفي أجهزته ومسؤولياته ، يجعلها أكثر دقة ، وأكثر مرونة ، وأوسع مخيلة .

فهناك التخطيط للقطاع العام ، الذي هو رأس الحربة في معركة التقدم والبناء لتحديد أهدافه وإعادة رسم أولوياته . وهناك التخطيط الذي يخدم القطاع الخاص ، وهذا يكون عادة بوسائل أخرى تقوم على إيجاد الحوافز وتوفير الظروف التي تكفل اتجاهه بإرادته إلى المجالات التي تكون التنمية العامة أكثر حاجة إليها . وهناك كما قلت التخطيط الذي يخدم الاستثمارات الوافدة ، بإعداد الدراسات المسبقة ، وتوفير حاجاته في إطار الاقتصاد القومي في مجمله .

إن التخطيط ضرورة لخدمة كل قطاعات الاقتصاد . إنه يخدمها بإعداد الدراسات وتحليل البيانات وتوفير المعلومات . وبوضع خطط توفير المهارات الفنية المطلوبة ، وبالتنبؤ بظروف الاستثمارات المختلفة وآثارها بوجه عام . والمجالس القومية المتخصصة ، التي تم تكوينها ، سوف يكون عليها دور كبير في هذا المجال . ولذلك يجب أن تكون هناك علاقة وثيقة بين سلطات التخطيط العليا في البلاد .

ولست في حاجة إلى أن أؤكد بأن التخطيط لا يعنى القيود والتعقيدات الإدارية . فبدوننا هو مركزية التخطيط

ولا مركزية التنفيذ ، ومتى تحددت الخطة العامة ، انطلق الجميع يتحركون في إطارها في حرية ومرونة .
 تلك هي النظرية العلمية المتكاملة التي قدمها السادات من أجل بناء مصر المستقبل ، نظرية تؤمن بأن المستقبل للأمة التي تبتكر المنهج العلمي النابع من احتياجاتها والقادر على الوفاء بها . وكان المعلم دائم التركيز على هذا الخط لدرجة أننا نجده يبرز في معظم أحاديثه وبياناته وخطبه كالنغمة الرئيسية في القطعة الموسيقية . فقد أراد أن يجعل من الأسلوب العلمي في حياتنا جزءاً لا يتجزأ من خصائص الشخصية المصرية . في لقائه مع أساتذة الجامعات في ٨ يناير ١٩٧١ يؤكد لهم أن ما نواجهه هو قضية نحن قضائنا وليس غيرنا ، وهي قضية تفكير ومخطيط وليست قضية احتكام وحكم نطلبه من أحد أو تحكيم نقبل به من طرف أو أطراف أخرى . وبالتالي هي قرار حر تملكه إرادتنا إذا ما استطعنا أن نفكر فيه وأن نخطط له بالأسلوب العلمي الصحيح المناسب . ولذلك يوضح لهم الزعيم أنه :
 « من أجل ذلك أريد فكمكم معى هذه الليلة ، وأريد عقلكم كله لأن الوطن فى حاجة إلى ذلك كله ولأن أمة بأسرها تنتظرها .

ولست أريد أن يعلو صوتى خلال هذا الحوار ، ولا أريد أن أنفعل ، لأن الحناجر القوية لا تكسب المارك ، كما أن الأصوات العالية ليست بالضرورة تعبيراً عن القوة القادرة .
 لعلنا نبدأ بالأسلوب العلمى الذى تعودتم عليه ، والذى أرانا فى مسيس الحاجة إليه .

ثم يقوم بشرح مفهوم الأسلوب العلمى عنده ، وهو المفهوم الذى يشكل الخط الرئيسى فى فكر السادات وفلسفته . وهو الذى يميز طريقة تناوله للمشكلات الحيوية والقضايا المصرية للأمة ، وهو أيضاً الذى وضع به المخطط العبرى لحرب أكتوبر المجيدة وأدى إلى الانتصار الباهر الذى أعاد إلى الأمة العربية ثقها فى نفسها ومقدراتها بعد سنوات طويلة من الاعتماد على الحناجر القوية والأصوات العالية . يقول السادات فى تطبيقه للأسلوب العلمى على قضية الشرق الأوسط فى نفس اللقاء مع أساتذة الجامعات :

« نبدأ بتشخيص المشكلة التى نواجهها الآن . ثم ندرس القوى المؤثرة فيها ، واحدة واحدة ، ثم نبحث فى الموقف الراهن الذى نقف أمامه وجهاً لوجه ثم نتطرق إلى الاحتمالات المطروحة أمامنا ، والنتائج المترتبة على كل منها ولعلكم تتفقون معى على أن هذا هو الأسلوب السليم ، ولعلكم ترونه معى المنهاج السليم » .

وهذا المنهاج يتطلب صفات معينة فى القائمين على تطبيقه . وأهم هذه الصفات : وضوح الرؤية ، دراسة الواقع بكل إيجابياته وسلبياته ، قوة الأعصاب ، استيعاب منطق الطبيعة والتاريخ والتطور ، معرفة السطحى العابر المتغير من الطبيعى الحقيقى الثابت . وهذا الخط يبرز فى بيان السادات أمام مجلس الشعب فى ٤ فبراير ١٩٧١ حين يقول :

« إن الأمر الواقع فى لحظة من اللحظات لا يستطيع أن يغير وجه الحقيقة الكبرى ذلك إذا استطعنا إدراك هذه الحقيقة وإذا ملكنا فى لحظة الخطر قوة الأعصاب التى تتحمل الصدمة وتقدر أن تميز وتفرق بين ما هو سطحى عابر وما هو طبيعى وحقيقى له قوة البقاء والدوام . لقد خسرنا معركة فى الحرب بيننا وبين إسرائيل وهذا محتمل ولكننا لم نخسر الحرب كلها لأن ذلك معاد للطبيعة وللتاريخ وللتطور » .

هكذا كان سلوك القائد فى حرب أكتوبر المجيدة ، قوة الأعصاب التى تبدأ الحرب وتعرف تماماً كيف توجهها من أجل تحرير الأرض واستعادة الشرف . فقرار الحرب كان مصرياً مائة فى المائة وبناء على دراسة كافية بعيداً عن أى استفزاز طارئ . وقد قال السادات هذا الكلام قبل حرب أكتوبر بما يزيد عن ستين ونصف وذلك فى ٧ مارس ١٩٧١ فى بيانه للأمة حين أوضح :

« إننا ندرس مواقع خطانا دراسة كافية ، ولن يدفعنا أى استفزاز ، مهما كان ، إلى الخروج عن تخطيطنا السياسى والعسكرى ، وسوف نتمسك فى أيدينا بزمam المبادرة ، ونراقب التطورات ، ونتصرف وفق ما تمليه علينا مبادئنا وأهدافنا وأولها : مبدأ التحرير وسلامة التراب العربى وحقوق شعب فلسطين » .

وهذه الدراسة العلمية الكافية لابد أن تكون شاملة ، بمعنى أن تكون من المرونة بحيث تنوع من أسلحتها ولا تحصر عملها على جبهة واحدة ، وأن تبدأ التحرير فى أكثر الأوضاع ملائمة من الناحية السياسية ، فالإطار السياسى المحيط بفاعلية السلاح لا يقل أهمية عن السلاح نفسه . وهذا المعنى يبرز فى خطاب السادات فى افتتاح دورة المجلس الوطنى الفلسطينى فى ٢٨ فبراير ١٩٧١ عندما يحدد :

« إن حربنا مع العدو متعددة الجبهات كما أنها متنوعة الأسلحة وكنا ومازلنا نرفض أية محاولة لحصر عملنا على جبهة واحدة ولقصر سلاحنا على نوع واحد ونحن نريد إذا أصبح القتال المسلح هو الباب الوحيد المفتوح أمامنا أن نكون فى أكثر الأوضاع ملائمة من الناحية السياسية للدخول فى هذا الباب بأكبر قسط من الكفاءة وأكبر قدر من الأمانة وكنا نعتقد ومازلنا بأن الإطار السياسى الذى نحمل فيه السلاح لا يقل أهمية عن السلاح الذى نحمله نفسه وعن ذكائنا فى استعماله . وهكذا فإن تحرير الأرض كان هو النقطة التى اخترناها للوقف الحاسمة ولهذا فقد كان ضرورياً أن يصل العدو إلى درجة الكشف عن مطامعه فى أرضنا وأن يصل العالم إلى درجة اليقين الكامل بأننا فيما نواجهه لا خيار لنا غير القتال ، لأنه ليس بيننا من يستطيع أن يتنازل عن أرضه » .

هكذا يستفيد المنهج العلمى من أخطاء الماضى ودروس التاريخ ، فقد ملأت إسرائيل الدنيا صراخاً وعويلًا قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ بأن العرب قد قرروا الإلقاء بها فى البحر بينما كانت تدجج نفسها بالسلاح حتى أسنانها . وهذه الدعاية المغرضة والخبيثة وضعت العرب فى وضع حرج من جهة المناخ السياسى العالمى على أساس أنهم وحوش نوت الفتك بالحمل الوديع إسرائيل . أما فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فقد نجح العرب فى استمالة رأى العام العالمى لأنهم أثبتوا له عملياً أنه لا خيار لهم فيما يواجهونه سوى القتال . ولذلك عندما اندلعت حرب أكتوبر كانت تصريحات الساسة العالميين كلها فى صف العرب ، حتى إن ميشيل جوبير - وزير خارجية فرنسا أثناء الحرب - صرح بأنهم « لا يستطيعون أن يلوموا أناساً قرروا العودة إلى ديارهم » . بهذا الأسلوب يمزج المنهج العلمى الحياة السياسية بالحياة العسكرية وكذلك بالحياة المدنية أيضاً ، لأن من خصائصه ألا يعتمد على خط واحد ويهمل الخطوط الأخرى . فبناء الدولة الحديثة لا يعتمد فقط على الانتصار فى الحرب ولكن على دراسة وتحليل تبعات ومسئوليات ما بعد الانتصار . وهذا ما أوضحه السادات فى خطابه فى القوات البحرية فى ٢٢ يونيو ١٩٧١ حين قال :

« لابد من مواصلة الكفاح لبناء الدولة الحديثة . نستمر فى تدعيم البناء العسكرى بأحدث وآخر ما يتوصل إليه العصر من الفن العسكرى ، ونستمر فى البناء الصناعى إلى آخر ما فى العصر الحديث من مستحدثات ، ونحن نمضى من ناحية فى تدعيم البناء العسكرى ، ونمضى فى نفس الوقت فى استمرار الخط السياسى النشط ، وكذلك لابد لنا أن نسير فى خط ثالث متواز ، هو بناء الدولة العصرية » .

والمنهج العلمى ليس مجرد عملية رياضية بحتة أو سلسلة ميكانيكية من الأسباب والنتائج ، ولكنه يضع العامل الإنسانى فى الاعتبار ، وذلك بما يحمله من شحنات الانفعال ومحاذير اليأس ومتاهات الفكر . وعلى هذا فإن من الحتمى أن تدرس هذه الاحتمالات والتوقعات حتى لا تكون سبباً فى إبطال فاعلية المنهج الشامل ككل ، لأنها كفيلة بخلق أجواء بالغة الصعوبة والتعقيد . فبالإضافة إلى المشكلات الداخلية مثل مشكلة التوفيق بين آمال التنمية وبين ضرائب التعبئة ، والمشكلات القومية مثل مشكلة التوفيق بين مطلب وحدة الصف العربى وهوام لتأييدنا العالمى ،

وبين مطلب وحدة العمل ، وهو حيوى بالنسبة لحشد القوى القادرة على التأثير في ميدان المعركة ، وكذلك المشكلات الدولية مثل مشكلة التوفيق بين إيماننا الذى لا يتزعزع بحقنا وإصرارنا للحصول عليه بكل وسيلة ، وبين توازنات دولية دقيقة ، بالإضافة إلى كل هذا تأتى مشكلة الوقت الذى يمر . ولذلك يقول السادات فى خطابه أمام المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى فى ١٦ فبراير ١٩٧٢ :

« إن الصبر الإنسانى له حدود ، وإن شحنات الانفعال عوارض مشروعة ، فإن البشر مهما بلغ بهم الوعى الموضوعى لا يستطيعون إلا أن يكونوا بشراً ولا يمكن أن يتحولوا إلى مجرد آلات . وفوق ذلك كله فإن دواعى المسئولية تفرض بل وتفرض فى كثير من الأحيان قيوداً لا مفر من قبولها ، بكل ما يمكن أن ينشأ عنها من محاذير أو مضاعفات . ولكن يبقى دائماً أن النضال علم ، وأن الحركة السياسية تخطيط . والعلم والتخطيط كلاهما مرهون بالقدرة على الفعل وليس بالاستسلام للانفعال . »

وهذا المنهج يحتم الملاءمة السريعة بين ما نريد وبين الظروف المتغيرة . ولكن السادات يفرق علمياً بين المساومة والملاءمة ، فالمساومة تعنى أن نخضع للمتغيرات ، أما الملاءمة فهى أن نمسك بالمتغيرات وأن نعيد توجيهها لصالحنا . أى نخضعها لإرادتنا نحن ، بدلاً من أن نخضع نحن لإرادتها . ومن وسائل إخضاع المتغيرات لإرادتنا ، الاستفادة من الإمكانيات العربية الضخمة المتمثلة فى الطاقة والنقد والتجارة . يقول السادات فى حديثه مع الصحفية اليوغوسلافية دراد يانكوفيتش فى ٢٧ مايو ١٩٧٣ متنبئاً بما حدث أثناء حرب أكتوبر المجيدة :

« الحقيقة فى إيدى العرب مش بس مشكلة الطاقة ، فى إيدى العرب مشكلة الطاقة ومشكلة النقد ، ومشكلة التجارة أيضاً . الثلاث فى أيدى العرب إذا تصورنا كمية الأرصدة العربية فى العالم وتأثيرها على سير النقد حنجد أنها أخطر من مشكلة الطاقة . وأنا متأكد تماماً أنه مش بعيد اليوم الى كل الجهود حتنسق فى هذا علشان تكون قوة ضغط . لأن أمريكا تنبت لهذا من فترة وبتعد له . ولكن أمريكا ستبقى مخطئة إذا تصورت أن العرب حيسيبوا هذه الأسلحة من أيديهم ، وزى ما قلت لك لما تبدأ المعركة حنشوف إيه الى حيجرى . . المواجهة لما تبتدى حنشوف إيه الى حيجرى . »

هكذا يشكل المنهج العلمى عنصراً رئيسياً فى فكر السادات وفلسفته ، وهو لا يعتبر هذا المنهج شيئاً مستحدثاً على العقل العربى عامة والعقل المصرى خاصة . وإنما ما ينادى به هو تأصيل فكرى لشيء حيوى وخطير أهملناه عدة قرون ، فكانت النتيجة أن تخلفنا عن الركب الحضارى للعصر برغم أننا كنا أول من أعطى الدفعة الأولى لهذا الركب فى مطالع عصر النهضة والإحياء ، ومازال هذا الركب يسير بفعل هذه الدفعة التى تطورت ونمت على أيدى علماء الغرب الذين استفادوا منها ولم يرفضوها بحجة أنها عنصر غريب قادم من بلاد لا ترتبط بحضارتهم بصلة . إذن فالمنهج العلمى خاصية حيوية وخطيرة من خصائص العقل العربى ، وما حدث له كان مجرد إغفاءة طالت أكثر من اللازم ، وقد حان الوقت لليقظة التامة التى تدرك قيمة العامل الزمنى والتفكير العلمى والأسلوب المنهجى فى تطور الشعوب وتقدمها .

وكان السادات بفكره وسلوكه رائداً عظيماً فى هذا المجال ، فقد علم شعبه - ليس عن طريق الكلام - ولكن عن طريق ضرب المثل العملى أن المنهج العلمى هو الطريق الذى يجب أن نسلكه من الآن فصاعداً . ولذلك يقول فى مناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تعليم الفتاة المصرية فى ٣ أبريل ١٩٧٣ :

« إن أمم العصر التى شقت الفضاء ووصلت إلى أعماقه ، ودقت أبواب الكون وسيطرت على آفاقه لم ينهيا لها ذلك إلا حين أنزلت العلم من حياتها منزلة الروح من الجسد .

وبلادنا التى غلبت الأحداث ، وسار تاريخها بين نار ونور ، بلادنا التى حطمت القيود بعد القيود ، وشقت فى

صخور التاريخ طريقها للخلود . . تضع أمام أعينها دائماً تكريم العلم لأنها كعبته من قديم .
 ومع كل هذا فلا يشكل المنهج العلمي كل شيء في فكر السادات ، لأن السادات لا ينظر إلى الكون والأحياء
 نظرة ميكانيكية صارمة أو رياضية بحتة ، بل تمتاز نظرتهم بأنها أكثر شمولاً من ذلك . فالإنسان في نظره ليس مجرد
 معادلة رياضية أو آلة صماء وإلا قضينا على الإبداع الفكري والانطلاق الروحي عنده . وعلى هذا فإن السادات يتفادى
 ما يشكونه ألبرت شفايتزر في كتابه « فلسفة الحضارة » الذي نشره عام ١٩٢٣ والذي يقول فيه :

« في عصرنا هذا لا يلتقي الفكر عوناً من العلم . فقد أصبح العلم يقف مستقلاً قائماً برأسه في مواجهة الفكر لا يحفل
 به ، بل إن المعرفة العلمية الحديثة جداً أصبحت تقترن بنظرة إلى العالم تخلو من كل تأمل فكري وروحي . فهي
 تنادى بأنها لا تغنى إلا بتقرير الوقائع الفردية ، لأن بهذه وحدها يمكن للمعرفة العلمية أن تحتفظ بطابعها العلمي .
 أما التنسيق بين مختلف فروع العلم ، واستخدام النتائج لإيجاد نظرية في الكون ، فهذا ليس من شأنها فيما تقول ،
 وقدماً كان كل رجال العلم مفكرين لهم شأنهم في الحياة الروحية العامة لعصرهم ، أما عصرنا فقد اكتشف كيف يمكن
 فصل المعرفة عن الفكر ، وعلى هذا أصبح لدينا علم حر ، ولم يكذب بئى لدينا علم يتأمل . »

ومن هنا كانت مناداة السادات بالعلم والإيمان كشعار لمصر الحديثة ، وكمنهج للتكامل الفكري الذي يلبي
 احتياجات الإنسان المادية والروحية في آن واحد . فهو يقول في الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في ٦ مايو ١٩٧١ :
 « كل ما بنيناه معرض للدمار إن لم نقف ونبنى دولتنا الجديدة البناء الصحيح . والبناء الصحيح كما قلت لكم ،
 لا يكون إلا على العلم والإيمان ، بالعلم لن نتخلف أبداً عن كل ما في العصر من مستحدثات ، ولن نعيش أبداً
 متخلفين ، بل علينا أن نعود إلى حضارتنا ، وإلى ما بنيناه عبر تاريخنا وأخذ منه غيرنا وبني عليه ، أما بالإيمان فسنكون
 دائماً قوة صلبة منيعة لا يستطيع أن يتعرض لها أى عاد أو غاز أو مستعمر أو معتد ، الإيمان بالله سبحانه وتعالى
 والإيمان بأرضنا وترابنا بكل شيء في بلدنا ، الإيمان بتاريخنا ، الإيمان بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، الإيمان الذي
 لا يتزعزع في أننا بعون الله وبإرادة الله سنجعل من هذا الوطن عائلة واحدة . »

والربط بين العلم والإيمان ليس على سبيل الجمع بين الأضداد كما قد يتبادر للذهن التقليدي لأول وهلة ،
 لأن الإيمان قد يكون الامتداد العضوي للعلم ، وقد يكون العكس . أى العلم الامتداد العضوي للإيمان . وخير دليل
 على هذا الاتجاه تحليل ماكس فيبر في كتابه « صنعة العلم » الذي نشر عام ١٩١٩ وفيه يثبت - بما لا يدع مجالاً
 للشك - العلاقة العضوية بين العلم والإيمان ويوضح أن العالم الذي لا يؤمن إيماناً فعلياً بالهدف من أبحاثه العلمية
 لن يستطيع الوصول إلى هدفه مهما كانت عبقرية العلمية التي اشتهر بها من قبل . وبدون الإيمان لن ينجح أى عالم
 في أن يكون مبدعاً خلاقاً بالمعنى الصحيح في ميدان تخصصه ، لأن مجرد الاعتماد على المنهج العلمي البارد سيحيل عقله
 الخلاق إلى آلة صماء لا تقيم اعتباراً للكيان الإنساني داخله . ولهذا فإن الإيمان هو المصدر الرئيسي للأخلاقيات
 في العلم وإجباره على الانحياز إلى سعادة الإنسان ورفاهيته . فليس من العبقرية العلمية في شيء أن يعكف عالم
 في معمله سنوات طويلة لكي يخرج على العالم بعد ذلك باكتشاف قد يدمر الحضارة الإنسانية في ساعات معدودات .
 بل إن ماكس فيبر يثبت ضرورة الإيمان الذي يمنح الإلهام ليس فقط للعالم بل للمشتغل بالتجارة والصناعة والزراعة
 وغيرها من مختلف النشاط الإنتاجي . ونحن عادة ما نعبر عن مفهوم الإيمان في هذا المجال أحياناً بالإلهام ، وأحياناً
 أخرى بالموهبة ، وأحياناً ثالثة بالعبقرية ، ورابعة بالنظرة الثاقبة . . إلخ . يقول ماكس فيبر في هذا الشأن :

« نخطر لنا الأفكار متى طاب لها هي ذلك ، وليس حين يطيب لنا نحن . وتطراً أفضل الأفكار والنظريات في ذهن
 العالم بذلك الأسلوب الذي يصفه إيهرينج بقوله « عند القيام بتدخين سيجار فوق الأريكة » ، أو كما يصرح

هلمهولتز عن نفسه بدقة علمية : « حين نقوم بنزهة في شارع ينحدر ببطء » أو بطريقة مماثلة من تلك الطرق التي نتيح للعالم لحظات من التجلي دون أن يعمل لها حساباً. وهذه اللحظات تؤكد أن المنهج العلمي ليس السلاح الوحيد في يد العالم بدليل أن الأفكار تأتينا عندما لا نتوقعها ، وليس بالضرورة أثناء جلوسنا في هدوء إلى مكاتبنا لإعمال الفكر وصولاً إلى نظرية معينة ، أو خلال قيامنا بالبحث العلمي الدقيق ، فمن المؤكد أن الأفكار والنظريات ما كانت لتخطر على الذهن ، لو لم يتميز نشاطنا العلمي بإيمان قوى وثقان انفعالي وهدى متحمس .

وبصرف النظر عن كل هذه الاعتبارات ، فإن المشتغل بالحقل العلمي يجب عليه أن يعمل حساباً لعنصر المفاجأة الذي يدخل في كل عمل علمي بصرف النظر عن منطقية المنهج العلمي التي تعتمد على الارتباط الميكانيكي بين الأسباب والنتائج . فالمنهج العلمي لا يقدم الدليل السابق على احتمال هبوط الوحي والإلهام على العالم من عدمه . فقد يكون العالم عبثياً ، ومع ذلك نجد أن تطبيقه الحرفي للمنهج العلمي المسبق لا يساعده على التجلي بمعنى الحصول على فكرة جديدة وقيمة من بنات أفكاره . هنا تبرز ضرورة الإيمان المتحمس للعالم ، وهو الإيمان الذي يبتكر ويضيف ولا يكرر في آلية بحثه ما سبق الوصول إليه وتحقيقه . والحق فإنه لا توجد زيادة في أي مجال بدون إيمان . ومن الخطأ الفادح أن نعتقد أن هذه الحال وقف على العلم وحده ، أو بأن الأمور في مكتب للأعمال التجارية ، مثلاً ، تختلف عنها في معمل للتجارب العلمية ، فرجل التجارة أو الصناعة الكبير لا يمكن أن يكون كبيراً بدون إيمان يجلب الأفكار المبتكرة والخواطر الجديدة إلى ذهنه . وهذا هو الفرق بين الشخص الذي يبنى حياته بثقة وتفاؤل حتى يصل إلى أعلى درجات السلم الإنساني وبين الشخص الذي يقضي حياته كاتباً في مصلحة حكومية أو موظفاً تقليدياً بحسب المدى الذي سيحصل فيه على درجة أو علاوة . فمثل هذا الشخص لن يكون خلاقاً ومبدعاً بالمعنى الصحيح في مجال التنظيم والابتكار لأنه قضى على إيمانه بنفسه وبإنسانيته .

ولا شك فإن الإلهام من أكبر الدلائل على وجود الإيمان في حياتنا ، ووجوده في حقل العلم لا يلعب بآية حال من الأحوال دوراً يفوق - كما يجيل للغرور الأكاديمي - دوره في مجال التغلب على مشكلات الحياة العملية بواسطة مقال أو مهندس ناشئ مثلاً . ومن ناحية أخرى ، وهذا مما يساء فهمه وتفسيره في أغلب الأحيان أيضاً ، فإن الدور الذي يلعبه الإلهام الروحي في العلم لا يقل عن دوره في مجال الفن . إنها لحماقة صبيانية حين نعتقد بأن عالم الرياضيات يتوصل إلى أية نتائج ذات قيمة من الناحية العلمية بمجرد جلوسه إلى مكتبه مستخدماً المسطرة أو الآلات الحاسبة أو غير ذلك من الوسائل الآلية . وخيال العالم الرياضي يختلف تماماً من حيث هدفه والنتائج التي يصل إليها عن خيال الفنان الخلاق ، كما يختلف الاثنان في نوعية الخيال وكيفيته بصورة أساسية ، ولكن العمليات والمسارات السيكلوجية فإنها لا تختلف عند الاثنان ، فكلاهما نشوة روحية تصل إلى هوس الدراويش ، وحالة من التجلي الذي يعشق المتصوفة .

ويؤكد ماكس فيبر أن حصولنا على الإلهام العلمي أو عدمه يعتمد على مصائر تخفى علينا ، تماماً مثل اختيار الله عز وجل لإنسان من البشر لكي يبعثه نبياً . ولذلك يتعذر الفصل بين العلم والإيمان . وهذا يذكرنا بما جاء في كتاب رينيه ويغ « الفن والروح » حيث يتحدث عن النظرة العلمية التي نظر بها الدارسون الأكاديميون إلى النشاط الروحي للإنسان منذ عصر النهضة والتي انتهت في عصرنا إلى نوع من التخصص العلمي ، هذه النظرة الجافة هي الأزمة الحقيقية لإنسان القرن العشرين لأنها فصلت بين عقله وروحه وجعلته يعاني من انفصام مزمن في الشخصية . ويضيف جاك بيرك وروجي جارودي إلى رينيه ويغ قولهما إنه لن يتيسر أي حل لهذه المشكلة القديمة والتقليدية والخطيرة إلا إذا التقى الغرب العلمي بالشرق المؤمن ، الشرق الذي حرص دائماً على قيمه الروحية ، والتي أدى ضياعها إلى

الأزمة التي يعاني منها الغرب حالياً ، وإلى الأمراض النفسية والعصبية التي أصبحت من خصائص هذا العصر المضطرب المرهق .

ويتفق توفيق الحكيم مع رينيه ويج وجاك بيرك وروجي جارودى فى ضرورة مساندة الإيمان الروحي للعلم المادى ، برغم أنه يرجع الانفصال بين العلم والإيمان إلى مطلع القرن التاسع عشر وليس إلى عصر النهضة كما يؤكد رينيه ويج . يقول توفيق الحكيم فى كتابه « التعادلية » ص ١٧ :

« إن التعادل الذى كان قائماً حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ، أى بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان ، قد اختل منذ ذلك الوقت بتوالى انتصارات العلم العقلى ، واستمرار جمود الجانب الدينى ، فالعلم وليد العقل قد ضاعف قوته وجدد وسائله وسع آفاقه ، فى حين أن الدين وليد القلب بقى محصوراً فى أفقه ، لم يكتشف منابع جديدة فى أعماق القلب الإنسانى ، تتعادل مع تلك العوامل الجديدة التى اكتشفها العقل البشرى .

وباختلال هذا التعادل وقع العصر الحديث فى الجانب الأرجح ، ونجم عن ذلك خضوعه للنتائج المترتبة على سيطرة العقل وحده . ومنها حرية الإنسان فى هذا الكون تبعاً لحرية فكره ، وإنكار كل ما لا يثبت بالبحث والاختيار . ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الإنسان أو وجود آخر غير وجوده . فهو كائن وحده فى هذا الكون . .

وكان لهذا الاختلال فى التعادل نتيجة الطبيعة التى لا بد أن تلازم كل اختلال فى التوازن . وهو القلق . فالقلق السائد فى النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب فى ميزان التعادل بين العقل والقلب ، بين الفكر والإيمان .

والعجيب أن كبار علماء الرياضة والطبيعة والكيمياء والأحياء وغيرها من العلوم يعترفون بخطورة هذا الجانب الروحي فى نشاطهم العقلى ، بينما يتشدد مدعو العلم الحديث بأنهم لا يعترفون بشيء اسمه الروح . ذلك فى الوقت الذى نجد فيه عالماً رياضياً كبيراً مثل هنرى بونكاريه يربط بين عملية الإبداع العلمى ونشوة الإلهام الروحي فى كتابه « العلم والمنهج » ، وهو بصدد اكتشاف رياضى هام (السدالة الفوكسيانية) . لقد قضى أسابيع يبحث عن وسيلة للتعبير عن ذلك الاكتشاف . كان هناك ثمة إحساس لا يعرف كنهه ولكنه يشعر به برغم امتلاكه للمنهج الرياضى الذى يخضع كل الأفكار لمنطق صارم . كان كالتائه أو المتصوف الذى بلغ مرحلة عالية من التجلى لا يجد لها تفسيراً علمياً مقنعاً . وإذا به ذات يوم ، وهو يضع قدمه على سلم الأتوبيس المسافر فى رحلة جيولوجية وقد طرأت على ذهنه فكرة دون إعداد لها من أفكار سابقة ، وهى أن التحولات التى تتميز السدالة الفوكسيانية ، تماثل ما يحدث فى الهندسة اللا إقليدية . ولم يستطع بونكاريه تحقيق تلك الفكرة الفجائية لإنشغاله فى الأتوبيس بأحاديث الصحاب والمزلاء ولكنه كان واثقاً مما توصل إليه ثقة المتصوف فى الأحاسيس التى تجتاحه من حيث لا يدري ولا يعلم .

ويقول ليشنروفتش ، عضو أكاديمية العلوم الفرنسية ، الآراء نفسها بما يكاد يتفق وكلام بونكاريه . فيؤكد أنه أياً كان الوحي الروحي لعالم الرياضيات فهو بيدع ويزن الأمور بإحساس رياضى متجانس لحساسية الموسيقى والمصور . والرياضى فى هذا فنان يستلهم أكثر منه عالم يفكر ، يناجى نفسه مناجاة تختلف اختلافاً كبيراً عن التخاطب التقليدى أو التفكير العقلى ، إنها مناجاة حبل بالإلهام الروحي المبدع ، بالإدراك الداخلى الخلاق ، كأنها الإرهاص الذى يحتاج الشعراء قبل إخراج القصائد إلى حيز الوجود .

ويعترف آينشتاين بأن أى عالم لا يستطيع أن يبدع دون أن يعتقد ما يسميه « بالديانة الكونية » ، تلك الديانة تملأ قلب كل عالم انقطع للتأمل فى ذلك التناسق البديع بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لا حدود له ، هذا العقل اللانهائى الذى لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه ، لما كونت غير شعاع ضئيل خافت قد يتلاشى إلى لا شيء إذا زاد من اقترابه منه . فالمكابرون وحدهم هم الذين يرفضون الاعتراف بمحدودية العقل البشرى ولكنهم

لا يعلمون أن العوامل التي أدت بعلماء الطبيعة مثلاً إلى الشك في نظام الكون الميكانيكي كانت نتيجة طبيعية لاكتشافهم التركيب الداخلى للذرة ولإدراكهم أبعاد الكون الشاسعة ، التي لا يمكن سبر غورها بالعقل البشرى المحدود . فمن الصعب للمحدود أن يدرك أبعاد اللا محدود ، هذا إذا كان له من الأبعاد ما يمكن إدراكه فعلاً كأبعاد .

وقد حاول العلماء إدراك الآفاق الداخلية والخارجية للمعرفة ، ولشرح هذه الظواهر نشأت نظريتان هامتان في مطلع القرن الحالى . إحداهما النظرية الكمية التي تهتم بالوحدات الأساسية للمادة والطاقة . والنظرية النسبية التي تهتم بالفضاء والزمن وتركيب الكون كوحدة . وكلتا النظريتين مقبولتان كأساسين هامين في علم الطبيعة المعاصر . وكل نظرية منهما تصف ظواهر طبيعية في مجالها الخاص بمعادلات رياضية متماسكة . ولكنهما لا يجيبان على السؤال التقليدى « كيف » وهو السؤال الذى ارتآه نيوتن كما أن نيوتن لم يستطع الإجابة على سؤال « لماذا » الذى ابتدعه أرسطو . ولكن النظريتين تعطيان معادلات تعرف بدقة القوانين الخاصة بالإشعاع وانتشار الضوء . ولكنهما لم يستطيعا الوصول إلى حقيقة العملية الميكانيكية التي تتبعها الذرة في إشعاع الضوء ، أو في انتشار الضوء في الفضاء . بل بقيت هذه العملية من أعمق أسرار الكون . وبالمثل فإن القوانين المتصلة بظاهرة النشاط الإشعاعى ، مكنت العلماء أن يتنبأوا بمقدار ما تفقده كتلة معينة من اليورانيوم في فترة محدودة من الزمن . ولكن الإنسان لم يستطع مع هذه القوانين أن يعرف أى الذرات تتحلل أو كيف يقع الاختيار على هذه الذرات المتحللة . وبقيت هذه الأسئلة غامضة على الإنسان حتى الآن .

وفي كتاب لينكولن بارنيت « الكون ودكتور آينشتاين » الذى نشر عام ١٩٤٨ يوضح المؤلف مدى التخبط الذى وقع فيه العلماء عندما ظنوا أن العقل العلمى هو السلاح الوحيد الذى يستطيعون به تحقيق أى شىء وكل شىء . يقول بارنيت ص ١٢ :

« عندما قبل العلماء وصف الكون بطريقة المعادلات الرياضية وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الابتعاد عن الطريقة التجريبية وطريقة العلم بالحواس . ولإدراك أهمية هذا التراجع لابد أن نحدد الخط الفاصل بين الطبيعة وبين ما وراء الطبيعة ، والأسئلة التي تدور حول العلاقة بين الإنسان والحقيقة ، وبين الموضوعية والذاتية . فهذه هي الأسئلة التي جذبت العلماء والفلاسفة والمفكرين منذ فجر التفكير الإنسانى . فمنذ ثلاثة وعشرين قرناً كتب العالم الإغريقى العظيم ديموقريطس يقول « الحلاوة والمرارة ، البرد والدفء وكل الألوان ، كل هذه الأشياء توجد في الخيال الإنسانى وليست في الحقيقة المطلقة ، ولا يوجد في الحقيقة إلا الجسيمات والذرات الثابتة وأثر حركاتها في الفضاء » . وقد كان جاليليو يدرك ذاتية المميزات لصفات الحواس مثل اللون والطعم والرائحة والصوت وأوضح « أنها لا يمكن أن ترجع إلى الأشياء الخارجية بل إنها مثل الألم الناشئ من لمس هذه الأشياء » وقد حاول الفيلسوف الإنجليزى جون لوك أن يتغلغل إلى أعماق الحقيقة ولها ، وذلك بتعيين الحد الفاصل بين ما أسماه الصفات الابتدائية والصفات الثانوية للمادة . ولذلك فإنه اعتبر الشكل والحركة والصلابة والخواص الهندسية صفات حقيقية أو ابتدائية كامنة في الجسم نفسه . بينما اعتبر الصفات الثانوية مثل الألوان والأصوات والذوق مجرد إسقاط على أجهزة الحواس . وقد بدا واضحاً لكل من جاء بعده من المفكرين مدى التصنع في هذا التحديد .

وقد قال الرياضى الألمانى العظيم لايبنتز : « إننى أستطيع أن أبرهن على أن الضوء والألوان والحرارة وما شابهها ليس إلا صفات خارجية . ليس هذا فقط ، بل تنضم إليها الحركة والشكل والسعة . وكما أن حاسة البصر تفيدنا أن كرة الجولف بيضاء . فكذلك الرؤية عن طريق حاسة اللمس تفيدنا على أنها مستديرة ناعمة وصغيرة وهذه كلها صفات لا ظل لها من الحقيقة المستقلة تماماً عن حواسنا . شأنها في ذلك شأن تلك الصفة التي اتفقنا على تسميتها باللون الأبيض » .

ومن هنا وصل العلماء والفلاسفة تدريجياً إلى الاستنباط المدهش ، وهو أنه لما كان كل جسم عبارة عن مجموعة صفات ، وحيث أن الصفات يدركها العقل ، فإن كل الكون الموضوعي المكون من مادة وطاقة وذرات ونجوم لا يوجد إلا نتيجة لشعورنا وإدراكنا . أى أنه عبارة عن بنية ضخمة من الرموز الاصطلاحية تقيمه حواس الإنسان . وكما قال بيركلي عدو المادية اللدود :

« إن أصوات الكون وكل ما يملأ هذه الأرض من أجسام وأشكال تكون الإطار العظيم للعالم ، كل هذا ليس له مادة إلا في عقلنا ، وطالما أنه لا يمكنني إدراكها بنفسى ولا توجد في عقلى فإنها إما أنها لا توجد على الإطلاق أو أنها توجد في عقل روحى أبدي لا يخضع لحدود العقل البشرى وقيوده المادية القاتلة » .

وقد توسع آينشتاين في هذا الاتجاه من المنطق ووصل به إلى أبعد حدوده حين بين أن الفضاء والزمن هما إلا أشكال وصور من الإلهام الذى لا يفصل عن الإدراك مثلها في ذلك مثل الألوان والأشكال والأحجام . فالفضاء ليس له حقيقة موضوعية إلا أنه نظام أو تنظيم للأشياء التى نراها في هذا الفضاء وكذلك الزمن ليس له وجود مستقل إلا في حدوث الحوادث التى نقيسه بها .

ويلجأ علماء الكون إلى الصمت أو التخبیط عند بحث منشأ الكون وبدايته ، ويتركون ذلك للفلاسفة ورجال الدين على أساس أن ميدان العلم يتمثل في المادة المعاصرة الملموسة . ولكن آينشتاين الذى انتقدت فلسفته العلمية ودمغت بأنها فلسفة مادية محدودة ، يقول كما ورد في كتاب لينكولن بارنيت ص ٩٨ :

« إن أجمل الأحاسيس وأعرق العواطف هى تلك التى نتعرض لها عند بحث الخفايا ، لأنها تؤدى إلى العلم الحقيقى . وكل من ينكر هذه الأحاسيس ، ولا يتعرض للدهشة أو للرغبة ، فإنه يعتبر في عداد الأموات ، والمؤمنون هم الذين يعلمون أن هناك أشياء تخفى على علمهم ، وهذا هو غاية الحكمة وأقصى درجات الجمال المشع التى تستطيع حواسنا القاصرة إدراكها » .

وقال آينشتاين في مناسبة أخرى مؤكداً ضرورة الإيمان لفكر العالم :

« إن الإيمان هو أقوى وأنبى نتائج البحوث العلمية ، ودينى يشتمل على الإعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحدودة التى تكشف في لمحات خاطفة عن بعض التفاصيل القليلة التى تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها ، وهذا الإيمان القلبى العميق ، والاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع إدراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمنى فكرتى عن الله » .

هذا ما يقوله عالم وفيلسوف دمغه معظم الدارسين بالمادية والإلحاد ، وهذا يؤكد بدوره أنه لا غنى لعلم مهما ارتقى وتطور عن الإيمان ، فالإيمان ضرورة حتمية سواء للعالم أو للرجل العادى ، حتى الإنسان المغرور الذى يتشدد باعتزازه بالإلحاد ظناً منه أنه بلغ أرقى درجات المعرفة والعلم ، هذا المغرور لا يدرك أنه أكثر الناس إيماناً بالإلحاد . أنه لابد أن يؤمن الإنسان بدين أو بعقيدة أو بمبدأ أو بنظرية . . إلخ وأسمى أنواع الإيمان هو الذى يرتفع بفكر الإنسان وسلوكه من عالم المادة المضطرب والمرهق إلى عالم المثال والروح ، ذلك العالم الذى ينبع منه الحق والخير والجمال . وفى هذا المعنى كتب السادات في ١ أكتوبر ١٩٥٤ على صفحات « الجمهورية » يقول :

« تذكرت حكمة قرأتها وأنا في السجن فحفظتها عن ظهر قلب ، ثم دونتها في تلك الكراسة التى احتفظ بها حتى اليوم . كانت تقول :

« خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وخلق الشياطين شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من كليهما . فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فهو شر من الشياطين . . »

وعدت أقول لنفسى كم نحن فى حاجة لأن نفهم بعقولنا وأرواحنا وأجسادنا هذه الحكمة الخالدة وسط تيار الصراع البشرى المخيف الذى جرفنا ، وغمر كيانتنا ، وحياتنا بزخرف المادة البراق فغلبت شهوتنا عقولنا وأصبحنا شراً من الشياطين . . إننا لا نحس السعادة . . وسوف لا نذوق لها طعماً إلا إذا عدنا إلى عالم الروح ، وعالم الروح ، منبع الحق والخير والجمال . .

فى هذا العالم . . عالم الروح ترتفع الغشاوة عن العين ليرى البشر نعيماً رائعاً ، وجمالاً سامياً حين تتكشف لهم أسطورة الخلد ، وآية النجاة . .

فى هذا العالم تصفو النفوس ، فلا يعود يستبد بها غضب ، أو حقد ، أو كراهية فهذه بضاعة المادة ، ووحى شياطين الدنيا الفانية . .

وفى هذا العالم يملأ القلب إيمان راسخ ، والإيمان أبداً هو القوة فى أسمى مظاهرها . . وهنا فقط يبدأ أقدم وأعظم درس فى الوجود وهو الحب . . فيحب الإنسان الله لأنه الحق وهو الحبيب الذى بيده ملكوت كل شئ . . ويحب الإنسان كل الأشياء ، وهذه الأشياء من صنع يد واحدة هى يد الفنان الأعظم ، الذى خلق فسوى وأمات وأحيا .

اللهم ألهم قومى الرشاد ، وخلصهم من المادية التى سيطرت على عالمهم . . وأمنحهم الأخلاق . . «
وهذه النظرة المثالية - التى تقترب من الصوفية - من الأصالة بمكان لدرجة أن فيلسوفاً ملحداً مثل برتراند راسل يتناولها بالدراسة والتأييد فى بحث له بعنوان « الصوفية والمنطق » نشر عام ١٩١٤ . وقد عالج فيه موضوع الصوفية كمنهج علمى أثره عديد من الفلاسفة منذ الإغريق حتى عصرنا الحاضر . وكمجموعة من الاعتقادات الروحية والمثالية ، كما ناقش فى هذا البحث إمكانية وجود علاقة بين الصوفية كتجربة ذاتية ، والعلم بما يدعو إليه فى منهجه من موضوعية خالصة . وقد أوضح راسل أن بعض كبار العلماء والفلاسفة قد أمكنه أن يجمع بين النزعة الصوفية والمنهج العلمى ، ورأى فى ذلك الجمع ، والتوفيق بين الاتجاهين ، سموً فكرياً جعل من أصحابه فلاسفة بالمعنى الدقيق للكلمة ونظراً لإيمان راسل العميق بالمنهج العلمى فقد استخدم التحليل الدقيق فى بحثه هذا لحالات الصوفية ومعتقداتها المثالية ، واستطاع أن يستخلص للصوفية ، على مر العصور واختلاف الأمكنة خصائص عامة ، بحيث إذا وجدت هذه الخصائص فى فلسفة ما ، فإنه يمكن أن نصفها بأنها صوفية . وهذه الخصائص نجدها بارزة فى المقتطف الذى استشهدنا به من مقالة السادات ، ومنها وحدة الوجود ، وصراع العقل والشهوة ، وعلاقة الروح بالمادة ، والضرورة الأخلاقية التى تجنب العالم التحول إلى غابة ، والوصول إلى المعرفة اليقينية عن طريق العقل والروح معا ، لأنه إذا كان العقل هو الطريق المؤدى إلى المعرفة فالروح هى الضياء الذى ينير هذا الطريق ويجعل من البحث العلمى متعة روحية خالصة ، مهما قابل الباحث فى طريقه من صعاب وعقبات .

وقد أراد راسل بهذا البحث عن « الصوفية والمنطق » أن يوضح إمكان استفادة العالم من التجربة الصوفية التى تضم الروح إلى العقل . ولذلك يؤكد بشدة على أن الصوفية زاخرة بالحكمة التى يمكن أن يستفاد منها ، والصوفية لا تهرب من مواجهة الحياة بل هى موقف تجاه الحياة يحاول استيعابها بكل تناقضاتها وصراعاتها وأبعادها المتعددة . ولذلك يجب على الاتجاه الصوفى أن يغنى المنهج العلمى بما فيه من روح التأمل الجادة والرغبة فى النفاذ إلى الحقيقة العليا . ويجد راسل أن هذه الحقيقة الجوهرية قد وجدت لنفسها تجسيدا حياً فى كل من هرقليطس وأفلاطون .

كان هرقليطس من أكثر الفلاسفة الإغريق إيماناً بالمنهج العلمى الذى يقول بأن العالم كله قائم على مبدأ التغيير الشامل والمتصل ، وقد أوحى ذلك إلى هرقليطس بالقول المأثور عنه الذى ينسب إليه أفلاطون وهو : « إنك

لا تنزل النهر الواحد مرتين لأن مياهها جديدة تجري من حولك باستمرار». ومع ذلك ينزع هرقلطس نزعة صوفية عندما يقول: «نحن ننزل ولا ننزل في النهر الواحد (من حيث إن مياهه تتغير باستمرار)، نحن نوجد ولا نوجد (من حيث إن الفناء يدب فينا في كل لحظة» فالمقارنة بين هذه العبارة الأخيرة - والتي اعتبرها راسل صوفية - وبين تلك التي ذكرها أفلاطون وهي علمية، يتضح أن النزعة الصوفية والمنهج العلمي قد امتزجا في مذهبه. فثلاً نجد أن الحتمية العلمية هي التي أوحى إليه بهذه العبارة «خلق الإنسان مقدر عليه»، ولكن الصوفي وحده هو الذي يمكنه القول: «كل حيوان يساق إلى المرعى قسراً»، «الحكمة واحدة»، أن نعرف العقل الذي يحرك كل شيء في كل شيء» ويعتقد راسل أن هذه الأمثلة كافية للتدليل على طبيعة فكر هرقلطس الذي جمع بين العلم والإيمان في وحدة عضوية، فإن حقائق العلم كما تبدت له غدت شعلة روحه، وعلى ضوءها استطاع أن يرى أعماق العالم. وهذا قمة السمو الإنساني الذي يمكن أن يتحقق في مجال الفكر. ولذلك يشيد راسل بما دعت إليه الأديان السماوية في مجال المعرفة من إفساح دائرة التأمل، والدعوة إلى التحرر من الشواغل العملية، والاعتماد على الروح الموضوعية.

ووحدة الوجود التي يدعو إليها الإيمان هي نفس هدف العلوم الحديثة بكل فروعها. وقديماً قال أفلاطون منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً من الزمان: «إن كل محب للمعرفة لابد أن يجرى وراء سرها. فلن يرتاح إلى تعدد ظواهرها التي هي في الحقيقة ظاهرية فقط». وفي صراع الإنسان لكشف الحقائق وفي فهم تعدد مظاهر الطبيعة التي يعيش فيها يحاول الوصول إلى حدود نهائية معينة، ولكن العقبات التي تعوقه دون الوصول للحقيقة تنذر به عدم الوصول إلى قلب الأشياء. وقد قال أفلاطون: «إن دنيا الرؤية مثل بيت السجن»، وكل طريق سلكته العلوم للهروب من هذا السجن يؤدي دائماً إلى مسالك غامضة من الرموز والألغاز والتأملات اللا نهائية. وهذا يرجع إلى قصور العقل البشري. هنا تبرز ضرورة الروح في مساندة العقل للوصول في النهاية إلى منهج يؤكد علمياً وحدة الوجود. فإن جميع الصور التي تخيلها الإنسان عن العالم، وكل تأملاته المجردة عن الحقيقة كلها تتجه في النهاية إلى الوحدة، إن نظرية المجال الموحد تعد بمثابة الهدف الأسمى لكل العلوم، وهي النظرية التي عرفها آينشتاين بأنها «لاستخدام أكبر عدد من الحقائق العلمية واستنباط القواعد المنطقية من أقل عدد من الافتراضات والأوليات». ويؤكد لينكولن بارنيت في كتابه «الكون ودكتور آينشتاين» ص ١١٢:

«إن أهمية التوفيق بين الطرفين، وضرورة توحيد الآراء، والرغبة الملحة في اختراق مظاهر الحياة ليست هي أساس العلوم الحديثة فحسب، بل إنها أرفع ما يسمو إليه العقل البشري، فإن الفيلسوف والصوفي ورجل العلوم كلهم كانوا دائبي العمل والبحث والفحص لكي يصلوا إلى كشف أسرار الحياة الغامضة».

ولكن أقصى ما يستطيع أن يصل إليه العقل البشري من معرفة هو التصور الناتج عن تعريف العلاقات بين الأشياء ووصف حوادثها. ولكنه لن يستطيع بمفرده أن يعرف حقيقة «طبيعة» الأشياء وكنها. وكل ما وصل إليه العلم الحديث هو حقيقة واضحة، وهي أنه كلما توصل إلى حل لغز من ألغاز الحياة الطبيعية وجد نفسه أمام لغز آخر من ألغازها العديدة، وكل وسائل الفكر والذكاء، وكل سبل النظريات والتخمينات والتأملات تؤدي بالإنسان في النهاية إلى هاوية لا يستطيع مع كل ذكائه أن يتخطاها، لأن الإنسان مقيد بظروف وجوده وبأحكام بيئته ومعيشته، وكلما تقدم في أفق علمه أدرك الحقيقة التي رآها العالم الطبيعي نيلزبور في قوله:

«إن الناس إما ممثلون أو متفرجون في تمثيلية وجودهم، فالإنسان هو نفسه أكبر أعجوبة غامضة في الحياة، فهو لا يدرك كنه نفسه، فهو لا يعلم إلا القليل من أمر العمليات العضوية في جسمه، ويعلم الأقل من ذلك في شئون عقله وقدرته على فهم الدنيا التي تحيط به، بل إن قدرته محدودة في التعليل وفي التخيل، بل إنه يكاد يكون عاجزاً

عن فهم أنبل وأعجب خصائصه ، ألا وهي قدرته على السمو بنفسه وإدراك كنهها في عملية التصور والتخيل .
 وما يؤكد ضرورة الإيمان وعلاقته العضوية بالعلم أن أكبر عقبة كأداء تعترض الإنسان في بحثه عن المعرفة اليقينية ، هو أنه نفسه عبارة عن مجرد جزء لا يتجزأ من الحياة التي يسعى لمعرفة حقيقتها والإلمام بكل جوانبها ، فإن جسمه الذي يعجب له وعقله الذي يفاخر به ، هما من عناصر الغموض الذي يحيره بالفعل وهو يجد نفسه وسطاً بين رحابة الكون وبين دقة الذرة ، ويجد العقبات المختلفة في كل اتجاه من هذين الاتجاهين ، فلا يسعه إلا أن يعجب بقدرة الخالق - عز وجل - الذي خلق كل شيء . وجعلنا نعلم حقائق الأشياء الموثبة من الأشياء الخفية .
 من هنا يأتي التكامل بين العلم والإيمان الذي نادى به السادات ، وهو تكامل - كما رأينا - له من الجذور الفكرية في التراث الإنساني العالمي ما يمتد من عصر هرقلطيس وأفلاطون إلى عصر آينشتاين وراسل . وهذا يوضح مدى استيعاب السادات لأبعاد الفكر العالمي سواء كانت علمية أو فلسفية . وعندما قدم نظريته عن العلم والإيمان لم يعلن عن شعار براق للاستهلاك المحلي ، ولكنه درس وبحث واستوعب طويلاً حتى وصل إلى هذه النظرية الشاملة ، وهي نظرية إن كانت توجد بوضوح في الفكر العالمي فهي تبرز بوضوح أكثر في الفكر المصري منذ عهد الفراعنة حين امتزج الدين بالعلم ، ونفس الوضع بالنسبة لمصر عندما أصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية الكبيرة .
 وهذا بدوره يمثل اتجاهاً قوياً نحو التأسيس الفكري الذي يستفيد بمنجزات الفكر الإنساني بصفة عامة . وذلك عن طريق ربطها عضوياً بالجذور المشابهة لها في الفكر المصري الأصيل مما يحقق عنصرى الأصالة والمعاصرة في آن واحد . ولهذا يقول السادات في لقائه بوفد المؤتمر الإسلامي المنعقد في القاهرة في ١٤ سبتمبر ١٩٧٢ :

« علينا لمواجهة هذه الغزوة الشرسة أن نتسلح بسلاح العصر الذي نعيش فيه ، لا يمكن أن نتخلف ونحن نواجه صهيونية دينية غادرة ، واستعماراً شرساً لثما ، من أجل ذلك ناديت بدولة العلم والإيمان ، فالعلم وحده ، من غير الإيمان ، قد يقينا شر هذه الغزوة مادياً ، ولكنه لن يستطيع على المدى الطويل أن يبنى النفوس التي يجب أن يبنينا مجتمعنا كما نشأنا وكما تنص عليه رسالتنا ، وما اخترت في هذه الأرض من مبادئ وتقاليد وقيم .
 والإيمان وحده في مواجهة الغزوة لا يكفي لأن لدى عدونا من مستحدثات العصر ما يستطيع به أن يكسب جولة وجولة ، إذا لم نتسلح بالسلاح الذي يتسلحون به . . من أجل ذلك فإن العلم والإيمان شرطان أساسيان لنجتاز هذه المحنة التي نعيشها اليوم .

الأمة الإسلامية لم تفرق العلم عن الإيمان . كان العالم عالم فلك ورياضة ، إلى جانب تفهمه في علوم الدين . هذا ما نقله الغرب عنا منذ البدء ، والعلم والإيمان متلازمان في رسالتنا وعقيدتنا وما أحرانا اليوم أن نعود إلى ما كنا عليه .
 وفي نفس الكلمة يبلور السادات نظريته في العلم والإيمان فيقول :

« لا بد لنا من أن نستحضر كل مقومات عقيدتنا وتاريخنا ونضالنا وكفاحنا في أسلوب نبني به دولة العلم والإيمان ، بالعلم نواجه السلاح والسلام ، وبالإيمان نقول بيقين لعدونا : نحن لا نخاف شيئاً أبداً الآن ، كل شيء بيد الله سبحانه ونحن نؤمن أننا في دفاعنا عن عقيدتنا وأرضنا ومستقبل أجيالنا أن نتصر أو نستشهد ، وفي كلا الحالتين منتصرون بعون الله .

يقتضينا هذا أن تكون نظرتنا إلى العالم من خلال عقيدتنا نظرة جديدة . لا بد أن نربي الطفل والشاب والراشد على مبادئ وقيم أخشى أن تكون قد أهملت في الفترة الماضية . لا بد أن نعمل جميعاً كل منا في مكانه لبنى المجتمع الإسلامى الجديد القائم على العلم والإيمان . . لا نهمل العلم أبداً وعلينا في نفس الوقت أن نرسخ من الإيمان .
 ولا شك فإن محك أصالة أية نظرية هو التطبيق الفعلي لها لا اكتشاف مدى ثباتها في مواجهة عجلة الزمن وحركة

المجتمع ، وكانت حرب أكتوبر المجيدة الامتحان الذى اجتازته النظرية بنجاح باهر ، كان السلاح الحديث فى يد الجندى المصرى كما كان الايمان فى قلبه ، واختلط هدير المدافع بأزيز الطائرات بقعقة الدبابات بهتاف « الله أكبر » ، وتحول الجيش المصرى إلى طوفان هادر أغرق فى طريقه كل تحصينات العدو وأسلحته الحديثة فولى مدعوراً كالأرانب الجبلية . وذلك تأكيد لأجيال ما بعد السادس من أكتوبر أن طريق العلم والايمان هو الطريق الوحيد المؤدى إلى التحرير والتعمير فى آن واحد .

ولما كان هذا الفصل قد عالج الجزء الأول فى نظرية العلم والايمان : ألا وهو المنهج العلمى ، فقد آثرنا أن يكون الفصل الثانى دراسة لمفهوم الايمان عند رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل الثاني

مفهوم الإيمان

يمثل مفهوم الإيمان - عند أنور السادات - نظرة شاملة إلى الدين والدنيا والكون بصفة عامة ، وهي نظرة تبدأ بالواقع الفيزيقي للإنسان وتمتد لتشمل الكيان الميتافيزيقي له والمتمثل في حياته الروحية بكل جوانبها المتعددة . ومن هنا كان ارتباط العلم بالإيمان ارتباطاً عضوياً ، فإذا كان العلم المادى يهتم بحياة الإنسان كجسد فإن الإيمان الدينى يعتنى بحياته كروح . وكما أننا لا نستطيع أن نفصل بين الروح والجسد ، كذلك لا يمكننا الفصل بين الإيمان والعلم . ولكن الإيمان يستغل الأدوات الفكرية التى تتفق مع طبيعته ، وهى أدوات لا يهتم أن تختلف أو تتفق مع الوسائل العلمية لأن المهم هو الهدف وليس الوسيلة ، والهدف هنا يكمن فى محاولة تكامل المعرفة الإنسانية سواء من الناحية المادية أو الروحية ، وهو هدف يسعى إليه كل من العلم والإيمان على حد سواء . ولذلك فإن من القصور الفكرى أن ينظر بعض العلماء باستعلاء إلى القوى الميتافيزيقية التى يلورها الإيمان بمفهومه الشامل . فالتحليل العلمى البحث مازال عاجزاً عن تفسير وتحليل هذه القوى الميتافيزيقية لأنها لا تخضع لمنهج البشرى المحدود وبالتالي فلا يمكن أن ينطبق بمعايره الجافة على انطلاقات الإيمان التى لا تحدّها أية حدود بشرية .

والإيمان هو الوسيلة الوحيدة المتاحة للبشر لتفسير هذه الظواهر الميتافيزيقية ، فهو يملك المقدرة على الاقتراب منها فى اطمئنان بل وفى حب أكثر من العلوم التجريبية المعاصرة التى لا تعترف إلا بالمشاهدة والتجربة والخطأ فى حدود الحواس المادية والعقل المحدود ، ورغم تقدم العلوم إلى درجة الوصول إلى الكواكب الأخرى إلا أن الإنسان مازال وسيظل محكوماً بهذه القوى الجبارة التى يلمسها فى التأثير الذى تمارسه على حياته ، ولن يدرك ماهيتها عن طريق العقل ، فمن المستحيل بالنسبة للمحدود أن يدرك اللا محدود ، لأنه إذا حاول هذا ، فإن محاولته تلك ستشبه المحاولة العلمية التى تهدف إلى البحث عن روح الإنسان بتشريح جسده ، ولعل الروح هى أوضح ظاهرة ميتافيزيقية فى حياتنا ، فنحن نحيا بها ولكننا لا ندرك كنهها مهما أجهدنا عقولنا ، ولكن الإيمان هو الطريق الوحيد لتفسيرها عن طريق السمو والارتفاع بالنفس البشرية فوق تفاهات الحياة اليومية واهتمامات العالم الدنيوى الذى لا يرى من حياته سوى يومه المحدود ولا يستطيع أن يبصر أبعد من موطئ قدميه .

وعن طريق الإيمان ندرك أن وحدة الكون - التى تهدف العلوم الإنسانية ، إلى إثبات وجودها - قد وجدت من قديم الأزل فى علاقة الحب الصافى والنقى بين الخالق والمخلوق ، وهى العلاقة التى تحرص دائماً على تخلص الإنسان من الحدود المادية القاتلة التى تجبره على البقاء فى دنيا الحيوان بكل ما تحويه من غرائز بدائية وانفعالات بربرية وشطحات وحشية . وكل البشر - على اختلاف مشاربهم - لديهم هذا الجانب الروحى فى حياتهم ، سواء اعترفوا به أو أنكروه ، سواء ترسب عندهم فى اللاوعى أو كان مسيطراً على تفكيرهم الواعى . ولا شك فإن فاعلية هذا الجانب تختلف من شخص إلى آخر ومن ظرف إلى آخر ، فإذا كان للجسد الكثير من المتطلبات فالروح أيضاً لها من المتطلبات ما هو أكثر حيوية بالنسبة لنمو الإنسان المتكامل . ولكن الجسد ينتصر فى كثير من الأحيان لأن ضغوط الحياة المادية وإلحاح الغرائز الحيوانية وصراع الغابة الذى يحكم حياة الأفراد كما يحكم حياة الشعوب ، كل هذه العوامل تجعل للجسد السيطرة المؤقتة على الروح ، ومع ذلك يظل الصراع بين الروح والجسد سارياً ، وهو صورة أخرى للصراع الذى نعرفه بين

الذات والموضوع أو بين الفرد والمجموع . فالحيوان في الغابة لا يقيم وزناً لوجود الحيوانات الأخرى لأن غرائزه التي تحكم كيانه تجبره على اتباع مبدأ : « أنا ومن بعدى الطوفان » لأن كل وجوده يتركز في الوفاء بمتطلبات جسده ، أما الإنسان فعليه أن يكبح جماح غرائزه من أجل صالح المجموع ، فإذا نجح في هذا فإنه يكون قد أوجد تعادلاً بين الروح والجسد ، وهذا ما يسميه توفيق الحكم بالتعادلية ، فهو يقول في كتابه « التعادلية » ص ٢١ :

« أنا أحس بشعوري الداخلي أن الإنسان ليس وحده في هذا الكون . وهذا هو الإيمان . وليس من حق أحد أن يطلب إلى الإيمان تعليلاً أو دليلاً . فإما أن نشعر أو لا نشعر . وليس للعقل هنا أن يتدخل ليثبت شيئاً . وأن أولئك الذين يلجأون إلى العقل ومنطقه ليثبت لهم الإيمان ، إنما يسيثون إلى الإيمان نفسه . فالإيمان لا برهان عليه من خارجه . إني أؤمن بأنني لست وحدي . لأنني أشعر بذلك ولم أفقد إيماني ، لأنني رجل متعادل . »

ولكن مفهوم السادات للإيمان لا يقف عند حدود تعادلية توفيق الحكم في توازنها الدقيق بين المادة والروح ، بل يتخطاها اعتماداً على أن الروح خير من يسيطر على الجسد وليس مجرد أن يتعادل معه ، فالتعادل معناه استمرار الصراع بينهما وبالتالي فإن سيطرة الجسد احتمال قائم وقوى . أما وضع زمام الجسد في يدى الروح ، فإنه يمكن الإنسان الفاني من التحليق في آفاق سرمدية يحقق فيها وجوده الروحي ويستشعر من المتعة الروحية والنشوة الوجدانية ما لم يجربه من قبل . عندئذ سيدرك أن المتعة الروحية أبقي أثراً وأطول عمراً وربما لازمته طوال حياته لأنها بمثابة تجربة سيكلوجية ترسبت في عقله الباطن وأصبحت جزءاً من كيانه النفسى والفكرى . وفي هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية » في ١ يناير ١٩٥٤ :

« إن مرور عام من عمر البشرية حدث جدير بأن يقف كل إنسان منه موقف التأمل والتفكير . فنحن نرهق أعصابنا وغرائزنا طوال العام في انفعالات هذه الحياة التي نحياها ، نشقى ونسعد ونألم ونفرح . . كل هذا وموكب البشرية يسير غير عابئ بهذه أوبذاك ، فهو عمر لا بد أن نقضيه في شقاء وسعادة ، وفي ألم وفرح . . ونحن ننسى دائماً ونحن في هذا الموكب أنه يجب أن نعود إلى نفوسنا ولولبعض لحظات نستلهم فيها سر وجودنا وماهية رسالتنا على هذه الأرض ، وأصبح مرور الأيام وتعاقب الليالي شيئاً رتيباً مملاً ، نحسه ولا ندركه ، ونعيش فيه ولكن لا نفوص في سره . . »

وهكذا غابت عنا الحقيقة . . وهى في الواقع بين أيدينا . . فنحن لم نخلق عبثاً . وكل إنسان منا يولد وفي عنقه رسالة عليه أن يؤديها حمداً منه وشكراً للمخلوق الأعظم الذى كرم الإنسان فجعله أشرف المخلوقات .

فهل يجوز لأشرف المخلوقات أن يسخر من الفضائل في سبيل متع الدنيا الفانية وزخرفها الباهت ؟ وهل يجوز لأشرف المخلوقات أن ينزل عما شرفه به الله في خليقته ، فلا يرعى الحق والعدل وهما شريعة خالقه ؟ إننا في حاجة لأن نرتفع بآفاق تفكيرنا فوق ما فرضناه على أنفسنا من قيود هى من صنعنا وهى مصدر بلائنا وشقوتنا . وسنظل نجعل هذا الموكب ونخشاه إلى اليوم الذى نرفع فيه بإدراكنا الغطاء عن أبصارنا .

لنرى الله في الحق

ولنرى الله في القوة

ولنرى الله في الصبر

ولنرى الله في كل ما نعمل ، وما نقول ، وما نسر وما نعلن .

تلك هى اللمسة الصوفية المثالية في مفهوم السادات للإيمان ، فإنه من خلال الإيمان كتجربة سيكلوجية وروحية شاملة تتجسد القوى الميتافيزيقية التي لا يستطيع الإنسان إدراكها بعقله القاصر أو بحواسه الخمس المحدودة ، عندئذ

يدرك أن هذا الكون لم يخلق عبثاً ولكنه موجود طبقاً لنظام صارم دقيق ، وأن هذه الدقة الباهرة لا بد أن تكون من صنع خالق تسمو إرادته فوق إرادة البشر ، وبالتالي يرى الإنسان نفسه على حقيقتها ، مجرد قطرة في محيط متلاطم الأمواج ، وحياة القطرة تتمثل في الاندماج الكامل في مياه هذا المحيط اللانهائي ، وإلا أحرقتها أشعة الشمس وأحالتها إلى بخار . وهذا ما يعبر عنه المتصوفة بالاندماج الكلي في الذات العليا . وهذه المقدرة الروحية هي التي جعلت من الإنسان أشرف المخلوقات ، فهو المخلوق الوحيد الذي يدرك وجود الخالق عز وجل بأسلوب لا يمكن أن يطرأ على ذهن المخلوقات الأخرى ، هذا إذا كان لها ذهن على الإطلاق . ولهذا تختلف نظرة الإنسان عن نظرة الحيوان إلى هذا العالم اختلافاً جذرياً ، فالحيوان يستعمل العالم كما هو بينما يسعى الإنسان إلى الارتقاء به إلى الآفاق التي يحس فيها أنه اقتراب من أقرب مسافة من خالقه ، ويجب أن يؤخذ الاقتراب هنا بمفهومه الفكري والروحي والنفسي وليس الاقتراب بمفهومه المكاني ، فالخواص الظاهرة للواقع إنما مرجعها إلى عقل المدرك أو العارف ، بمعنى أن الأشياء المادية ذاتها ليست مكانية ولا زمانية ، بل ظهورها لنا على هذا النحو يرجع إلى الطبيعة القاصرة لعقولنا التي لا تستطيع أن تدرك الأشياء إلا وهي حالة في مكان وسارية في زمان .

ولذلك فالإيمان يتفادى هذا القصور العقلي عن طريق استغلال الملكات الروحية في الإنسان مثل الحدس والإلهام والشفافية والتركيز الشديد على أسنى الأحاسيس بحيث يصل هذا التركيز إلى أبعد الآفاق الممكنة ، ومن خلال هذا التركيز يستطيع الإنسان أن يدرك - بوعى كامل - العلاقة العضوية بين النظام الإلهي الرائع الذي يحكم هذا الكون وبين الكون ذاته الذي هو من صنع الذات الإلهية نفسها ، وبذلك يزداد الإنسان تعرفاً عليها واطمئناناً إليها وحباً لها ، وبالتالي فإن هذا ينضج علاقته بالوجود ويوثقها لأنه يدرك موقفه تماماً منه . والإيمان هنا لا يعمل فقط من أجل الحياة الآخرة ولكنه يسهم بقسط وافر في سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، فهو يسعى بكل إمكانياته غير المحدودة إلى حياة أفضل وغد أجمل وإنسان أوسع أفقاً وأشمل تفكيراً . وفي هذا المعنى كتب السادات في جريدة « الجمهورية » في ١٣ يناير ١٩٥٤ يقول :

« هو الدين الذي شرعه الخالق الأعظم لكي تمتلئ الأرض عدلاً وسماحة ، ولكي تنتظم علاقات البشر فيما بينهم على أسس نظيفة نورها الفضيلة وهلاكها في الرذيلة . فالدين إذن للعمران . أو كما قال آباؤنا الدين المعاملة . »
ثم يوضح أهمية الدين في دفع ركب الوطن في طريق التقدم الحضاري والمثل الإنسانية والوحدة الخلاقة فيقول :
« والدين يدعونا لكي نعرف حق أوطاننا التي وهبنا الله إياها ، فن يفرط في حق وطنه بالدعوة إلى التفرقة أو بالدعوة إلى الخصومة أو بإثارة الأحقاد أو بالتخلف عن ركب الوطن لشهوة الدنيا والمناصب كافر بالوطن وكافر بالدين . »

والدين ليس مجرد مثل عليا نستمتع بالحديث عنها ونعجز عن تطبيقها ، ولكنه منهج دقيق تهذيب النفس البشرية والارتفاع بها بعيداً عن عالم الحيوان بكل غرائزه وشهواته وصراعاته وآفاقه المادية الضيقة . وكلما ابتعد الإنسان عن الدين فقد سيطرته على نفسه وتحول إلى ريشة في مهب الرياح . وليس هذا من باب البلاغة الإنشائية أو الفصاحة اللغوية ، ولكنها حقيقة علمية أثبتتها العلوم الإنسانية المعاصرة وعلى رأسها علم النفس . وأثبتتها كذلك الحياة القاسية الرهيبة التي عاشها السادات في شبابه والتي كان يمكن أن تقضي على روحه المعنوية العالية وإصراره على الكفاح المستمر من أجل مصر لو أنه لم يتسلح بسلاح الإيمان ، فلم ينقذه من ضياع التشريد وتيه الهروب وكابوس السجن وقسوة الاعتقال سوى إيمانه بالرسالة التي ولد من أجلها ، فكلما كانت تضيق به ظروف الحياة وصروف الدهر كان قادراً على انتزاع نفسه من هذا التشنيت والضياع بالتركيز الذهني والروحي على رسالة حياته من أجل مصر ، فلم يكن يقيس مركزه بالمقاييس التقليدية التي اصطلح عليها الناس في حياتهم المادية ، فأنور السادات هو هو سواء كان ضابطاً قديراً في الجيش أو كان

سجيناً مضطهداً وراء القضبان أو وطنياً جريئاً بين جدران الاعتقال أو ثائراً مطارداً من سلطات الاحتلال أو مشتغلاً بالسوق والتجارة أو ضابطاً من الضباط الأحرار أو رئيساً للجمهورية . فعلى مر كل هذه التحولات المصرية كان الإيمان الراسخ هو السند الأكيد للتوازن الفكرى الذى يعد الشرط الرئيسى لوضوح الرؤية والسير فى الطريق الصحيح . ولذلك يقول السادات فى « الجمهورية » فى ٢٠ فبراير ١٩٥٤ :

« أنا أؤمن أن كل فرد منا يولد وفى عنقه رسالة . . وتعودت وأنا أؤدى هذه الرسالة فى مختلف أشكالها المتباينة أن لا أقيس مركزى بمقاييس هذه الحياة التى صنعناها نحن لأنفسنا بقولنا إن هذا مرموق ، وذلك غير مرموق . . . وعلى طريقتى أيضاً ، أؤمن بأن هذه الحياة تستحق أن نكافح فيها من أجل رسالتى الوجود والعمران . . فنظرتى إلى ما نسميه المركز المرموق والحالة هذه لا تتعدى أننى أجتاز فترة أو تطوراً من تطورات حياتى على هذه الأرض . . . ولقد اجتزت من قبل فترة فى الاعتقال ، وتطوراً فى السجن ، وآمالاً فى الهروب والتشريد بالضبط كما أجتاز الآن تطوراً فى مكافئ هذه الثورة لا يعدوان يكون مرحلة أجتازها كما سبق واجتزت ما ذكرته لك من مراحل وتطورات . . .

والعبرة عندي دائماً هو أن أؤدى واجبى ، وقد أديته فى المعتقل وفى السجن ، وها أنا أؤديه الآن فى الثورة . والله وحده هو الذى يعلم ما فى الغد . .

وأحمد الله على أننى أؤمن به ، لذلك تجدنى راضياً عن يومى وواثقاً من غدى . . . وعلى هذا القياس ، تصبح الأمنية التى أطمع فى أن أحققها لنفسى شيئاً وهمياً ، وأننى إنما أطمع دائماً فى أن أستطيع أن أحفظ بالتوازن الداخلى بين عقلى وروحى وجسمى كى تسير أيامى على هذه الأرض هادئة مشرقة . . . فيسعد سلوكى أهلى والعيال . . وأحقق فى علاقاتى مع الناس المودة والسلام . . وقبل كل ذلك وفوق كل ذلك ، احتفظ بالصفاء مع ربى الرحيم القهار . . »

وإذا كان السادات يهتم بالتوازن بين العقل والروح والجسد ، فلأنه يعتقد أن العقل هبة من عند الله عز وجل وليس مجرد طاقة ميكانيكية تربط ما بين الأسباب والنتائج . ولذلك فشرط الإيمان الناضج هو الارتباط العضوى بين العقل والروح والجسد ، فنحن لا نستطيع تخيل العقل غير مرتبط بالروح والجسد وإلا تحول إلى مجرد فرض لا يمكن إدراكه ، وأيضاً لا يمكننا الإحساس بفاعلية الروح بدون الجسد إذ أنه التجسيد الحى لها والظاهرة المادية التى تؤكد وجودها المجرد ، ونفس الوضع بالنسبة للجسد إذ أنه يتحول إلى جثة هامة بدون الروح أو إلى طاقة عمياء بدون العقل . وإذا كان توفيق الحكيم ينادى بالتعادل بين الروح والجسد فإن أنور السادات يضيف البعد الثالث عن طريق التأكيد على الدور التنظيمى الذى يمكن أن يقوم به العقل من أجل التوازن الداخلى المنشود . والمفهوم الشامل للإيمان هو الذى يحول العلاقة بين الروح والجسد والعقل إلى وحدة عضوية لا تقبل الانفصام ، وهو الذى يحكم فكرة الإنسان عن الخير والشر ويحدد الفارق بين الإنسان الذى يهمل روحه وعقله لدرجة الانحدار إلى مستوى الحيوان وبين الإنسان الذى يتناول نفسه بالتهذيب لكى يسمو فوق مستوى البشر .

والإيمان هو السلاح الذى وهبه الله للإنسان لكى يميز بين الحق والباطل ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وبين الخير والشر وهكذا فى مختلف تناقضات الحياة . بل إن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد ، لأن الإيمان هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى معرفة حقيقية لا تقوم على الخوف من العقاب أو الطمع فى الثواب ، ولكن تقوم على الاستيعاب الشامل ، والحب الناضج بين الخالق والمخلوق . وهذا كله يتأتى عن طريق التجاوب الفعال بين التنظيم العقلى والانطلاق الروحى . ولعل المثل الشعبى المصرى خير من يعبر عن هذه الحقيقة عندما يقول عامة الناس إن الله عرف بالعقل .

وبناء على ذلك فنحن نعيش في كون معقول لأنه يتبع في كلياته وجزئياته قوانين ثابتة وواضحة ، تسير على نهج محدد من الأزل إلى الأبد ، فهي لا تحير العقل بالمفاجآت أو بالتحويلات ، ولا تلتبس على فهم ولا تعصى على منطق لأن الله منح الإنسان روحاً وعقلاً لكي يدرك بهما القوانين الإلهية التي تحكم كل شيء ، من أكبر كل إلى أصغر جزء في الوجود وتربط كل الموجودات برباط محكم ، وهذه القوانين إلى جانب أنها ثابتة وواضحة فهي صارمة وقاطعة ، فالعالم تحكمه المطلقات ولا مجال فيه للعبث بهذه المطلقات . وعلى سبيل المثال فإن الخير خير في كل زمان ومكان . كان خيراً منذ آدم بل كان خيراً في ذهن الله قبل أن يأتي آدم إلى الوجود ، وهو اليوم خير وسوف يكون خيراً حتى نهاية العالم . وهو خير في الصين وهو خير في مصر وهو خير على الأرض وهو خير في المريخ . كذلك الشر شر في كل زمان ومكان . كذلك الفضيلة فضيلة ، والرذيلة رذيلة ولن يلتقي الاثنان .

فإذا عجز عقل فرد عن فهم هذه المطلقات الصادرة عن العقل الأكبر المعقول فلا غبار على هذه المطلقات وإنما الغبار على عقل الفرد الذي فقد علاقته العضوية بروحه وجسده ، أما عقل الجماعة فلا غبار عليه ومهما ضل الفرد فالمجتمع عاقل ومعقول . وهذا ما كان يعنيه السادات في أحاديثه عندما يؤكد أن إرادة الشعب من إرادة الله ، وأن الدين للعمران الدنيوي وليس فقط للحياة الآخرة . لهذا أمكن أن يحكم المجتمع بالقوانين المطلقة التي كان يمكن لعقل الإنسان أن يعقلها مع مرور الزمن لولا لطف الله به فهو الذي بادر بفلورها في كتبه السماوية ، وفي هذه الكتب ارتسم للإنسان طريقان واضحيان لا ثالث لهما : طريق الغي وطريق الرشاد ، وكل منهما يفضي إلى نتيجته الحتمية وهي الجحيم للخطاة والنعم للمتقين .

وبما أن القوانين الدينية - والقوانين الدنيوية مبنية عليها - معقولة ، وبما أن الإنسان مخلوق عاقل ، إذن فقد تحددت مسؤوليته عن أعماله وأفكاره ونواياه جميعاً ، فالمسئولية كاملة لأن الإنسان مخير وهو مخير لأنه مميز ، وهو مميز لأن الله لطف به . ومن هنا كانت حتمية الإيمان بالله والعمل بما أنزله في كتبه السماوية . ولما كان الإيمان هبة من عند الله كان الإنسان هو المخلوق الوحيد المسلح بأسلحة تمكنه من منازلة الشيطان ومحقه ، وكان الشيطان قوة خارجية تنازل الإنسان من الخارج ، فتجسم أمامه آنا في زى النال وآنا في زى المرأة وآنا في زى رفيق السوء ، وهكذا إلى آخره من مغريات الحياة الدنيا ، ولكن الإنسان الحقيقي بماله من إيمان راسخ وعقل مميز وروح مفطورة على الخير ينازل هذه الأخطار الخارجية ويمنعها من أن تتغلغل فيه وتفسد نفسه وعمله وفكره ، ولقد يخسر الفارس المحارب جولة أو جولات ، ولكنه في النهاية فائز ومنصور إن هو اتخذ من العقل درعه ومن الدين سيفه البتار .

والفرد المؤمن فرد مطمئن ، وكذلك المجتمع المؤمن فإن الطمأنينة لا بد أن تسوده لأن العلاقات الإنسانية الثابتة والمطلقة هي التي تربط بين أفراده . كل من فيه مطمئن إلى عدالة السماء وإلى أن هناك قوة إلهية أزلية وأبدية تنظر إلى المؤمنين بعين الحب والرعاية ، فإن حدث خطأ بشري ونضبت عدالة الأرض ، فعادلة السماء لا ينضب لها معين ، وهي تملك من قوى التصحيح على الأرض ما يثبت فاعليته الحاسمة في الوقت المناسب والذي قد لا يخطر على بال بشر . ولذلك يعتقد السادات أن الإيمان هو السلاح الوحيد القادر على هزيمة تلك القوة الغاشمة التي نسميها بالقدر .

يقول في جريدة « الجمهورية » في ٢١ ديسمبر ١٩٥٣ في حلقة من سلسلة « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » :
« وقد لا نستطيع أن نحكم على فعال القدر عندما تحدث ولكن بعد مرور وقت طويل ، نستطيع دائماً أن ننظر إلى الماضي ، فتجد أن الإيمان الذي تتذرع به عندما تعمل في سبيل حق . هو دائماً . أقوى من القدر » .

وإذا كانت إسرائيل قد حاولت أن تقوم بدور القدر الذي لا يمكن قهره ، فقد كان إيمان السادات الراسخ أن سلاح الإيمان لم ولن يهزم أمام أية قوة مهما كانت غاشمة وبربرية ، ولذلك يقول في المؤتمر الشعبي بطنطا في ٤ يناير ١٩٧١ :

« نحارب ونواجه المعركة بالسلاح الذى لا يهزم أبداً وهو الإيمان . إيماننا بالله والأرض وشعبنا وقد سية كل تراب فى بلادنا . . إيمان بأننا لا نسلم ، وأشرف لنا أن نموت واحنا بنحارب ورقبتنا عالية أشرف من الاستسلام . »
 واعتماد السادات على الإيمان ليس شيئاً مستحدثاً فى حياته ولكنه يرجع إلى الأصول الأولى لفكره وفلسفته بصفة عامة ، وكان دائم الربط بين الإيمان وبين السلوك العملى الذى يترجمه إلى أفعال محددة . ولذلك كان حريصاً على تسجيل وترديد قصص البطولة والفداء التى كتبها الجندى المصرى فى مختلف المعارك التى خاضها ، وذلك كنوع من الإيمان عندما يتجسد ويتحول إلى طاقة جبارة لا يقنع صاحبها إلا بالنصر أو بالشهادة . وفى هذا يقول اللواء عبد الله لطفى فى حديثه إلى حمدى لطفى فى كتابه « أنور السادات : قصة إيمان بالعسكرية المصرية » ص ٧٣ :

« كان السادات يبحث عن هذه القصص بين الوحدات العسكرية ويردها بين ضباطه وجنوده ، وفى كل وحدة التحق بها كانت معنويات مقاتليها ترتفع إلى السماء نتيجة وجوده بينهم ، وسلوكه النابع من أخلاقياته المتينة ودعامتها الإيمان والتربية الأسرية ، الغنية بتقاليد ومفاهيم القرية المصرية .
 لقد سمعنا بعد تخرجه أنه أقام بمعاونة بعض زملائه مسجداً صغيراً فى سلاح الإشارة ، بإمكانيات ضئيلة جداً . . . وكان عمره ٢١ عاماً ، وقد دفع كثيراً من ضباط السلاح إلى تأدية الصلاة ، وحين صار « بعضنا » برتبة لواء ، اعترفنا بأن أنور السادات هو الذى قادنا إلى حظيرة الإيمان . »

ويتفق السادات مع ت . س . اليوت فى حتمية العلاقة العضوية بين الإيمان والعمل ، فمن الصعب تصور وجود إيمان بدون عمل وخاصة أن العقل البشرى المحدود لا يدرك شيئاً إلا إذا أخذ صورة الفعل أو المادة ، وفى هذا المعنى كتب ت . س . اليوت فى دراسته « ملاحظات حول تعريف الثقافة » ص ٢٩ :

« هناك فكرة تعلق بال كل مفكر أصيل كلما سمح لذهنه أن يسرح فيها ، وهى الفكرة التى تؤكد أن ما نؤمن به ليس فقط هو ما نفصح عنه سواء بالقول أو بالفعل ، بل إن الفعل هو فى حد ذاته إيمان ، وأن أكثرنا وعياً وتقدماً يعيشون هم أيضاً على المستوى الذى لا يمكن فيه تمييز الإيمان عن السلوك . »

وفى نفس الدراسة يقول اليوت ص ٥١ :

« والتمييز القاطع بين الفكر والفعل ، أو بين الإيمان والسلوك لا يستقيم فى الحياة السياسية أكثر مما يستقيم فى الحياة الدينية ، حيث يلزم أن يكون لرجل التأمل منشطه الخاص ، وألا يكون القس العلمانى عديم الخبرة بالتأمل . ليس ثمة مستوى من الحياة العملية يمكن إغفال الفكر فيه ، إلا مستوى التنفيذ الآلى للأوامر ، وليس ثمة نوع من التفكير أو الإيمان يمكن أن يكون عديم التأثير فى العمل أو السلوك . »

ولقد نسى الناس هذه الحقيقة بسبب تعقيدات الحياة الحديثة ، وكان أثر ذلك خطيراً للغاية إذ أصابهم بما يشبه انفصام الشخصية . فإذا كانت هناك فجوة بين الإيمان والسلوك أو بين الفكر والفعل فلا بد أن تكون شخصية الإنسان بكل مقوماتها هى الضحية ، فسوف يدخل فى مناهات زاهرة باليأس والهواجس والأوهام والظلام ، ولن يعرف طعم السعادة الدائمة التى تنبع من عالم الروح ، لأن السعادة المادية مرهونة بفترة وجيزة شأنها فى ذلك شأن أى شىء مادى فى هذا العالم ، وفى هذا يقول السادات فى « الجمهورية » فى ٣٠ يناير ١٩٥٤ :

« هذا الشرق . . أرض الثورة ، ومهبط الرسالات ، وأصل الحكمة ، يأبى إلا أن يعيش فى الظلام . . »

من منا لم يعرف الحزن ، أو تطرق إلى نفسه اليأس ، أو لعبت به الهواجس والأوهام ؟ . . إننا نعيش فى كل هذا ، وحين نتلمس الدواء تتفرع بنا السبل ، لأننا قلما نتمكن لنعرف أصل الداء . . »

وهكذا . . فنحن حتى فى لحظات السعادة لا نعرف كيف نسعد ، أو ننعم بما أحله الله لنا من متعة فى نصيبنا

من هذه الدنيا . . وفى يقينى أن الأصل فى كل هذا هى النفس البشرية . . النفس البشرية التى تعقدت وتآزمت بفعل ما تطورت إليه حياتنا على الأرض فأصبحت تدين بغير ما أرادها لها خالقها من دين ، وأصبحت تؤمن بقيم هى فى ذاتها بلاء وتعاسة وشقاء . .

علينا أن نحكم نفوسنا ، لا أن نتركها تتحكم فىنا . «

تلك هى الرياضة الروحية التى يتيحها الإيمان للإنسان ، واللذة هنا تكمن فى تفوق الإنسان على ذاته الزاخرة بشطحات الحقد والغضب والحسد ، وهى شطحات توحى للإنسان غير الناضج أنها تهدف أساساً إلى المحافظة على كيانه الإنسانى والاجتماعى من أن يحطمه الآخرون ، ولكنها فى الواقع تمثل الخطر الأساسى الذى يهدد هذا الكيان ، فالنار بعد أن تأكل كل ما حولها ولا تجد ما تأكله فإنها تلتهم نفسها . ولا ينفع بعدها ندم لأن الزمن يسير فى خط واحد وبعد واحد ولا يمكن أن يرجع إلى الوراء ولولثانية واحدة . والإيمان هو السياج الذى يحيط الإنسان ويحرسه من الخروج إلى نقطة اللا عودة ، فهو التنبيه الذى يحذر فى رفق وهودة ولا ينذر فى وعيد وتهديد . يقول السادات فى نفس المقالة : « فالغضب مثلاً يخرج بنا عن الحق والصواب ، وكم من مرة أحس الواحد منا بالندم بعد أن ترك لنفسه العنان فارتكب فى سورة الغضب ما ارتكب . .

والحقد . . إننى لا أكاد أرى أحداً لا يملك نفسه حقد على أخيه ، إما على منصب أو مال أو جاه إلى غير ذلك من تلك المعانى التى ملكت علينا نفوسنا ، وأفقدتنا أجمل وأنبل الإحساسات فى هذه الحياة .

والحسد . ذلك الذى يأكل فى النفوس ، فلا تراها إلا صفراء باهتة ، لأن شيطانه الخبيث يذهب بضياؤها وما فيها من بياض ونقاء . .

وبغير أن نحكم نفوسنا سنفقدنا بالتدريج . فى معارك الغضب نحن نفقد كل يوم أصدقاء ، ولا نحس أننا فى نفس الوقت نفقد مع الصديق أجزاء ، نفوسا كانت أملاً ، وكانت نبلاً ، وكانت تضحية ، وكانت عزاء . . وفى معارك الحقد ، تتلون الدنيا أمام أعيننا بلون قاتم ، لأن نفوسنا عادت لا ترضى عن شيء ، ونظل نحقد ونحقد حتى يصبح المرء كريهاً إلى الله ، وكريهاً إلى الناس ، وكريهاً إلى الحيوان ، وكريهاً حتى إلى الجماد ، وهل بعد هذا خسران وفقدان ؟ . .

وبعد . . علينا أن نعود إلى نفوسنا من أجل حياة شريفة كريمة ، تسعد فيها نفوسنا بالطهر إلى الله ، والصبر على الناس ، والصفاء إلى الدنيا ، والقناعة فى هذا العالم الشره المجنون . . «

وقد يظن القارئ أن هذا الكلام من باب الوعظ والإرشاد ، ولكنه إذا تعمق المعانى الواردة فى هذه المقالة فسيجد أنها حقائق طالما حاولنا الهروب منها لأن نفوسنا لم تستمتع بلذة ممارستها . فلقد خلق الله الإيمان فى قلب الإنسان من أجل تهذيب النفس الطائشة وتنظيم المجتمع البدائى ، والإيمان هو الوسيلة الوحيدة التى تجنب الإنسان فقدان مدلوله الإنسانى والاجتماعى حتى لا يتساوى وجوده مع عدمه . فإذا كنا نقول إن للإنسان وجوداً ذاتياً نابعاً من كيانه الشخصى فإننا لابد أن نضيف البعد الاجتماعى الموضوعى إلى بعده الشخصى الذاتى حتى تتوافر شروط وجوده كإنسان متكامل ، فالواقع أن الإنسان لا يوجد فى فراغ بل إن وجوده مرتين بوجود الآخرين . فالإنسان فى نظر الآخرين ليس هو بالذات وإنما مجرد الفكرة التى تكونت فى ذهنهم عنه ، وبذلك يختلف وجوده من شخص لآخر ، أى أن النسبية تتدخل حتى فى الكيان الشخصى للإنسان ، ونفس المعيار ينطبق على وجود الآخرين بالنسبة للإنسان . ولذلك فإن الوجود الفعلى للإنسان هو حاصل التفاعل بين كيانه ووجود الآخرين ، ومن هنا كان إصرار السادات على أن فقدان الآخرين وخاصة الأصدقاء منهم هو فقدان أجزاء من نفوسنا بكل ما تحمله من أمل ونبيل وتضحية وعزاء .

فالعلاقة الإنسانية نسيج حساس لا يعتمد فقط على الحاجة المتبادلة ولكنه يمتد ليشمل كل المثل والقيم والأخلاق والإحساسات والمعاني التي حرصت الإنسانية على تأكيدها منذ فجر الحضارة . والإيمان خير ما يمد الإنسان بالإحساس المرهف الذي يمكنه من وضع العلاقات الإنسانية في إطارها الصحيح ، فلا ينظر إلى الحياة في ضوء قانون الغاب بل يسمو إلى الآفاق التي جعلت منه أعظم وأروع مخلوق على ظهر هذه الأرض .

والتأمل الروحي الجاد ظاهرة مصاحبة للإيمان العميق ، ولذلك فإنه من المفيد بل من الضروري للإنسان أن يخلو إلى نفسه بين الحين والآخر حتى يحاسبها ويضع لها الأطر التي تجعل اتصالها بالآخرين من أجل سعادة الجميع . وفي هذا يتفق السادات مع سقراط الذي ينظر إلى الإنسان على أنه مخلوق في مقدروه أن يفحص ويراجع ، ويتأمل أحوال وجوده في كل لحظة من لحظات هذا الوجود . ويرى سقراط أنه في ضوء هذا التأمل تكمن القيمة الحقيقية للحياة . يقول في هذا : « إن حياة لا توضع موضع التأمل . لا تستحق أن تستمر . »

ونفس الاتجاه الرواقى عند السادات نجده أيضاً عند سقراط حين نراه يدعونا إلى عدم التشنج وعدم الجموح والتحكم في نزوات النفس ، فلا ينبغي أن ننساق وراء انفعالاتنا إلى حد التدمير ذلك لأن الأشياء تتغير باستمرار ، إنه لا يبقى إلا الجوهر الذي يجب أن نحرص عليه ونتمسك به . يقول سقراط :

« لا تبدد نفسك ، لا تضع طاقتك فيما لا يفيد ، لا تكن جامع الرغبة ، لا تكن ضحية للتشنج ، بل املك زمام نفسك ، وانظر إلى الحياة نظرة مخلوق فان ، أما الأشياء التي حولك فإنها لا تمس النفس لأن تلك الأشياء خارجية وهي تتغير سريعاً ، ولا يبقى منها أثر . ولتذكر كم شهدت أنت من صور هذا التغير المستمر . »

وفي نفس المعنى كتب السادات مقالة بعنوان « وحى الصحراء » في « الجمهورية » في ٤ أكتوبر ١٩٥٤ فقال :

« كنت في طريقى عائداً من الإسكندرية إلى مصر يوم السبت الماضى . وأمسى علينا الليل في الطريق الصحراوى . . . كان كل شيء من حولى هادئاً ساكناً حتى نور القمر كان خافتاً فهو في أيامه الأولى . وتاقت نفسى لأن أستمتع بهذا الجمال الهادىء خاصة وقد عادت بي الذكريات إلى سنة ١٩٤٠ حين نفيت إلى الصحراء الغربية وكنت برتبة الملازم . . . وكان يلذ لي بل يملأني سعادة وروحانية الاستمتاع بالصحراء في الليل ، فأوقفت العربى ونزلت منها وصليت فريضة المغرب على الرمال وتحت قبة السماء . . . وأشهد أنني لم أستمتع بنفسى وحسى كما استمتعت بها في تلك اللحظات .

فبين جدران الغرف وأوراق المكاتب والمشاكل التي تنتظر الحل كل يوم . . . كل هذا يقف حائزاً بيني وبين الاستمتاع بالحديث إلى نفسى ، ولن يتها هذا الحديث إلا في مثل جو الصحراء المنطلق وهدوئها الحالم . . . لقد تعلمت في مثل هذا الجوان أنطلق بروحى وراء كل الحجب . . .

وهناك تعلمت أيضاً أننا لا نعيش على هذه الأرض لمجرد أن نأكل ونشرب ونغتنى أو نفتقر ونفعل أو نحقد أو نغضب . فنحن ننسى دائماً أن فوقنا عالماً آخر علوياً يرقبنا ويتبع كفاحنا في هذه الحياة ، وهو عالم لا يعترف بالأحقاد . . . عالم كله حب وصفاء ، لاشك أنه يتأذى لما يقع بين البشر في هذا العالم من خلافات وشقاق . . .

وتعلمت أيضاً أنه عالم إذا أحسه الناس وتحدثوا مع نفوسهم في شأنه فسيعرفون السعادة الحقيقية التي لن يفقدها ضياع مال . . . أو موت عزيز . . . أو ما يشغل الناس ويلهيهم في هذه الحياة .

إننى أتمنى لو استطاع كل فرد منا أن يخلو إلى نفسه ليتحدث إليها حتى يكتشفها . . . وليخرج بنفسه إلى الفراغ الغير محدود حتى يستطيع أن يحس برسالة الإنسان ، وبكرامة الإنسان في هذه الأرض وهو الذى سخر له الله ما في

البر والبحر من الدواب ليشكر الله بقلبه وعمله وفكره ولسانه . »

ويمتد هذا الفكر الأصيل لكى يصل إلى الفلاسفة العرب الكلاسيكيين من أمثال محيي الدين بن عربي الذى يؤمن أن المؤمن الحق هو الذى يجمع بين العبادة والعمل ، العبادة التى تطهر النفس من أدرانها وشوائبها حتى تصفو وتتخلص من الشوائب التى تطمس البصيرة . حينئذ تنجلي الأسرار المستورة وراء الحجب ، ومن ثم ينبغى على المؤمن أن يعمل على ترويض نفسه ، حتى ترتقى وتبلغ هذه الدرجة من الرؤية والكشف ، كما ينبغى عليه أن يتصدى لوقائع الحياة وأحداثها ، فيناضل من أجل الحق ونصرتة ، ومن أجل هذا تصدى محيي الدين بن عربي للغزاة الصليبيين ، وعمل على دحرهم مستخدماً فى ذلك علمه ، ونصحه ، وفكره ، وفلسفته . تماماً مثلما فعل السادات يوم السادس من أكتوبر المجيد عندما نقل فكره وعلمه وفلسفته ونصحه إلى حيز التنفيذ ودحر الغزاة الإسرائيليين ، وكان الاعتماد على الإيمان السبب الذى جعل المدافع تنطلق فى عنف أكثر شراسة ، والطائرات تنقض على تجمعات العدو بأسلوب فاق الأساطير ، والدبابات تهدر فوق التلال والتباب وراء فلول العدو لا تترك جيباً له إلا وطهرته ، والمدمرات فى عرض البحار لا تغفل لها عين من أجل حماية مياهنا الإقليمية .

والإيمان نسيج حى فى المنهج الفكرى للسادات بحيث نجده يظهر من حين لآخر فى كل كتاباته كالنغمة الرئيسية فى السيمفونية ، مما يجعل الأفكار الأخرى الملازمة لمفهوم الإيمان عنده مجرد تنويعات جانبية على النغمة الرئيسية . يقول فى حلقة من سلسلة « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » فى « الجمهورية » فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٣ مؤكداً أن الإيمان هو المخرج الوحيد من الحيرة التى كان المصريون جميعاً يعيشون فيها قبل الثورة :

« نظر الفريق عزيز المصرى إلى فى عزيمة شابة ، وقال :

– لقد كان نابليون فى السابعة والعشرين من عمره فقط . . كان مثلك هكذا شاباً صغيراً . . ولكنه استطاع أن يكون فى تلك السن المبكرة نابليون القائد . واستطاع أن يقود بلاده وجيشه ، ولم يكن يتلقى توجيهاً من أحد . . وبعد لحظات قال فى عمق :

– التوجيه الوحيد الذى كان نابليون يستلهمه فى كل خطواته ، هو الإيمان الذى كان ينبعث من نفسه . . فابحثوا عن الإيمان ولا تعتمدوا أبداً على أحد . إلا على أنفسكم . . »

وكان لكلمة الإيمان فى نفسى رنين خاص عميق . . فقد كنت أنا أيضاً أبحث عن الإيمان ، وأومن فى الوقت نفسه بأنه المخرج الوحيد لنا من الحيرة التى كان المصريون جميعاً يعيشون فيها ، فلا يكادون يقدمون حتى يحجموا ، تيشهم الحسرات وترعبهم المخاوف . . ورغم هذا ، فقد قلت له :

– لقد عشت أنت مؤمناً بهدفك وعشت لا تعتمد على أحد . . وتغلبت عليك مع ذلك هذه القوى . ونحن نريد أن نعمل . .

فقاطعنى بقوله :

– اعملوا وحدكم ، واعتمدوا على شبابكم وإيمانكم . . »

هكذا كان لكلمة الإيمان فى نفس السادات رنين خاص عميق يحلوه سماعه فى كل وقت ، فهذه الكلمة كانت تمده دائماً بزاد لا ينفذ من الثقة والحكمة والشجاعة والجرأة والأصالة ، وبعد الرؤية ووضوحها بحيث لا يصيب ذهنه أى كلال أو فكره أى تشتيت من جراء الدخول فى متاهات جانبية بفعل ضغوط الحياة اليومية . حتى فى الاحتفال بعيد ميلاده نجد السادات يختلف عن بقية الناس التقليديين الذى يقلدون أوروبا فى الانكباب على الملذات الحسية فى مثل هذه المناسبة ، فالسادات لا يهتم بأطياب الطعام وفاخر الشراب فى عيد ميلاده . وإنما

يعتبر ذلك اليوم علامة من علامات طريق حياته ، عليه أن يتوقف عندها قليلا لكي يخلو إلى ربه ونفسه ، بعدها ينطلق إلى استقبال العام الجديد بكل البشر والتفاؤل والثقة في أن الله سيرعى خطاه ، فالله لا ينسى أبداً الذين تعمرو قلوبهم بحبه ، وفي هذا المعنى كتب السادات على صفحات « الجمهورية » في ٢٧ ديسمبر ١٩٥٤ ، يقول :

« اعتدت دائماً أن احتفل بيوم عيد ميلادى على غير ما سنه الناس لمثل هذه المناسبات من احتفالات ، وقد يكون تجاوزاً في القول منى أن أصفه باحتفال ، فلم تكن نحس أو نتنبه إلى يوم مولدنا في القرية لكي نحتفل به ، وإنما هي بدعة من بدع المدينة ولكن طريقي على أية حال لم تجاف تقاليد القرية ، فقد تعودت أن أخلو إلى نفسي وربى لكي أعود بذاكرتي إلى الورا فأتأمل كل ما وعيته من حياتي على ظهر هذه الدنيا . وأنا لا أعدو الحقيقة حين أقرر أنها متعة من أروع ما يمكن أن يستمتع به الإنسان أن يعود بفكره وخياله إلى الورا كي يستعرض ما يمر به من زمان . . . »

والسادات في هذا امتداد حي للفكر الصوفي الذي يجد السعادة في الإحساسات الروحية التي تحيل الإنسان من مجرد مخلوق مادي إلى كائن يسمو على البشر الذين لا يرون من حياتهم سوى اللحظة التي يعيشونها ، فالسعادة النابعة من الروح سعادة دائمة لأن الروح خالدة ، أما السعادة المادية فمرتهنة بالمادة الفانية التي لا تلبث أن تزول ، ولذلك فلذة القلب غير لذة العين أو الأذن . وهذا يذكرنا بحديث الغزالي عن السعادة ، فهو يرى أن كل شيء له لذته وسعاده ولكن مع اختلاف النوعية بين الحس والروح . فإن لذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شيء ، هو ما خلق له . فلذة العين تتمثل في مشاهدة الصور الجميلة ، ولذة الأذن تتجلى في سماع الأصوات الرخيمة ، وهكذا نجد أن لكل حاسة لذة خاصة بها ، ولكن اللذة الصادرة عن الحاسة تزول بزوال المحسوس ، ولذلك إذا لم تحتزنها الروح أو القلب فستكون وكأنها لم تكن ، بمعنى آخر إذا لم تتحول اللذة الحسية إلى سعادة روحية فلن يكون لها أية دلالة لأنها ستنتهي بانتهاء وجودها المادي ولن يمكن استرجاعها مع النشوة الروحية المصاحبة لكل نشاط فكري . ولذلك يؤكد الغزالي في كتابه « كيمياء السعادة » أن القلب ، وهو طريق المعرفة اليقينية ، فإن لذته تتحقق من معرفته بالله معرفة أساسها الحب المتجرد من كل المنافع والمصالح الشخصية ، أي الحب الذي يطلب لذاته ، والذي يسمو فوق كل اعتبارات المادة . فليست الحياة مجرد جسد يريد إشباع احتياجاته ، ولكن هناك العقل والروح والوجدان . يقول السادات على صفحات « الجمهورية » في ٧ أكتوبر ١٩٥٤ :

« من السهل جداً أن يعيش الإنسان حياته ، على هامش هذه الدنيا ، يأكل ويشرب ، ويعمل في روتين لا ينتهي إلا ساعة أن يلفظ أنفاسه مثل هذه الحياة تبدأ وتنتهي كأن لم يحدث شيء .

وهناك لون آخر من الحياة ، لا أدري لماذا أصبح صعباً ، بل وممتنعاً في هذا القرن الذي نعيش فيه ، ولا أدري أيضاً إذا كان سيستمر فيها سيأتي من أجيال .

أما هذا اللون الآخر الذي أريد أن أتحدث عنه ، فأنا أؤمن كما يؤمن كل من يحس بكيانه كإنسان إنه هو الأصل في الحياة . وحكمة الله من هذا الوجود . . تلك الحياة التي لا يعيش فيها الإنسان بجسمه فقط . وإنما بعقله وروحه والوجدان . .

كم من خصومات نفتعلها ونعيش فيها ، مع أنها تشقينا ، ومع ذلك نتشبث بها ، فنفقد طعم الصداقة وحلاوة السلام . . وكم من معان افتقدناها ، وهي حية ماثلة ، لو جربنا مرة أن نلجأ إليها لسعدنا في هذا العالم سعادة حقيقية ، تفوق كل ما نصطنعه من سعادات لا تدوم .

خذ التضحية مثلاً . . أليست ترن في أسماعنا تلك الحكايات المثيرة عن أجدادنا حينما كان يتعرض الواحد

منهم لنكبة أو كارثة ، فلا يلبث أن يرى جيرته وأصدقائه يتدافعون إليه كل يريد أن يحمل عنه ما أصابه عارضا ماله ، بل كل ما يملك من غير ورقة أو مكتوب . . . »

ولكن السادات يأسف للحال التي وصل إليها عالم اليوم . والذي دخل في دوامات نهمه مجنونة بسبب انكبابه على الأنانية والجشع وافتقاره إلى الإيمان الذي لا يفاضل بين الذات والموضوع . أو بين الفرد والمجموع . يقول السادات في نفس المقالة :

« في كل معالم الحياة افتقدنا المعاني السامية التي من غيرها لن يستقيم هذا الوجود ، ومن أجل ذلك فنحن نعيش في عالم مضطرب نهم . . مجنون . . لقد سعدت بالتضحية . . تلك التي تؤدي لا لغرض معين ، أو لمعنى طامع ، أولغاية مستورة ، وإنما تؤدي لذات التضحية وللمعنى السامي في نكران الذات . . .

إنني أدعوكم يا قومي إلى هذا المعنى الرائع ، لتسعدوا في نفوسكم وبيوتكم وأعمالكم . وبين الأهل والخلان . . . والسادات - بهذا - يريد أن يصل بالإنسان المصري إلى آفاق الإيمان النقي الذي لا تشوبه شائبة ، عندئذ سيكتشف معنى السعادة الذي كان الفيلسوف ذونون المصري من أوائل المفكرين الذين حاولوا تحديد مفهوم السعادة بحيث تتحول إلى قيمة مطلقة في حياتنا . يقول ذونون إن الوصول إلى السعادة يتطلب رياضة روحية مستمرة حتى يصل الإنسان إلى أسنى درجات الإيمان وبالتالي يتمكن من أن يرى ما لا يراه العقل البشري المحدود . ولذلك يؤكد :

« أن المؤمن إذا آمن بالله ، واستحكم إيمانه ، خاف الله . فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله ، فإذا استقرت عنده درجة الهيبة ، دامت طاعته لربه فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء . فإذا استقرت درجة الرجاء تولدت من قبل الرجاء المحبة . فإذا استحكمت المحبة في قلبه ، استتبعته درجة الشوق . فإذا اشتاق ، أدى شوقه إلى الأنس بالله ، فإذا أنس بالله ، اطمأن إلى الله ، فكان نيله في نعيم ، ونهاره في نعيم ، وسره في نعيم ، وعلايته في نعيم . »

وليس هذا الفكر الإنساني بمقصود فقط على فلاسفة الشرق . بل نجد فلاسفة الغرب من أمثال شوبنهاور الذي يؤكد أن الإرادة البشرية طاقة قوية ولكنها عمياء ، ولذلك فهي في حاجة دائمة وملحة إلى لجأ الروح والعقل حتى يسلس قيادها لما فيه صالح الإنسان . ويوضح شوبنهاور في كتابه « العالم إرادة وتخييل » ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ ، أن الطريق إلى السعادة ليس بالثروة المادية ولكن بالثروة الروحية المتمثلة في الحكمة . يقول شوبنهاور عن الصراع بين الجسد والروح داخل الإنسان :

« الإنسان هو الجهد الضخم الجبار الذي تبذله الإرادة أو الرغبة (التي يعد الجهاز الحسي مركزها) . وأيضاً فإن الإنسان هو الموضوع الخالد الحر السامي الذي يخضع للمعرفة اليقينية (التي يعد الذهن مركزها) ومن المدهش حقاً أن نرى المعرفة - وإن كانت نتاج الإرادة - مسيطرة على الإرادة ذاتها . ومن هنا كانت إمكانية استقلال المعرفة في الطريقة الحيادية التي يستجيب بها العقل أحياناً لما تمليه الرغبة . »

وفي المجلد الثاني من نفس الكتاب ، ص ٤٣٩ يوضح شوبنهاور أن العقل الذي لا يتمسك بالتأمل يضل الطريق ويتحول إلى لعبة في يد الرغبة :

« وأحياناً يرفض العقل إطاعة الرغبة ، ومثال ذلك عندما نحاول عبثاً أن نركز عقولنا على شيء ، أو عندما نسترجع عبثاً ذكرى شيء قد أودعناه إياها . ويتضح غضب الرغبة على العقل في عضوية علاقتها به برغم الفرق بين كل منهما ، فالعقل إذ يرتبك ويقع في حيرة نتيجة للغضب . يأتي بما كان قد طلب منه قبل ساعات ، بل قد يحدث ذلك في الصباح التالي ، على غير انتظار أو موعد أو حتى توقع . »

ويعتقد شوبنهاور أنه لكي يتصف الإنسان بالإنسانية الحققة ، لا بد من إخضاع طبيعته الحسية لقدرته الذهنية . يقول في المجلد الأول من نفس الكتاب ص ١١٢ :

« إن التأمل السابق للفعل هو ضرورة حتمية تساعد الإنسان على تقييم أفعاله التي سيقدم عليها ، وربما منعه التأمل من الإقدام عليها لما فيها من أخطار تهدد حياته أو حياة الآخرين ، فثلاً نجده يتأمل في برود وموضوعية موضوعات كثيراً ما تكون ذات أهمية رهيبية : مثل الانتحار ، والقتل ، والمبارزة ، وكل عملية محفوفة بالخطر على الحياة من أى نوع ، وأشياء أخرى تثيرها طبيعته الحيوانية . في مثل هذه الظروف ندرك إلى أى مدى يكون العقل قد سيطر على الطبيعة الحيوانية » .

ويعتبر شوبنهاور المعرفة بكل أنواعها : العقلية منها والروحية ، هي القدرة على التوفيق تماماً بين الضرورة الداخلية والخارجية ، أو بين الحاجة الذاتية والموضوعية . فن بين كل عشرة أشياء تثير ضيقنا وحنقنا ، لن تستطيع تسعة منها أن تفعل ذلك إذا ما فهمناها فهماً تاماً بأسبابها ، وعرفنا بهذا ضرورتها وطبيعتها الحققة ، لأنه كما يكون اللجام للجواد الشرس يكون العقل بالنسبة للرجة في الإنسان . وكلما زادت معرفتنا بعواطفنا قلت سيطرتها على أنفسنا ، ولا شيء يحمينا من الاضطراب الخارجى مثل سيطرتنا على ذواتنا . ولذلك يستشهد شوبنهاور بالفيلسوف سينيكا الذى أكد من قبل أنه إذا استطاع الإنسان أن يخضع كل الأشياء لنفسه ، فلا بد من أن يخضع نفسه للعقل . وليس أعظم العجائب هو من يتنصر على العالم كله ، بل ذلك الذى ينتصر على نفسه أولاً وأخيراً . ولن يتأتى له مثل هذا الانتصار إلا عن طريق العقل المتبصر الموضوعى . ومفهوم العقل هنا ليس مجرد تلك العمليات الميكانيكية التي يؤديها الذهن ، ولكنه أشمل من ذلك ، فالمقصود به كل القوى الفكرية والعقلية والذهنية والروحية والحدسية التي تلازم الإنسان طيلة حياته وتفرق بينه وبين الحيوان ، بمعنى آخر هي تلك القوى المجردة من المادة والتي تمنح الإنسان القدرة على الإيمان الراسخ بما وراء المادة العمياء من عالم روحى باهر .

وعلى هذا فإن السعادة التي يتلقاها الإنسان من صلته بالله أروع وأبقى وأخلد من السعادة التي يتوقعها الإنسان من البشر ، وهذا ما عبر عنه شوبنهاور بقوله إن السعادة التي نتلقاها من أنفسنا أعظم من تلك التي نحصل عليها مما يحيط بنا . فالعالم المادى المحدود الذى يعيش فيه الإنسان يشكل نفسه بالطريقة التي ينظر بها ذلك الإنسان إلى العالم . وطالما أن كل شيء يوجد أو يحدث للإنسان إنما يوجد في شعوره فحسب ، ويحدث له وحده ، عندئذ يكون أهم هدف في حياة الإنسان هو تكوين ذاته التكوينية الإنسانية الصحيح ، ولذلك يتفق شوبنهاور مع أرسطو عندما يقول إن « معنى أن تكون سعيداً هو أن تكون مكثفياً اكتفاء ذاتياً » . ونفس الفكرة نجد لها صدى قوياً في مقالة السادات في « الجمهورية » بتاريخ ٤ فبراير ١٩٥٤ والتي يقول فيها :

« أنا أومن بالنجاح الداخلى . . أومن به لأنه لون من النجاح لا يحسه الناس في أغلب الأحيان ، وإنما يحس به خيالى ، ويحدثه عنه وجدانى . . ومن طبيعة هذا اللون من النجاح أنه يملأ الإنسان ثقة في نفسه ورضاء عنها . . وإذا ما رضى الإنسان عن نفسه في هذه الدنيا ، فقد فاز بأكبر درجة من درجات السعادة . والإنسان إذا سعى إلى النجاح الداخلى وأحس به ، كان مالكاً لأعظم متعة روحية تحطم أمامها الكثير من متاعب هذه الحياة وآلامها .

فقد اعتدنا في حياتنا على أن النجاح الخارجى الذى يراه الناس فينا هو النجاح الوحيد الجدير بأن نسعى إليه ونشقى في سبيله ، واعتدنا أيضاً أن لا نتقيد بالوسائل في سبيل بلوغ هذا النجاح لكى نطلع به على الناس . . . وقليل منهم من يسأل كيف كان هذا النجاح . . وانتصارات الإنسان في نجاحه الخارجى لا بد أن يلمسها الناس في مال أوجاه أو منصب ، سيسعد بها صاحبها . . ولكن سعادته ستظل مقيدة ومعلقة بما يراه الناس ، لأنه

أسس نجاحه على رأيهم . .

أما انتصارات الإنسان في نجاحه الداخلي ، فلن يعرفها أو يحس بها إلا صاحبها ، لأنها انتصار لمبدأ قويم أو لمعنى سام أو لفضيلة معينة . . سيسعد بها صاحبها أيضاً ، ولكن إلى الأبد . . سيسعد لأن هذه الانتصارات ستشعره في كل لحظة من لحظات حياته أنه يستطيع أن يكون مركزاً لإشعاع المثل الطيب والمبدأ القويم والإيمان بكل ما هو كريم وشريف في هذه الحياة . . سيسعد لأن بريق هذه الانتصارات لن يذهب أبداً ، بل سيظل يضيء كلما تقدمت السنون والأيام . . وسيظل صداها يحفز لانتصارات أخرى ، لن تكون إلا كريمة وشريفة . . . سأظل أومن بالنجاح الداخلي . . حتى ولو لم ينعكس على الناس ، لأنه لن يوزن في يوم بموازين النجاح الخارجي .

وفي نفس الخط الفكري يؤكد شوبنهاور أنه لا مخرج من شر الرغبة الذي لا ينتهى إلا بالتأملات الروحية للحياة ، والبحث في انتصارات المفكرين والفلاسفة والعلماء والقادة الروحيين في جميع العصور وجميع البلاد ، فلمثل هذه القيم الموضوعية والمثل الإنسانية والانتصارات الفكرية عاش أولئك العظماء . ولذلك لن يسمو ولن يخلد سوى ذلك الفكر الذي يتجلى في البعد عن الأنانية الضيقة من جراء المقارنة الدائمة بين الذات والآخرين ، وعلى حد قول شوبنهاور فإن هذا الفكر الموضوعي يطفى كالعطر الساحر فوق أخطاء عالم الرغبة وحماقاته . والمأساة أن أغلب الناس يسمحون لانسياب أفكار الآخرين أن يحبس ويكبث أفكارهم الأصيلة ، بل يشل مع الزمن قدرتهم على التفكير وتحول عقولهم - بالتبعية - إلى مجرد نوع من آلات الامتصاص نتيجة لفقر عقولهم التي تجتذب إليها أفكار الآخرين عنوة ، وبالتالي فهم يفقدون كل عناصر النجاح الداخلي التي حللها السادات ، وأهمها الأصالة وحرية الاختيار ووضوح الرؤية والثقة في النفس . ولذلك نجد أن أغلب الناس لا يستطيعون الارتفاع بأنفسهم عن مجرد رؤية الأشياء على أنها أهداف للرغبة التي تسيطر على مقدراتهم وتلهب ظهورهم بسياط من نار . ومن هنا كانت تعاستهم لأنهم لا يدركون القوى الكامنة في الإيمان الذي يمنحهم القدرة على الاستيعاب الشامل والخبرة الموضوعية والفكر الموسوعي بحيث لا يقتصر دورهم على مجرد الاطلاع أو التلقى السلبي ، فإن رؤية الأشياء كمجرد هدف للفهم والاستيعاب ، إنما يعد الخطوات الأولى للوصول إلى الحرية والسعادة . وفي هذا المعنى يقول شوبنهاور في كتابه « العالم إرادة وتخيل » ، المجلد الأول ، ص ٢٥٤ :

« عندما يجتذبنا دافع داخلي أو سبب خارجي من طغيان الرغبة الذي لا نهاية له ، فإنه يخلص المعرفة اليقينية من عبودية الرغبة ، وبذلك لا يصبح الانتباه موجهاً بعد ذلك إلى دوافع الإرادة ، بل إلى فهم الأشياء وقد تخلصت من علاقتها بالإرادة أو الرغبة ، ومن ثم يرقب هذه الأشياء دون أدنى مصلحة شخصية تعتمد على رأى الآخرين ، فالموضوعية الخالصة تساعد الإنسان على أن ينظر إلى ذاته على أنها موضوع في حد ذاته بصرف النظر عن علاقاتها النسبية المتغيرة مع ذوات الآخرين . ولذلك فالإنسان الموضوعي يعطى نفسه كلها لها طالما هي أفكار وليست دوافع . وعلى أثر ذلك يحل السلام والطمأنينة والهدوء وكل العناصر التي ينشدها الإنسان دائماً ، وهي العناصر التي كانت تهرب دائماً من الإنسان بمجرد السير في طريق الرغبة ، أما طريق الروح فهو السبيل الوحيد المؤدى إلى هذه العناصر التي ستأتي طواعية إلى الإنسان إذا سلكه بمحض اختياره . عندئذ ستخلو حياته من الألم ، وهي الحياة التي امتدحها أبيقور واعتبرها الخير الأسمى ، لأن الإنسان في تلك اللحظة يكون قد تخلص من كفاح الرغبة التعس ، ويكون قد تحرر من عبودية الإرادة .

ولذلك يجب على الإنسان ألا يبحث عن سعادته عند الآخرين ، لأن السعادة - بمنتهى البساطة - بين يديه .

بمعنى أن الآخرين أو الأشياء المحيطة بالإنسان بصفة عامة لا تمنح الإنسان السعادة بقدر ما يستخرج هو السعادة منها وذلك عن طريق الأسلوب الذى ينظر به إليها . ومن هنا يمكن لأى شىء ولكل شىء أن يمنح السعادة للإنسان طالما أن الأمر فى يديه . يقول السادات فى مقالة بعنوان « السعادة بين يديك » فى « الجمهورية » بتاريخ ١١ أكتوبر ١٩٥٤ :

« إن حياتنا على هذه الأرض محدودة بأجل معين . . . والعجيب أننا نمضى دهرًا طويلًا من هذا الأجل فى التحسر على ما فات ، أو الخوف مما هو آت . . . إننا نستطيع أن نجعل من كل أيامنا على هذه الأرض سعادة لا تنقضى . . .

إن فى نعمة الصحة سعادة . . .

وفى عاطفة الأبوة والبنوة سعادة . . .

وفى حب الأهل والأصدقاء سعادة . . .

وفى الحياة الزوجية سعادة . . .

وفى العمل سعادة . . .

وفى التأمل فى خلق السماوات والأرض سعادة . . .

وفى الأمل الذى يقهر اليأس سعادة . . .

فى جمال الزهور ، وفى خضرة الشجر . . .

فى انسياب المياه . وفى وقفة الجبل . . .

فى طلوع الشمس ، وفى سحر القمر . . .

فى صفاء الروح ، وفى استقامة الخلق . . .

سنعرف الله . . .

فنسعد إلى الأبد . . . » .

وهذه المباحج الروحية لا يمكن الحصول عليها إلا إذا اعتنى الإنسان بروحه وعقله وقلبه ، أما إذا ترك قياده للنفس - وهى أمانة بالسوء - فلن يصل إلى صفاء الروح واستقامة الخلق وحب الإنسانية ومتعة التأمل وروعة الأمل ، وبلغة العلم ، لن يصل إلى الصحة النفسية المنشودة . ولذلك ينادى الفيلسوف والطبيب العربى أبو بكر الرازى بأنه من الضرورى على طبيب الجسم أن يكون أيضاً طبيباً للنفس ، ومن هنا قام بتأليف كتابه « الطب الروحاني » الذى يهدف من ورائه إلى إصلاح النفس . أى أنه سبق فرويد بعدة قرون فى عرضه للنواحي التى ينبغى أن تكون عليها النفس من كبح ، وإعلاء ، وسمو ، وارتقاء ، وسيطرة على الانفعالات الجامحة ، والغرائز الطائشة ، والشهوات العمياء . وهو يؤكد فى كتابه قيمة العقل كقيمة روحية فى حياة الإنسان ، ويعتبره من أعظم نعم الله على البشر ، فعن طريقه يمكن للإنسان أن يدرك الأشياء ، وأن يسخر الطبيعة فى خدمته ، وهذا أكبر دليل على حب الله للإنسان إذ شرفه بأعظم وسيلة تجعل حيساته ذات قيمة ومعنى ، وتحدد من شطحاته الحيوانية التى يمكن أن تدمر حياته نفسها . وعلى هذا يقول الرازى فى أحد فصول كتابه بعنوان « قمع الهوى » : إن أشرف شىء وأروع هو قدرتنا على قمع الهوى وترويض النفس الأمانة بالسوء . ولذلك نجد السادات يتوجه إلى الله عز وجل بالحمد والشكر عند ما تمكنت الثورة من إجلاء الإنجليز عن مصر بعد احتلال دام أكثر من سبعين عاماً ، لم يحاول السادات أن يمجّد الجلاء على أساس أنه انتصار بشرى ضد قوى البغى والاحتلال ، بل أكد أن الله قد أراد أخيراً بهذا النصر عند ما صحت عزيمة

الشعب وقادته على انتزاعه بالقوة أو بالمفاوضة . ففي عدد الجلاء الخاص الذى أصدرته جريدة « الجمهورية » فى ٢٨ يوليو ١٩٥٤ يتوجه السادات بالحمد والشكر إلى الله راجياً أن يرعى هذا الشعب الذى ذاق الكثير من العسف ويأمل أن يعوض ما فاتته من تقدم حضارى ورفاهية إنسانية . يقول السادات :

« رب أوزعنا أن نشكر نعمتك التى أنعمت على أهلنا بعد طول البأس ومرارة الحرمان . .
أيها الشعب . .

إن الحياة مقبلة عليك اليوم كما لم تقبل من قبل ، إن بلادك أصبحت ملكاً لك وحدك لا ينازعك فيها غاصب أو طاغية . .

إن العلم سينير عقلك كما لم ينره من قبل . .

إن رزقك سيكون اليوم كما لم يكن من قبل . .

رب إن الشعب يسجد لك اليوم فى عيد حريته ، ثم ينظر إلى المستقبل المضىء فى فرحة . . ونورك يا إلهى هو الذى يضىء لنا الطريق . .

سبحانك ربى أسبغت على مصر نور جمالك وجلالك . . فلك أنت العظمة والسلطان .

وسبحانك أنت . . لك الملك والقدرة والدوام . .

سبحانك ربى يا غالباً غير مغلوب . . وضعت ورفعت ، ووصلت وقطعت ، وأعززت وأذلت ، بيدك الخير . .

إنك على كل شىء قدير . .

إلهى لك الحمد . . حمداً ترضاه . . فبك قمنا ، وعليك توكلنا ، وإليك أنبنا . . فهيات لنا الوسيلة وكتبت

لهذا الشعب النصر والعزة والكرامة . .

إلهى . . وسيدى . . ومولاي :

أسألك بحق السائلين عليك أن تجعل لنا ظهيراً من عقولنا ، ومهيماً من أرواحنا ، ومسخرأ من أنفسنا . .

كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً » .

هذه التسابيح الصوفية لا تصدر إلا عن قلب عامر بالإيمان العميق الراسخ ، قلب ذاق المباحج الروحية للإيمان وأحس أن الحياة كلها لا تساوى شيئاً بدونها ، قلب أدرك أن الإيمان بالله هو أسمى درجات المعرفة اليقينية ، إيمان قائم على الحب المتبادل وليس على خوف الإنسان من الرهبة الإلهية . وفى هذا يعد السادات رائداً للتأصيل الفكرى لأن فكره يمتد حتى يصل إلى نظرية ذى النون المصرى فى كل من المعرفة الإلهية وكذلك المحبة الإلهية . فعنده أن المعرفة الإلهية هى أرقى أنواع المعرفة لأنها معرفة يقينية ومباشرة للذات الإلهية ، وهى لا يمكن تحصيلها عن طريق التعلم ، أو الاستدلال ، وإنما هى إلهام ، أو نفث فى الروح ، لا يدانيه أى ضرب من ضروب المعرفة الأخرى ، وبدون هذه المعرفة لا يستطيع المؤمن المتصوف أن يدرك الذات الإلهية بكل بهائها وروعها وعظمتها . .

وكما كانت لدى ذى النون نظرية فى المعرفة ، فقد كانت لديه أيضاً نظرية فى المحبة ، فهو يرى أن ثمة حباً متبادلاً بين العبد المحب ، وبين الرب المحبوب ، وأن هذا الحب من شأنه أن يقود الإنسان إلى الاتحاد بربه اتحاداً يشعر فيه باستغراق ذاته فى ذات الله ، وهذا هو الحب الإلهى ، الذى كان يرى ذوالنون أنه يجب على من تحقق له ذلك ألا يبوح بشىء من أسرارها لمن لا يعرفون من الحب إلا معناه المادى الحسى ، فأمثال هؤلاء لا يعرفون سوى المادة الفانية المرنهن وجودها بمكان وزمان معينين ، أما الفكرة المجردة فلا يمكن أن تخطر على بالهم ، برغم « أن الفكرة إنما هى مفتاح العبادة » على حد قول ذى النون نفسه ، فهى الكفيلة بجعل الإنسان ذلك المفكر العاقل الموضوعى الذى

ينظر إلى نفسه كما لو كانت شيئاً منفصلاً عن كيانه . فالإيمان هو أسمى درجات الموضوعية ، يقول ذو النون : « ليس بعامل من طلب الإنصاف من غيره لنفسه ولم ينصف من نفسه غيره ، وليس بعامل من نسى الله في طاعته ، وذكر الله في مواضع الحاجة إليه » . ولذلك يؤمن ذو النون أن الإخلاص في العمل والعبادة إنما هو المنقذ من العذاب والضلال ، فطريق الخلاص هو الإخلاص . فإذا أخلص الإنسان تخلص من ونز الضمير ومن كل ما يعاينه في حياته من محن وآلام وشور . فليس من المعقول أن يقابل حب الله لنا بالعقوق من ناحيتنا .

فالإيمان الحقيقي هو الخروج من دائرة الذات الضيقة والاتحاد بالذات الإلهية التي تحتوى الكون كله كموضوع شامل ، أى أنه أسمى درجات الموضوعية - كما قلنا - وبالتالي فهو أسمى درجات العبقرية إذا حاولنا تطبيق مفهوم شوبنهاور للعبقرية حيث يقول في المجلد الأول من « العالم إرادة وتخيل » ص ٢٤٠ :

« إن العبقرية هي أكمل صور الموضوعية ، أى نظر العقل إلى الأمور من الناحية الموضوعية الخالصة ، والعبقرية هي القدرة على أن يبعد الإنسان عن نظره مصالحه ورغباته وأهدافه ، ويتخلى الشخص تماماً عن شخصيته بأكملها لفترة من الوقت حتى يصبح مجرد ذات عارفة خالصة . ومن ثم يرى العالم رؤية واضحة . ولذا جاء مدلول العبقرية مشيراً إلى سيطرة المعرفة اليقينية على الرغبة الذاتية سيطرة ثابتة محددة الملامح » .

وهذه الرؤية الواضحة ليست سوى الشفافية التي يتحدث عنها المتصوفة حين يبلغون أسمى درجات الكشف ، ويقول شوبنهاور إن العبقرية تمسك لنا المرأة السحرية التي يظهر عليها كل ما هو ضرورى وهام وقد جمع ووضع في أسطح ضوء ، أما كل ما هو عرضي غريب فلا يرى لأنه أبعد عنها ، وبذلك ينفذ الفكر من أغلال العاطفة كما يمتشق شعاع الشمس السحب ، فيكشف قلب الأشياء ، ويذهب إلى ما وراء دائرة الذات حيث الصفة العامة والحقيقة المطلقة والكينونة الدائمة ، لا يكون الإنسان في كشفها إلا مجرد رمز أو وسيلة . وفي هذا يتفق شوبنهاور مع الفيلسوف العربى ابن باجة عندما يوضح في كتابه « تدير المتوحد » أن السعادة الإنسانية لن تتحقق إلا إذا استحالَت الأشياء المادية إلى أفكار مجردة ترتفع فوق العالم المادى الشائه ، المليء بالغش ، والذي يحول دون رؤية الحقيقة .

ويذهب ابن باجة إلى القول بأن السواد الأعظم من الناس ينعم بحاسة البصر التي يبصر بها الأشياء ، يبصرون صورها وأشكالها وألوانها ، لكنهم مع هذا ، لا يفتنون إلى عجز أبصارهم . إنهم لا يرون من الأشياء إلا ظلالها ، وهم لا يدركون أن أجسادهم نفسها - مثل هذه الظلال - تزول كما يزول الظلام . إن قلة قليلة هي التي تمتاز بقوة البصيرة والقدرة على الاستبصار . إنهم وحدهم القادرون على إدراك حقائق الأشياء ، فهم لا يتعثرون في ظلام المادة الذى يطمس البصيرة ويحول دون الكشف والحدس والإبداع . ومن ثم ، كانت الموضوعية عند ابن باجة ، هي وسيلة للوصول إلى الكشف الإلهى حين يتجرد المؤمن من كل عناصر الفناء ويتحول إلى قبس من النور . وفي مقدور كل إنسان أن يرقى بنفسه حتى يبلغ هذه الدرجة العالية من المعرفة اليقينية ، وذلك حين يتخلص من حدود ذاته الضيقة ، ويعمل على تنمية قواه العقلية ، ويحرص على توسيع نظره الموضوعية بحيث لا يجب أن تكون أفعاله مرهونة بكل ما يعود عليه بالنفع الشخصى ، وإنما عليه أن تصدر أفعاله عن نظرة إنسانية خالصة ، فثلاً إذا اصطدم بحجر في الطريق وأراد أن يحطمه حتى لا يكون حجر عثرة في طريق الآخرين ، فإن هذا الفعل ينطوى على قصد إنسانى ، وبالتالي فهو عمل موضوعى لأنه يحمل الرغبة في عدم إيذاء الناس جميعاً ، فهو أشبه بالمفهوم الكلى الذى لا يقتصر على فرد بعينه .

ومن أجل بلوغ هذه الدرجة من الموضوعية يطالبنا ابن باجة - مثل شوبنهاور - بتنمية قوانا العقلية والذهنية والفكرية والروحية حتى نتحكم في قوانا النفس من غضبية ، وشهوية ، وانفعالية ، ولذلك فالأفعال الحيوانية صادرة

عن الغريزة - أو الرغبة كما يسميها شوبنهاور - بينما الأفعال الإنسانية صادرة عن الإيمان بشفافية الروح ومقدرة العقل . ويجب ألا نهمل في السمو بنفوسنا حتى تنكشف لنا الرؤية ، رؤية الطريق إلى الحق والخير والجمال ، حينئذ يصبح الإنسان إنساناً فائقاً ، أو على حد تعبير ابن باجة : إنساناً إلهياً ، بمعنى أنه يعيش على الأرض وينحضع لقيود المادة ولكن روحه تهيم في الملكوت الأعلى حيث تجد خلودها في الفناء المتصل في الذات الإلهية . وهذه الفكرة الصوفية من أحب الأفكار إلى قلب السادات ، فقد كتب على صفحات « الجمهورية » في ١٠ مايو ١٩٥٤ يقول : « كنت أقرأ منذ خمس سنوات . . وفي شهر رمضان بالذات قصيدة لشاعر ألماني صوفي يردد دعاء حاراً صادقاً لله سبحانه وتعالى ، وهو في هذا الدعاء لا ينسى أن يعيش على الأرض ، وهو يسبح بروحه في ملكوت الله الأعلى ، لذلك صدر دعاءه رائعاً جديداً يترجم عبادته لله وحبه المتقد في نفسه ، وفناءه المتصل فيه . . . كل هذا ترجمه ألوان من هذه الطبيعة التي رسمتها لنا يد الخالق الحبيب فأبدعت وأذهلت . . استمع معي إلى ذلك الصوفي وهو يقول :

« هوربي الذي أعبد . . هوربي الذي أعشق . . هوربي الذي من أجله أريد أن أتألم وأريد أن أتعذب ، وأريد أن أنفطر وأتمزق وأموت . .

إنه ليتغلغل في عقلي ، تغلغل الحرارة المباركة في عظام شيخ محطم . . ويندمج في كياني كما يندمج العطر في الزهرة . . والثمرة في الشجرة . . والنور في الظلام . .

فامنحني يا إلهي قوة الفكر كي أعيش فيك وأصبح كالأسد . .

وهبني يا إلهي بروح التواضع كي أتقرب منك في وداعة البنفسج . .

واسكب علي يا إلهي ضوء القناعة كي أنفذ إليك في حكمة العباقرة . .

واغدق علي يا إلهي فيض الصفاء كي يغتسل قلبي في مياهاك الزاخرة . .

وجللني يا إلهي بروائع جمالك كي أندمج فيك . . وأسبح بحمدك . . دنيا وآخرة . .

سنظل نشقى على هذه الأرض . . وسنظل نضل الطريق ، ولن نستمتع بهذه الحياة إلا إذا ارتفعنا فوق نفوسنا

لنفكر في خلق السموات والأرض . .

ربنا ما خلقت هذا باطلاً . . . سبحانه . . . »

بهذا الأسلوب يستطيع الإنسان أن ينتصر على المادة التي تكبله كلما حاول الانطلاق إلى الآفاق الرحبة لعالم الروح ، وهي خبرة ضرورية للوصول إلى المعرفة اليقينية التي قد يقصر العقل البشري المحدود عن بلوغها . ولم يقتصر الترحيب بهذه الخبرة الروحية على فلاسفة الصوفية فحسب ، بل نجد فلاسفة وعلماء عقلانيين - من أمثال ابن خلدون - يقولون أن الحدس والإشراق من أهم الوسائل التي تساعد على بلوغ المعرفة الخالصة . فعرفة الأشياء عند ابن خلدون لا تتحقق إلا عن طريق الخبرة ، والمشاهدة . ومن ثم ، فهو يدعو أهل الفكر والمعرفة إلى الأخذ بالتجربة ، وأن يجعلوا من الحواس أداة لتعرفهم على هذا العالم ، وهو هنا لا يكتفي بالتجارب الفردية ، وإنما ينادي بأنه ينبغي التركيز على حصيلة التجارب الإنسانية عبر العصور المختلفة . لكن ابن خلدون برغم ارتباطه بالواقع ، وإصراره على خبرة الحواس ، نراه يؤمن - إلى جانب ذلك - بالحدس ، والإشراق ، والكشف ، فعنده أنها وسائل صالحة لإدراك ما استغلق على الأذهان والحواس ، وهذا دليل على أن ابن خلدون كان يتزع في رؤيته نزعة صوفية حين يستعصى عليه الواقع ، وهذا دليل أيضاً على الأصالة الفكرية لهذه النزعة التي تكمل النقص الموجود في الإمكانيات المحدودة للعقل البشري .

ونفس التزعة نجدها عند ابن سينا الذى ينهض منهجه على التجربة والاستقراء ، وملاحظة الظواهر ، وجمع المعلومات التى تحيط بالموضوع ، ثم ترتيبها ترتيباً منطقياً حتى يستخرج منها النتائج الكلية . ومع هذا يؤمن ابن سينا بأن هناك تديراً غير تدبير الإنسان ، وسلطاناً غير سلطانه وأن العقل البشرى ليس فى مقدوره أن يحكم كل شيء وأن الإرادة الإنسانية ليست هى الإرادة الكبرى فى الكون ، ونفس الاتجاه نجده عند الفارابى الذى يرى أن نظريات الدين تكمل القصور العقلى ، بل إن الدين نفسه مدد رئيسى للعلم والفلسفة والفكر بصفة عامة . فلو كان العقل خليفة الله فى الأرض ، فإن ذلك مدعاة إلى استحالة وجود تناقض بين العقل والوحي ، أى بين العلم والإيمان ، ويرى الفارابى أن الغاية من العلم والفلسفة هى معرفة الخالق ، فالله هو العلة الفاعلة وهو السبب الأول لوجود الأشياء . إنه ليس بمادة وليس لوجوده غرض أو غاية ، وهو علم وعالم ومعلوم ، وعلمه أفضل العلم ، لأنه علم دائم لا يزول . ولذلك يؤكد الفارابى أن السعادة الحقيقية لا تتحقق إلا بالإيمان بما يحويه من دين وفلسفة . إنها سعادة روحية لا يمكن الوصول إليها إلا فى ضوء الحياة فى المدينة الفاضلة ، إنها الاسم الذى أطلقه الفارابى على الوجود المثالى للإنسان ، فهى المدينة التى ينال مواطنوها السعادة القصوى فى الدنيا والآخرة .

ويعتقد السادات أنه فى الإمكان تحويل الوطن العربى إلى هذه المدينة الفاضلة التى ذكرها الفارابى إذا استغل العرب إمكانياتهم الروحية والمادية فى آن واحد . فالوطن العربى هو مهد الأديان ، ومهبط الرسالات التى أنارت طريق البشرية عبر عصور الظلام ، ووطن مثل هذا لا يمكن أن يتخلف عن ركب العصر إذا صح عزم أبنائه على النهوض به ، فلا يصح لمنبع النور أن يبحث عن النور بعيداً عن منبعه . ولذلك يقول السادات فى « الجمهورية » بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٥٤ :

« أنا أومن بالعروبة . . وأفخر أنتى عربى . . فنذ فجر الحياة ووطننا يطفح بالنور ، ويستقبل من السماء كلام الله ورسالاته لكى يرسل بها إلى أطراف الأرض عدلاً وطهراً ونقاء وسلاماً . .

من تراب وطنى خلق أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام . . وعلى بقعة مباركة من أرض وطنى انبثق نور قدسى هادئ سعى إليه موسى ليعود منه بشهاب قبس علمهم به يصطلون . . وهناك . . وفى روعة هذا النور ، كلم الله موسى تكليماً : ولما أن سأل موسى ربه طمعاً فى أن يراه ، أمره جل وعلا أن ينظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فإنك يا موسى ترى الله ، وتجلى مالك الملك للجبل فجعله دكاً . . وخر موسى صعقاً . . ثم تاب .

هذه البقعة المباركة بكلام الله فى أرض وطنى ، وهذا الجبل الذى تجلى له ذو الجلال والإكرام قطعة من تضاريس وطنى . .

ومن دون نساء الأرض ، اصطفتى الله مريم وطهرها على نساء العالمين بشرتها الملائكة بعيسى عليه السلام ، فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ، وهناك . تحت جذع النخلة نوديت ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريباً . . وعادت بوليدها إلى قومها يتكلم فى المهد ، إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلنى نبياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . .

إن مريم ابنة وطنى . . والنخلة من زروع وطنى ، ورسالة عيسى بزغت أول ما بزغت فوق أرض وطنى . . ذلك النبى العربى ، خاتم الأنبياء ، وأكرم خلق الله على الله ، محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، شهدت أرض وطنى مولده الكريم ، وأظلت سماء وطنى شبابه الأمين ، وسعدت رمال وطنى بسعيه فوقها ، مهاجراً ومكافحاً من أجل دين الله ، وتلقى البشرية على يديه أكرم الرسالات ، وأكمل دعوة أنزلت للناس .

هذه هى ذكريات وطنى العربى . . فن يفاخرنى على خلود الأوطان . . ؟ »

• وإذا أدركنا أن السادات قد كتب هذه المقالة في الأيام التي تأزمت فيها مفاوضات الجلاء بين مصر وبريطانيا لعرفنا الهدف الذي يرمى إليه . لقد أراد أن يشحن أبناء وطنه بكل الطاقات الروحية الممكنة لأنه سيتحتم عليهم الجهاد المقدس لطرد العدو في حالة فشل المفاوضات ، فقد أراد أن يشيع روح التفاؤل بينهم حتى يقدموا على المرحلة التالية بكل عزم وحماس وخاصة أن الثورة لم يكن مضي عليها أكثر من عام ونصف ومازال المصريون يعانون من الرواسب النفسية التي تراكمت بفعل الطغيان والاستعمار والإقطاع . وبشحن طاقاتهم الروحية فإنه يهدف إلى تأصيلهم فكرياً وعقلياً حتى يدركوا أبعاد التراث المجيد الذي يتحتم عليهم حمايته والدود عنه . وهذا الموقف يذكرنا بموقف جلال الدين الرومي أيام غزوات المغول للعالم الإسلامي كان هذا الفيلسوف الأخلاقي ينظر إلى الحياة نظرة متفائلة مستبشرة برغم أنه عاش في فترة مشحونة بالغزوات والاضطرابات ، ففي القرن الثالث عشر الميلادي تعرض العالم لأبشع غارات المغول ، حيث انطلقت جحافلهم تلك الحضارة ، وتبيد صروح المدنية بصورة لم يشهدها التاريخ من قبل .

لم يسع جلال الدين الرومي ، إزاء مأساة عصره ، إلا أن يلوذ بالحياة الروحية ، وأن يدعو أبناء وطنه إلى شحن قلوبهم بكل الطاقات الروحية اللازمة للجهاد المقدس ، فهذه الطاقات هي وحدها التي تخلصهم من ذلك الخلط والارتباك والتشتيت وانعدام الرؤية . ولذلك يقول الرومي مبيناً قيمة الإدراك الروحي في تحديد خط سير الأمة كلها :

« لقد اختلطت القيم أمام الناس ، وظهر الصحيح منها والفساد على حد سواء ، لهذا فالإنسان في حاجة إلى مقياس صادق للتمييز بين الصالح والطالح . . تماماً كما يميز الذهب الخالص من الزائف وعندي أن المقياس الصحيح إنما هو الذي ينبثق من الإدراك الروحي . »

لقد اختار الرومي التصوف الإيجابي طريقاً ، وفلسفة ، وإلهاماً لأفكاره ، وتصورات . وهو في هذا يقترب من فكر السادات ، فليس تصوفه من ذلك النوع السلبي الذي يدعو إلى العزلة والوحدة والنفي ، وإنما هو تصوف يستمد عناصره من إيمانه بالإنسان . وما يدور حوله من مشكلات روحية ومادية ، محاولاً أن يحدد له ما ينبغي أن يلتزم به من قيم ، ومثل ، وأخلاق في دنيا الفكر والعمل . وقد أكد الرومي لأبناء وطنه أن المغول - إذا استطاعوا التغلب على المادة ، أى بقتل أجسادهم - فلن يتمكنوا من القضاء على الروح لخلودها . ولذلك لا خوف هناك عليهم ولتقدموا إلى ساحة الجهاد المقدس دون تردد . فالعالم - في نظر الرومي - يتألف من مادة وروح ، والمادة عنده عرضة للتغير والتقلص والتلاشي ، أما الروح فلا يجوز عليها التغير أو التحول أو الفناء . ومن يؤمن بهذا إيماناً حقيقياً فلن يخاف شيئاً وسيسود البشر والتفاؤل حياته . وفي هذا المعنى كتب السادات ، في « الجمهورية » بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٥٤ ، يقول :

« إننا نؤمن بالله . . ونؤمن بكل ما على أرض هذا الوطن ومائه وسمائه وأهله والتراب . . وفي هذا لدينا تفاؤل ، بل أشهى التفاؤل . . » .

وهذا التفاؤل لا ينبع إلا من الإيمان الراسخ العميق بأن كل عقبة في حياة المؤمنين ليست سوى الاختبار الإلهي لمدى إيمانهم وثقتهم في الله . وقد اعتبر السادات الغزوة الإسرائيلية الطارئة في يونيو ١٩٦٧ مجرد اختبار لإيمان هذا الشعب العريق الذي سرعان ما استعاد طاقاته الروحية واجتاح قناة السويس وتحصينات الإسرائيليين في ما لا يزيد عن خمس ساعات . وبذلك أثبت الشعب المصري نجاحه الباهر برغم قسوة الاختبار . وكان السادات - بكل ما يملكه من أفق واسع ونظرة ثاقبة ورؤية واضحة - يؤمن بأن ما حدث في السادس من أكتوبر المجيد هو من قبيل الحتمية التاريخية .

نجدد يقول في الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في ٢٥ إبريل ١٩٧٢ :

« وإذا ظنوا أنهم في غفلة من الزمن قد حصلوا على بعض القوة . . سنعيدهم ، لأن القوة ليست كما قلت في

السلاح ، وإنما القوة من الداخل . . قوة الإيمان . . قوة الفرد . . قوة الإيمان بالرسالة ، والإيمان بالعقيدة ، والإيمان بالمبدأ . ونحن نحمد الله سبحانه وتعالى أننا أصحاب رسالة أقوى ما تكون من مبادئها إلى جانب سماحتها فهي رسالة القوة . . قوة الفرد . . قوة المجتمع . . قوة الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك يوثق الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير إنه على كل شيء قدير . »

وقد أثبت الإيمان فائدته العملية البحتة في نهاية أسبوع النكسة المريعة . فلم يكن هناك أى جندي في الطريق ما بين السويس والقاهرة ، ولم يكن هناك من السلاح سوى خمسة آلاف بندقية ، ومع ذلك برز في الأفق ووسط الظلمات إيمان الشعب المصرى العريق ورفض الهزيمة وأكد عزمه الوطيد على دفع أى ثمن مقابل استعادة الشرف العربى . يقول السادات في المؤتمر الشعبى بأسبوط في ١١ يناير ١٩٧١ :

« أمانة أن نكون أوفياء للأجيال المقبلة لأبنائنا من بعدنا حتى نترك لهم البلد طاهرة ونظيفة لا فيها محتل ولا يملكها إلا أبنائنا ولا يستغل خيراتها ولا يعود كل شيء فيها إلا لأبنائنا ولا يقرر مصيرها إلا أبنائنا . شيء واحد أوصيكم به أوصانا الله سبحانه وتعالى به في كل الأديان السماوية ، الإيمان بالإيمان . أوصيكم بالإيمان . نحن في أشد أوقاتنا حاجة إلى أن نملأ ونشحن نفوسنا جميعاً بالإيمان إلى جانب السلاح الذى نحمله وندخل به المعركة . بالإيمان سنواجه القوى العاتية مهما كانت . بالإيمان اللى فى أحلك الأوقات فى ٩ و ١٠ يونيو واحنا شعب كنا مهزومين ، طلع الشعب كله يرفض الهزيمة واحنا ما عندناش غير ٥٠٠٠ بندقية وكان الشعب يرفض الهزيمة ويعتمد على سلاح الإيمان . واحنا نعد كل شيء وكل دقيقة وكل ثانية لازم تجهز نفسنا فى الجبهة الداخلية وإن وراءنا جيشاً لا يقل تماسكاً عنهم بسلاح سرى رهيب هو الإيمان بهدفنا وأرضنا وحتمية النصر بعون الله . سنتصبر بعون الله بعد أن ندفع كل تكاليف الموقف ، ولكن بعون الله سنتنصر . . »

وهذا الإيمان بانتصار إرادة الشعب عند السادات يرجع إلى عدم فصله بين هذه الإرادة الشعبية والإرادة الإلهية ، يقول في مجلة « التحرير » فى ٢٥ ديسمبر ١٩٥٦ : « إنها إرادة الشعوب التى طالما قلنا إنها من إرادة الله . . ونحن فى هذا البلد قد رأينا آية الله . » وفى نفس المجلة فى ٢٦ فبراير ١٩٥٧ يؤكد السادات أن إيمان الأمة العربية قد هداها إلى طريق الخلق والمبادئ والعدالة والحرية والسلام والطمأنينة والحب والخير والتعاون والكرم والسماحة ، ولكن كل هذا لا يعنى الضعف والسذاجة والمهادنة فى حقوقنا . يقول السادات :

« والأمة العربية لا تريد أرضاً من أحد ، ولا حقوقاً تغتصبها من أحد ، ولا تريد أن تنحاز فى هذا الصراع العالمى لشرق أو لغرب ، وإنما هى مع الخلق والمبادئ ، ومع العدالة والحرية ، ومع كل من يريد لهذه البشرية سلاماً وطمأنينة . . »

إن تراث الأمة العربية تراث روحى مجيد ، فعلى أرض هذه الأمة نزلت رسالات السماء تدعو الناس للحب والخير والتعاون والأمة العربية لا تبغى فى كفاحها إلا علماً يسوده الحب والخير والتعاون ، لذلك كان حتماً أن تقاوم ذلك الشيطان المسعور الذى يحرم العالم من الحب والخير والتعاون وهو الاستعمار . .

ولقد ورثنا نحن العرب مع شرائعنا السماوية أمجاد الآباء والأجداد ، تلك الأمجاد التى علمتنا أن الموت ونحن وقوف أشرف لنا من الحياة ونحن ركع مستذلين ، بل إن الله سبحانه وتعالى نهانا أن نكون من المستضعفين لقد ورثنا الكرم ولكننا لن نسمح لمغتصب أن يستغل هذا الكرم . . وورثنا السماحة ولكننا لن نهادن فى حقوقنا . . »

ونحن إذا درسنا كل انتصارات الأمة العربية دون استثناء ، فسنعجد أن الإيمان كان الحافز الرئيسى وراء مثل هذه الانتصارات ، نحن لا ننكر كفاءة السلاح وقوته ، ولكن هل يمكن لجندي فقد إيمانه بوطنه وبنفسه أن يتنصر

بالسلاح وحده ، حتى ولو كان هذا السلاح من أقوى مبتكرات العصر ، وليس الايمان سوى ما يسمى بلغة العصر الحديث : الروح المعنوية للجيش العامل . ولنا أن نتخيل جيشاً دخل ميدان المعركة وليس لديه أى حافز للقتال . من هنا كانت ضرورة الايمان وحتميته سواء وقت الحرب أو السلم . وفي هذا المعنى تحدث أنور السادات في ٢٦ يناير ١٩٥٧ في المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ، وذلك بعد اندحار العدوان الثلاثي على بور سعيد في ديسمبر ١٩٥٦ فقال :

« لقد هزمنا الأعداء بقوة إيماننا ، وجابهنا القوى المدمرة بطاقتنا الروحية فانتصرنا عليها ، لأننا نحس إحساساً عميقاً بأننا أصحاب حق .

والآن وبعد أن تحقق لنا النصر في المعركة فإن تبعاتنا الروحية تحتم علينا أن نبني مجتمعاً جديداً ، متسانداً يتعاون كل أفراد له لصد التيار الجارف الذي يأتي من الخارج يحاول القضاء علينا والسيطرة على مقدراتنا وأرزاقنا . ونحن حين نبني هذا المجتمع الجديد المتماسك لابد لنا من الرجوع إلى الروح نستمد منها القيم والروابط الأخوية . إن علينا كذلك تبعات روحية نحواً منها العربية حتى نخلق من القومية العربية قوة هائلة تستطيع أن تجابه العدوان أياً كان مصدره . وتبعاتنا الروحية نحواً منها تحتم علينا أن ننمي صداقتنا بمن يرغب التعاون معنا ، وأن نعلم الأعداء أنهم لن يستطيعوا بعد اليوم أن يسيطروا علينا أو يذلوا رقابنا كما تصوروا أو تخيلوا في يوم من الأيام . »

وإذا تأملنا هذا الكلام سنجد أن هذا المنهج قد طبقه السادات بحذافيره في الإعداد لحرب السادس من أكتوبر المجيد مما يدل على أن المنهج الفكري كان متأصلاً عنده لدرجة أنه تحول إلى نظرية شاملة تؤمن كل انتصارات الأمة العربية . وهذا يدل أيضاً على أننا لو كنا قد اتبعنا هذا المنهج لكان من الممكن تجنب النكسات التي تعرض لها الكفاح العربي من أجل التقدم والرفاهية والخير . ولكن الايمان يهينا عن التحسر على ما فات ويحثنا على النظر إلى المستقبل بشرط الاعتماد على كل طاقاتنا الروحية والمحافظة عليها من التبدد ، فهي الدفعة الرئيسية في طريق انطلاقنا إلى آفاق المستقبل الجديد . . ولقد تحول هذا الخط الفكري إلى منهاج عملي عندما تولى رئاسة الجمهورية ، بل لقد بلغ إيمانه به درجة تحدث فيها عن جسور العبور في ختام الدورة الخامسة للمؤتمر القومي في ١٣ نوفمبر ١٩٧٠ ، أى قبل معارك أكتوبر المجيدة بثلاث سنوات ، وكما يقول المثل المصري : قلب المؤمن دليله . ولنستمع إليه وهو يحدثنا حديثاً عذباً عن الايمان والعبور دون أن ندرى في ذلك الوقت ماذا كان يدور في عقله الكبير من تخطيط مبكر للحرب المقدسة . ولكن هناك حقيقة علمية واضحة وهي أنه لم يكن يفصل بين الايمان والعبور ، فقد كان الايمان المقدمة الطبيعية لهذا العبور المجيد . يقول السادات :

« والأمة ترتفع بالايمان وتهبط بدونه . ولقد كانت أمتنا في ذروة الايمان وبالتالي في ذروة الارتفاع إلى مستوى أقدارها وما شاءت إرادة الله أن تتمحن بها عزمها فما وهنت ولا ترددت .

لقد سارت خطانا على جسر الانتقال خطوة بعد خطوة حتى جاء مؤتمر كمة لتمة لعملية عبور لا أظن أن أمة سوانا واجهتها في مثل ظروفنا ولا أظن أن أمة غيرنا كان في استطاعتها أن تتصرف بخير مما تصرفنا في مواجهة هذه الظروف . »

وفي بيانه في الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب في ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ يعود إلى التركيز على عملية عبور جسر الانتقال ، مما يؤكد أن الإعداد للسادس من أكتوبر المجيد لم يستغرق عدة شهور بل بدأ منذ أن تولى السادات رئاسة الجمهورية ، يقول :

« الآن فلنمسح الدموع ، ولنتطلع إلى المستقبل ، ولنسرع خطانا على الطريق ، ولتكن آلامنا طاقة إبداع واندفاع ، ولتحول أحزاننا إلى قوة إيجابية ، تعوض بل تضيف إلى تصميمنا وعزمنا على أن نؤكد من جديد مسئولياتنا الجسام ،

والتزاماتنا المقدسة وطنياً وقومياً ودولياً وإنسانياً . إن العالم بأسره انتظر علينا ، والآن انتهت ساعة الانتظار وأمتنا العربية وقفت بجوارنا حتى تم عبور جسر الانتقال ، والآن جاءت ساعة مواصلة السير . وشعبنا ظل رابط الجأش ثابتاً في انتظار أن نتأهب ، والآن أزفت ساعة البدء في الزحف . »

وإيمان السادات بأن الله لا بد وأن يشد من أزر عباده المؤمنين إيمان لا يتزعزع ، ولذلك كانت ثقته في النصر لا تتزعزع برغم الظلمات الكثيفة المحيطة بالموقف السياسي الخارجى وتآمر مراكز القوى من الداخل في ذلك الوقت من عام ١٩٧١ ، برغم كل هذا نجده يقول في خطابه في عيد العمال في أول مايو ١٩٧١ :

« إن شعبنا بعون الله وبتوقيقه سوف يخرج من هذه الأزمة ، سوف يخرج منتصراً وعزيزاً ، سوف يخرج بعون الله قويا مرفوع الرأس واثقاً من نفسه واثقاً بمبادئه ، وراسخ الإيمان أكثر وأكثر بقيم نضاله وبأسلوبه في الكفاح العربى من أجل هذه القيم . »

والإيمان معناه المسئولية الجسيمة التى لا بد أن تؤدي مهما كانت التضحيات باهظة التكاليف ، فهى ليست مسئولية أمام أحد من البشر بقدر ما هى مسئولية أمام الله سبحانه وتعالى . ومن هنا كانت قداسة هذه المسئولية التى يحكمها الضمير أولاً وأخيراً ، يقول السادات في بيانه إلى الأمة في ١٤ مايو ١٩٧١ : « أنا باعتبار نفسى مسئولاً أولاً وأخيراً أمام الله سبحانه وتعالى وأمام الشعب ، مش أمام حد تانى أبداً ، أمام الله أولاً ، ثم أمام الشعب » . وهذه المسئولية الجسيمة تفرض الدخول في أشرس المعارك بصرف النظر عن أية اعتبارات وقتية أو جانبية . يقول السادات لعلماء الأزهر في ١٦ مايو ١٩٧١ :

« نريد أن نننى عن طريق الإيمان الخوف في كل طبقات شعبنا الطيب الأصيل . ولا نخاف أحداً إلا الله سبحانه وتعالى . . إننى لن أفرط في الأمانة ولو اقتضى أن أدخل أشرس المعارك . سأدخلها ولن أفرط في الأمانة أبداً . لا بد أن تتطهر أرضنا من الاحتلال . ولا بد أن نبني الدولة القائمة على العلم والإيمان . »

والإيمان بطبيعته يتنافى مع الخوف ، لأن المؤمن يدرك أن أسوأ ما يمكن أن يتعرض له هو الموت ، وهو يؤمن من صميم قلبه أن الموت عليه حق . ولذلك لا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه العامر بالإيمان ، والشعب الخائف لا يمكن أن يدافع عن قضاياها لأنه لا يعرف من أية جهة ستأتى الطعنات . هل من الأمام حيث العدو قابض ؟ أو من الخلف حيث مراكز القوى ؟ وإذا لم يكن هذا الإيمان نابعاً من صميم الشعب فلن يمكن أن يفرض عليه فرضاً . ومن هنا كانت استحالة استيراد الإيمان من الخارج . قد يكون من الممكن استيراد الأسلحة والآلات والمواد الخام والمواد الغذائية وكل ما يقع تحت بند المادة التى يستخرجها أو ينتجها الإنسان ، أما الإيمان - وهو أكبر قيمة روحية في حياتنا - فلا بد أن يكون نابعاً من الرسائل السماوية المقدسة ، ومن التراث القومى للأمة ، ومن الخصائص الفكرية والحضارية والثقافية للشعب نفسه . وعلى هذا فإن السلاح المستورد متى أمسكه الجندى المصرى فقد تحول إلى جزء من إيمانه بربه ومصريته وعروبته وإنسانيته ، بمعنى أن إيمان الجندى لا يمكن أن يكون تابعاً لهذا السلاح .

ولكى تستقيم الأمور وتوضع في نصابها لا بد أن تكون المادة تابعة للروح ، لأنه إذا انعكست الآية ضاقت الخصائص المميزة للأمة وبالتالي تعذر النصر على العدو . وحتى لو حدث انتصار ، ففي هذه الحالة سيكون انتصار الذبول الأتباع وليس انتصار سادة الموقف الأصلاء . وانتصار الأتباع محدود بطبيعته ولا بد من دفع المقابل له بعد ذلك وغالباً لا يكون المقابل مادياً وإلا هان الأمر ، بل يكون على حساب الأصالة الفكرية والخصائص القومية للشعب بأسره . هنا تبرز ضرورة الإيمان وحتميته وفائدته العملية في الحفاظ على جسم الأمة وعقلها من أى إفساد أو إغواء أو تشويه أو خوف . ولذلك يقول السادات في خطابه أمام مجلس الشعب في ٢٠ مايو ١٩٧١ :

« عندنا تقاليد مبنية عبر آلاف السنين عندنا قبل كل شيء وفوق كل شيء رسالة الإيمان . . . اتعلمنا إن لو أراد البشر كلهم أن يصيبوا أى واحد بشيء لا يريد له الله ما أصابوه أبداً . . . اتعلمنا ، بتعلمنا رسالة الإيمان أن أرضنا طيبة وظاهرة وتستحق منا أن احنا نحبا ونقدسها وندافع عنها ونتفانى فيها . . . اتعلمنا أيضاً إن بتجتاح العالم الناهرة موجات تحت اسم العلم جرفت شعوب إلى مادية رهيبه ضاعت فيها القيم وضاعت فيها الأخلاق ، احنا ما نقدرش نعيش من غير قيم ولا أخلاق ، لأن دا الإيمان فى ديننا . »

والإيمان الراسخ العميق يمنح من وضوح الرؤية ما يمكن أن يستكشف آفاق المستقبل . وهذا ما أكدته السادات فى كلمته فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى ٢٥ إبريل ١٩٧٢ ، وهو ما حدث بالحرف الواحد فى السادس من أكتوبر العظيم . يقول السادات :

« نصبر ونصمت ونعد إلى أن نثبت لهم أننا لن نقبل الضيم وسنحرر أرضنا بعون الله ، مهما كانت التكاليف ، مهما كانت المشاق ، مهما كان الأذى . ولكن على إسرائيل أن تعلم تمام العلم أنها ستدفع الثمن مضاعفاً هذه المرة . » وفى نفس الخطاب يؤكد السادات أن الساعة لن تكون بعيدة بالنسبة لصبر المؤمن وصمت الواصل :

« لا مناص من المعركة لكى نحرر أرضنا ولكى نثبت للعالم كله شرقه وغربه أننا أمة نستطيع أن ندافع عن حقنا . . . نستطيع أن نسترد أرضنا ، أننا أمة قد تلحق بنا هزيمة يوم من الأيام نخسر معركة ، ولكننا لا يمكن أبداً أن نخسر مصيرنا ولا نخسر نفوسنا ولا أن نخسر إيماننا . . . أبداً لن نستطيع قوى الأرض مجتمعة أن تجعلنا نخسر نفوسنا أو نخسر إيماننا . »

والأساس الروحى لقومية أى وطن يلعب دوراً خطيراً فى حمايته ، حتى الحضارة الغربية المشهورة بالمادية ، يرجع مؤرخوها أساسها إلى القيم الروحية التى نبعت منها . مثلاً نجد الباحث الهولندى ج . دى بويس فى كتابه « مستقبل الغرب » الذى نشر عام ١٩٥٣ يؤكد أن الدين هو الإطار العام الذى يمنح لأية قومية وحدتها وصفاتها التى تميزها عن أية قومية أخرى . يقول دى بويس ص ٢٠٨ :

« سوف يشد أزرنا ، فى حالة نشوب حرب عالمية جديدة ، حليف آخر ، هو الدين . فالدولة الجماعية التى لا تسمح بوجود أى ولاء لإلهها ، عدو لدود للدين ، يقف له بالمرصاد بغية القضاء النهائى عليه ، فتل هذه الدولة لا تستطيع الاعتراف بأن الروح تدين بالولاء النهائى لخالق هذا العالم ، لأن هذا معناه القضاء على الولاء لها . ومن ثم فإن جميع المذاهب الدينية فى الصراع بين الإيمان الرحب والمادية الضيقة ، لا يمكنها إلا أن تعادى فى النهاية العقيدة المادية الهشة التى تحاول أن تحتل مكانها ، وهذا المقياس ينطبق على المسيحية والإسلام وحتى البوذية ، أما بالنسبة لنا ، نحن أبناء الحضارة الغربية فإن الوصايا الدينية التى نشرت منذ ألقى عام مضى والتى تدعونا إلى حب الجار ما زالت بالنسبة لنا خير من المبادئ المادية الهدامة التى نشرت منذ مائة عام ، والتى تحض على الكراهية والبغض تجاه طبقات معينة من نفس المجتمع . »

ومن المؤسف بل ومن المزعج أن نعرف أن الأساس الدينى لحضارتنا لا يذكر فى بعض البلاد بالقدر الذى تذكر به الديمقراطية باعتباره أحد الأسس الرئيسية لمذهبنا الحياتى ، ومع ذلك فإنه أساس أكثر منها بل وأكثر عمقاً وأصالة . إن العقيدة الدينية متأصلة فى جذور حضارتنا وديمقراطيتنا ، فإذا أهملنا هذا الأساس ، فإن الحضارة الغربية بأسرها ستصبح كالأسنان التى ماتت أعصابها ، فتبدو فى الظاهر أسناناً صحيحة ، ولكن تحللها سيصل قمته بعد فترة من الوقت ، ويبدو عندئذ واضحاً جلياً إلى الدرجة التى قد يصعب فيها القضاء عليه سريعاً . بدون هذا الأساس الروحى ، لن نستطيع الحضارة الغربية أن تقف على قدميها داخل مملكتها وخارجها أمام الجماهير ، تلك الجماهير

التي تعتبر الروح عندها أكثر قيمة من الديمقراطية أو الرخاء المادى . »

ويبدو أن نبوءة دى بويس كانت صادقة تماماً عندما كتب كتابه هذا منذ حوالى ربع قرن ، فقد لمس بوادر الانحلال الذى أصاب العالم الغربى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وذلك بفعل اهتزاز القيم فى أذهان الناس التى شوشتها أهوال الحرب . وقد أراد دى بويس أن ينبه إلى طغيان المادية ، وسيطرة الآلة ، وإهمال القيم الروحية قبل أن يشتد التيار ويجرف فى طريقه كل المثل العليا ، وربما جرف فى نهاية الأمر الحضارة الغربية بأسرها . ولكن يبدو أن التنبيه المبكر لم يلق آذانا صاغية فى وقته بدليل الأمراض الحضارية التى يعانى منها العالم الغربى اليوم مثل الحركات الانحلالية والفوضوية من أمثال الهيبيز وغيرهم من فئات الشباب الذى يعانى الضياع ، والتفسخ ، والشذوذ ، وفقدان الهدف وانعدام المعنى ، وضبابية الرؤية . كل هذا بسبب إهمال العقيدة الدينية والتعالى الأحقق عليها باعتبارها إحدى مخلفات القرون السابقة . ولا يدركون أن كل ما يعانون منه من أمراض العصر مرجعه إهمال الأساس الروحى للحضارة التى تحولت إلى مجرد علاقات آلية بحتة فقدت الروح التى تمنح الحياة طعماً ومذاقاً . ولذلك يقول السادات فى حديثه مع الصحفية اليوغوسلافية دارا يانكوفيتش فى ٢٧ مايو ١٩٧٣ :

« الإيمان أقصد به إن أولادنا ما يبصحبوش يوم من الأيام يعملوا هيبيزى المجتمع الأمريكى أو المجتمعات اللى بنشوفها فيقعدها مثلهم ويفقدوا الهدف بتاعهم لأن احنا قدامنا بناء كثير وقدامنا تعب كثير علشان نبني دولتنا وبنبي مجتمعنا الاشتراكى الجديد فى كل اتجاه سواء فى الناحية العسكرية أو فى الناحية المدنية . . »

هذا هو الدور الريادى الذى يقوم به السادات من جهة التأصيل الفكرى وهذا الفكر ليس قاصراً على الشرق فقط بل إنه جزء لا يتجزأ من التراث الإنسانى على مر العصور ، وإذا كان الدارسون والمفكرون فى الغرب ينادون بالعناية بالأساس الروحى لحضارتهم ، فما بالك بالشرق الذى هبطت عليه الرسالات السماوية والوحى الإلهى ، ونبتت منه كل الديانات التى أضاءت طريق البشرية بالعلم والإيمان والمعرفة والسلام والحب والخير . من هنا كانت أصالة دعوة السادات إلى التمسك بأهداب الإيمان لأنه الأساس المتين للحضارة الإنسانية بصفة عامة . وليس هناك فى هذا الصدد رأى يدعم كلامنا هذا مثل رأى ت . س . اليوت فى كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة . » ص ٣٧ :

« إننا مدينون بأشياء كثيرة لتراثنا الدينى بالإضافة إلى الإيمان بالله ، فعن طريقه نحصل على مفهومنا عن القانون الرومانى الذى قام بدور كبير فى تأسيس الحضارة الغربية وتشكيلها ، وممكننا من تحديد أفكارنا عن الأخلاق الخاصة والعامة ، وممكننا أيضاً من الحصول على مقاييسنا العامة عن الأدب الذى بدأ بآداب اليونان والرومان ، وبالتالي منحنا الوحدة التى جمعت العالم الغربى كله .

وفى ظل عقيدتنا الدينية تطورت فنوننا ، وتأصلت قوانين أوروبا إلى عهد قريب . ومن خلال المعارف الدينية تكتسب أفكارنا معانيها ، فقد يرفض الفرد الأوروبى الإيمان بصحة العقيدة الدينية ، ومع ذلك فإن ما يقوله وما يفعله ينبع كله من تراث الثقافة الدينية ، ويعتمد على معنى هذه الثقافة . إن الثقافة الدينية هى وحدها التى استطاعت أن تنجب فولتير ونيتشه ، وأنا لا أعتقد أن ثقافة أوروبا تستطيع أن تستمر بدون العقيدة الدينية ، وإننى لمقتنع تمام الاقتناع بذلك لا لمجرد أننى أؤمن بهذه العقيدة ولكن لأننى درست البيولوجيا الاجتماعية ، فيوم تندثر عقيدتنا الدينية ، ستندثر أيضاً حضارتنا بأسرها ، وعليك حينئذ أن تبدأ من جديد والألم يأخذ منك كل مأخذ ، ولكنك لن تستطيع أن تنشئ ثقافة جديدة جاهزة للممارسة ، إذ يتحتم عليك أن تنتظر حتى ينمو العشب ليطلع الأغنام التى تقدم الصوف الذى سيصنع منه رداؤك الجديد ، بل يتحتم عليك أن تجتاز قروناً طويلة من البربرية والهمجية ، ولكننا لن نعيش حتى نرى الثقافة الجديدة ، بل لن يراها أحفاد أحفادنا ، وإذا رأيناها فلن يشعر أحد منا بالسعادة عند رؤيتها . »

وترجع أهمية الإيمان بالنسبة للإنسان على مر العصور وفي مختلف الأمم إلى أنه خاصية فطرية أعادت إليها الرسالات السماوية الثقة في قدرتها على الإتيان بالمعجزات الإنسانية العملية ، وبالتالي فإن تطور الحضارة يعتمد عليها بصفة مباشرة أو غير مباشرة . يقول كريس موريسون في كتابه « العلم يدعو للإيمان » ص ١٣٧ :

« إن وجود الإنسان في مختلف البقاع ومنذ بدء الخليقة حتى الآن ، قد أمده بحافز قوى يدفعه إلى الاستنجاد بمن هو أقوى منه وأقوى وأعظم ، وهذا أكبر دليل على أن الدين فطري في الإنسان ، ويجب أن يعترف العلم بذلك سواء شاء أو لم يشأ . وسواء ترسب في شعور الإنسان الباطني إحساس بأن هناك قوة خارجية للخير أو الشر أم لم يترسب ، فإن ذلك ليس بالأمر الهام الحيوي ، ولكن المهم أن هناك حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها وهي اعترافه الفعلي والعمل بـ « بوجود الله . »

ثم يتساءل موريسون عن المشكلة التي حيرت الإنسان منذ بدء الخليقة فيقول إنها نبعت من أن الإنسان بعقله المحدود وإمكانياته الضعيفة بالإضافة إلى غروره الزائد عن الحد واعتزازه بقدرته الفائقة ، قد حاول أن يخضع الوجود الإلهي اللانهائي لحدود تفكيره الضيق ، وفي حالة فشله وعجزه ، كان يداري عجزه بالتعالى الأجوف والتباهي بأنه ملحد . ولكن الحقيقة تقول إن الإلحاد ليس سوى قمة العجز البشري عن استيعاب الوجود اللانهائي للذات الإلهية ومحاولة تغطية العجز بخلق قضايا جانبية ليست لها علاقة حقيقية بالموضوع الرئيسي . ولذلك يقول موريسون عن علاقة الإنسان بالذات الإلهية ص ١٣٨ :

« إن الذات الإلهية شيء غير ملموس وأسمى كثيراً من المادة لدرجة أنها تسيطر على كل شيء ، ومختلفة تماماً عن كل ما هو مادي مما خلق منه هذا العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيتها ولا وزنها ولا قياسها . وهي - على حد علمنا - ليست لها قوانين تحكمها . إن روح الإنسان هي سيدة مصيره ، ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها . وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ولا يحتاج إليه . ولذلك فالذات الإلهية تحب الإنسان وتساعد به باستمرار على الارتفاع بكيانه المادي من ضعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله . هذا هو المغزى الرئيسي من الهدف الإلهي . إنه كون قائم كله على الحب بين الخالق والمخلوق ، وبدون هذا الحب فلا يمكن للحياة أن تستمر ، سواء على المستوى الروحي أو المادي . وهذا بدوره يفسر الاشتياق الكامن في نفس الإنسان للاتصال بأشياء أعلى من نفسه ، وأيضاً يفسر الكشف الذي يحصل عليه الإنسان من طريق غير طريق العقل المحدود . باختصار هذا هو ما نطلق عليه العقيدة الدينية . »

وأيضاً فإننا نجد في كتاب « دراسة التاريخ » للمؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي تأكيداً لوجهة نظر السادات في أنه لا يمكن تخيل وجود حضارة حقيقية بدون مضمون روحي يدفعها ويوجهها ويهذبها ويثريها ويجنبها الدخول في طرق مسدودة قد تؤدي إلى اختناقها . يقول توينبي أنه إذا حدث انشقاق في الحياة الروحية لمجتمع من المجتمعات ، فلا بد أن يكون هذا الانشقاق المقدمة الطبيعية للتحلل التدريجي لهذا المجتمع ، وهو تحلل يحس به الفرد على حدة كما يحس به المجتمع ككل . ومن عوارضه التخلي عن الأصالة والابتكار والثقة في النفس ووضوح الرؤية ، وبداية عهد جديد من التقليد والنمطية واستلهاهم التطور الإنساني من مصادر خارجية لا ترتبط بداخل الإنسان بصلة ، ويحل الإحساس باللبلة والملل والوحدة واليأس محل الإحساس بالريادة والنشاط والحركة والطمأنينة والأمل .

وكعلاج لهذا ، يعتقد توينبي أن المجتمع الذي فقد طاقاته الروحية ولم يعرف الطريق بعد لاستردادها ، يحاول العيش على اجترار أمجاد الماضي كنوع من التعويض النفسي عن الخواء الروحي الذي يعاني منه في الوقت الحاضر ، أو الانطلاق إلى المستقبل كنوع من ملء الفراغ بالأحلام الوردية الجميلة عن مدينة المستقبل الفاضلة . ولكن سواء

لجأ المجتمع إلى اجترار الماضي أو إلى الاقتناع بأحلام المستقبل ، فلن يحل هذا قضية الخواء الروحي الجاثم على المجتمع . هنا يبرز دور الزعيم الذى يتحسس نبض الأمة ، ويشخص أمراضها ، ويبدأ فى العلاج السريع والحاسم ، مهما كان هذا العلاج قاسياً . بمعنى آخر ، فإن الطاقة الروحية المبددة للأمة تعود إلى التجسد فى شخص الزعيم ، ومن خلال قيادته وتوجيهه وسلطته تبدأ الروح فى السريان فى جسم الأمة . وفجأة يجد الشعب أنه اكتشف نفسه وتحول فرحته بهذا الاكتشاف إلى طوفان جارف من الإرادة والأمل والعزيمة والتصميم والرؤية الواضحة .

ويقسم توينبى الزعماء التاريخيين - الذين يقودون شعوبهم إلى اكتشاف النفس بالخروج من ضبابية الرؤية والتخبط فى مراحل التحول الخطيرة - إلى أربعة أقسام : « العبقري الخلاق » و « المنقذ بحد السيف » و « المنقذ بالعلاج الزمنى » و « الفيلسوف المقنع بقناع الحاكم أو الزعيم » . وإذا حللنا الزعامة التاريخية للرئيس السادات فسنجد أنها مزيج من العبقرية الخلاقة ، والإنقاذ بالعلاج الزمنى ، والفلسفة المقنعة بقناع الزعامة . أما الإنقاذ بحد السيف فلا يتمشى سواء مع أسلوب الزعامة عند السادات أو مع مفهوم الحضارة عند الشخصية المصرية . ولكنه واضح تاريخياً فى زعيم مثل مصطفى كمال مؤسس تركيا الحديثة . المهم أن الزعامة التاريخية للرئيس السادات تمثلت فى العبقرية الخلاقة من حيث التركيز على الخصائص الأصيلة فى الشعب المصرى ، وأهم هذه الخصائص الإيمان بكل شموليته . وهذه العبقرية فى زعامة السادات تنهض على دعائمين : المنهج العلمى من حيث دراسة الشعب نفسياً وتاريخياً وحضارياً ومادياً وروحياً . . إلخ ، ثم محاولة وضع التخطيط التطبيقي القائم على هذه الدراسة . والدعامة الثانية هى المصرية الصميعة والإيمان المطلق بالانتماء إلى هذا الشعب . فعلى الرغم من أنه يراه من مركز الزعامة إلا أنه يعيش كل مشكلاته وقضاياها ، ويقوم بحلها ليس فقط بحكم زعامته ولكن لأنه يعانى منها شخصياً ، بمعنى آخر أنه زعيم وسط الشعب وليس فوقه . ولذلك فالعبقرية الخلاقة هنا تعتمد على التخطيط العقلى والطاقة الروحية فى مزيج لا يعرف الانفصال .

والإنقاذ بالعلاج الزمنى يلعب دوراً أساسياً فى زعامة السادات ، فهو يعلم جيداً أن شحن الأمة بكل الطاقات الروحية الممكنة يستغرق زمناً غير قصير ، فلا يعقل أن ينتقل بالأمة من هاوية اليأس إلى قمة الإيمان بين يوم وليلة . ولذلك فقد بذل كل جهده فى تحويل عامل الزمن المحايد إلى أن يسير مع شحن الأمة بكل طاقتها يوماً بعد يوم حتى وصل قمته فى السادس من أكتوبر المجيد . وعندما يتحول الزمن إلى جانبنا فإنه يسير فى اتجاه مضاد لإسرائيل ، لأنه لا يمكن أن يكون مع طرفى الصراع فى آن واحد . ولا شك فإن الطاقة الروحية هى الدافع الرئيسى وراء كسب الزمن إلى جانبنا لأنها تمد الناس بالصبر والصمت والثقة والإيمان ، والزمن بطبيعته يقف إلى جانب الشعب الذى يكتشف طريقه وإمكانياته بأسلوب علمى وإيمان راسخ .

أما الفلسفة المقنعة بقناع الزعامة . فتمثل الجزء الأكبر من فكر السادات ، وليس كتابنا هذا إلا محاولة لإلقاء الضوء على الجوانب المتعددة والإمكانات الخصبة لفكر السادات وفلسفته . فمقياس السياسى التقليدى لا ينطبق عليه ، فهو ليس من هؤلاء الساسة الذين حكموا بلادهم فى فترة معينة من الزمن ولم يتركوا بصماتهم الفكرية والحضارية على ملامح أممهم . ولذلك نجد أن الزعامة التاريخية ، والقيادة الروحية ، والريادة الفكرية ، والأصالة الحضارية والمعاصرة العلمية ، كل هذا يتجسد فى فلسفة السادات التى لبثت ثوب الزعامة بحكم المرحلة التاريخية . ولكن التاريخ سيتوقف طويلاً أمام فلسفة السادات فى الزعامة الفكرية قبل القيادة السياسية وإن كان من المتعذر الفصل بين الاثنين . فن الواضح أن السادات قد غير تفكير شعبه وأعاد الثقة إلى نفسه وكيانه وحضارته ، وذلك برغم الفترة العصيبة السوداء التى تولى فيها القيادة السياسية والعسكرية ، لدرجة أن مهمته فى تلك الفترة كانت تبدو وكأنها إصلاح ما أفسده

الدهر ، ولكن إيمانه الراسخ بربه وبوطنه وبنفسه ، وفلسفته الشاملة التي تحتوى اللحظة الحاضرة من خلال التاريخ الحضارى كله للأمة ، وفكره الأصيل الواضح الذى ينبع من كيانه الثقافى ومنهجه العلمى ، كل هذا ساعده على بعد الرؤية وسط بحار الظلمات . وبالطبع لا يمكن لزعامة تخلو من المنهج العلمى والتأصيل الفكرى والإيمان الروحى والفلسفة الواقعية أن تحمل هذه التبعات التاريخية والمسئوليات الجسيمة . وهذا يتجلى فى الخطاب التاريخى الذى ألقاه السادات فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وكانت معارك أكتوبر المجيدة تنتقل من نصر إلى نصر ، وذلك فى اليوم العاشر من الحرب المقدسة :

« لقد كان كل شئ منوطاً بإرادة هذه الأمة ، حجم هذه الإرادة وعمق هذه الإرادة وما كنا لنستطيع شيئاً وما كان أحد ليستطيع شيئاً لولم يكن هذا الشعب ، ولولم تكن هذه الأمة . لقد كان الليل طويلاً وثقيلاً ، ولكن الأمة لم تفقد إيمانها أبداً بطلوع الفجر ، وإنى لأقول بغير ادعاء أن التاريخ سوف يسجل لهذه الأمة أن نكستها لم تكن سقوطاً وإنما كانت كبوة عارضة وإن حركتها لم تكن فوراناً وإنما كانت ارتفاعاً شاهقاً . لقد أعطى شعبنا جهداً غير محدود وقدم شعبنا تضحيات غير محدودة ، وأظهر شعبنا وعياً غير محدود ، وأهم من هذا كله . أهم من الجهد والتضحيات والوعى ، فإن الشعب احتفظ بإيمانه غير محدود ، وكان ذلك هو الخط الفاصل بين النكسة وبين الهزيمة . ولقد كنت أحس بذلك من أول يوم تحملت فيه مسئوليتى وقبلت راضياً بما شاء الله أن يضعه على كاهلى ، كنت أعرف أن إيمان الشعب هو القاعدة ، وإذا كانت القاعدة سليمة فإن كل ما ضاع يمكن تعويضه ، وكل ما تراجعنا عنه نستطيع الانطلاق إليه مرة أخرى . »

وقد أدرك السادات جيداً فاعلية الإيمان فى حياة الشعب المصرى . والدارس للتاريخ يرى أن معظم المؤرخين قد أجمع على أن للإيمان مفعول السحر فى نفسية الشعب المصرى ، ولا غرو فإن هذا الشعب كان أول من بحث عن مفهوم الإيمان فى التاريخ العام للإنسانية منذ ما يزيد عن ستين قرناً من الزمان . وفى هذا المعنى يقول ليونارد كوتريل فى كتابه « الحياة فى عهد الفراعنة » أن ديانة قدماء المصريين لعبت فى حياتهم اليومية دوراً أكثر حيوية وأكثر أهمية من الدور الذى قامت به فى حياة الشعوب الغربية . فقد كانت تدخل فى كل كبيرة وصغيرة فى حياتهم لدرجة أنها تحولت إلى الإطار الحضارى العام لتاريخهم وفكرهم وثقافتهم وفلسفتهم . وإذا لم نفهم الأبعاد الحقيقية والمتعددة لمفهوم الإيمان عند قدماء المصريين ، فإننا لن نستطيع أن ندرك مغزى حضارتهم على حقيقته .

ولأن الرسائل السماوية لم تكن هبطت بعد ، فقد حاول قدماء المصريين - قدر طاقتهم - أن يحيلوا مفهومهم للإيمان إلى فلسفة شاملة تمنح حضارتهم صفاتها المميزة . وقد أدى هذا إلى تغلغل الآلهة المتعددة فى حياتهم . والدليل على ذلك أننا نجد فى جميع المتاحف ومتاجر العاديات فى العالم مئات التماثيل الصغيرة المصنوعة من البرونز لآمون - رع وإيزيس وأوزيريس وهاتور إلهة الحب والجمال وبس الصغير البدين إله الموسيقى والرقص ومئات غيرهم . فقد كانت هذه الآلهة ترافق الناس كل يوم وتحتل مكانة رفيعة فى بيوت قدماء المصريين . بل إن الأمر لم يقتصر على ذلك ، فنجدهم قد عبدوا القط والثعبان والثور ، والثور بالذات كان من آلهتهم الرئيسية ، فإذا مات حنطوه وزينوه بالذهب واحتفلوا بدفنه احتفالاً مهيباً . ولم يكن قدماء المصريين منفردين فى ذلك ، وإنما شاركهم فيه الآشوريون والبابليون وهما شعبان عريقان أيضاً .

وهذا الانكباب على العبادة حير عقول مؤرخى الغرب ومفكره ، فهؤلاء قوم تثير مبانيهم وتماثيلهم ورسوماتهم دهشة العالم كله ، قوم بنوا الأهرامات ومعبد الكرنك ، وفهموا الفلك ، وأجادوا فنون الهندسة الدقيقة ، ومارسوا الطب والجراحة . وأنشأوا نظاماً مدنياً إدارياً ممتازاً ، وغزوا وأداروا إمبراطورية امتدت فى أحد الأوقات من السودان إلى

الفرات ، وابتكروا طريقة رائعة للكتابة ، واشتهروا بالحكمة التي اعترف بقيمتها اليونانيون أنفسهم . ومع كل هذا التقدم الحضارى والتطور العلمى نجدهم يبحثون عن الاصنام والحيوانات لعبادتها . وهذه الحيرة التي وقع فيها مؤرخو الغرب ومفكروه كان مبعثها سوء الفهم لإحساس المصرى القديم بحتمية الإيمان وضرورته . ولم يكن هناك من الأنبياء والرسول من يقود خطواته إلى الإيمان الصحيح ، ولهذا اعتمد على تفكيره العقلى المحدود فى إيجاد الآلهة الخاصة به لإشباع احتياجاته الروحية إلى عالم أسمى وأفضل من العالم المادى المحيط به . ومن هنا كان إيمانه المطلق بالبعث فى العالم الآخر ، لأن إيمانه هداه إلى أن هذا العالم المادى لا يصلح أن يكون هدفاً فى حد ذاته بحكم محدوديته وارتباطه ببداية ونهاية محددين .

وإذا أردنا البحث عن تفسير علمى لعبادة قدماء المصريين للحيوانات والطيور والزواحف ، يقنع مؤرخى الغرب ومفكريه ، لوجدنا أن خير تفسير مقنع هو ذلك الذى يقول بأن العلم فى ذلك الوقت المبكر من الحضارة الإنسانية لم يكن قد تمكن بعد من تفسير دورة حياة النباتات والحيوانات ، ولم يكن الإنسان قد عرف أن الحيوانات والطيور أجناس ، وإن كانت أدنى منه مرتبة إلا أنها شبيهة به . لم يكن فى استطاعة المصرى القديم أن يحكم عليها إلا من حيث علاقتها بإنسانيته ، ومن ثم فإن ما أثار اهتمامه هو أن هذه الحيوانات كانت مختلفة عنه من حيث أنها تملك قوى وتؤدى وظائف لا تنهأ له . فالطائر بقدرته على الطيران ، والأسد بقوته الخارقة ، والتمساح الذى يستطيع أن ينتزع ساق رجل بقضمة من فكيه ، والثعبان بصمته الرهيب وحياته الغامضة ، وأبو قردان بحكمته الفطرية ، والقط الذى تتغير حدقتا عينيه مع دورق الليل والنهار لتذكرا الإنسان بدورة الزمن الحتمية ، والجعران الذى يقاوم الموت فى استبسال رائع لا يتناسب مع حجمه ، وحياته بجوار السباح رمز الخصب والنماء . كل هذه المخلوقات انتزعت احترام المصرى القديم وتبجيله لأنها تملك قوى خارقة للعادة لا يتمتع هوبها . وأدى هذا إلى عبادتها فى النهاية . ولكن لم يكن المصرى القديم من السذاجة بحيث يعبدها فى حد ذاتها ، ولكنه عبد الجانب الرمزي لوجودها ، والذى يعوض عنده جوانب عجزه البشرى الذى لم يستطع التخلص منه ، فقد أراد أن يكون إيمانه شاملاً للحكمة والقوة والقدرة والبعث والخلود والخصب والنماء والعظمة . . . إلخ .

فإذا كانت الحال هذه ولم تنزل الرسالات السماوية بعد ، فكيف يكون إيمان المصرى قوياً وعميقاً وراسخاً وشاملاً عند دخوله فى الأديان التي أنزلها الله سبحانه وتعالى . من هنا كان من الطبيعى ومن المنطقى أن يركز السادات على الإيمان كقيمة وطاقات ذات فاعلية قادرة على الإتيان بالمعجزات ، فى عصر انعدمت فيه المعجزات للطوفان المادى الذى اجتاحه . فالمادة تنعدم فيها الحتمية الأخلاقية ولذلك كان من الضرورى أن توضع تحت رقابة الإيمان ، ولهذا يقول البرت شفايتزر فى كتابه « فلسفة الحضارة » ص ٢٣٩ :

« لقد آن الأوان لكى ندرك ضرورة العودة إلى الزمان الذى كان فيه العنصر الروحى فعالاً ، وهذا الزمان يتمثل فى القرن الثامن عشر حين تناول مفكروه - ذوو النزعة العقلية - كل شئ بمنطق العقل ، وعلى الرغم من أنهم أدركوا أن الأداة الوحيدة لتنظيم الأشياء فى الحياة هو العقل ، فقد أكدوا ضرورة العنصر الجوهري فى الحضارة ، أى العنصر الروحى ، فركز اهتمامهم فى الدرجة الأولى على التقدم الروحى للناس والإنسانية ، لأن إيمانهم بالإنسانية كان راسخاً متفائلاً . »

ويصل شفايتزر إلى النتيجة التي تؤكد أن الإنجازات المادية فى حد ذاتها ليست حضارة ولا يمكن أن تصبح حضارة إلا بمقدار ما تستطيع عقلية الشعوب المتحضرة أن توجهها تجاه كمال الفرد وسمو الجماعة . والحضارة فى مفهوم شفايتزر هى جماع كل تقدم حققه الناس ، كل فرد فى كل مجال من مجالات العمل ومن كل وجهة نظر ، والشرط

الأساسى لهذا التقدم - حتى يكون تقدماً بالمفهوم الحضارى الشامل - أن يساعد الكمال الروحى للأفراد ، فالتقدم الحقيقى هو هذا الكمال الروحى المنشود . لأن التقدم العلمى المجرد ، رغم أنه زاد من سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة بطريقة لم تكن فى الحسبان ، وزاد أيضاً من راحة الإنسان ورخائه وصحته ، إلا أنه أوجد فى الوقت نفسه قوى تدميرية رهيبة إلى درجة أن مخزون الأسلحة النووية فى العالم يكفى لتدمير الكرة الأرضية عدة مرات .

ولذلك ليس من المدهش أن يجد الناس أنفسهم فى النصف الثانى من القرن العشرين غير راضين عن سير الأمور التى أوجدتها السيطرة المطلقة للعقل ، فقد أصبح من المؤكد أن العقل لا يستطيع أن يقدم الحلول السعيدة لكل متاعب عصرنا . ويؤكد ج . دى بويس فى كتابه « مستقبل الغرب » أن خيبة أمل الأجيال الجديدة فى معجزات العقل البشرى جعلتها تبحث عن ملاذ فى قيم أخرى تتصف باللاعقلانية ، ويمكن تتبع هذا التحول عن العقل فى الدين والفن والعلوم السياسية . فقد ضاق الناس بالعقل وألوهيته ورغبوا فى البحث عن حل فى اتجاه أعلى يتمثل فى البحث عن قيم أعلى من العقل . وغالباً ما تتمثل هذه القيم فى الحلول الدينية أو الفلسفية أو الصوفية أو الميتافيزيقية . ويؤكد دى بويس بواذر هذه الظاهرة فى الأمثلة التالية على ص ١٣٧ من كتابه :

« هناك انتعاش ملحوظ فى الاهتمام بالدين والاهتمامات الدينية فى عدد من الدول ، فنسبة المشتركين فى الكنيسة بالولايات المتحدة فى تزايد مستمر ، وفى الوقت نفسه فإن نجاح الحركات التى لا تنتمى إلى طوائف بعينها فى كثير من الدول الغربية مثل « فريق أوكسفورد » أو . حركة « إعادة التسليح الخلقى » يمثل خيبة أمل للاتجاهات المادية والجوع الروحى الذى أصبح بمثابة أخطر أمراض العصر .

وفى مجال اللاهوت - فى عصرنا هذا - نجحت الأرثوذكسية الجديدة التى تنادى بأن المشكلات الأساسية للإنسان يمكن أن تحل بالإيمان وليس بالعقل ، وقد أسس هذه الحركة فى أوروبا كارل بارث واميل برونر ، وكان لها فى النصف الثانى من القرن الحالى تأثيراً قوياً فى بريطانيا والولايات المتحدة على يد الدكتور رينولد نايبور ، ويبدو أنها مازالت بنفس الدفعة القوية التى بدأت بها . »

وكلام دى بويس هذا يجعلنا لا نندهش من نبوءة أرنولد توينبى فى إحدى محاضراته فى جامعة أدنبرة ، عندما قال إن حركة القرن التاسع عشر فى العالم الغربى ، التى استبدلت الدين بالتكنولوجيا ، بل تحولت التكنولوجيا إلى دين العصر ، سوف تنقلب فى القرن الواحد والعشرين إلى حركة مضادة يعود فيها الجنس البشرى من التكنولوجيا إلى الدين . وليس القرن الحالى سوى فترة انتقال لكى تعود الأمور إلى نصابها . وتعد الحركات الفنية والأدبية من بواذر فترة الانتقال إلى الجانب الروحى . ومن هذه الحركات التى ثارت ضد العقلانية والواقعية والطبيعية ، الحركة الرمزية والتكعيبية والتأثيرية والمستقبلية والسيرالية وأخيراً العبثية التى تطرفت إلى الحد الذى رأت فيه أن كل ما يحاول العقل البشرى إثباته من نظريات لا يعدو أن يكون عبثاً فى عبث .

ولم يقتصر الأمر على الفن بل امتد إلى العلم نفسه الذى تربع العقل على عرشه منذ عصر النهضة . يقول ادوين جانهام فى كتابه « العالم عند منتصف القرن » ص ١٧٨ :

« من الملاحظ أن العلوم الفيزيقية التى تحدثت الدين فى أحد الأيام ، تميل الآن إلى الوقوف بجانب الميتافيزيقا بدلا من مساندة التفسير المادى للكون والإنسان . وبالمثل فى الطب ، فإن مدرسة « الطب النفسى » ذات التأثير القوى تعلن أن حوالى ثلثى جميع أمراض البشر نتيجة للصراع النفسى بفعل المادية الطاغية ، ومن ثم فهى ليست أمراضاً جسمية وإنما هى أمراض عقلية وروحية ، ويجب أن تعالج على هذا الأساس . »

وعلى سبيل التاصيل الفكرى يجب أن نذكر أن أبا بكر الرازى قد قام بتأليف كتابه الشهير « الطب الروحانى »

منذ عدة قرون مضت ، وفيه أوضح ضرورة أن يكون طبيب الجسم ، طبيباً للنفس أيضاً ، لأن الاثنين لا يمكن أن ينفصلا عن بعضهما البعض ، ولا فائدة من إصرار الطبيب على معالجة مريض الجسم ، بينما نفس المريض - الأمانة بالسوء - توحى إليه دائماً بأن روح الشرلن تساعد على الشفاء : ونظراً للسيطرة الرهيبة التي تمارسها القوى الميتافيزيقية الكامنة في الإنسان على الإنسان ذاته ، فقد وصف شوبنهاور الإنسان بأنه « الحيوان الميتافيزيقي » ، فالحيوانات الأخرى تعيش دون ميتافيزيقيات . أما في الإنسان فلا يمكن الفصل بين الجانب الميتافيزيقي والفيزيقي ، فها هما بشيئين مختلفين ، معروفين كل على حدة ، فعلاقة السببية توحد بينهما ، وجوهرهما واحد بل هما نفس الشيء ، ولكنهما يحدثان بطريقتين مختلفتين تماماً ، وليس عمل الجسم سوى عمل الروح وقد تجسد . ويصدق هذا على كل حركة للجسد ، وليس الجسم كله سوى النفس مجسدة . والعلاقة السببية بين الاثنين ليست سوى ما نطلق عليه اصطلاح الشخصية ورغم أن الاثنين هما شيء واحد ، إلا أن هناك فرقاً شاسعاً بين الإنسان الذي يترك قياد جسده لروحه ، والإنسان الذي يترك قياد روحه لجسده . فالأول يحاول أن يسمو فوق عالم المادة المحدود وذلك بتسليح روحه بكل أسلحة الإيمان الممكنة ، أما الثاني فيهبط إلى عالم الحيوان بكل مظاهره الفيزيقية البحتة وبذلك يتخلى عن إنسانيته التي تعد الميتافيزيقا من أهم وأول شروطها . ومن هنا كان إيمان السادات بالحكمة التي تقول :

« خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وخلق الشياطين شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من كليهما . . فن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فهو شر من الشياطين . »

والجسد يتعب ، ولكن الروح لا تتعب أبداً . ويحتاج الجسد إلى النوم ، ولكن الروح تعمل حتى في أثناء النوم . والجسد في حاجة دائماً إلى غذاء مادي ، أما الروح فغذاؤها الإيمان . والجسد يموت ويفنى في النهاية شأنه في ذلك شأن كل شيء مادي ، أما الروح فخالدة ولا تخضع لقوانين المادة لأنها لا تنتمي إلى هذا العالم الذي لا يعرف سوى الهموم والآلام . يقول شوبنهاور إنه لو انزاحت عن صدورنا هموم مرهقة عاجلة ، ففي الحال تحل محلها هموم أخرى كانت مادتها كلها موجودة من قبل ، ولكنها لم تخرج هموماً إلى دائرة الوعي إذ لم يكن هناك أي منفذ لها ، أما الآن وقد وجد المنفذ فهي تنطلق لتسيطر على كيان الإنسان . ولذلك فحياة الجسد البحتة أساسها الألم ، وليست اللذة إلا مجرد وقف سلبى للألم . ولقد كان أرسطو محققاً عندما قال : « إن الحكيم لا يبحث عن اللذة ، بل التخلص من الهم والألم . » وفي هذا المعنى كتب شوبنهاور في كتابه « العالم إرادة وتخيل » - المجلد الأول - ص ٣٩٧ ، يقول :

« كل إشباع حسي ، أو ما يسمى عادة بالسعادة ، هو في جوهره سلبى ، بمعنى أننا لا ندرك إدراكاً حقيقياً النعم والخيرات التي تكون في حوزتنا فعلاً ، ولا نقيم لها وزناً ، فهي بالنسبة لنا مجرد أمر واقع ، وذلك لأنها لا تشبعنا إلا سلبياً ، فهي تمنع عنا التعاسة والألم ، ولا نشعر بقيمتها إلا عندما نفقدها ، لأن الحزن والحرمان والحاجة الملحة ليست سوى العنصر الإيجابي الذي يرتبط بنا مباشرة ودون عوائق ، ولعل هذا هو السبب الذي أدى بالكليين إلى إنكار اللذة في كل أشكالها على حد سواء ، فالألم مرتبط دائماً بها سواء بدرجة كبيرة أو صغيرة . »

ويستمر شوبنهاور في تحليله فيوضح لنا أن حياة الجسد لن تعرف الكمال في يوم من الأيام لأنه حالما تسمح الحاجة والحرمان للإنسان بالراحة ، اقترب منه الضجر على الفور بحيث تتحول الحاجة القديمة إلى الراحة ، إلى حاجة جديدة إلى التسلية وهكذا دواليك ، أى المزيد من الحاجة التي لا يؤدي إشباعها إلا إلى حاجة أخرى ، ويستمر الدوران في هذه الدائرة المفرغة حتى يحل الموت أخيراً . وهذا ما يتفق مع المثل الشعبي المصري - وهو مثل زاخر بالحكمة والفلسفة مثل معظم الأمثال المصرية - يقول المثل : « لا يملأ عين الإنسان سوى التراب . » وحتى لو تحققت

المدينة الفاضلة ، لبقيت شرور عديدة طالما أن الإنسان لم يتخلص بعد من سيطرة جسده على روحه . فحياة المادة لا تعرف سوى الصراع والتنافس والتزاع ، فكل إنسان يكافح من أجل الحصول على المادة والمكان والزمان الذى يملكه الآخرون . أما حياة الروح فلا تعرف سوى السلام والانسجام والتوافق ، حتى الخوف من الموت يتلاشى لإدراك الروح لخلودها ، أما الجسد فى خوف دائم لأنه - على حد قول شوبنهاور - ليس سوى منع مستمر للموت ، موت مؤجل لحين انتهاء حياة الجسد .

وفى القصة القصيرة الوحيدة التى نشرت لأنور السادات فى مجلة « أهل الفن » فى إبريل ١٩٥٤ تحت عنوان « ليلة خسرها الشيطان » نجد كل فلسفة شوبنهاور وقد تجسدت فى هذه القصة التى تدل على أن حياة السياسة والكفاح الوطنى بكل مشاغله وارتباطاته ، قد حرمت الأدب المصرى خاصة ، والعربى عامة ، من قصاص وفنان بارع ، كان يمكن أن يكون رائداً كبيراً أيضاً فى مجال الفن الأدبى . والقصة كعمل فنى سنتناولها بالتحليل والنقد فى فصل آخر يدور حول معنى الفن عند السادات ، ولكن ما يهمنا الآن فيها هو موضوعها أو مضمونها الذى يدور حول الصراع بين الشهوة الجسدية العارمة والإيمان الروحى الذى يذكر الإنسان دائماً بأن لروحه عليه حقاً وإلا جرفه طوفان الشهوة وأحاله إلى مجرد حيوان فى ثوب إنسان . وفى القصة أصداء من قصة سيدنا يوسف وامرأة العزيز ، وهذا يدل على الخصوبة الفكرية والفنية عند السادات ، فهو يستفيد فكرياً من القصص الدينى والفلسفات الإنسانية ، ويستغل أيضاً كل إمكانيات الأسلوب الأدبى والشكل الفنى لتوصيل فكرته إلى جمهور القراء .

والفكرة الرئيسية التى تمثل العمود الفقرى للأحداث تنهض على السلام النفسى الذى كان يتمتع به الشاب الفلاح الأجير « خضر » فى عزبة الإقطاعية الأرستقراطية الفاتنة « نورا » قبل أن يعصف به إغراؤها المدمر . فعندما التهب جسده بالشهوة تبخر السلام النفسى فى لمح البصر ، وكاد يسقط ضحية جسدها الفاجر المتفجر ، لولا أن ربه تذكره برحمته فى آخر لحظة . ولنترك خاتمة القصة تحكى لنا مغزى الصراع بين شهوة الجسد وإيمان الروح :

« وفى خطوات وثيدة توجه خضر إلى طرف الحديقة حيث يوجد مسكنه وما إن فتح غرفته حتى وقف كالمصعوق . . . لقد وجد نورا فى غلالة شفاقة تلف جسمها وهى تفضحه . . .

وراعته المفاجأة فتسمر فى مكانه ونورا تناديه : نادته بصوتها الذى سحره ونادته بضحكها الذى أذهله ونادته بذلك البريق الذى رآه فى عينيها وهى تضمد جراحه . . ولكن خضر ظل فى مكانه . .

وعصفت الرغبة بنورا فأرسلت ضحكة عالية لم تكن كضحكاتها السابقة وإنما كان فيها صراخ الشيطان وألقت بجسدها بين أحضانها . .

وصرخ الوحش فى دماء خضر فلم يشعر إلا وهو يلتقف ذلك العود الفائر الدافئ بين ساعديه . وأطبقها فى عنف وكأنما يريد أن يعتصر كل ما فى العود . . وصرخت نورا من الألم ، فارتد خضر فى ذهول ليرى على الأرض حلية سقطت من صدر نورا بعد أن أدمته . .

* * *

وسط ذلك الليل البهيم انشق الهدوء والسلام فى طرقات القرية على صيحات خضر المذعورة وفى يده شئ يطبق عليه . .

كان كتاب الله فى حلية من ذهب

والرائع فى هذه القصة أن السادات لم يلجأ إلى الوعظ المباشر والإرشاد الصريح والخطابة الرنانة رغم وجود المغزى

الأخلاقي بصفة رئيسية ، وهو المغزى الذى قد يغرى أى أديب بتحطيم الشكل الفنى عنده خوفاً من عدم وصوله بوضوح إلى جمهرة القراء .

المهم أن البعض قد يظن أن إيمان خضر لم يكن كافياً بدرجة تجعله قادراً على مقاومة الإغراء منذ البدء ، ولكن هذا التفكير يقصر عن استيعاب صراعات النفس البشرية وأبعادها . فخضر إنسان على أية حال ويخضع لكل الحدود البشرية ، ولكن المهم أنه تذكر إيمانه بمجرد رؤيته لكتاب الله وكان من الممكن أن يتغاضى عن هذه الحقيقة الناصعة ويستمر في إرواء شهوته الحيوانية ، ولكنه توقف في الحال ، وبذلك انتصرت روحه على جسده .

والمغزى الأخلاقي للإيمان لا يرتبط - عند السادات - بالجنس فقط ولكنه يمتد ليشمل كل مناحى الحياة . فالأخلاقيات إذا لم ترتبط بكل الأنشطة الاجتماعية كان هذا إيذاناً بتصدع المجتمع جزئياً أو كلياً . ومن علامات التصدع الاجتماعي : التعصب ، والتواكل ، والجهل ، والتعلق بالخرافات وغيرها من الشوائب التي علقت بجوهر الإيمان في عصور الاضمحلال ، ولذلك يقول السادات في ورقة أكتوبر :

« كان من أبرز صفات هذا الشعب دائماً تمسكه بالإيمان واعتزازه بالأصالة . أما الإيمان ، كما نفهمه اليوم ، فهو ذلك الإيمان النقي الخالص ، البريء من التعصب ، والمتطهر من تلك الشوائب التي علقت بجوهره في عصور الاضمحلال : البعيد عما ينسب إليه زوراً من روح التواكل التي لا تعرف المسؤولية ، والتعلق بالخرافات ، ونفى دور إرادة الإنسان وإرادة المجتمع في أن يواجه أمور حياته المتجددة ، مستعيناً بما أودعه الله فيه من عقل ميزه به عن سائر المخلوقات . وقد علمنا محمد رسول الله هذه المعاني في قوله :

« مثل المجاهد في سبيل العلم كمثل الصائم القائم ، لا يفتر عن صلاة ولا صيام حتى يرجع » .

وليس الجهاد في سبيل الله هو القتال وحده : فقد قال لنا رسول الله أيضاً :

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

بل وعلمنا الجهاد بمعناه الاجتماعي العميق بقوله صلوات الله عليه :

« الساعى على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد في سبيل الله » .

وليس أخطر على هذا الإيمان في معدنه الحقيقي من الذين يجعلون منه نقيضاً للعمل والبحث والعلم . فالله عز وجل

قد وضع العلم في مستوى الجهاد في سبيل الله ، وجعله قريناً للإيمان ، حين قال سبحانه وتعالى :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أتوا العلم درجات ! »

هذه هي الأخلاقيات الأساسية التي يحتمها مفهوم الإيمان عند السادات ، وهي أخلاقيات ضرورية لتقدم أى مجتمع في أى عصر ، وما يشكونه العالم المعاصر من أمراض واضطرابات ، يرجع إلى فقدان الدين لسيادته على الحياة الروحية ، وبالتالي اهتزت المقاييس الأخلاقية التي نبعت من الدين ، والتي واكبت الحضارة الإنسانية منذ فجرها ، ومنحتها من الدفعات ما أوصلها إلى عصرنا هذا . ولعل أشمل تحليل لهذه الظاهرة يوجد في كتاب « مستقبل الغرب » حيث يقول ج . دى بويس ص ١٣٣ :

« لقد كان التطور الروحي الذي مرت به الحضارة الغربية الأساس الراسخ الذي نهضت عليه المعايير الأخلاقية للمجتمع ، وكانت المعايير الأخلاقية . طوال سيادة الدين على الحياة الروحية والاجتماعية جزءاً منها لا يتجزأ ، وبذلك حلت محل الاجتهادات البدائية للإنسان التي لم تكن قابلة للنزاع والجدل من قبل ، ولكن عندما عاد العمل المادى للإنسان إلى التحرر من السيطرة الروحية ، واصطبغت الحياة الروحية والاجتماعية بصبغة مادية دنيوية ، فقدت المعايير الأخلاقية بالتالى شخصيتها المستقلة السامية وتساوت مع الاجتهادات التي بذلها الناس من أجل صالح المجتمع .

وكانت نتيجة ذلك أن حلت المنفعة والحكم العقلي محل الإرادة الإلهية كأصل لهذه المعايير ، وأصبحت الأوامر الإلهية ذات الصفة المطلقة ، موضعاً للتحليل والدراسة البشرية ، وبالتالي محل جدل ، فخفضت للحكم الشخصي حتى أصبحت ماثراً تساؤل في خاتمة الأمر .

وقد ساعد على ذلك عاملان مؤثران إلى حد كبير منذ منتصف القرن الأخير ، هما : المادية التاريخية بإعلانها أن العوامل الاقتصادية هي الأصل في جميع التطورات الاجتماعية ، وبذلك قل شأن المعايير الأخلاقية التي تحتم عليها أن تتحول إلى مجرد عامل مساعد للعوامل الاقتصادية الرئيسية . والعامل المؤثر الثاني يتمثل في علم النفس عند فرويد الذي يرى أن للدوافع الجنسية أسبقية على جميع الدوافع الأخرى ، وبذلك ضاعت قيمة المعايير الأخلاقية التي تحولت أيضاً إلى مجرد عامل مساعد للعوامل الجنسية الرئيسية .

وكانت الحرب العالمية الأولى من ضمن العوامل الرئيسية التي أدت إلى انتعاش هذه الحركات في مجال الفكر واستمرارها لأجيال متتابعة . وتمثل الاضطراب الفيزيقي الذي سببته الحرب في ضياع المعايير الاجتماعية للسلوك الفردي ، والروابط العائلية التي بدأ انهيارها منذ ذلك الحين .

كانت هذه التطورات الاجتماعية نتيجة لاندثار قيم وتقاليده العصور المبكرة التي استبدلت بها علاقات واهية من المنفعة الذاتية والحكم الشخصي . وتحول موقف الفرد تجاه المجتمع - ذلك الموقف الذي عبر عن نفسه في الأزمنة الماضية بمجموعة دقيقة من الواجبات الملزمة - إلى مجرد مجموعة من الحقوق والمزاعم والمطالب ، وانتقل من الوصايا العشر إلى إعلان حقوق الإنسان . وهذا الانتقال من التأكيد على الواجبات إلى التأكيد على الحقوق ليس أمراً عرضياً ، ولكنه نتيجة حتمية للعقلية المادية التي تنظر إلى هذا العالم على أساس أنه هدف في حد ذاته ، ولا هدف آخر وراءه . وهي العقلية الطاغية في عصرنا هذا .

وبذلك يكون من الصعب إيجاد ضوابط وقيم أخلاقية في مجتمع ينهض على الأنانية الفردية بصرف النظر عن اعتبارات الصالح العام لكل الناس . ولذلك كانت الضرورة الأخلاقية - التي تحتم توافق المنفعة الشخصية مع الصالح العام - جزءاً هاماً في مفهوم السادات للإيمان . فالمجتمع الذي يترك العنان للحرية الفردية المطلقة دون أية ضوابط أوقيم لا بد أن يتحول إلى غابة يلتهم فيها الكبير الصغير ، والقوى الضعيف . وكذلك المجتمع الذي لا يسمح بأية انطلاقة حرة للفرد ، بل يحيطه بكل القيود الصارمة ، لا بد أن يتحول إلى سجن . والمفهوم الناضج للإنسان المعاصر يؤكد أنه لا يستطيع العيش سواء في الغابة أو في السجن ، لأنه في الغابة سيعرض حياته للخطر ، وفي السجن سيفقد حريته . ومن الواضح أن الحياة مساوية تماماً للحرية ، والضرورة الأخلاقية قد وجدت خصيصاً للتوفيق بين الحياة الاجتماعية وبين الحرية الفردية حتى لا تظني إحداهما على الأخرى ، وخاصة أنه ليس هناك أي تناقض بين الاثنين ، فالحياة الاجتماعية السليمة تتكون بطبيعتها من جزئيات تتمثل في الحريات الفردية لأعضاء المجتمع . ولا يمكن أن يقع تناقض بين الجزء والكل وإلا انفصل أحدهما عن الآخر .

ونظراً لارتباط مفهوم الإيمان عند السادات بالضرورة الأخلاقية فقد آثرنا أن يدور الفصل التالي حول ملامح وخصائص الضرورة الأخلاقية عند رائدنا في التأصيل الفكري : أنور السادات .

الفضل الثالث

الضرورة الأخلاقية

تمثل الضرورة الأخلاقية عنصراً هاماً في نظرية السادات في التأصيل الفكري . وهذه الضرورة تنهض على وجود عنصرين متميزين في الكائن البشري ، عنصر الفردية وعنصر الجماعة . فالأخلاق التي لا تعبأ بالعنصرين في آن واحد لا يمكن أن تصل إلى نظرة شاملة للمشكلات الأخلاقية التي واكبت الحضارة الإنسانية منذ فجر التاريخ . فحاجة الإنسان إلى الأخلاق لا تنشأ فقط من افتقاره إلى نزعة تامة إلى التجمع أو من فشله في أن يعيش وحيداً بصفة مطلقة ، بل تنشأ أيضاً من اختلاف جذري بين الإنسان من ناحية وبين سائر أنواع الحيوان من ناحية أخرى ، فنشاط الإنسان لا ينجم كله عن دوافع مباشرة ، وإنما يستلزم هذا النشاط الضبط والتوجيه بتحديد الوسائل وبلورة الغايات . فالإنسان يعمل طبقاً لوسائل محددة تؤدي إلى غايات قد ينجح في تحقيقها أو قد يفشل ، ولكن لأن الإنسان يسلك على هذا النحو ، فهذا يعني ارتباط سلوكه المادي بضرورة أخلاقية من حيث إنه يميز بين ما هو صواب وما هو خطأ ، بين ما هو حق وما هو باطل ، بين ما هو خير وما هو شر ، بين ما هو نافع وما هو ضار . فالإنسان في علاقاته مع الغير يلتزم بمجموعة من المثل والقيم والمعايير والمقاييس تكون ما يسمى بالضرورة الأخلاقية .

وكلما ارتقى الإنسان في السلم الحضاري ، تضاعفت أهدافه وزادت حياته تعقيداً ، ومن هنا كان البحث عن مبادئ الأخلاق في المجتمع المتحضر أشد صعوبة منه في المجتمع البدائي ذي العلاقات الاجتماعية البسيطة والمباشرة ولكي نحدد مفهوم الضرورة الأخلاقية في المجتمع يجب أن نركز الضوء على ما نسميه بالنشاط الواعي عند كل فرد من أفراد الجماعة بما يتحتم أن يكون عليهم سلوكهم من مستوى يحقق الخير والسعادة للمجموع ، حتى ولو أدى هذا إلى إهدار بعض رغبات الفرد أو متعه الشخصية . هذه هي الضرورة الأخلاقية التي تدفع عالماً يجرى أبحاثه من أجل اكتشاف سر مرض خطير مثل السرطان . فينفق من الوقت والجهد ما يعد فوق احتمال البشر ، ومهملاً في نفس الوقت حقه الطبيعي في الراحة والمتعة ، بل ومعرضاً حياته للخطر في بعض الأحيان . هنا تبرز الضرورة الأخلاقية التي تؤدي إلى إنكار الذات من أجل صالح الجماعة ، ولا شك أن مثل هذا العالم يجد متعة كبيرة في مجال أبحاثه المضنية حتى ولم يعد على شخصه بفائدة ذاتية . وهذا يؤكد الارتباط العضوي بين الكيان الذاتي للفرد والبنیان الموضوعي للمجتمع .

ويتفق السادات مع برتراند راسل في أن الأخلاق في جوهرها تبدأ فردية ثم تتطور فتصبح اجتماعية . ومن هنا كان الدور الحيوي الذي يلعبه الأفراد الذين يقومون بضرب المثل الأعلى في أداء الواجب ، واحترام القيم أمام مواطنيهم . فعنصر الفرد في الأخلاق عنصر أساسي لا يمكن الاستهانة به على الإطلاق . فالفرد عندما يؤدي واجبه نحو الجماعة مضحياً في سبيل أدائه براحتة ومتعته ومصالحة المباشرة لا بد أن يكون مقتنعاً تمام الاقتناع بصواب سلوكه ، وأخلاقية الوسائل التي يتبعها ، وسلامة الغايات التي يهدف إليها . وكلما تأكد هذا الاقتناع الداخلي عند الفرد تكاملت الحياة الأخلاقية على مستوى المجتمع بصفة عامة .

ولا تعني الضرورة الأخلاقية عند السادات محاولة وضع الطبيعة البشرية في قالب صارم لا يعرف المرونة أو المضم ، فقي رأيه أن كل باحث في الأخلاق لا يفهم أو يدرك الحاجات الأساسية للطبيعة البشرية لا يمكن أن

يصل إلى تقنين الضرورة الأخلاقية التي تعد الشرط الأساسي لتحقيق التطور والتكامل والتقدم والرفاهية في حياة المجتمع ، ولذلك يتحتم على دراسات علم الأخلاق أن تتبع المنهج العلمي ، حتى تكون موضوعية وشاملة ومنصفة وعملية من حيث إمكانية تطبيقها في الحدود البشرية للمجتمع ، والبواعث الهامة التي تحكم سلوك الأفراد كالأغذاء والكساء والمأوى وغيرها من الاحتياجات البيولوجية للإنسان . فهذه كلها ضرورات أساسية لاستمرار الحياة البشرية ، ولذلك فقد وضعها السادات نصب عينيه وخاصة بعد معارك أكتوبر المجيدة .

والصالح العام يعنى أن الأفعال التي تحفز إليه هي التي ترضى الجماعة وتثنى عليها ، أى أنه يتحقق فقط في حالة رضا الجماعة عنه . ويعنى الصالح العام بأن من مصلحة كل شخص أن يفعل كل شخص ما يرضى كل شخص بنفسه الطريقة ، والصالح العام يعنى أيضاً أن ثمة خيراً أكبر وإشباعاً أعظم للرجبة في حياة الجماعة إذا كان الضغط الاجتماعى ، سواء من خلال القانون أو عن طريق التقاليد ، مطبقاً بحيث يصل إلى الفعل الصواب الذى ترضى عنه جميع الأطراف المعنية . ولذلك يمكن تحقيق الإشباع الكلى للرجبة حين تكون الرغبات ممكنة معاً ، أما إذا كانت متنافرة ومتصارعة فإنه يصعب إيجاد ما نسميه بالصالح العام . والقائد السياسى البارع هو من يدمج هذه الرغبات المتنافرة في هيكل اجتماعى واقتصادى بحيث يصل التصادم والاحتكاك إلى أقل الدرجات الممكنة . بمعنى آخر أنه يبذل ما في وسعه لتحويل الرغبات المتصارعة إلى رغبات ممكنة تسهل عملية الوصول إلى الصالح العام . فالرغبات الممكنة هي أفضل الوسائل لتحقيق أفضل الغايات ولذلك فالحب ماثور على الكره ، والتعاون مفضل على التصارع ، والسلم مرغوب عن الحرب . . . إلخ ، وهذا بدوره يؤدي إلى تحديد نوعية الرغبات من حيث هي خير أو شر ، صواب أو خطأ ، فالرغبات الصائبة هي القادرة على أن تتحقق معاً مع أكبر قدر ممكن من الرغبات الأخرى ، أما الرغبات الباطلة فهي التي تحقق إشباعها وحدها على حساب الرغبات الأخرى . ولذلك يقول السادات في لقائه بوفد المؤتمر الإسلامى في القاهرة في ١٤ سبتمبر ١٩٧٢ :

« لماذا الحقد والفرقة والتشتت ؟ لن نستطيع أن نبني بالحقق أبداً . . دعونا نضرب كل هذا ونعود لجوهر عقيدتنا : الحب والصفاء والأخوة والقوة التي تتولد بالإيمان وبالثبات وباليقين . . دعونا نعود إلى جوهر رسالتنا : الإيمان هو ما وقر في القلب ، الإيمان أخوة ، محبة ، يقين ، غيرة على قيمنا وعلى حياتنا وأرضنا أيضاً » .

وعندما رفع السادات شعار « دولة المؤسسات » كان يدرك جيداً ما لهذه المؤسسات والهيئات الاجتماعية والسياسية من سلطان كبير على الأفراد سواء في نوعية إنتاجهم أو في حياتهم الأخلاقية . فهذا التأثير الذي تمارسه على حياتهم الأخلاقية أمر ضرورى وحيوى لترابطهم واستمرار حياتهم . ويظهر هذا السلطان في القواعد العامة ، والتقاليد الاجتماعية ، والتشريعات الأخلاقية ، والمعايير الإنسانية التي يأخذ بها المجتمع . وقد تنطوى هذه التشريعات على القسوة والعنف مما جعلها دائماً عرضة لثورة وهجوم المصلحين الأخلاقيين في جميع العصور . ومع هذا لا يجوز الخروج على القواعد العامة والتشريعات الأخلاقية بغير تفكير علمى وتحليل موضوعى ، لأن ذلك لا يعنى سوى إثارة روح الفرقة والتشتت والضياح والفوضى . ففى كل نظام أخلاقى ثنائية أساسية تلخص في مصدرين مختلفين للأخلاق : الأول منهما يرجع إلى سلطان الجماعة ، وهذا ما يسميه برتراند راسل المصدر السياسى للأخلاق ، أما المصدر الآخر فأساسه العقائد الشخصية التي ترتبط بالدين والأخلاق من حيث اقتناع الفرد بهما دون أى ضغط خارجى .

والمصدر السياسى للأخلاق يحافظ على بقاء الجماعة واستمرارها ، بينما المصدر الشخصى هو الذى يمنح المعنى لمثل هذا البقاء ، والحياة الاجتماعية السليمة هي حصيلة هذين النوعين من الأخلاق . فالقيام بالواجبات تجاه الجار

• مثلاً هو أمر تفرضه الأخلاق المدنية ، لكن السمو الأخلاقي للإنسان لا يقتصر على مجرد أداء الواجبات ، فإنه لا ينبغي أن تستمد الأخلاق السامية مصدرها دائماً من مجرد أداء الواجب كفرض بل من ذاتية الفرد تلقائياً . وهذه هي أخلاقيات القرية المصرية التي يدعو السادات إلى تأكيدها وتثبيتها . ففي القرية المصرية يستمتع المواطن بأداء الواجب في حد ذاته دون انتظار مدح أو ثناء أو ثواب ، ودون خوف من لوم أو تقريع أو عقاب . وأصالة القرية المصرية هنا تكمن في أن أعظم الأعمال ذات القيمة الأخلاقية الشاملة لم تصدر عن مجرد أداء الواجب كمهمة ثقيلة على النفس ، ولكن كمتعة تنشد في حد ذاتها . ولذلك يقول السادات في خطابه أمام مجلس الشعب في ٢٠ مايو ١٩٧١ :

« عاوز واحنا بنحط الدستور - وأصلكو انتو اللي حتكلفوا بوضع الدستور زى ما حقول لكم دلوقى - عايز واحنا بنحط الدستور نرجع للقرية أصلنا ونعرف إن فيه « عيب » لأن في القرية هناك علمونا لما نشأنا إن فيه حاجة اسمها العيب.. »

نعرف إن فيه حدود ، نعرف إن فيه حدود لكل شيء مهيش سايبة ، موش كل شيء سايب ، أبداً ، نعرف إننا كلنا لما بتبقى العيلة في القرية ، رب العيلة فيها راجل حازم بتبقى العيلة محترمة في القرية ، بنعرف كمان إن القرية بتبقى كلها روح واحدة لما بيحصل ميثم يأجلوا الفرح علشان ما يسمعوش الزغاريد التانيين وبنعرف إن يوم ما بيحتاج واحد علشان يحرت أرضه يقوم زميله يودى بهايمة ومحراثه ويروح يشتغل وياه ويساعده .

عايز الدستور يتفصل على كده مش للقرية ، لا ، أنا عايزه يتفصل علشان مصر كلها تبقى قرية واحدة ، في هذا الشأن مفيش مكان لا للعيب ولا للتسديد . في القيم ، الوفاء ، لازم الوفاء ، كل من يؤدي لهذا البلد خدمة ، لازم البلد ترد له بوفاء . »

ينادى السادات بهذه القيم الأصيلة لأن مشاعر الإنسان في العصر الحديث أصبحت مسدودة النوافذ على قيم المحبة والتعاون والوفاء ، وما زال الحقد الذي يقسم الناس إلى أهل وأعداء سيد المشاعر البربرية ، وهذا التطاحن البدائي المقنع بأقنعة الحضارة الحديثة لن يساعد المجتمع البشرى على أن ينعم بمستقبل مستقر مطمئن ، بل ربما يكون مصير هذا المجتمع كمصير الديناصور الذي سيطر على الأرض في عصور ما قبل التاريخ ، ولما كان مجرد قوة جبارة ، ولكنها عمياء وطائشة ، فقد قضى على نفسه بنفسه . وهذا ينطبق بدوره على الإنجازات العلمية الجبارة من قنابل وصواريخ ذرية ، فإن تضخم القدرة العلمية للإنسان دون أن تتناسب مع ارتقاء إرادته لصنع الخير ، وسمو عاطفته تجاه الإنسانية جمعاء ، قد يقضى على البشرية جمعاء كما فعل الديناصور بنفسه منذ ملايين السنين الماضية .

ويتفق السادات مع برتراند راسل في أن الزعيم الحكيم هو من يقوم بدور رب العائلة الحازم من أجل مصلحة جميع أفراد عائلته دون إستثناء فلم يعد دور القائد السياسى أو العسكرى العمل على استئصال شعوب بأسرها كما حاول جينكيزخان وهانيبال و نابليون وهتلر أن يفعلوا من قبل . ويؤكد راسل في كتابه « المجتمع الإنسانى في الأخلاق والسياسة » أنه آن الأوان لكى تعهد الشعوب بمقاييد أمورها إلى رجال يحملون لها كل تعاطف ، وكل وفاء ، وكل معرفة ، وكل فكر . فقد أدركت الشعوب فظاعة أولئك الساسة الذين ليس لديهم ما يوحون به إلى شعوبهم إلا الكراهية ، والحقد ، والفرقة ، والتشتت ، والقسوة الزائدة ، ولا هم لهم سوى العمل على استئصال شعوب بأسرها دون أن يفطنوا بوعى موضوعى خال من الترجسية إلى طبيعة الأعمال التى يقومون بها . فن الواضح أن هؤلاء الساسة لم يفكروا لحظة واحدة في أن الإنسان يمثل جنساً واحداً ذا إمكانيات مشتركة ، وأنه لا بد لهم من المساهمة في تحقيق تلك الإمكانيات ، بدلا من العمل على قمعها . وفي هذا المعنى تكلم السادات في بيانه للأمة في ٧ مارس ١٩٧١ فقال :

« إن هذا التحدى الإسرائيلى ليس موجهاً لنا وحدنا ، وإنما هو موجه إلى المجتمع الدولى كله ، وإلى كل القيم

الإنسانية التي يجب أن تسود عالمنا ، لكن هناك فارقاً أساسياً بين موقفنا من هذا التحدي وبين موقف العالم كله منه ، إن التحدي الموجه للعالم تحد معنوي وأخلاقي وسياسي ، وأما التحدي الموجه إلينا فإنه تحد مادي وطني قومي ومصيري ، والعالم قد يرى في مواجهة التحدي الذي يواجهه أن يستنكر وأن يدين ، وقد يصل به الحرص على مستقبل العلاقات الدولية أن يتجاوز ما هو قاصر على الاستنكار والإدانة ، ولكننا نحن لا نستطيع أن نكتفي بالاستنكار والإدانة ، إننا مطالبون بأن نقاوم ، وبأن نقاتل ، نحن مطالبون بأن نعطي الحياة لكي تكون لنا حياة ، ونحن مطالبون بأن نضحى بالروح لكي تبقى وحدة ترابنا الوطني مصونة على طول الزمان .

ومن الصعوبات التي اعترضت السادات في استعانتها بعلم الحساب الاستراتيجي أن الكثيرين من قادة العالم اليوم لم يتخلصوا بعد من الأطماع العابرة ، والمظاهر الكاذبة ، وشتى أمارات القوة الزائفة . ولكنه لم يفقد إيمانه بأن في مختلف بقاع العالم عقولاً مفكرة تستطيع أن ترقى بنفسها فوق هذه الوجهة الضيقة من وجهات النظر . ولا بد لأصدقاء الإنسان من أن يوحّدوا هذه العقول على اختلاف أوطانها حتى تتحول إلى قوة فعالة من أجل إرساء التقاليد الأخلاقية التي وجدت من أجل صالح الإنسان وسعادته . وقد أثبتت حرب السادس من أكتوبر المجيد أن مستقبل الإنسان ومصيره قد أصبح اليوم في أيدينا ، فلم يعد أمامنا الآن سوى أن نعمق إحساس الإنسان المعاصر بضرورة العمل على تهيئة هذا المستقبل ، والارتفاع بهذا المصير إلى المستوى اللائق بالإنسانية الحقة . ويوضح برتراند راسل أن مثل هذه الغاية الإنسانية السامية لن تتحقق إلا إذا تضاعف في العالم يوماً بعد يوم عدد المؤمنين بالقيم الأخلاقية الموضوعية من شجاعة وأمل وحب ووفاء . وهي القيم التي نادى بها السادات في كل كتاباته ومؤلفاته ومقالاته وخطبه وبياناته وأحاديثه .

ويرى راسل أن دراسة التاريخ الإنساني بمختلف عصوره تؤكد دائماً أن الخير في حاجة مستمرة إلى من يحميه ويدافع من أجله ، فعلى الرغم من وجود بشر على مر العصور أدركوا قيمة الخير إلا أنهم لم ينجحوا تماماً في تغيير نمط السلوك الإنساني والارتفاع به إلى المستويات المنشودة . ومن هنا كان تطبيق الأخلاق على السياسة أمراً شاقاً محفوفاً بصعوبات شتى ، سواء كانت متوقعة أو غير متوقعة . ومع هذا فقد وصلنا في التاريخ الإنساني عند عصر قلق أصبح فيه استمرار الوجود الإنساني نفسه مرهوناً بالمدى الذي يلتزم فيه الإنسان المعاصر بالمعايير الأخلاقية . فإذا استمر على الانقياد وراء الانفعالات المدمرة فإن مهاراته التي تتزايد بتقدم العلم ستقلب وبالا عليه تقضى به إلى نفس خاتمة الديناصور في عصور ما قبل التاريخ .

ولذلك يعتقد الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط أن العلم والمعرفة لا يكفيان . فهناك الحياة العملية والسلوك الأخلاقي ، والفيلسوف النقدي لا يريد أن يستخلص مذهب الأخلاق من التجربة ، لأن التجربة تسجل ما هو كائن ولا تبحث فيما ينبغي أن يكون . والمبدأ الأول في الأخلاق يراه كانط خيراً بلا قيد ولا شرط ، وهو « الإرادة الخيرة » والإرادة الخيرة هي إرادة العمل بمقتضى « الواجب » أى للواجب وحده دون اعتبار لأي شيء آخر . ومعنى هذا أن الواجب يأمرنا أمراً جازماً أن نعمل دون اعتبار لمصلحتنا أو إشباع لأنانيتنا ، الواجب تكليف بالفعل وإجبار عليه ، إنه أمر جازم مطلق حاسم . وإنما العقل - الذي هو واحد لدى كل إنسان - هو الذي يصدر إلينا أمراً كهذا ، إنه العقل منصرفاً إلى الفعل ، هو « العقل العملي » بتعبير كانط . وهو يعتقد أن القانون الأخلاقي مفطور فينا ومتقدم على كل تجربة . والإرادة الإنسانية حين تعمل على وجه أخلاقي لا تخضع لقوة خارجية عنها كاللذة أو المصلحة أو الأنانية . ولذلك فالإرادة مستقلة في تصرفاتها ، وناموسها ينبع من ذاتها . والإرادة التي تمنح ذاتها « ناموسها » هي والعقل العملي سواء . وأهم صيغة يصاغ فيها الأمر الجازم هي : « اعمل بحيث تستطيع أن

تجعل باعث عملك قانوناً كلياً . أى قانوناً للإنسانية كلها . وعلى هذا النحو مضى كانط مشيداً بفكرة الواجب ، فكتب في خاتمة كتابه « نقد العقل العملي » : « أمران لا ينفكان يثيران إعجابي : السماء ذات النجوم فوق رأسي ، والقانون الأخلاقي في قلبي » . ولعلنا نجد أصداء عديدة لهذه الجملة في فكر السادات وفلسفته . فعلى سبيل المثال يسأله عبد التواب عبد الحى على صفحات مجلة « الإذاعة » في ٢٥ يوليو ١٩٥٩ عن سر الصراع في هذه الدنيا ، سواء كان صراعاً بين الأشخاص أو بين الدول ، فيرد عليه بقوله :

« الجشع والطمع والانفعالات الدنيا . . إن الدول كالأفراد ، كل دولة تبحث عن أكثر مما تحتاج . . والصراع من أجل البقاء موجود منذ خلق الإنسان ، ولكنه انحرف عن طريقه الطبيعي . . صارع الإنسان الطبيعة من أجل القوت ، وصارع الوحوش من أجل البقاء ، وأخيراً صارع نفسه » .
ثم يسأله عبد التواب عبد الحى :

« القيم الإنسانية في خيال الشعراء وأصحاب المبادئ كالجوهر المشع . . والحياة في واقعها دنس وأهواء وطن . هل يستطيع الإنسان أن يحافظ على قيمه الإنسانية . . هل يستطيع الإنسان أن يحيا نظيفاً مائة في المائة ؟ »
فيجيبه السادات بنفس النظرة الفلسفية العميقة إلى الطبيعة البشرية :
« ربما كان واقع دنيانا رهيباً وعنيفاً . . ولكن الإنسان يستطيع مع ذلك أن يقف في وجه الشرور والانحرافات ويقاوم الإغراءات بقوة إيمانه . إن أروع لحظات يعيشها الإنسان عندما يستطيع أن يتفوق على واقعه وأن يلتصق بقيمه . . إنه يسعد لحظتها بسلام روحى يسرى في بدنه كالخدر اللذيذ » .

وهذا الحديث يذكرنا بالرسالة التي كتبها كانط بعنوان « نحو السلام الدائم » عام ١٧٩٥ أثناء الأحداث الكبرى التي نتجت عن الثورة الفرنسية . وهذه الرسالة تنهض على قضية أولية هي أن حالة السلام بين الناس الذين يعيشون إلى جوار بعضهم البعض ليست حالة طبيعية ، بل الحالة الطبيعية هي حالة الحرب والصراع التي إن لم تكن قائمة فعلاً فهي تهدد بالنشوب باستمرار . ولهذا فلا بد من صنع السلام صنفاً والعمل على حمايته لأنه الاستثناء بينما الصراع هو القاعدة ، فالهرب ليست في حاجة إلى العمل من أجل إشعالها بقدر ما يحتاج السلام إلى كل الجهود الجبارة والشاملة والفعالة من أجل استتبابه ، وإذا كانت الحرب قادرة على أن تشتعل في أية لحظة لأن طبيعتها تتمشى مع طبيعة الصراع الكامنة داخل الإنسان ، فإن السلام لا يمكن أن يستتب من تلقاء نفسه إلا في حالة القضاء التام على الأطراف الداخلة في الصراع . وليس مجرد توقف القتال في ذاته ضماناً لقيام حالة السلام . كما أن الحرب لا يمكن بنفسها أن تحقق السلام . ويقصد كانط هنا بالحرب ذلك النوع العدواني الاستعماري الذي يهدف إلى فرض السلام على الشعوب الصغيرة ، أما حرب التحرير فهي حق مكتسب لا يختلف حوله إثنان .

ويجدر بنا هنا أن نتعرض لبعض عناصر رسالة كانط « نحو السلام الدائم » وخاصة أنها تتمشى في روحها مع ما ينادى به السادات من سلام قائم على العدل ، وحامل في طياته كل عوامل الاستقرار . ومن أهم العناصر التي يؤكد بها كانط أن معاهدة السلام لا تعد معاهدة بمعنى الكلمة إذا تضمنت ما يمكن أن يؤدي في المستقبل إلى حرب . لأن مثل هذه المعاهدة هي مجرد هدنة ، أى مجرد توقف القتال ، ولكن السلام معناه انتهاء كل حرب وكل ما يؤدي إلى الحرب . ولذلك فإن من أهم أخلاقيات معاهدة السلام القضاء على جميع الأسباب المؤدية إلى حرب جديدة ، فلا يجب أن يكون في نية أحد الأطراف تلمس معاذير خفية في بنود المعاهدة من أجل إشعال حرب جديدة ، وهذه الطريقة الخبيثة في استنطاق البنود ما لا تدل روحها عليه طريقة مألوقة ، والشواهد التاريخية عليها لا تعد ولا تحصى . حتى في التاريخ الحديث والمعاصر ، وسياسة إسرائيل ناطقة بهذا التلاعب الخبيث من أجل تكييف الظروف

العالمية الراهنة لصالحها ، وتفسيرها لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ الصادر في نوفمبر ١٩٦٧ أكبر دليل على تلوين الكلمات وتغليب الألفاظ بما يتفق مع أطماعها في المنطقة .

والعنصر الآخر في رسالة كانط « نحو السلام الدائم » إنه لا يجوز لدولة أن تتدخل بالقوة في نظام الحكم القائم في دولة أخرى ، وهذا ما ينادى به السادات دائماً ، فهو - متفقاً مع كانط - لا يرى أى حق في مثل هذا التدخل ، حتى ولو كان بسبب الفضائح التي ترتكبها الدولة المتهمة بين أبنائها . فهذه الفضائح نفسها من شأنها أن تكون درساً لها يبين لها ما يجره عملها من ويلات على المواطنين . وفضلاً عن ذلك فإن هذه المخازي لن تضير الدول الأخرى ، ما دام أبناء الدولة ذات المخازي يقبلون هذه الأوضاع عن طيب خاطر . ولذلك لا يحق لدولة أن تتدخل في شئون أخرى بحجة إنقاذ الأخيرة من الانهيار ، فإذا كان الهدف أخلاقياً فالوسيلة ليست كذلك لأنها تشكل تدخلاً بالإكراه . وأخلاقيات السياسة تحتم عدم انفصال الغاية عن الوسيلة ، لقد انتهى عصر ما كيا فيللي الذي كانت الغاية فيه تبرر الوسيلة . وفي هذا يقول السادات في افتتاح الدورة الأولى لمجلس الشعب في ١١ نوفمبر ١٩٧١ :

« إن النضال الوطني لأى شعب يريد أن يواكب حركة التاريخ ، وتقوم مسيرته هو طريق بلا نهاية ، عليه أهداف ولكن هذه الأهداف متجددة متطورة باقية ما بقيت الحياة ، ويشجعنى على التفاؤل بخط مسيرتنا إيماني المطلق ، بأن الوسائل جزء من الغايات ، وإننا لا نستطيع أن نتوسل إلى أشرف الأهداف إلا بأشرف الوسائل » .

والعنصر الثالث في رسالة كانط أن القانون الدولي يجب أن ينبع من العلاقات الإنسانية بين الدول الحرة ، فالدول مثل الأفراد ، مجرد تجاوزها يضرها بسبب احتمالات الاحتكاك والصراع ، ولا بد لكل فرد ، ضمناً لسلامته ، أن يقتضى من الغير أن يدخل وإياه في نظام أخلاقي يكفل لكل منهما حقه . كذلك الدول ، يجب - ضمناً لسلامتها - أن تخلق النظام الإنساني الذي يكفل لكل منها سلامتها . ولعل الأمم المتحدة هي الشكل الخارجى لهذه الفكرة ، والتي تحاول شعوب العالم تحويلها إلى مضمون واقعى فعال . ولكن هذا النظام الإنساني الشامل لا يعنى أن تضحي الدول الصغيرة من حريتها واستقلالها ورفاهيتها من أجل استتبابه واستقراره . فالسلام الذي لا يقوم على العدل معناه الاستسلام ، والاستسلام بدوره لا بد أن يؤدي إلى المقاومة والصراع فالحرب . يقول السادات في بيانه أمام مجلس الشعب في ٤ فبراير ١٩٧١ :

« إن الالتزام الأول لكل أمة هو التزامها تجاه حريتها في إطار مبادئ القانون الدولي ولا يستطيع أحد أن يطلب إليها أو يفرض عليها التزاماً يتعارض مع هذا الالتزام المقدس ، وعلى أساسه ، فإن عليها أن تحتفظ لنفسها بحرية وحق التصرف فيما تواجهه » .

وفي بيانه في مجلس الشعب في ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ يؤكد السادات أن : « بالنسبة لأى وطن فإن أرضه هي عرضه ، وإذا تساهل فيها سهل الهوان . لماذا ؟ لأن المعركة هي أولى الأولويات في مهام المرحلة وفي سبيلها كل شيء . من أجلها العمل في الداخل ، من أجلها العمل في الخارج ، على أساسها صداقتنا مع الأصدقاء ، وعلى أساسها عداوتنا مع الأعداء . مطالبها هي الأسبق وضرورتها قبل أى ضرورات ، وليعرف الكل على أرضنا وعلى أرض أمتنا وفي العالم كله أننا في هذا لا نساوم ولا نتاجر ولا نزايد . نحن طلاب سلام قائم على العدل ، وفي نفس الوقت نحن أيضاً حماة سلام قائم على العدل . نحن نعطي الحياة كلها لبناء السلام القائم على العدل . ونحن على استعداد لأن نأخذ الموت دفاعاً عن السلام القائم على العدل » .

والحق كقيمة أخلاقية لا بد أن يجد من القوة ما يسانده وإلا أصبح فكرة مجردة لا وجود لها في صراعات عالمنا المعاصر . ولذلك يقول السادات إنه من أجل استعادة الحق فلا بد من العمل على كل المستويات ، والبذل دون

حدود ، فالقوة هي اللغة الوحيدة التي يمكن لكل البشر أن يفهموها دون لبس أو سوء فهم أو سوء نية . وقد يتفق الجميع على أن الحق حق ، وأنه لا يصح إلا الصحيح ، ومع ذلك تظل اللغة العالمية المسموعة والوحيدة متمثلة في القوة المادية ، بينما صوت الحق المجرد يخفت تدريجياً إلى درجة التلاشي وما القعقة التي سمعها العالم في السادس من أكتوبر المجيد سوى إعلان تاريخي بأن الحق إذا ما لبس أردية القوة المادية فلن تقف في سبيله أية عوائق أو عقبات . والحسابات العملية والعلمية التي تهدف إلى استعادة الحق لا بد أن يكون شرطها الأول كيفية استخدام القوة المادية في الزمان والمكان المناسبين . وكيفية الوصول بهذا الاستخدام إلى أعلى درجات الكفاءة والقدرة الفعالة . أما المطالبة بالحق عن طريق الخطب الرنانة ، والكلمات الطنانة ، والحناجر المدوية ، والهاثقات المتشنجة ، والمناورات السياسية ، فكل هذا مضاد بطبيعته لمنطق الاستعادة العملية للحق المسلوب ، وأقل ما يمكن أن يقال إنه تنفيس عن الشحنات العاطفية المكبوتة حتى تضيق الدفعة النفسية للأمة إذا ما حانت ساعة العمل المصيري . وبالتالي فإن هذا الأسلوب الصوري التقليدي أسلوب لا يلتزم بالضرورة الأخلاقية ، بل إنه منافٍ لها تماماً . من هنا كان تأكيد السادات في خطابه في افتتاح دورة المجلس الوطني الفلسطيني في ٢٨ فبراير ١٩٧١ على التفريق بين إطلاق الشعار وبين تحقيق الشعار . يقول :

« إن النضال بالكلمات سهل وهو مهما إدعى في شكله عداء للثورة في جوهره . وهذا الشعب المصري لم يعرف في تاريخه هذا النضال بالكلمات ولا مارسه في يوم من الأيام والدليل على ذلك ما قدمه هذا الشعب من عطاء حقيقي للمعركة وما سوف يقدمه من عطاء حقيقي للمعركة .

وأريد أن يكون واضحاً لكم وللכל في أمتنا أننا لسنا على استعداد اليوم أو غداً لأن نلقى بالاً لأي ممن يرغب في أن يدلى علينا بنتيجة معركة خضناها وكانت نهايتها عكس ما توقعنا . إن المناضلين الشرفاء يحاسبون بتحملهم لمسئولياتهم وبما قدموا من توضيحات لهذه المسئوليات وأما غير ذلك فله حسابات أخرى .

كذلك فإننا نقول بوضوح لكم وللכל إن جبهتنا المصرية هي الجبهة الصامدة الواقفة بكل إمكانياتها للعدو لم تناور سياسياً بما تفعل ولم تتحلل من التزاماتها في الساحة ولم تغط العمل القليل بالكلام الطويل أو ضحالة الالتزام بطوفان من النصائح نسديها للذين يقاتلون كي تعني نفسها من عناء القتال » .

فالمقياس الأخلاقي في الكفاح هو العمل الفعال لأنه الشيء الوحيد الملموس الذي يمكن الحكم عليه . ويعد الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز من أبرز المفكرين المناادين بهذا المبدأ ، إذ يقرر أن القوة - إن لم تكن جوهر الحق - هي على الأقل مقياسه ، وكذلك يقول المفكر الفرنسي شارل موراس إن الأخلاق هي أسمى ما في الطبيعة ، وهذه الأخلاق الطبيعية تدعو إلى الفضيلة الوحيدة التي هي القوة . ويؤكد لويس دينيه فكرة موراس بقوله إنه لاحق إلا لمن يفوز ، لأنه لا يفوز إلا من يستحق الفوز وكذلك يقول العالم الألماني ماكس استرنير في كتابه « موقف الإنسان بمفرده تجاه الملكية » ص ٤٧ :

« إن لي الحق في القيام بعمل أي شيء أجد نفسي قادراً على القيام به ، ونفس الوضع بالنسبة للنمر الذي ينقض على فريسته ، فإن له الحق كل الحق في هذا الانقضاض ، وعندما أقوم أنا بقتل النمر فلأنتي أملك نفس الحق التابع من القوة المجردة ، إذ أن من لديه القوة لديه الحق ، وإذا لم يملك الأولى ، فلا يمكن أن يملك الثاني . وقد يفزع هذا الكلام الأخلاقيين المثاليين ، ولكنهم يعلمون جيداً أن الحياة ما زالت تخضع لقانون الغابة ، ومن ينكر هذا فإنه يدفن رأسه في الرمال كالنعامة ويعيش في جنة مثالية من صنع خياله فقط ، ولكنه لن يحصل على حقه أبداً ، فمن أراد أن ينتزع حقه ، فعليه التسلح بكل عناصر القوة الممكنة ، وإلا تحتم عليه أن يلزم عقر داره

مثل العجائز والمرضى ، ومن يدري فربما انتزعت منه داره أيضاً وأصبح شريداً ، ساعتها لن تكون المعايير الخلقية سوى أضغاث أحلام لن تمكنه من العودة إلى داره ، لأن المغتصب لا يفهم سوى لغة القوة ، وعلى صاحب الدار الأصلي أن يتحدث معه بنفس اللغة إذا صمم على استرداد داره .

فالقوة حتمية لا مفر منها لمساندة المعايير الأخلاقية ، ولكن لا يعنى هذا أن القوة المادية العمياء يمكن أن تتحول إلى حق في حد ذاتها ، وإلا لما كان هناك فارق بين الحيوان والإنسان . فالقوة المادية لكى ترتفع إلى مستوى الأهداف الإنسانية السامية لا بد أن تتسلح بالحق ، وأن تستعمل داخل إطار أخلاقى لا تخرج عنه ، وخاصة أن القوة غير الأخلاقية من طبيعتها أن تدمر كل شيء في طريقها ، فإذا لم تجد ما تدمره فإنها تدمر صاحبها في نهاية الأمر . هذا هو القانون الذى يحكم كل الطاقات المدمرة عندما لا تجد ما تدمره . والتاريخ زاخر بأمثال عديدة من هذا القبيل ، ويكفى أن نذكر هتلر على سبيل المثال . وفى ذلك يقول جان جاك روسو إن أقوى الأقوياء ليس لديه من القوة المقدار الكافى لجعله السيد الدائم ما لم يحول قوته إلى حق ، وتتحول طاعة هؤلاء الذين تحت إمرته إلى واجب يرغبون فى القيام به تجاهه من تلقاء أنفسهم . ويؤكد روسو أن القوة يجب أن تلزم حدود الوسيلة ، أما الحق فهو غاية كل نشاط إنسانى فى كل زمان ومكان ، ولذلك يقول :

« إذا افترضنا أن القوة هى التى تخلق الحق ، فالنتيجة تتبع تغيراً أو تحولا بالضرورة ، لأن كل قوة تفوق سابقتها فى حقها ، وعلى ذلك فإذا كان الإنسان فى مقدرته أن يعصى دون أن يلحق عقابه ، فعنى هذا أن عصيانه كان مشروعاً أساساً - وبالتالى هل من الممكن تحديد مفهوم ثابت لذلك الحق الذى يزول من الوجود تماماً بمجرد زوال القوة التى تسانده ؟ أليس ذلك هو الفوضى بكل ما تحمله من معان ؟ »

وبناء على كلام جان جاك روسو فإن تحديد مفهوم ثابت للحق يجب أن يحتفظ له بصفاته المطلقة ، وخصائصه المجردة ، وميزاته الذاتية ، وملامحه المثالية ، وإلا فإن المفهوم المغاير لذلك لا بد أن يقضى على الحق كحق فى حد ذاته ، وعلى جوهره كمجموعة من القيم المثالية والمعايير الأخلاقية قد اعترفت بها الحضارة الإنسانية على مر عصورها المختلفة ، بل وقدستها التقديس اللائق بالمثاليات التى يجب ألا تمس من قريب أو بعيد ، وأن كل حق خاص يمثل قيمة من تلك القيم التى تشكل النسيج الأخلاقى المغلف للضمير الإنسانى . وبمعنى آخر فإن الحق - على حد تعبير ليتير - يمثل سلطة خلقية تحمل صفة الجبر والإلزام إذا ما تسلحت بالقوة . ولذلك فالطبيعة المجردة للحق هى فكرة أسمى من الطبيعة المادية للقوة . فالحق قيمة موضوعية فى حد ذاتها بينما القوة طاقة ذاتية لتحقيق أهداف مغايرة . والميزة المثالية التى يتألف منها الحق تترجع على عرش الضمير العام للإنسانية . ويعنى هذا أن الحق هو النتيجة الطبيعية للحكم الصادر من الضمير العام على قيم الأشياء . وعلى هذا فإن قيمة الشخصية الإنسانية مثلاً لا تنبع فقط من المقومات والقدرات الذاتية للفرد ، ولكنها أضيفت إليه عن طريق الضمير العام للجماعة . وفى هذا يقول رويسين إنه لكى يكون للإنسان مفهوم محدد لفكرة الحق ، يجب ألا يحلق بين جنابات القبة السماوية الصافية مدفوعاً بمثاليات الحب النقي وحده ، وألا يهبط إلى أعماق طبقات الجحيم تحت تأثير القوة البربرية التى لا تفرق بين إنسان وحيوان ووحش .

والدليل على العلاقة العضوية بين الحق والقوة ، أن القوة حينما تنبثق عن السلطة التشريعية فى الدولة تتحول إلى مصدر من مصادر الحق الإنسانى ، ولكن هذه الدولة لا تشرع القوانين من حيث إنها مصدر السلطة والقوة ، بل لأن قوتها قد حصلت على ما يكفئها من الرضى الاجتماعى عن ذلك التشريع . والسادات يؤمن أنه إذا لم يكن فى الإمكان فصل الوسائل عن الغايات ، فإنه بالتالى يتعذر فصل القوة عن الحق ، فهما الجناحان اللذان تطير بهما

أية أمة إلى آفاق التقدم والحضارة والحياة على مستوى العصر. ولذلك فقبل أن يلجأ إلى القوة أوضح للعالم كله مراراً حقنا الذي لا جدال فيه ، حتى يدرك العالم - حينما تحين الساعة المصيرية - أن استعمالنا للقوة هو مجرد إحقاق للحق ، ووضع الأمور كما يجب أن تكون في نصابها الأخلاقي . يقول السادات في خطابه إلى مجلس الشعب في ١٥ أكتوبر ١٩٧٢ :

« حين نصل أيها الإخوة والأخوات إلى هذه النقطة في نضالنا فإننا نصل إليها واثقين أن أمتنا كلها وهي في نفس موقفنا تماماً من الخطر تدرك تماماً أننا على حق ، كما أن العالم كله وراء أمتنا العربية يدرك هو الآخر أننا على حق . ذلك أننا لم نترك محاولة إلا وجربناها ، ولا باباً إلا وطرقناه ، ولا اقتراحاً إلا وأصغينا إليه كأحسن ما يكون الإصغاء ، راغبين بصدق في السلام ، غير مشترطين للسلام إلا ضماناً واحدة لا يمكن غيرها أن يكون سلام : وهي ضمانة العدل . وفي ذلك كله فلقد كنا أكثر ما نكون استجابة ومرونة لكل المتغيرات في عالمنا .

ويشهد الله أننا بذلنا ما هو فوق طاقة البشر وتحملنا عبثاً تنوء بحمله الجبال ، ولكن أحداً في هذه الدنيا لا يستطيع مهما بلغت قوته ومهما وصل جبروته وطغيانه ، والذي أقصده هنا هو الولايات المتحدة الأمريكية وليست إسرائيل . . أقول إن أحداً مهما بلغت قوته وجبروته وطغيانه : إن الولايات المتحدة الأمريكية مهما بلغت قوتها وجبروتها وطغيانها ، لن تستطيع أن تفرض على شعبنا خرافة سلام الأمر الواقع . إن سلام الأمر الواقع في حقيقته استسلام ، ولن تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً بكل جبروتها وسلاحها أن تحاصر شعبنا وأمتنا باليأس ، لأننا ندرك أن اليأس في مثل هذا الصراع الذي نخوضه اليوم هو الفناء سواء بسواء . ذلك لن يحدث ولن نرغمنا عليه أية قوة على هذه الأرض ، حتى وإن ملكت آلاف الصواريخ المحملة بالرؤوس النووية وحتى إذا استطاعت أن تمشي فوق تراب القمر .

إن القوة لا تستطيع أن تقهر المبادئ مهما طال الزمن ، ثم إن العلم لا يمكن أن يتحول في يد المتقدمين إلى سلاح إرهابي ، لأن ذلك ضد القيمة الإنسانية للعلم . . وعلى سبيل المثال إن القوة الأمريكية أمامنا في الدنيا كلها عاجزة ، تستطيع أن تفعل ما شاءت لها غرائزها وتستطيع أن تشعل الأرض حريقاً ودماراً لكنها لا تستطيع أن تصل من ذلك كله إلى نتيجة إيجابية واحدة . إن القتال سهل ، والحريق والدمار متاح ، ولكن ما هي النتيجة الإيجابية التي وصلت إليها أمريكا في فيتنام ؟ هل استسلم شعب فيتنام ؟ أبداً . . ما هي النتيجة الإيجابية التي وصلت إليها في الشرق الأوسط ؟ هل قبلت شعوب الأمة العربية بالأمر الواقع ؟ أبداً ولن تقبل به ، وسوف تظل ترفضه ، وسوف يجيء يوم ليس ببعيد تعرف الولايات المتحدة أنها دخلت في تناقض عدائي مع أمة عظمى في سبيل حماقة أسطورية أفرزتها الدعاوى العنصرية المريضة . »

ومشكلة القوة المادية - كما يؤكد السادات في نفس الخطاب - أنها لا تدمر فقط من يقع عليه الاعتداء ، وإنما تدمر أيضاً من يقوم بالاعتداء وربما دمرت الأخير أكثر من الناحية المادية والروحية على حد سواء لأنه لا يرى ضرورة أخلاقية تدفعه إلى القيام بمثل هذا الاعتداء الوحشي ، أما من يقع عليه الاعتداء فإنه ينهض للدفاع عن إنسانيته ، ولا توجد ضرورة أخلاقية أسمى من القيام بمثل هذه المهمة ، ولذلك فهو يملك من الشحنات الروحية والمعايير الأخلاقية ما يجعله متفوقاً على خصمه الذي لا يملك سوى القوة المادية الخالية من كل محتوى روحي أو إنساني أو أخلاقي . وبذلك تكون القوة المادية سلاحاً ذا حدين ، والضرورة الأخلاقية هي الضمان الوحيد لاستعماله في إطاره الإنساني الصحيح . وهذا ما ينادى به معظم مفكرى العالم اليوم وعلى رأسهم المفكرون الأمريكيون . ولذلك يتساءل السادات في نفس الخطاب عن المدى الذي بلغته القوة المادية الجبارة في أمريكا في سبيل إسعاد المواطن الأمريكي :

« هل أصبح المجتمع الأمريكى أكثر سعادة ؟ وهل انتهت مخاوف الفرد وهواجسه ؟ وهل وصل المجتمع هناك إلى اللجنة الموعودة ؟ ما زال المجتمع هناك مجتمع عنف تمزقه التناقضات الحادة وتضيق منه يوماً بعد يوم هذه القيم الحضارية التى كان الظن يوماً من الأيام أنها انتقلت إليه فى دورة طبيعية من دورات التطور التاريخى . إن الحلم الأمريكى بضيق لأن العلم بغير روح لا يصبح طاقة بناءة وإنما يصبح قوة تدمير للنفس قبل أن يكون قوة تدمير للغير . إن العلم الأمريكى فى فيتنام مثلاً دمر بغير حساب ، ولكن ذلك التدمير فى فيتنام بغير حساب ، دمر أيضاً فى روح الشعب الأمريكى بغير حد ولا حساب . »

ولكن لأن منطق عالمنا المعاصر هو منطق القوة ، ولأنه يتحتم علينا أن نتعامل بلغة العصر ومنطقه حيث إننا بمفردنا فى فراغ ، فقد وجب أن تساند القوة بكل أنواعها كل المبادئ التى تؤمن بها ، وكل القرارات التى تصدر عنا بحيث لا تظل حبراً على ورق . ولذلك يؤكد السادات فى بيانه إلى الأمة فى ١٦ سبتمبر ١٩٧١ أن :

« القرارات دى لن تنفذ إلا إذا كلنا اشتركنا فى تنفيذها . . . مش بس اشتركنا فى تنفيذها ، وحرسنا تنفيذها ، بقينا الحراس إنها ما تنحرفش ، زى الدستور بالضبط لازم نحميه ونحرسه واحنا بنطبقه ، ما حدش يفسره أو يقوله أبداً . . . بأرجع أقول قوة كل فرد فينا بتشكل فى النهاية قوة الوطن ، واحنا فى معركة ، صراع بين الحق والباطل ، حتفضل المعركة ، وطالما فيه حياة دنيا حيتبقى فيه صراع بين الحق والباطل . . . الباطل اليومين دول واخذ شراسة ، ولجأ للكذب والخداع والتضليل . . . والله تعالوا بينا نحلى للحق شراسة ، بس مش حنكذب ولا نخدع ولا نضل . . . حيكون حق شرس لكن لن نكذب ولن نخدع ولن نضل زى الباطل اللى قدامنا . »

تلك هى الضرورة الأخلاقية التى يلتزم بها السادات فى منهجه الفكرى ، فهو وإن كان يدافع عن قضية حق ومصير ، فلن يستعمل غير القوة الشريفة النابعة من الضمير المصرى الضارب جذوره فى الحضارة الإنسانية ولأن الوسيلة لا تنفصل عن الغاية ، فلم ولن نلجأ فى سياستنا إلى الكذب والخداع والتضليل ، أو نعتمد على المساومة والمناورة والتحايل . فإذا كانت هذه هى أخلاقيات السوق التجارية بما تحمله من انتهازية ونفعية وكسب مؤقت ، فإنها لا يمكن أن تكون الإطار الأخلاقى الذى تتحرك داخله قضية مصيرية يتوقف عليها مستقبل شعب بأكمله ولعدة أجيال بل وقرون قادمة . ولقد رفض السادات هذه الأخلاقيات حتى أثناء اشتغاله فى السوق التجارية ، وكان رفضه باتاً قاطعاً كما نجد فى مقالته على صفحات « الجمهورية » فى ١١ يوليو ١٩٥٤ .

« كان من سوء طالعى أن اشتغلت فى فترة من فترات حياتى فى السوق ، وكنت وقتذاك أجرى وراء لقمة العيش لى وللعبال . . »

وحين أعود بذاكرتى اليوم إلى تلك الأيام وإلى من تعاملت معهم أذهل وأعجب لهذا الموكب العجيب الذى عشت فيه سنوات تعلمت فيها أن أكره السوق ومعاملات السوق وتقاليدها هذا السوق . . .

إنتى لا أنكر أنتى صادفت أناساً أطهاراً شرفاء لا زالت تربطنى بهم صداقات ومودات . . . ولكننى إلى جانب هؤلاء بلوت كثيراً من ذلك الطراز الذى لا يعرف فى معاملاته إلا المساومة وإلا اللف والدوران . . .

يكون حقل ظاهراً ومشبوطاً ومكتوباً ولكنك تصدم حين يجابهك ذلك الطراز المقنوع من رجال السوق بالتجاهل والإنكار والأعجب من ذلك أن هذا الطراز يؤمن فى قرارة نفسه بحقل . ويعلم تماماً ما يجب أن يؤديه ، ولكن عوامل الشره والأنانية تصور له أنه يستطيع أن يكسب منك بطول المحاوره وبكثرة المداورة ما يرضى جشعه ، ويروى أنانيته .

وكنتم أفكر وأنا أتعامل مع هذا الطراز . . . لا لأقنعه بوجهة حتى وسلامة موقفى وشرف مقصدى ، وإنما كنت

أفكر كيف أستطيع أن أنبه مثل هذا المخلوق إلى أن مسلكه في الحياة يجرده من الإنسانية ، ويجرده من الشرف ، فقد يستطيع أن يكسب بالمحاورة والمداورة دريهمات ، ولكنه سيخسر في النهاية شرفه وضميره ، وستكون أنايته وجشعه خير دليل لكي ينبذه الناس فلن يقبل أحد أن يتعامل معه ولن يقبل أحد أن يصادقه لأنه انحط بغرائزه إلى أسفل سافلين . .

ولم أجد إلا حلاً واحداً للتعامل مع مثل هؤلاء المخادعين هو الصمود والصمود في قوة وراء الحق مهما كان الثمن . .

وتركت السوق إلى السياسة . . وفي السياسة صادفت هذين النوعين ، لا في الأشخاص ولكن في الدول . .

ألا قاتل الله أنايته السوق وأنايته الدول التي لا تعرف من الشرف إلا مناورات السوق .

ونفس الخط الفكري نجده في سلوك السادات بعد إنهاء مهمة الخبراء السوفييت في مصر في ٨ يوليو ١٩٧٢ . يقول الزعيم في خطابه في افتتاح الدورة الجديدة للمؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي في ٢٣ يوليو ١٩٧٢ : « لما بدأ تنفيذ القرارات ، حرصاً منا على مشاعر صديقنا ، لما صدرت القرارات لقيت دولة أوربية بعثت رسالة « سرى جداً ومهم » ومختومة ، جابه لي أنا شخصياً ، بقرأ الرسالة يقولوا لي : إحنا مستعدين نتوسط بينك وبين أمريكا وإسرائيل ، هما فاهمين أنني غيرت جلدي بعد القرارات ، ما بنغيرش جلدنا ، إحنا لنا مبادئ . . هذه المبادئ هي التي بتحكمنا مع الولايات المتحدة . . مع الاتحاد السوفيتي . . مع العالم كله . وأنا سبق قلت قبل كده : والله ذهب الولايات المتحدة كله ما يشتري مبادئنا ولا مثلنا أبداً . . إطلاقاً . . »

والمبادئ التي تحكمنا هي التي تحتم علينا الإصرار على التأسيس الفكري ، كل قرار يجب أن يكون نابعاً من إرادتنا ومصالحتنا وواقعنا ، وأية مساومة لا تعني سوى التفريط في هذه المبادئ ، وبالتالي فهو تفريط في كل مقدسات الوطن من عزم ومستقبل وتقدم . ولكن لا تعني المبادئ الجمود والتصلب والسلبية ، بل تهدف إلى المرونة والاستيعاب والتطوير وتحويل الظروف الراهنة من ظروف معادية إلى ملائمة . وهذا هو الفارق الشاسع بين المساومة والملاءمة . وفي هذا المعنى يتكلم القائد في ختام الدورة الأولى للمؤتمر القومي الثاني للاتحاد الاشتراكي العربي في ٢٦ يوليو ١٩٧١ فيقول : « لكن الأزمة يجب بأي سبيل أن تخرج من هذه الحالة حالة السكون التي يحاول الأعداء تجميمها . . إنني في هذه الفترة سوف أتحمل مسؤوليتي ، والأمانة التي عهد بها الشعب إلى ، وذلك في حدود استراتيجيتنا المعروفة التي تحددها مبادئنا الشريفة والمقدسة ، وأساسها ، ألا تفريط في شبر من الأرض العربية ، ولا مساومة على حقوق شعب فلسطين . »

وهذه المبادئ الشريفة المقدسة ليست مجرد نصوص جامدة ، ولكنها أضواء هادية على الطريق نحو التعمير والتحرير . فعلى الرغم من أن هذه المبادئ تتمشى تماماً مع نصوص القانون الدولي ، إلا أن مجتمع الدول ليس مستعداً بهذه البساطة لتطبيقها . هنا يأتي الدور الذي يجب أن تلعبه الملاءمة في تكييف الجو العالمي لصالح قضيتنا ، فهذا يسهل مهمة تطبيق مبادئنا إلى حد كبير فيما بعد . وهذا المنهج واضح في خطاب القائد في افتتاح الدورة الأولى لمجلس الشعب في ١١ نوفمبر ١٩٧١ حين قال :

« لقد كانت معنا نصوص القانون الدولي ، ولكن تهيئة الجو لإعمال نصوص القانون كانت وسوف تظل مسألة حاسمة ، لأننا في مجتمع الدول لا نفتض حقنا أمام محكمة تعمل النصوص وحسب ، ولكننا لا نستطيع اقتضاء حقنا حتى وفقاً للقانون ، إلا في جو سياسي ملائم تستطيع فيه أوسع قطاعات الرأي العام وأهم القوى المؤثرة فيه ، أن تتفهم حقائق الصراع ودخائله . »

وإذا كان الحق في حاجة إلى القوة لكي يخرج إلى حيز الوجود ، فهو في حاجة أيضاً إلى المنهج العلمي الذي يوظف هذه القوة ويمنحها أكبر قدر من الطاقة والقدرة والكفاءة ، فالضرورة الأخلاقية تتحول إلى طاقة جبارة إذا ما استخدمت القوة المادية طبقاً للمنهج العلمي الملائم ، ومن هنا كانت حتمية المرونة في تطبيق هذه المبادئ كما يقول الزعيم في نفس الخطاب .

« كان علينا أن نحاول لأننا ونحن نواجه صراع الحياة والموت ، لا نستطيع إغفال فرصة مهما بدت ضيقة ، ولا نستطيع الإحجام عن ميدان حتى وإن بدأ أمامنا مسدوداً بالعوائق والعقبات ، هكذا فإننا أتحنا الفرصة ، واعين ومدركين لدور تقوم به أمريكا ، دعوناها أمام العالم لتحمل مسئوليتها إزاء السلام العالمي » .

وهذا يعني أن تطبيق مبادئنا الشريفة المقدسة لا يقل أهمية عن جوهر هذه المبادئ ، لأن تنفيذ الفكرة وإخراجها إلى حيز الوجود لا يمكن أن يتنافى مع روحها ، وإلا تحولت إلى فكرة أخرى مختلفة تماماً وقد تكون مناقضة للفكرة الأصلية في صميمها . والضرورة الأخلاقية التي لا تفرق بين الغايات والوسائل تؤكد أن التصميم والتنفيذ هما وجهان لعملة واحدة ولذلك يوضح السادات في كتابه « يا ولدي هذا عمك جمال » الذي نشر عام ١٩٥٨ أنه لا خير في استقلال تحصل عليه مصر عن طريق المساومة ، لأن المساومة تحمل في طياتها شتى أنواع التنازلات المباشرة وغير المباشرة . تلك هي طبيعة المساومة وإلا لما وجدت أصلاً . ولذلك فقد رفض السادات مساومات بريطانيا على الجلاء من مصر عام ١٩٥٤ وحللها في كتابه هذا ص ١٢٤ فقال :

« بريطانيا تؤمن بالمساومة كخلق وكمبدأ ، ونحن نرفض المساومة ونعتبرها خلقاً رديئاً لا يستقيم مع الشرف ولا مع المبادئ .

وأمر آخر .

إن بريطانيا حين تساوم في قضية كقضية الجلاء فإنها تساوم على شيء لا يخصها ولا تملكه ، وهي مصر ، ولكن مصر حين تقبل مبدأ المساومة فإنها تكون قد أسلمت في كل شيء ، لأن أية مساومة . . مهما كانت ضئيلة تعني أن تعطى مصر ، وإذا أعطت مصر تكون قد جزأت سيادتها ، ولما كانت السيادة لا تتجزأ . . فإن النتيجة هي أن مصر تكون قد سلمت في أعز شيء وهو السيادة في الوقت الذي لم يفقد فيه الطرف الآخر شيئاً على الإطلاق لأنه - فضلاً عن تمسكه بسيادته - يفرض على بلدنا أيضاً هذه السيادة » .

وكان داء المساومة قد استشرى في مصر قبل الثورة بتشجيع من بريطانيا حتى تختل المعايير الأخلاقية ، ولا تعد هناك ضوابط توضح للناس الفوارق بين الخطأ والصواب . وكانت ظاهرة تعدد الأحزاب تجسيدا عملياً لسوق المساومات السياسية . كل حزب يسعى للحصول على الحكم حتى يحصل بالتالي على أكبر المغانم الاقتصادية والامتيازات الطبقية الممكنة ، وفي مقابل ذلك ، استعداده التام لتقديم أكبر عدد من التنازلات الممكنة لسلطات الاحتلال حتى يضمن استمراره في الحكم ، وبالتالي حصوله على مكاسب ومصالح أعضائه ومؤيديه والسائرين في فلكه . ويستمر الحال على هذا المنوال حتى يبرز في الأفق حزب آخر على استعداد لتقديم المزيد من التنازلات . وقد أدت روح المساومة التجارية إلى اندثار المبادئ الوطنية ، والمعايير الأخلاقية ، والقيم الإنسانية ، والمثل العليا تحت ركام المصالح الضيقة ، والمكاسب الشخصية ، والتطلعات الطبقية . وبذلك اختلط الحابل بالنابل ودخل المصريون في دوامة رهيبية مركزها الخوف والطمع والجشع والتحاييل والأنانية واللف والدوران والرشوة والمحسوبية والفساد . كل هذا بسبب تقاليد المساومة التي بثتها بريطانيا في جسد مصر فسرت كالكسب الزعاف عن طريق صراعات الأحزاب التي اهتمت بكل شيء ما عدا الصالح العام للأمة . ومن هنا كانت ضرورة إلغاء الأحزاب للقضاء على سوق المساومات

السياسية التي لا تعرف طريقاً إلى الأخلاق ، إذ أنها تتنافى مع طبيعتها . وفي هذا المعنى يقول السادات على صفحات « الجمهورية » في ١٠ أبريل ١٩٥٤ :

« لقد ضربت الأحزاب بوزرائها ، ونوابها وشيوخها أسوأ مثل لما يمكن أن يكون عليه طبقة من الحكام في شعب أعزل خدعوه باسم الديمقراطية . . وخدعوه باسم البرلمان والحياة النيابية وخدعوه باسم الحريات الزائفة ليسلبوه قوته ومعاشه ورزقه وآماله وأخلاقه . .

وعند الأخلاق ساقف كثيراً لأسأل : من منا لم يكن يشكو من الفساد ؟ من منا استطاع أن ينجز عملاً أو يقضي مصلحة مشروعة من غير أن يلجأ إلى الرشوة ؟ من منا حاول أن يصل إلى الحكام ليشتكو لهم مظلمة أو ليرفع إليهم أمراً ووصل إلى بغيته ؟ ألم تكن فئة السكرتاريين ومديري المكاتب والأصهار والأصدقاء هم الآلهة من دون الله . . ! لقد أفسدت الأحزاب أخلاق هذا الشعب . . وكان هذا في حد ذاته . وهو ما لا يمكن أن يختلف عليه اثنان في هذا البلد ، كان هذا في حد ذاته كفيلاً بأن يجبرنا على سوء الظن بهذه الأحزاب . . ولكن الثورة رغم ذلك وكل ذلك أحسنت الظن . .

وكان هذا في نظري أكبر الخطأ . . راحت الثورة تطلب إليهم أن يطهروا أنفسهم فما استجابوا . . وبعد هذه المقالة بعشرين عاماً بالضبط ، يقول السادات في « ورقة أكتوبر » .

« لقد ارتضى الشعب نظام تحالف قوى الشعب العامل إطاراً لحياته السياسية وإننا في معركة البناء والتقدم لأحوج ما نكون لهذا التجمع . . ومن ثم فإنني أرفض الدعوة إلى تفتيت الوحدة الوطنية بشكل مصطنع عن طريق تكوين الأحزاب . ولكنني أيضاً لا أقبل نظرية الحزب الواحد الذي يفرض وصايته على الجماهير ويصادر حرية الرأي ويحرم الشعب عملياً من ممارسة حريته السياسية ولهذا فإنني حريص على أن يكون التحالف إطاراً صحيحاً للوحدة الوطنية تعبر عن داخله كل قوى التحالف عن مصالحها المشروعة وعن آرائها بحيث تتضح الاتجاهات التي تحظى بتأييد الأغلبية والتي يجب أن تتبناها الدولة . إن التنظيم السياسي يجب أن يكون بؤرة للحوار تنصهر فيها الأفكار المتعارضة وتتبلور الاتجاهات التي تعبر بحق عما تريده القاعدة الشعبية العريضة . إن حرب أكتوبر وما ظهر فيها من بطولات وما تأكد خلالها من معان وما برز أثناءها من قيادات شابة يجب أن تعكس روحها على بنيان التنظيم السياسي وحركته .

وبعد . . فإن الحق لا يبنى شيئاً . . ولا يجد مكاناً في صفوف شعبنا الطيب ونحن لا نريد أن نحارب معارك فات أوانها ، وما زالت أمامنا أخطر المعارك كلها : معركة المستقبل . معركة البناء والتقدم .

هنا يبرز الاتساق الفكري في فلسفة السادات الأخلاقية ، فهي فلسفة لا تتغير بتغير الظروف وخاصة أن من صفات الضرورة الأخلاقية أنها مطلقة . ولذلك فإن ما نادى به في صدر شبابه ، وبداية كفاحه هو ما ينادى به الآن ، وهو ما أثبتته معارك أكتوبر العظيم ، وهو أيضاً ما لخصه في خطابه في ٢٣ يوليو ١٩٧١ بقوله : « إنا بنى بالحب ، المتآمرين بيخدوا جزاءهم أمام القضاء وسيادة القانون » . فلا طريق يؤدي إلى البناء والتعمير سوى الحب ، بينما الحقد نتيجته الهدم والتدمير . تلك هي الضرورة الأخلاقية الرئيسية التي ييئها السادات في وجدان الشعب المصري وضميره : الحب والوفاء والصداقة والتعاون والود والتراحم والإخلاص فلا يمكن للتقدم أن يكتب لأمة ينهض بنيانها على الصراع والحقد والكراهية . ولذلك تمثل الصداقة قيمة إنسانية كبيرة بالنسبة للضرورة الأخلاقية في فكر السادات وفلسفته . يقول على صفحات مجلة « التحرير » في ٦ سبتمبر ١٩٥٥ :

« إن الصداقة هي أشهى ثمرة من ثمار هذه الحياة . . لا أدري في أي كتاب قرأت هذه العبارة ، وإنما الذي

أذكره هو أننى قرأت هذه العبارة فى ظروف كانت تمتحن فيها نفسى امتحاناً عسيراً فى هذه الحياة ، خرجت منه - فعلاً - براحة نفسية كاملة ، وإيمان عميق بعدم وجود شىء فى الحياة يعدل الصداقة . .

وحين أقول الصداقة ، فإننى أعنى تلك المعانى السامية التى تربط بين القلوب ، ويتبنى فيها - أساساً - الغرض ، لذلك كنت أغضب من كل نفسى حينما أستمع كما يستمع الناس إلى قصص هذه الحياة التى تحدثنا عن العبث بالصداقة أو الاستهانة بها بين صديقين ، تماماً كما أغضب حينما يعبث بهذه الصداقة فى المحيط الدولى وبين دولتين . وهذه الضرورة الأخلاقية تلعب دور النعمة الرئيسية فى كثير من كتابات السادات ، مثل اللحن الأساسى فى السيمفونية ، وهذا ليس تشبيهاً ولكنه حقيقة واقعة لأن فكر السادات كله عبارة عن سيمفونية بما يحمله من اتساق وانسجام وتناغم وتوافق وتلاحم بين أدق جزئياته ، لدرجة أنه من المستحيل أن تخرج أذنك نعمة من باب النشاز ، حتى ولو كان هذا النشاز مختلفاً بين التنويعات الفرعية . وهذا يدل على وحدة نظرة السادات إلى الكون . وهنا تتبنى الضغوط الزمانية والمكانية وتحل محلها النظرية المتكاملة التى لا تعرف إلى التناقض طريقاً . ولذلك نجده يعزف نفس اللحن - ولكن بتنويعة صوفية جديدة - على صفحات « الجمهورية » فى ٣ مارس ١٩٥٤ :

« تعودت دائماً أن أختزن الألم فى نفسى حين أعانيه . . ولقد مرت بى صنوف كثيرة من هذا الألم . تأملت فى السجن لأن من حبسونى اتهمونى بأننى أتاامر على عميل من عملاء بريطانيا عدو بلادى اللدود ، فعانيت وتحملت . . . واتهمتنى رئاسة الجيش أيام فاروق أننى خنت عهد ملك بريطانيا حليف فاروق - وقتذاك - فطردت من الجيش واعتقلت ، ومرة أخرى عانيت واحتملت . . .

ولكن شيئاً واحداً عانيت ولم أستطع أن أتحملة . . ولم أستطع أن أختزنه فى نفسى ، فقد كنت أشعر أنه إذا ما استقر فيها لا بد أن يطمس جمالها ، وأن يعكر صفاءها ، وأن يزلزل فيها الهدوء واليقين . ذلك الشىء يا أخى هو خيانة الصديق . . أو الزميل . . .

ولقد فتحت لى الآلام التى اختزنتها من داخل نفسى باباً مشرقاً رائعاً هو التأمل . . تأملت فى هذا الخلق . . يحبون ويكرهون . . يفرحون ويألمون . . ويؤمنون وينكرون . .

واليوم ، وأنا أتذكر كل هذا أحس فى نفسى نشوة رائعة حبيبة . . نشوة أجمل من الحب . . . وأعظم من الفرح . . نشوة لا تعرف الكراهية . . ولا تأبه للألم . . لعلها بدء المعرفة . . .

والصداقة - كضرورة أخلاقية - لا تعنى فقدان المعايير الموضوعية والحكم على كل ما يفعله الصديق بأنه صواب . بل إن الصداقة الحققة تحتم الصديق الموضوعى مع الصديق قبل أى اعتبار آخر ، ولو أثارت هذه الموضوعية غضب الصديق لما استحق هذه الصداقة أصلاً ، فالصداقة لا تعنى الزيف والبهتان والخداع والتضليل والتحايل ، بل تعنى مواجهة الحقائق مهما كانت مرة ، ثم إصلاحها فى صدق وإخلاص . ولقد بذل السادات كل ما فى وسعه لإرساء تقاليد هذه الضرورة الأخلاقية عندما تصدى لإنشاء دار « الجمهورية » للصحافة فى أواخر عام ١٩٥٣ . فقد كتب فى جريدة « الجمهورية » فى ٧ ديسمبر ١٩٥٤ مقالة طويلة بمناسبة مرور عام على تأسيس « الجمهورية » ، وكان عنوان المقالة « الصداقة شىء . . والعمل شىء آخر » وفيها يحكى عن صراعه فى الدوامه الرهيبة لمعركة صحافة الثورة مع القيم البالية والرواسب المتعفنة التى رسخت منذ صحافة العهود السابقة التى كانت توجر للحزب الذى يدفع أكثر . يقص علينا السادات تفاصيل الصراع فيقول :

« جاءت عملية ترشيح المحررين . . وكانت مأساة ! ! فكلما رشح لى البعض أسماء معينة ، أبدأ فى السؤال عن أصحابها ، فأسمع بعد السؤال طعناً شديداً فى أصحاب هذه الأسماء . . كان يرشح مثلاً خمسة . . فأسمع طعناً فى

أربعة ، وفي اليوم التالي أسمع طعناً في ثلاثة . . ثم في اثنين . .

وعرفت حقيقة مخزية ، عرفت أن كل إنسان منهم يكره الآخر ، وإن لم يكن يعرفه ! ! المسألة كانت محنة أخلاقية تمر بها صاحبة الجلالة . ! ولم أكن أدري في تلك الأيام . . هل المسألة هي أننا نكره الخير لبعضنا أم المسألة أعمق من هذا ؟ ! على أى حال لقد استمعت إلى آراء كثيرة في أناس كثيرين ولم تكن كلها صحيحة أولوجه الله ! ! وكانت أسرة التحرير في أثناء تلك العمليات المتشابكة المعقدة العديدة تكبر ويزداد عدد أفرادها . . وعندما بدأت نعد التجارب أى « البروفات » اكتشفت مسألة خطيرة تتصل بعلاقات الزملاء بعضهم ببعض . . فهذا لا يحب ذاك . . والثاني لا يستلطف دم الثالث ، وجعلت من مسألة تسوية الخلافات بين أفراد أسرة التحرير جزءاً من عملية إعداد الجهاز الكبير .

لكن تبين لى أن بعض المحررين - وكانوا من أصدقائي - قد فهموا أن أنور السادات - صديقهم - يجب أن يضعهم فوق رأس الجميع . . وكانوا مخطئين . ! ولكى لا تحدث « مأساة » تؤثر في سير العمل اضطرت إلى الضرب بشدة ، وبقسوة لكى أثبت للزملاء جميعاً أن الصداقة شيء . . والعمل شيء آخر . . فأنت صديقي وهذا شيء لا خلاف عليه ولا أنكره . . أما أنك تملك كفاءات لا وجود لها عند الآخرين ، فذلك يحتاج منك إلى دليل والصداقة ليست دليلاً على الكفاءة !

وهكذا كان موقفي مع أصدقائي ، كان حتماً على أن أعطيهم درساً ما كان أغناهم عنه ، لو كانوا قد آمنوا بالعمل ، لا بالعواطف ! ! وتخلصنا من مأساة العواطف . .

فالتوازن بين العقل والعاطفة ضرورة يحتمها النضج الفكرى للإنسان . فالصداقة وإن كانت في أساسها عاطفة من أسمى العواطف الإنسانية ، إلا أنها في حاجة إلى سياج عقلى يحميها من شطحات العاطفة ، ولعل المقاييس الموضوعية خير حماية للصداقة الحقة القادرة على اجتياز اختبار الزمن ، وفي نفس الوقت فإن الصداقة تستطيع أن تمنح هذه المقاييس الموضوعية الكثير من العلاقات الإنسانية واللمحات الخصبة التى تحيل جفاف العمل وصرامته إلى متعة يشارك فيها كل الأصدقاء أو الزملاء ، وبذلك يزداد الإنتاج بازدياد روابط الصداقة ومتانتها . وفي كتابه « قصة الثورة كاملة » يطبق السادات هذا المعيار الموضوعى للصداقة على الضباط الأحرار في تخطيطهم للثورة وفي القيام بها ، وذلك ص ١٩٠ حيث يقول :

« وقد اضطلع بقيادة هذه الثورة لفيف من أبناء مصر ، عاشوا سنوات عديدة قبل الثورة وبعدها ، مجتمعين تحت راية المبادئ السامية التى أعلنوا عنها منذ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وما زالوا يلتفون حولها ، ويضعونها موضع التنفيذ في عزم وتصميم وإيمان ، وقد تبينت متانة الرابطة التى جمعت بين هؤلاء الثوار حينما دقت الساعة وحانت اللحظة الحاسمة التى تعرضوا فيها للمحنة الفاصلة بين النجاح والفشل ، أو بعبارة أخرى بين انتصار المبادئ وأعواد المشائى ، فكانت وقفهم المجيدة صفّاً واحداً ، وكتلة مترابطة هى حجر الزاوية فيما حققوا لبلادهم من عزة ومجد .

لقد اجتمعوا إذن على مبادئ لا علاقة لها بالأشخاص ، ولا صلة لها بالرابطة التى كانت تجمع الأحزاب المنحلة البائدة ، رابطة الغنائم والأسلاب . ومثل هذه الرابطة ، رابطة المبادئ المجردة من المطامع والأسلاب ، لا يسهل فكها ولا يمكن أن تنقسم . وليس من الميسور ولا من الممكن أن تنقطع أواصر العلاقات الشخصية التى تقوم على هذه الرابطة النيلية ، مهما يحدث من خلاف أو تعارض بين وجهات النظر ، وذلك لأن جوهر الخلاف لا يتعلق بتزاع على منعم ، أو تهافت على منصب .

قد يحدث ، بل لا بد أن يحدث بين أفراد أية جماعة من الناس ، تباين في زوايا النظر إلى مسألة معينة أو أكثر

ولكن هذا التباين بين أفراد وحدت بينهم المبادئ السامية لا يمكن أن يفض ما بينهم من رباط مقدس ، فهذا الرباط هو الجوهر النقي الطاهر الذي لا تنقسم عروته ، وأما الخلاف ، وتباين وجهات النظر فهو عرض لا يمكن أن ينال من روعة الجوهر .

على ضوء هذا التحليل الواقعي الواضح ، يجب أن يطبق الناس مقاييس جديدة في الحكم على تطور الحوادث في عهد الثورة ، وقد انتهى الزمن الذي كانت فيه الاعتبارات الشخصية ، والمنافسات الحزبية هي المقياس أو المفتاح الذي يفسر مظاهر الوحدة والخلاف بين المسئولين عن مصائر البلاد .

إن كل فرد في هذا العهد الثائر لا يشغل نفسه ولا يشغل الرأي العام بالمكان الذي يحتله ، والمغرم الذي يكسبه والصف الذي يوضع فيه ، وإنما يقف وقفة الجندي الذي يؤدي واجبه أيا كان مكانه بين الجنود العاملين . وهذا مقياس آخر لم يكن له وجود فيما مضى من عهود الحكم ، ولكنه أحد المقاييس التي لا يصلح سواها للحكم على الأشياء والأحداث في هذه الأيام .

وإذا كانت المبادئ الموضوعية تعتمد في أساسها على العقل ، فإن الصداقة الأصيلة تنهض على العاطفة والعقل في آن واحد ، ومن هنا كانت الصداقة الضمان الرئيسي للحفاظ على أواصر العلاقة بين الزملاء إذا حدث اختلاف في الرأي حول المبادئ . ولذلك يقول السادات في « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » بجريدة « الجمهورية » في ١٠ ديسمبر ١٩٥٣ :

« قد يجتمع الناس حول مبادئ . . حول نظريات يقرءونها ، ويعتقدونها أو أفكار يشر بها دعائها . . وقد يبلغ بهم الاقتناع المبادئ والنظريات والأفكار غايته ، ويبلغ بهم التعصب لها ذروته ، وما بعد الذروة إن صح هذا القول . . ولكن هذه المبادئ والنظريات قد تتعرض للجدل فتعرض الجماعة للانقسام ، وقد يتفاقم الجدل ، فينحرف عن الآراء إلى أصحابها وتبرز الأشخاص وتختفي الآراء ، وتتلاعب أهواء النفوس . . ثم تنهار الجماعة وما اجتمعت عليه . »

هنا يبرز رباط القلوب وقيمه في الحفاظ على رباط العقول من أن ينقسم ، لأن الصداقة تمنح بعداً آخر للتفاهم وتعمقه ، فالأصدقاء خير من يفهم بعضهم البعض بحكم التوافق في المشاعر والأهداف والحرص على أواصر هذه الصداقة من أن تنقسم ، لأن من السهل على الإنسان أن يتخلص من الرابطة العقلية ولكنه من الصعب عليه أن يتخلص من العلاقة العاطفية المترسبة في الوجدان والشعور ، وعلى هذا يستأنف السادات حديثه فيقول :

ولست أكتب هذا غضباً من قيمة المبادئ والنظريات ، فما استحق الحياة من لا مبدأ له يعيش من أجله . . ولكنني فقط أرى أن المبادئ وحدها لا تكفي لأن الرباط الذي يربط العقول ، لا يستطيع دائماً أن يربط القلوب ، وأن يذيب الهوى ويقتل الأطماع .

والصداقة - في رأى السادات - ضرورة أخلاقية يجب التأكيد عليها دائماً ليس فقط بين الأصدقاء ولكن على جميع المستويات في المجتمع فإن وجودها سيشتغل فراغاً من المحتمل أن يزخر بالسلبات والمؤامرات والدسائس في حالة غيابها . فإذا كانت علاقة العقول ترتبط بالمصلحة وما ينتج عنها من ذاتية قد تبلغ حد الأنانية ، فإن صداقة القلوب يمكن أن تحد من أثره الأنا وأنانية الذات بحيث يستطيع الإنسان أن يخرج من ذاته ويرى الأشياء بموضوعية أكثر وأعمق . وهذه الموضوعية هي الشرط الأول والرئيسي لتقدم الأمة بصفة عامة ، واليوم الذي ينظر فيه كل مواطن إلى زميله في نفس الوطن على أنه صديق وأخ حتى بدون أن يعرفه شخصياً ، هذا اليوم سيكون بمثابة فجر التقدم الحضاري الحقيقي . وفي هذا المعنى كتب السادات في جريدة « الجمهورية » بتاريخ ٣١ يناير ١٩٥٤ فقال :

« الأمر الذى يجب أن تؤمن به جميعاً هو أنه لا بد وأن يحدث التقدم فعلاً فى كل شأن من شئون حياتنا ، سواء كان داخل الأسرة ، أو داخل النطاق الأكبر فى أسرة الوطن .

والتقدم لا يمكن أن يتم - بل هو مستحيل - بلا تغيير شامل فى كل ناحية ، وأساسه أولاً وقبل كل شيء تغيير طريقة تفكيرنا ، فإذا لم نستطع أن نغير فى أفكارنا ، فإننا لن نستطيع أن نغير أى شيء آخر . .

ولقد عشنا دهرًا طويلاً لا نفكر إلا فى أشخاصنا ، وأصبح كل مواطن لا يحدد مكانه من هذا الوطن إلا بمقدار ما يستفيدة هو لنفسه أو لأهله أو لمحسوبيه ، وبذلك انعدمت الرابطة الوطنية وتفرقنا شيعاً وأحزاباً . .

أما اليوم فإن التطور يحتم علينا أن نعود إلى الحضيرة من جديد . . وواهم ذلك الذى يتصور أن القوة هى سبيل العودة إلى هذه الحضيرة وواهم أيضاً الذى يتصور أن سبيل هذه الثورة فى إعادة بناء الوطن هى القوة ، فإن الوسيلة الصحيحة التى نادينا وننادى بها منذ قيام هذه الثورة هى التغيير فى سبيل التقدم ، مهما كلفنا هذا التغيير من جهد أو مغالبة لما اعتدنا عليه فى الماضى . .

نحن فى حاجة لأن تؤمن أن بناء وطن على أسس جديدة لا بد أن يتطلب من كل فرد منا تضحية لم نكن نقدمها أو نقبل عليها فى الماضى ، وتهون علينا هذه التضحية إذا علم كل فرد أن حرباً شعواء يقوم بها المستعمرون فى سبيل تعويق بناء الوطن .

والدليل على أصالة هذا المنهج الفكرى ، أن هذا الكلام الذى كتبه السادات منذ أكثر من عشرين عاماً يبدو وكأنه كتب بالأمس فقط ، فهو يتناول فيه مشكلات الشعب المصرى وضروراته الأخلاقية ، التى لم تقن بعد تقنياً علمياً نظراً للظروف الصعبة التى مرت بها مصر ، والضغط الخارجى الرهيب الذى عملت كل ما فى إمكانها لتعويق بناء الوطن . وإذا كنا نريد أن نرسخ قيمنا الأخلاقية ومثلنا العليا فيجب أن ندرك جيداً أن القوة لا يمكن أن تكون الطريق السوى للقيام بهذه المهمة . ولكن الطريق الوحيد هو التأصيل الفكرى الذى يشترط التخلص من الرواسب القديمة ، والأحوال التى طغت على الجوهر الأصيل لهذا الشعب . ولعل روعة السادس من أكتوبر العظيم تكمن فى أنه كان البشير الذى أعلن بداية التخلص من هذه الرواسب والأحوال ، وبروز المعدن الحقيقى للإنسان المصرى ، ولم يكن صبره ، ذلك التواكل الذى اجتهد الأعداء على إصاقه به ، سوى التصميم والإيمان المطلق بالتغيير الذى يجب أن يحدث فى وقته المناسب بصرف النظر عن كل الضغوط والحملات التى تحاول التأثير بهدف التشويش والتشتيت حتى يضيع الجهد والتوقيت وتطيش الخطط والاستعدادات . ومن هنا كان تعبير السادات المشهور والذى ينادى بضرورة التحلى « بصبر المؤمن وصمت الواصل » ، فالصبر والإيمان والصمت والثقة ، كلها ضرورات أخلاقية لا يمكن أن يستمر بدونها البناء الحضارى للأمة ، ولذلك يقول السادات فى نفس المقالة السابقة :

« إن معارك الحرية لا بد لها من وقت ، ولا بد من صبر مدعم بالتصميم . . ولكن لن يجدى هذا الوقت ، وذلك الصبر والتصميم إذا لم تؤمن بالتغيير فى سبيل التقدم . . تغيير جوهرى فى أفكارنا أولاً . . »

والصدقة خير وسيلة لإمدادنا بالزاد المعنوى والمادى لإحداث التغيير الجوهرى سواء فى منهجنا الفكرى أو فى واقعنا المادى ، والصدقة إذا كانت ضرورة أخلاقية تحتلها شروط المواطنة فى الداخل ، فهى ضرورة أخلاقية بنفس الدرجة على المستوى الخارجى فى العلاقات بين الدول . وكانت صداقتنا مع أكبر عدد من الدول سنداً كبيراً فى معارك أكتوبر المجيدة . والوفاء - كضرورة أخلاقية أيضاً - يحتم علينا أن نرد هذه الصدقة بأحسن منها ، ولذلك فالصدقة ليست مجرد علاقة مصلحة مرحلية ولكنها مبدأ أخلاقى ثابت لا يتأثر بمرور الأيام وتغير الظروف .

ومن هنا كان خطاب السادات فى مجلس الشعب فى ٢ يونيو ١٩٧١ حين أكد على :

« إن الصداقة مع الذين يساعدوننا - ولا يساعدنا غيرهم على القتال وعلى النصر ليست صداقة مرحلة وليست تكتيكاً . إن الصداقة مع الذين يساعدوننا على النصر والبناء ، على بناء اقتصادنا وبناء دولتنا العصرية الحديثة ليست صداقة مرحلة وليست تكتيكاً . . . وإنما هي صداقة كل المراحل . . . هي استراتيجية ثابتة .

إننا نفعل ذلك من موقع الاستقلال الوطنى . ونفعله من موقع الإرادة الوطنية . لأنه لا يمكن أن يكون هناك استقلال مع احتلال أراضينا ولا يمكن أن تكون هناك إرادة مع التخلف » .

والوفاء من الضرورات الأخلاقية التي يركز عليها السادات في منهجه للتأصيل الفكرى ، سواء على المستوى الشخصى البحت أو على المستوى الدولى العام . وكان تركيزه هذا نتيجة لإيمانه الشديد بأن الوفاء من أبرز خصائص الشخصية المصرية ، وإن كان يخفى تحت السطح في بعض الأحيان بفعل الضغوط العابرة والظروف المؤقتة ، ولكنه سرعان ما يبرز ويعود إلى سيطرته على الأخلاقيات المصرية . والسادات عندما ينادى بالوفاء ، لا يفعل هذا من باب الحض على الأخلاق الحميدة ، ولكنه يفعله بضرب المثل العملى في أخطر اللحظات المصيرية التي يمر بها الوطن ، ولم يكن قراره التاريخى الذى بدأ تنفيذه ظهر السادس من أكتوبر العظيم سوى من باب الوفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه أمام الله والشعب . يقول في خطابه في افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ :

« فيما يتعلق بنفسى فقد حاولت أن أفي بما عاهدت الله وعاهدتكم عليه حاولت أن أفي بما عاهدت الله وعاهدتكم عليه قبل ثلاث سنوات بالضبط من هذا اليوم ، عاهدت الله وعاهدتكم على أن قضية تحرير التراب الوطنى والقومى ، هي التكليف الأول الذى حملته ولاء لشعبنا وللأمة ، عاهدت الله وعاهدتكم على أنى لن أخرج جهداً ، ولن أتردد دون تضحية مهما كلفتني في سبيل أن تصل الأمة إلى وضع تكون فيه قادرة على دفع إرادتها إلى مستوى أمانها ، ذلك أن اعتقادنا دائماً كان ولا يزال أن التمنى بلا إرادة نوع من أحلام اليقظة ، يرفض حجب وولائى لهذا الوطن أن تقع في سرايه أو في ضبابه » .

أما عن الوفاء للأصدقاء فيقول السادات في ختام خطابه التاريخى :

« هذه ساعات نعرف فيها أنفسنا ونعرف فيها الأصدقاء ونعرف فيها الأعداء ، ولقد عرفنا أنفسنا ولقد عرفنا أصدقاءنا وكانوا بأصدق وأخلص ما نطلب من الأصدقاء ، ولقد كنا نعرف عدونا دائماً ، ولسنا نريد أن نزيد من أعدائنا بل إننا لنوجه الكلمة بعد الكلمة ، والتنبيه بعد التنبيه ، والتحذير بعد التحذير ، لكى نعطي للجميع فرصة يراجعون ولعلمهم يتراجعون . لكننا بعون الله قادرون بعد الكلمة ، وبعد التنبيه ، وبعد التحذير ، أن نوجه الضربة ، ولسوف نعرف متى وأين وكيف إذا أرادوا التصاعد فيما يفعلون ، الأمة العربية كلها . وأسمع لنفسى ان أعبر عنها ، لن تنسى مواقف هذه الساعات . إن الأمة العربية لم تنس أصدقاء هذه الساعات الذين يقفون معها . ولن تنسى أعداء هذه الساعات الذين يقفون مع عدونا » .

لم ينس السادات معنى الوفاء ، ودلالة الصداقة في أخطر الساعات المصيرية التي مرت بها الأمة العربية ، بل إنه رأى في الوفاء والصداقة امتداداً لنفس القيم المثالية والضرورات الأخلاقية التي كان جنودنا وشهداؤنا الأطهار يسجلونها في نفس اللحظة بحروف من نار ونور ودم على رمال سيناء ، وذلك بتلقين العدو الدرس الأخلاقى تلو الآخر ، فقد أثبتوا للعالم أنهم لم ولن يسمحوا لهذه المنطقة الخطيرة والحيوية من العالم أن تتحول إلى أدغال يحكمها قانون الغابة اللاأخلاقى . ولأن الجانب الأخلاقى لحرب أكتوبر المجيدة كان واضحاً وضوح الشمس ، فلم نجد من يجرؤ على اتهامنا بانتهاك المعايير الإنسانية .

والوفاء - من القيم الأخلاقية - أيضاً - التي يقدرها السادات على المستوى الفردى كما يقدرها على المستوى

العالمى ، ذلك لأنه يعتقد أن الضرورات الأخلاقية لا يمكن أن تتجزأ بل تسرى في نسيج النفس الإنسانية ، أو على الأقل يجب أن تسرى بنفس الدرجة من أصغر جزء إلى أكبر جزء فيها ، فلا يمكن أن تتصور ضرورة أخلاقية مطبقة في ناحية معينة من الحياة وغير مطبقة على ناحية أخرى ، إذ أن أهم خصائص الضرورات الأخلاقية تكمن في صفاتها المطلقة . فن الدرس الأخلاقى الكبير الذى تمثل في حرب أكتوبر إلى هذه اللحظة الأخلاقية السامية التى يسجلها السادات على صفحات « الجمهورية » في ٩ يوليو ١٩٥٤ :

« يطوف بكل إنسان منا في هذه الحياة طائف رقيق يحمل لنا ولو لبضع لحظات أشهى وأجمل ما يمكن أن يتمتع به الإنسان على ظهر هذه الدنيا الصاخبة . . .

ولقد مر بي اليوم هذا الطائف ، وأنا أقرأ خطاباً لفتاة لا أحسب إلا أنها ملاك كريم ، تحمل روحها أصنى وأنبل الإحساسات في هذا العالم الشرير . استمع معى لها وهى تروى في بساطة وقوة قصة الإخلاص والوفاء والدُموع : « إنه قريب لى وقد أحبيته وكنا نمنى أنفسنا بحياة رغدة هائلة في ظلال وارفة من السعادة صنعناها لأنفسنا . . . كان مجداً يا سيدى ومحافظاً على الأولوية طوال سنى دراسته وفوق كل هذا يمتاز بالإيمان العميق والخلق المتين . إلى أن كان ذلك الحادث الذى أرفقت البيان عنه والذى انتهى بتر عضو من جسده ، فحطمت هذه الكارثة وفكرت أن أساعده . . . والحقيقة أننى فكرت طويلاً . . . استشرت كل مخلوق ولكن المساعدة التى قدموها لى كانت أن يصبر . . . ويصبر . . .

سيدى . . . إتنى لن أنخلى عنه برغم هؤلاء الذئاب من العرسان الذين اندفعوا كالسيل بعد حادثته وسأقف إلى جانبه لأدفع عنه ما ينغصه من شقاء هذه الحياة مهما كلفنى الثمن . . .

لقد دافعت عنك يوماً يا سيدى . . . فهل لك فى أن تساعدنى بأن تشجعه وتنفع فى روح إنسان يحمل قلباً ذكياً كبيراً . . . إنى أناطب منك أعماق نفسك ، وإيمانك فهل تستجيب ؟ » . . .

ولقد استجبت يا فتاتى ، ليس لأنك دافعت عنى ، وإنما لهذا ينبوع الصافى من الوفاء الذى تفيض به نفسك . . . وثى أن أحداً لن يستطيع أن يتجاهل هذا الوفاء إلا إذا كان قد تجرد من الحس والشرف والوفاء .

ويرى السادات أن النفس التى فقدت كل معانى الوفاء ، قد جنت على نفسها قبل أن تجنى على الآخرين . ولذلك كان السادات يجد نفسه دائماً فى الوفاء لزملائه حتى فى أصعب الظروف وأقساها ، فثلاً كان كامل القاويش حريصاً على مهاجمة بيته أثناء نزوله المعتقل أكثر من مرة بسبب إصراره على الكفاح الوطنى مهما كان الثمن الذى يدفعه ، وكان هدف كامل القاويش العثور على الرسائل السرية التى كان السادات يرسلها مع ملابسه للتنظيف ، وبالطبع فإن أسرته تعرضت للكثير من الإرهاب . وقد نجح السادات فى الهروب من المعتقل أكثر من مرة بفضل مساعدة أصدقائه له وذلك بإمداده بما يحتاجه من الأدوات البسيطة التى تساعد على ذلك ، وذات مرة هرب من المعتقل ولكنه عاد إليه من تلقاء نفسه ، بعد أن أخبره أحد كبار رجال الشرطة بالتعذيب الذى يوقع عليه وعلى زملائه من المعتقلين . ويستشهد حمدى لطفى فى كتابه « أنور السادات . قصة إيمان بالعسكرية المصرية » بكلام العميد أحمد نور الدين عن وفاء السادات ، فيقول ص ٧٦ :

« قبل الثورة ، وأيام كان مطارداً ، كان هو الذى يبحث عنا ليطمئن علينا ، إن لم يكن بالاتصال الشخصى - فعن طريق البريد ، وكان هذا الاهتمام بنا وهو الذى يطارد من الاستعمار والسراى الملكية ، يترك فينا أكبر الأثر ، ولذلك كنا حين نجتمع كل عام كدفعة واحدة ، نتحدث عنه ونبحث عنه ونبحث فيما يستطيع كل منا أن نعاون به حتى عاد إلى الجيش ، فأخذنا نجتمع فى بيته ، وحتى قيام الثورة وطوال خمسة عشر عاماً ، بعد ذلك كان لقاءنا

السنوى فى بيته ، وفى ظل رعايته ووفائه .

والوفاء - فى نظر السادات - ليس قيمة مثالية مجردة ولكنه طاقة عملية جبارة لا تستطيع أية عقبة أن تقف فى طريقها ، إذا وجدت التنفيس الصحيح عنها . ولم يكن انتصارنا الباهر فى أكتوبر العظيم سوى النتيجة المباشرة لوفائنا لمصر ولكرامة مصر . ومن هنا تبرز حتمية الوفاء تجاه الذين دفعوا ثمن الوفاء لمصر ، وبالتالي يتضح المعنى الكبير الذى يكمن وراء مشروع الوفاء والأمل ، فهو ليس مجرد مدينة سكنية كرد للجميل الأبطال فى عنق مصر ، ولكنه ترسيخ لأبرز خصائص الشخصية المصرية الأصيلة بما تحمله من وفاء وحب ورعاية وتقدير وعرفان بالجميل . ولعل خلود الشخصية المصرية كظاهرة متميزة على مر الدهور والعصور يرجع إلا أنها لم تعرف الطريق إلى العقوق والنكران وبقية الخصائص التى تدمر الإنسان من الداخل قبل أن تقضى عليه من الخارج . ورأى السادات على صفحات « الجمهورية » فى ٥ أغسطس ١٩٥٤ خير تحليل لهذه الخصائص المدمرة :

« إن أية نفس بشرية عرضة دائماً لكى تتأذى بالانفعالات أو الأزمات وخاصة فى مثل هذا العصر المادى الذى نعيش فيه . . . وكل هذه الانفعالات أو الأزمات يسهل علاجها ، بل كثيراً ما يداوئها مرور الزمن من تلقاء نفسه إلا نفساً واحدة . . . تلك التى لن يفتح الله عليها بالخير أبداً أو يلهمها الله الصواب أبداً لأنها اسودت بظلال البغضاء ، وتشبعت بداء الحقد الكريه . . . هذه النفس عبث أن نقيم لها وزناً لأنك حتى وأنت تسدى إليها المعروف فلن يجيبك إلا بالعقوق والنكران ، فهى دائماً تأكل ذاتها داخل ذاتها من أجل الغرض الدنيوى الشخصى . . . »

ولذلك يقول السادات وهو يسلم الأوسمة لأبطال أكتوبر الجرحى فى ٩ مايو ١٩٧٤ :

« وأتم بالاشتراك مع إخوة لكم فى القوات المسلحة السورية قد دفعتم ضريبة الدم نيابة عن الأمة العربية كلها ، فارتفع بكم رأسها وزادت بكم مكاتها ووجدت على وهج تضحياتكم مكانها العزيز تحت الشمس ، بل إن العالم كله يدرك أبعاد ما حققتم . قبل أن آتى إليكم كنت أقرأ بالصدفة التقرير السنوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولية فى لندن . هذا التقرير الذى يصدر غداً يقول :

إن حرب أكتوبر بسلاحها العسكرى والبترولى قد جعلت من العرب قوة سادسة فى العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوروبا الغربية . ويقول أيضاً هذا التقرير إن حرب أكتوبر جعلت بقاء إسرائيل فى أية أرض عربية ترفاً باهظ الثمن لن تقدر عليه بعد اليوم أبداً .

أيها الأبناء والأبطال . . . أريدكم أن تعرفوا جميعاً أنكم أبناء لكل أم وأب ، وإخوة لكل شاب وشابة ومثل أعلى لكل طفلة وطفل فى هذا البلد أريدكم أن تعرفوا أن شعبكم لن ينسى جميلكم عليه أبداً . »

هكذا نرى أن الضرورة الأخلاقية بكل جوانبها المختلفة تشكل عنصراً حيوياً فى منهج السادات للتأصيل الفكرى . ففى كل كتاباته من مؤلفات ومقالات وأبحاث وخطب وأحاديث تبرز هذه الضرورة كنغمة أساسية سواء كان يعالج موضوعاً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو علمياً أو تاريخياً أو عسكرياً . . . إلخ ، ولم تقتصر الضرورة الأخلاقية على المنهج الفكرى بصفة عامة ، ولكنها تجسدت فى سلوكه وضربه المثل الأعلى لكل أبناء مصر حتى يكتشفوا الطريق القويم الذى يتحتم عليهم السير فيه . بل إن السادات كثيراً ما وضع مقالاته تحت العناوين التى تعبر عن الدرس الأخلاقى أو العبرة الإنسانية . . . إلخ لكى يوضح للقارئ أن الأمر ليس مجرد معالجة عابرة لموضوع سياسى معين ، ولكنه اختراق للضرورة الأخلاقية التى تكمن وراء هذا الموضوع وتقييم الموضوعى اللازم . ولذلك لم يشعر القارئ أن المقتطفات التى قمنا باقتطافها من مقالاته منذ حوالى ربع قرن ، لم يشعر بأنها مجرد آراء

قديمة تدرس لقيمتها التاريخية البحتة ، ولكنه أحس أنها تعالج النفس الإنسانية في أخلد خصائصها ، ولذلك فهي تصلح لكل زمان ومكان .

ولعل الصدق مع النفس ، والإصرار على الحق مهما كانت النتائج ، ووضوح الرؤية ، وعدم التأثر بالظروف العابرة ، كل هذا منح فكر السادات موضوعيته المميزة وصلابته التي تخترق المظهر دائماً بحثاً عن الجوهر ، ومن هنا كان الاتساق الفلسفي الذي يميز نظريته إلى الكون منذ بدأ يكون لنفسه النظرة الخاصة به ، ولذلك تحولت النظرة الخاصة إلى النظرية العامة التي تصلح منهجاً للتقدم الحضارى بصرف النظر عن الظروف الطارئة ، والأحوال المتغيرة ، فالنظرية تملك من المرونة ما يمكنها من استيعاب المتغيرات وإدخالها مع الثابت في نسيج عضوي لا يعرف الانفصام ، والصدق مع النفس من أهم شروط النظرية الأخلاقية المتكاملة ، لأنه يعنى الاتساق الفكري ، وعدم الفصل بين الأقوال والأعمال ، ومقاومة الظروف الطارئة التي ترغم الإنسان أحياناً على التحول عن الطريق الصحيح ، واحترام الإنسان وإدراك أبعاده بصفة عامة من خلال احترام الذات وفهمها موضوعياً بصفة خاصة . ولذلك يقول السادات مخاطباً ابنه جمال في كتابه : « يا ولدى هذا عمك جمال » ص ٦٤ :

« إن ما يعينني هو أن أحكى لك نفسي كما تعودت أن أحكيها لكل من يقرأ لي سطوراً أو كلمات . . . والعبرة عندي أن ألتزم حدود ما أحسه ، وينفعل به ضميري ، من غير أن أُلجأ إلى التزييق أو الافتعال .
أن أروع متعة يا بني في هذه الحياة . . . هي أن تكون صادقاً مع نفسك دائماً . . .
بهذا الصدق لن تعرف نفسك العقد أو الأزمات ، التي أعترف لك أنني تعرضت لها في حقبة من حياتي بعد الثورة . . . وانتصرت عليها وأنا أستقبلها في هذه الدنيا أثناء العدوان .

إحرص يا بني في كل لحظة من حياتك ، على أن تكون صادقاً مع نفسك حتى تنعم دائماً بالسلام الروحي .
وتعلم يا بني أن تغفر للناس ، فإن أتعب لحظات يعيشها إنسان على ظهر هذه الأرض هي تلك التي يملك النفس فيها غضب أو حقد أو كراهية .

ولكن . . .

تعلم أيضاً يا بني ألا تغفر أو تهان أبداً مع من يعتدي على وطنك . . . فإنك لن تعرف السلام أبداً ووطنك معتدى عليه . . . ولا كرامة ولا شرف لأي إنسان ، إذا كانت كرامة وطنه في التراب ، أو كان شرف وطنه يداًس بالأقدام . . . »

وليس هذا الكلام من باب الوعظ والإرشاد ، فمن السهل أن نجد أمثلة حية له من حياة السادات وكفاحه وخاصة فيما يرتبط بقضية أمين عثمان ، فالمثل الأول الذي يدل على الصدق مع النفس والذي يؤدي إلى السلام الروحي ، هو الموضوعية الكاملة التي عامل بها السادات كامل القاويش بعد الثورة ، رغم أن كامل القاويش كان مصرراً على مطاردة السادات بالاعتقال والسجن ، ومطاردة عائلته بالإرهاب والرعب بإيعاز قوى من السراى الملكية التي قررت التخلص من السادات لكفاحه الذي لم يفتر في لحظة من اللحظات ضد الاستعمار والحكم العميل . وعندما أتاحت فرصة الانتقام للسادات من القاويش ارتفع فوق مستوى انفعالاتها المؤقتة ، والتزم بالموضوعية التي ميزت فكره وفلسفته بصفة عامة . وعلى صفحات مجلة « التحرير » في ٢٣ فبراير ١٩٥٤ سألته قارئ السؤال التالي :

« وقف الأستاذ كامل القاويش يترافع ضدك حينما كنت متهما في قضية أمين عثمان ، وطالب بإعدامك ، ثم دارت الأيام ، وأصبحت من قضاة الشعب ، ووقف أمامك كامل القاويش متهماً بأبشع ما يمكن أن يتهم به

إنسان ، وبخاصة من كان مثله في خدمة العدالة ، فإذا كان شعورك وأنت ترى خصمك وقد أصبح مصيره بين يديك ، وقد أمكنك الله منه ؟ »

فكان رد السادات على السؤال كالآتي :

« أحمد الله على أنى بينى وبين زملائي القضاة وبين رأى طوال هذه المحاكمة لم يداخلى أى إحساس من الماضى . إنها أمانة حملتها ويعلم ربى وحده أنى ما فرطت فيها بل أديتها بكل ذمة وإخلاص » .

والمثل الحى الآخر الذى يدل على انتفاء الفصل بين الأقوال والأعمال ، هو تطبيقه العملى لقوله لابنه بألا يغفر أو يتهاون أبداً مع من يعتدى على وطنه ، فهذا ما فعله بالضبط فى موقفه تجاه قضية أمين عثمان الوزير المصرى والعميل البريطانى الذى اغتيل مساء الثلاثاء ٦ يناير ١٩٤٦ وكان قد عاد لتوه من رحلة فى بريطانيا . وكان المبدأ الذى سارت عليه سياسته أن مصر قد تزوجت من بريطانيا زواجاً كاثوليكيّاً لا يقبل الطلاق بأية حال من الأحوال . ولنستمع إلى المعلم يحكى لنا عن صرامته فى عدم الغفران والتهاون مع من يعتدى على وطنه ، حتى ولو كانت حياته هى الثمن الذى سيدفعه مقابل إصراره على هذا الموقف الأخلاقى الذى لا يقبل أنصاف الحلول . يقول السادات على صفحات مجلة « التحرير » فى ٣ نوفمبر ١٩٥٤ :

« أذكر ذلك اليوم من مارس سنة ١٩٤٦ حينما زارنى الأستاذ حمادة الناحل المحامى فى سجن مصر ، وكنت قد نقلت إليه من سجن الأجانب ، بعد أن انتهى التحقيق ورفعت السرية التى كانت قد فرضتها النيابة على .

أذكر أن الأستاذ حمادة زارنى فى ذلك اليوم متطوعاً لما بيننا من صداقة ، وأذكر أنه همس فى أذنى وهو يتلفت من حواله لكى يتفادى أن يسمعا ضباط الحراسة . همس يقول :

« اصدقنى يا أنور . . هل أنت قتلت حقيقة أمين عثمان ؟ »

وأذكر جيداً أنى لم أتردد لحظة فى أن أقول له :

« ليتنى كان لى الشرف فى أن أقتله بيدي . . ولو حكم على بعشرات السنين ، فثق أنى سأمضيها سعيداً قرير

العين ما دام هذا الخائن قد قتل » .

قلت هذا فى سنة ١٩٤٦ ، وسأقوله إلى أن أموت .

وحين وقف النائب العمومى الأستاذ محمود منصور سنة ١٩٤٨ لكى يعتذر عما ورد فى مرافعة الأستاذ أنور حبيب ، وكيل النيابة وقتذاك ، من تعريض بالإنجليز ، وكنت فى قفص الاتهام هاجمته بأقسى ما يمكن أن يسمعه ، ودون كلامى فى محضر الجلسة ، وطلبت من المحكمة رسمياً أن تحكم على بالإعدام لكى لا أسمع مثل هذا الدفاع الخائن عن إنجلترا ، من النائب العمومى فى مصر . . »

ونفس الخط الفكرى الذى يتمثل فى عدم التهاون إطلاقاً مع من يخون وطنه ، يعود إلى الظهور بمنتهى الوضوح فى بيان السادات إلى الأمة فى ١٤ مايو ١٩٧١ ، أى بعد ربع قرن من الزمان منذ أحداث قضية أمين عثمان ، وهذا دليل آخر على اتساق فكر السادات وبعده عن التناقض ، فإذا كان ينادى بالحب والتراحم والود والصداقة والوفاء والغفران والتسامح ، فهذا لا يعنى إطلاقاً التهاون فى إحقاق الحق ، وإلا ضاعت كل المعايير الأخلاقية . ومن هنا كانت القسوة ضرورة أخلاقية ، وخاصة مع من تسول له نفسه التلاعب بمصير الأمة . يوجه حديثه فى البيان إلى أبطالنا الرابضين على خط النار فى ذلك الوقت فيقول :

« كونوا مطمئنين يا أولادى ، بصوا قدامكم لليهود ما تبصوش وراكم أبداً للجبهة الداخلية ، لأنه إذا اقتضى

الأمر علشان أحفظ سلامتها والله سأكون فى منتهى القسوة لى يحاول أن يشق جبهتكم الداخلية من وراكم فتفكروش

فيها ، سييوا جبهتكم الداخلية وكونوا واثقين أن ال ٣٤ مليون بقلبيهم وإحساسهم وكل ما يملكون وراءكم علشان دى معركتكم . . . علشان تكسبوها . . . وشرفهم حطينوا فى أيديكم » .

ولكن هذه القسوة لا تعنى الديكتاتورية على الإطلاق ، بل على العكس فإنها تهدف إلى حماية الممارسة الديمقراطية الحقيقية من التلاعب بها ، ولذلك يطالب السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ٢٠ مايو ١٩٧١ بأن ينص الدستور الجديد على ميثاق أخلاقى يمتنع مفاهيم الحريات والأخلاق والممارسة الديمقراطية مما يسد الطريق أمام كل من يريد تلوين هذه المفاهيم لأغراضه الخفية وأهدافه الذاتية . ثم يؤكد السادات هذا المعنى الكبير فى خطابه فى ختام الدورة الأولى للمؤتمر القومى الثانى للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٦ يوليو ١٩٧١ فىقول :

« إنكم تذكرون وليس لكم أن تنسوا أبداً ولو للحظة من اللحظات ، أنكم فى هذه القاعة تسلمتم الزمام من ثورة ٢٣ يوليو ، ولم يعد لها غيركم قيادة ، ولم يعد عليها دونكم وصاية ، فلا يجب أن تتركوا حجاباً أو حاجزاً يعوق صلتكم المباشرة واليومية بال جماهير ، وأن ذلك سييلكم إلى شرف خدمتها ، وهو فى نفس الوقت مبرر تصديكم لشرف قيادتها ، بالديمقراطية الحققة ، وبالتفاعل الحر بين قوى الشعب العاملة ، وفى جو المبادئ والأخلاق الذى لا يعرف التآمر ولا يعرف التسلط ولا يضع فى اعتباره إلا المصلحة العليا للشعب وللأمة وآمالها الحققة والعادلة . . . »

والضرورات الأخلاقية النابعة من صميم الشخصية المصرية هى الضمان الأكيد لحماية الممارسة الديمقراطية الحققة والعادلة من كل الانحرافات التى قد تنقاد إليها النفس البشرية سواء بفعل الإغراء أو الإرهاب ، أو بفعل الوعد أو الوعيد ، وفى هذا يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« إننا لا بد أن نتمسك بقيمتنا الروحية والأخلاقية فى مواجهة موجة الاستمتاع المادى التى تعرفها مجتمعات الاستهلاك الغنية ، لأن تلك القيم هى من السمات الأصيلة لحضارتنا . ولأن المجتمعات التى تجاهلتها تعرف الشقاء النفسى وسط الوفرة المادية ، إننا نتمسك بقيم التكافل الاجتماعى وتماسك الأسرة وسيادة مشاعر المحبة ونبذ الأحقاد . فقد كانت تلك القيم هى العاصم لهذا المجتمع فى أحلك الأوقات . وهى السباج ضد نزعات الفردية المطلقة ، وانعدام المسؤولية الاجتماعية ، التى تفكك المجتمع وتسلب الإنسان مشاعر ما أحوجه إليها .

كذلك فإننا نرفض أن يكون التقدم لصالح قلة تنزل عن الجماهير ، وترتبط بأساليب حياة غريبة عنها ، ونريد أن تشارك أوسع الجماهير فى صنع التقدم وفى الاستفادة العادلة من ثمراته .

وفى الختام ، لعلكم تلاحظون أن هذه المعانى التى أشرت إليها لم تكن بعيدة عن منطلق ممارستنا فى السنوات القليلة الماضية » .

هذا لأن السادات - منذ توليه أعباء الحكم والمسئولية - حرص أشد الحرص على أن يضع نظريته فى الأخلاق موضع التنفيذ فى كل كبيرة وصغيرة ، فالأخلاق لا وجود فعلى لها إذا لم تجد الأفعال المادية التى تجسدها وتحيلها إلى واقع ملموس ومقنع لكل ذى عقل . والعجيب فى هذا أن توفيق الحكيم كان يبدو وكأنه يتنبأ بظهور السادات فى مساجلاته مع منصور فهمى عام ١٩٣٧ ، فقد سجل هذه المساجلة فى كتابه « تحت شمس الفكر » الذى صدر عام ١٩٣٨ وفيها يقول ص ١٤٩ :

« إن أقرب السبل إلى إعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود المثل بالفعل ! . . . هو ظهور رجل واحد ومثل واحد حتى نراه بأعيننا ، ونسمع صوته بآذاننا ، ونلمسه بأيدينا ، ونتبعه بأفئدتنا ! . . . ولكن هل كل مجتمع قد يدير على إخراج مثل هؤلاء الرجال ، أو أن أولئك لا يظهرون إلا فى مجتمع يهينهم للظهور ؟ » .

وكان ظهور السادات الدليل الحى على أن المجتمع المصرى العريق قادر على تجسيد خصائصه الأصيلة

وأخلاقياته الصميمة في شخص زعيم ورائد وقائد ومعلم استطاع أن يعبر بأتمته - في أحلك الظروف - من ليل الهزيمة بكل مضاعفاتها إلى فجر الانتصار بكل ارهاصاته ، وذلك بعد أن بذل في تربتها بذور الحب والخير والوثام والوفاء ، ونظراً لأن هذه التربة صالحة للإنباء مثل هذه البذور ، إذ سبق لها رعايتها والمحافظة عليها على مر العصور والأزمان ، فقد أتت أكلها ناضجة ووافرة منذ ظهر السادس من أكتوبر العظيم . وعندما ينادى السادات بفلسفة الحب ، فهو يرتاد بهذا جانباً آخر من التأصيل الفكري ، لأن فلسفته تذكرنا بفلسفة الفيلسوف العربي ابن مسكويه الذي تعد نظريته في الأخلاق أصدق تعبير عما يحتاج إليه المجتمع الإنساني من قيم ، ومبادئ ، وفضائل . وقد جمع تفاصيل نظريته في كتابه الشهير « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » الذي يقول فيه إن دور الزعيم الرائد يجب أن يبدأ بإصلاح النفوس وتوجيهها إلى حياة أفضل . وإذا كان الإنسان قد طبع على الخير فإن طبيعته البشرية الضعيفة ، وظروف حياته القاسية قد تدفعه إلى السير في طريق الشر ، ولذلك فإن المناخ الاجتماعي الصحي يلعب دوراً كبيراً في مساعدة الفرد على التطبع بالخير . أما الحب - في نظر ابن مسكويه كما هو في نظر السادات - فيمثل الركيزة الأساسية لكل الفضائل والمبادئ والأخلاق ، فأى مذهب أخلاقي فاضل لا بد أن ينهض على محبة الإنسان لأخيه الإنسان ، وهذه المحبة تحتاج إلى رياضة دائمة للنفس حتى تتحول الضرورات الأخلاقية من إخلاص ، وتضحية ، وإيثار ، وموضوعية ، وتسامح ، وغفران . . . إلخ إلى ممارسة يومية على كل المستويات .

وفي الواقع فإن الممارسة الديمقراطية الحققة تعد المناخ الصحي الوحيد لهذه الضرورات الأخلاقية حتى تنمو وتزدهر ، فلا يمكن لمجتمع يعاني من الإرهاب ، والكبت ، والحرمان أن يهتم بالأخلاق لأن وجودها بطبيعته يتنافى مع وجود كل ما ينتهك حرمة الإنسان ، وهذا ما يشكو منه ألبرت شفايتزر في كتابه « فلسفة الحضارة » عندما يقول ص ٢١٨ : « لقد دخلنا في عصر ضاع فيه الشعور بالقانون وقوته ، ونحلا من الإحساس بالالتزام الخلقى ، فالمجالس النيابية تنتج لوائح تناقض فكرة القانون ، والدول تعامل رعاياها دون مراعاة أى شعور بالقانون . والذين يقعون تحت وطأة دولة أجنبية يعاملون معاملة الخارجين على القانون . فلا احترام لحقهم الطبيعي في الوطن وفي الحرية أو المنزل أو العمل أو الغذاء أو أى شيء آخر . نعم لقد أصبح الإيمان بالقانون اليوم أثراً بعد عين » .

ومن هنا نادى السادات بالممارسة الديمقراطية ، وسيادة القانون ، وبناء دولة المؤسسات حتى لا تنتهك حرمة الإنسان المصرى ، بل يأخذ من سيادة القانون سياجا يحميه من كل عسف . ومن هنا كان الالتزام الخلقى المفروض على الإنسان في هذه الحالة التى ينتنى فيها أى عذر له بالخروج عن الضرورات الأخلاقية التى التزم بها المجتمع وسار على طريقها . فممارسة الحرية تستتبع بالضرورة المسؤولية الأخلاقية ، والحضارة لا تتقدم إلا بالاعتماد على هذين العنصرين : الحرية والمسؤولية ، وأى التزام خلقى يرتبط بالمدى الذى يمارس فيه الإنسان حريته ثم مسؤوليته عن حدود هذه الممارسة ولذلك يقول شفايتزر في نفس الكتاب ص ١١٢ :

« الحضارة في جوهرها أخلاقية ، ومشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية ويخيل إلى أن بي من النزعات الفنية والتاريخية ما يمكننى من تقدير العناصر التاريخية والجمالية في الحضارة ، وإني بوصنى طبيباً وجراحاً عندي من الروح العصرية ما يجعلنى قادراً على تقدير روعة ما بلغه هذا العصر من تقدم في النواحي الصناعية والمادية .

ولكن على الرغم من كل هذا ، أكاد أجزم على أن العناصر الجمالية والتاريخية ، والاتساع الرائع في معارفنا المادية وقدراتنا العلمية ، كل هذا لا يشكل جوهر الحضارة ، أى أنه لن تكون للإنسان قيمة حقيقية بصفته كائناً إنسانياً إلا من خلال كفاحه ليكون على خلق عظيم ، فإذا ضاعت المعايير الأخلاقية من حياة الإنسان انهارت الحضارة الإنسانية من أساسها . ولن تتمكن من إعادة بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد إلا إذا تخلصنا من

فكرتنا السطحية عن الحضارة المادية ، ثم أخذنا من جديد بالنظرة الأخلاقية التي سادت القرن الثامن عشر .
ونستطيع أن نضيف إلى كلام شفايتزر أنه لا بد من توافر شروط معينة حتى يمكن الأخذ بالنظرة الأخلاقية
الأصلية ، وهذه الشروط تتمثل في ممارسة الحرية والالتزام بالمسئولية في نفس الوقت ، أى سيادة القانون التي تعد
الجوهر الحقيقي للممارسة الديمقراطية . وليس القانون سوى التقنين المركز للضرورات الأخلاقية ، لأنه يحدد دائرة
الحرية التي يتحرك داخلها الإنسان مع المسئوليات المحيطة بها . ولذلك فإن الإرادة التي تدين للقانون وتخضع له
هى الإرادة الحرة ، فهى في طاعتها للقانون إنما تطيع ذاتها وتحقق حريتها ، وبسيادة القانون تتوارى الفروق بين
الحرية والضرورة ، وتتسق في ظلها الإرادة العامة والإرادة الخاصة . فليس الإنسان حراً بطبيعته حرية مطلقة لا تحدها
عوائق أو تقوم دونها سدود ، فالتاريخ لا يعرف تلك الحرية المطلقة حتى في حياة البداوة ، فإن ما تتسم به تلك
الحياة البدائية من العنف والضرارة ما يحد من حرية الإنسان وسيادة القانون هى تنظيم للحرية في إطار أخلاقي واجتماعي
يكبح نوازع الشر ، وطفان الهوى ، وضرارة الفرائز . فالقانون والآداب العامة هى قوام المثل الأعلى للحرية ، ولا
يناقض الحرية أن تكبح النوازع الشريرة فان في كبحها وقمعها سياج ووقاء للحرية التي تتحقق في ظل الممارسة
الديمقراطية ، وهذه الممارسة الضرورية تفرض القانون على الفرد تماماً كما تفرضه على الدولة ، فالجميع سواسية أمام
القانون ، من أصغر مواطن في الدولة إلى أكبر مؤسسة في الحكومة .

من هنا كانت العلاقة العضوية بين الممارسة الديمقراطية والضرورة الأخلاقية ، فالديمقراطية في جوهرها نظام
اجتماعي أخلاقي قوامه المساواة والعدل والخير والحرية ، أى أنها تستمد مقوماتها الأيديولوجية من الأخلاق والمثل
والمبادئ الإنسانية ، ويقول جون ديوى إن الديمقراطية ليست مجرد نظام سياسي يحدد إطار العلاقة بين الحاكم
والمحكوم ، فجعلها في الممارسة أوسع من هذا بكثير ، فهى على المستوى الاجتماعي العام أو المستوى الفردي الخاص
أسلوب لممارسة الحياة اليومية ، وطريقة للنظر إلى الأشياء ، والإحساس سواء بالمجتمع المحلي أو بالإنسانية جمعاء .
إنها أسلوب لسلوك الإنسان سواء حيال أسرته أو حيال بني جنسه ، ولذلك فهى تركز حول الاعتراف بالكرامة
الإنسانية ، وفي هذا يقول هارولد لاسويل إن الديمقراطية هى المجتمع الذى ينهض بنيانه على الاحترام المتبادل .
وخطورة الممارسة الديمقراطية أنها تؤثر بطريقة شعورية أو غير شعورية في تشكيل شخصية الفرد وتحديد مسلكه
بصفة عامة ، ابتداء من تصرفاته اليومية ، مثل معاملته لأطفاله أو لخدمه أو لمن هم أقل منه مرتبة في المجتمع حتى
الأهداف الكبرى التي يريد تحقيقها في حياته . وفي هذا يقول السادات في « ورقة أكتوبر » :

« نحن نعلم أن الديمقراطية ليست مجرد نصوص ولكنها ممارسة عملية ويومية . والديمقراطية لا تمارس في فراغ ،
بل لا بد من إطارات تتحدد من خلالها الاتجاهات التي تخص أمور الوطن السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولقد
ارتضى الشعب نظام تحالف قوى الشعب العامل إطاراً لحياته السياسية وإننا في معركة البناء والتقدم لأحوج ما نكون
لهذا التجمع . »

وقيمة الممارسة الديمقراطية تكمن في جانبيها الخلقى والعملى في آن واحد فالممارسة الديمقراطية تستند إلى أسس
أخلاقية ، بحيث تتحول الحكومة إلى مجرد أداة لتنظيمها وتنشيطها وتشجيعها ، فهى أول نظرية للحكم في التاريخ
الحضارى تجعل من كرامة الإنسان مبدأ ، وتضمن المساواة السياسية بين الناس . فهى تعترف بالفردية وتعمل في نفس
الوقت على خلق مجتمع مفتوح يتيح للجماهير شتى الفرص السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تبرز كل الإمكانيات
المتاحة . ولا شك فإنه لا توجد أسس أخلاقية أروع من تلك التي تعمل للنهوض بالكائن البشرى ، وتمنحه الاحترام

والعدالة والأمان والحرية والمساواة ، وهي مثل عليا تملك من القوة ما يجعلها تلقى قبولا في نفوس الناس على اختلاف بلادهم وعصورهم .

والجانب العملي للممارسة الديمقراطية يكمن في توفيرها الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، ولذلك فالتقدم الحضارى المرتبط بها بالضرورة لا يحتمل النكسات أو التكرار أو التراجع أو التشييت ، وبالتالي كلما انتعشت الممارسة الديمقراطية ، اضطرد التقدم الحضارى . ورغم الهجوم الشديد الذى واجهته الديمقراطية على أيدي دعاة الديكتاتورية والفاشية بحجة أن الديمقراطية لا تغنى سوى الفوضى وحكم الدهماء ، فقد أثبت التاريخ أن النكسات وأعمال العنف المنافية للإنسانية والمبادئ الأخلاقية لا تقع إلا في البلاد التى تخفق الممارسة الديمقراطية داخل حدودها ولذلك فالدول الديكتاتورية والفاشية تتمتع بعنصرى الاستقرار والاستمرار رغم أهميتهما المطلقة في التطور الحضارى ، فزوال شخصية الديكتاتور ينهار النظام أو يتصدع ، ومن هنا تبدأ القلاقل والاضطرابات . إذن فالديكتاتورية نظام ظاهره النظام وجوهه الفوضى ، بينما الديمقراطية تبدو على العكس من ذلك تماماً .

وبالمفهوم البسيط المباشر فإن الديمقراطية هي تحويل الأخلاق من مجرد مبادئ إلى ممارسة عملية ويومية على حد قول السادات . وقد عبر وودرو ويلسون عن هذا في مجلة « أتلانتيك الشهرية » في مارس ١٩٠١ حين قال إن « حبنا للممارسة الديمقراطية ينهض على اهتمامها بالأخلاق ، وليلها الطبيعي إلى احترام تطلعات الإنسان العادى إلى درجة عالية من السعى لتحقيق ذاته » . ولكننا نجد أن الممارسة الديمقراطية لم تثر اهتمام الزعماء السياسيين من أمثال ويلسون فحسب ، بل إن الشعراء قد مجدوها على اختلاف مشاربهم ، فترى الشاعر الأمريكى وولت ويتمان يقول إن الهدف الأسمى للممارسة الديمقراطية يكمن في الوصول بالكائن البشرى إلى درجة الكمال الأخلاقى ، وليس في مجرد التركيز على العمل السياسى ، فالممارسة الديمقراطية هي مدرسة تدريب « لصنع بشر من الدرجة الأولى » على حد قول ويتمان الذى يتساءل :

« هل كنت تظن يا صاحبي أن الممارسة الديمقراطية مقصورة على الانتخابات والسياسة والانضمام لهذا الحزب أو ذاك ؟ أستطيع أن أؤكد لك أن الديمقراطية لا تستخدم في هذا المجال إلا لكي تثر أخلاقياً في أرقى صور المعاملة بين الناس ، وفي تفاعلهم الحى مع معتقداتهم فيما يختص بالدين والسلوك والمعاهد والمدارس . . . هذا لكي تسود الديمقراطية كل جوانب الحياة الخاصة والعامة على حد سواء . »

وقد اعتبر فرانسيس ويلاند أن الممارسة الديمقراطية هي أهم عنصر من عناصر علم الأخلاق ، ولذلك يقول في كتابه « عناصر علم الأخلاق » ص ٢٣٧ :

« يخلق الناس جميعاً في ظروف تسودها المساواة التامة ، وكل إنسان يخلق متمتعاً بحق الاستفادة من الميزات التى أنعم بها الله عليه ، مثله في ذلك مثل أى إنسان آخر . وأعتقد أن كلامى هذا من الواضح بحيث لا يقبل أى جدل . »

ونظراً للارتباط العضوى بين الضرورة الأخلاقية والممارسة الديمقراطية في منهج التأصيل الفكرى عند أنور السادات ، فقد آثرنا أن يكون الفصل التالى عن « الممارسة الديمقراطية » عند رائدنا الفكرى العظيم .

الفصل الرابع الممارسة الديمقراطية

كان أرسطو أول من وضع التعريف الأول لمفهوم الديمقراطية ، فقال إن الديمقراطية هي نظام للحكم تتركز سلطته العليا في يد الشعب . ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال الديمقراطية المطلقة التي يحكم فيها الشعب كله حكماً مباشراً فلا بد من وجود من ينوب عنه في الحكم ، أما الديمقراطية المطلقة فقد عرفها جان جاك روسو بأنها من رابع المستحيالات ، ولذلك فهي لم ولن توجد . أما المفهوم العام للديمقراطية فيعنى الحكم بواسطة زعيم يمثل الشعب كله ولا يرتبط بمصالح طبقة أو فئة معينة . وبالرغم من أن الديمقراطية بدأت مع فجر التفكير الحضارى للإنسان فإنها ما زالت تجدد من العقبات ما يسد الطريق أمامها ، وبخاصة أن الإنسان غير الناضج فكراً يهتم دائماً بالاستمتاع بالجانب الأول منها وهو الحرية ، على حين يحاول باستمرار التهرب من الجانب الآخر لها وهو المسئولية . والممارسة الديمقراطية بدون مسئولية تتحول إلى فوضى شاملة ، وبدون حرية تتحول إلى سجن ديكتاتورى ، وفي كلتا الحالتين تنتفى الممارسة الديمقراطية تماماً . ومن هنا كان التحام الحرية بالمسئولية في الممارسة الديمقراطية ، ومن هنا أيضاً كانت الصعوبات التي تعوق تطبيقها على الوجه المنشود . وفي هذا قال وودرو ويلسون أن الديمقراطية هي أصعب أشكال الحكم ، وما زالت هذه الصعوبة موجودة برغم أن الديمقراطية كانت قد أرست تقاليداً منذ ما يزيد عن ألفين وخمسمائة سنة في اليونان القديمة أيام حكم بريكليز .

ومضت القرون منذ أيام بريكليز والبشر يحاولون الوصول إلى النظام المثالى للحكم ، النظام الذى يكفل لهم الحرية ويوفر لهم المساواة ، ويشيع الرفاهية والسعادة في حياتهم ، ولكن الديمقراطية كانت تبدو مثل ومضات سريعة لا تلبث أن تتلاشى في أفق الصراع الرهيب . ظلت الحال هكذا حتى مطلع القرن العشرين عندما تحول العالم إلى وحدة إنسانية بفعل ثورة المواصلات ، ومن هنا كان الصدى الذى يحدث عند بقية شعوب العالم ، إذا ثار شعب من أجل تحقيق الديمقراطية والحرية والمساواة . فلم تعد المسافات بعازل بين مختلف الشعوب . ولذلك اضطبغت الديمقراطية بالصبغة العالمية حتى بلغت حد البديهية الإنسانية التي لا يختلف حولها اثنان ، وإذا اختلفا في التفاصيل وأساليب التطبيق التي قد تختلف من مجتمع لآخر طبقاً لظروفه المحلية والموضوعية ، وأحياناً أخرى يكون الاختلاف نتيجة لأهداف خفية أو لأغراض ذاتية . أما جوهر الديمقراطية في حد ذاته فلا يمكن أن يكون محل جدل أو مساجلة .

والممارسة الديمقراطية تهدف إلى احترام الإنسان وتقييمه موضوعياً مهما كان الاختلاف حول وجهات النظر ، ولذلك تتطلب الصبر مع الذين يصعب إقناعهم ، والاحترام لمن لم يتعودوا عليها وما زالوا يهابونها ، والاعتدال مع المتعصبين الذين لا يرون في تناقضات الحياة سوى الأبيض والأسود . فهذه الممارسة بطبيعتها تعتمد على القانون والإقناع والمنطق الإنساني الشامل ، أما القوة البربرية فلا حساب لها بالمرّة في مثل هذه الممارسة . وما من شك في أن سيادة القانون ، وموضوعية الإقناع ، وقوة المنطق ، هذه كلها عناصر مضادة بطبيعتها للفرائز الحيوانية العشوائية التي تتحكم في الكيان البيولوجي للإنسان . ولذلك تتزايد صعوبات الممارسة الديمقراطية بتزايد طغيان تلك الفرائز . ومع هذا فإن التفكير الإنساني الناضج يدرك تماماً أن الممارسة الديمقراطية هي من أنبل الأفكار الاجتماعية ، والمفاهيم

السياسية ، والاتجاهات الاقتصادية التي اهتدى إليها العقل البشرى ، وأنه لا بديل لها ، إذا أراد الإنسان المتحضر تجنب الفوضى والعنف والقسوة والاضطراب ، والإرهاب ، والخوف ، وعدم الاستقرار ؛ بل إن الصعوبات التي تعترض طريقها تمثل تحدياً للتقدم الحضارى والتطور الفكرى لإنسان القرن العشرين .

ويتركز جوهر الممارسة الديمقراطية فى الحرية التى يختار بها المواطنون حكامهم ، والحرية أيضاً فى الرقابة الدائمة عليهم فى أثناء ممارستهم للسلطة . وهذا الكيان الإنسانى الراقى الذى يتحقق للمواطن فى ظل الممارسة الديمقراطية ، يتمثل فى تساويه مع باقى المواطنين - دون استثناء - أمام القانون ، وفى الاقتراع ، وفى انتخاب ممثليه النيابيين دورياً . ولا يطبق عليه تشريع إلا بعد موافقة الأغلبية ، وأيضاً فإن له من حرية العمل السياسى ما يكفل له استغلال مواهبه وقدراته فى حدود المسئولية تجاه الصالح العام للوطن . وهذا المفهوم الإنسانى للممارسة الديمقراطية يمثل الإطار العام لمفهوم السادات لها ، ولكنه يضيف إليه تنويعات وإضافات تنبع من منهجه للتأصيل الفكرى ولا شك فالمفكر الأصيل لا يأخذ أى شىء على علته ، بل يبدأ باستيعابه بمرونة وبعد ذلك يستغل إيجابياته التى تتمشى مع التطبيق العملى على الواقع الراهن . وفى هذا يخص السادات فصلاً كاملاً فى كتابه « قصة الثورة كاملة » بعنوان « ما هى الديمقراطية ؟ » يحدد فيه تحديداً أكاديمياً وعملياً الإجابة على هذا السؤال الحيوى والخطير ، ثم يوجه الإجابة إلى المواطنين ص ١٣ فيقول :

« الديمقراطية بالنسبة لكم هى تحقيق مصالحكم ، لا مصالح الأقلية . الديمقراطية هى انتزاع الحقوق المسلوقة ، واسترداد الأرض من غاصبيها ! الديمقراطية هى التخلص من القيود ، تلك التى كانت فى رقابنا ، وحول أذرعنا ، وعقولنا أيضاً . ! الديمقراطية هى استقلال الوطن ، وسيادة الأمة ، والمساواة ، والعدل ، هى تقرير المصير . ! وفى اللحظة التى قامت فيها ثورة ٢٣ يوليو ، كانت الديمقراطية هى الطريق ، طريق هذه الثورة الذى انجبت إليه بكل ما تملك من رجال وسلاح وإيمان . . لأنها لم تكن ثورة خاصة بفئة معينة ، بل هى نفس الثورة المصرية التى قامت من قديم ، وهدفها التخلص من أعداء الشعب ، وإقرار الحق والعدل والمساواة ، وسيادة الأمة . من أجل هذا مضت الثورة المصرية بعد انتصارها فى ٢٣ يوليو بخروج الجيش إلى المعركة . . جنباً إلى جنب مع الشعب . أقول مضت نحو الديمقراطية دون تردد ، وكان عليها لكى تحقق هذه الديمقراطية ، ولكى تعلق الدستور المتضمن نصوصها وأسسها جميعاً ، أن تتخلص أولاً من أعداء الديمقراطية أى أعداء الدستور ، وهم أعداء الشعب . . وكان العدو الأول هو الملك . . بل هى الأسرة التى كانت تحكم . . وانتصرت الثورة على العدو الأول . . وبهذا أرسى الثورة أولى قواعد الديمقراطية . .

ثم كان جلاء القوات المحتلة عن بلادنا هو الانتصار الثانى للثورة . بل للديمقراطية ، أما الانتصار الثالث للديمقراطية فكان قانون الإصلاح الزراعى . . وبعد ذلك مضت الثورة ترسى قواعد النظام الديمقراطى الذى سيسود البلاد ، بعد فترة الانتقال ، وتعد له الضمانات التى تكفل قيامه وحمايته وازدهاره . . ولم يكن رفض الثورة الارتباط بحلف عسكرى مع الدول الكبرى إلا إيماناً بالديمقراطية ، والتصميم على قيامها فى جمهورية مصر . . ذلك لأن الحلف العسكرى كان سيجعل الشعب وأرض الشعب وموارد الشعب فى خدمة مصالح تلك الدول الكبرى وتحقيق المنافع لها . ! وفى ظل الحلف العسكرى المذكور كانت مصر ستصبح دولة تابعة ، والديمقراطية من المحال إرساء قواعدها وتحقيق مضمونها ، إلا فى الدولة التى لا تخضع لسيطرة أجنبية ، أو لتوجيه من خارج حدودها . ! إصرار الثورة إذن على موقفها من الحلف العسكرى ، كان الغرض منه حماية النظام الديمقراطى الذى ستحكم به مصر بعد فترة الانتقال ، وبالتالي حماية مصالح الشعب . »

وفلسفة السادات هذه نابعة من إيمانه بطاقات الخير التي جبل عليها الإنسان ، والتي لا يمكن التعبير السليم عنها إلا من خلال الممارسة الديمقراطية . ومن هنا كان التفاؤل الذي يسود فكر السادات فيما يختص بمستقبل الإنسان وهو في هذا يتناقض تناقضاً حاداً مع المفكرين المتشائمين من أمثال نيكولو ماكيافيللي وصامويل بوفندورف اللذين قالوا إن الإنسانية مجرد قناع زائف يخفى الإنسان وراءه وحشيته البدائية وغرائزه البربرية ، وبذلك ستظل الديمقراطية حلمًا جميلًا غير قابل للتحقيق . وفي هذا يقول ماكيافيللي في كتابه « الأمير » :

« في الإمكان القول إن الناس بصفة عامة ناكرون للجميل ، خبيثو اللسان ، متصنعون ، حريصون على تفادي المسئولية ، والحصول على الكسب بكل الوسائل المتاحة . وهم على أتم استعداد لخدمتك إذا كان في هذا فائدتهم الشخصية . والأمير الذي يعتمد تماماً على أقوالهم دون فحص أو تمحيص لا بد أن تتنابه الكوارث . والناس لا يترددون في إهانة شخص قد يكون موضع حبهم ، مثلما يترددون في إهانة شخص آخر قد يكون مثار خوفهم فالحب مرتبط بسلسلة من الالتزامات التي يرحب الناس بحرقها بدافع من الأنانية إذا كان في ذلك خدمة لأغراضهم . » وبالطبع فإن الممارسة الديمقراطية يستحيل تطبيقها في مجتمع مثل ذلك الذي يتحدث عنه ماكيافيللي ، والذي يفترض فيه قانون الغابة ، بمعنى آخر فهو يطالب بالحكم الديكتاتوري المطلق للأمير ، لأن الناس مجرد حيوانات شرسة لا تعرف الحرية أو المساواة . ولكن هذه النظرة المشائمة نظرة قاصرة لأننا إذا افترضنا فساد الطبيعة البشرية ، فهذا يعني بالتالي فساد تفكير الديكتاتور لأنه لا ينتمى إلا إلى هذه الطبيعة الفاسدة ولا يمكن أن يعلو عليها إلى مصاف الآلهة . وبالطبع فالسادات المفكر المؤمن المتفائل لا يتفق مع هذه النظرة التي تحط من قدر الإنسان ، وأيضاً لا يتفق مع صامويل بوفندورف الذي ينادى في كتابه « سنة الطبيعة والشعوب » بأن :

« الحيوانات تتنازع أحياناً على طعامها في حالة ندرته فقط ، بينما الناس يتصارعون فيما بينهم ، بدافع من شدة الجوع ، على نحو عنيف جداً زاحراً بالآثام والشهوات التي لا يمكن أن تخطر على بال الحيوانات ، فالناس يلهثون دائماً وراء الأشياء التي تزيد عن حاجاتهم ، وهم مصابون بلعنة الطموح التي تعد مصدراً لكل الآثام ، ويبدو أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي أصيب بهذه اللعنة من دون كل المخلوقات الأخرى . »

وهكذا يتحول الطموح في نظر بوفندورف إلى مجرد لعنة ، وهو بهذا يتجاهل أن الطموح هو المحرك الرئيسي وراء التطور الحضاري للإنسان ، وبدونه يظل الإنسان على المستوى البدائي للحيوان . ولعل أروع ما في الممارسة الديمقراطية أنها تتيح الفرصة كاملة لهذا الطموح لكي يعبر عن نفسه ، ويثبت إمكانياته في الاتجاه الصحيح ، وبالتالي فهذه الممارسة شرط أساسي للتعمير الحضاري لأمة قررت مواكبة المدينة المعاصرة . وفي هذا يقترب السادات من جون لوك الذي يهدف إلى إحلال نظرية الحقوق الطبيعية محل نظام الحكم الاستبدادي حيث تكون كل السلطة في يد شخص واحد على حين يحرم سائر الناس من ممارسة أية سلطة . ولذلك ينادى جون لوك بأن الناس يولدون مزودين ببعض الحقوق الأساسية ، ومن بينها الحق في الحياة والحرية والملكية ، وهم لا يتنازلون عن هذه الحقوق مقابل الحصول على عضوية المجتمع المدني . هذا لسبب بسيط وهو أن هذه الحقوق الطبيعية وجدت قبل تشكيل الحكومات وإنشاء المجتمعات ، بل إن هذه الحكومات والمجتمعات يجب أن تكون تعبيراً عن هذه الحقوق . ويؤكد جون لوك أن الكون الذي خلقه الله يقوم على قواعد منسقة وضعها الخالق العظيم لتنظيم شئون العالم . وهذه القواعد والقوانين تنطبق على الإنسان مثلما تنطبق على الطبيعة . ولا يعقل أبداً من ناحية المنطق والإدراك السليم أن يكون الخالق قد استثنى أموراً من قوانينه الكونية . ولزيادة الإيضاح والتحليل كتب لوك في « الرسالة الثانية » يقول :

« للطبيعة قانون طبيعي يحكمها ويحكم كل الناس في الوقت نفسه وهذا القانون هو العقل الذي يمنح الإدراك للإنسانية كلها ، إن توافر المساواة والحرية يتطلب ألا يؤذى الإنسان غيره سواء في حياته أو صحته أو حريته أو ممتلكاته . وما دام الناس كلهم من خلق الله فهم ملوكه وهو وحده الذي يحدد مصيرهم . وما دمنا جميعاً متساوين في القوى العقلية ونعيش في جو من المشاركة الطبيعية فلا يمكن أن نفترض وجود فوارق بيننا تسمح لنا بأن يحطم بعضنا بعضاً » .

وتمشياً مع نفس المنطق الإنساني يقول السادات في « قصة الثورة كاملة » ص ١٦ :
 « لا ديكتاتورية إذن ولا حكم فرد ، ولا سيطرة لطبقة على طبقات ، ولا مصلحة إلا مصلحة الشعب . . ! إن الخطوات التي تمت خلال أعوام الانتقال ، لم تكن لتمهد على الإطلاق إلا لشيء واحد . . هو الدستور الذي يجعل الديمقراطية السليمة مصونة من كل سوء ! وإلا فما معنى أن تتم كل هذه الخطوات الجبارة نحو التقدم والتحرر ! ؟ »
 ثم يوجه السادات سؤاله الحيوي إلى مختلف فئات الشعب فيقول :
 « هل عرفت إذن ما هي الديمقراطية ! ؟ أنت أيها العامل ويا فلاح ، ويا صاحب الحاجة ، ويا طالب الرزق والعلم والصحة والأمن ! ؟ »

افتح إذن الباب واخرج إلى الطريق ، فلن يقطع عليك الطريق عدو من هؤلاء الذين بطشوا بك في الماضي . . لا سبيل أمام الأعداء للبطش بك أو بحقوقك في كنف النظام الجمهوري الديمقراطي ! »
 وفي هذا يتفق السادات مع كانط في رسالته « نحو السلام الدائم » والتي ينادي فيها بأن الدستور المدني للدولة يجب أن يكون جمهورياً ، لأن الدستور الجمهوري هو وحده الذي يحقق المبادئ التي تقوم عليها فكرة العقد الأصيل بين الحاكم والمحكوم ، ويقوم عليها أيضاً كل تشريع قانوني للشعب . وفي مقدمة هذه المبادئ يأتي مبدأ حرية أعضاء الجماعة بوصفهم بشراً ، أي مبدأ حرية المواطنين ، ثم مبدأ خضوع المواطنين جميعاً لتشريع واحد مشترك ، ثم مبدأ المساواة بين جميع المواطنين . ولذلك فإن الدستور الجمهوري هو الأساس في كل أنواع الدساتير المدنية ، فهو التعبير عن ينبوع الصافي لفكرة الحق والواجب بما تحمله من تنظيم عملي وواقعي لحياة الفرد داخل المجتمع . والممارسة الديمقراطية تسعى إلى ما أسماه الفارابي « بالمدينة الفاضلة » وهو الاسم الذي أطلقه الفارابي على المثل الأعلى للحكم . فهي المدينة التي ينال مواطنوها السعادة القصوى في الدنيا والآخرة ، إن هذه المدينة أشبه بالجسم الواحد لا يستقيم أمره إلا بالتضامن والتعاون وتوزيع الأعمال على أساس القدرات والمواهب . ويرى الفارابي أن الإنسان لا يقدر على العيش معزولاً عن غيره . فهو محتاج إلى أشياء كثيرة لا يستطيع القيام بها وحده ، وإنما لا بد أن تساعد الجماعة ، ولا بد أن يرتبط بأعضائها بعلاقات وروابط قوامها الحرية والمساواة والمحبة . وعلى سبيل التأسيس الفكري يجدر بنا أن نسجل أن الفارابي قد سبق جان جاك روسو بعدة قرون ، وذلك عندما نادى ببلورة تلك الروابط الاجتماعية قبل أن يعلنها روسو في نظرية « العقد الاجتماعي » .

فقد أعلن روسو في الصفحة الأولى من « العقد الاجتماعي » أن الإنسان يولد حراً ، ومع ذلك فهو مكبل في كل مكان . ويعتقد الكثير من الناس أنهم سادة للآخرين ، وهم في الحقيقة أكثر عبودية منهم ، ولذلك ينادي روسو بإيجاد نظام اجتماعي يكفل الحق ، ويلزم بالواجب . وبما أنه ليس في مقدور الناس خلق قوة جديدة ، وإنما تنظيم وتوجيه القوة الموجودة بالفعل ، فليس أمامهم سوى الاتحاد والعمل في تفاهم ووفاق وحب . ولكن هذا ليس بالأمر السهل . فالطبيعة البشرية بكل غرائزها وشطحاتها وطاقاتها البيولوجية تخلق المشكلة تلو الأخرى في سبيل إيجاد شكل من أشكال الاتحاد يتكفل بالاشتراك مع باقي الأفراد في حماية شخص وممتلكات كل فرد .

ومع هذا يظل الإنسان في حاجة ملحة إلى مثل هذا الاتحاد إذا أراد أن يكون سيد نفسه وأن يبقى حراً كما كان يوم أن ولد .

ويؤمن السادات أن هذا الاتحاد القائم على الحرية والمساواة يجب أن يتلاءم مع طبيعة كل أمة وظروفها التاريخية والحضارية حتى لا تلفظه التربة المحلية ، ومن هنا كانت الدلالة الكامنة وراء الخطوات العملية التي تتخذ من أجل إرساء تقاليد وقواعد الممارسة الديمقراطية . يقول السادات في « قصة الثورة كاملة » ص ٢٥ :

« إن الثورة تفسر الديمقراطية بأعمالها وبخطواتها التي تتم في العلن ، الثورة تفسر الديمقراطية بالكفاح العملي من أجلها . فهي عندما تقضى على النظام الملكي العفن ، وترسى قواعد النظام الجمهوري ، فتلك خطوة نحو الديمقراطية كان الشعب حتماً سيخطوها لو لم تقم الثورة في ٢٣ يوليو ، وكان سيخوض معركة دموية حتى يتهاوى ذلك النظام العفن .

والثورة تفسر الديمقراطية بالقضاء على الاستغلال والظلم الاجتماعي والإقطاع كان يمثل في مصر هذا الاستغلال والظلم ، وقضت عليه - سلمياً - بلا دم ، كان سيسيل في القرى إذا كان الشعب قد خاض معركة مباشرة ضد الإقطاع في عقر داره ! والثورة تفسر الديمقراطية بالوقوف في وجه الأرستقراطية المصرية التي كانت تحكم بأبنائها من الباشوات والبيكوات والأساتذة والسمارة . . وحالت الثورة - نهائياً - بين هؤلاء وبين الشعب ! والثورة تفسر الديمقراطية بالقضاء على التعصب وحكم السمع والطاعة . . أي على الجماعات التي تريد أن تحكم باسم الدين . . لا باسم أي شيء آخر . »

ويعتقد السادات أن إيمان الثورة بالديمقراطية قد جنب الشعب المصري الوقوع في براثن الثورات الدموية وما تركه من رواسب بين أبناء الشعب الواحد ، وهي رواسب قد تستمر لعدة أجيال وقد يحدث بسببها مضاعفات قد تنفجر فيما بعد على شكل انقلابات دموية أخرى ، مما يدخل الأمة بأسرها في دوامة دموية رهيبة قد يصعب الخروج من دائرتها المفرغة . أما الممارسة الديمقراطية فيمكن أن تجنب الأمة كل هذه المآسى لأنها تتكفل بالتقليل من السخط العشوائي إلى أدنى درجة . فني المجتمعات ذات الحكومات الاستبدادية يلجأ الناس ، إن عاجلاً أو آجلاً ، إلى العنف ، وبخاصة عندما يعجزون عن التعبير عما يشكون منه أو يفضيهم بوسائل أخرى . أما عندما تمارس الديمقراطية فليس هناك أي سبب أو مسوغ للناس غير الراضين أو الساخطين لأن يستخدموا الرصاص وأن يسيلوا الدماء طالما أن في وسعهم التعبير عن آرائهم بحرية . ولذلك يقول فرانسيس بيكون في إحدى رسائله إن الحياة الديمقراطية تكون في العادة أكثر هدوءاً ، وأقل تعرضاً للعصيان والتمرد ، من الحياة التي تخضع للنبلاء المستبدين . فحرية الرأي مكفولة للجميع في ظل الممارسة الديمقراطية ، والحرية هنا هي الحرية المسئولية التي تتحرك في الحدود التي ترسمها المصلحة العليا للوطن . وفي هذا المعنى يقول السادات في مقالة له على صفحات مجلة « التحرير » في ٣٠ مارس ١٩٥٤ .

« نحن لا نمنع أي مواطن من أن يقول كل ما يشاء ، فليقله في خطبة ، أو في مقال ، أو في رسالة أو في كتاب . . فليقله بالطريقة التي يختارها بمحض إرادته . . ولكن عليه أن يمنحنا الفرصة لسماع رأيه ، والتفكير فيه ، وفي إقناعه بخطئه إن كان خاطئاً ، أو لتنفيذه إن كان على صواب . . أما استغلال حينا لمواطنينا ، وحرصنا على سلامتهم وعلى حياتهم ، وعلى تحقيق مطالبهم التي تتفق مع مصلحة البلاد . . هذا الاستغلال فيه لون من الأثرة ، أو من فرض الرأي ، وهو ما تحاربه الثورة ، التي تؤمن بأنه لا يحق لجماعة أن تفرض رأيها على جماعة ، بغير طريق المنطق والإقناع والإيمان . »

فجوهر الممارسة الديمقراطية يتمثل في كفالة الحرية للمواطن بما لا يتعارض وحرية الآخرين ، فالحرية المطلقة

لا تعنى سوى الفوضى التى تعمل على تقويض بناء المجتمع وتضليل أفرادهِ . وأيضاً فإن سيادة القانون تجعل الفرد يحس بكرامته وإنسانيته واطمئنانه إلى التعبير عن نفسه بحرية دون خوف من بطش أو عقاب . ولا شك فالإحساس بالمساواة والعدالة يدفع المواطنين إلى التفانى فى خدمة الأمة والتضحية فى سبيلها . وكما أن للديمقراطية جانبها المثالى المجرد كذلك لها جانبها الواقعى المادى ، فهى تعنى توفير العمل والعيش الكريم لكل مواطن ، كما أنها تدربه على تحمل المسئولية ، والمشاركة فى الحكم ، وبذلك تذوب الحدود بين الحاكم والمحكوم ويتحول الوطن كله إلى أسرة متحابّة تنهض على « قواعد العقل ، والوفاء ، والحب ، لا على أساس الحسد ، والقوة ، والخصام » على حد قول فيلسوفنا العظيم الفارابى . وقد حدد عالم الاجتماع الفرنسى مونتسكيو مفهوم الحرية بأنها الحق فى عمل كل ما تسمح به القوانين . وبدون القوانين الفعلية لا يمكن أن تصان الحقوق الفردية أو الحقوق القومية على حد سواء ، وعلى المستوى نفسه فإنه من المستحيل أن تتحقق الحرية فى دولة خاضعة لدولة أخرى . فهى لا تنفذ سوى مشيئة الدولة المسيطرة بصرف النظر عن العدالة الموضوعية ولذلك فإنه يتحتم على الدولة الخاضعة أن تسترد حريتها أولاً ، عندئذ يمكنها فقط تنظيم العلاقات الإنسانية بين الأفراد والفئات المختلفة فى الداخل ، فالواقع أن الحرية داخل الوطن ترتبط عضوياً بالحرية خارجه . ومن الصعب أن يكون للقانون سيادة داخل الدولة ، إذا كانت هذه الدولة غير قادرة على ممارسة سيادتها القومية فى المجتمع الدولى . ولذلك كان على ثورة ٢٣ يوليو أن تقضى على الملكية فى الداخل وعلى الاستعمار المتعاون معها من الخارج فى نفس الوقت ، ذلك لكى تأخذ الممارسة الديمقراطية كل أبعادها الممكنة التى بدونها لا يمكن أن تتحقق أية عدالة اجتماعية على الإطلاق . وفى كتابه « القاعدة الشعبية » يربط السادات العدالة الاجتماعية بالممارسة الديمقراطية فيقول ص ١٥ :

« العدالة الاجتماعية تعنى أن يأخذ كل مواطن فرصة متكافئة مع أخيه بصرف النظر عن الغنى أو الفقر ، وبصرف النظر عن أى اعتبارات . ونحن نعلم أنه كان لا يمكن أبداً أن تكون فى بلدنا حرية وبعضنا أسياد والبعض الآخر عبيد . فقد كان الملك تركى الأصل وكنا نحن جميعاً نشكل طبقة الفلاحين أى العبيد . كان لا يمكن أبداً أن تقوم ديمقراطية أو حرية حقيقية إلا بالقضاء على كل هذه الفوارق المصطنعة ، وقد كان أن طرد الملك ، وبطرده عادت الأرض إلى الفلاحين وعادت السيادة إلى أصحابها الفلاحين . من أجل ذلك كان لا بد من تطبيق العدالة الاجتماعية . لكى يستطيع كل فرد أن يحس بالحرية المطلقة وأى يحس بأنه فى هذا الوطن له من الحقوق ما لكل مواطن يعيش على هذه الأرض . . لا فوارق ولا سادة ولا عبيد ، وإنما نحن جميعاً مواطنون شرفاء نعمل من أجل بلادنا وندافع عنها ضد العدوان وضد المؤامرات . »

وحرية الرأى ضرورية وحيوية بالنسبة للتقدم الحضارى لأية أمة ، فمن خلال ممارستها يستطيع القائمون على الأمر التعرف على مواطن الضعف فى التجربة القومية ، وبالتالي يمكن تلافيها قبل أن تتضخم وتفتحل . فحرية الرأى هى التعرف على الداء عن أقصر طريق والقضاء عليه بأسرع السبل . ولذلك فالممارسة الديمقراطية لا تؤمن بالمسكنات المؤقتة أو الوسائل الإعلامية التى من شأنها صرف الرأى العام عن المشكلات الحيوية . لأن سلوك النعامة هذا لن يحلها بل سينتج عنه مضاعفات ورواسب قد يصعب التخلص منها فيما بعد . ولذلك يجب أن تكون حرية الرأى على كل المستويات لأنها لا تتجزأ ، فإذا منحت حرية الرأى لفئة معينة وحرمت منها فئة أخرى ، فإن حرية الرأى ذاتها ستنتفى من أساسها ، لأنه يستحيل أن يكون الإنسان حراً فى رأيه لدرجة أن يحرم غيره من ممارسة الحرية نفسها . ولذلك يقول السادات فى الكتاب نفسه ص ١٧ :

« نحن نؤمن بأن الديمقراطية الحقيقية هى أن يكون لكل فرد منا فى هذا الوطن : للفلاح وللعامل وللموظف وللطالب .

لكل إنسان متعلم وغير متعلم الحق الكامل في أن يبدى رأيه في حرية وصراحة ، ولا يخشى من إبداء رأيه أية سلطة في هذا البلد . نحن نؤمن بأن الديمقراطية الحقيقية هي أن يسمح لكل مواطن مهما كان وضعه الاجتماعى بأن يعبر عما يحس به من حرية .

ويؤكد السادات أن الممارسة الديمقراطية لا تتيح فرصة إبداء الرأى للمواطن فحسب ، بل تمنحه حق مراقبة الحكام ومحاسبتهم كما يقول ص ١٨ من الكتاب السابق نفسه :

« الديمقراطية الحقيقية هي أن يكون لكل مواطن الحق في إبداء رأيه في حكامه وفي مراقبتهم ومحاسبتهم . الديمقراطية النظيفه هي أن نصل إلى مرتبة جديدة وإلى وضع جديد لا يستطيع فيه الحاكم أن يستغلنا من جديد أو أن يعود بنا إلى الوراء » .

وعلى سبيل التأسيس الفكرى ، فإن الممارسة الديمقراطية ليست شيئاً جديداً على الشعب المصرى العريق ، فله سجل حافل بالكفاح من أجلها قبل أن يدرك الغرب معناها ، فإذا كانت الممارسة الديمقراطية قد تبلورت في الغرب في أواخر القرن التاسع عشر ، فإن مصر قد سبقته بقرن كامل من الزمان ، ولم تقتصر على المساهمة بها بل عرض أبناؤها حياتهم للخطر من أجلها . وفي كتاب « يا ولدى هذا عمك جمال » يشرح السادات لابنه الجذور البعيدة للممارسة الديمقراطية في مصر من خلال مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الجبرى . فيقول له ص ١٥ :

« في سنة ١٧٩٥ الميلادية أى منذ مائة وستين عاماً من يومنا هذا ، حين كانت دول كثيرة من التى تطلق على نفسها دولا كبرى أو عظمى اليوم ، لا تزال شعوبها تجهل القيم الحضارية والحقوق الأساسية للإنسان ، كان الشعب المصرى يفرض إرادته على حكامه ، في وثيقة أجمع المؤرخون المصريون والأجانب على أنها بحق ، وثيقة إعلان حقوق الإنسان .

في سنة ١٧٩٥ قرر الشعب المصرى ما يأتى :

- ١ - ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب . .
 - ٢ - أن يتزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم . .
 - ٣ - ألا تمتد يد ذى سلطان إلى أى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع . .
- وذهب الشعب إلى أبعد من ذلك فأجبر حكامه في ذلك الوقت على الاعتراف في هذه الوثيقة بخطتهم وأنهم « تابوا ورجعوا » .

ويستمر السادات في سرد قصة الصراع المبكر من أجل الممارسة الديمقراطية ، ويحكى كيف احتدم النقاش بين الشعب وحاكميه ، بين شعب أعزل إلا من الإيمان ، والتصميم ، وبين حاكم مسلح تعود الطغيان ثم يعلق السادات على هذا الموقف التاريخى العظيم فيقول محللاً إياه تحليلًا علمياً موضوعياً هادئاً ص ١٨ :

« كان تسجيل هذه الحقوق في حد ذاته معنى من أخطر المعانى . فحقوق الشعب حقوق مشروعة . . ومطالبه مؤيدة . . وقاضى قضاة البلد مختص بتسجيل هذه المطالب . . ودمغ هذا الصك بالدمغة الرسمية والشرعية ، وهى وثيقة لحقوق الإنسان كأقدم ما تكون الوثائق ، أعلنها شعب مصر منذ مائة وستين عاماً ، ليفهم الناس عن هذا الشعب غير الذى يحاول المستعمرون وأذئابهم أن يبقوه في الأذهان ، وليدرك العالم أن مصر العظيمة في القديم ، كانت هي هي مصر البارة بالإنسانية ، والحريصة على كرامة الفرد ، في تاريخها الحديث . .

إن سطور هذه القصة الساذجة لتعكس يا بنى روح شعب مصر الوداع الصبور ، المكافح . . وتعكس في نفس الوقت مدى فهمه منذ القدم للمعاني ، والقيم الإنسانية . . فبدأ عدم فرض الضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب ، وهو

الذى نادى به شعب مصر عام ١٧٩٥ وأرغم حكامه على التسليم به ، هو أروع دليل على ما لشعب مصر من وعى ديمقراطى أصيل منذ القدم . . وعى ليس مفتعلا ولا مدسوساً ، وإنما هو وعى من صميم البيئة المصرية التى ورثت على مر الأجيال والسنين ، تقاليد حضارات مجيدة . . كانت كلها حضارات علم وبناء وعمران . .

وانظر يا بنى إلى الحوار الذى حوته هذه القصة ، والذى دار بين ممثلى الشعب وممثل شيخ البلد الحاكم . . إن الثورة الفرنسية كلها لتضائل أمام المغزى العميق لهذا الحوار . . «

هكذا يؤكد منهج التأصيل الفكرى عند السادات ، الدور الريادى الذى قامت به مصر من أجل الممارسة الديمقراطية والعدالة الاجتماعية . لم يحاول الشعب المصرى مجرد الحديث عن وجوب تطبيق الممارسة الديمقراطية بل انطلق من تلقاء نفسه لكى يطبقها ، حتى ولو عرض نفسه للخطر . وهذا يؤكد لنا الطبيعة العملية للشعب المصرى ، على عكس ما حاول الكتاب المفرضون إصااق تهمة التراخى والتكاسل والتواكل والاكتفاء بالكلمات الرنانة ، بهذا الشعب الرائد سواء فى مجال الفكر الفلسفى الإنسانى أو فى مجال العمل المادى الواقعى .

ويعلق السادات على هذه الريادة الفكرية والعملية فيقول فى الكتاب نفسه ص ١٩ :

« إن العدالة الاجتماعية التى لم يعرفها العالم إلا حديثاً ، قررها شعب مصر فى حوار الساذج مع حكامه حين اشتكى ممثلو الشعب من فداحة الضرائب . . فرد الدقردار أن النفقات باهظة . . فكان رد الشعب : « وما الباعث على الإكثار من النفقات والأمير يكون أميراً بالعطاء لا بالأخذ » .

أتعرف يا بنى ماذا تحويه هذه العبارة الهادئة المرسله فى غير تكلف أو غرور ؟ إنها تعنى أن الأمير أى الحاكم فرض عليه أن يرفع عن كاهل رعيته الأعباء . . فلا يكلفها من النفقات الباهظة ما لا تطيق . . وأن الحاكم لا يستحق تأييد شعبه ، إلا إذا كانت سياسته هى العطاء أى توفير الحياة الكريمة لجميع أفراد هذا الشعب بإعطائهم حقوقهم ، وإعطائهم فرصاً متكافئة فى الحياة . . وإعطاء الشعب نصيبه العادل فى أمواله وميزانيته . . فلا يستأثر لنفسه ، ولا لحاشيته ولا لفئة دون فئة بما يكون ملكاً لهذا الشعب .

وهل تكون العدالة الاجتماعية غير هذا المعنى ؟ أو هل تفسر العدالة الاجتماعية بغير هذا التفسير ؟

واستلهاماً لهذه الروح المصرية الأصيلة ، رفع السادات شعار الممارسة الديمقراطية - منذ توليه المسئولية والحكم - وطبقه بالفعل برغم الظروف الاستثنائية التى كانت مصر تمر بها بعد هزيمة ١٩٦٧ ، فلم يلجأ إلى أية إجراءات استثنائية برغم أن هذه الظروف تسمح لأى حاكم أن يتخذ من الإجراءات الاستثنائية ما يترأى له حتى تجتاز الأمة المحنة الراهنة ، ولكن إيماناً منه بأصالة الشعب المصرى ، وعمق وعيه ، ونفاذ بصيرته ، فقد رأى أن الحياة الديمقراطية السليمة خير سند لاجتياز المرحلة الحرجة ، وأراد فى الوقت نفسه أن يؤصل هذا المعنى الإنسانى الكبير فى وقت حرج ومرحلة استثنائية حتى يرسخ فى الوجدان المصرى على أنه بديهية لا بد أن تخرج إلى حيز التنفيذ على مر الأجيال المختلفة . فأعظم وأخلد الدروس التى يتعلمها أى شعب هى الدروس التى تأتى فى أوقات المحن ، ولذلك فهى تتحول فيما بعد إلى قطعة حية من وجدانه وضميره . ولعل النجاح الذى حققه ونستون تشرشل فى قيادته للشعب البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية هو إيمانه بأن النقد الحر البناء للسلطة لا يتعارض إطلاقاً مع ظروف الحرب التى تخوضها البلاد . ففى خطاب له فى مجلس العموم فى ١٢ نوفمبر ١٩٤١ قال : « إني أوافق السير بيرسى هاريس فى قوله إن النقد فى زمن الحرب هو شريان الحياة الديمقراطية الحقة » ، ولعل هذا هو السر فى الشهرة العالمية الراسخة التى حققتها الديمقراطية الإنجليزية فى حين أن بريطانيا لم تعرف طوال تاريخها العريض دستوراً مكتوباً ، فالعبرة ليست بالنصوص المكتوبة ، ولكن بإرساء التقاليد وتأصيلها إلى الحد الذى تتحول فيه إلى سلوك يومية للأفراد .

ولم يكتف السادات بالمناداة بالممارسة الديمقراطية بل كان أول من قام بتنفيذها حتى يضرب المثل الأعلى عن طريق الدرس العملي ، فالغنى كافة الإجراءات الاستثنائية وأغلق المعتقلات . ويعود إلى تأصيل هذا الاتجاه الإنساني في « ورقة أكتوبر » فيقول :

« كان جهدى أن نقيم دولة المؤسسات ، وأن يمارس المواطنون نشاطهم في سياج من سيادة القانون . ولم أتردد في أن يتم التخلص من كافة الإجراءات الاستثنائية بالتدريج وأن تغلق كل المعتقلات أبوابها بعد ما يقرب من أربعين سنة من وجودها في ظل مختلف الظروف وإننى لوائق من أن الشعب لن يسمح بفتحها من جديد في يوم من الأيام . وما زال هدفي ألا تكتفى الدولة بتحرير طاقة أبنائها عن طريق إزالة السدود والقيود ، بل أن تتقدم أيضاً إلى رعايتهم وحمايتهم بتوفير مظلة من الضمانات الاجتماعية الشاملة . وتوسيع قاعدتها باستمرار ، حتى يأتى ذلك اليوم الذى يستظل فيه بظلها كل فرد .

إننا يجب أن نفهم الاشتراكية بالعقل والقلب معاً . ولذلك لا يجب أن ننقطع عن التفكير في جماهيرنا الأكثر حرماناً في وسائل توفير أكرم سبل العيش والأمان والتقدم لها . فالأهم تقاس بمستوى قاعدتها العريضة لا بمستوى قممها القليلة .

وقد كنت أعرف أن هذا كله لا بد أن يحمل معه حركة أكبر للآراء والأفكار والاجتهادات . ولكننى كنت أومن أيضاً أن هذا أمر مطلوب وصحى وأنه الطريق الوحيد لتربية جماهيرنا على الفكر والحوار والمشاركة من خلال ما ارتضيناه من مؤسسات . كما أننى كنت واثقاً أن فطرة شعبنا السليمة ، التى هى مصدر وعيه السياسى الحساس سوف تكفل لنا أن نمارس هذه التجربة من النضج الديمقراطى فى سلام .

نحن نعلم أن الديمقراطية ليست مجرد نصوص ولكنها ممارسة عملية ويومية .

وحركة التصحيح التى بدأت فى مايو ١٩٧١ ، لم تكن سوى مبادرة السادات إلى تعليم الشعب ضرورة الممارسة الديمقراطية وحتميتها . فلم تكن هذه الحركة موجهة ضد أشخاص معينين بقدر ما كانت بهدف إرساء العلاقات الجديدة التى يطالب بها الشعب بين الحاكم والمحكوم . فقد فوجئ السادات فى آخر اجتماع عقدته اللجنة التنفيذية العليا قبل حركة التصحيح مباشرة ، فوجئ بأن مراكز القوى تريد أن تخنق الممارسة الديمقراطية فى مهدها . حتى يخلو لها الجو وتمارس نفوذها كما تشاء ، فلم يكن الأمر مجرد اختلاف فى وجهات النظر ، فالسادات - بصفة خاصة - من القادة والرواد الفكرين الذين يؤمنون أن الاختلاف ظاهرة قوة وصحة ، فأعضاء الأسرة الواحدة يختلفون ومع ذلك تظل الأسرة وحدة لا تنقسم عراها . ولكن الأمر هنا تحول إلى صراع رهيب تريد مراكز القوى أن تتسلل من خلاله حتى تصل إلى القبض على زمام الأمور وسحق كل قوة شعبية تقف فى طريقها .

وبرغم هذا الصراع الرهيب لم يفقد السادات إيمانه بالممارسة الديمقراطية . وكانت نتيجة عدم القدرة على حسم الخلاف أن طلب عرض الأمر على اللجنة المركزية كامتداد لنفس الأسلوب الديمقراطى الذى لا يريد أن يحيد عنه رغم معارضة مراكز القوى الشديدة له ، وأكد لهم بالحرف الواحد أن : « كل مشاكلنا عايز أحلها بالشعب مش بالإجراءات الاستثنائية ، كل حاجة نختلف فيها تعالوا نخطها قدام الشعب ، ونقول له احكم يا شعب ونعود شعبنا بقى أنه يأخذ دوره الكامل والسيطرة على مصيره » . وقبل أن يقوم السادات بحركة التصحيح أعلنها صريحة أمام أعضاء اللجنة المركزية أنه لن يسمح بمراكز قوى على الإطلاق وأنه سيتقدم للشعب لإجراء انتخابات حرة من القاعدة إلى القمة للاتحاد الاشتراكى ، وسيشرف بنفسه مع لجنة قضائية فى مكتبه ومستشارين من وزارة العدل للإشراف على كل صغيرة وكبيرة . وكان قد أكد من قبل فى خطابه فى عيد العمال فى أول مايو ١٩٧١ أنه ليس

من حق أى فرد أو جماعة أن تزعم لنفسها قدرة منفصلة عن قدرة هذا الشعب أو أن تدعى لنفسها موقعاً تستطيع أن تفرض من خلاله رأيها على جموع الشعب أو أن تتستر وراء شعارات أو مناويزات تحاول أن تشكل من خلالها مراكز قوة تفرض منها وصايتها على الشعب . بعد أن أسقط هذا الشعب كل مراكز القوى لبقى وحده سيد مصيره .

والسادات فى هذا المنهج يتمشى مع طبيعة الحياة الإنسانية نفسها ، هذه الطبيعة تحمل الأفراد على التعايش فى دولة لها نظام إنسانى يخضع الجميع له ، وفى الوقت نفسه تعمل على أن يكون الظفر فى النهاية للقانون على الفوضى ، والديمقراطية على الاستبداد ، والتراحم على الاغتصاب . وإن كانت الطبيعة قد جعلت الناس مختلفين فى الأجناس والألوان واللغات والأديان والأفكار والطباع والبيئات ، إلا أنها تعمل فى الوقت نفسه على التقريب بين الناس بما تخلفه من حاجات ضرورية يعتمد بعضهم على بعض فى الحصول عليها ، ولذلك فالتعريف العملى للممارسة الديمقراطية هو تبادل ما يشبع الحاجات داخل إطار اجتماعى وإنسانى يتفق عليه من جميع الأطراف . وهذا بدوره لا بد أن يؤدي فى النهاية إلى سيادة القانون . وفى هذا المعنى يقول برتراند راسل إنه لا يمكن صرف النظر عن حتمية التوافق فى العلاقة العضوية بين الفرد والمجتمع ، ولكن راسل حريص على توجيه الأنظار إلى أهمية الدور الذى ينهض به الفرد فى هذا المضمار . فكثير من الأعمال التى جلبت أعظم الخير للإنسانية تعزى للجهود الفردية . فللفرد قيمته الإنسانية الخاصة به ، وأفضل الأفراد يسهمون بأعظم الجهود فى الخير العام . ولذلك فمن أجل تحقيق الخير العام يجب أن تتاح للأفراد من الحريات مالا يؤذى الآخرين .

ويؤكد راسل أن البقاء هو شرط ضرورى لكل شيء ولكنه ليس فى ذاته الغاية النهائية من الوجود الإنسانى ، فلا بد من الاهتمام بكل ما يمكن أن يضئ على هذا البقاء قيمة ومعنى . وإذا كانت الغريزة الاجتماعية والارتباط بين أفراد المجتمع هو أمر ضرورى للبقاء ولا استمرار البقاء فإن الحرية الشخصية للأفراد شرط لا يقل ضرورة للرقى بهذا البقاء ومن هنا ظهرت مشكلة التوفيق بين سلطان الدولة وحرية الفرد . وهى المشكلة التى خصص لها راسل كتاباً نشر عام ١٩٤٩ تحت عنوان « السلطة والفرد » وفيه أوضح أن مشكلة التناقض بين سلطة المجتمع والدولة وبين حرية الفرد هى مشكلة ظهرت منذ العصر الإغريق وما زالت حتى اليوم . وهى تتمثل أيضاً فى الجدل القائم بين النظم الرأسمالية التى توفر الحرية المطلقة لقلّة من الأفراد ، والنظم الاشتراكية التى تضمن مستوى أدنى من الضمان والفرص المتساوية للجميع . والحقيقة أن الصراع بين الأيدولوجيين لن تحسمه سوى الممارسة الديمقراطية التى تؤدى بطبيعتها الإنسانية الشاملة إلى التوفيق بين إتاحة الحرية وضمان البقاء والاستقرار للمجتمع .

وفى كتابه « برتراند راسل يعبر عن رأيه » الذى نشر عام ١٩٦٠ ، يتنبأ راسل بأن المجتمع الإنسانى فى المستقبل سيتألف من أفراد أحرار أقوياء لم يعرفوا الظلم ممارسة ولا خضوعاً ، مجتمع تسود فيه المصلحة العامة وتوجه فيه الجهود الفردية أو الجماعية نحو العمل الذى يعتمد على الذكاء البشرى ، ويصب فى نهر الحياة الإنسانية الذى لا يتوقف عن الجريان . ويرى راسل أنه قد انقضى الزمن الذى كان ممكناً فيه أن تتمتع الأقلية على حساب الأغلبية ، وأصبح لزاماً على الفرد أن يعترف بسعادة الآخرين إذا أراد أن يحقق سعادته هو . ولذلك فإن واجب التربية يتركز فى أفهام النشء أن الإنسانية هى وحدة متكاملة ، وأن التعاون والمحبة خير من التنافس والكراهية . وإذا برز فى الأفق من الأفراد أو الجماعات من يهدد قيم التعاون والمحبة والحرية ، وجب فى الحال التخلص منها بطريقة أو بأخرى ، ولذلك يوضح راسل فى ختام كتابه أنه : « إذا بحثت شعوب العالم كلها عن وطن واحد ، يضم جموعها بلا تفرقة ، ويتسع لها بلا حدود ، كان هذا الوطن هو : الحرية » .

من هنا كانت حتمية حركة التصحيح التى قام بها السادات فى مايو ١٩٧١ حفاظاً على حرية هذا الشعب الذى

حارب من أجلها طويلاً ، ولا يعقل أن يتنازل عنها أخيراً لمجموعة من الأفراد أو مراكز القوى . ويقوم السادات بتحليل هذه الظاهرة في « ورقة أكتوبر » فيقول :

« إن حركة التصحيح التي بدأت في مايو ١٩٧١ ، وإن كانت قد عجلت بها مؤامرات بعض مراكز القوى ، فإنها كانت في جوهرها أمراً ضرورياً ، حتى نضع شعبنا في الوضع الأكثر ملاءمة لتحمل أعباء المعركة والمساهمة في إحراز النصر . فقد كشفت هزيمة يونيو ١٩٦٧ عن سلبات كثيرة في حياتنا ، كانت تشوه وجه تجربتنا الناصع . . ومنذ أفاق الشعب من صدمة النكسة فلقد بدأ يطالب بالتغيير والتصحيح في الكثير من مجالات حياته ، وكانت الرغبة الشعبية العارمة من أجل التصحيح تقاوم من بعض مراكز القوى ، التي من الصعب عليها أن تتخلى عن سلطاتها ، أو تغير أساليبها في العمل ، أو أن تقبل العلاقات الجديدة التي يطالب بها الشعب بين الحاكم والمحكوم . .

وبرغم أننا كنا نعيش في ظل ظروف النكسة ، بما تمليه علينا من اعتبارات وما تضعه على حركتنا من قيود . . وبرغم أن شاغلنا الأول كان الاستعداد لمواجهة عسكرية جديدة مع عدو يحتل أرضنا ويترصد بنا ولا يكف عن تهديدنا في قلب بلادنا . . فإنني وجدت أنه لا بد من اتخاذ الموقف الحاسم الذي يلبي هذه الرغبة العميقة لدى الشعب ، واثقاً من فطرة جماهيرنا السليمة ، ومن التفاف الشعب حول قيادته خلال معركة المصير .

كان لا بد أن يشعر كل مواطن أنه مسئول عن أقدار بلاده بقدر مسئولية سواه ، وأن قضاياها الأساسية تناقش أمامه علانية ، وأنه لا توجد وصاية تمارس عليه في الخفاء . كان لا بد أن يزول الخوف ، وأن تختفي بذور الشك ، وأن تراجع الحزازات والأحقاد ، وأن يحس كل فرد أنه آمن على يومه وغده ، وعلى نفسه وأهله ورأيه وماله . . كان لا بد أن يعرف كل مواطن أن الحرب التي هو مقدم عليها ، لن تحرر له أرضه فقط ، ولكنها سوف تحمل له حياة أكرم وأرحب ، وقباً أعلى وأرفع ، كما سوف تحمل له أملاً في أن يتطلع بحق إلى مزيد من الديمقراطية ، لن تتحقق له كاملة إلا في وطن قوى عزيز متحرر .

لهذا لم تقف حركة التصحيح عند حد تنحية مراكز القوى عن الطريق ، ولكنها انطلقت إلى تحقيق جوهرها الأهم ، بالعمل على إرساء سيادة القانون ، وإعزاز كلمة القضاء ، وإقامة دولة المؤسسات ، ووضع الضوابط التي يعرف المواطن من خلالها حقوقه وواجباته بوضوح ، ويمارسها في طمأنينة .

وبرغم أن حركة التصحيح ، كان لا بد أن يقترن بها ما يحدث مع كل خطوة لإزالة السدود والقيود ، من مناقشات وتيارات وانفعالات ونحن لا نزال في ظروف الحرب ، فإنني كنت واثقاً من إيجابيات هذا الوضع أكثر من محاذيره ، وإن الوحدة العميقة لهذا الشعب ، خصوصاً في ساعات الخطر ، سوف تصمد للتجربة بل سوف تزيدها هذه التجربة مناعة وقوة .

ولم يكن هذا الاتجاه الفكري قد نشأ عند السادات كنتيجة لمؤامرات مراكز القوى ، فهو عنصر من عناصر التأصيل الفكري ممتد بطول حياته ومنذ أن بدأ في تكوين نظرة وفلسفة خاصة به تجاه الكون والأحياء . فنجدته قبل عشرين عاماً يقول على صفحات مجلة « التحرير » في ٩ مارس ١٩٥٤ :

« إن أسعد لحظة من لحظات حياتنا ، هي تلك الساعة التي نشعر فيها بأن البلاد قد وضعت لنفسها الدستور الذي تحب أن تعيش في ظله كريمة عزيزة الجانب ، وأنها بدأت فعلاً تستظل بظل هذا الدستور ، وتمارس حقوقها الكاملة ، وعندئذ لن يكون لنا من هدف غير أن نتظر من هذه الأمة أن تأمرنا - كجنود - بأن نسير لاستخلاص حقوقها ، وتطهير أرضها من الغاصبين ، ويومئذ لن يتخلف واحد منا عن أن يبذل حياته ودمه ثمناً رخيصاً في سبيل مجد مصر ، وعزتها ، واستقلالها . .

وبرغم أن هذا الكلام قد كتب منذ عشرين عاماً ، فإنه يبدو وكأنه كتب بالأمس القريب ، وهذا يدل على أن إيمان السادات بالممارسة الديمقراطية لم يكن أمراً طارئاً بل خطأ أساسياً في ريادته للتأصيل الفكري في الضمير المصري . وهو حريص دائماً على ضرب الأمثلة العملية حتى يعلم الشعب من خلال الدرس الملموس أن الديمقراطية لا تتحقق إلا بالممارسة الفعلية . وعلى صفحات مجلة « التحرير » نجد لمحات سريعة من هذا ولكنها ذات دلالات كبيرة ، فالأسلوب الذي كان يعامل به السادات جمهور القراء أسلوب ديمقراطي من الطراز الأول وبخاصة في طريقة رده على رسائلهم . في العدد الصادر يوم ٢٣ فبراير ١٩٥٤ نجد أحد القراء يسأله السؤال التالي : « هل تسمحون لأنقد الثورة في السياسة الداخلية دون اعتداء على واضطهاد من البوليس السياسى ؟ » فيرد عليه السادات مطمئناً : « بلا شك يا أخى وأنا على استعداد لأن ألتقى ما تريد كتابته أو نقده ، ويصلنى مثل هذا من الكثيرين ، ولن يصيبهم أذى لأن هذا حق لكل المواطنين » .

وفي نفس العدد يرد على سؤال قارئ آخر ، قد يعتبره كاتب آخر تدخلاً في شئونه الخاصة لا يستحق سوى الإهمال ، ولكن السادات يرد عليه موضحاً كل الأمور حتى يقنعه بالمنطق الهادئ الذى لا يقبل الجدل العقيم . وكان السؤال الموجه إلى السادات كالاتى : « كيف تباشر عملك الصحفى ، وأنت ضابط بالجيش ، أى فى حكم موظفى الحكومة . . أليس هذا كسباً غير مشروع ؟ » فيرد السادات بمنتهى البساطة :

« أبأشر عملى الصحفى لأنه جزء من رسالة هذه الثورة التى تؤمن بها جميعاً . وبحكم الوضع الآن فأنا أؤدى ما يطلب منى من خدمة عامة ولكنى أطمئنك يا صديقى أننى لا أتناول إلا مرتب البكباشى فقط ، ولا أحصل على مرتب من دار التحرير ، وتستطيع أن تطلع على حسابات دار التحرير لدى المراجعين القانونيين ، نوار وراغب الجميل ، وشركائهم لتأكد بنفسك ، ولتطمئن على « الكسب غير المشروع » .

هكذا مارس السادات الديمقراطية فى أثناء عمله بالصحافة ، فقد كان يؤمن أن الصحافة هى التى تنمى عقلية الشعب ، وتعبّر عن رغباته ، وتوصل رأى العام إلى المسئولين ، وترسم للجماهير طريق المستقبل . وتبين لها خطة العمل ، وباختصار فإن الصحافة الحرة بالنسبة للشعب هى بمثابة التريية الاجتماعية والسياسية والفكرية اليومية ولذلك كان من الطبيعى جداً أن يصدر السادات قانون حرية الصحافة ورفع الرقابة ، وأن تكون المسئولية مركزة فى شخص رئيس التحرير . فهو يرى أن تحديد حرية الصحافة عن طريق القانون لم يعد أمراً مقبولاً بعد السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ . لأننا إذا غالينا فى تدخل القانون فهذا يعنى سلب رجال الصحافة حرية ضبط النفس ، وهى من المقاييس الضرورية للممارسة الديمقراطية الحقيقية ، وتكون نتيجة ذلك أن يقوم هؤلاء بعملهم الصحفى بطريقة آلية ، على حين يتحتم أن يكون للصحفيين حرية الفكر والتصرف بقدر الإمكان إشعاراً لهم بالمسئولية حتى يعملوا بوحى من ضمائرهم ، وليس بضغظ من القانون أو السلطة . فالقوى الخارجية التى تفرض على الصحافة سواء بواسطة القانون أو رأى العام قد تجعل الصحفيين يتحايلون على القانون نفسه بشتى الطرق ، وبذلك تضيع كل المعايير اللازمة للممارسة الديمقراطية .

والقوانين الصحفية تستمد أصولها - بصفة عامة - فى التشريع من الدستور ، ولكن الملاحظ أن السلطات التى تسن القوانين هى التى تملك القاعلية فى تكييف القوانين الصحفية أكثر من أى شئ آخر . فكلما كان المشرع مؤمناً بالديمقراطية كانت القوانين أقرب إلى العدالة ، وأتيح للصحافة أكبر قسط من الحرية . وعموماً فالعبرة ليست دائماً بالنصوص الدستورية أو القانونية وإنما بكيفية تنفيذها على حد قول عبد العزيز فهمى فى خطاب له فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٥ فى اجتماع حزب الأحرار الدستوريين ، وكان قد أكد فى هذا الخطاب « أن كل تضيق على الصحف

لا يكون من شأنه إلا إيغار الصدور وانقلاب الحال إلى عكس المراد . وهذا يدل على أن الأسلوب الديمقراطي أسلوب أصيل في التفكير المصري ، فنجد ضمن نص حكم لمحكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة في قضية إلغاء صحيفة « مصر الفتاة » أنه إذا كانت الدساتير في البلاد الديمقراطية قد منحت الصحافة حريتها وعصمتها من تعسف السلطة فذلك لأنها اقترضتها صحافة رشيدة لا تميل مع الهوى ، ولا تتجه إلا إلى المصلحة العامة ، والمسئوليات الخطيرة التي تلقى هذه الحصانة على عاتق الصحافة تستلزم وجوب الاضطلاع بها لخير الوطن ، ولوجه المصلحة العامة وفي حدود القانون والنظام العام . فبقدر الحرية تكون المسئولية .

والصحافة الحرة تلعب دوراً خطيراً في الحياة الديمقراطية ، فهي قادرة على قياس الرأي العام وتوجيهه في نفس الوقت . وعلى هذا الرأي العام يعتمد رجال السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والثقافة في التخطيط لمجتمع المستقبل الديمقراطي الذي يعتمد بطبيعته على حرية تكوين الرأي ، وحرية التعبير عنه . وبدون دراسة الرأي العام يمكن أن تفشل خطط المستقبل ، لأن البرامج والمناهج التي لا تنبع من أرض الواقع ، بل تفرض عليه فرضاً ، لا بد أن تتعثر بسبب المقاومة المباشرة أو غير المباشرة التي ستجابهها ، وغالباً ما تكون النتيجة هي الإخفاق ، والاستغناء عن مثل هذه البرامج في نهاية الأمر بعد أن يكون قد ضاع من الوقت والمجهود والمال ما يمكن الاستفادة منه في تطبيقات واقعية أخرى . وبدون شك فإن أصلح أنواع الرأي العام هو ذلك الذي ينشأ في حماية الممارسة الديمقراطية التي تحيط المواطن بكل الحقائق الضرورية المشرقة منها والقائمة على حد سواء ، دون مواربة أو تغطية . وعلى قدر إحاطة المواطن بالحقائق الضرورية وحرية تكوين آرائه الشخصية والتعبير عنها بحرية يستطيع الرأي العام الديمقراطي أن يقوم بوظيفته على خير وجه من خلال الممارسة الحرة للنقاش والفكر .

وهذه الممارسة ضرورة لوجود الديمقراطية نفسها ، ففي ظل النظام الديمقراطي ذاته يفقد الناس حريتهم إذا لم يمارسوها . أي أنه لا توجد ديمقراطية بدون ديمقراطيين . فإذا أهمل الناس الحوار الحر القائم على الحقائق الرئيسية حول أية قضية عامة فإن ديمقراطيتهم يمكن أن تتلاشى بالتدريج بفعل الدعاية وحذف الأخبار والقرارات التي قد يتخذها الجهاز البيروقراطي في الحكومة . فإذا لم يمارس الناس بوجه عام حق المناقشة الحرة فإنهم بذلك يبددون حقهم في التصويت وإبداء الرأي ، وبالتالي فهم يقضون على جوهر الديمقراطية . وفي هذا يقول الزعيم في مقالة له بجريدة « الجمهورية » في ٨ أكتوبر ١٩٥٤ :

« إن الطريق الوحيد إلى تحقيق رغبة من رغبات الشعب ، هو أن تمهد له سواعد الشعب . . إنه هو وحده الذي يجب أن يفعل ما يريد ليظل دائماً يريد ما يفعل . . لقد لعبوا دائماً بعواطفه ، واستغلوا مروءته ، وطعنوه في ظهره بطبيعته ، وعليه الآن أن يبدأ في ممارسة سلطته . أما دور الثورة فلا يجب أن يتعدى حدود حمايته ، وتأمين حريته ليختار ويفعل ما يؤمن بضرورته . وأخيراً لا يتهمن أحد الثورة بالضعف ، فليس القوى بالصرعة ، ولكن القوى من ملك نفسه عند الغضب » .

وكشرط مسبق وأساسي لا بد أن تكون السلطة أمانة بين يدي الذين يؤمنون بأنها خدمة عامة للجماهير وليست أداة للتحكم والغطرسة فهناك فرق شاسع بين السلطة بمفهومها الإنساني الشامل ، والتسلط بتعريفه المتطرس الضيق . وخير تعريف لهذا الفرق نجده في خطاب القائد في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ عندما يقول :

« كنت أقصد إلى وضع خط فاصل دقيق ، وحازم بين التراث والميراث بين السلطة بمضمون اجتماعي وبين السلطة تسمماً على الناس وتصنّفاً ودساً وتجسّساً وسجناً واعتقالاً » .

ويقول الرئيس أيضاً في كلمته في ضباط الشرطة في ١٧ مايو ١٩٧١ :

« كل فرد منكم لازم يكون آمن على حياته ومستقبله علشان يؤمن الشعب على حياته ومستقبله ، أنا عايز الأمن والطمأنينة . . . تقرير أنا ماباخدش بيه . لكل واحد الحق أنه يدافع عن نفسه إذا جه فيه أى تقرير ويرد . . . لن يكون مصير أى حد معلق بتقرير أو بكلام - لا - كل إنسان لازم يدافع عن نفسه ويعرف هو أيه علشان كده كلنا نحس بالأمن والطمأنينة » .

ومعنى هذا أن نرسخ في ضمير الأمة ووجدانها الوعي والوضوح بأنه لا توجد سلطة شرعية بدون إرادتها ومشيتها ، ومن هنا كانت حتمية خلق رأى العام الشجاع الذى يستطيع أن يعارض السلطة إذا انحرفت أو انحازت ، بل إن الخصومة السياسية حق مشروع طالما أنها في إطار الممارسة الديمقراطية التى تفرض سيادة القانون سواء على الأفراد أو على الدولة . ولذلك يؤكد القائد في بيانه إلى الأمة في ١٠ يونيو ١٩٧١ على أن تباشر مسئوليات الحكم بمؤسسات سياسية ودستورية وعلمية واجتماعية ، واضحة المعالم والاختصاص ، يربط بينها رباط من التعاون الوثيق ، دون تدخل من إحداها في اختصاص الأخرى ، هذا التدخل الذى يخل بالمسئولية ، أو تضيع معه المسئولية على أن يتم كل ذلك في إطار التحالف وتحت الرقابة الكاملة والشاملة للشعب .

وأيضاً فإن الممارسة الديمقراطية تحتم سيادة الشرعية الاشتراكية وخضوع الدولة للقانون ، كما يخضع له الأفراد ، وأن ترتبط السلطة بالمسئولية ، وألا يكون هناك قرار أو إجراء أبداً كانت الجهة المصدرة له بمنأى عن رقابة القضاء ، وألا يحول أى حائل مادي أو غير مادي دون أن يلتجئ أى فرد إلى القضاء ، وأن يشترك الشعب في إدارة العدالة عن طريق المحلفين وعن طريق الادعاء الشعبي . كما يؤكد الزعيم أيضاً على رقابة المجالس الشعبية المنتخبة على جميع المستويات ، واتساع هذه الدائرة لتشمل أعمال الحكومة والمؤسسات والهيئات العامة ، وضمان قيامها بدورها في وضع خطط التنمية ومراقبة تنفيذها ، وتأكيد الضمانات التى تكفل للسلطات التنفيذية حرية الحركة ، وللسلطات الشعبية حرية الرقابة والمساءلة .

وينادى السادات أيضاً بتأكيد سلطة تحالف قوى الشعب العاملة ، حتى يلعب دوره في قيادة العمل السياسى للجماهير ، والتعبير عن إرادتها وأمانها الحقيقية . ولذلك يجب أن يقوم العمل داخل الاتحاد الاشتراكي ، وفي مختلف مستوياته ، على أساس مبدأ القيادة الجماعية حتى تصدر القرارات معبرة بحق عن الخبرة الجماعية وليست عن الأهداف الخاصة بفئة أو مجموعة من الأفراد ، وعلى أساس حق النقد ، والنقد الذاتى ، وهو أمر لا يمكن أن يتم إلا بإطلاق حرية الرأى والتعبير ، دون قيود لجميع القوى المكونة للتحالف ، على أساس الالتزام بأهداف العمل الوطنى كما حددته وثائق ثورة ٢٣ يوليو التى سطرها الجماهير بنضالها : الميثاق ، وبيان ٣٠ مارس والمبادئ التى أرسنها جماهير ١٥ مايو . وأخيراً ورقة أكتوبر . وهذه الوثائق تمنح الجماهير حرية الحركة والتعبير عن الرأى ، وكذلك حق سحب ثقتها من ممثليها إذا ما انحرفوا أو خانوا الأمانة ، أو تعالوا ، أو كونوا مراكز قوى ، أو حجروا على حرية الرأى ، أو انحرفوا عن المبادئ العامة للمسيرة الثورية .

ويرى السادات أن الحرية السياسية لا يمكن أن تتحقق كأسلوب للحكم والحياة إلا إذا تحققت أولاً الحرية الاجتماعية . إن حرية رغيف الخبز هى الطريق إلى حرية الفرد ، غير أن الحرية الاجتماعية لا يمكن أن تعيش بدون الحرية السياسية وضماناتها التى تنطلق معها كل ملكات الإنسان في الخلق والإبداع . وهذه الحريات لا يمكن أن تكون كاملة إلا إذا أزيلت جميع الحواجز والعوائق من طريق الشباب والمرأة ، فالشباب هو الغد والمستقبل ، وإذا لم يلعب دوره كاملاً في بناء الحاضر ضاع منا الحاضر والمستقبل ، والمرأة هى نصف المجتمع ، والحركة النسائية تختزن من الطاقات قدراً كبيراً وثميناً لا بد أن يؤدي رسالته كاملة في العمل الوطنى .

وفي الواقع أن السادات كان ينادى بتطبيق هذه المبادئ منذ البدايات الأولى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولكن ظروف الكفاح الوطني ، ومؤامرات الاستعمار ، وأطماع مراكز القوى ، وانتكاسات التقدم الثوري التي بلغت قمته في هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، كل هذا عوق تطبيق هذه المبادئ وبالتالي فإنه آخر المسيرة الثورية ، وعطل التقدم الحضارى برغم مناداته بضرورة هذه المبادئ في كتابه « القاعدة الشعبية » ص ٢٨ :

« نحن نريد اليوم أن نضع نظام الحكم الذى يشترك فيه الشعب اشتراكاً كاملاً فى المسئولية مع زعيمه ، ويراقب الشعب حكامه ، ويفرض فيه الشعب رقابته على حكامه ، لأنه من غير هذا لا يمكن أن يتم الإصلاح لا بد أن يشترك الشعب فى الرقابة الفعلية على حكامه . ولا بد أن يساعد الشعب زعيمه فى كل ما يعرض من أمور . ومن هنا كان إصرار السادات على إعداد الجماهير نفسياً وذهنياً ومبدئياً لتقبل مسئولياتها على أساس أن الناس يحملون مسئولياتهم إذا أمسكوا بأيديهم حقوقهم ، بما فى ذلك حقهم فى توجيه السلطة الوطنية ، التى لا تعبر ولا يمكن أن تعبر إلا عنهم ، وعنهم وحدهم ، وإلا فقدت أهليتها وشرعيتها . ولذلك فإن الافتتاحية التالية المقترحة من بيان الرئيس إلى الأمة فى ١٣ يناير ١٩٧٢ تصلح لتكون الخلفية الفكرية التى تلازم إيمانه بضرورة الممارسة الفعلية للديمقراطية وليس مجرد الإيمان النظرى بها . يقول فى بداية البيان :

« لقد كان اتفاقنا دائماً وفى كل الظروف ، وعند كل قرار ، أن نتبادل الحديث وأن نتصارع ، وأن أضع أمامكم ما أفكر فيه . لم يكن ذلك عن مجرد اقتناع بحقكم ، حق الشعب حق الجماهير ، فى أن تعرف كل شيء ، وإنما كان ذلك أيضاً عن اقتناع بأن كل شيء فى الأصل مسئوليتكم . وكل قرار بالدرجة الأولى معكم وبكم ، ولقد التزمت هذا التقليد منذ أن تحملت الأمانة ، وتعلمت أيضاً من التجربة ، أكثر من هذا ، تعلمت أننا حين نحمل العبء نحمله معاً ، وحين نحمل العبء معاً فإن الصعب يهون ، ذلك لأن المشاركة الشعبية فى كل القضايا لا توفر الضمانات والمسئولية فحسب ، وإنما تضيء الطريق فيعرف كل منا إلى أين يسير . »

ويؤكد الرئيس دائماً على أنه إذا كانت المسئولية واجبة على الأمة كلها ، فإن الحقيقة كلها حق لها بغير منازع حتى تثق فى دقة حساباتها وما تبنيه على ذلك من قرارات . ولم يحدث أن أخطر الزعيم الشعب بقرار جاهز سبق أن اتخذ بمفرده ، ولكنه يستلهم دائماً هذا القرار من الشعب لإيمانه العميق بأن مقياس القدرة على تطبيق أى قرار على تصميم الشعب ، فلا يمكن الفصل بين طاقة السلطة وإرادة الشعب ، ولذلك فهو يهدف دائماً إلى ممارسة الديمقراطية بالشعب ، عن طريق الممارسة العملية للشعب وحقه الفعلى فى المشاركة فى القرار السياسى . وهذا لن يحدث إلا إذا أحس كل فرد أن صوته فى الانتخابات يعنى بالفعل مشاركته الحقيقية فى اتخاذ القرار السياسى . وهذه المشاركة تعمق مفهوم الوحدة الوطنية التى تزداد أصالة ورسوخاً بالحوار الحر ، وأيضاً فإن هذه المشاركة تدفع التحول الاشتراكى بالانفتاح على الدنيا ، وليس بالانغلاق على النفس ، فالإنسان الحر يستطيع أن يحمى نفسه من أية تأثيرات دخيلة على كيانه وضميره ، لأنه لا توجد القيود التى تحد من حرية فكره وأرائه . وإيمان السادات بحرية الممارسة الديمقراطية للإنسان المصرى يصل إلى الحد الذى يطبقه فيه على نفسه فهو دائماً يبدأ بنفسه لكى يضرب المثل الأعلى للممارسة العملية . ولناخذ استقباله للنتيجة التى أسفر عنها الاستفتاء الشعبى على رئاسة الجمهورية بعد رحيل جمال عبد الناصر نموذجاً على الممارسة الديمقراطية التى تشكل فكره وسلوكه معاً . يقول فى بيانه إلى مجلس الأمة فى ١٨ أكتوبر ١٩٧٠ :

« لا بد أن أصرحكم أنني أعتز بالنتيجة التى أسفر عنها الاستفتاء الشعبى ، إن أكثر من ستة ملايين قالوا نعم لترشيحي ، وأكثر من سبعمائة ألف قالوا لا . وأعتبر بأمانة أن هذه ظاهرة صحية وإن كنت أود أن أضيف اعتقادى

الشخصي بأن الذين قالوا لا لم يقولوها اعتراضاً على الثورة . وإنما كان قولهم لها تحفظاً على المرشح لرئاسة الجمهورية نفسه .

إن ذلك - وأصارحكم القول - لم يسبب لى أى ضيق . . ولا اعتبره مدعاة لأسف . . إنما اعتبرته ظاهرة صحية ، فإن هذا الشعب لا يجب أن يمنح ثقته المطلقة لفرد بعد جمال عبد الناصر ، بل لقد كان جمال عبد الناصر نفسه أعلى الأصوات تحذيراً من اعتماد الأمة على الفرد .

وإننى أعدكم أننى سأكون للجميع . للذين قالوا نعم وللذين قالوا لا . إن الوطن للجميع ، والمستول فيه مؤتمن على الكل بغير استثناء لقد شرقى أن يقول أكثر من ستة ملايين رأيهم بنعم ، واعتبرت ذلك حسن ظن مسبق أعتر به ، وأرجو الله أن يمنحنى القدرة على أن أكون أهلاً له ، وجديراً به .

ولقد شرقى فى الوقت نفسه أن يقول أكثر من سبعمائة ألف رأيهم بلا ، ولم أعتبر ذلك رفضاً ، وإنما اعتبره حكماً مؤجلاً ، وأرجو الله أن يمنحنى القدرة على أن أصل بالأمانة إلى حيث يجب أن تصل الأمانة ، وأن يجيء الحكم المؤجل قبولاً حسناً ، ورضاً من الناس والله فى نهاية المطاف .

والسادات من أبرز الزعماء التاريخيين الذين يقدسون الاختلاف فى رأى حتى مع السياسيين الذين مارسوا الحياة ثورة ٢٣ يوليو ، فى الندوة الإذاعية « رأى الشعب » التى أذيعت فى ٢٨ مايو ١٩٥٩ صرح الرئيس أن من حق الساسة القدامى الترشيح فى الانتخابات ، حتى هؤلاء الذين كانوا ينتمون إلى الأحزاب المنحلة ، وأن حرية النقد والتوجيه والاقتراح ستكون مكفولة للجميع ، ولأول مرة سيمكننا نحن أفراد الشعب أن نفرض رقابة على حكمانا . وكمثال عملى على هذا الاتجاه الديمقراطي يحكى لنا السادات حواراً دار بينه وبين صديق له كان نائباً وفدياً فى آخر برلمان قبل الثورة وذلك على صفحات « الجمهورية » فى ٤ أكتوبر ١٩٥٤ :

« كنا نجلس جلسة عائلية هادئة نتكلم فيها فى مختلف المواضيع على طريقتنا التى تعودناها ، فهو صديق قديم . وفوق هذه الصداقة فأنا أحس دائماً نحوه بتقدير واحترام لأنه من أولئك الطراز من الرجال الذين تتمثل فيهم القوة فى الخلق والوفاء بأجل معانيه . .

كان صديقى هذا نائباً وفدياً فى آخر برلمان ، وتشعب بنا الحديث إلى أن جاء ذكر المجلس الوطنى . . فسألته عن رأيه فيه فلم يتردد لحظة واحدة على طريقتة فى التعبير عما يحس به كما هو وقال : (ينحى لى أنه سيكون مجلساً صورياً من غير اختصاص ، وبصراحة كمان ما فيش منه فائدة) . فقلت له : هون عليك يا صديقى . . . فلعلك إذا علمت الحكمة من قيام المجلس الوطنى كأداة استشارية إلى جانب الحكومة ، لعلك تقتنع أن اعتراضك هذا ليس له ما يبرره وإذا اقتنعت برأيك كان بها ، أما إذا لم تقتنع فلك رأيك ، فأنا أذكرك يا صديقى ببدء هذه الثورة ، وكيف أننا كنا مصممين على إجراء الانتخابات فى فبراير سنة ١٩٥٣ حتى إن هذه الفقرة حين لم ترد فى بيان الرئيس السابق على ماهر الذى أذاعه عقب الثورة بادرنا نحن إلى إذاعة بيان من القيادة لتؤكد إجراء الانتخابات فى فبراير على النحو الذى ذكرته فما الذى جرى بعد ذلك ؟

طلبنا إلى الأحزاب أن تطهر نفسها فأبت واستعلت ثم بدأت مناورات رجال السياسة وفيهم من ظن أنه يستطيع أن يستغل هذه الثورة لكى تستمر الأوضاع فى البلاد على ما كانت عليه قبل الثورة .

ويبدو أن قضية الممارسة الديمقراطية كانت من القضايا المبكرة التى شغلت فكر السادات ، فنجدد يوجه هذا

السؤال فى نفس الحوار :

« هل يستطيع أحد أن ينكر حالة الفساد السياسى والخلقى والاجتماعى التى كانت تسيطر على البلاد قبل ٢٣ يوليو ؟

قال : لا . . .

قلت : هل من المناسب اليوم والبلاد مجتاز أخطر فترة في تاريخها ، والمشروعات الكبرى توضع وتنفذ ، والبرامج تعد حسب الطريقة التي نهضت بها جميع الأمم وتنهض على أسس علمية . . هل من المناسب في هذه الفترة أن تعود الأحزاب والانتخابات والخصومات والأحقاد بعد أن قطعنا هذا الشوط الطويل ؟

قال : لا . . .

قلت : إن فكرة المجلس الوطني في حقيقتها ما هي إلا تمهيد لقيام حياة برلمانية نظيفة ، بمعنى أنه على المجلس أن يضع من التقاليد الجديدة ما يجعل المؤيد يؤيد للمصلحة فقط ، والمعارض يعارض للمصلحة فقط . ليس كما تعودنا في الماضي أن تكون المعارضة لشخص فلان أو لأن مصلحة النائب الفلاني لم تتحقق إلى آخر ذلك مما نعلمه جميعاً .

ثم يؤكد السادات أن الشرط الأساسي للممارسة الديمقراطية الحققة هو أن تساعد الدولة كل المواطنين لكي يحصلوا على الحقيقة كاملة ، وعلى المواطنين أيضاً أن يسعوا إلى ذلك بكل حماس وموضوعية ، فهذا هو السبيل الوحيد لمعرفة مواطن القوة وثغرات الضعف ، وبالتالي يمكن التأكيد على الأولى وتجنب الأخيرة . ويختم السادات هذا الحوار الديمقراطي الحيوى بقوله :

« استمر الحديث فترة وكل ما تبيته هو أن صديقي شأنه شأن كثيرين من المواطنين المخلصين انطوا على أنفسهم أن كرامتهم تمنعهم من أن يتصلوا بالمسؤولين ليعرفوا الحقائق على وجهها الصحيح ولم يصل إليهم إلا صورة مشوهة صورها مغرض إليهم أو حاقد ، فظنوا أنها الحقيقة . . إن هذا حال كثيرين من المواطنين الطيبين فتى سيخرج هؤلاء الطيبون من عزلتهم ؟ »

ولعل هذا التشويه المغرض يرجع إلى الحياة النيابية التي سادت مصر قبيل الثورة ، فقد تحولت الأحزاب من منظمات سياسية تعمل من أجل الصالح العام إلى مجرد واجهات سياسية براقية لإخفاء أهداف فئة معينة أو مطامع أشخاص محددين ، وبالطبع فإن هذه المطامع كثيراً ما تتحول إلى تكالب وصراع مميت ، ووسط هذا التكالب وذلك الصراع تضع المصلحة القومية بضياح كل المعايير الموضوعية . ولعل وصف جمال الدين الأفغانى للحياة الحزبية في مصر في عصورها الأولى بمثابة إلقاء ضوء كاشف على الحقائق العارية التي لازمت هذه الحياة حتى تختم على ثورة يوليو ١٩٥٢ أن تقوم بإلغائها منعاً للفوضى السياسية التي استشرت في البلاد . يقول جمال الدين الأفغانى :

« نحن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم أصدقاؤنا ، ثم نضطر إلى تركها والكل لنا أعداء ، والسبب العامل في ذلك هو عدم التكافؤ في القوى بين الأمة وأحزابها السياسية . يقوم الحزب السياسى على عنصر ضعيف أو على أفراد قلائل ، بينهم اللسن والمحنك ، ويعلنون تفانيهم في خدمة الأمة لتحريرها من ربة الاستعمار ، والأمة تتخيل من وراء وعود الأحزاب سعادة ورفاهية ، وحرية واستقلالاً ومساواة ، فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة واستحكم له الأمر ، ظهرت هناك في رؤساء الأحزاب الأثرة والأنانية ، ومد حب الذات عنقه ، فتقلص من القلوب تلك الطاعة ، وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة ، وتضطر حيثئذ لترك الحزب وينفرط عقده والكل له أعداء . »

ويرسم لنا توفيق الحكيم صورة كاريكاتيرية لاذعة للدور الذى قامت به الأحزاب قبل الثورة في كتابه

« تحت شمس الفكر » فيقول ص ١٦٩ :

« ليس في مصر حزب بالمعنى الحقيقى لكلمة حزب كما تفهم وتستعمل في النظم الديمقراطية الصحيحة !... إنما

في مصر « فرق » منفصلة تسمى أحزاباً ، لا هم لكل فرقة من هذه « الفرق » إلا « توزيع » المقاعد البرلمانية ، والحصول على المناصب الوزارية وتنظيم حركة « تذاكر » الانتخاب ، أما برنامج « الرواية » فليس من هم أحد التفكير فيه . . . فالأمر في ذلك يسير على نمط حفلات التمثيل و « متعديها » الذين يركزون كل نشاطهم ، في مسألة توزيع المقاعد وتحصيل قيمة التذاكر . . . أما مسألة « البروجرام » والغرض من الحفلة وما إلى ذلك فلا يلتفتون ولا يجعلونه من شأنهم . . . وإني لأحب هنا أن أقول : إنه قد آن الأوان لأن يسأل الشعب عن البرامج لا عن شغل المقاعد .

ثم يتساءل توفيق الحكيم ص ١٧١ عن المعنى الحقيقي للديمقراطية فيقول :

« ما معنى الديمقراطية إذا لم تكن هي تمكين طبقات الشعب كلها - على اختلاف مراتبها ومطالبها - من الدفاع عن نفسها بنفسها تحت قباب المجالس النيابية ؟ ! ما من برلمان في أى بلد ديمقراطي في العالم ، يعرف هذا الوضع الذي نحن عليه ، لأنه ما من أحزاب في العالم تكونت هذا التكوين الشخصي المرئى كأحزابنا المصرية ، ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة ! » .

ومن مساجلات الحكيم مع منصور- فهمى عام ١٩٣٨ نجد تحليلاً موضوعياً للعلاقة بين الممارسة الديمقراطية والخصومة السياسية ، فالخصومة السياسية في المجتمع الديمقراطي السليم هي خصومة المبادئ وليست خصومة الأشخاص ، ولكن الاهتزاز بين المعايير الموضوعية والمقاييس الذاتية أدى إلى الخلط بين المبادئ والأشخاص وضاعت الحقيقة الواضحة وبالتالي ضاعت معها المصلحة العامة . ولقد كتب الحكيم هذه المساجلة في كتابه « تحت شمس الفكر » ص ١٥٧ فقال :

« كارثة أخرى من الكوارث التي نكبت بها مصر ، هذا الغلو والإغراق في الخصومات ، فإذا اختلفنا على رأى فنحن أفيال هائجة تدوس كل شيء وتحطم كل شيء ، إن في كل بلد راق حدوداً مقدسة تقف عندها الخصومة وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد ؛ فإقحام الدين مثلاً في ميادين الخلاف السياسي أمر لا يمكن أن يحدث اليوم في أى شعب ديمقراطي متحضر . . .

فالديمقراطية ليست كلمة تقال في الخطب ، لأنها جميلة ذات رنين ، ولا هي بناء شامخ يسمونه « البرلمان » ، لكن الديمقراطية هي روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع . . . وإن كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هي طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية ، كذلك ينبغي أن نتذكر دائماً أن الخصم في المبدأ هو مواطن مصري قبل كل شيء ، وأن خصومة المبدأ ليست معناها القضاء المبرم على الأشخاص بكل الأسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التي ترجى منهم في وقت من الأوقات ، فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرج به إلى الأبد من ميدان النفع العام وإنما الغرض الذي يسعى إليه الجميع هو خدمة الوطن وحده . . . فلتكن الخصومة في حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع ، وليعتقد كل في خصمه أن عجزه يوماً عن خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته ذلك في يوم آخر ؛ فلتكن إذن السهام المصوبة من طرف إلى طرف في غير مقتل من الشخصية والآدمية والشرف ، فليس من مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتلى من أبنائه العاملين ، إنما المصلحة هي في أن تتداول السواعد إدارة العجلة ، وأن تهباً لكل يد الفرصة لخدمة البلاد .

والمعنى الراقى للديمقراطية نجده في خطاب السادات في ٢٨ سبتمبر ١٩٧١ عندما يقص علينا تجربة شخصية له

في زيارة له للهند :

« في سنة ١٩٥٥ أنا كنت في رحلة للهند وباكستان وأفغانستان إلى أندونيسيا ، كنت في ذلك الوقت سكرتير المؤتمر الإسلامي ، زرت أكثر من ١٠ دول وعدت ، وعدت بانطباع غريب ، سنة ١٩٥٥ كان فيه عندنا هنا صراع داخل مجلس الثورة ليه ؟ ١٩٥٦ كانت جاية الى احنا وعدنا البلد فيها بالدستور ، وكان فات سنة ٥٢ وسنة ٥٣ وسنة ٥٤ ودخلنا سنة ٥٥ العوامل البشرية ابتدت . . ابتدت الصراعات وأنا في الهند ، أقام لي الله يرحمه البانديت نهرو حفل استقبال ، وكان موجود فيه كل المسئولين ، وكثيرين من أعضاء البرلمان ، سواء من حزب المؤتمر حزبه ، أو من المعارضة كلها ، ولفت نظري شيء غريب قوي ، فيه اثنين أصدقائي ، نائب هندي وزوجته ، وأنا أعرف أنهم من أشد المعارضين لنهرو ، كانوا زاروا القاهرة وزاروني ، أعرفهم ، أصدقائي النائب وزوجته ، ودعوهم في الحفلة وجم ، كانوا موجودين ، شيء أثر في جداً أنني لقيت النائب وزوجته دخلوا . دول من أشد المعارضين لنهرو دخلوا سلموا على نهرو بمنتهى الاحترام ، قبلوه زى ما بيقبل الابن أبوه ، ويقدمهم لي نهرو ، فقلت له : دول أصدقائي الاثنين ، قال لي إنه عارف دول من المعارضين لي ؟ قلت له : آه . . قال لي : طب أوعى الناس دول يعدوك . . شيء من المزاح يعنى . . وقعدنا نضحك في هذا الوقت ، لكن الطريقة التي سلموا بها على نهرو شعرت أن ابن أو بنت بتسلم على أبوها . . في ذلك الوقت كان نهرو يمثل وحدة الهند ، الهند فيها أكثر من ١٠٠ لغة ، ويمكن ١٠٠ قومية ، أجناس بتنتقل من مدينة لمدينة ما يفهموش بعض لغويًا ، بين كلكتا وبومباي ، مايقدروش يفهموا ، بومباي ونيودلهي . مايقدروش يفهموا لغة بعض ، اللغة المحلية إلا بعد ما عملوا لغة واحدة ، لكن كان وقتها ، يعنى فيه ١٠٠ لغة في الهند ، ولغاية النهارده فيه ١٠٠ لغة في الهند ، وقوميات وأجناس وأديان ، ومع ذلك ٥٠٠ مليون يمثلهم أب هو نهرو . أشد المعارضين له يدخل وفي الحفل أمامي ، ويعاملوه كأب تماماً ، وهو يمزح ويمزحهم كأب تماماً . . أنا لما رجعت هنا سنة ١٩٥٥ بعد الجولة وشفيت الصراع الى عندنا في مجلس الثورة ، تقدمت باستقالتي ، تاني استقالة لي ، قلت إن أنا شفت في الهند المنظر الى أنا حكيت لكم عنه ، وإنه راجل واحد استطاع أن يوحد مائة لغة وعشرات الأديان وعشرات الأجناس ، فكيف بنا احنا هنا ، واحنا شعب واحد وجنس واحد وجبهة واحدة . . كيف بنا نعمل صراع ؟ والله أنا باعتبار أن مهمتي في مجلس الثورة انتهت . »

ونوقش هذا الموضوع ، وسجل في سجلات مجلس الثورة ، وكانت نتيجة أن رفضت الاستقالة . فقد كان السادات بالنسبة لأعضاء المجلس التجسيد الحي للديمقراطية ، ولذلك كان وجوده ضرورياً وحيوياً حتى لا يصل الصراع بينهم إلى نقطة اللاعودة . فالممارسة الديمقراطية هي صمام الأمن عندما تتأزم الأمور وتندر بانهايار الموقف من أساسه . والحوار الديمقراطي يفتح الباب لاختلاف الرأي ، ولكنه يرفض المساس بجوهر الوحدة الوطنية التي كانت نتيجة مباشرة لثرائنا الحضاري العظيم من قيم روحية وإنسانية مميزة لشعبنا . ولذلك فالممارسة الديمقراطية هي وسيلتنا إلى الحفاظ على حريتنا السياسية وعلى حريتنا الاجتماعية والسير في طريق التقدم المعاصر ، وقد نظم الدستور هذه الممارسة من خلال مؤسسات الدولة ، وأي خروج على قواعد هذه الممارسة يفتح الباب للتحكم ويشوه التعبير عن الإرادة الشعبية ، ومن ثم فإن احترام سيادة القانون هو الذي يكفل نفاذ كلمة الشعب المتمثلة في القانون ، وسيادة القانون تفرض من الواجبات والمسئوليات بقدر ما تكفل من حقوق وحرريات . فإنه لا توجد ، ولن توجد حقوق أو حريات مطلقة ، لأن الحق والحرية ممارسة ، والممارسة تجري في مجتمع ، ولا يمكن لإنسان أن يتمتع بحقه وبحريته إلا في حدود احترام حقوق وحرريات أخرى ، قد تكون حقوق وحرريات للمجتمع ، كما قد تكون لأفراد . القانون في النهاية هو موازنة بين حقوق وحرريات متعارضة ، ثم ترجيح أيهما أجدر بالحماية ، ومن ثم فإن سيادة القانون هي الضمان الحقيقي لحرية الفرد ، كما أنها الضمان الحقيقي لحرية المجتمع . وفي هذا يوضح السادات في كتابه « معنى

الاتحاد القومى « المفهوم الديمقراطى الحضارى للحرية فيقول ص ٤٨ :

« الحرية هى دائماً حرية الحركة داخل وضع محدد . . ومحدد لأن الأوضاع دائماً محددة ، وقد كنا وسنظل داخل وضع محدد يحتم علينا أن نتحرك فى نطاقه فقط ، وأن لا نتجاوزه . . وإلا هلكنا . . وإذا عسكرت جماعة فى غابة فإنها لا تزاول حريتها فى النوم واليقظة كما يحلو لها ، وإلا لزاولت الذئب والسباع حريتها فى التهامهم كما يحلو لها . . أليس كذلك . . ؟ ! لا بد إذن من إيجاد وضع ، نوفق فيه بين رغبتنا الغريزية فى النوم واليقظة كما يحلو لنا وبين الخطر الجاثم من حولنا . . ولهذا يتحتم أن نضع فى اعتبارنا دائماً الوضع الذى نحن فيه عند تفكيرنا فى الوسيلة التى يمكن للشعب بها أن يزاول حرته ومسئوليته . .

والوضع الذى نحن فيه ببساطة أننا مهددون بالاعتداء علينا وسلب حریتنا واستقلالنا ، كلنا مهددون ، كلنا بأرضنا وسمائنا وقنالتنا وطبقاتنا وآلامنا وآمالنا . . ولهذا لا خلاف بيننا على أن واجبنا الأول هو مقاومة هذا التهديد ، وأخذ الحذر ، وتدعيم حریتنا واستقلالنا . . نحن كلنا متفقون بالإجماع على مقاومة الأعداء مهما كان هؤلاء الأعداء ، والتعاون مع الأصدقاء مهما كان أولئك الأصدقاء تلك هى الحقيقة البسيطة . . وهى أيضاً الطريقة الوحيدة لكى نبقى أحراراً ، ولكى لا نموت » .

وهذا الكلام الذى نادى به السادات فى الخمسينيات ، قام بتنفيذه فى السبعينيات ، فوضوح الرؤية عنده كان من القوة بحيث جعل منهجه فى التأصيل الفكرى مجسداً للاتساق الذى لا يعرف التناقض أو التخبط . يقول فى حديثه فى مجلس الشعب فى ٣١ يناير ١٩٧٣ :

« أنا قلت مش حانرجع فى الممارسة الديمقراطية ؛ لكن الممارسة الديمقراطية لا تعنى الفوضى أو الخروج على الخط الأساسى . قد نختلف فى مجتمع الديمقراطية قد نختلف داخل الهيكل الأساسى بتاعنا ، بتاع المجتمع ، أما حينما يصل الخلاف إلى المبادئ الأساسية للمجتمع بتاعنا ، لأده مش خلاف ده صراع وهدم ، ولا يقبل على الإطلاق ، لن يمكن أن نكمل مسيرتنا ونكمل ممارستنا الديمقراطية عشان نكمل التجربة . أنا حكيت وقلت إن المؤسسات قامت ، الاتحاد الاشتراكى بالانتخاب قام ، مجلس الشعب بالانتخاب الحر قام ، السلطة التنفيذية موجودة ، بدأت الممارسة الديمقراطية . احنا لسه ما كملناش التجربة . ده احنا فى الممارسة وحا يحصل أخطاء ونصلح هذه الأخطاء » .

وفى نهاية الحديث يصر السادات على أنه إذا كان من المقرر أن حرية الرأى مكفولة ، ولكل إنسان حرية التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير ، وأن النقد الذاتى والبناء ضمان لسلامة البناء الوطنى ، إلا أنه من المقرر كذلك ، وعلى قدم المساواة ، أن هذه الممارسة يتعين أن تكون فى حدود القانون ، وفى إطار الالتزام الكامل بالمبادئ الأساسية التى أعلنتها حركة التصحيح فى مايو ١٩٧١ من توكيد لحرية الفرد ودعم للممارسة الديمقراطية من خلال المؤسسات الدستورية والشرعية ، مع الالتزام بتحقيق سيادة القانون . ومن ذلك فإن الحرية لا تعنى غياب القانون ، كما أن سيادة القانون لا تشكل حجراً على الحرية ، فالحرية جوهر ، والقانون سياج من حولها يحميها ، ويحمي ممارستها ، كما يحمي القيم والمقومات الأساسية للمجتمع ، وعلى الخصوص تحالف قوى الشعب العاملة ، والوحدة الوطنية بين هذه القوى ، ذلك أن تحالف قوى الشعب العاملة هو الصيغة الملائمة لضمان الوحدة الوطنية ودعمها ، التى ارتضاها شعبنا وأقرها . والسادات على يقين كامل بأن وعى جماهير شعبنا المعزز بسلطة الدولة النابعة من إرادة شعبنا ، قادر على أن يبت ويحسم بما يضمن الممارسة الديمقراطية لكل المواطنين فى ظل سيادة القانون ، فذلك وحده هو الذى يشكل خطأ فاصلاً بين الحق والباطل ، وبين الأصالة والزيف .

والمتبع لمناقشات مجلس الشعب بعد حركة التصحيح فى مايو ١٩٧١ سيجد أن مناداته السادات بالممارسة

الديمقراطية قد تحولت إلى واقع فعلي تمثل في المناقشات المشهودة التي تابعها الزعيم بالتقدير والإعجاب والتي ساهمت في التوجيه والتصحيح ، فالآراء الجديدة البناء لا تولد إلا من الاحتكاك بين مختلف الآراء السابقة لها ، أما الموافقة الإجماعية على طول الخط فلا ينتج عنها سوى التكرار والتقليد والملل والعقم . وعندما كان هناك من يبدى الخشية من آثار هذا الانفتاح ومن مخاطره كان الرئيس يقول : « فلنمارس ولا نخشى شيئاً » ، وكانت النتيجة أن تنوعت الآراء والاجتهادات سواء داخل مجلس الشعب أو خارجه في كل مجال ، ولم يكن هناك مجال لم تتناوله المناقشات من قضايا التحرير إلى قضايا التعمير وبذلك تكون الرأي العام الناضج الذي تبلور من خلاله فكر الزعيم ممزوجاً بآمال الشعب .

وبهذا يكون السادات قد نجح نجاحاً تاريخياً في إرساء تقاليد الزعامة الوطنية من أجل الأجيال القادمة ، فالمفهوم العلمي للزعامة يؤكد أن الزعيم أو القائد هو إنسان كسائر الناس له طباعه وأفكاره وأخلاقه ، ويشارك بني وطنه في ثقتهم إلى حد كبير ، غير أنه يمتاز عليهم بشمولية الفكر ، ووضوح الرؤية ، وعمق النظرة ، ونفاذ البصيرة وقوة الشخصية ، ودفعة الطموح . والقدرة على التأثير في الجماهير . وكل هذا يبدو في جهاده وكفاحه في الماضي قبل توليه مقاليد الزعامة ، وفي أعماله الوطنية المجيدة التي تجعل الناس يستشعرون الانتقال من سلبات الماضي إلى إيجابيات الحاضر ، وأخيراً في فلسفته السياسية الجديدة التي تستشرف آفاق المستقبل بكل جوانبه المتعددة . والزعيم في كل هذا ابن بار للشعب ، يستطيع أن يلمس نبضاته ويحسها ، ثم يحولها إلى برنامج عمل . وهذه النبضات هي اتجاهات الرأي العام التي تجد لنفسها التعبير الحر في ظل الممارسة الديمقراطية . وإذا كان الرأي العام يمهّد السبيل لظهور البطل القومي ، فإن هذا البطل يقوم بعد ذلك بتوجيه هذا الرأي وترشيده . وفي الواقع فإن هناك تفاعلاً عضوياً بين الرأي العام والزعيم ، فكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به في أثناء الممارسة الديمقراطية . فالزعيم حين يخطب في الجماهير يؤثر فيها بأفكاره ، وفي الوقت نفسه يحس نبض هذه الجماهير من خلال مدى التجاوب ودرجته معه ، ولذلك يتأثر بميول واتجاهات الجماهير وبالتالي فإنه يعدل سياسته وفقاً لمتطلبات الرأي العام أما الحاكم المستبد فيحاول فرض سياسته على الرأي العام وذلك بالتأثير فيه دون التأثير به ، أي أن العلاقة هنا غير عضوية بمعنى أنها من طرف واحد فقط . والزعيم الديمقراطي الذي يدخل تغييرات حيوية وضرورية في مجتمعه إنما يعتمد على الرأي العام الموجود بالفعل أو المتوقع مستقبلاً ، فهذا الزعيم ذو بصيرة عميقة ، ونظرة ثاقبة بحيث يعرف مقدماً أن هذه التغييرات ستلقى تأييداً من الجمهور . وكان السادات مدركاً لكل أبعاد الرأي العام العربي الذي سيتكون عند إعلان حرب التحرير المقدسة ، فالحدث الجلل يفرض نفسه على الرأي العام ويوحد فكر الأمة كلها تجاهه ، ولذلك يقول السادات في خطابه التاريخي في افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ عندما كانت انتصاراتنا المدوية تملأ سمع العالم وبصره :

« لقد كانت هناك إشارة واضحة إلى وجود تمزق في ضمير الأمة العربية كلها ، وكنت أرى ذلك طبيعياً لأسباب اجتماعية وفكرية زادت عليها مرارة النكسة ، كان هناك من يسألونني ويسألون أنفسهم ، هل تستطيع الأمة أن تواجه امتحانها الرهيب وهي على هذه الحالة من التمزق في ضميرها ؟

وكنت أقول إن هذا التمزق فضلاً عن أسبابه الطبيعية يعكس تناقضاً بين الواقع والأمل وليس في ذلك ما يخيف بل كنت أعتقد أنه ليس هناك شفاء لضمير الأمة ولا راحة له إلا عندما تواجه الأمة لحظة التحدي ، ولم أكن في بعض الأوقات على استعداد للدخول في مناقشات عقيمة ، هل نعالج التمزق قبل مواجهة التحدي ، أو نقبل التحدي برغم وجود إشارات إلى التمزق ؟ . . . وكان رأيي أن الأمم لا تستطيع أن تكشف نفسها أو جوهرها إلا من خلال ممارسة الصراع وبمقدار ما يكون التحدي كبيراً بمقدار ما تكون يقظة الأمة واكتشافها لقدراتها كبيرة . .

لست أنكر وجود خلافات اجتماعية وفكرية فذلك مسار حركة التاريخ ، ولكنني في نفس الوقت كنت أعرف أن الأمم العظيمة عندما تواجه تحدياتها الكبرى ، فإنها قادرة على أن تحدد لنفسها أولوياتها بوضوح لا يقبل الشك . كنت مؤمناً بسلامة وصلابة دعوة القومية العربية ، وكنت مدركاً للتفاعلات المختلفة التي تحرك مسيرة أمة واحدة . ولكنني كنت واثقاً أن وحدة العمل سوف تفرض نفسها على كل القوى وعلى كل الأطراف وعلى كل التيارات لأننا جميعاً سوف نعي هذا الظرف ليس مباراة بين الاجتهادات وإنما هو الصراع بين الفناء والبقاء لأمة بأسرها .

هكذا أتاحت الممارسة الديمقراطية للزعم أن يدرك التفاعلات المختلفة التي تحرك مسيرة الأمة العربية كلها ، وبذلك استطاع أن يصدر القرار المناسب في الوقت المناسب ، ومن هنا كانت فاعلية القرار الذي أقام العالم وأقعده بين عشية وضحاها ، فبعد أن قرر العالم وضع قضية الشرق الأوسط في اللاجئة حتى تتجمد ويزول خطرهما تماماً ، وجد نفسه فجأة وقد أجلسه القضية ذاتها على فوهة البركان . وعندما أحس بلفحات الحمم وهجيرها ، صرخ طالباً حلاً سريعاً وحاسماً ونهائياً للقضية كلها ، واختفى من القاموس السياسي والعسكري ذلك الاصطلاح الجديد : الاسترخاء العسكري في الشرق الأوسط . فلا استرخاء وراحة لأحد على حساب آخر .

وكان السادات يدرك جيداً أنه لا شفاء لضمير الأمة إلا بمواجهة لحظة التحدي ، وبذلك يحل الرأي العام التماسك الصلب محل التمزق والضياع والتشتت وفقدان الهدف . وهذا يذكرنا برأى ليونارد و. دوب في كتابه « الرأي العام والدعاية » عندما يقول (ص ٥٥) إن الزعيم التاريخي لأمة ما يعرف الطريق الذي سيشقه الرأي العام قبل أن يسير بالفعل ، وبالتالي يمكنه أن يصدر القرار ، ويتخذ الإجراء الذي يشكل دفعة كبيرة لهذا الرأي في الطريق الصحيح . وعندما يتحول القرار إلى حدث جلل فإن الرأي العام يتشكل في لمح البصر دون دعاية أو ضغط من أي نوع . هنا تبلغ الممارسة الديمقراطية قممها العملية بعيداً عن الكلمات الرنانة . والخطب الطنانة ، والأحاديث البراقة . وفي هذا يقول ايمورى س . بوجاردوس في كتابه « كيفية صنع الرأي العام » ص ٢٢٦ :

« من الواضح أن الرأي العام شديد الحساسية بالنسبة للأحداث التاريخية . وهذه الأحداث العظيمة غير العادية يمكن أن تحول الرأي العام من النقيض إلى النقيض ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ولا يستقر الرأي العام بعد ذلك إلا إذا اطمأن إلى أن نتائج هذه الأحداث كانت في صالحه عن طريق إدراكه لأبعادها . وبدون شك فإن الأحداث أكثر قدرة بصفة عامة من الكلمات والخطب على خلق الرأي العام الحقيقي ، إلا في حالة اعتبار هذه الكلمات والخطب على أنها أحداث في حد ذاتها » .

ولا شك فإن الديمقراطية يمكن أن تمارس بالقدر الذي يتكون به الرأي العام بحرية ويعبر عن نفسه تعبيراً صادقاً كاملاً ، وهذه الحرية في التعبير والتصرف يجب أن تكون قائمة على إدراك جميع الحقائق المتعلقة بالقضايا ذات النفع العام ، بذلك يكون تصديق الرأي العام على القانون تصديقاً واقعياً وعلمياً . ونحن نعلم أنه بدون مساندة الرأي العام للقانون فلن تصبح له أية سيادة من أي نوع لأنه سيكون في هذه الحالة حبراً على ورق . وأيضاً فإنه بدون تكوين رأي عام ، يصعب المحافظة على القيم الاجتماعية ، والضرورات الأخلاقية ، والروح المعنوية العالية لأبناء الوطن الواحد . بل يصعب على السلطة التشريعية ممثلة في مجلس الشعب ، والسلطة القضائية ممثلة في الهيئة القضائية ، والسلطة التنفيذية ممثلة في الأجهزة الحكومية ، أن تقوم بواجبها على الوجه المنشود . ولذلك فالطريق الأمثل لسيادة القانون هو تكوين الرأي العام وتمهيدته لها . بمعنى آخر فإن الرأي العام هو النسيج الذي تصنع من مادته القوانين في المجتمع الديمقراطي السليم ولهذا اشترطت الدول الديمقراطية في دساتيرها أن تعرض القوانين التي تصدرها السلطة التنفيذية في غيبة البرلمان على الهيئة التشريعية في أول دورة مقبلة فإذا وافقت عليها استمر العمل بها ، وإذا لم توافق عليها ألغيت على الفور .

ويجب أن نعلم أن القانون ليس هو القانون المكتوب فقط في سجلات القضاء ، وإنما هناك أيضاً القانون غير المكتوب المتمثل في التقاليد والعادات والعرف ، وهذه كلها من نسيج الرأي العام . وإذا علمنا أيضاً أن هناك بعض الدساتير غير مكتوبة كال دستور البريطانى فإنه يمكننا القول أن الرأي العام لا يصنع القوانين فحسب بل إنه يصنع الدساتير أيضاً دون حاجة إلى جمعية تأسيسية نياية أو استفتاء شعبى على الدستور . وبهذا يكون الرأي العام هو المرأة التى ترى فيها الأمة شخصيتها القومية . ولكن هل معنى هذا أن هذه الشخصية تتغير بتغير الرأي العام لدرجة أن تتحول إلى شخصية متقلبة ؟ فى الواقع أن الرأي العام يشتمل على عنصرين حيويين : الأول صلب ومتماسك ويتمثل فى العقائد الروحية ، والضرورات الأخلاقية ، والتقاليد القومية ، والعادات الموروثة ، والتراث الفكرى . أما العنصر الثانى قرن ولين ويتمثل فى المذاهب السياسية ، والاتجاهات الاقتصادية ، والتيارات الاجتماعية . ولهذا نرى أن القوانين التى تصدر عن العنصر الأخير من الرأي العام تتغير بتغير العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية . أما العنصر الأول الصلب المتماسك فهو الذى يمثل جوهر الشخصية القومية بالفعل ، والعنصر الثانى يمثل المظهر الخارجى لهذا الجوهر ، ومن السهل أن يتغير المظهر من جيل إلى آخر بينما يستغرق اللون البطيء فى الجوهر قروناً عديدة ، ومع ذلك يظل فى أساسه كما هو تقريباً . وقد احتوت « ورقة أكتوبر » هذه الحقيقة وحللتها تحليلاً علمياً موضوعياً ، فإنه بعد حرب أكتوبر العظيم أصبح من الميسور تكوين الرأي العام الحر الصلب المتماسك دون تدخل من السلطة التنفيذية . يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« واليوم ، وبعد انتصار أكتوبر ، وتأکید وحدة الصف الوطنى ، وارتفاع المواطنين إلى مستوى المسئولية ، لا بد أن تؤكد معنى الحرية السياسية جنباً إلى جنب مع الحرية الاجتماعية .

وبهذا اتخذت قرارى برفع الرقابة عن الصحف ، ونحن لا نخشى الخلاف فى رأى ولا النقاش الحر ولا التعبير عن المصالح المختلفة لقوى الشعب العامل ، ما دام كل ذلك يدور فى الإطارات المشروعة التى نرتضيها ولا يستهدف غير مصلحة مصر وخير شعبها . إننا نقدم فى جرأة على تصفية القيود على الحرية من واقع الثقة بال جماهير وبوعيا الوطنى الممتاز ، ونريد أن نخلص المجتمع من كل المظاهر التى تعبر عن الريبة فى المواطن أوتنال من إنسانيته أو كرامته أو التى تجعل مصر تنغلق على نفسها على خلاف طبيعتها .

ولكن ليكن واضحاً أننا نبني ولا نهدم ، نصصح ولا نحطم ، نطور ون تدعم كل ما هو إيجابى بقدر ما نصفى ما هو سلبى ، نكشف الأخطاء فى غير مغالاة ، ونرفض كل محاولة لتركيز الأضواء كلها على الجوانب السلبية حتى نخفى من الصورة كل الجوانب المشرقة .

وتصف مجلة « تايم » الأمريكية فى عددها الصادر فى ١٣ مايو ١٩٧٤ مظاهر الانفتاح فى جميع المجالات ، وإطلاق الحريات بصورة أكبر ، والتخلص من عقدة الخوف من الأجانب فتقول : « إن معسكرات الاعتقال أصبحت خالية ، ولم يعد المصريون يخشون من الاعتقالات التعسفية أو الرقابة الصارمة على الحياة الشخصية للأفراد » . وتوضح المجلة أنه من مظاهر الحريات الأخرى إلغاء شرط حصول المصريين على تأشيرة الخروج عند السفر للخارج ، وأيضاً الحكم الذى أصدرته محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة ويقضى بعدم أحقية الحكومة فى مصادرة الممتلكات الخاصة . وهذا تطبيق عملى لرأى السادات الذى ورد قبل ذلك بحوالى خمسة عشرة سنة ، فى كتابه « القاعدة الشعبية » حيث يقول ص ٤٧ :

« كل فرد فى بلدنا له حق التملك ولكن ملكيته محدودة بحد معين حتى لا تتراكم الثروات فى أيدي قليلة . . . ونحن لا نلجأ إلى الإجراءات التعسفية ولا نغلب طبقة على طبقة . نحن نعترف بوجود الطبقات ، ولكننا لا نعترف بحدّة

الصراع بينها . نحن نعمل على ألا تسود طبقة على طبقة . نريد أن تجلس الطبقات جنباً إلى جنب وأن تغلب حاسة المنفعة العامة على حاسة المنفعة الخاصة .

ولذلك لا يؤمن السادات بنظام الحزب الواحد إذ يقول في الكتاب نفسه ص ٢٢ :

« نظام الحزب الواحد لا يصلح لنا لأنه لن يمثل هذا الشعب . نحن نريد أن يشترك الشعب كله في حكم نفسه في المرحلة الجديدة . لا نريد جزءاً يشترك في الحزب والمسئولية وبقية الشعب لا تشترك لأن الشعب كله هو الذي انتصر في كل معارك الثورة .

ونظام الحزب الواحد يجعل من الشعب آلة صماء . . تسمع الأوامر وتطيع فقط ولكننا لا نريد لشعبنا أن يكون آلة صماء . نحن نريد لشعبنا أن يشترك في تدبير أمر نفسه ، أن يتحمل مسئولية حكم نفسه أن يشترك مع حكامه في تسيير كل شيء يخصه ويخص أبنائه ويخص أحفاده ويخص الأجيال المقبلة . »

ويؤكد السادات في حديثه لمراسلي مجلة « تايم » الذي نشر في ١٣ مايو ١٩٧٤ نفس الاتجاه الأصيل فيقول :

« إنني لا أعتقد في نظام تعدد الأحزاب أو في نظام الحزب الواحد في هذه المرحلة من بناء بلادنا . فقد عرفنا نظام تعدد الأحزاب من قبل ، وأثبت فشله الذريع . وعندما نفرغ من وضع أسس مجتمعنا الجديد ، فقد نكون أكثر قدرة حينئذ على أن نتحمل نظام تعدد الأحزاب . ولكنني لا أعتقد في ملائمة هذا النظام لنا في الوقت الحاضر . »

فنظام الحزب الواحد حجر على حرية الرأي ، ونظام تعدد الأحزاب بمفهومه المصرى قبل الثورة هو تشتيت لنفس النوع من الحرية . فالممارسة الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق بوسائل القمع أو الجبر ، كما لا يمكن أن تطبق بوسائل التزييف أو التلاعب ، فالغاية لا تبرر الوسيلة ، بل إن الديمقراطية التي تحاول أن تدافع عن نفسها باضطهادات مماثلة لاضطهاد الأنظمة الأخرى التي تعارضها ، تتنكر في الوقت نفسه للقيم الإنسانية والضرورات الأخلاقية التي تدافع عنها ، لأنه كما يقول جان بول سارتر « إننا نستطيع أن نبني بنفس الحجارة قبراً للحرية ، ونستطيع أن نشيد لها معبداً أيضاً . » أو كما يقول دوركايم إنه : « لا شيء أكبر زيفاً وبطلاناً من ذلك التنافر أو التعارض الذي يقيمونه بين سلطان القواعد وحرية الفرد . » فلا حرية لأمة يعيش فيها الفرد مستعبداً أو حراً بطريقة مزيفة ، ولا سلطان ثابت لحاكم ، رعيته من العبيد . وعلى سبيل التأسيس الفكرى ، ولكي نتبع الأصول المصرية لإيمان السادات بالممارسة الديمقراطية ، سنأخذ رد جمال الدين الأفغانى على الخديو توفيق كنموذج للديمقراطية المصرية الأصيلة ، وعلى الرغم من أن جمال الدين الأفغانى لم يكن مصرى المولد فإنه يعد من الرواد الفكريين الأوائل الذين دخلوا التراث المصرى وسجلوا فيه صفحات مشرقة . وأيضاً فإن إعجاب السادات به يبدو واضحاً في كتابه « نحو بحث جديد » . يقول جمال الدين الأفغانى موجهاً كلامه إلى الخديو توفيق :

« ليسمح لى صاحب السمو أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصرى كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادها ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعامل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصيح هذا المخلص وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة ، تسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم . »

ولا يقل إعجاب السادات بالإمام محمد عبده عن إعجابه بجمال الدين الأفغانى ، فيعتبره في كتابه « نحو بحث جديد » من أعمدة التعمير الحضارى الحديث . فى مصر . ولا غرو فى ذلك فهناك أوجه تشابه كثيرة بين فكر القائد وفكر الإمام الذى كان من أوائل من طالبوا بالممارسة الديمقراطية فى مقالاته وكتابات العديدة ، وعندما يطبق السادات الآن أساليب الممارسة الديمقراطية على الحياة السياسية والاجتماعية فإنه بذلك يقوم بتأصيل الجنور المصرية

ها . وفي المقتطف التالي للشيخ محمد عبده نستطيع تتبع البذور المبكرة للديمقراطية المصرية في العصر الحديث . يقول الإمام : « وهناك أمر كنت من دعائه ، والناس جميعاً في عمى عنه ، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد عن العشرين قرناً .

دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته فهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرد عنه خطئه ، ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصيح الأمة له بالقول والفعل .

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ؛ ويد الظالم من حديد ؛ والناس عبيد له أى عبيد . »

وللشيخ محمد عبده مقال خطير في الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » بعنوان « الشورى والقانون » ، يقول فيه : « إن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر من رأى الأمة العام ، أعنى المؤسس على مبادئ الشورى ، وأن الشورى لا تنجح إلا بين من كان لهم رأى عام يجمعهم في دائرة واحدة ، كأن يكونوا جميعاً لتعزيز شأن مصالح بلادهم ، فيطلبونها من وجوهها وأبوابها ، فما داموا طالبين هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه . . »

والدليل على أصالة الإيمان بالممارسة الديمقراطية في التربة المصرية أن الإمام محمد عبده كان ينادى بهذه الأفكار الرائدة في الوقت الذي كتب فيه الفيلسوف الألماني أوزوالد شبنجلر كتابه الرهيب « انهيار الغرب » وفيه نادى برفع لواء الديكتاتورية لأن الممارسة الديمقراطية هي كذبة كبرى . والعجيب أن هذا الكتاب قد أحدث تأثيراً عميقاً في التفكير الأوربي في أوائل العشرينيات من هذا القرن ، وخاصة بعد الإنهاك الذي أصاب أوروبا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، والطعنة التي نفذت في صميم كبريائها وسيادتها بوصفها قائدة الحضارة الحديثة . في هذا الكتاب تبدو فكرة شبنجلر بعيدة كل البعد عن المفهوم الإنساني للديمقراطية . ولذلك يعتبره كثير من المفكرين الأوربيين الفيلسوف الملهم والأب الروحي لهتلر ، فقد سرت أراؤه الديكتاتورية في ضمير الشعب الألماني بحيث مهدته نفسياً لظهور النازية فيما بعد . وكانت النتيجة تلك الولايات الفظيعة التي عاناها الإنسان بصفة عامة من جراء اندلاع الحرب العالمية الثانية . ذلك لأن المبدأ الأساسي للممارسة الديمقراطية ، وهو أن الناس جميعاً ولدوا متساوين ولهم حقوق متساوية ؛ هذا المبدأ كان غريباً على شبنجلر ، فهو يعتقد أن كل دولة سواء كان حاكمها ملكاً أو ديكتاتوراً أو طاغية أو برلماناً ، فإنها في الواقع محكومة بأقلية مستبدة تدفعها رغبة عارمة في الإمساك بمقالييد السلطة ، والتشبث بالقيم الأرستقراطية التي تنادى بالحكم بواسطة الطبقة الأفضل ، فهو يعتقد اعتقاداً جازماً بأن المواطنين ينقسمون بالضرورة في كل مجتمع إلى جماعتين مميزتين هما : الأقلية الحاكمة المستبدة ، والأغلبية المحكومة المغلوبة على أمرها . فهو يقول في الجزء الثاني . الفصل الثاني عشر من كتابه « انهيار الغرب » : « إن وحدة الحياة - هي حتى في عالم الحيوان - تنقسم إلى غالبين ومغلوبين . »

وكل ما يراه شبنجلر في الممارسة الديمقراطية ، مجرد واجهة براقية تختفي خلفها الأقلية الحاكمة المستبدة بكل رغبتها في الاستئثار بالسلطة ، على حين تملك الأغلبية المحكومة المغلوبة على أمرها الحرية بطريقة صورية بحتة . وهذا يدل على ضيق أفق شبنجلر الذي منعه من إدراك حقيقة الأخطاء المميتة التي أدت بجميع الحكام المستبدين في التاريخ ، قد نتفق معه في أن كل أمة في العالم تحكمها فعلاً أقلية صغيرة سواء مثلت الشعب أو لم تمثله ، ومع

هذا لا يدرك شبنجلر أن هذه الأقلية سواء كانت من البلاط أو الكهنوت ، أو الإقطاع ، أو قادة مدنيين ، أو زعماء برلمانيين ، أو أحزاب عمالية ، فإنها - كشرط أساسى لاستمرارها فى السلطة - لا يمكن أن تتجاوز حدود العدل والحق والحرية كما تؤمن بها الجماهير العريضة . والتاريخ زاخر بثورات الجماهير ضد ما اعتبرته ظلماً أو قسوة أو طغياناً ، أو مجرد سوء إدارة ، حتى لو صدر عن جهل أو حسن نية ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن الأقلية الحاكمة المستبدة - كما سميها شبنجلر - لابد أن تستمد سلطتها ، طبقاً للمثل العليا للديمقراطية ، وبالمعنى الدستورى والأخلاقي ، من جماهير المواطنين ، وفى الوقت نفسه يتحتم عليها أن تفعل هذا ، وإلا كان هذا بمثابة بداية النهاية لها إن عاجلاً أو آجلاً . فهى لا تستطيع أن تهمل إلى الأبد الحاجة الفطرية إلى العدالة والحق والحرية التى تتحكم فى مشاعر الجماهير ، والتى تؤدى فى كثير من الأحيان إلى حدوث تغييرات غير متوقعة أو حتى مضادة كلية لإرادة الأقلية الحاكمة .

والنقطة الحيوية التى غابت عن ذهن شبنجلر هى التحدى الحقيقى الذى تواجهه الممارسة الديمقراطية الناضجة بسبب الاتجاه الديمقراطى الكامن فى الجماهير نحو عبادة البطل . فلا بد أن ينضج المواطنون فكرياً وثقافياً وحضارياً إلى الدرجة التى يملكون فيها القدرة على الموازنة الصحيحة بين إعطاء القادة سلطات كافية فى جميع المجالات لكى تمكنهم من القيام بواجبهم على الوجه الأكمل ، وبين وضع الضوابط والأطر التى تنظم هذه السلطات بحيث لا تتضخم وتفسدهم أو تبطل حق الأغلبية فى إبداء رأى الحر المستقل . ولكن لا يعنى وجود هذا التحدى أن نصرف النظر عن الممارسة الديمقراطية ونبحث عن حلول أسهل ، فمن الواضح أنه لا يمكن الحصول على بديل للممارسة الديمقراطية . قد يكون فى الممارسة بعض الثغرات التى يمكن تلافيها ، ولكن فى غياب هذه الممارسة تحدث أخطاء مميتة قد يتعذر إصلاحها ، من هذه الأخطار مثلاً أن يتحول الشعب إلى مجرد تروس فى الآلة الاجتماعية وبذلك يفقد المواطنون إنسانيتهم وأدميتهم . أو يتحول الشعب كله إلى أداة طغيان وقهر وبغى بالنسبة للشعوب الأخرى كما فعلت ألمانيا النازية تجاه شعوب العالم فى الحرب العالمية الثانية وهددت بذلك التعمير الحضارى كله بالدمار والخراب .

من هنا نلاحظ شدة الارتباط بين الممارسة الديمقراطية والتعمير الحضارى . ويقول ت . س . إلبوت فى كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة » إن الممارسة الديمقراطية الصحيحة هى البوتقة التى تنصهر فيها ثقافة الأمة وحضارتها على كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية دون استثناء . وهى بذلك تحافظ على الشخصية القومية للأمة من التشويه والتحلل . ولذلك فالممارسة الديمقراطية تحيط التعمير الحضارى بكل الضمانات التى تكفل له الاستمرار والتطور والازدهار ، وتجنب الأمة الكثير من النكسات التى تعوق مسيرتها الحضارية . فى غياب الممارسة الديمقراطية يَحِقُّ الدمار والخراب بكل الأطراف المعنية ، فقد ظنت ألمانيا النازية أن فى إمكانها السيطرة على مقادير العالم بالحديد والنار ، ولذلك زحفت بالدمار كله على كل بلد حاول مقاومة طغيانها . ولكننا نجد أن الدمار قد أحاق فى نهاية الأمر بالجميع سواء المعتدى عليه أو المعتدى . وهذا دليل تاريخى ساطع يدل على مدى حاجة التعمير الحضارى إلى الممارسة الديمقراطية لكى تجنبه هذه الويلات والنكسات . لأن سقوط الديكتاتور لا يعنى مجرد سقوط فرد لوحده ، ولكنه يعنى انهيار أمة بأسرها ، ولذلك فالديكتاتورية لا تملك عنصر الاستقرار السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى تملكه الديمقراطية ، ونحن نعلم جيداً أنه بدون هذا الاستقرار لا يمكن لأى تعمير حضارى أن يستمر .

ومن هنا كان حرص السادات على الربط بين الممارسة الديمقراطية والتعمير الحضارى ، لأنه لا يمكن لأحدهما أن يستمر فى غياب الآخر ، ونظراً لهذه العلاقة العضوية بين العنصرين ، فقد آثرنا أن يدور الفصل التالى حول التعمير الحضارى فى فلسفة رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفضل الخامس

التعمير الحضارى

يحدد أنور السادات مفهومه للتعمير الحضارى بأنه التطبيق العملى الشامل لثقافة الأمة بشقيها الأصيل والمعاصر فى نفس الوقت . فيقول فى كتابه الأكاديمى « نحو بحث جديد » - الذى نشر مسلسلاً لأول مرة فى جريدة « الجمهورية » عام ١٩٥٤ - « إن الثقافة وسيلة والحضارة هى الغاية . الثقافة تصنع الحضارات ، تصنع الحرية ، تصنع الحياة وتبهجها . » وهذا التعريف العلمى الخصب الذى ذكره السادات فى « الجمهورية » بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٥٤ يصلح ليكون المنطلق الموضوعى لهذا الفصل . فنه تخرج معظم التفرعات والتنوعات التى تصلح لتكون منهجاً تسير عليه الأمة فى طريقها صوب التعمير الحضارى . ورغم أن هذا المنهج قد رسمه السادات منذ عشرين عاماً بالضبط ، إلا أنه لم يكن من السهل تطبيقه نظراً للظروف الموضوعية ، والصراعات العالمية ، والضغط الخارجى ، والسلبات الداخلية ، والرواسب التقليدية التى عاقت مسيرة الأمة الحضارية ، أما الآن ، وبعد السادس من أكتوبر العظيم الذى يعد البعث الحضارى الحقيقى للأمة ، فى الإمكان وضع أقدامنا على الطريق الصحيح المؤدى إلى التعمير الحضارى بعد أن عانت الأمة من التخريب الحضارى الكثير ، سواء على أيدى المستعمرين أو على أيدى المتعاونين معهم من الداخل . ولذلك يطالب السادات العرب ، فى نفس العدد من « الجمهورية » ، بأن :

« يتجهوا إلى التاريخ - تاريخنا وتاريخهم - ثم يعرفوا واقعنا فى الشرق ، وواقعهم فى الغرب ، ويدرسوا قصة المأساة هنا وقصة الحضارة هناك . حيثئذ يمكن أن يبدأ البعث الجديد لا على أساس الكهانة والدجل وتفسيرات وهمية للدين بل على أسس علمية وتاريخية تجعل من حضارتنا شيئاً محتوماً ! »

ويؤكد السادات بأن فى قدرتنا الانتصار على الوهم لتؤمن بالعلم ، بالحقيقة ، بالهدف العظيم الكبير الذى كافح أجدادنا فى سبيله حتى القرن الثالث عشر ، ثم لم يعد هناك كفاح دائم فى سبيله بعد انهيار دولة بنى العباس . ولعل من أهم إنجازات السادس من أكتوبر العظيم أنه حطم حاجز الوهم الذى حاولت إسرائيل إقامته مع تحصيناتها العسكرية فى مواجهة قناة السويس . ولم يتحطم هذا الحاجز بمعجزة خارقة للطبيعة ، بل انهار نتيجة لإيماننا الكبير بالعلم ، والحقيقة ، والهدف الحضارى العظيم الذى يؤكد أن إرادة الشعب من إرادة الله عز وجل . ولعل ينبوع الأول للثقافة والحضارة يكمن فى معرفة الذات الإلهية ، ومعرفة الذات الإنسانية . وهى معرفة لا تمت إلى الكهانة والدجل بصلة من قريب أو بعيد . ولذلك يوضح السادات أن وسيلة الاستعمار كانت التخريب الحضارى حتى يضمن دوام استغلاله للشرق ، فأقام ذلك الستار الحديدى بيننا وبين الثقافة ، وشجع الاستناد إلى الكهانة لكى تتمكن من السيطرة على عقولنا . ويحلل السادات هذا التخريب الذى أعمله الاستعمار فى حضارة الشرق تحليلاً موضوعياً فيقول :

« صحيح أن الغرب لم ييخل علينا بجزء من حضارته . . أتى إلينا من خلف الستار الحديدى ببعض الفتات . . سمح بإقامة المدارس فى حدود معينة لا تخرج عن إعداد موظفين يقومون بالأعمال فى دواوين الحكومة . . التى هى فى نفس الوقت تعمل فى حدود مصالح المستعمرين ! وسمح لنا بإقامة السكة الحديد واستعمال التليفون والبرق والصحف ، والمصارف والكبارى والبيوت البيضاء فى المدن . سمح لنا بذلك لا رغبة منه فى دفعنا إلى حيث الحضارة . . بل ليستفيد هو من كل هذه الأشياء التى هى جزء مما وصل إليه التقدم الإنسانى . . »

فهو - الاستعمار - ، كان لا يستطيع أن يقيم بين ظهرانينا بلا قليل من النور ، يستغله في قضاء مصالحه ! !
 فثلاً الترع والمصارف ، أنشئت في مصر لكي تنتعش زراعة القطن فتنتج مصر حاجة مصانع النسيج في لانكشير منه !
 ويؤكد السادات أيضاً أن ارتباط الاستعمار بالكهانة والدجل ، مكنه من أن يثبت في عقول الناس أن المدنية
 زيف ، والحضارة شر ، والتقدم خروج على مشيئة رب العباد ، والثقافة رجس من عمل الشيطان ويستأنف السادات
 دراسته العميقة فيقول :

« كان اكتشاف وسائل لعلاج الأوبئة والأمراض واختراع الكهرباء وإقامة المصانع وتثقيف العقول وتنوير
 الأذهان جريمة تغضب رب العباد !

أى أن جهود العلماء والأدباء والفنانين والمفكرين والموسيقين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر التي أوصلت الحضارة
 هناك إلى هذه القمة العالية كانت جريمة . وسيساق - إذن - هؤلاء العلماء الذين صنعوا التقدم البشرى إلى الجحيم
 ومعهم الأدباء والشعراء . . فولتير العذب الحر . . وهوجو الداعى إلى تخليص البؤساء ويرون المغامر الذى ثار على
 مجتمعه الارستقراطى الرجعى . . وبوشكين وتولستوى وديستوفسكى الذين أشفقوا على العبيد والجيايع والمحرومين ،
 وجيته العظيم كبير كتاب ألمانيا الذى أراد أن يشيع في عصره انتفاضات الفكر والعلم والفن . . وشوبان وبيتهوفن
 وتشايكوفسكى ، الكبار الذين حركوا قلوب البشر بعد الجمود . . !

وكلود برنارد وسيكار الفرنسيان اللذان كشفنا لنا سر الغدد في الأجسام . . وبافلوف الروسى وباستور
 الذى حقق معجزة الميكروب ، وكوخ ولافران وأرلخ الذين حددوا مكان الطفيليات باعثة الأوبئة . . والبارع الماهر
 سمبسون الذى حول الجراحة من عمليات أشبه بعمليات الذبح في السلخانات إلى شيء بسيط يمكن أن يتم بعد تخدير
 المريض بالأثير والكلوروفرم فأنقذ البشرية من عذاب وألم كبيرين . !

هؤلاء هم قادة الحضارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ارتكبوا إثماً كبيراً - إذن - أغضبوا السماء وخرجوا
 على طاعة رب العباد باعتبار أن المدنية زيف وبهتان كما تقول الكهانة وكما يزعم تجار الدين والمشعوذون . «
 ومن رأى السادات أن أعظم وأجل الأعمال التى يمكن أن يقوم بها قادة الفكر في الشرق عامة ، وفي العالم العربى
 خاصة ، هى أن يفتحوا آذان الشعوب وعيونهم على التراث الإنسانى الحضارى والثقافى بصفة عامة ودون تفرقة .
 ولا يقدم السادات هذا رأى باعتباره اقتراحاً قابلاً للدراسة والتمحيص ، بل إنه حقيقة وأمنية يتحتم الاعتراف بها
 مادامنا قد عقدنا العزم على التعمير الحضارى . وإذا لم نحول هذه الحقيقة إلى برنامج عمل ومخطط تنفيذى فلا سبيل -
 على الإطلاق - إلى هذا التعمير الحضارى الذى ننشده بكل الوسائل والإمكانات . وخاصة أن المصريين والعرب
 كانوا من أوائل الشعوب التى حملت مشاعل الحضارة الإنسانية إلى كل أجزاء العالم فيما بعد دون أن يعتور سلوكها
 أية أثر أو أنانية . فقد كان التفكير الشرقى بكل روحانيته ورحابته وسماحته يؤمن بأن الحضارة الإنسانية ملك للجميع
 وليست حكراً على أحد ، وكان من جراء هذا التفكير المثلث أن نهضت أوروبا وانبعث فيها التعمير الحضارى بفضل
 العرب . وفي هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية » في ٢٣ أغسطس ١٩٥٤ :

« وبعد أن نهضت أوروبا وانبعث فيها تراث الإنسانية الثقافى بفضل العرب ، استبدت الأنانية بحكامها
 وطبقاتها العالية وأيضاً بمثقفها وعلمائها وفنانيها ، فلم يحملوا المشاعل مثل العرب الأجداد ليضيئوا الطريق أمام الشرق
 الذى سيطرت عليه أخيراً الكهانة ، مثلما كانت تسيطر على الغرب في القرون الوسطى . .

فلم يساهم الغرب في بعث نهضة الشرق على الإطلاق ، تماماً مثلما فعل الرومان أيام إمبراطوريتهم المزدهرة ! . .
 فلقد تعرضت حضارة الإغريق المجيدة لحقد أباطرة روما وقوادها العسكريين ونبلائها الأشرار ، فعملوا على طمسها

ودفنها في التراب . . لأن إمبراطوريتهم كانت قائمة على السخرة والإثم والقوة والقهر . ولم يقدر لتراث أثينا الثقافي والعلمي أن ينبعث أبداً إلا عندما حمل العرب مشاعلهم وقدموا للبشرية ذلك التراث ، في نبل وكرم عظيمين . . وبلا تعصب وبلا ادعاء أو من ! !

وأقول إن الغرب بعد نهضته وازدهار المدنية فيه اتجه إلى هدف شرير أثيم ، فقرر استعمار الشرق لا النهوض به . . ونادى كبلنج الفيلسوف الاستعماري الإنجليزى الرجعى بهذا ، وأهاب بقومه أن يسرعوا في التهام القريسة المسلمة ، قبل أن تفيق من سباتها العميق ! فأطلق كلمته المشهورة : الشرق شرق ، والغرب غرب . . ولن يلتقيا ! ! ونسى ذلك الرجعى أن الشرق سبق له أن التقى بالغرب في قديم الزمان ، عندما بعث العرب نهضة ذلك الغرب وأشاعوا فيه النور ! «

ويؤمن السادات بأنه إذا نشأت حضارة إنسانية في بقعة ما من الأرض ، فلا يمكن أن تعيش على دماء حضارة أخرى مجاورة أو سابقة ، وإلا لما استحكمت أن يطلق عليها اصطلاح حضارة من الأصل . ولذلك فهو يفرق بين الحضارة الإنسانية الشاملة والمدنية المادية المؤقتة ، فالحضارة الجديدة تدخل التاريخ الإنسانى من أجل الإضافات والإنجازات والاجتهادات التى تضيفها إلى الحضارات السابقة أو المعاصرة على حد سواء ، أما المدنية المادية فتريد أن تمتص دماء الحضارات المعاصرة حتى تنهكها ، وعندما لا تجد ما يمددها بالدماء فإنها تندثر في نهاية الأمر وتصبح أثراً تاريخياً يروى فقط من باب السرد التاريخى ، أما الحضارة الشاملة فتتحول إلى جزء من ضمير الإنسان وسلوكه على مر العصور وفي مختلف البقاع . ولذلك يمكننا القول بأن الحضارات المصرية والإغريقية والعربية على التوالى تشكل جزءاً من كيان وفكر الإنسان المعاصر حتى ولو لم يدرك هذا بطريقة واعية أو مباشرة . أما المدنيات المادية الخالية من المضمون الفكرى والروحى فينتهى أثرها باندثارها ، فالتاريخ يذكر جينكينزخان وهولاكو ونيرون وكاليغولا وهتلر بأسلوبه المحايد ، أما الحضارة الإنسانية فتذكرهم بكل شر لأنهم يمثلون انتكاسات لها بما أثاروه من قتل وتدمير وعنصرية وتفارقة بين بنى البشر .

ولكن ما يزال بعض المفكرين في الغرب يعتقدون أن حضارتهم المادية - لكى تزدهر وتستمر - يجب أن تقف بالمرصاد لأية حضارة أخرى تحاول أن تحتل مكانها تحت الشمس ، فهم ينظرون إلى الأمر مثل نظرتهم إلى عنصر المنافسة الذى بدأ مع الانقلاب الصناعى في القرن الماضى . وهم لا يدركون بهذا أن أية حضارة جديدة يمكن أن تكون مدداً وزاداً لحضارتهم الحالية . ومن هنا كانت الجيوش والأساطيل التى استخدمت كل أساليب القهر والقمع لإطفاء أية مشاعل حضارية جديدة في الأفق . ويعتقد السادات أن أهمية قرار تأميم قناة السويس ترجع إلى أنه أوجد ميداناً التقى فيه الشرق والغرب لأول مرة منذ قرون كان الغرب فيها يستعبد الشرق ، وظن الغرب أن لا قائمة ستقوم للشرق . ولذلك ارتفعت الصيحات في أوروبا عام ١٩٥٦ منادية بأن الحضارة الغربية في خطر ، وأن زعماء الغرب - وهم الحراس الأمناء على هذا التراث الإنسانى - يجب أن يحافظوا على هذه الحضارة وذلك التراث الذى يهدده الشرق في صحوته التحريرية والتعميرية . وكأن حضارة الغرب وتراثها الذى يخاف عليه أوروبا وأمريكا لا تعيش إلا على أشلاء الشرق ، ولا تزدهر إلا إذا امتصت دماء الشرق . ولكنها كانت الحقيقة المؤسفة التى أثبتت وجودها الكتيب في العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وفي الغزوة الصهيونية عام ١٩٦٧ . ومن هنا كان المعنى الحضارى العظيم الذى سجله السادس من أكتوبر المجيد ، وهو المعنى الذى يجب أن نحافظ عليه وأن نضمن له الاستمرار والازدهار إذا أردنا التعمير الحضارى بكل أبعاده . ففي السادس من أكتوبر استيقظ العالم الغربى متزعجاً على صوت لم يألفه من قبل ، صوت يقول له بقوة وعنفة وثبات إن أحفاد الحضارة المصرية والعربية مازالوا أحياء بل وقادرين على

إثبات وجودهم تحت الشمس ، وعلى إحياء هذه الحضارة التي كانت بمثابة الحضارة الأم لكل الحضارات الإنسانية التي عرفها التاريخ . ولذلك يعلنها السادات في « ورقة أكتوبر » :

« إن هذا الشعب قد عاش على هذه البقعة من الأرض يبنى الحضارة لخيرته ولخير البشرية منذ سبعة آلاف عام . توحدت صفوفه منذ فجر التاريخ حتى خلا تاريخه من الحروب القبلية والإقليمية والطائفية . تفتح بصفة عامة على العالم من حوله فأخذ بكل جديد نافع للناس ، ولو انغلق على نفسه لعاش في عزلة قاتلة ولذوت حضارته واندثرت كما اندثرت حضارات كثيرة ، ولكنه كان يتلقى كل جديد فيعيد صياغته ويضيف إليه ويضفي عليه الطابع المصرى الخاص .

ولو لم يفعل ذلك لما احتفظ بشخصيته المتميزة والمستمرة عبر كل التطورات الحضارية التي عاشها . إننا شعب عريق وأصيل ، جعل من وطنه أرض السلام والتسامح ، وطوع أوضاعه لضرورات التقدم بعيداً عن التعصب البغيض والحقن القتال والصدام الدموى ، لذلك أحب مصر كل من عاش على أرضها وارتوى من نيلها مهما يكن وضعه فيها . لقد تعرضت بلادنا للغزوات كثيرة ولكن لم ينجح أحد في أن يطمس حضارتها أو أن يذهب بمعالم شخصيتها ، حتى أولئك الذين نجحوا في حكمها ، سرعان ما كانت تستوعبهم حضارتها ، ويمتزجوا ويصبحوا جزءاً منه لا يتجزأ . أولئك لم يتركوا مصر ولو بعد حين . .

من هذا الماضي المجيد تكونت الوطنية المصرية الجياشة التي لا تعرف التعصب أو التعالي ولكن تجيد الفداء صوناً للأرض ودفاعاً للحق ، وتأميناً للبناء والتقدم . »

ويعتبر المفكر الروسى نيقولاى دانييلفسكى الحضارة المصرية القديمة بمثابة فجر التاريخ الإنسانى المتحضر . فقد نشر عام ١٨٦٩ سلسلة مقالات في مجلة « زاريا » بعنوان « نظرة إلى العلاقات بين العالم السلافى والعالم الجرمانى » وكان مفهومه للحضارة هو التزاوج الذى يحدث بين المواقف التاريخية والأنماط الثقافية ، وكانت الحضارة الفرعونية أول حضارة - عرفها الإنسان - تمكنت من بلورة هذا المفهوم وتحويله إلى إطار تحركت داخله كل الحضارات التي أعقبتها ، ولذلك يعد قدماء المصريين الرواد الأول للحضارة الإنسانية التي مازالت تعيش معنا حتى الآن ، وهذه الحضارة إذا كانت تبدو خافية في بعض الأحيان داخل الوجدان المصرى نفسه ، فإن ذلك بفعل الضغوط الخارجية والداخلية فقط ، ولكنها ضغوط مؤقتة مهما طال بها الزمن ، وإذا أدرك الإنسان المصرى هذه الحقيقة لاستطاع أن يعيد مجد حضارته القديمة . ورغم أن دانييلفسكى كتب هذا الكلام منذ أكثر من قرن من الزمان ، إلا أنه يبدو كما لو كان قد كتبه بالأمس القريب ، والسادس من أكتوبر العظيم خير دليل على صحة كلام دانييلفسكى .

ويعتقد دانييلفسكى أنه لا توجد حضارة واحدة فقط في العالم المعاصر ، بل هي نسيج من حضارات متعددة سابقة أو مندثرة ، ولكن المسألة تكمن في مراكز الثقل التي تتبلور فيها الحضارات ، فتبدو هذه المراكز وكأنها الحضارة بعينها ، بينما هناك من مناطق الظل ما يعتبر من العالم المتخلف الذى لم يعرف معنى للحضارة بعد ، بينما المسألة هي أن الحضارة خافية في هذه المناطق وليست مندثرة ، ويمكن أن تبعث مرة أخرى لو تجمعت العوامل المساعدة لذلك . فالحضارة التي تولد وتزدهر يمكن أن تنجو وتتوارى ولكنها لا يمكن أن تموت وتندثر . والحضارة الأوربية تستمد جذورها في الأساس من الحضارات السابقة المتوارية في الظل ، وإن كانت قد أخذت أسلوباً آخر . وعلى هذا فالحضارة الأوربية ليست الحضارة العالمية الوحيدة كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . ولذلك يقول دانييلفسكى في مجلة « زاريا » بتاريخ ٦ أكتوبر ١٨٦٩ :

« ليست الحضارة الأوربية هي الحضارة العالمية بأية حال من الأحوال ، بل ليست أيضاً الحضارة الديناميكية

أو الحضارة التقدمية الوحيدة إنها ليست سوى حضارة من عدة حضارات أخرى كثيرة تشمل فقط منطقة الحضارة الجرمانية الرومانية ، وقد ولدت معظم الحضارات الأخرى ، بما فيها الحضارة الهلينية خارج ما تعارف عليه بأنه أوروبا . وهذا ما فعله الروس ، لأن روسيا لا تتبع أوروبا باعتبارها جزءاً أو حتى فرعاً من حضارتها . ولم تساهم بأى نصيب فى حياة أوروبا وتجاربها ، ولكنها استمتعت بكيانها الخاص بها .

وهاجم دانييلفسكى الغرور الذى يصيب بعض الحضارات بحيث يتحول إلى نوع من التعصب الأعمى ، والعنصرية البغيضة ، والكبرياء الأجوف ، والروح العدوانية التى ترى أن نشر الحضارة لا يتأتى إلا عن طريق إذلال الشعوب الأخرى واستعبادها . ورأى دانييلفسكى فى محله لأنه كتب هذا الكلام فى الوقت الذى كانت فيه الإمبراطوريات الاستعمارية الأوربية فى أوج مجدها ، وعز سيطرتها ، وقمة طغيانها ، وقد قادت هذا الاتجاه الحضارى المزيف إنجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال . وهذا الزيف نبع من أن الاستعمار قد لبس رداء الحضارة حتى يبدو شكله مقبولا ، وتحت ظل هذا القناع شهد النصف الثانى من القرن التاسع أفظع وأبشع أنواع الاستبداد والاستعمار ، وامتصاص دماء معظم شعوب آسيا وأفريقيا . وهذا لا يمكن أن يمت لمفهوم الحضارة الإنسانية بصلة قريبة أو بعيدة ، بل هو التخریب الحضارى بعينه . ولذلك يقول السادات فى سلسلة من المقالات التاريخية العلمية تحت عنوان « شرق وغرب » نشرها فى جريدة « الجمهورية » عام ١٩٥٦ ، يقول كلاماً يكاد يتفق مع نظرية دانييلفسكى الحضارية فى مضمونها ، فقد كتب فى ٢٦ أغسطس ١٩٥٦ مفرقاً بين مفهوم الحضارة والمدنية فقال :

« حضارة الغرب اليوم ليست حضارة بمعناها العلمى أو النظرى وإنما هى مدنية . . وفرق كبير بين الحضارة والمدنية . فالحضارة تقوم أول ما تقوم على مقومات معنوية وروحية قبل أن يكون لها مقومات مادية ، لذلك نرى أن طابعها لا يكتفى بالمظهر وإنما يعتمد أول ما يعتمد على الجوهر . .

والمدنية لا تعرف المقومات المعنوية أو الروحية على الإطلاق ، وإنما هى تتناول الجوانب المادية البحتة فى حياة الفرد والمجتمع التى لا تعدو أن تكون مظهراً . كأن تحيل حياته كلها ميكانيكية مثلاً بالأزرار والآلات ، وهى لذلك لا تقيم وزناً بل لا تعرف الجوهر فى حياة الإنسان ، من أجل ذلك كانت الحضارة ولا تزال تعنى أول ما تعنى بالقيم الإنسانية العليا ، أما المدنية فإنها تعتبر القيم الإنسانية من مقومات تقدم البشرية . . وعلى هذا القياس ، وبما نراه اليوم نستطيع أن نعرف الفرق بين الحضارة والمدنية ، ونستطيع أن نعرف ما يسمونه حضارة الغرب بمدنية الغرب . .

وهنا يتضح خلاف آخر بين عقليتى الشرق والغرب ، فالغرب يعتقد أن مدنيته الحالية إن هى إلا حضارة هو الولى عليها ، وأن من أخص رسالاته أن يقهر الشعوب فى الشرق على قبول هذه الحضارة الغربية فى أشكال يحدد مفهومها . فالغرب حين يدخل مثلاً نظامه الديموقراطى فى شعب من شعوب الشرق فإنه لا يدخل ما يطبقه هو فى بلاده وإنما يفرض على هذه الشعوب النظام الذى يريد لكى يحقق له السيطرة والتحكم . ثم يلصق بهذا النظام اسم الديموقراطية وينسبه إلى الحضارة الغربية الجديدة .

والغرب حين يدخل العلوم إلى بلد من بلدان الشرق يكون قد ابتلى باستعمار غربي فإن هذه العلوم لا تتعدى مراحل ساذجة أولية لأن مفهوم الحضارة الغربية عند الغرب هو أن لا يتعلم الشرق من علوم الغرب إلا قشورها لكى تظل للرجل الأبيض السيادة والهيمنة عن طريق العلم . ولا زالت شعوب كثيرة من التى ابتليت بالاستعمار تنثر إلى اليوم لأنه لا يوجد فيها طبيب أو مهندس ، فهذه المهن فى عرف الحضارة الغربية مقصورة على الرجل الأبيض الممتاز وهى سبيله إلى السيطرة والسيادة . .

وهناك مثل آخر على ذلك . . فإن بريطانيا تستقدم بعثات عسكرية من دول كثيرة فى الشرق والغرب . وتصادف

أن كان بعض الضباط المصريين في بعثة من هذه البعثات سنة ١٩٥١ وعندما عادوا كانوا يروون أن محاضرات بذاتها كانت محرمة عليهم هم وبعثات بقية البلاد الشرقية لأن في هذه المحاضرات أسراراً لا يجوز لغير الإنجليز والأوربيين أن يعرفوها . . أي الرجل الأبيض مرة أخرى . .

هذا هو مثل من مفهوم الحضارة أو على الأصح المدنية عند الغرب . . أما مفهوم الحضارة عند الشرق فإنه يختلف عن ذلك تمام الاختلاف . . فالشرق يعتبر بأن أولى الحضارات التي عرقها البشرية كانت في أرضه . . الحضارة الصينية التي أخرجت الحكمة والنور ، والحضارة الفرعونية التي أدهشت وتدهش العالم إلى اليوم بهذا التفوق في العلوم والفنون ، والحضارة الهندية التي تعمقت منذ القدم في أغوار الروح والمادة وأخرجت للناس حكمة وعلومًا وفنونًا لا تزال تراثًا مجيداً إلى يومنا وإلى يوم الساعة .

ويتفق السادات مع دانييلفسكى في رصد الخصائص الذاتية للحضارات الإنسانية الكبرى ، وخاصة عندما يقسم دانييلفسكى التاريخ الحضارى للبشرية إلى عدد من الأنماط الثقافية المتفاعلة مع المواقف التاريخية ، وهذا التفاعل هو الذى يمنح الملامح المميزة لكل حضارة على حدة ، وهذه الحضارات تبدأ بالحضارة المصرية ، فالصينية ، فالآشورية - البابلية ، فالفينيقية - الكلدانية أو السامية القديمة ، فالهندية ، فالفارسية ، فاليونانية ، فالرومانية ، فالعربية أو السامية الجديدة ، وأخيراً الجرمانية - الرومانية أو الأوربية . أما في نصف الكرة الغربى فهناك حضارة المكسيك ويرووقد واجهت كلتاها انهياراً عنيفاً بغير أن تكملتا مجرى حياتهما .

ويقسم دانييلفسكى الدور الذى تلعبه الشعوب في التطور الحضارى إلى ثلاثة أنواع : الدور الإيجابى الخلاق الذى يهدف إلى التعمير الحضارى ، والدور السلبي الهدام الذى يندفع إلى تخريب الحضارة السائدة ، ثم الدور الحيادى غير المتفاعل الذى لا يتحرك في اتجاه خاص به وإنما يقوم دائماً بوظيفة التابع . والحضارات السابق ذكرها ، والتي تبدأ بالحضارة المصرية القديمة ، هي التي قامت بالدور الإيجابى الخلاق من أجل التعمير الحضارى . أما الدور السلبي الهدام فقد قام به على خير وجه كل من المغول والتتار والهون والترك في الأزمنة الغابرة ، أما الدور الحيادى غير المتفاعل فقد قامت به - بصفة عامة - الشعوب التي لم تبلغ مستوى الحضارات ، ولم تشارك في ازدهارها ، ولم تلعب دوراً في هدمها ، وهي تشكل العوامل غير المتبلورة التي لا تصنع تاريخاً سواء في الاتجاه الإيجابى أو السلبي ، وإنما تستخدمها القوى التاريخية الإيجابية والسلبية كمادة أولية لنشاطها وحيويتها . وفي هذا يقول دانييلفسكى :

« وإلى جانب أنماط الثقافة الإيجابية للحضارات ، توجد في العالم الإنسانى عوامل مؤقتة ومتقطعة مثل الهون والمغول والترك القدامى ، الذين أدوا دورهم التخريبي وساعدوا الحضارات التي كانت في سبيلها إلى التدهور ، على الانهيار ، وشتوا بقاياها ، وهكذا عادت إلى المراحل البدائية التي كانت عليها أول الأمر ، ثم لم تلبث أن اختفت لخلوها من المضمون الإنسانى ، ولذلك يمكن أن نطلق عليها إصطلاح العوامل السلبية في التاريخ ، ولكن يحدث أحياناً أن تلعب المجموعة البشرية دوراً خلاقاً بناءً وسلبياً تخريبياً في نفس الوقت ، مثلما فعل الجرمان . وأخيراً هناك قبائل أو شعوب تتوقف وثبتها الخلاقة لسبب ما ، في مرحلة مبكرة ، ومن ثم فإنها لا تكون عوامل تاريخية إيجابية أو سلبية ، وإنما هي تمثل فقط « مجرد عناصر أولية في نشوء السلالات » ونوعاً من عوامل غير عضوية تدخل في التكوينات التاريخية أو الأنماط الثقافية المتفاعلة مع المواقف التاريخية ، ولا شك فهذه القبائل تزيد من تنوع الأنماط التاريخية وراثتها ، ولكنها لا تملك في حد ذاتها أية ملامح مميزة لها عبر التاريخ .

وفي بعض الأحيان ، تتحلل الحضارات المنهارة إلى مستوى المادة السلبية هذه ، إلى أن يتولد عامل بناء وخلاق جديد يربط عناصرها بمزيج من العناصر الأخرى ، وبشكل منها بناء تاريخياً جديداً ، وبذلك يصل بها هذا العامل

الجديد إلى حياة تاريخية مستقلة في شكل نمط حضارى جديد . وعلى سبيل المثال ، نجد أن الشعوب التى أقامت الإمبراطورية الرومانية الغربية ، أصبحت مادة سلالية بعد تحلل الإمبراطورية ثم ظهرت مرة أخرى في شكل جديد يعرف بالشعوب الرومانية بعد أن وقعت تحت تأثير العامل الجرمانى .

وموجز القول فإن للدور التاريخى الذى يلعبه الشعب أو القبيلة ثلاثة وجوه : فهو إما أن يكون دوراً إيجابياً خلاقاً من الطراز التاريخى - الثقافى « حضارة » ، أو دوراً هداماً ، وهو ما يعرف بالعقوبات الإلهية التى تدفع بالحضارة من ذروة الحيوية والفاعلية إلى هوة الشيخوخة والتحلل ، أو الدور الذى يخدم أغراض الآخرين كمادة سلالية . ومن الواضح أن الحضارة الشرقية - بصفة عامة - كانت خير تجسيد للدور الإيجابى الخلاق الذى لا يهدف إلا إلى التعمير الحضارى من أجل عالم أجمل ، ومن أجل إنسان أفضل ، ففى هذه الحضارة يحدث التكامل المنشود بين الروح والمادة داخل الإنسان ، فما يجعل الإنسان إنساناً سوى أن يضع كيانه المادى تحت قيادة طاقاته الروحية ، وفى هذا يقول السادات فى نفس مقاله السابق ذكره :

« الشرق يفهم الحضارة على أنها قيم قبل أن تكون مادة ، فقد رأينا أن الحضارة الصينية والمصرية والهندية أخرجت سلوكاً وآداباً و قدست الأسرة ونظمت علاقة أفرادها ببعض وبالمجتمع وبالحاكم وتفوقت الحضارة الصينية فى تعريف الحكومة وواجبها والرعية وما يجب أن تكون عليه آدابها . . ولكن هذه الحضارات لم تسفر عن قيم إنسانية فقط ، وإنما أسفرت أيضاً عن علوم وفنون وهندسة وبناء لازالت إلى اليوم شاهداً على أصالة هذه الحضارات وتفوقها منذ آلاف السنين . .

والشرق يفهم الحضارة على أنها بناء وتعايش بين الجميع لخير الجميع . . لذلك فالشرق يعترف بحضارته ويرفض مدنية الغرب . ولذلك أيضاً صحا الشرق صحوة جبارة حين نفّض عن نفسه غبار الاستعمار والسيطرة الغربية يريد أن يعوض ما فاتته من تأخر لأن جذور الحضارة جزء من دمائه وكيانه وهى إن كانت خبت بعض الوقت إلا أنها كانت مشتعلة فى الداخل لأنها حضارة أصيلة ذات جذور لا يمكن أن تموت . .

ولذلك أيضاً فزرع الغرب لأن صحوة الشرق كانت قوية ورهيبية وهو الذى اعتقد أنه قد استحوذ على الشرق مادياً ومعنوياً . . وفزرع الغرب أيضاً لأنه وجد أنه يواجه مئات الملايين فجأة من الشرق الذى استفاق وليست بينه وبين هذه الملايين التى تفوق الألف والخمسمائة المليون من ذكريات إلا المرارة والحقد والألم والشكوك . . وفزرع الغرب أيضاً لأنه وجد نفسه بمدنيته التى قامت على الحديد والنار والقرصنة والقوة الباغية يواجه شعوباً ذات حضارة أصيلة لا مدنية زائفة . .

شعوب صممت على أن تعيش كريمة وعلى أن تأخذ من المدنية الغربية ما يحفظ عليها قوتها المادية وتستلهم من حضارتها ما يحفظ عليها قوتها المعنوية . . وستبقى المعركة قائمة بين الشرق والغرب حتى تنتصر الحضارة على المدنية أى حتى تنتصر القيم العليا على أساليب القهر المادية . »

وهذا ما حدث بالضبط فى السادس من أكتوبر العظيم ، فقد أثبتت حضارة الشرق الروحية - لأول مرة منذ عدة قرون - قدرتها على هزيمة مدنية الغرب المادية التى ظنت أن تفوقها يرجع إلى تفوق الجنس الأوربى . ولذلك حاول كثير من المؤرخين الأوربيين والأمريكيين تأكيد الفكرة التى تقول إن الحضارة الغربية نتيجة طبيعية لتفوق عنصرى وجنس حتى يشتوا فى أذهان الشعوب الأخرى استحالة تقدمها وحتمية اعتمادها على الحضارة الغربية والسير فى أذياها حتى تضمن لنفسها حداً أدنى للحضارة . وإذا فكرت هذه الشعوب يوماً فى تحدى القهر الذى تمارسه الحضارة الغربية ، فلن نجد سوى الويل والثبور وعظائم الأمور . ومن هنا كان المعنى الكبير الذى يكمن وراء السادس

من أكتوبر العظيم ، أنه لم يكن مجرد انتصار جيش على آخر في معركة ضارية ، ولكنه كان تأكيداً لحقيقة طالما اشتقنا إلى إثباتها ، وهي أن حضارة الشرق ممثلة في الحضارتين المصرية والعربية ، لم تندثر وأنها قادرة على قهر المدنية الغربية مهما استعملت من أساليب القهر المادية .

ومن هنا كانت ضرورة محافظتنا على كل الأبعاد القومية والفكرية والحضارية والإنسانية للسادس من أكتوبر لأنه بالنسبة لنا يعد مولد الحضارة المعاصرة والأصيلة في نفس الوقت ، المعاصرة لأنها استطاعت أن تهزم أحدث أسلحة العصر في استعباد الشعوب واستنزاف طاقاتها . والأصيلة لأنها امتداد حي وعضوي للحضارة المصرية والعربية القديمة . والسادس من أكتوبر هو التطبيق العملي لنظرية أرنولد توينبي في مولد الحضارات ، وهي النظرية التي هاجمها كثير من المؤرخين العنصريين المفرضين . فيرى توينبي أن مولد الحضارة لا يرجع إلى تفوق جنس بشري معين ، أو إلى عوامل مساعدة وظروف ملائمة بشكل غير عادي ، بل يعزى إلى ظروف قاسية بشكل غير عادي ، وهذه الظروف تمثل تحدياً مصيرياً للمجتمع ما بحيث يتحتم عليه الاختيار بين البقاء أو الفناء ، بين الوجود والعدم . ولذلك يتحضر هذا المجتمع ويحشد كل طاقاته لمواجهة هذا التحدي وخوض معركة البقاء الحضاري ، والمحافظة على كيانه الإنساني . فإذا ما نجح في مواجهة التحدي ، ورجحت كفته في صالحه ، فإن هذا يمكن أن يؤدي إلى خلق الحافز القوي والمستمر لزيادة قدرته الخلاقة إلى حد كبير ، وتنمية طاقاته الروحية والمادية بحيث يتبع هذا ما نطلق عليه « مولد الحضارة » .

وعلى الرغم من ضرورة وجود نوع من الموهبة الخلاقة والقدرة على الابتكار واستغلال الظروف المواتية ، بل وخلقها ، بالنسبة للدور الذي يلعبه المجتمع الذي يواجه تحدياً مصيرياً مما يساعد على انتصاره ، فإن توينبي لا يقبل ، بأية حال من الأحوال ، التفسير العنصري الذي ينسب مولد إحدى الحضارات إلى التفوق الفطري أو عبقريته جنس أو شعب معين ، إنما ينسبه ، إلى حد ما ، إلى مجموعة من الظروف التي تعتبر بمثابة التحدي ، كما ينسبه ، من ناحية أخرى ، إلى خصائص المجتمع الذاتية التي تمد جذورها في تاريخه بحيث تصل إلى مصادر حضارته الأولى . فإذا توافر هذان العنصران الحضاريان : التحدي المصيري والأصالة الحضارية فإنه يحدث ما يشبه المعجزة في التاريخ . ولهذا يبدو السادس من أكتوبر من قبيل المعجزات بالنسبة للكثيرين ، على الرغم من أنه حقيقة تاريخية وحضارية يمكن تفسيرها علمياً . فقد كانت الظروف التي سبقت هزيمة يونيو ١٩٦٧ والتي بلغت قممها أثناء فترة الهزيمة نفسها بمثابة التحدي الذي يتحتم مواجهته من أجل البقاء ، وفي نفس الوقت فإن خصائص المجتمع المصري التي تمد جذورها حتى مصادر حضارته الفرعونية قد منحت من الأصالة والصلابة ، والموهبة الخلاقة ، والقدرة على الابتكار ، وخلق الظروف المواتية ، ما مكنه من قبول التحدي وقهر كل العقبات في سبيله . وسوف يحكي التاريخ أن السادس من أكتوبر العظيم كان خير إثبات لنظرية توينبي في مولد الحضارة وازدهارها .

ويؤكد توينبي أن عملية الميلاد الجديد هذه قد تأكد وجودها عند مولد الحضارات المصرية والسومرية والصينية في فجر التاريخ الإنساني . وهي الحضارات التي يحلو للسادات دائماً الاستشهاد بها في دراساته التاريخية . فيعزو توينبي مولد الحضارتين المصرية والسومرية إلى تغير المناخ الذي حول الأراضي العشبية وسهول أفريقيا وآسيا الخصبة السهلية إلى صحراء جرداء قحلاء لا يمكن أن تتيح لسكانها فرصة الاستمرار في حياة الصيد والرعى . ولم يكن وادي النيل ولا دجلة ولا الفرات مكاناً يساعد على الرخاء والخير ، والدليل على ذلك موجود في الحالة البدائية الفقيرة التي ظل عليها سكان أعالي وادي النيل والفرات حتى عصرنا هذا ، فهم يعيشون في ظروف تشبه تلك التي عاش فيها مؤسسو الحضارات المصرية والسومرية الأولين . ويستشهد توينبي أيضاً بمثال آخر على التحدي الحيائي الذي يواجهه مولد

الحضارات ، فيقول إن الحضارة الصينية لم تولد أصلاً في وادي اليانجتسى الخصيب ، بل ولدت في وادي النهر الأصفر بمستنقعاته وفيضاناته المدمرة .

وطبقاً لتوينبي فإنه يمكن تفسير مولد الحضارات السابقة بأن قبيلة ما أو أمة ما أجبرتها الظروف ، عندما جعلت مواطن إقامتها التقليدية غير ملائمة للحياة ، على بذل جهد أصيل لتحويل وديان المستنقعات المشار إليها إلى أراض خصبة ، وعندما ثبت نجاح جهودها أصبحت الظروف المواتية التي خلقتها بمثابة الرحم الذي ولدت فيه الطاقات الروحية ، والقوى المادية ، والأفكار الخلاقة ، والثقافة البناءة لهذه الأمم . وهذا ما نسميه « الحضارة » . ونفس الوضع بالنسبة للتحدى الذي واجهته الحضارة المصرية والعربية في النصف الثاني من القرن العشرين بعد الميلاد ، ولكن التحدي لم يتمثل هذه المرة في الصحراء الجرداء القحلاء ، أو المستنقعات والفيضانات ، بل تجسد في حشود العدو القابعة على ضفة قناة السويس ، وتحصيناته العدوانية ، وطائراته المغيرة ، وأسلحته الفتاكة ، وكل ما من شأنه تدمير الحضارتين المصرية والعربية ، ولقد قبلت الأمة التحدي اعتماداً على أصالتها الحضارية العريقة ، ونجحت في الامتحان التاريخي الذي عقد لها ظهر السبت الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ . ومع هذا يجب أن ندرك أن المحافظة على استمرار النجاح أصعب بكثير من تحقيق النجاح ذاته ، ولذلك حرص السادات دائماً على التأكيد بأن مهمة التعمير لا تقل في الصعوبة ، بأية حال من الأحوال ، عن مهمة التحرير ، بل إن التحرير هو مجرد مقدمة قصيرة للمهمة طويلة : هي ملحمة التعمير الحضاري .

ومن حسن الحظ أن هذا التعمير الحضاري لن ينشأ في فراغ أو من عدم ، ولكنه سيستلهم أصوله الأولى مع استيعابه لمنجزات العصر . وفي هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية » في ٢٢ أغسطس ١٩٥٤ :

« كان ذلك في مستهل القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر ، وتلك الفترة أطلق عليها المؤرخون في الشرق والغرب عصر العرب الزاهي . . وتحدث المؤرخون عن ذلك العصر فقالوا إن العرب كانوا وحدهم حملة مشاعل الثقافة في الدنيا كلها !

وفي ذلك العصر أقبل علماء العرب إقبالا عظيماً وبدافع من العدل والحق السائدين في ربوعهم على نبش تراث أبنائنا العظيم . ذلك التراث الذي حاول الرومان دفنه في أعماق الأرض حقدًا منه وحسدًا من حضارة الإغريق وفلسفتهم وعلومهم وقوانينهم . . حتى إذا تم انهيار الإمبراطورية الرومانية تحت أقدام برابرة الشمال ، بدأت حضارة الإغريق تَبِينُ وتتضح أمام العالم من جديد . . وكان العرب هم الأمناء عليها ، وهم حماة ، وهم الذين بعثوها ! لم يحقدوا ولم يحاولوا دفن تلك الثقافة في التراب مثلما فعل الرومان . .

وكان للعرب إمبراطورية . . ولكنها لم تكن إمبراطورية قائمة على السخرة والعبودية والدم الأزرق النيل الإلهي ، كما كان حال الرومان . . بل كانت إمبراطورية العرب قائمة على الحق والعدل والحرية ، والإيمان بالإنسان ! من أجل هذا آمن علماء العرب بالثقافة وعرفوا أنها الطريق إلى التقدم ، فترجموا كتب أرسطو وسقراط وأبقراط . . . فكان حنين بن إسحاق هو باعث فلسفة أرسطو وحكمته . . وترجم ابن الهيثم نظريات إقليدوس وأرشميدس إلى العربية . .

وفي ذلك العصر الزاهي للعرب كانت السيادة الثقافية في العالم كله قد عقد لواؤها لبني العباس ، فأنشأوا المكتبات والجامعات وامتلات تلك المكتبات بالعلوم والفلسفة والحكمة . . وشاع العلم وشاعت الفلسفة والأدب ، ونشط العلماء العرب والفلاسفة العرب بعد ذلك الطوفان الثقافي في البحث والمعرفة .

وحماس السادات للحضارة العربية ليس مجرد انفعال عاطفي ، ولكنه صادر عن وعي عميق بحركة التاريخ ،

وإيمان وثيق بأن الأمة التي تلد حضارة من هذا النوع الخصب الغزير لا يمكن أن تندثر. فإذا كانت الظروف الموضوعية المحلية المؤقتة قد أصابتها بأمراض التخلف ، إلا أن في جسمها من المناعة الحضارية ما يمكنها من استعادة صحتها على الوجه الأكمل والانطلاق مرة أخرى إلى الصفوف الأولى لمسيرة العصر الحضارية ، وخاصة أنها تملك من الطاقات الروحية ما تتفوق به على المدنية المادية السائدة في الغرب . فالطاقات الروحية يمكن أن تتجسد في قوى مادية جبارة كما حدث في الحضارة العربية من القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر ، أما القوى المادية فن الصعب أن تتحول إلى طاقات روحية ، ومن هنا كانت الضغوط النفسية والعقلية والفكرية الطاحنة التي يعانيها الإنسان المعاصر في الغرب رغم الحضارة العلمية والتكنولوجية الباهرة التي يمر بها الآن . وقد انعكست هذه الضغوط الطاحنة على الأعمال والدراسات التي كتبها مفكرو الغرب وأدباؤه من أمثال أرنست هيمنجواي وويليام فوكنر وجيمس جويس ود. ه. لورنس ومارسيل بروست وفرانز كافكا ولويجي بيرانديللو وجورج أورويل وفيرجينيا وولف وت. س. إليوت وألبير كامى وجان بول سارتر ونورمان ميلر وبوريس باسترناك وصامويل بيكيت ويوجين اينسكو وناتالي ساروت واندرية مالرو وآلان روب جرييه وجان جينيه وغيرهم من المفكرين والأدباء الذين دقوا أجراس الإنذار تحذيراً من الضمور الروحي الذي ينهش الإنسان المعاصر من الداخل ، وذلك عن طريق تصوير مأساة هذا الإنسان وضياعه وسط المنجزات المادية الباهرة ، فقد نجح في استكشاف القمر والكواكب الأخرى ، ولكنه فشل في استكشاف ذاته ، أقرب العناصر إليه ، بل ازدادت هذه الذات الإنسانية في الغموض والإبهام لأنه أهمل طاقاته الروحية وظن أن المادة هي كل شيء في هذا الكون .

وهذه الظاهرة المدمرة تؤكد صحة نظرية توينبي في النمو الصحي والتوازن الحقيقي للحضارات بعيداً عن التضخم المادي والضمور الروحي . فيرى توينبي أن نمو الحضارة ليس مجرد عملية بيولوجية أو أتوماتيكية أو ميكانيكية بسيطة ومباشرة ومادية وملموسة بحيث تتبع بالضرورة مولد الحضارة . ويثبت ذلك أن عدة حضارات توقفت عند حد معين في مجرى حياتها رغم انتشارها المادي بالقوة ، فلا يرى توينبي في التوسع والسيطرة على الأراضي أو الشعوب ، سواء كان توسعاً سياسياً أو عسكرياً ، ولا في السيطرة على البيئة المادية بالوسائل التكنولوجية ظاهرة أو دليلاً على النمو ، وإنما يعتقد العكس لأن التاريخ يؤكد له أن أعظم توسع إقليمي لأية حضارة ، يحدث عادة في المرحلة المبكرة من مراحل التحلل والانحيار ، حين يكون من المحتمل أن يؤدي التقدم التكنولوجي إلى وأد الحضارة ، كما يحدث للحضارات المتضخمة مادياً ، ذلك لأن التضخم المادي يمتص جميع طاقات النشاط ، وبذلك يتحول المجتمع إلى عبد لهذا التضخم بدلاً من أن يكون سيده . وهذا ما يحدث في الغرب منذ وقوع الانقلاب الصناعي في القرن الماضي وبتزايد بمرور الأجيال ، فقد اخترع الإنسان الآلة لكي تخدمه وتسهل حياته ، فكانت النتيجة أن انقلبت الآلة وأصبح الإنسان في خدمة الآلة التي تعمل بكل طاقاتها المادية الجبارة على تعقيد حياته يوماً بعد يوم .

ولذلك يعتقد توينبي أن الخاصية الإيجابية أو القوة الخلاقة للحضارة النامية هي عملية روحية من الطراز الأول ، ففي كل مجال من مجالات التطور : في اللغة والملابس والفنون التطبيقية والعلوم ، يرى توينبي ميلاً مستمراً إلى التبسيط والتجريد ، ولذلك فإن أقل فئة من العاملين والخبراء تكفي لحل مشكلات الحياة المادية الخالصة ، بحيث تتاح الفرصة لمزيد من النشاط الروحي والتأصيل الفكري ، وبناء عليه فإن تغييراً بطراً على المجال الذي يجري فيه التحدي والرد عليه . فالظروف المادية تصبح مكثفة ومركزة بفعل السياج الروحي الذي يحيطها ويحميها من التشتت والضياح ، وبذلك تضعف إمكانيات التحدي في مواجهة هذه الظروف ، وتكون النتيجة انتصار الأمة بسبب التوازن الذي تملكه بين القوى المادية والطاقات الروحية ، ومن ثم يصبح التحدي الخارجي والداخلي على حد سواء إحدى عمليات التشكيل

الذاتي أو تقرير المصير أو التعمير الحضارى . ولذلك يؤكد السادات دائماً أن التحرير والتعمير هما وجهان لعملة واحدة :
هي الحضارة العربية المعاصرة . وكان السادس من أكتوبر العظيم هو التحدى الذى رسم الطريق الصحيح إلى التعمير
والذى وضع حداً لاختفاء الحضارة العربية وانسحابها من صورة العصر .

وقد ذكر توينبى أمثلة كثيرة لما اعتبره اختفاءات مؤقتة لبعض الحضارات الأصيلة التى عادت إلى الأفق لتثبت
وجودها مرة أخرى ، بل وتأخذ زمام المبادرة بعد أن ظنت الأجيال التالية أنها اندثرت إلى غير رجعة . فأتينا مثلاً ،
لم تلعب دوراً فى الاستعمار الإغريقى العام الذى استمر فيما بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد ، غير أنها عادت
بعد ذلك فقامت بدور الزعامة فى مجموعة الدول الإغريقية ، وكذلك برزت إيطاليا من المجتمع الإقطاعى فيما بين
القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، حين مرت بعملية الانتقال من المجتمع الزراعى الرعوى إلى المجتمع المدنى
التجارى والصناعى ، وكانت إنجلترا إبان فترة عزلتها النسبية عن أوروبا ، أى فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ،
قد أرست قواعد الديمقراطية البرلمانية والمجتمع الصناعى الحديث . ويرى توينبى - عندما كتب هذه النظرية الحضارية -
أن عزلة روسيا فى ذلك الوقت عن العالم - وراء ما عرف بالستار الحديدي - لم تكن إلا عملية مماثلة للاختفاء الحضارى
المؤقت . وقد أثبتت الأيام صحة نظرية توينبى وذلك عندما خرجت روسيا على العالم بصواريخها عابرة القارات وأقمارها
الصناعية وسفنها الفضائية ، ولم يتوقف الخروج عن عزلتها عند هذا الحد بل تطور إلى سياسة الوفاق بينها وبين الولايات
المتحدة الأمريكية التى كانت غريمها التقليدى وعدوها اللدود طوال سنوات الستار الحديدي والحرب الباردة التى أعقبت
الحرب العالمية الثانية . وهذا يدل على أن أية عملية اختفاء حضارى لا بد أن تكون مؤقتة ومرتبطة بظروف طارئة ، وبمجرد
انتهاء هذه الظروف تعود الأمة إلى تسلم مقاليد الحضارة ومواكبة العصر . وما انطبق على كل هذه الأمم لا بد أن ينطبق على
الأمة العربية التى اختفت طويلاً من الصورة الحضارية للعصر ولكن السادس من أكتوبر أفسح لها مكاناً فى الصورة ،
وجاءت السادسة فى الترتيب الحضارى فى العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوروبا الغربية طبقاً للتقدير
السوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولية فى لندن . ومن نقطة الانطلاق التاريخية هذه نتمنى ونصر بل ويتحتم أن
نعمل من أجل عدم الاختفاء الحضارى مرة أخرى ، بل يجب أن ننتقل إلى الصفوف الأولى من مسيرة العصر الحضارية
دون تردد أو وجل أو وجل أو عقدة أو رواسب أو قيود ، بعد أن حررنا السادس من أكتوبر من كل هذه العقبات ، وبعد
أن اعترف العالم أجمع بمكانتنا الجديدة . من هنا كانت حتمية سياسة الانفتاح ، لأن الاختفاء معناه الانغلاق على
الذات ، واجترار هموم النفس ، والدوران داخل دائرة مفرغة ، بينما الانفتاح على الحضارة المعاصرة هو التجاوب
والتفاعل والأخذ والعطاء والمرونة مع مراعاة شرطى الأصالة والمعاصرة وهذه كلها عوامل ضرورية لأى تعمير حضارى
منشود . وفى هذا المعنى كتب السادات فى « ورقة أكتوبر » يقول :

« إن هدفنا الأسمى من هذه الاستراتيجية الحضارية الشاملة ، فى هذه المرحلة التى تنطلق فيها روح رمضان
(أكتوبر) العظيم إلى مهمة التقدم والبناء هى أن نقيم فى بلادنا الدولة العصرية والمجتمع الحديث ، حتى يستطيع شعبنا
أن يحقق من خلاهما ذاته ، وينمى طاقاته الخلافة . ولا يجوز لنا أن تهب لحظة واحدة هذه المرحلة التى لا مفر منها
إلى المستقبل العريض .

وكما أن الإنسان المصرى هو فى النهاية هدف هذا التقدم ، وهو فى البداية وسيلة هذا التقدم ، فإن هذا
الإنسان المصرى نفسه ، هو الضمان . هو الضمان لأن ننتقل إلى هذه المرحلة ، آخذين بأحدث معطيات العصر
فى شتى المجالات ، دون ما خشية من أن نفقد خلال هذه الرحلة هويتنا ، أو ننقطع عن أصالتنا ، أو ننسى الفضائل
التي كان هذا الشعب دائماً يعتز بها ويمجدها . فهذا الشعب كما أقول دائماً يحمل فى أعماقه قيم حضارات عمرها

سبعة آلاف سنة . وكانت تلك الحضارات تنهض به وتكبو ، تنطلق وتنقطع ، تتغير وتتجدد ، ولكن الشعب كان يعرف في النهاية دائماً كيف يخرج من هذه الامتحانات كلها محتفظاً بخصائصه الأصيلة ، وفطرته الصافية السليمة .

إن من يكتفى بقراءة العناوين ، يجد أسماء مختلفة لحضارات متعاقبة ، ونظم شتى ، وحكام جاءوا من أقصى أنحاء الأرض ، ولكن من يتعمق وراء ذلك يجد تلك الصفة العجيبة ، وهي الوحدة الكامنة خلف كل تلك الحضارات المتعاقبة . ولقد مرت على هذا الشعب قرون بكاملها ، كان فيها لا يكاد يملك شيئاً من أرضه ، ولا من رأيه ، ولكنه بقي مع ذلك محتفظاً بشخصيته المتأسكة ، وبنسيجه الوطني المنسجم يفتى فيه غزاته ومستغلوه .

وكانت صفته المميزة على الدوام ، والتي تجعله قادراً على هذا الاستيعاب العجيب لهؤلاء الغزاة والمستغلين ، هي أنه كان دائماً شعباً صانعاً للحضارة ، بانياً للعمران . . ولم تكن المهارات التي قدمها للعالم أبداً من مهارات الغزو والتدمير ، بل من مهارات البناء والتعمير . .

وليس أدلّ على هذه الخصائص ذات الجذور العميقة ، من أن هذا الشعب كان يمر بالأحداث والتغيرات العميقة محتفظاً بدرجة نادرة من الوحدة الوطنية والانسجام القومي ، مازالت مضرب الأمثال في العالم . وأن التحولات السياسية والاجتماعية الكبيرة التي لا بد منها في مراحل معينة من حياة كل أمة حية ، كان يسودها طابع التحول السلمي لا الدموي ، وكان الشعب ينجزها ويتجاوزها ثم لا يلبث أن يضم جناحيه بعدها على كل أبنائه .

حتى نظم الاستعمار والغزو التي نجحت في مناطق أخرى في أن تفرق وتقسّم ، لم يكتب لها النجاح في مصر قط ، بل ظل تكاملها الشعبي والوطني والجغرافي فوق كل نزاع . وقد كانت هذه الصفات ذاتها ، هي التي مكنته من أداء دوره التاريخي في مساندة الأمة العربية التي ينتمى إليها ، ورد الغزوات عنها ، واحتضان قيمها وتراثها ، في ظروف المحن والغزوات والتمزقات . »

وفلسفة السادات الحضارية ترد بهذا على فلسفات الغرب التي تؤكد أنه في الإمكان تحديد الحضارة المحلية داخل إطار جغرافي معروف ، فالحضارة يمكن قياسها بالتاريخ وليس بالجغرافيا ، فهي ليست وحدة جغرافية ثابتة ومتأسكة ، ولكنها تكتل لظواهر ثقافية : سياسية واقتصادية وعلمية ودينية واجتماعية وفكرية وفنية . . إلخ ، يمكن أن تنتقل من حضارة إلى أخرى . ومع أن عدداً من هذه الظواهر يتحد في فترات معينة ليشكل ما نطلق عليه حضارة ، فمن المحتمل أن بعضها وجد قبل ظهور الحضارة ، أو أنه يحيا بعد اختفائها ، ومعنى ذلك أن الحضارة لا تولد أو تندثر بالمعنى المحدد والمحدود للبداية والنهاية ، بل تظل كامنة بطريقة أو بأخرى ، وتتخذ من الأشكال والمظاهر ما يصعب حصره ورصده .

وفي هذا يتفق السادات مع عالم الحضارات سوروكين الذي يتخذ من الحضارة الإغريقية - الرومانية مثالا على أن الحضارة ما تزال على قيد الحياة فيما كتبه الإغريق من كلاسيكيات ، وما خلفوه من فلسفات وما أبدعوه من نظريات ، وما ابتكروه من علوم ، وأيضاً في القانون الروماني وأشكال الحكم الروماني وأساليبه ، تماماً مثلما استشهد السادات بالحضارة المصرية - العربية . يقول سوروكين في هذا المعنى :

« إن قيماً عديدة من الحضارة الإغريقية - الرومانية مازالت تقلد وتطبق وتدمج في حضارتنا وثقافتنا ونظمنا وعقليتنا وسلوكنا وعلاقاتنا . إنها تحيا وتعمل وتؤثر فينا ، لأنها أكثر حياة من أحسن كتاب بيع في العام الماضي أو كتب الأدعياء والمتعلمين التي صدرت بالأمس القريب . إن حضارة من الحضارات الكبرى لا تموت بمرمتها وفي إمكان الإنسان أن يؤكد إلى حد كبير ، أن نسبة مئوية كبيرة من أمة حضارة من الحضارات الغابرة التي نظن أنها اندثرت وماتت - وهي أحياناً نسبة مئوية كبيرة جداً - مازالت حية بكل معاني الكلمة ،

ونفس المزج الذي حدث بين الحضارة الإغريقية والرومانية ، نجده بين الحضارة المصرية والعربية ، ولذلك تتأكد لدينا المغالطات الحضارية والتاريخية التي تكمن وراء الدعاوى الشعبية التي تهدف إلى تقسيم الأمة العربية إلى فراعنة وبدو وبربر وفينيقيين وآشوريين وبابليين وسومريين وحثيين . . إلخ . فوحدة الأمة العربية هي وحدة حضارية في المقام الأول وليست مجرد حدود جغرافية متلاصقة أو لهجات متعددة للغة واحدة ، فكل هذه مجرد عناصر متفاعلة في الوحدة الحضارية التي تعد الهدف الكبير والوحيد من أجل الانطلاق إلى الصفوف الأولى في مسيرة العصر الحضارية . فلم تعترف الحضارة العربية في القديم بالفواصل الجغرافية ، بل استوعبت كل الإنجازات الحضارية التي سبقتها ثم بدأت تضيف إليها إضافات مازال عالمنا المعاصر يعترف بقيمتها وفعاليتها . ومن التفاعل بين الحضارات الوافدة والحضارة الأصلية والأصلية الكامنة سجل العرب أروع صفحات التاريخ الحضاري للبشرية في منطقة تمتد من جنوب آسيا الصغرى ثم تدور حول حوض البحر المتوسط حتى تصل إلى الأندلس وجنوب فرنسا . ولم تقف الدعاوى الشعبية في وجه هذا الزحف الحضاري الباهر ، بل كان هدف الجميع العمل من أجل عالم أجمل يعيش فيه إنسان أفضل . وما زالت القيم الذي رسختها هذه الحضارة العريقة كامنة في نفوس وضمائر أحفادها تؤثر في ثقافتهم وسلوكهم وعلاقاتهم . ويسرد لنا السادات على صفحات « الجمهورية » في ٢٢ أغسطس ١٩٥٤ جانباً من التعمير الحضاري الذي قدمه العرب إلى العالم فيقول :

« كانت ثقافة أثينا قد مهدت لهم الطريق فسجل التاريخ لهم صفحات مجيدة كان لها دورها الحاسم في تطور البشرية وقفزتها إلى النور . . سجل التاريخ للطبيب الفيلسوف ابن سينا ما قدمه للإنسانية من معرفة بعد أن ترجم كتابه (القانون) إلى جميع اللغات الحية ويدرس هذا الكتاب الآن في جامعات أوروبا . . وسجل التاريخ للرازي أنه أول طبيب اكتشف عدوى الأمراض وأول من عرف مرض الحصبة والجذري ، ووصف أعراضهما . . وسجل التاريخ لابن رشد ما قدمه للإنسانية من فلسفة أضاءت لها الطريق . . ثم أخيراً كان لابن خلدون نصيب كبير في هداية فلاسفة أوروبا إلى علم الاجتماع . . وقد أطلقوا عليه لقب العالم الاجتماعي الأول ، فإن علماء الفلسفة والاجتماع في عصر النهضة بأوروبا لم يجدوا مرجعاً لأبحاثهم وفلسفتهم أفضل من مقدمة ابن خلدون . . وكما حدد ابن خلدون لعلماء أوروبا وفلاسفتها الطريق في عصر النهضة فعل ابن نفيس أيضاً نفس الشيء لأطباء أوروبا . . فابن نفيس العربي أول من وصف الدورة الدموية وسبق في ذلك سرفيتوس بثلاثة سنة ، وكان بحث ابن نفيس هو الذي اهتدى به هارفي عندما وضع كتابه عن الدورة الدموية كما اعترف هو نفسه بذلك . . وعلى هدى هذا البحث عن الدورة الدموية تقدم الطب وتم إنقاذ البشر من كثير من الأمراض التي كانت تفتك بهم . .

كان العرب ، إذن ، يعيشون - بلا كهانة - حياة رائعة متقدمة . . وكانوا - بلا كهانة - يحملون المشاعل لهداية العالم كله إلى مستقبله الذي يتحتم أن يزدهر بالعلم والمعرفة وبالأدب والفن . كانوا - بلا كهانة - يؤمنون بالثقافة - ينبشونها حيثما كانت ، ويطورونها في وعي عظيم وإيمان بالحق ، حق البشرية جمعاء في الحرية والعدل والعمل لم يتعصبوا لأنهم فهموا رسالة نبيهم محمد فهماً عميقاً متطوراً ، لم يزوروا الحضارات التي سبقتهم بل انطلقوا يدرسونها ويبحثون عن مصادرها ثم ينقلونها في أمانة إلى البشر جميعاً ، بغض النظر عن مذاهبهم ودياناتهم . . تلك كانت رسالة محمد العظيم المناضل الثائر المتحرر المتقدم . »

وعندما نستعين بالحضارة الغربية في تجديد حضارتنا وخاصة من ناحية الإنجازات العلمية والتكنولوجية ، فلا يجوز أن نخجل من هذا ، لأنها بضاعتنا ردت إلينا ، فالحضارة العربية كانت الأساس الذي بنيت عليه حضارة أوروبا في هذا القرن العشرين . ويؤكد السادات أن الثقافة وحدة لا تتجزأ فقد كان من ضرورات عصر النهضة الأوروبية

أن يقبل علماء وفلاسفة وأدباء أوروبا على التراث العربى وهم فى سبيل خلق ثقافة الإنسان وحضارته هناك . واستمر النقل عن الحضارة العربية من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر . ويسرد السادات فى هذه المقالة الخطيرة أمثلة على هذا النقل الحضارى فيشرح لنا كيف عكف الرهبان المثقفون فى إيطاليا على ترجمة ما نقل إليهم من كتب العرب وتراجمهم ، وكانت تلك الكتب تمتلئ بها المكتبة الملكية فى قرطبة ودارالحكمة فى بغداد ، فقد قام الراهب قسطنطين وهو حبيب فى دير كاسينو فى إيطاليا بترجمة مؤلفات العرب فى الفلسفة والعلوم والأدب والاجتماع والفلك من العربية إلى اللاتينية . وكان من أعظم إنجازاته الحضارية ترجمته لمؤلف على بن عباس المجوسى ، ثم قام رهبان آخرون فى نفس الدير بترجمة كتب ابن سينا وكتاب « الحاوى » للرازي ومؤلفات ابن الخطيب فى الشعر والأدب والسياسة .

كانت إيطاليا وصقلية هما الجسر الذى عبرته ثقافة العرب من شمال أفريقيا إلى قارة أوروبا ، وهكذا صنع العرب حضارة أوروبا ، وبعثوها فى عصور الإقطاع والظلام والسخرى والجهل والأوبئة ، وهى التى عرفت بالعصور الوسطى المظلمة . وبلور السادات المأساة بقوله إن أجدادنا ساهموا فى تحرير أوروبا من الكهنوت ، ثم وقعنا نحن الحفدة فى شركه فعانينا ما عاناه الأوربيون فى القرون الوسطى ، أصبحنا مرضى ومسخرين وجاهلة وجياعاً وعراة ، وليس فى حياتنا سوى المأساة ، بينما البكاء على الأطلال لا يمكن أن يقيم حضارة . ولذلك يقول السادات فى نفس المقالة أو البحث :

« عندما فرض علينا تجار الدين التعصب والجمود والخضوع لرجعيتهم . . لم نجد عدلاً نبحت فى كنفه عن العلم . . ولم نجد حقاً يعاوننا فى تحطيم أغلال الكهانة لننتقل مع البشر جميعاً فى ركبهم المندفع نحو الحياة . ولم نجد حرية تبعث فىنا الرغبة فى البحث والتأمل والمعرفة . من أجل هذا لم تعد لنا ثقافة . . ومن أجل هذا لم نجد طريقنا نحو العدل والحق والعمل . وكما قلت إن الثقافة وحدة فى هذا العالم لا تتجزأ ، كان حتماً إذن أن نبحت وندرس ثقافة غيرنا مثلما فعل أجدادنا حملة المشاعل فى عصرهم الزاهى . »

« وفى العالم الآخر - ولا أقصد الجنة - توجد ثقافة ، وذلك العالم لم يسمح لنا بالتزود منها بل حجبتها عنا وارتكب فى حقنا - بعدما رأى حالنا - جريمة بشعة . . وساعده فى ارتكاب تلك الجريمة تجار الدين والمشعوذون ساعد هؤلاء - وهم منا - الغرب فى البطش بنا بدلا من تثقيفنا مثلما فعل أجدادنا الكرماء العظام مع ذلك الغرب أيام جهله وتأخره وانحلاله . »

وكما يقول ج . دى بويس فى كتابه « مستقبل الغرب » إن التمسك بالأصالة لا يعنى بالضرورة أننا ننكر التقدم ، فإن كل حضارة تبلور فى حد ذاتها واحداً أو أكثر من خطوط التقدم الطويلة التصاعدية ، ولكن حتى عندما تختفى حضارة ما ، فإن الإبداعات القيمة والإضافات الأصيلة التى أنجزتها فى ميادين المناهج العلمية ، والأساليب العملية ، والفن والفكر ، ترثها حضارة تالية وتستخدمها وتضيف إليها وإلا عاشت عالة عليها ، وهكذا استعادت الحضارة المعاصرة الشئ الكثير من حضارات الفراعنة والإغريق والرومان والعرب فى مجالات العلوم والفنون والآداب والأخلاق والفلسفة والقانون وأنظمة الحكم . ولولا الضمور الروحى الذى تعاني منه الحضارة الحديثة بسبب طغيان الماديات لكانت أروع حضارة عرفها الجنس البشرى ، فقد بلغت حداً خيالياً فى السيطرة على البيئة المادية ولكنها أنتجت الكثير من الأمراض العصبية والنفسية والعقلية والروحية . ولذلك سمى هذا العصر بعصر القلق ، ونحن نعلم جميعاً أن القلق إذا زاد عن حد معين فإن الحياة ذاتها تفقد طعمها .

ومن الواضح أن نظرية السادات فى التعمير الحضارى تتبع منهجاً علمياً يمكنها من رسم خط واضح ومحدد للمسيرة الحضارية بحيث يمكن التخطيط من أجل المستقبل دون خوف من مفاجآت غير متوقعة قد ينتج عنها نكسات نحن فى

غنى عنها . ولم تكن « ورقة أكتوبر » سوى تخطيط لاستراتيجية حضارية شاملة يتحتم تطبيقها من الآن وحتى مطلع القرن الحادى والعشرين ، وذلك حتى يتسنى للأمة العربية أن تلحق بركب الحضارة الحديثة . وهذه النظرية الحضارية لا تحط من قدر الإنسان أو الشعب ، فهي ترفض النظر إلى الإنسان على أنه مجرد أداة يعبث بها القدر ، ولا تملك من أمر نفسها شيئاً . وترفع النظرية أيضاً من قيمة الجهد البشرى وتحدد النتائج الباهرة التى يمكن أن تنتج عنه إذا كالف أصيلاً ومعاصراً بصدق ، فالحضارة - أولاً وأخيراً - هى نتيجة لجهد الإنسان فى مختلف المجالات . وعلى الذين يرغبون فى العيش عالة على حضارة غيرهم ألا يبكوا تخلفهم ، فالحضارة تتبع المثل البسيط والعميق الذى يقول : « من جد وجد ، ومن زرع حصد » . فهذا هو قانون الحضارة ، والتاريخ زاخر بأمثلة عن أمم وقادة غيروا مجرى التاريخ بإرادتهم الصلبة ، وعملهم الدؤوب ، وعلمهم الغزير ، وإيمانهم العميق ، ونظرتهم الشاملة ، وبهذا أوقفوا عملية التدهور الحضارى وقادوا أممهم إلى مجد جديد . وما فعله السادات عند توليه المسئولية ، والذى بلغ قمته فى قراره التاريخى فى السادس من أكتوبر العظيم ، لم يكن سوى تجسيد للجهد الإنسانى عند ما يتكثف ويتبلور فى رائد عظيم نجح فى قيادة أمته من ليل التدهور والتخلف إلى فجر الانطلاق والحضارة .

وفى هذا يختلف السادات مع الفيلسوف الألمانى شبنجلر اختلافاً جذرياً ، إذ يعتبر شبنجلر الإنسان مجرد نتيجة حتمية للحضارة ، بينما يؤمن السادات بالعكس تماماً ، أى أن الحضارة هى نتيجة حتمية لعمل الإنسان وفكره . وهنا تبدو تقدمية السادات وموسوعية فكره فى مقابل رجعية شبنجلر وضيق أفقه . فالإنسان عند شبنجلر معدوم الإرادة لأنه مجرد لعبة فى يذى القدر ، وعلى الإنسان - فى هذه الحالة - أن يمتثل لصروف الدهر وألا يعمل شيئاً مخالفاً لها لأن ذلك لن يغير من واقع الأمر شيئاً ، وفى النهاية سيتساوى تماماً مع الذى لا يعمل شيئاً على الإطلاق . وعلى الإنسان أن يجعل من نفسه أداة طبيعة لحركة التاريخ إذ أنه لا يملك أية قدرة لتوجيهها حيث يشاء هو . وعندما ندرك نظرية شبنجلر هذه لا نعجب من أنها كانت الفكر الذى مهد أذهان الشعب الألمانى التقبل طغيان النازية وقبوله القيام بأداة القمع والبطش والقهر والتدمير الحضارى تجاه الشعوب الأخرى بدون استثناء . ونتج عن هذا الولايات التى عاناها العالم كله من جراء الحرب العالمية الثانية والتى كانت من أكبر الانتكاسات التى أصيب بها التعمير الحضارى على مر التاريخ الإنسانى كله .

صحيح أن القوة المادية ضرورية لدفع عجلة التعمير الحضارى ، ولكنها ليست كل شيء ، فلا بد من إحاطتها بالقيم الإنسانية والضوابط الحضارية حتى لا تتحول إلى طاقة استغلال واستعباد وطغيان وتدمير فى نهاية الأمر . وفى هذا يقول السادات فى خطابه أمام المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى ١٦ فبراير ١٩٧٢ :

« إننا فى ذلك كله نصدر عن التزام عالمى وإنسانى بقوة القانون ، ونحن لا نستطيع أن نطالع الدنيا بأننا لا نريد قوة القانون ، وإنما تحولنا فجأة إلى قانون القوة كما يفعل غيرنا . إننا نهزم أنفسنا بأنفسنا إذا قلنا بقانون القوة بدلا من قوة القانون ، ولا بد أن يستقر فى وعينا جميعاً أن عملنا بالسلاح واستعدادنا للمعركة وقرارنا بدخولها هو تعزيز لقوة القانون ، وليس تخلياً عنه إلى قانون القوة .

إن العالم لم يصبح غابة ، ويجب أن نحول دون ذلك بكل جهودنا . ولقد نتذكر أننا إذا سمحنا بتحويل العالم إلى غابة فإننا قد لا نكون فى هذه الغابة أقوى الوحوش . ولهذا فإن قوة القانون هى سلاحنا ، والقانون لا يجوز أن يكون أعزل من السلاح ، وإلا تحولت الدنيا بالفعل إلى غابة ، ومن ثم فإن قرارنا بحمل السلاح دفاعاً عن الحق ، دفاعاً عن القانون ، هو نضال إنسانى شريف ، لا تقتصر أهميته على حدودنا فقط ، ولكنه يتعدى هذه الحدود ويكتسب من ذلك قيمة عالمية . إننا نحمل السلاح ، وسوف نحمل المزيد من السلاح . ولقد قاتلنا ، وأمامنا

قتال شديد ، ولكن سلاحنا وقتالنا ليس سلاح وقتال العدوان ، وإنما هو سلاح وقتال الحق والحرية .
 ويتحتم أن نكون مع قيم الإنسانية والحضارة في نضالها ، لكي تكون قيم الإنسانية والحضارة معنا في نضالنا ،
 ولا يجوز في هذا الصدد أن نخدعنا كسب سريع يحصل عليه غيرنا بالسلب والغصب ، ذلك لأن التاريخ طويل ،
 ولقد أثبتت تجربته أن الجريمة لا تجدى ، وإلا فآين ذهب الطغاة منذ بداية التاريخ إلى نهاية هتلر .
 ولذلك فروعاً حرب أكتوبر تكمن في أنها كانت حرباً حضارية من الطراز الأول ، فهي من أجل حضارة
 الإنسان في كل مكان وليست من أجل الحضارة العربية المرجوة فقط . ومن هنا كانت المساندة والتأييد لها من كل
 بقاع الأرض عندما اندلعت ظهر السبت الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، صحيح أن الدهشة بل الصدمة
 كانت الانطباع الأول بسبب النظرة التقليدية التي تعود الغرب النظر بها إلى العرب ، ولكن عندما اتضحت الأمور
 وأثبت العرب وجودهم الرائع في ميدان القتال ، واستعمالهم لأحدث الأسلحة الإلكترونية وأعقدتها بمهارة فائقة ،
 كل هذا من أجل تحرير أرضهم والدفاع عن القوانين الإنسانية والضرورات الأخلاقية والقيم الحضارية ، لم نسمع
 صوتاً يعارض هذه الحرب الحضارية الإنسانية . والسادات يؤمن بأن ما قامت به الأمة العربية أثناء حرب أكتوبر
 وبعدها كان الامتداد الطبيعي لتاريخها الحضاري ، ولم يكن مجرد مفاجأة لم تكن في الحسبان . كانت نفس المواجهة
 القديمة بين حضارة الشرق الروحانية ومدنية الغرب المادية .

ولكي لا نخرج عن المنهج العلمي ، فقد وجب علينا أن نحدد المقصود بالشرق والغرب في مفهوم السادات حتى
 يكون كلامنا محدداً وأكاديمياً . فقد نشر السادات سلسلة من الأبحاث العلمية في جريدة «الجمهورية» بطول
 شهرى أغسطس وسبتمبر من عام ١٩٥٦ تحت عنوان «شرق وغرب» ، وحدد فيها كل المفاهيم الحضارية المرتبطة
 بالشرق والغرب ، كل على حدة ، فهو لا يعنى ما اصطلح عليه اليوم من تعريف لأكثر كتلتين في العالم ، حين
 أطلقوا على الولايات المتحدة الأمريكية ومن معها «غرب» وعلى الاتحاد السوفيتي ومن معه «شرق» . وإنما يعود
 السادات بهذه التسمية إلى أصولها عبر التاريخ . ويقول بأن ما عناه شاعر الاستعمار الإنجليزي كبلنج هو التفسير الأقرب
 إلى ما يعنيه من هذه التسمية حينما قال في قصيدته المشهورة : «الشرق شرق والغرب غرب . ولن يلتقيا .» ويحدد
 السادات الصعوبات التي تواجه الباحث في هذا المجال فيقول في الحلقة التي نشرت «بالجمهورية» في ١٢ أغسطس
 ١٩٥٦ :

«حين نريد أن نضع حدوداً تفصل بين الشرق والغرب حتى نستطيع أن نتناول كل ناحية بالدرس والتحليل
 من التاريخ والواقع فإننا سنواجه صعوبات كثيرة . . فهل ستكون هذه الحدود جغرافية مثلاً . . أو تكون هذه الحدود
 حضارية ، بمعنى أن تكون مميزات الحضارة عبر التاريخ واشتراكها أو انبثاقها من منبع واحد لشعوب مختلفة هي
 الحد مثلاً الذي نجمع به الغرب من ناحية والشرق في ناحية أخرى . . ؟ أو تكون هذه الحدود على أساس الجنس ،
 فنقول إن جنساً معيناً أو أجناساً بذاتها تكون الغرب وأجناساً أخرى تكون الشرق . ؟

فإذا اتخذنا من الجغرافيا أساساً وقلنا كما قال به مفكرون من الغرب في القرن التاسع عشر إن الخط الذي يفصل
 بين الشرق والغرب يمتد رأسياً من الشمال إلى الجنوب عند انتهاء شرق البحر المتوسط وكل ما يقع شرق ذلك فهو الشرق
 وكل ما يقع غرب ذلك فهو الغرب فإننا سنرتكب خطأ جسيماً ، إذ أن مصر وفلسطين وليبيا وتونس والجزائر ومراكش
 ستقع كلها جميعاً في الغرب في الوقت الذي ترتبط فيه كل هذه البلاد بالشرق بروابط تاريخية وحضارية فضلاً عن
 أن جميع مقومات شعوبها شرقية بحتة ولا تشترك مع الغرب في قليل ولا كثير بل هي أبعد ما تكون عن الغرب .
 كذلك سنرتكب نفس الخطأ بالنسبة لأستراليا ونيوزيلندا ، فإنهما بحسب هذا التقسيم هما في الشرق في الوقت الذي

لا تربطهما بحضارة الشرق ولا تاريخه ولا مقوماته أية روابط بل هما أبعد ما تكونان عن العقلية الشرقية والبيئة الشرقية . ولن نستطيع أن نتخذ من الجنس قاعدة أيضاً لأن الصين وهى شعب واحد تضم أجناساً متعددة كذلك ينطبق الأمر على أمريكا وروسيا . . لذلك فلا مخلص لنا إلا بالحضارة التى تكون العقلية وترسى مقومات تكون هى بذاتها المميزات الخاصة التى تميز الشرق عن الغرب ، وهنا نستطيع أن نحدد الشرق بكل الشعوب التى تكون حضارتها ويكون تاريخها من حضارة وتاريخ الشرق ، ونستطيع أن نحدد الغرب بنفس الطريقة .

والسادات يتبع هذا الأسلوب الأكاديمي فى الدرس والبحث ، لأنه يريد أن يضرب المثل لنا لكى نتعلم أن نحدد كل شيء فى هدوء وموضوعية وأكاديمية حتى لا نضل الطريق صوب التعمير الحضارى المنشود ، فلا يمكن أن يقوم التعمير الحضارى على انفعالات مؤقتة وطفرة عشوائية . ولعل المقالة التى نشرها السادات تحت عنوان « عبر التاريخ » فى مجلة « التحرير » فى ٤ ديسمبر ١٩٥٦ بمثابة الاتزان الموضوعى الذى يريد السادات تأكيده فى وجدان الشعب المصرى حتى ولو كان يمر بأشد المحن القومية ، فقد كتبها فوراً فى أعقاب العدوان الثلاثى وأثناء احتلال بريطانيا وفرنسا لمدينة بورسعيد حتى يبصر الشعب المصرى بامتداده التاريخى والحضارى ، هذا الامتداد الذى صمد لكل تقلبات الأيام ، وغزوات الطامعين ، فلم يلجأ السادات إلى إثارة التشنج العاطفى ، والانفعال المبالغ فيه ، فى نفسية الشعب ، رغم أن الجوانب النفسى كان مهياً لذلك . بل ترك عبر التاريخ تتكلم وتشهد وتؤكد أن هذه الغزوة الاستعمارية ليست سوى فقاعة على سطح الحياة المصرية الزاخرة بأموج التحرير والتقدم والتعمير الحضارى ، وسيكون مصيرها - حتماً - كمصير الغزوات السابقة لها واللاحقة أيضاً كما حدث فى يونيو ١٩٦٧ وأنهاها الشعب فى أكتوبر ١٩٧٣ رغم الظروف الكابوسية التى مر بها . يقول السادات فى هذه المقالة :

« على مر التاريخ ، كانت مصر دائماً مركزاً للإشعاع الحضارى والروحى . كانت الإسكندرية حلقة صراع فكرى بين روح الشرق البناءة المسالمة التى تمثلها حضاراته وبين روح الغرب التى تمجد القوة والعدوان وتقيم بناء حضارتها على الجماجم والأشلاء . كانت حضارات الشرق تقوم فى الصين وفى مصر وفى الهند وفى إيران على نهضة فكرية وصراع عقلى وهندسة وبناء . . وكان أهم ما تعنى به هذه الحضارات جميعاً هو علاقة الإنسان بخالقه وبالأرض وبقية المخلوقات ، وكيف يمكن أن يسيطر الإنسان على غرائزه بالبحث فى مكونات النفس البشرية ، وماذا تكون عليه علاقة الأسرة بعضها البعض وعلاقة الحاكم بالمحكوم . . كل هذا فى سبيل بناء سلام بشرى يقوم على فهم صحيح لوجود الإنسان على هذه الأرض .

وكانت حضارات الغرب التى انتهت إلى الحضارة الرومانية تعنى أول ما تعنى بتمجيد القوة المادية والإيمان بالفرد على أنه يستطيع أن يخضع هذا الكون لرغباته إذا ما توافرت لديه القوة المادية لذلك رأينا أن حضارات الشرق قامت على العلوم والبناء والروحانيات ، فى الوقت الذى قامت فيه حضارات الغرب على الغزو والفتح والقتل وفرض السيطرة بالقوة عن طريق سفك الدماء . .

ولقد غلبت الحضارات الشرقية على أمرها حيناً من الزمان لأنها لم تواجه حضارات الغرب بحديد ونار . وهى أدوات حضارة الغرب الوحيدة . ولكن عجلة التطور تسير وتطحن فى طريقها كل من يقف فى طريقها كل من يقف فى سبيلها مهما كانت لديه من قوى أو حديد أو نار .

وهذا التأصيل الحضارى الذى يقوده السادات يعتبر الإنسان هو الرصيد الأساسى لأى تعمير حضارى ، فالحضارة التى تستخدم القوة المادية فى إفناء الإنسان وإرهابه لا يمكن أن تكون حضارة بمعنى الكلمة ، فالحضارة وجدت من أجل الإنسان فى كل مكان دون تفرقة . ورفع مستوى هذا الإنسان شرط أساسى لدفع عجلة التعمير الحضارى

كما توضح « ورقة أكتوبر » من أن واجبنا نحو هذا الإنسان المصري ، الذى نعتبره رصيدنا الأساسى ، والذى نعمل به ومن أجله ، ألا تتركه فريسة للأمية أو المرض أو التخلف . ولكن علينا أن نعطيه كافة فرص التطور ، حتى يعطى بلاده أحسن مآلديه . فالتقدم المادى على أهميته ليس كافياً وحده للنهوض بالإنسان وتغيير حياته تغييراً حقيقياً وأنه لا بد بالتالى من الاهتمام بالجوانب الأخرى التى تساهم فى تكوينه . وهذا فى حد ذاته مساهمة فى التنمية لا تقل فى أهميتها عن شراء الآلات وإقامة المصانع ، ويكفى أن ننظر إلى درجة إنتاجية الفرد ، التى هى أحد محاور التنافس العالمى ، ومدى تأثيرها بدرجة وعيه الاجتماعى ، وخبرته الفنية ، وانسجام عاداته مع متطلبات المجتمع الجديد ، لكى نعرف الأهمية الكبرى لهذه التنمية الاجتماعية . ثم يبلور السادات العلاقة العضوية بين التعمير الحضارى ومفاهيم التعليم والثقيف فيقول فى « ورقة أكتوبر » :

« ويهمنى هنا فى الدرجة الأولى ، أن أؤكد أنه قد آن الأوان للبدء جدياً فى تلك المهمة الصعبة التى تأخرنا فيها كثيراً ، وهى القيام بثورة شاملة فى نظم ومفاهيم التعليم والثقيف العام بكل أنواعه ومستوياته . . . ابتداء من محو الأمية إلى التعليم العام والفنى والجامعى ، إلى البحث العلمى والتكنولوجى » .

وللتربية والتعليم نظريات كثيرة لكل منها من يؤيدها ، ولكن برتراند راسل يوفر علينا هذا الشعب المعقد ويحصر اتجاهات التربية والتعليم فى ثلاثة خطوط رئيسية : الأول يرى أن الغرض الوحيد من التربية بصفة عامة هو تهيئة فرص النمو وإزالة كل ما يعوقه من مؤثرات ، أما الثانى فيهدف إلى تقديم الثقافة إلى الفرد للارتفاع بقدراته إلى حدها الأقصى . أما الخط الثالث فيرى أصحابه أن التربية يجب أن تبحث من حيث العلاقة بالمجتمع لا من حيث علاقتها بالفرد ، وأن واجب التربية هو تدريب المواطنين الصالحين . والخطان الثانى والثالث يتفقان فى أن التربية عملية إيجابية ، يحصل بها المتعلم على شئ جديد . أما أصحاب الخط الأول فيرون أن وظيفة التربية سلبية ولا تخرج عن نطاق الإعداد أما الإنتاج فليس من مهمتها . ولكن التطبيق الواقعى يؤكد أن التربية لا تسير فى اتجاه واحد من الاتجاهات الثلاثة . ففى كل نظام من نظم التربية قدر معين من كل اتجاه بنسب مختلفة ، ولا يمكن أن يبنى اتجاه واحد بالحاجة إلى تربية الإنسان الحضارى بمعنى الكلمة ، ولذلك لا بد من إيجاد الموازنة الصحيحة بين النسب المختلفة لهذه الاتجاهات فى كل نظام .

وقد عقد فى جامعة أكسفورد عام ١٩٣٧ مؤتمر لدراسة شئون التربية والتعليم والثقافة وعلاقتها بالتطور الحضارى للفرد والمجتمع ، وكانت التوصيات التى صدرت عن المؤتمر وطبعت فى كتاب تتفق فى كثير من بنودها مع آراء السادات فى التعليم والثقافة . وهى آراء حيوية لقيمتها العملية ونظرتها الواقعية إذ أنها لا تعتمد على التنظير المجرد ، فهى تربط التربية والثقيف بالمفهوم الشامل للتعمير الحضارى ، وتؤكد أن التعليم هو الوسيلة الوحيدة التى تقدم المنهج العلمى الذى يضمن عنصر الاستمرار للتعمير الحضارى ويجنبه المعوقات والنكسات . ويجدر بنا فى هذا المقام أن نستشهد ببعض التعريفات التى حددها مؤتمر أكسفورد فيما يختص بالتربية والتعليم لأن كثيراً من البلدان المتقدمة قد نجحت فى تطبيقها ، وخاصة أن هذا المؤتمر جمع خيرة خبراء وعلماء التربية والثقيف فى العالم . يحدد المؤتمر عملية التربية فيقول :

« التربية هى العملية التى يسعى بها المجتمع إلى أن يفتح حياته لجميع أفرادها ، وإلى أن يمكنهم من المساهمة فيه . إنه يحاول أن يسلم إليهم ثقافته ، بما فى ذلك المعايير التى يريد أن يعيشوا وفقاً لها . وحيث ينظر إلى تلك الثقافة على أنها نهائية تكون المحاولة لفرضها على عقول الناشئة وصيهم فى قالب واحد . ولكن إذا أخذت على أنها مرحلة فى التطور الحضارى فإنها تدرب عقول الناشئة على تقبلها وعلى نقدها وتحسينها فى الوقت نفسه . وتتألف هذه الثقافة

من عناصر شتى . فهي تمتد من المهارات الأساسية والمعارف الأولية إلى تفسير الكون والإنسان ، وهو التفسير الذى يعيش به المجتمع ويعرف عن طريقه هويته المميزة .

إذن فالمهمة الأولى للتربية والتعليم هى نقل الثقافة من جيل إلى جيل حتى يستطيع التعمير الحضارى أن يستمر ويتطور . والتعمير الحضارى هنا شامل لكل الأنشطة الإنسانية البناءة وليس مقصوراً على مجرد التغيير السياسى والاجتماعى كما يظن - خطأ - هـ . ك . دنت فى كتابه التقليدى « نظام جديد فى التربية الإنجليزية » حيث يقول إن الديمقراطية الكاملة هى هدف أى نظام مثالى للتربية دون أن يحدد ما يقصده بالديمقراطية الكاملة . ونفس القصور نجده فى كتاب هربرت ريد « التربية بالفن » الذى يؤكد فيه أن الفن هو الوسيلة المثلى لنقل الثقافة ، ولكننا نعتقد أن الفن - على الرغم من أهميته الحيوية القصوى - ليس الوسيلة الوحيدة لنقل الثقافة ، والتوفيق بين التمايز الفردى وبين الوحدة الاجتماعية ، فهذا التوفيق الذى ينادى به هربرت ريد ، يمكن أن تقوم به أنشطة حضارية أخرى كالدين والفكر والفلسفة وعلم الأخلاق والاجتماع والنفس وبقية العلوم الإنسانية ، وخاصة إذا كان هذا المجتمع يتمتع بالديمقراطية التى تكلم عنها هربرت ريد .

ومن الكتب الأخرى التى تنظر إلى التربية نظرة محدودة وأحياناً ضيقة كتاب ف . ك . هابولد « نحو أرستقراطية جديدة » الذى يحيل فيه الإنسان إلى مجرد أداة من أدوات الحضارة وليس الهدف الأسمى كما ينادى السادات فى « ورقة أكتوبر » . فالمهمة الأساسية للتربية فى نظر هابولد لا تكمن فى تسليم التراث الثقافى والحضارى من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق ولكنها مجرد تدريب رجال ونساء من النوع الذى يحتاج إليه العصر ، لأن التمايز الفردى للإنسان فى هذه الحالة لن يجد لنفسه منطلقاً . وهذا من أكبر المعوقات للتعمير الحضارى . فالفرد هو الوحدة الأولى للمجتمع ، وبالتالي فهو وحدة حضارية فى حد ذاته وليس وسيلة تنتهى باتهاء الغرض منها . وفى هذا يقول هربرت ريد فى بحث بعنوان « تربية الأحرار » إنه لا يجد تحديداً لأهداف التربية والتثقيف أفضل من قول ويليام جودوين : « إن الهدف الصحيح للتربية . . هو إيجاد السعادة » . وهذا يتفق مع ما جاء فى الكتاب الأبيض الذى صدر عن مؤتمر اكسفورد والذى يقول : « إن غرض الحكومة هو أن تهيب للأطفال طفولة أسعد وبداية للحياة أصلح » لأن السعادة غالباً ما ترتبط بتكامل نمو الشخصية .

ولعل نظرية السادات فى التربية والتعليم من أجل التعمير الحضارى تتفق تماماً مع نظرية س . ا . م . جود التى وردت فى كتابه « حول التربية » وفيه يؤكد أن الغايات الحقيقية للتربية لا يمكن حصرها بسهولة ، ولكن من الممكن تحديدها فى ثلاثة اتجاهات علمية وعملية على سبيل التبسيط فقط ، لأنه يتفرغ من كل اتجاه خطوط لا حصر لها . وهذه الاتجاهات تبلور أولاً فى تمكين الصبي أو الفتاة من كسب العيش والحياة على مستوى لائق ، ثانياً : تهيئة الفرد للقيام بدوره كمواطن فى بلد ديمقراطى ، ثالثاً : تمكينه من تنمية كل ما فى طبيعته من القوى والقدرات الكامنة ، وبذلك يمكن أن يتمتع بحياة هائلة ، وهذه الحياة هى الهدف الأسمى لكل تعمير حضارى . ويعتقد جود أنه لا يمكن أن يتم هذا على الوجه الأكمل إلا فى ظل توافر الديمقراطية السليمة بكل ما تحمله من حرية سياسية وأصالة فكرية ومعاصرة علمية . وفى هذا المعنى يقود السادات فى خطابه فى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٣ يوليو ١٩٧٢ .

« حررت الثورة الثقافة من السيطرة الاستعمارية ، وأعادت صلة المثقف المصرى بتاريخه الحضارى الطويل وكشفت له عن أمته العربية وثقافتها الغنية وإمكاناتها الواسعة ، وفتحت أمامه كل النوافذ على الثقافة العالمية بعد أن كان النفوذ الاستعمارى يحصره فى قنوات معينة . كما حررت الثورة الثقافة من الطبقة بعد أن وسعت قاعدة

التعليم ، وجعلت المدخل الوحيد إليه ، أى إلى التعليم ، هو القدرة الذهنية على التحصيل والدراسة ، وهكذا وصل أبناء الفلاحين والعمال إلى أعلى مراحل التعليم ولم تعد المعرفة احتكاراً لأولى الثروة . ولم تعد البلاد تحرم من كفاءات أبنائها لمجرد عجزهم عن تحمل مصاريف التعليم . شجعت الدولة التفوق ، الدراسة والبحث العلمى ، وهيات له السبل ، حتى فى المجالات المتقدمة ، وأفردت لذلك الجوائز وجعلت للعلم عيداً فى كل عام .

حظى الكتاب والمسرح والموسيقى والسينما والفنون التشكيلية بمختلف أشكال التشجيع ، وفى مقدمتها تمويل الأعمال الفنية الهامة ، وإنشاء معاهد الفنون وتنظيم منح للتفرغ للإنتاج الأدبى والفنى .

وفى كلمة السادات فى عيد العلم فى أكتوبر ١٩٧٢ نجد نفس الاتجاه الذى يقيم دعائم التعمير الحضارى على أسس من العلم والتعليم ، من الثقافة والتثقيف ، لكى يستمر المشعل فى التوهج من بعدنا . يقول :

« إن جيلنا المعاصر يحمل مسئولية الكفاح من أجل الحرية والاستقلال ومسئولية قهر العدوان الجاثم على أرضنا العربية ، والتحدى لحقوق شعبنا العربى . وسوف تحمل الأجيال القادمة على كتفها عبء البناء والتقدم الاقتصادى والاجتماعى ، استمراراً لما بدأت ثورتنا حتى تطور وجه الحياة كلها على أرضنا المباركة ، وستواجه هذه الأجيال فى مسيرتها عالماً من حولها ، قطع أشواطاً واسعة على طريق البناء ، وأحرز مكاسب مذهلة على طريق التقدم ، ولقد تم كل ذلك على أيدى معلمين أدوا أمانة التربية والتعليم فى كل مجالات العلوم والآداب والثقافة والفنون .

إن هذه المعانى التى أشرت إليها فى حديثى إليكم تقتضى منكم ترجمتها إلى عمل وإلى ممارسة وإلى سلوك ، حتى ننشئ جيلاً تم تربيته وتعليمه فى ظل عمل تعليمى رائد ورشيد مسلماً بالعلم ليضعه فى خدمة مجتمعه . وفى خدمة السلام والإيمان والمحبة ، وطوع الحرية والتحرر والكرامة لكى يحمل المشعل من بعدنا ، نوراً ساطعاً على البشرية وعلى الإنسانية جمعاء . »

ومن أجل هذا العمل التعليمى ، الرائد والرشيد ، فقد حتمت « ورقة أكتوبر » عدم صب التعليم فى قوالب واحدة ، بل العمل على تنويعها قدر الإمكان حتى تعنى باحتياجات الخبرات والتخصصات والمهارات المطلوبة فى عملية التعمير الحضارى . وهذا التنوع يرتبط بنوعية الإنسان كما يرتبط بنوعية المرحلة فى نفس الوقت . ومن هذا المنهج يمكن ربط أنواع معينة ، ومراحل معينة من التعليم بالبيئة على اختلاف خصائصها الريفية أو الحضرية ، فبذلك لا نعانى من مشكلة الارتداد إلى الأمية حين يفصل الطالب عن المدرسة ويعود إلى بيئته ، كذلك نتفادى الوجه الآخر للمشكلة ، وهو هجرة المتعلم من بيئته وراء تطلعات خاصة به . وأيضاً يتحتم توثيق الصلة بين الجامعات والمعاهد على اختلافها وبين مواقع العمل ذات الصلة بتخصصاتها من مؤسسات وشركات إنتاجية أو تجارية وغيرها ، فى عالم تلعب المعرفة فيه دوراً متزايداً فى تطوير القدرة الإنتاجية .

والتعليم ليس مجرد سبيل إلى اكتساب ميزة اجتماعية معينة ، ولذلك يجب القضاء على فكرة الفارق الاجتماعى بين مختلف أنواع التعليم والمؤهلات . فقيمة العمل تقاس بنتيجته ومساهمته فى التعمير الحضارى وليس بصفته التقليدية النمطية التى جعلت الهدف الأسمى لبعض المتعلمين الوصول إلى وظائف مكتبية ، بصرف النظر عن قيمتها الفعلية فى حركة المجتمع ، وحرّم هذا القصور الفكرى المجتمع من مهارات وإمكانيات كان من الممكن أن تسد ثغرات كثيرة فى البناء الحضارى للأمة . وخاصة أن المعدل الزمنى للتطور الحضارى يتزايد بسرعة مذهلة وبالتالي لا يحتمل أى تضييع أو تشتيت أو ثغرات أو فراغات . حتى مجرد المحافظة على المستوى الحضارى الراهن أصبح من قبيل التخلف لأن الأمم الأخرى تتسابق ، والذى يظل فى مكانه لا بد أن يتخلف . ولم يحدث أن سارت الحضارة الإنسانية بالسرعة التى تسير بها الآن . وبالطبع فإن السرعة مرتبطة بعاملى الاتساع والعمق ، وما كان يمكن إنجازها

في خمسة قرون فإن من الممكن إنجازها الآن في أقل من نصف قرن . ولذلك يجب أن يتميز التعمير الحضارى في مصر بالقدرة على الاستكشاف ، والإقدام على المحاولة ، وعدم الخوف من الخطأ ، حتى لا يفقد عنصرى الأصالة والمعاصرة .

والأمر الثانى الذى أكدته « ورقة أكتوبر » هو نظرية التعليم المستمر بسبب التطور السريع والمذهل للآلات والأدوات الحضارية ، ولذلك يتحتم على العناصر النشيطة والمنتجة أن تكون في حالة من التعليم المستمر والتحصيل المتواصل حتى لا يحدث تخلف عن الجديد ، وحتى نسد الفجوة الحضارية بيننا وبين الدول المتقدمة . ومن هنا تبرز أهمية تحديث المكتبات العامة ومكتبات الجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث ومراكز الاطلاع ، وتسهيل استيراد أحدث الكتب والمجلات والدوريات ، وأيضاً عقد حلقات الدراسة وبرامج التدريب المستمر على كافة مستويات الإدارة ، وكذلك استخدام وسائل التثقيف في تقديم برامج دراسية حرة في مختلف أنواع المعرفة . كل هذا لن يتأتى إلا عن طريق استخدام كل وسائل العلم الحديث في جمع المعلومات وتخزينها وتوزيعها ، والاهتمام بمراكز البحث العلمى والتكنولوجى المتقدمة .

والتعمير الحضارى - معتمداً على التأصيل الفكرى - يحتم عدم الاعتماد باستمرار على العلم المستورد ، وإلا تحولنا في نهاية الأمر إلى عالة نسير في أذيال العصر . ولذلك يجب الربط بين مراكز البحث العلمى وبين احتياجات المجتمع لتأخذ من تلك الاحتياجات المادة الدراسية وليستفيد المجتمع من عائدها . أى يجب على البحث العلمى والتكنولوجى أن يطوع التكنولوجيا المستوردة للواقع المصرى ، وأن يكتشف حلولاً أصيلة لمشكلاتنا المحددة . وتستشهد « ورقة أكتوبر » بحرب أكتوبر المجيدة فتقول إنه كان في إمكاننا تطويع السلاح وتطويره ، وابتكار أساليب مواجهة معركتنا بسماحتها الخاصة . ولذلك فإنه في استطاعتنا ممارسة نفس الأصالة في معركة التعمير الحضارى ، ودخول ميدان البحث العلمى والتكنولوجى كشركاء ، نأخذ ونعطى ، فلا نعيش عالة على من يبتكرون ، أو نخضع للشروط التى يفرضونها . ويختم السادات هذا الباب من « ورقة أكتوبر » فيقول :

« وإننى لأتمنى ، فوق جهدنا المصرى الخاص في هذا المجال ، أن تتم جهود عربية مشتركة ، يمكنها أن تعطى التقدم الذاتى في هذا المجال دفعة قوية . لقد عاش العالم عدة قرون كان العرب يملكون فيها ناصية العلم ، وكانت أوروبا تنقل عنهم ، وقد ظلت كتب المؤلفين العرب تترجم إلى اللاتينية وتدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السابع عشر ، ومعنى ذلك أن الإنسان العربى قادر على الإنتاج الأصيل إذا تهيأت له الظروف المواتية » .

وهذا هو نفس الاتجاه الذى نادى به السادات منذ عشرين عاماً ، مما يدل على أصالة فكره ورسوخ جذوره ومواكبته للعصر في نفس الوقت . فهو يؤمن أن الثقافة في هذا العالم جزء لا يتجزأ ، وكما ساهم العرب في بعث ثقافة أوروبا عند بداية عصر النهضة ، فإنه يتحتم على الغير المساهمة أيضاً في التعمير الحضارى العربى بما وصلوا إليه من تقدم حضارى من المحال تجاهله . وليست المسألة مجرد رد للجميل فحسب ، بل مساهمة في ازدهار الحضارة الإنسانية ككل . وذلك بتعدد مراكزها ومصادرها وتنوع منابعها وروافدها . وفي هذا المعنى يكتب السادات في « الجمهورية » في ٢١ أغسطس ١٩٥٤ محتماً :

« أن تكون هذه الثقافة مستمدة أصلاً من تاريخ هذه الملايين ! من نضالها ومن واقعها ومن مصالحها ومن حضارتها ومن أدبها ومن فنها ، ثم لكى تصبح ثقافة واعية متقدمة ومتطورة يتحتم أيضاً أن تكون مرتبطة بثقافة ووعى البشر جميعاً » .

ويرفض السادات المفهوم الضيق للتعليم ، وهو المفهوم الذى حرص على ترسيخه في مصر ممثل البيداجوجيا

الإنجليزية دانلوب أيام الاحتلال البريطاني ، والذي جعل الهدف الأسمى للتعليم هو إخراج موظفين كتابيين للوظائف الحكومية التي تخدم الاستعمار بطبيعة الحال . ولذلك توارث الثقافة المصرية الأصيلة في الظل . يقول السادات في نفس البحث :

« وقد يفهم القارئ العادي أن المقصود بالثقافة هو التعليم في المدارس والجامعات ! ؟ إن الفرق بين الثقافة والتعليم شاسع هائل . فالإنسان المثقف هو الذي يعرف الطريق إلى الحياة ، إلى الحرية والعدل والحق ، كما يعرف وسائل الانطلاق في ذلك الطريق . . أما المتعلم فهو الذي يدرس لكي يحترف عملاً يرتزق منه ! »

ثم يربط السادات بين ثقافة الإنسان ووعيه فيؤكد في نفس البحث أن الثقافة بشقيها الأصيل والمعاصر هي التي تحدد مقدار وعي الإنسان بالمجتمع والكون حوله ، ومن ثم تلزمه بشق الطريق الخاص به نحو مستقبله ، الذي هو مستقبل المجتمع في نفس الوقت ، فهذا المستقبل يتحدد بالحدود التي تحقق مصالحه وحرياته وآماله بل وحقوق ومصالح وآمال الجماهير كلها . والسادات يرى أن الثقافة - في ضرورتها - مثل الماء والهواء لا يمكن الاستغناء عنها ، ولذلك يقول في حديث أدلى به لعبد التواب عبد الحى في ٢٥ يوليو ١٩٥٩ في مجلة « الإذاعة » :

« في سنوات السجن والمعتقل تعلمت كيف أقرأ بعمق . . لم يكن أمامي إلا أن أختار : إما أن أقرأ ، وإما أن ينفجر رأسي من الإحساس بالوحدة ! كنت أقرأ كل الألوان التي تصل إلى يدي . . وكنت أسمع للكتاب الذي أقرأه أن يحتوي بين صفحاته ويفرقني بنحالاته . »

وهذا يذكرنا بمذكرات السادات التي نشرها بمجلة « المصور » عام ١٩٤٨ تحت عنوان « ٣٠ شهراً في السجن » إذ يقول في يوم ٢٢ يناير ١٩٤٦ :

« أصبحت الحالة لا تطاق ، فلم يسمح لي الضابط النوبتجي اليوم بالتوجه إلى دورة المياه في الصباح كالمعتاد وعبثاً حاولت التفاهم معه ، ولم ينقذ الموقف إلا نزول هيكمان من منزله فسمح لي بأن أقضي حاجتي وأتوضأ ! . وقد كتبت للنائب العام مرة ثانية بهذه المعاملة الشاذة ، فطلبني وكيل النيابة عند الظهر وأثبت شكواي ، وخاصته فيما يختص بالسماح لي بالقراءة ولكنه ، سامحه الله لم يسمح لي بشيء حتى ولا بالمصحف الشريف . »

وفي يوم ٣٠ يونيو ١٩٤٦ كتب السادات في مذكراته في السجن يقول :

« إن شر ما يصاب به إنسان ذو مثل عليا هو الانحطاط العقلي . فالقراءة والاطلاع ألزم للفرد من الطعام في هذا العالم الذي اتصل قاصيه بدانيه ، ولكنهم هنا لا يؤمنون بذلك . »

والسادات في هذا يذكرنا بالفيلسوف العربي ابن مسكويه الذي كان الكتاب بالنسبة إليه « ينبوع الثقافة » و « المعلم » و « الجامعة » التي تربي فيها . فيقول في إحدى قصائده مشيداً بقيمة الكتب :

فإن تمنيت عيش الدهر أجمعه وأن تعالين ما ولى من الحقب
فانظرس إلى سير القوم الذين مضوا والحظ كسابتهم من باطن الكتب

وفي العصر الحديث يقول توفيق الحكيم في كتابه « تحت شمس الفكر » ص ١٠٧ :

« إنني أريد دعم الثقافة الشرقية كلها ، والعمل على إنهاضها ، لتقف إلى جانب الحضارة الغربية قوية غنية . وهذا الغنى لن يأتي إلا إذا عطف كل بلد من بلاد الشرق في أول الأمر على نفسه ، ليستخرج من بطن الأرض التي يحيا عليها كل كنوز ماضيها ، حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللآلئ القديمة مجلوة متروعة عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله في معين واحد مشترك ، وقدمه إلى الإنسانية باسم : (الثقافة الشرقية) . »

ويأسف توفيق الحكيم لأن بعض المفكرين الشرقيين أنفسهم يشكون ويشككون في حقيقة وجود « الثقافة الشرقية »

بسبب انبهارهم الساذج والأهوج بانتصارات الحضارة الغربية المسيطرة الآن على العالم ، والتي أعمتهم فلم يملكوا سوى التسبيح بأمجادها دون استيعاب حقيقى لأبعادها وإنجازاتها . ذلك هو العمى ، والعقم ، والجذب ، والكسل ، والتخلف . وكذلك لا يقر توفيق الحكيم الفئة الأخرى من الشرقيين ، « الذى يظنون أن التحمس للثقافة الشرقية معناه الجلوس متدثرين فى أطمار حضارات بالية يصعرون خدودهم ويصبحون بألفاظ نكرة مضحكة وفخر كاذب ! .. » وذلك أيضاً هو العمى ، والعقم ، والكسل ! ثم يربط الحكيم إنهاض الثقافة الشرقية بنهوض الشرقيين أنفسهم إلى العمل ، والبدء أولاً بالجرى واللاحاق بما وصلت إليه الثقافة الغربية . تلك الثقافة التى أضافت اليوم كثيراً على ما استطاعت أخذه من الحضارات الأولى ! ولذلك يتفق الحكيم مع السادات فى أن :

« ثقافة الغرب - خصوصاً فى العصر الحديث - لا تهمل شيئاً أنتجه العقل البشرى فى أى عصر من العصور ، وفى أى بقعة من البقاع ؛ فالأوروبيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية (شوبنهاور) و (نيتشه) ، وحتى من الثقافة العربية والشعر العربى (جوته وهابن) . ولكنهم طبعوه بطابع فئهم وتفكيرهم ؛ ذلك أن حب المعرفة والاستطلاع لا يمكن أن يسمح لرجال الفكر الحقيقيين بالاقتناع بلون واحد أو الوقوف عند حد معلوم ، فالأوروبيون دائماً يأخذون ما عند غيرهم من ثروة فكرية ليصبوه فى قالبهم ! .. »

فأوربا إذن على ثروتها وغناها الثقافى اليوم لم يخطر ببالها قط أن تتقاعد عن قطف ثمار أية شجرة أخرى ! .. إن الفكر البشرى ليس له حدود « دولية » إنما هنالك المزاج الخاص ، والطبيعة الخاصة التى تكيف تلك الثروة المباحة التى تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة ! »

ويصل الحكيم إلى نفس النتيجة التى يؤكد بها السادات وهى أن الثقافة العربية لا يمكن أن تكون اليوم بمعزل عن ثقافة أوربا أو الثقافة الغربية . فنأخذ كل شئ ، ونهضم كل شئ ، ثم نخرج على روحنا القديم ، كل فى بلده . فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة ؛ إذ لا ريب أن كل بلد من بلاد الشرق فيه مناجم للفكر مفعمة متألفة لم تستخرج بعد . فالغرب على نشاطه الفكرى ونهمه الذهنى ، لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرق . إذ لا بد أن تكون معاوله قد ارتطمت بحواجز منيعة من أسرار طبيعته ، لا تكشفها غير طبيعة الشرق وغرائزه ، وتجاريب حكمته المتراكمة فى أعماق نفسه ، على مدى آلاف السنين . فإذا فعلنا ذلك ، نكون قد قدمنا ثقافة حية نامية جميلة ، عليها خاتم شخصيتنا الشرقية ، يراها الغرب ؛ فكأنه يرى شيئاً جديداً مستقلاً ، قد أخرج لهم من صدر عبقرية جديدة ، بذلك نكون قد تمكنا من مسايرة الفكر البشرى والحضارة الإنسانية ، ونظفر باحترام الحضارة الغربية ، ذلك الاحترام الذى تنظر به هذه الحضارة المعاصرة إلى الحضارة العربية القديمة . ثم يؤكد الحكيم الأصالة العربية ص ١١١ فيقول :

« إن طابعنا الفكرى ، وطريقة نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدينا وإحساسنا بالجمال الذهنى ، ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة . وأسلوبنا فى التعبير عن حقائق الأشياء ؛ كل هذا ينم عن عقلية خاصة ، وعبقرية مستقلة ، لا ينبغى أن تتحلل وتتزايل تحت طغيان موجة أقوى ! .. فإذا نادينا بالوحدة العربية فإنما ذلك لتدعم كتلة (الروح الشرقى) أمام كتلة (الروح الغربى) . »

وبدعو الحكيم - بالإضافة إلى إحياء الثقافة العربية القديمة - إلى هضم كل ثقافة قديمة أو معاصرة وإخراج ثقافة جديدة تنم عن روحنا وشخصيتنا العربية ، والطريق إلى ذلك هو الطريق الذى اتبعته كل حضارة من الحضارات الإنسانية ، وعلى رأسها الحضارة العربية القديمة ، أى القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق ، ولا يغنى التلخيص عن الترجمة ، فنحن بإزاء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية ، حتى يمكننا بناء حياة رائعة يستمتع فيها الناس

بشرة التطور الإنساني في كنف العلم والثقافة والحضارة . فلا شك أن كل الفضائل الإنسانية والمثل الأصيلة تنبع من الثقافة الحقيقية ، والأفق الواسع ، والنظرة الشاملة ، والبصيرة النافذة ، أو كما يقول السادات على صفحات « الجمهورية » في ١٣ سبتمبر ١٩٥٤ :

« إن المسألة في رأي لا يخرج عن نطاق الثقافة ، فالرأي الصادق نتاج طبيعي لثقافة صاحبه أو لاجهاه نحو الثقافة إذا كان قد بدأ يؤمن بها . وإلا لكان أصحاب الآراء غير الصادقة جبناء رعاعيد ترتعش أطرافهم فزعاً من الصدق ! ؟ أبدأ إنهم - أصحاب الآراء الخاطئة - ليسوا سوى أناس مساكين لا يؤمنون بالثقافة فيتركون عقولهم فريسة لذلك العدو البشع . . الجهل » .

فالذي يجب أن نخاف منه هو سيطرة الجهل وليس تيار الثقافة الوافدة فالتمسك بالأصالة لا يعني سد باب التجديد ، بل إن الحضارة العربية القديمة رفعت كثيراً من شأن المجددين الرواد . ومن هنا تؤكد « ورقة أكتوبر » أن : « حقنا في التصرف في أمور دنيانا وظروف أيامنا ، ليس أقل من حق أسلاف عظام لنا جددوا وابتكروا وتصرفوا في أمور دنياهم وأحوال أيامهم . إن التجديد الجذري ليس بالضرورة منقطع الجذور عن التراث القومي والحضاري والروحي للشعب » .

ونحن لا نقول بهذا عن رغبة في التميز أو الاستعلاء . ولكن لأننا نؤمن من استقرار التاريخ أن المناطق ذات التراث الحضاري العميق لا يمكن بحكم الطبيعة أن تنطمس هويتها تحت أي ضغط . ونؤمن بأن انطلاقنا من هذه الجذور يحمي بالنسبة لنا وبالنسبة لغيرنا ذلك التنوع في الحضارات والشخصيات الذي يثرى بتعدد العالم ويعنى تجاربه .

ولست هنا أعرض مفاهيم جديدة . ولكنني فقط أذكر بمعان قد استقرت في ضمير هذا الشعب . وفي أعماق وجدانه حيث لا يمكن أن يزعزعها شيء ، وبأنه من هذه المعاني ، قولي بأن الإنسان المصري بعراقته وأصالته هو الضمان لنا في أن نقطع هذه الرحلة نحو المستقبل دون أن نفقد من هويتنا شيئاً .

إن من أبرز آثار الثورة التكنولوجية في عالم اليوم ، ذلك التقدم الهائل في وسائل نقل الأفكار والمعلومات والتيارات وأنماط السلوك المختلفة ، عبر الحدود القومية لكل المجتمعات الإنسانية على السواء ، وبالتالي سقطت الحواجز القديمة العازلة بين بيئة وبيئة وبين مجتمع ومجتمع ، وفي وجه هذا التحول الثوري المتزايد ، لا يمكن أن تكون حصانتنا إزاء هذا الانفتاح والاتصال إلا من داخلنا . ولا يكون الحفاظ على هويتنا بالانكماش والجمود والضعف ، ولكن بدرجة التقدم التي نحرزها ، بالأسلوب السليم الذي يستمد حيويته من قدرتنا على التجديد ، وثباته من تمسكنا بالأصالة . وبهذا المعنى فإن عملنا من أجل أن نبني في بلادنا مجتمعاً عصرياً ودولة حديثة ، لا يعني النقل والتقليد . إننا قادرون على أن نصنع بأنفسنا ولأنفسنا حضارة عصرية ذات طابع مصري وعربي أصيل ، نحن نرفض أن تكون الأصالة نظرة إلى الوراء تقدس الماضي لأنه الماضي وترفض التجديد فليس كل ما كان في الماضي مشرقاً ولكن فيه بعض عناصر التخلف . ونحن نرفض من جهة أخرى أن نمسخ شخصيتنا القومية باسم محاكاة المادية أو السلوكية لمجتمعات أخرى .

إن التحدي الحقيقي المطروح أمام الشعوب العريقة التي تواجه مشكلة التقدم الحضاري هو بالدقة كيف نجدد حضارتها ، فلا تلفظ الماضي باسم الحديث ولا ترفض الحديث باسم الماضي ، وإنما تأخذ بأسباب التجديد دون أن تفقد الأصالة . إن الدولة الحديثة والمجتمع العصري ليسا في مظاهرها المادية فحسب ، ولا يتحقق بناؤهما بمجرد اقتناء أحدث السلع والمنتجات .

إن العصرية هي أن نعرف أولاً الترتيب السليم لأولوياتنا في ماذا يلزمنا من هذه الأدوات قبل غيره . ثم هي في أن نوجد المؤسسات والنظم والعلاقات التي تحول هذه الأدوات في الأيدي العربية من أدوات صماء مستهلكة ، إلى أدوات خلاقة منتجة ، ثم هي بعد ذلك في أن نخلق البيئة المناسبة ، ودرجة التطور اللازمة ، التي تجعلنا قادرين على الابتكار والإبداع ، وبالتالي على المساهمة الحقة في الحضارة الإنسانية .

هذا هو ما تؤكد « ورقة أكتوبر » ، فالتأصيل الحضارى يشمل الأصالة والمعاصرة في الوقت نفسه . وهذان العنصران يستدعيان وعياً عميقاً بحركة التاريخ القومى والعالمى على حد سواء . وكما يقول كل من دانييلفسكى وتوينبي إن الحضارة هي الوحدة الحقيقية للدراسة التاريخية ، ولذلك فالحضارة هي جهد الإنسان على مر عصور التاريخ المختلفة . وأية دراسة للحضارة لا بد أن تضع في اعتبارها حركة التاريخ حتى يمكنها من شق الطريق الصحيح الذى يناسب طبيعة الأمة وكيانها . ومن هنا كان وعى السادات العميق بالتاريخ القومى والعالمى ، ومن هنا أيضاً كان الارتباط العضوى بين التعمير الحضارى وبين وعيه بالتاريخ . ولذلك آثرنا أن يدور الفصل التالى حول « الوعى بالتاريخ » عند رائدنا في التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل السادس

الوعى بالتاريخ

الوعى بالتاريخ لا يعنى أن يملك المفكر أو المؤرخ مجرد ذاكرة قوية لاستيعاب الأحداث التاريخية وتسلسلها الزمنى الميكانيكى ، فالمؤرخ ليس راوى أقاصيص ، وإنما هو كاشف القوانين المسيطرة على تلك الحقيقة الاجتماعية الكبيرة المسماة الدولة . ولذلك فالسياسى الناجح لا بد أن يحتوى فكره على هذا الجانب من منهج المؤرخ . فالتاريخ الذى يكتفى بسرد الأحداث لا يصلح إلا لترجية وقت الفراغ ، ولذلك فالمنهج العلمى هو الأسلوب الوحيد الذى يجب أن يتبع فى دراسة التاريخ . فالتاريخ لا يرتبط بالماضى فقط وإنما يدرس الحاضر ويستشرف آفاق المستقبل اعتماداً على القوانين والمعايير والضوابط التى استخرجها من دروس الماضى سواء على المستوى القومى أو المستوى العالمى . فالمستقبل هو الامتداد الحى والنتيجة الطبيعية للماضى ، ولا يمكن الفصل بين هذا وذاك ، والسياسى الذى يحاول أن يلغى الماضى حتى يبرز أمجاده الحاضرة والمستقبل ، يسلك سلوك النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال هرباً من الصياد . فلم ولن يوجد الإنسان الذى يستطيع أن يلغى الزمن أو يقطع سياقه إلى وحدات منفصلة ، فالزمن واحد منذ الأزل وإلى الأبد . وإن كنا نقسمه إلى ماض وحاضر ومستقبل ، فهذا على سبيل تقريب مفهومه إلى أذهاننا البشرية المحدودة ، أما الزمن نفسه فلا يعرف لنفسه ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً .

والوعى بالتاريخ يوجه عنايته إلى جماعات الناس كما يعنى بالأفراد المكونة لها ، ولذلك فموضوعه المفضل هو الإنسان بوصفه كائناً واعياً بوجوده . عاملاً فى المجتمع ، ومؤثراً فيه ومتأثراً به ، ومن ثم فالتاريخ هنا علم يجمع السياسية والاجتماع والاقتصاد والنفس البشرية بصفة عامة ، ولكنه فى الوقت نفسه ليس علم اجتماع ، ولا علم سياسة ، ولا علم اقتصاد ، ولا علم نفس . فقد كان فى بادئ الأمر يعنى بالوقائع المادية ، ولكنه فيما بعد صار يعنى بالحقائق النفسية لكى يفسر بها التيارات الاجتماعية والاتجاهات السياسية والمفاهيم الاقتصادية ، أى أنه يدرس العلاقة العضوية بين المظهر والجوهر ، بين الاستجابة والدافع ، بين النتيجة والسبب ، بين الفرد والمجتمع ، بين الأمة والعالم ، بين الحرب والسلام . فهذا هو التاريخ الحقيقى الذى يركز الأضواء الموضوعية على الرابطة الروحية بين الوقائع المادية ويفسرها . وفى هذا يقول المؤرخ الإنجليزى هنرى توماس باكل فى كتابه « تاريخ الحضارة فى إنجلترا » إن الإنسان ليس سوى جزء من الطبيعة بوجه عام ، ومن ثم يمكن ربط قوانين التطور التاريخى بالقوانين الطبيعية ، والتربة والطقس والثروة والثقافة والحضارة ، فظواهر الطبيعة والبيئة لها تأثير كبير فى حياة الإنسان ونشأة الحضارات والتاريخ هو تحليل ونقد وتوجيه لكل هذه العوامل من أجل صالح الإنسان ومستقبله . ومن هنا تبدو ضرورة الوعى بالتاريخ لأى سياسى يرغب ويصر على أن تعيش بلده على مستوى العصر . ولذلك يقول المؤرخ الإنجليزى ا. ا. فريمان إن التاريخ هو ماضى السياسة ، فى حين أن السياسة هى حاضر التاريخ ، ويمكننا أن نضيف إليه أن التقدم الحضارى فى المستقبل يعتمد على الوعى بالتاريخ والسياسة فى الوقت نفسه .

ويؤكد الفيلسوف الألمانى هيردر أن الإنسان هو أسمى مخلوق فى هذا العالم ، وبدونه لا يوجد تاريخ على الإطلاق ، فهو الكائن الوحيد الذى يملك هذا الوعى الفطرى الذى يساعده على أن يشق طريقه إلى التعمير الحضارى والتقدم الإنسانى . يقول هيردر فى كتابه « أفكار لتاريخ فلسفى للإنسان » إن التاريخ هو تحليل لكل العوامل التى تؤثر

فى الكيان المادى والروحى للإنسان ، ابتداء بالعوامل الجغرافية والبيئية حتى العوامل الثقافية والحضارية . وقد حاول هيردر أن يثبت أن الأحداث التاريخية ليست خليطاً من الفوضى والتشويش بحيث ينعدم أى معنى لها . ولكنها خاضعة لقوانين ضابطة لحركتها مثلها فى ذلك مثل الأحداث الطبيعية تماماً ، ولذلك فالمفتاح الحقيقى لكل موقف تاريخى موجود فى الظروف والملابسات التى أحاطت به ، وعندما نتمكن من الوقوف على تلك الظروف والملابسات وإدراك أبعادها ، فإننا نستطيع أن نلم بالعوامل التى أدت إلى حدوث الموقف بالصورة التى نراه عليها . ويرى هيردر أنه لا فرق بين ازدهار الورود فى الطبيعة وازدهار الحضارات فى التاريخ ، فالازدهار الطبيعى والحضارى نتيجة حتمية للعوامل التى أدت إليهما . والوعى بالتاريخ يوضح لنا أنه لم ولن يوجد الشئ أو الحدث الذى يبدأ من الفراغ أو العدم . ولذلك يؤكد السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« إننا حين نقول بأننا نواجه بعد أكتوبر مسئوليات مرحلة جديدة فى حياتنا فإننا يجب أن نسجل فى نفس الوقت أننا لا نبدأ من فراغ ، بل إن خلفنا تجربة غنية علينا أن نفحصها ، فنضع اليد على كل ما هو إيجابى فيها لنطوره ونضيف إليه . وعلى كل ما هو سلبى يعوق حركتنا فتخلص منه . . . »

إن شعبنا لا يمكن أن يكون قد خاض تجربة الهزيمة والنصر ، دون أن يستمد منها ما يغير به حياته نحو ما هو أفضل للغالبية العظمى من أبنائه . ولكن هذا التغيير يجب ألا يكون قفزة فى المجهول ، ولا عودة إلى الوراء ، ولا جهوداً مبعثرة فى اتجاهات متعارضة ، بل إن علينا أن نعرف على وجه الدقة أين نحن وإلى أين نسير . علينا أن نحدد أهدافنا ، ونبين معالم الطريق إليها على أسس صريحة ومحددة وواضحة . ولكى نحدد أين نحن وإلى أين نسير ، علينا أن نقف وقفة سريعة عند سؤال هام ، ربما كان شباب هذا الجيل بوجه خاص أكثر حاجة إلى إجابة واضحة عنه ، هو : كيف ننظر إلى الماضى ، وكيف ننظر إلى المستقبل ؟ » .

والسادات من المفكرين الذين يؤمنون أن الحضارة الإنسانية لا تتطور تطوراً عشوائياً أو عفويًا ، وإنما هى تعبير عن حركة الفكر التى تريد أن تشكل الواقع وتتحدد معه بتحويله إلى تجسيد لها ، فهى الجوهر والمظهر فى آن واحد وفى أكمل صورة لهما فى الوعى بالتاريخ حيث يتصل النشاط دائماً للإمام بالحقيقة ، فالوعى بالتاريخ هو مركز النشاط الفكرى المتجدد ونبع الفياض والحقيقة هى الكل اللامتناهى الذى نبتغيه ونسعى إليه ، وهى الحياة فى اتساعها وشمولها وإيهاها الذى يستعصى على كل فكر ، ويبدو أن عجزنا البشرى عن الإمام بهذا الكل اللامتناهى هو الذى يبقى جذوة الأمل المبدع الخصب حية فينا . والوعى بالتاريخ يستمر ويزدهر كلما توهجت هذه الجذوة ، والحضارات الإنسانية العظيمة بدورها كانت نتيجة لحدة وعى الإنسان بالتاريخ وحركته واتجاهاته بحيث انتقلت من مرحلة العفوية ، أو ما يسميه السادات « الجهود المبعثرة فى اتجاهات متعارضة » ، إلى مرحلة المنهج العلمى الذى يجمع الطاقات ويولد الإمكانيات ، ويحدد خط السير ، ويفوت كل فرص التشتيت والضيايع ، عن طريق التحليل والنقد والتوجيه . وفى هذا يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« إن تاريخ الأمم التى تتقدم هو التاريخ المتصل الحلقات ، وليس المقطع الأوصال . والأمم التى تتنكر لتاريخها ، ونضال أجيالها المتوالية ، أمم غير جديرة بترأثها ، فضلاً عن أنها تضع على نفسها الكثير من ثمار ما أنجزته ، ولا تدع للأجيال الصاعدة حافزاً كافياً للمضى فى الطريق ، وتحمل المسئوليات الجديدة . على أن هذا لا يمنع من التمعن فيما حدث بنظرة ناقدة فاحصة ، ولكنها نظرة النقد التزيه والتحليل الصحيح ، لا نظرة الحقد الذى يهدم ولا يبنى . وإذا كنا نحن فى مصر بالذات ، من الشعوب التى تعتر بتاريخها الطويل الفذ ، وبتميزه بعناصر الاستمرار التى صمدت عبر القرون للمحن والتقلبات ، واستوعبت كل الصدمات ، محتفظة بجوهرها الأصيل ، وصفاتها

الحضارية الراسخة . فنحن أولى أن تكون نظرتنا إلى تاريخنا هي نظرة تقييم الإيجابيات والسلبيات ، نظرة البناء لا الهدم ، والبدء من أرضية المكاسب السابقة التي حققها النضال الوطني للانطلاق إلى آفاق جديدة .

هذه هي فلسفة التاريخ عند السادات ، وقد حاول مؤرخو الغرب إثبات أن هذه الفلسفة بدأت عندهم بقولهم إن فولتير كان أول من صاغ هذه العبارة - فلسفة التاريخ - في القرن الثامن عشر وإن قصد بها التحليل النقدي للتاريخ . ثم تلاه هيردر عام ١٧٨٤ في كتابه « أفكار لتاريخ فلسفي للإنسان » . وتلاه هيجل في أوائل القرن التاسع عشر في كتابه « محاضرات في فلسفة التاريخ » وقد ألقاها عامي ١٨٢٢ و ١٨٢٣ ونشرت بعد وفاته . ولكن على سبيل التأصيل الفكري نجد أن المؤرخ العربي ابن خلدون كان أول من بلور فلسفة التاريخ في مقدمته الشهيرة . فهو ينظر إلى التاريخ على أنه ليس عرضاً لحوادث سياسية متعاقبة ، ولا سرداً لحياة الملوك ، بل ينظر إليه على أنه تسجيل لتطور الإنسان وانتقاله في مراحل ارتقائه على مدار العصور . فهو يتعقب الإنسان الذي انتقل من حالة البداوة إلى الأسرة ، إلى حياته في الدولة المتحضرة . ويعتبر ابن خلدون التاريخ جزءاً من الفلسفة ، ذلك لأن موضوعه « الحياة » بكل ما فيها من صور ، ومدرجات ، ووقائع ، وثقافات ، وحضارات . فعن طريق التاريخ يمكن أن نستجلي أعمال الناس ، وسبب تنازعهم ، وتناحرهم ، وإنشائهم جماعات ، ومدنيات ، وكيف يجدون في حياة الحضرة فراغاً لممارسة التفكير ، واكتساباً للعلوم الرفيعة ، وكيف تزدهر المدنية قليلاً ، قليلاً - ، من مبادئ بسيطة ، ثم كيف تتعرض للاضمحلال والزوال . وقبل مجيء هيجل بقرون عديدة ، استطاع ابن خلدون أن يربط التاريخ بالفلسفة بالدين ، فقد عرف ابن خلدون قانون السببية ، فالأحداث في العالم تجري وفقاً لقانون السببية ، وأن تسلسل الأسباب والمسببات لا بد أن ينتهي إلى علة أولى ، فلا يمكن أن يذهب التسلسل إلى مالا نهاية ، ومن هنا فهو يستدل بذلك على وجود الله . وفي مقدمة ابن خلدون نجد تعريفاً علمياً متقدماً للتاريخ ثبتت قيمته الفكرية على مر العصور ، يقول معرفاً التاريخ :

« إذ هو ظاهر لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى تنمى فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال ، وتطرف بها الأندية إذا خصها الاحتفال ، وتؤدي لنا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال . واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمرها الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات الحية ، ومبانيها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق . فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخلق » .

وطبقاً لابن خلدون فإن الوعي بالتاريخ يدرس الحضارة الإنسانية في امتدادها الزمني على الأرض وما يحكم هذه الحضارة من عوامل تسوقها وتدفعها أو تخطط ملامحها وهي عوامل تختلف عن تلك التي تحكم الطبيعة ، فالطبيعة في حركة دائرية مستمرة ومتكررة والقانون الذي يحكمها ثابت لا يتغير بتكرار حركتها أما الحياة الإنسانية أو التاريخ الإنساني فإن وقائعه لا تتكرر ولا تعيد نفسها أبداً وتتحرك على خلاف حركة الطبيعة الدائرية في شكل نمو أو تقدم وكل ما يبدو متكرراً هو شيء مختلف عن سابقه بما استحدث من جديد هو نتيجة الخبرات الماضية . ويرى السادات أنه لو حدث أن كرر التاريخ نفسه بالفعل لما كان هناك أي تطور حضارى ، لأن التكرار مضاد بطبيعته للتطور والتقدم ، وإذا بدا في الأفق أي تكرار فهو في « الظاهر » الذي تكلم عنه ابن خلدون . أما الفكر الكامن وراء هذا الظاهر فمختلف تمام الاختلاف ، فالتاريخ الإنساني هو تاريخ الفكر والوعي بالتاريخ لا يتناول الواقعة في حقيقتها المادية ولكنه يتمثل الحوافز والأفكار التي تدفعها وتحفزها ، ولذلك يمكن إرجاع الواقعة المادية إلى الطريق الصحيح إذا انحرفت لأنها تابعة للفكر وهذا يجعلها سلسلة القيادة طالما أن الفكر واضح ومتبلور . ومن هنا كانت حركة

التصحيح في مايو ١٩٧١ ، لأن مراكز القوى انحرفت بمسيرة الثورة عن خطها الصحيح . ولكن لأن السادات كان مدركاً تماماً لحقيقة الفكر الذى دفع وحفز لقيام الثورة فقد أعاد تصحيح المسيرة ، وبالتالي قضى على الانفصال بين فكر الثورة والوقائع المادية التى ابتعدت عنه . ولذلك يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« بهذا المعنى ، فإن ثورة ٢٣ يوليو المجيدة ، التى كان لى شرف النضال فى مراحل التمهيد لها ، وتحمل مخاطر إعلان قيامها ، والمشاركة فى مسئولية المعارك التى خاضتها ، كانت وستظل من أهم الأحداث التى غيرت وجه الحياة فى مصر منذ قرون . وإذا كانت الأجيال الجديدة تأخذ منجزات هذه الثورة وثمارها ومبادئها المستقرة مأخذ البديهييات السهلة ، فإن الأمر لم يكن كذلك عندما اختمرت هذه الثورة فى أرض مصر ، ومن ظروفها ، ثم انبثقت لتغير وجه الحياة فيها . . . وذلك كله فى وجه مخاطر وصعاب ، إذا كانت تبدو اليوم فى عين الأجيال الصاعدة هينة ، فما ذلك إلا لأن جيلاً سابقاً قد ناضل ضدها ، وواجه مخاطرها بشجاعة ، حتى دحرها . . . »

ولذلك يعتقد السادات أن حركة التاريخ هى حركة مفكرة ، ولا يمكن لأى مفكر أن يستوعب صورتها الخارجية التى تمثلها وقائع الإنسان وأحداثه ما لم يدرك الأفكار التى تكمن وراءها ، فإذا عن له أن يدون تاريخ ثورة ما على نظام فاسد ، فإن عليه أن يتبين آراء طرفى الصراع ونظرة كل منهما إليه فى الإطار الفكرى لكل فريق على حدة ، فالتاريخ كتاب يشرح للفكر هو عمل من أعمال الإرادة الإنسانية ، التى هى تفكير الإنسان متجسداً فى أعمال ووقائع ، فإذا بدت الأعمال والوقائع بعيدة عن الفكر المنطقى السليم فهذا يدل على عدم إدراك أبعاد الموقف الذى يتطلب نمطاً معيناً من التفكير والسلوك ، فالتفكير لا يدور فى فراغ وإنما هو تفكير فى موقف معين . وما من شخصية تاريخية إلا وتتخذ تفكيراً معيناً فى موقف معين على هدى الفكر الأصيل والمعاصر فى الوقت نفسه ، وإذا لم تفعل هذا فإن أعمالها تتحول إلى « جهود مبثرة فى اتجاهات متعارضة » على حد تعبير السادات نفسه .

ونظراً للارتباط العضوى بين التاريخ والفكر - وهو ما نسميه الوعى بالتاريخ - فإن التاريخ بدوره مرتبط بالمنطق ، فالانتقال من مرحلة تاريخية إلى أخرى ما هو إلا انتقال من مرحلة منطقية إلى أخرى تطرد فى سياق الزمن ، وما أحداث التاريخ إلا نسق منطقى تتسق فى ترتيبها وتسلسلها مع ما سبق منها وما لحق مع السياق الزمنى فى حتمية لا تستند إلى الواقع المادى بقدر ما تستند إلى الاستدلال الفكرى . فالوعى بالتاريخ ينهض على الفكر المنسق المجرد والتاريخ نفسه ما هو إلا وقائع تؤلف الإطار الخارجى للتفكير أما الأفكار التى تكمن وراءها - وليست الوقائع المادية ذاتها - فهى التى تؤلف نسقاً من المدلولات المجردة فى منطق محكم شديد . فإذا نظرنا إلى الوقائع المادية وحدها دون الأفكار المجردة التى تكمن وراءها فلن نجد أثراً للحتمية المنطقية التى تربط بين واقعة وأخرى فهى فى إطارها الخارجى مجرد وقائع ترتبط بالزمان والمكان ولا شئ سواهما ولكنها فى ذاتها ومكوناتها الداخلى أفكار تتسق مع بعضها فى علاقة منطقية محكمة ، وهذه العلاقة هى التى تجعل من السياق الزمنى وحدة لا انفصال فيها بين ماض وحاضر ومستقبل . ولذلك يقول السادات فى كتابه « القاعدة الشعبية » ص ٣ :

« لن نستطيع أن نغفل ما مضى من تاريخنا ، فلكى نعيش اللحظة التى نحياها اليوم ولكى نفكر فى وضع الطريق والوسيلة التى نطبق بها نظام الحكم فى المستقبل علينا أن نعود إلى تاريخنا ، علينا أن نعتبر بما مضى بنا من أحداث سواء كانت هذه الأحداث قبل قيام الثورة أو منذ قيامها إلى يومنا هذا . علينا أن نربط ماضينا بحاضرنا . . . وأن نخرج بالدروس التى نستطيع بها أن نبني مستقبلاً متحرراً من كل أخطاء الماضى . . . وفى الوقت نفسه يقوم على أسس متينة أهمها أن الشعب هو مصدر السلطات . »

والوعى بالتاريخ عند السادات يجب أن يكون على المستوى الفردى الخاص كما هو على المستوى القومى العام ،

فهذا الوعي هو قمة النضوج الفكرى الذى يجنب الإنسان التشبث والضياع والتكرار والتشويه . ولذلك يقول السادات فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » ص ١٢٨ :

« من عادتي أن أحتفل بعيد مولدى على غير ما تعود الناس أن يحتفلوا بأعياد الميلاد ، فأنا أركن فى هذا اليوم من كل سنة إلى الوحدة ، والتأمل ، التأمل فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، بل إننى أستعيد كل ما مضى من حياتى منذ أن بدأت أدرك الأشياء وأحس من حولى بهذا الكون . أستعيد كل شيء استطاعت ذاكرتى أن تخترنه أو تنفعل به ، وأستعرض موكب عمرى عبر السنين الماضية بكل ما فيه من مشاهد فيها الألم وفيها الفرح ، فيها اليأس وفيها الأمل ، فيها السذاجة وفيها النضج ، فيها الفشل وفيها النجاح ، فيها الخيبة وفيها اليقين ، فيها الخطأ وفيها الصواب . مشاهد فيها من كل ما يحيط بالبشر - فى هذا الوجود - من صروف وانفعالات ، وترانى يا بنى وأنا أستعرض هذا الموكب فى قمة النشوة وأوج السعادة ، فأنا أجد نفسى وأعرفها من خلال رحلة هذا الموكب . أعرفها فى الخطأ كما أعرفها فى الصواب ، وأعرفها فى الفشل كما أعرفها فى النجاح .

ومن وجد نفسه واهتدى إليها يا بنى فى خضم هذه الحياة طابت له الأيام ، وعمر قلبه اليقين ، واستطاع أن ينعم ضميره بالنور والصفاء هكذا أعيش يوم مولدى فى تأمل لذيدى يا بنى ، واستمتع فيه بأجمل وأشهى لحظات أعيشها على ظهر هذه الدنيا .

وهذا التأمل الهادئ الواعى العميق يوضح أن المعنى الكامن وراء الحدث أهم من الحدث ذاته ، فعلى الرغم من التسلسل الزمنى الذى يجعل الحدث يودى إلى الذى يليه ، فإن هذا التسلسل لا يعنى النمطية الرتيبة ولكنه يعنى التطور المطرد ، ولذلك يجب أن ننظر إلى الحدث فى ضوء ما قبله وما بعده وما حوله وفى الوقت نفسه نقيمه فى ضوء دلالاته الذاتية ، فن خلال العلاقة العضوية بين الحدث التاريخى كقيمة فى حد ذاته وبين السياق الزمنى الذى يتحرك خلاله ينتج لدينا ما نسميه الوعي بالتاريخ . وهذا ينطبق على تحليل السادات لثورة ٢٣ يوليو فى نفس الكتاب السابق ص ٧٢ :

« كتب لهذه الثورة ، ثورة ٢٣ يوليو ، أن تكون مدرسة قائمة بذاتها تختلف عما سبقها من ثورات . . وكتب لها أيضاً أن تكون حدثاً عالمياً لا فى تاريخ مصر وحدها ، وإنما فى تاريخ العالم أجمع . . إذ أصبحت هذه الثورة نقطة تحول - فى تاريخ البشرية - بين تاريخين : تاريخ أصيب فيه العالم بكوارث الاستعمار الذى عصفت بالقيم . . وأذل الشعوب . . واغتصب الأرض والرزق والمصير . . وتاريخ تحررت فيه البشرية لتحفظ للإنسانية قيمتها .

ولكى يؤكد السادات هذه الحقيقة التاريخية عملياً بدأ فى نشر سلسلة « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » مع أول عدد صدر من أعداد جريدة « الجمهورية » فى ٧ ديسمبر ١٩٥٣ ، وهى السلسلة التى نشرت بعد ذلك فى كتاب بعنوان « صفحات مجهولة » وأبرز فيها السادات المعنى المجرى الكامن وراء الأحداث المادية حتى يبرز الخلفية الفكرية وإلى أى مدى أدت إلى هذه الحتمية التاريخية . وهو فى هذا يتفق مع برتراند راسل فى أن الحدث التاريخى لا يفهم إلا إذا وضع فى سياق معين يتألف من الأحداث التاريخية سواء كانت متناقضة أو منسجمة مع الحدث . وعموماً فهذا التناقض أو الانسجام لا يرجع إلى طبيعة هذه الأحداث أو تلك ، إنما يرجع إلى تغير فى السياق الذى يوضع فيه هذا الحدث أو ذاك . ولونزنا حدثاً ما عن سياقه التاريخى ما أمكننا تقيمه موضوعياً . ومن هنا كان حرص السادات على وضع الثورة فى إطارها التاريخى لأن هذا من حق الشعب الذى يجب أن يعرف من تفاصيلها الدقيقة كل شيء حتى لا يحدث أى تناقض فكرى بين الثورة والشعب . ولذلك يقول السادات فى افتتاحية السلسلة فى جريدة « الجمهورية » فى ٧ ديسمبر ١٩٥٣ :

« هي صفحات مجهولة . . ولكنها ليست كل ما يجهله المصريون من صفحات . فدون نشر التاريخ الكامل لهذه الثورة أعوام يجب أن تمر ، تستقر فيها كثير من الأوضاع وتكمل فيها كثير من العناصر ، وينتهي فيها شقاء هذا الشعب الصابر المكافح من عدوان صارخ على حريته ، وبقايا آثمة أورتها أرضه قرون العبودية ، وأجيال الاستعمار .

إنها ثورة الشعب . . ولهذا فن حق هذا الشعب أن يعرف من تفاصيلها الدقيقة كل شيء . . وهي ثورة مصر . . ولهذا فن حق مصر أن تجد من يسجل لها على الورق ، عبرة جهادها ، وثمرة كفاح أبنائها ، ليحفظ لها في التاريخ عهداً من الكفاح تريده لتشتري به عزة وكرامة ومجداً وحياة وافرة أبية .

فالسادات يؤمن أن تسجيل تاريخ حدث كبير مثل الثورة يحتاج إلى مرور حقبة من الزمن تكفل للمؤرخ النظرة الموضوعية ذات الأبعاد المتعددة ، حتى يضعها في مكانها المناسب من سياق التاريخ الإنساني ككل . ولكن مهمة السادات هنا تتركز في بلورة المنهج الفكري الكامن وراء الثورة حتى يتسق فكرها مع وجدان الشعب ، وحتى لا يحدث من سوء الفهم أو الإدراك ما قد يؤدي إلى ثغرات أو كبوات أو نكسات تعوق المسيرة الثورية ، وبالطبع فقد كان قصد السادات من هذا ربط الجماهير بالثورة ، والثورة بالجماهير برابط عضوي حتى يفوت الفرصة على كل من تسول له نفسه توجيه المسيرة لصالحه الشخصي وأغراضه الأنانية . وكان إصرار السادات على هذا الاتجاه الجماهيري واضحاً في كل مراحل التأصيل الفكري عنده مما أدى إلى مواقف العداء السافرة التي اتخذتها منه مراكز القوى بطول مسيرة الثورة وحتى حركة التصحيح في مايو ١٩٧١ . فقد تعارض الوعي بالتاريخ - الذي ينادى به السادات دائماً - مع تزييف التاريخ الذي تهدف إليه مراكز القوى لكي تغطي به أغراضها الخفية التي لا تمت إلى الأهداف القومية بصلة . ولا شك أن أحسن وسيلة لخداع الجماهير تكمن في تزييف التاريخ عندما يقدم إليها تحت أضواء وألوان مضللة ، وبالتالي يمكن شحنها بحماس كاذب قد يدفعها إلى هوة رهيبية . وهذا ما حدث بالفعل في يونيو عام ١٩٦٧ ، وهو ما حذر منه السادات مراراً وتكراراً سواء في أحاديثه أو كتاباته . وقام بالتخلص منه عند توليه المسؤولية حتى لا تتعرض المسيرة إلى نكسات أخرى لا يحتملها التعمير الحضاري الذي يجب أن يسير بسرعة العصر . فوضوح الرؤية يعد أهم شرط لتقدم الأمة كلها ، وليس الظلام سوى الستار الذي يصنعه المغرضون من التزييف والتلوين والتلفيق والتشويه والتشتيت ، ثم يقومون بإسداله على أغراضهم . والوعي العميق بالتاريخ يلغي كل هذه العوامل الطارئة والظروف المصطنعة . ولذلك يقول السادات على صفحات مجلة « التحرير » في ٢٣ فبراير ١٩٥٤ :

« إن المستعمرين يحاولون أن يطلقوا حولنا سحباً من الدخان والضباب حتى لا نتبين طريقنا . . ولكن عيوننا التي ألقت مثل هذا الظلام ، تستطيع الآن أن تتبين السبل المألوفة العواقب ، وأن تتجنب ما يوضع في سبيلنا من عقبات وعراقيل . يقودنا إيمان بالله غير محدود ، وترشدنا عناية من الله لا تفشل . .

ومهما كثرت محاولات تزييف التاريخ ، وتميع المواقف ، وتشويه الشخصيات فلن يقف التاريخ عاجزاً أمامها ، فهو يحتفظ في جوهره بروح العدالة النابعة من الضمير الإنساني الذي حفظ للإنسان كرامته وسمعته على مر العصور ، وإلا تحول العالم إلى غابة لا تعرف أية قيم أو مثل أو ضرورات أخلاقية . فتلك المحاولات المفرضة ليست سوى فقاعات على سطح الموجات الهادرة لمحيط الإنسانية الحضاري ، أو مجرد بثور على جسم البشرية سرعان ما يسترد الجسم صحته وحيويته ومناعته فيلفظها في نهاية الأمر . فلا شك أن ضمير التاريخ الحي هو جزء لا يتجزأ من الضمير العام للإنسانية . وفي هذا المعنى كتب السادات في مجلة « التحرير » بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٥٤ يقول :

« نحن لا نعجب حين نرى بين ظهرائنا أفراداً يتخذون من ترويج الإفك والبهتان صناعة وتجارة ، فهؤلاء من ضرورات كل زمان وكل مكان . وهم لا ينسبون المثالب إلا للمبرئين منها ، وإلا كان عملهم غير ذى معنى . . . إنهم لا يتهمون اللصوص باللصوصية ، ولا المجرمين بالإجرام . ولكنهم يتهمون الأمناء بالسرقة ، ويتهمون الأشراف بالخسة ، ويتهمون المخلصين بالخيانة يريدون أن يجردوا كل ذى صفة عليا أسبغها الله عليه من نعمة الله ولكن التاريخ القديم ، والتاريخ الحديث ، يشهدان بأن كل إفك ، وكل اقتراء ، لا بد أن يفتضح أمره . « أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

والتاريخ لا يرحم في حكمه ولا يقبل الاستئناف ، فتى أصدر حكمه النهائي فإنه إلى الأبد . وأقوى ذاكرة عرقها البشرية هي ذاكرة التاريخ التي لا تنسى أية كبيرة أو صغيرة . وقد يظن بعض المغرضين أن التاريخ المصرى ينسى كثيراً بسبب هذا الشعب المصرى الذى من طبعه التسامح والعفو والصفح والصبر الطويل ، ولكن هذه نظرة قاصرة لأن هذه الصفات والطباع تعنى أن التاريخ يسجل بأسلوب موضوعى يضع كل حدث في مكانه الحقيقى من السياق التاريخى ، فالصبر الطويل لا يعرف الاندفاع ، ولا الحماس ، ولا الهياج ، ولا التشويه بل يترك الأمور تجري في أعنتها إلى نهاية المدى ، بعد ذلك يصدر حكمه الذى لا يقبل أى استئناف أو نقض أو إبرام . وعلى صفحات مجلة « التحرير » في ١٨ مايو ١٩٥٤ يبلور السادات حكم التاريخ على الساسة الذين تلاعبوا بمصير الشعب المصرى قبل ثورة يوليو فيقول :

« إن الشعب المصرى لن ينسى هؤلاء الساسة ما أزهدت سياستهم الخرقاء من أرواح ، وما أذهب غباؤهم أو خيائهم من ضحايا . . وإذا كانت ثورة الجيش قد عفت عن كثيرين ممن اقترفوا هذه الجريمة فلأن هذا الجيش جزء من هذا الشعب . . هذا الشعب الذى من طبعه العفو والصفح والصبر الطويل . وليعلم هؤلاء الساسة أنه إذا كانت الجريمة المدنية تسقط عن مرتكبها بعد انقضاء خمس سنوات ، فإن الجريمة الوطنية لن تسقط عن مرتكبها حتى يموت . . بل لن تتخلى عن الالتصاق به بعد موته . فهي تصحب ذكره إلى آخر الزمان » .

والتاريخ بالنسبة للسادات ليس مجرد فصول مروية أو أحداث مسجلة على الورق ، ولكنه نبض حى يراه في كل مصرى يقابله مهما اختلفت ثقافته أو عمره أو مستواه الاجتماعى . . إلخ ومن هنا كان احترامه وحبه للمواطن المصرى الذى تتجسد فيه مصر بكل أبعادها الشاسعة وأعماقها البعيدة . ففى سبتمبر عام ١٩٥٤ قابل السادات فلاحاً عجوزاً في قرية « بشتامى » المجاورة لدنشواى ، وعلى الرغم من بساطة الفلاح العجوز وطيبته ، فإن هذه البساطة كان تحمل تحتها أغواراً وأعماقاً تضرب جذورها في التاريخ الحديث والقديم على حد سواء . ولذلك يتكلم عنه السادات بمنتهى الحب والاحترام والتقدير في مجلة « التحرير » بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٥٤ فيقول :

« لم أكن أتوقع أبداً ، وأنا أناهب لزيارة دنشواى والقرى المحيطة بها يوم الجمعة الماضى ، أنى سألتقى ، هناك برجل يحمل في صدره كل تاريخ مصر ، منذ بدأ احتلالها . . وتتمثل فيه الشخصية المصرية العميقة ، التى لا يتزعزع إيمانها ولا تهددها الكوارث ، ولا تفقد الثقة أبداً بهذه الأرض ، وما كتبت من حياة ! . وراح الشيخ يحدثنى بكل ما ضم عليه صدره وكل ما وعته ذاكرته . .

حدثنى عن اليوم الذى دخل فيه الإنجليز مصر . . حدثنى عن أيام عربى وخيانات توفيق . . حدثنى عن يوم دنشواى الذى رآه بعينه . . حدثنى عن أيام السخرة في الحرب العالمية الأولى . . حدثنى عن كفاح الشعب ومظاهرات الشباب : وشهداء الحرية الذين كانوا يسقطون واحداً بعد واحد في ميادين الكفاح . . حدثنى عن الفلاح المصرى

الذى هب فجأة يثير الثورة ، ويلقى بنفسه فى آتونها . . حدثنى عن النساء والأطفال الذين شاركوا فى أعمال القداء والاستشهاد . .

وكان حديثه يأتينى كصدى بعيد لانفعالات كثيرة تعتمل فى أعماق نفسه . كأتى لم أقرأها فى كتاب ، ولم أر صورها فى صحيفة ، ولم أشهد بعضها بعينى رأسى . . ولم أشارك بنصيب متواضع فى لحظة من لحظاتها المقدسة ! فقد كان إيمان الشيخ يجمع فى نبراته بين الأسى العميق كلما تذكر أيام الشقاء ، وبين الفرح العميق أيضاً ، وهو يشعر أن أرضه قد تحررت أخيراً ، وأن الدماء الكثيرة التى رآها تروى أرضه المقدسة ، قد أنبتت اليوم شجرة الحرية الوارفة الظلال . . كانت نبرة غريبة لم أسمعها فى حياتى ، نبرة فيها الأسى والسعادة ، فيها البكاء والفرح . وفيها مع كل ذلك الإيمان . !

وعرفت مصر ، فى وجه هذا الرجل ، وفى صوته ، وفى عمق نفسه كما لم أعرفها من قبل قط . ! وعندما كنت عائداً رحت أفكر فيما قاله لى هذا الرجل ، وكانت دعواته الصالحة لا تزال تملأ أذنى وقلبى ، وتضئ على الطريق بهجة شاملة . . وخيل إلى أن الزرع الأخضر النامى على ضفتى الطريق ، والمياه المتدفقة من النيل العظيم ، والسما الصافية التى تظلل أرض مصر . . خيل إلى أن هؤلاء جميعاً يشاركون هذا الرجل فى الدعاء لمصر بأن يبارك الله لها فى شبابها وأن يصون لها حريتها ، وأن يمنحها الخير والبركة والرخاء . .

ولكن شيئاً آخر كان يهزنى هزاً . . ماذا نحن صانعون لهذا الرجل الذى تتمثل فيه مصر كلها ؟ ! ماذا نحن صانعون للفلاح الذى لم يعرف فى حياته غير الشقاء . . لقد ثرنا . . لقد أعدنا إلى الفلاح أرضه ، وحققنا للشعب حريته . . وبقى العمل العظيم . . بقى أن نهض جميعاً معاً لكى يرى هذا الرجل يوماً آخر عظيماً . . يوم يعيش المصريون الأحرار جميعاً فى عزة ورخاء . .

فالوعى بالتاريخ عند السادات ، لا يعنى مجرد الانفعال به ولكنه يعنى استيعاب أبعاده حتى يمكن استشراف آفاق المستقبل على أساس صلب من التاريخ والحضارة والأصالة والمعاصرة . فالانفعال العاطفى لا بد أن يتبع بالمنهج العلمى فى التفكير وإلا تبسدت هباء ، ولذلك بعد أن انفعال السادات بالإحساس التاريخى بكفاح أمتهم مجسداً فى هذا الفلاح العجوز ، بدأ فى التفكير العلمى والعمل فى الأسلوب الذى يمكن أن ينهض بهذه الفئة المطحونة وبالتالى يستطيع أن ينهض بالمجتمع كله . وإذا كان الوعى بالتاريخ فى سنى الحداثة والصبى يأخذ شكل الانفعال التلقائى العفوى فإنه فى مراحل النضوج والخبرة يجب أن يتشبث بالمنهج العلمى والتفكير العلمى والاتجاه العقلانى . ويتخذ السادات من حدث دنشواى التاريخى نموذجاً يعكس عليه انفعاله بالتاريخ فى طفولته وصباه ثم وعيه العميق بنفس التاريخ فى رجولته ونضوجه الفكرى . فن خلال حوار دار بينه وبين فريدة ابنة زهران شهيد دنشواى الشهير ، يوضح لنا السادات كيف يتحول الوعى بالتاريخ إلى قطعة حية من وجدانه ، ينصر فيها الماضى والحاضر والمستقبل ويجسد حياته كلها فى لحظة واحدة مكثفة . فى جريدة « الجمهورية » فى ٢٥ أكتوبر ١٩٥٤ يحكى السادات قصة هذا اللقاء فيقول :

« جلست « فريدة » تروى لى قصة اللقاء الأخير بينها وبين أبيها « زهران » قبل أن يقوده الإنجليز فى دنشواى إلى جبل المشنقة ، فقد كانت هذه هى أمنيتها الأخيرة التى طلبها كما هى العادة لمن يعدمون . . ولم أكن أستمع إلى هذه القصة لأول مرة ، وإنما أذكر أن قصة دنشواى قد عاشت فى عقلى وفى خيالى منذ الصغر .

فى ليالى الشتاء الباردة كنا نأوى مبكراً إلى « القاعة » حيث يكون القرن الذى يحتل ركناً قد أشاع الدفء فيها ، فنجلس نحن الأطفال إلى جلتى لنستمع بالقصص الحلوى الساذج الذى كانت ترويه لنا عن البطولة والأبطال ،

كلها قصص مستمدة من صميم كفاح هذا الشعب الذى يحس البطولة بنظرته الطيبة ، ويمجدها أروع تمجيد . . سمعت فى هذا المكان قصة كفاح عرابى ، وقصة استبداد الولاة الأتراك ، وقصة أدهم الشرقاوى ، وقصة المأساة الأليمة فى دنشواى .

هذا عن انفعال السادات بالتاريخ فى طفولته وصباه ، أما عن وعيه العميق به فى رجولته ونضوجه الفكرى فيتخلل فى المقتطف التالى من نفس المقال عندما يقول :

« ولكن أعجب ما عجت له هو ما قرأته بعد ذلك فى كتب التاريخ عن دنشواى . . فإن الكتب تحدثنا أن المحكمة العسكرية التى شكلت لإعدام هؤلاء الأبرياء كان رئيسها مصرياً ، وأن المدعى العام الذى طالب بإعدام هؤلاء الأبرياء تنفيذاً لرغبة قصر الدوبارة وقتذاك كان هو الآخر مصرياً . . والأعجب من ذلك كله أن الكتب تروى لنا أن صحيفة جمع صاحبها الملايين من قروش مصر ، وخير مصر خرجت تقول قبل انعقاد المحكمة فى دنشواى إن المشائق قد أرسلت فعلاً إلى هناك لكى تنفذ أحكام المحكمة التى لم تكن قد عقدت بعد . . . هذه الصحيفة هى « المقطم » الغراء . . إنها حقائق أليمة ، ولكننا يجب أن نذكرها دائماً ، فإن أشنع ما يصاب به شعب هو النسيان . . يجب أن نذكر هذه الحقائق ويجب أن نعلمها لأولادنا حتى لا يجهل اليوم الذى يستغل فيه أحد طيبة هذا الشعب ومسالته لكى ينكل به أو بحرياته أو يتلاعب بأرزاقه . .

ففى شعبنا اليوم مضللون ومخادعون وسيكون فى شعبنا غداً وبعد غد مضللون ومخادعون أيضاً ، وخير ضمان لنا لكى نتق شرورهم وضلالهم هو أن نستعمل عقولنا ونذكر ماضيها لنقدر حاضرها . . عندئذ نسير من انتصار إلى انتصار برغم أنف أولئك المنافقين .

هذه هى الوظيفة الحيوية للوعى بالتاريخ عند السادات . فالشعب الذى ينسى ماضيه وتاريخه بسهولة ، شعب ساذج من السهل التضليل به وإقحامه فى معارك لا ناقة له فيها ولا جمل ، بحيث تضيع مجهوداته ومعنوياته واقتصادياته هباء ، ويفقد القدرة على وضوح الرؤية ، والسير فى الطريق الصحيح صوب التعمير الحضارى والمعيشة الأصيلة لمقتضيات العصر . فالوعى بالتاريخ هو ذاكرة الشعب ، ولا يمكن لشعب أن يعيش إذا فقد ذاكرته ، ونحن نعلم كم هى مأساة رهيبة أن يفقد الفرد ذاكرته ، فما بالنا إذا فقد الشعب كله ذاكرته ، فإن هذا سيكون المأساة التى ليس بعدها مأساة أخرى . وقد تعلم السادات هذه الحقيقة منذ نعومة أظافره على يد أستاذه الحبيب جدته . فهى التى غرست فى وجدانه الانفعال بالتاريخ فى طفولته ثم الوعى به فى شبابه المبكر ، وبذلك تحول التاريخ فى نظره إلى نبض حى متجدد من خلال شخصها ، فإذا أضفنا حبه العميق لها ، أدركنا إلى أى مدى بلغ تعلقه بكل ما ترويه من أقاليم وأحداث تاريخية وانفعاله بها انفعالا شاكل نظره إلى مصر وتاريخها الحديث والقديم على حد سواء .

ومما كان يلهب خياله فى طفولته أن عم جدته كان فارساً من فرسان جيش عرابى ، وبذلك دخل التاريخ بنفسه فى عائلته ، أو بمعنى آخر دخلت عائلته التاريخ ، فلم يكن بالنسبة له شيئاً مجرداً بل كان جزءاً من تراث العائلة نفسها . يحدثنا السادات عن تأثير جدته فى حياته فى كتاب « يا ولدى هذا عمك جمال » فىقول ص ٢٦ :

« وأحاديثها لم تكن للتسلية فقط يا بنى . . وإنما كانت دروساً وعبراً . أول ما حدثتني يا بنى . . كان ذلك عن عمها الذى كان ضابطاً فى الجيش المصرى ، أيام ثورة عرابى سنة ١٨٨٢ التى انتهت بالاحتلال البريطانى لمصر فى تلك السنة . . إننى أذكر كيف كانت تحكى لى ، وفى عينها بريق ، وحماس عجيبان فقد فوجئت القرية الوداعة فى يوم بدخول فارس على جواده ، يركض فى سرعة رهيبة ، ثم لم يلبث أن احتوته القرية .

وكان الناس وقتذاك مفتونين بعرابى . . ذلك الضابط المصرى الفلاح ، الذى تحدى الخديو التركى ، من

أجل الضباط المصريين . . ثم من أجل إقامة حياة ديمقراطية يتولى فيها الشعب أموره بنفسه . . وكانت دعواتهم له بالنجاح حارة . . ومن كل قلوبهم ، خاصة وأنهم عرفوا أن الخديو الخائن قد استنجد بالإنجليز الأجانب . .
 وحين دخل هذا الفارس في سرعتة الرهيبية . . اندفعت الجموع من خلفه . وبخاصة أنه كان يرتدى ملابس الضباط . وكانوا جميعاً في شوق إلى سماع الأنباء عن جيشهم الذي يحارب من أجلهم . . وعن عرابي بطلهم وأخذوا يندفعون من شارع إلى عطفة ، ومن عطفة إلى حارة ، وراء ذلك الفارس الجامح . . وفي كل لحظة ، ينضم إليهم فوج جديد ، بحماس جديد . إلى أن فوجي هذا الجمع بالحصان والفارس وقد سقطا على الأرض في منعطف ضيق . .
 وكان الحصان من فرط لهُته وتعبه ، يرقد ممدداً على الأرض . . والفارس ملقى إلى جواره ، ودماؤه تتزف بغزارة . وعلى الفور تعرف الناس على الضابط الفارس . . وهو ابن بلدهم . . وقد كان على قيد خطوات من منزله . . فنقلوه إليه . . أما الحصان فإنه لم يلبث أن مات بعد دقائق قليلة .

كان الفارس كما روت جدتي . . هو عمها الذي كان يعمل ضابطاً في سلاح الفرسان في الجيش المصري . وقد روى للأهل والأصدقاء قصته ، بعد أن ضمدوا له جراحه ورشوا وجهه بالماء . .

وسرعان ما ينتقل السادات من اللوحات الشخصية العائلية للحدث إلى اللوحات التاريخية القومية له ، فالوعى بالتاريخ يحتم عليه هذه النظرة الشاملة التي تحيل مجرد الانفعال والإثارة البطولية إلى شحنة داخل الوعي بالتاريخ القومي ، وهذا يساعد بدوره على التأصيل الفكري للحدث وربطه بالوجدان العام للأمة ، بدلا من أن يصبح مجرد حدث منفصل يروى لمجرد التسلية والتفاخر وترجية وقت الفراغ . ولذلك يقول السادات عن قصة عم جدته في الكتاب نفسه ص ٢٧ :

« وكانت قصته . . هي قصة الجيش المصري الذي قاتل في الإسكندرية وكفر الدوار سنة ١٨٨٢ بقيادة عرابي . . وصد الغزاة الإنجليز . . وعندئذ تحولوا إلى قناة السويس . فدخلوا منها بالتآمر مع ديلبس . . وتسلبوا بالخيانة والغدر إلى مصر ، في الوقت الذي كان ديلبس يطمئن فيه عرابي بأن القناة لن تستخدم في غزو مصر . . مما جعل عرابي يعدل عن تعطيها ، احتراماً منه لكلمة ذلك الأفاق » .

ولقد كان هدف السادات أساساً من تأليف كتابه « يا ولدي هذا عمك جمال » هو بث الوعي بالتاريخ القومي في نفوس الجيل الجديد الذي ترعرع مع الثورة ، حتى يتسلح بالوعي الكافي الذي يجنبه الوقوع في أخطاء ما قبل الثورة . فهو يوجه الكتاب إلى ابنه جمال الذي ولد في أثناء العدوان الثلاثي على مصر في نوفمبر ١٩٥٦ ، وبهذا يمثل ابنه جمال كل الجيل الجديد الذي لم يعاصر مخازي ما قبل الثورة . ولذلك يوجه إليه حديثه ص ٣٨ فيقول : « هذا التاريخ يا بني . . هو ما سأرويهِ لك في الفصول القادمة لكي تعرف أنت والجيل الذي تنتمي إليه قصة الصراع الجبار بين الحق والباطل . . وبين المثل العليا والانحلال . . وبين شعب أعزل إلا من الإيمان بحقه وسيادته ، والاستعمار المتجبر المغرور بقوته وجبروته » .

ويوضح السادات أن الشعوب هي التي تكتب التاريخ الحقيقي وتسجله ، وإن كانت هذه الظاهرة غير واضحة تماماً في العصور الماضية عندما سيطر الاستعمار والاستبداد والطغيان والديكتاتورية ، فإنها تبدو واضحة لكل ذي عينين في عصرنا هذا . فهو عصر الشعوب والأمم أكثر منه عصراً للقادة والزعماء والحكام بأمرهم . والوعي بالتاريخ لم يعد مهمة الحاكم أو المؤرخ فقط بل أصبح من اختصاص كل فرد يعتز بوطنيته وقوميته وشخصيته . كان التاريخ في الماضي مجرد تسجيل لغزوات الفاتحين ، وإنهيار الإمبراطوريات وسقوط الطغاة ، ونزوات الحكام ، وأطماع القادة ، ورغبات الملوك ، ونوادير رجال البلاط ، وغراميات النبلاء ، ومغامرات الأمراء ، ومآثر الأشراف . . إلخ ،

أما الشعوب فكانت مجرد المداد الذي يسجل به الحكام صفحات أمجادهم أو مخازيهم . ولم تكن ثورة سبارتا كوس العبد الروماني إلا ثورة ضد هذا الوضع المهين للشعوب المستعبدة . ولكن كانت هذه الثورة بمثابة النشاز المعارض لنظم الحكم التي تعتمد على سيطرة فئة معينة تشتترط في الحاكم أن ينتمى إليها لكي يلبي لها كل رغباتها ، ويرعى كل مصالحها بصرف النظر عن مصالح الفئات الأخرى الممثلة للأمة ككل . وكان من المستحيل للتاريخ أن يستمر على هذا المنوال لأنه مخالف لقانون فعل الكتلة ، هذا القانون الكيميائي الذي ينص بأن اتجاه التفاعل الكيميائي يتأثر طبقاً لكمية الكتل المشتركة فيه ، بمعنى أنه إذا كانت كتلة المادة المشتركة في التفاعل كبيرة بالنسبة لكتل المواد الأخرى فإن اتجاه التفاعل يأخذ شكلاً مغايراً عما لو كانت تلك الكتلة أقل من الكتل الأخرى المشتركة معها في التفاعل . وإذا طبقنا هذا القانون الكيميائي على التاريخ الحديث وجدنا أنه يتمشى معه تماماً من حيث إن الكفة الراجحة هي لكتلة الشعوب إذا قورنت بكفة الحكام ، حتى هتلر الذي حاول إثبات عكس هذا القانون بالتأكيد على أن الحاكم المستبد هو مصدر السلطات والقرارات ، وهو الذي يخطط مصير الأمة ، بل مصير الأمم بيده ، نجد أن الدوائر دارت عليه أخيراً وانتصرت الأمم والشعوب وتحول هتلر إلى مجرد مجرم حرب .

ودروس التاريخ هذه تحتم على الشعوب أن ترتفع بوعيا إلى أعلى درجة ممكنة حتى لا يفلت الزمام من يدها ويتحكم فيها مجنون مثل هتلر ، وهذا الوعي بالتاريخ ضرورة لا محيص عنها وبخاصة في فترات التطور الحاسمة التي قد تؤدي فيها هفوة حاكم ، أو نزوة ديكتاتور إلى كارثة قومية تنزل بالأمة بأسرها وليس بشخص الحاكم وحده . فالحاكم الذي يحكم شعباً واعياً بتاريخه وقوميته وحضارته ، لا يمكن أن يسوقه على هواه إلى حيث يشاء هو ، فسيجبره الشعب الواعي على أن يعمل له ألف حساب قبل أن يتخذ أي قرار ، وسيجبره أيضاً على أن تنهض كل قراراته على أساس من المنهج العلمي ، والدراسة الموضوعية ، والبحث القائم على استقراء التاريخ الماضي والمعاصر على حد سواء ، وبذلك لن يتمكن الحاكم من أن يقدم إلى شعبه مائدة من الأبحاث الوهمية ليجترها ليل نهار ، فالوعي بالتاريخ قادر على كشف كل محاولات التضييل والخداع والتريف والتلوين والتشويش والإيهام ، وذلك بالوقوف دائماً على أرضية صلبة من الواقع المعاش . ولذلك يقول السادات في كتابه « يا ولدي » ص ٤٠ :

« إنني أكتب لك يا بني هذه الصفحات وأنا أحس أننا نعيش اليوم في فترة تطور حاسمة من تاريخ العالم ، لن تراها يا بني . . ولكنك ستقرأ عنها . . وسيتخذ منها المؤرخون ، نقطة انطلاق تسجل بدء تاريخ جديد لهذا العالم . . تاريخ جديد في كل شيء . . وأخطر شيء في هذه الحقبة . . هو أن الشعوب اليوم ، هي التي تملئ هذا التاريخ وتكتبه بإرادتها ، وكفاحها ودمائها . . بعد أن كان يكتبه أولئك الكبار بالقهر والسلب لإرادة الشعوب . . ولن نستطيع قوى أولئك الكبار بعد اليوم ، أن تقهر إرادة الشعوب ثانية ، مهما كانت هذه القوى . .

لقد استيقظت الشعوب . . وحطمت ذلك الستار الحديدي الذي فرض على حدودها وعلى ضمائرنا ، وعلى أرزاقها ومقداراتها . . وأصبحت الشعوب لا تؤمن بغير التعايش السلمي ، من غير أن يتدخل أحد في شئون الآخر أو يسلبه رزقه أو أرضه . . عالم مختار فيه الشعوب ما تريده لنفسها من نظم بملء حريتها . . عالم لا تحرق فيه المحاصيل في بلد ، ويموت من الجوع الملايين في البلد الآخر . . عالم لا يفرق بين الجنس أو اللون أو العقيدة . . ولا يعترف بسيادة لون أو جنس على الآخرين . . عالم لا يرث أحقاد القرون الماضية التي فتكت بالبشرية وسببت الحروب . . عالم يستأصل الاستعمار من جذوره . . لأنه وراء الأحقاد والشرور والحروب والقلق الذي يشقى الإنسان . .

ففهوم الوعي بالتاريخ عند السادات يعني ضرورة التأكيد على إيجابيات الماضي ومنحها القدرة على الاستمرار والتكيف ، هذا مع حتمية التخلص من سلبات الماضي ورواسبه وصراعاته وأحقادها التي لا طائل من ورائها . بهذا

يتضح لنا المفهوم التاريخي لمنهج التأصيل الفكري ، وهو المنهج الذي طبقه على كتاباته بصفة عامة ، وعلى كتبه بصفة خاصة كما نجد في كتبه التي تبدأ بكتاب « صفحات مجهولة » عام ١٩٥٥ ثم « أسرار الثورة المصرية » ١٩٥٧ ، فكتاب « قصة الوحدة العربية » في العام نفسه وكذلك كتاب « يا ولدي هذا عمك جمال » ثم كتاب « القاعدة الشعبية » ١٩٥٩ وأيضاً كتاب « معنى الاتحاد القومي » ، فكتاب « قصة الثورة كاملة » ١٩٦١ ، ثم كتاب « نحو بعث جديد » عام ١٩٦٣ . فكان الهدف الأول من كل هذه الكتب هو الارتقاء بمستوى الوعي بالتاريخ لدى العالم العربي عامة ، والشعب المصري خاصة . فهذا هو أعظم سلاح يمكن أن يتسلح به الشعب ضد كل المفرضين والمزيفين والانتهازين والمستغلين والمضللين والمخادعين . ولذلك يقول السادات في مقدمة كتابه « قصة الثورة كاملة » ص ٥ :

« كنت أكتب وأروى للشعب قصة ثورتنا ، وفي كل مرة كنت أسرد للشعب - وليس لغيره - حقيقة واحدة ، وهي أن الثورة لم تقم إلا من أجل شيء واحد . . من أجل أن يحكم الشعب نفسه بنفسه . . ورويت للشعب كل الحقائق . . قلت إن الثورة ألغت الأحزاب ، وأسقطت الدستور لأنها ثورة وليس انقلاباً . . ثورة تستهدف إقامة نظام ديمقراطي صحيح ، لانظام مزيف يقوم على الخديعة والتغريب بالشعب ، حتى يتمكن المزيّفون والمستغلون والمضللون من نهبه والسيطرة على حياته . نحن لم نكن نريد البطش بالشعب بل بأعدائه . . ومضيت في حلقات عديدة أروى للناس في مصروفي خارج مصر حكايتنا » .

وعنصر المقارنة بين الماضي والحاضر في مفهوم الوعي بالتاريخ عند السادات عنصر مهم للغاية ، ليس على سبيل التفاخر سواء بأعجاد الماضي أو الحاضر ، ولكن من أجل الاستيعاب الشامل لمجرى التاريخ القومي بكل سلبياته وإيجابياته . فقد ذهب إلى الإسكندرية في ٢٦ يوليو ١٩٥٤ للاحتفال بالذكرى الثانية لخلع الملك فاروق ورحيله عن البلاد . ومناسبة مثل تلك كافية لتقديم مادة خصبة لكتابة مقال طويل عنها ، ولكن السادات لم يكتف بإلقاء الأضواء على الحاضر بل أصر على ربطه عضوياً بالماضي لتأكيد الأصالة الفكرية والقومية عند الشعب المصري سواء قبل الثورة أو بعدها . لذلك يستعرض الوضع الجديد للبلد في بدء المقال الذي كتبه في جريدة « الجمهورية » بهذه المناسبة ، ثم يتبع جذور هذا الوضع الضاربة في الماضي فيقول :

« كان انتقام الإسكندرية لنفسها رائعاً ، برغم انقضاء فترة طويلة على ما لحقها سنة ١٨٨٢ . . ففي يوليو بالذات من تلك السنة - أي منذ سبعين عاماً على التحقيق - التجأ توفيق الخائن جد فاروق المستهتر إلى سراي رأس التين طالباً حماية الإنكليز . . وسرعان ما جاءت هذه الحماية على صورة بشعة دامية ، فانطلقت مدافع الأسطول الاستعماري البريطاني تدك قلاع الإسكندرية وحصونها وتفتك بالأبرياء من أبنائها في مجزرة رهيبة ، حارب فيها أهل الإسكندرية ببسالة خالدة برغم أنهم كانوا عزلاً . . ومع ذلك لم يتصبر الخديو وحماته المستعمرون إلا بالخيانة . . توالى منذ ذلك التاريخ خيانات الخديو وعائلته من بعده ، وبكت مصر مرتين . . مرة عندما ضربوا الإسكندرية ثغرها الحبيب . . ومرة أخرى حينما استعرض توفيق جنود الاحتلال في قلب القاهرة عاصمة البلاد . .

واليوم شاءت إرادة الله أن ترد الإسكندرية الصاع صاعين . فقد شاهدتها من مكاني تقذف فاروق حفيد توفيق إلى عرض البحر . . شاهدت قلاعها وحصونها تقف في أنفه شامخة ، وتضحك في سخرية من ذلك الهارب الجبان . . حينما بدأت أول خيوط الظلام أخذت أطوف الميناء . . فقد امتلأت أذناي ورأسي بأناشيد مدوية ترتفع إلى السماء هاتفة بشهداء الإسكندرية وشهداء البلاد : إن تضحياتكم لم تذهب سدى . . فسلام عليكم في الأبرار والصدّيقين ، وهنيئاً لأرواحكم بنصر اليوم المبين » .

والمقارنة نفسها بين الماضي والحاضر تعود تلقائياً إلى ذهن السادات عندما ذهب في زيارة إلى القنال في أغسطس عام ١٩٥٤ لتفقد عمليات الجلاء البريطاني عن مصر، فهو لا يستطيع أن يرى الحاضر إلا في ضوء الماضي والماضي في ضوء الحاضر حتى تكتمل أبعاد الصورة التاريخية. يقول على صفحات «الجمهورية» في ٤ أغسطس ١٩٥٤ :

« كنت أردد في خيالي ووجداني . . ترى ماذا أنا فاعل اليوم وقد صممت على أن أرى كل شيء وألمس كل شيء . . هل سيكفيني النهار . . ؟ ولم يطل بي هذا التفكير ، فقد عادت بي الذاكرة إلى أول مرة زرت فيها تلك القاعدة ، بل لم أزرها وإنما دخلتها محارباً وأنا ملازم ثان سنة ١٩٣٨ ، وكانت قد صدرت إلينا الأوامر في ذلك الوقت باتخاذ معسكر في فايد لكي تم تدريبنا بإجراء المناورات النهائية هناك ، على أن تشترك معنا في تلك المناورات قوات من المشاة البريطانية ، تمثل عدواً وهمياً وأذكر أنني اتخذت لكي يتتنا المعسكر في حوض جبل يسمى « البرغوت الكبير » . وعدت أذكر بعد ذلك كيف توالى الأحداث ، بعد أن أجرينا تلك المناورة وعدنا إلى ثكناتنا في القاهرة ، وانتهت تلك الأحداث على يد « كيلرن » المشهور جداً في مصر ، وعلى يد تجار السياسة في بلدنا . . أقول انتهت تلك الأحداث بأن أصبح ذلك العدو الوهمي في المناورة ، عدواً حقيقياً على الطبيعة » .

وضرورة الاستفادة من دروس الماضي تأتي من أن تحديد الهدف لا ينشأ من التطلع إلى الأمام بل من النظر إلى الوراء ، فنحن نعرف كل الأبعاد الواقعية للماضي ولا ندرك من المستقبل سوى آمالنا وتطلعاتنا ، والمستقبل - كما سبق أن قلنا - هو الامتداد العضوي للماضي ، ودراسة الماضي هي التي تشكل الأبعاد التي سيتخذها المستقبل ، وبذلك يمكننا القول إن الشعب الذي لا يعرف ماضيه لا يمكن أن يستكشف مستقبله . فالتاريخ ليس زمناً مطلقاً أو وجوداً أجوف يتحقق بذاته بمعزل عن الأشياء والأشخاص والأحداث ، وإذا كانت هناك ثمة حتمية تاريخية في مفهوم السادات للوعي بالتاريخ فهي الحتمية التي تؤكد تأثير المستقبل بالماضي بطريقة أو بأخرى . فالتاريخ مجموعة من الظواهر التي تتمثل في الأحداث أو الشخصيات أو في هذه وتلك مجتمعة ، ولكن هذه الظواهر لا تكون تكوناً ذاتياً ، بل هي دائماً نتيجة حتمية لمجموعة من الأسباب الروحية والمادية . فالأسباب الروحية تتمثل في الطريقة التي يتكون بها وجدان الشعب تجاه حدث ما ، أما الأسباب المادية فهي مؤثرات البيئة الطبيعية بما لها من خصائص متباينة تختلف من بيئة إلى أخرى ، وتؤثر تأثيراً ملحوظاً وملحوساً في بروز ظاهرة أو مجموعة من الظواهر المعينة ، كما تشارك أيضاً في صنعها . وبذلك تصبح البيئة الطبيعية طرفاً في صنع التاريخ ولأن لكل بيئة طبيعية خصوصيتها فإنها تشارك في صنع تاريخ له مواصفاته الخاصة به . ونتيجة لهذه الحتمية التاريخية ، يصبح من الخطأ محاولة فهم الظاهرة التاريخية بمعزل عن بيئتها الطبيعية . ومن هنا كان من العسير وجود تاريخ مطلق ، أو تاريخ عام ، أو في ذاته ، بل هناك تاريخ خاص مرتبط بأسباب وظروف بيئية معينة ومرتبطة في نفس الوقت بتاريخ البيئات الأخرى سواء من قريب أو بعيد .

كذلك تلعب الأسباب الروحية والمعنوية دوراً كبيراً في تشكيل الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، أي الوضع الحضاري بصفة عامة . والفرق بين الأسباب المادية والأسباب الروحية ، أن الأولى تفرض نفسها على الإنسان دون أن يكون له حرية الاختيار في صنعها أو في التأثير فيها ، ولذلك نستطيع القول أن الإنسان الذي ينشأ في بيئة متقدمة لا بد أن يختلف في كثير من الخصائص عن الإنسان الذي يولد في مجتمع متخلف . هذا من ناحية الأسباب المادية ، أما من جهة الأسباب الروحية فهي المحرك الرئيسي للانتقال من حالة التخلف إلى حالة التقدم ،

فهى الأسباب التى تؤكد ضرورة الإرادة الإنسانية وحريتها فى تشكيل مصير الإنسان ، فهى شديدة الارتباط بالإنسان نفسه لأنها تنبع من داخله وليست مفروضة عليه من الخارج كما هى الحال بالنسبة للأسباب المادية . فالإنسان طرف مشارك فى الأسباب الروحية بالضرورة ، ولا قيام لها بدونه . إنها تؤثر بالفعل فى الإنسان ولكنه يؤثر فيها بدوره . ولذلك فالإنسان - عند السادات - هو العنصر الفاعل المفضل دائماً فى هذا الوجود ، ولذلك لا وجود للتاريخ بدونه ، فالتاريخ أول الأمر وآخره هو تاريخ الإنسان ، الإنسان بصفته الخاصة المتعينة وليس بصفته المطلقة المجردة . ولذلك يتمثل التاريخ عند السادات من خلال أشخاص معينين بالذات عايشهم واستمع إليهم وأثر فيهم وتأثر بهم ، كذلك الوضع بالنسبة للأمكنة ، فإن دلالتها تتركز فيما توحى به من ذكريات ولحاحات تاريخية . وقد لمسنا هذا فى زيارة السادات لكل من دنشواى والإسكندرية والقنال . فقد تعود السادات أن يقرأ التاريخ فى الأشخاص والأمكنة والمواقع قبل أن يقرأه فى الكتب التى غالباً ما تكتب من وجهات نظر خاصة قد لا تخلو من الغرض . ويؤكد السادات هذا الاتجاه فى فكره فى حديث له إلى مجلة « الإذاعة » فى ٢٥ يوليو ١٩٥٩ :

« أول كتاب زرع الثورة فى نفسى ، لم يكن كتاباً بالمفهوم الذى نعرفه عن الكتاب ، وإنما كانت أحاديث تلقيها جدتى فى أذنى ونحن نستلقى فى ليل الشتاء الطويل على القرن فى قاعة دارنا بالريف . . كنت يومها طفلاً صغيراً ، لا أنام قبل أن أسمع حكاية أو حكايتين عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال . . إلا أن جدتى شاءت أن تخرج هذه الحكايات بحكاية خالدة عن قرية لا تبعد إلا قليلاً عن قريتنا ، هى دنشواى ، وكانت رواية جدتى رحمها الله عن قصة دنشواى ، عبارة عن زجل جميل يتاجون فيه « زهران » ذلك البطل الذى ضربوه بالسياط ، ثم شنقوه أمام القرية بأكملها . . ولابد أن جدتى قد حضرت هذا الذى جرى ، فقد كانت فى حديثها تنفعل أشد الانفعال ، وتحكى عن بطولات « زهران » وكأنما هو الفارس الأول ، ورمز كل شجاعة وكل إقدام . ثم تنتهى القصة بذلك الغدر اللئيم الذى ارتكبه بريطانيا أمام أعين أهل القرية الوداعين .

هذا كتاب . . وهناك كتاب آخر . . صديقى عبد الحكيم الجراحى ، فقد نشأنا طفلين فى كوبرى القبة ، نلعب ونلهو ونسمر كما يسمر الأطفال فى مثل أعمارنا . . كانت الدنيا كلها أمامنا أملاً وإشراقاً وابتسامة إلى أن جاء ذلك اليوم الذى ارتحل فيه عبد الحكيم عن شلتنا لكى يكمل تعليمه فى الخارج ، ثم عاد فجأة ، بعد أن عدل عن الاستمرار فى تعليمه بالخارج ، لكى يتمه فى كلية الآداب بجامعة القاهرة . وفى يوم مشوم خرج عبد الحكيم مع المظاهرات التى خرجت تنادى بالاستقلال ، وبحقنا فى الحياة ، فصرعته رصاصة كونستابل إنجليزى . وهناك كتب كثيرة أخرى قرأتها فى معركة كفر الدوار ، ثم فى معركة القناة ، وقرأتها أيضاً بعد أن تخرجت فى الكلية الحربية وانتظمت فى الجيش على يد البعثة العسكرية البريطانية ، تلك البعثة التى أرسلوها ، لا لكى تعلمنا أو تدرّبنا ، وإنما لكى تخضعنا ، ولكى تذلتنا . . ونحمد الله أن هذه المعركة انتهت بتشكيل تنظيم الضباط الأحرار ، الذى كان كتاب البعثة البريطانية ، من أول ما دعا إليه . »

ولهذا يؤمن السادات أن كل ظاهرة تاريخية تتعلق بمجموعة من الشروط الموضوعية كى ندرك كل أبعادها ، وأن توافر هذه الشروط يلغى وجود عنصر الصدفة تماماً ، فالتسليم بمبدأ الصدفة يعنى تقطيع السلسلة التاريخية إلى حلقات منفصلة لا رابط بينها ولا علاقة من أى نوع . وبذلك يفقد التاريخ الإنسانى معناه لأنه ينهض أساساً على مبدأ العلية . ومبدأ الصدفة نفسه لا يستند إلى أى تفسير علمى أو منطقى ، وبديهى ألا يكون له تفسير ، لأنه لو أمكن تفسيره فلن تصبح الصدفة صدفة على الإطلاق . ولهذا يظل القول بالصدفة ممكناً دائماً فى غياب التفسير . وهذا

يحدث فقط عندما لا نرى سوى ظاهر الأمور ، ولكن إذا تعمقنا التحليل والدراسة سنجد أن هناك مجموعة من العوامل المتشابكة ، والأسباب المتسلسلة ، والدوافع المترابطة هي التي أدت - طبقاً لمبدأ العلية - إلى ما نطلق عليه - ظاهرياً فقط - إصطلاح الصدفة . ومن هنا كان رفض السادات لمبدأ الصدفة ، لأنه مبدأ لا يستقيم مع المنهج العلمي ولا يخضع للتفسير المنطقي . وهذا الوعي بالتاريخ يلغى النظرة الغيبية إلى التاريخ بشخصياته وأحداثه وظواهره ويدعم النظرة العلمية التي تخضع كل شيء للبحث الموضوعي والتحليل المنهجي والتعليل المنطقي فليس هناك شيء يحدث مصادفة ، حتى وإن بدا الأمر كذلك في بعض الأحيان . ولذلك نظر السادات إلى معركتنا مع إسرائيل على أساس أنها مخطط عام تقوم به القوى المعادية للحرية والتقدم وحركة التاريخ بصفة عامة . وبلا شك فإن مفهوم المخطط لا يحتمل في طبيعته أي حساب لعنصر الصدفة ، فالمسألة تعتمد أساساً على الحساب الذي لا يحتمل أية تخمينات أو تأويلات . ولذلك يقول السادات في مائدة العشاء للرئيس تيتوفى ١٤ فبراير ١٩٧١ :

« لم نخش في كل ما قمنا به ، وما اتخذنا من قرارات غير شيء واحد هو أن بتصور أعداؤنا وأصدقائهم خطأ أننا نخشى المواجهة المسلحة إذا أصبحت لازمة أو تتردد دونها إذا كانت هي الملجأ الأخير . لهؤلاء جميعاً نقول أمامك : لا تخطئوا في الحساب . . . إننا قادرون على خوض المعركة . . . قابلون لجميع تضحياتها وتكاليفها . . . واثقون أن التطور التاريخي يتحرك لصالح كل ما ندافع عنه إيماناً به . . . معتقدون أننا لسنا في المعركة وحدنا . . . ذلك لأن ما نواجهه هنا على الأرض العربية هو جزء من مخطط عام تقوم به القوى المعادية للحرية والتقدم ، بينما هي تشعر بحصار التطور والتاريخ لمطامعها . »

هنا تبرز الحتمية التاريخية في أوضح صورها ، فإنه لم ولن توجد قوة على الأرض - مهما كانت - تستطيع أن تقف ضد تيار التطور والتاريخ ، والذين يبدون الدهشة مما حدث في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ لابد أنهم مصابون بقصر النظر وضيق الأفق ، أو أنهم مغرضون لإبراز أن السادس من أكتوبر كان حدثاً شاذاً وخارجاً عن نطاق النسيج الطبيعي للتاريخ ، ولكن الواقع يؤكد - وهذا ما اعترفوا به بعد ذلك - أن السادس من أكتوبر كان إعادة للأمر إلى نصابها الطبيعي ومسايرة لحركة التاريخ وتيار التطور . وأن ما كانت إسرائيل تفعله في سنى الهزيمة كان وضعاً شاذاً مؤقتاً . وأي شخص يملك أي قدر من الوعي بالتاريخ يدرك هذه البدهية التي لا تحتاج إلى جدل أو إثبات .

وعندما أصدر السادات قراره التاريخي بتحرير الأرض في السادس من أكتوبر العظيم ، لم يكن قراره صادراً عن وعيه بتاريخ القضية منذ اشتغاله بالسياسة ، أو منذ حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، بل إن وعيه يمتد ليشمل الجذور الأولى للقضية ، ويغطي كل أبعادها الظاهرة والخفية . فيحدثنا في جريدة « الجمهورية » في ١٧ فبراير ١٩٥٧ عن تاريخهم مع المصريين من واقع التوراة ذاتها . وهذا هو الوعي بالتاريخ عندما يبلغ قمته ، فإن عدوك لا يمكن أن ينال من منطقك إذا ساندته براهين وأدلة مما يؤمن به عدوك نفسه . لأنه في هذه الحالة إذا عارضك فإن عقيدته تنهار من أساسها . يقول السادات في مقالة بعنوان « من كتابهم » :

« وحين عزم اليهود على الفرار من مصر كما أمرهم موسى عليه السلام ، لم ينسوا طبيعتهم الشريرة ، فاستدانت نساء من اليهود حلى نساء مصر من جاراتهن بحجة أو بأخرى . . . وإلى يومنا هذا لم تعد هذه الحلى لصاحباتها من نساء مصر ، لسبب بسيط هو أن نساء مصر صدقن اليهود وعاملنهم بالحسنى وراعوا فيهم حق الجار . . ! !

وحين عبر بهم موسى عليه السلام البحر وطلبوا منه الطعام ، فسأل ربه فأنزل عليهم المن والسلوى ، وهو عسل وطير ، تمردوا على موسى وعلى ربه . . . لأنهم يريدون الفول والعدس والبصل بدل العسل ولحم الطير . ولم ييأس موسى ، بل يدعوهم ربه لكي يعودوا عن غيهم ، وأجرى عليهم من المعجزات بأمربه مما لم يحفظ به بشر من قبل فواحدة منها

هى نتق الجبل من فوقهم لكى يظلمهم ، واعتقد موسى أن القوم قد آمنوا فذهب يتاجى ربه . . . وحين عاد وجد القوم يسجدون لصنم صنعوه من دون الله الذى أجرى عليهم كل تلك المعجزات ! ! وحين لم يجدوا شيئاً يكافئون به موسى على محاولته هدايتهم وبذله نفسه من أجلهم ، اتهموه بأنه رجل لا خلاق له وأنه يخالط النساء . ! ! وحين مات هارون شقيق موسى ووزيره وساعده الأيمن الذى كافح معه من أجل هداية شعب إسرائيل ، اتهموا موسى بعد كل ما فعله لهم بأنه هو قاتل أخيه . . .

إن كل هذه البيانات لا أدعيها أو أقدمها على أنها معلومات من كتب وإنما هى مستقاة من التوراة التى تقدسها إسرائيل وتتخذها دستوراً لها . . . فإذا كان هذا هو تاريخ إسرائيل الذى تعترف إسرائيل نفسها به ، مما أنزل على إسرائيل لعنة من الله فى الإنجيل وفى القرآن ، فهل يظن المستر دالاس (وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية فى ذلك الوقت) أنه يستطيع أن ينجح فيما فشل فيه موسى عليه السلام ؟ ! »

وفى كتاب « قصة الوحدة العربية » يزيد من وعى القارئ بالتاريخ ، التحليل الذى يقدمه السادات لبروتوكولات حكماء صهيون حتى يربط القارئ الماضى بالحاضر ويتأكد من أن المخطط الخبيث يمتد منذ ذلك اليوم الذى هرب فيه اليهود من انتقام الفراعنة بعد أن اكتشف المصريون كم عاث اليهود فساداً فى أرض مصر . فيوضح السادات أن قصة حكماء صهيون مشهورة ، فقد وضعوا للصهيونيين مبادئ يسرون عليها ، لها عندهم قداسة الكتب المقدسة عندنا ، ولكن ما تحويه أمر فظيع وخطير لا يكاد يصدق العقل . فقد بنى الحكماء وصاياهم على مبادئ وصفوها بأنها نزلت من عند الرب ، ولذلك لا تقبل المناقشة بل هى واجبة التنفيذ ، ورتبوا عليها الوسائل لتحقيق هذه المبادئ على الأرض . . . فهم يقولون مثلاً :

« إن الصهيونى من طينة الله ، وأن جميع ما على الأرض من كنوز وأرزاق هو ملك له . وأن (الأسمى) - وهو تعبير يطلق على المسلم والمسيحى وكل من ليس يهودياً - لا حقوق له على هذه الأرض ، بل إنه خلق ليكون فى خدمة الصهيونى ، وعلى ذلك فهم يقررون أن دم الأسمى حلال بل إن الصهيونى ينال مثوبة عند الله إذا قتل الأسمى . »

ويعلق السادات على هذه البروتوكولات الشاذة والغريبة بقوله ص ١٤٠ من كتاب « قصة الوحدة العربية » :

« هذا هو أعجب ما يمكن أن ينصح به رجل دين ، الناس الذين يتبعون هذا الدين . فإن السماء لم ترسل الرسل والأنبياء والأديان إلا للعمران والمحبة والسلام عن طريق تنظيم العلاقات بين الناس . . . وأكثر من ذلك فإن هؤلاء الحكماء يوصون الصهيونيين بأنهم قد لا يستطيعون فى وقت من الأوقات أن يسيطروا على ملك هذا العالم وأرزاقه وكنوزه ولذلك فهم ينصحونهم أن لا يأسوا ، بل عليهم أن يكافحوا بكل السبل فى سبيل الوصول إلى أغراضهم وقالوا ونصوا صراحة على أن الرشوة والخمر والنساء وسائل مشروعة ، بل واجبة فى سبيل الوصول إلى هذه الأغراض . ثم ينصحون بالتغلغل فى كيان الدول والسيطرة على موارد المال فيها لأنهم بهذه الطريقة يسيطرون على اقتصاديات هذه الدول إلى أن تأتى الساعة المناسبة فينقضوا عليها أو ينفذوا ما يريدون فيها من سيطرة .

أرأيت أشنع من هذه الخطط المدمرة التى تصطبغ بصبغة الدين والتعصب . إننا نستطيع اليوم أن نلمس هذه الخطط التى تنفذ بدقة منذ مئات السنين ، بل نلمس ثمارها فى كل أنحاء العالم على شكل جاليات ومؤسسات صهيونية تؤثر وتتغلغل فى كيان كل دولة يعيش فيها صهيونى واحد من غير استثناء . . . لعل هذا يلقى ضوءاً على المعركة التى تنشب اليوم بين الحق والباطل ، وبين شريعة السماء وشرائع الغاب . »

وبرغم أن هذا الكلام كتبه السادات منذ حوالى عشرين عاماً ، إلا أنه يبدو وكأنه كتب بالأمس أو اليوم ، فالخط الفكرى الذى يكمن وراء التحليل التاريخى يستند إلى وعى عميق بحركة التاريخ والتفاعلات الداخلة فى

نطاقها. وهذه التفاعلات لا تتغير كثيراً طالما أن العوامل المساعدة والمؤدية إليها مازالت موجودة في المنطقة وقادرة على التأثير المباشر أو غير المباشر. ولذلك يختم السادات بحثه القيم بقوله إن نوايا إسرائيل قد أيقظت العرب على حقيقة المأساة الدامية ، فقد أدركوا أن السلام في الشرق الأوسط قد مزق وسيمزق على الدوام طالما أن حلم الصهيونية الضخم لم يتحقق بعد ، وسيظل السلام ممزقاً لأن هذا الحلم لن يتحقق أبداً . هذه هي الحتمية التاريخية التي لا مفر منها ، وعلى إسرائيل أن تدرك أن حلمها لن يتحقق ، وإذا أصرت على تحقيقه بالعدوان والعنف والدماء فسيتحول إلى كابوس طويل سيجثم على صدرها ولن تفيق منه فالسير في تيار مضاد لحركة التاريخ لن يؤدي إلى فرض الكيان قسراً بل سيكون السبب الرئيسي في تدمير هذا الكيان . وبخاصة أننا ندرك جيداً الأسلوب الذي نشأ به هذا الكيان المفتعل . ففي لقائه مع أساتذة الجامعات في ٨ يناير ١٩٧١ يحكى لهم السادات كيف بدأت الحركة الصهيونية في القرن الماضي بعقد المؤتمرات وتحديد الأهداف . وكان الهدف الرئيسي هو إنشاء إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات . والسادات في سرده لهذا التاريخ يستند إلى أقوال الرسميين والمفكرين في إسرائيل نفسها حتى يكون تحليله علمياً مجرداً مثلما فعل في تحليله لموقف اليهود من موسى عليه السلام عندما استشهد بأقوال التوراة نفسها ، فهذا هو المنطق العلمي الذي لا يمكن أن يدحضه مكابر .

قبل خطاب السادات في أساتذة الجامعات ، كان آخر تصريح لوزير المواصلات الإسرائيلي السابق وايزمان أنه لا يعرف أن هناك لإسرائيل حدوداً غير تلك التي حددها تيودور هرتزل صاحب أول مؤتمر إسرائيلي ، والذي حدد إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات . وهذا يدل على أن المخطط لم يتغير من هرتزل إلى وايزمان ، فقد خططوا وبدأوا في العمل بمنتهى الجد والمثابرة ، كما تحكى كتب التاريخ ، وكما كتبوا هم أنفسهم . فقد بدأت الحركة الصهيونية تلاحق القوى الكبرى في العالم منذ القرن الماضي لكي تتحالف معها . أول ما ذهب هرتزل ذهب إلى سلطان تركيا ثم ظهر أن القوة في أوروبا تحولت إلى ألمانيا فذهب إلى قيصر ألمانيا ، ثم هزمت ألمانيا ، وانتقل الميدان إلى بريطانيا ، فذهب هرتزل إلى بريطانيا وانتقلت الحركة الصهيونية بعده إلى بريطانيا ، ثم فقدت بريطانيا قوتها ، وأصبح ميزان القوى محصوراً بعد الحرب الثانية بين أمريكا وروسيا فنقلت الحركة الصهيونية إلى الولايات المتحدة .

في كل هذه المراحل أرادت إسرائيل أن تجعل من نفسها عميلاً لأية قوة كبرى تظهر في هذا العالم حتى تستطيع أن تحقق عن طريق هذه القوة الكبرى حلمها في إنشاء إسرائيل الكبرى . ويستمر السادات في تقديم هذا السرد التحليلي المستفيض ليوضح لنا أنه بدون الوعي بالتاريخ لا يمكننا أن نعرف ماذا تكون الخطوة التالية ، وبخاصة أن إسرائيل تعتمد اعتماداً أساسياً على تزييف التاريخ حتى تلون أطماعها التوسعية وأهدافها العدوانية بلون الشرعية . وعلينا باستمرار أن نرفع درجة وعينا بالتاريخ حتى نكشف للعالم المدى الذي تبلغه إسرائيل في تزييف حقائق التاريخ التي لا تقبل الجدل أو النقاش . وهذه هي الدلالة الكبرى الكامنة وراء السادس من أكتوبر العظيم الذي أعاد مجرى التاريخ إلى وضعه الطبيعي ، ومن واجبنا القومي الأول أن نحافظ على هذا المجرى من الانحراف أو التشتت . وفي هذا المعنى يقول السادات في المجلس الوطني الفلسطيني في ٦ إبريل ١٩٧٢ :

« إن فلسطين لن تضيع ، ثم إن الحقوق السياسية الراهنة للشعب الفلسطيني لن تكون موضع مساومة . إن الحق التاريخي لشعب فلسطين يكمن في شرعية أن يكون لهذا الشعب حق تقرير مصيره ، والحقوق السياسية الراهنة تكمن في ضرورة إزالة العدوان من الأرض التي احتلها العدو بعد سنة ١٩٦٧ في الضفة الغربية ، والقدس وغزة » . والوعي بالتاريخ لا يلتزم بحدود العقيدة السلبية التي تقنع بدور المتفرج ، لأنه لا يتحقق إلا بالعمل والإيمان والجهد والعرق . ولذلك يؤكّد السادات في خطابه في عيد العمال في أول مايو ١٩٧٢ أن حصولنا على استقلالنا

لم يأت سهلاً مع عجلة التاريخ ، أى ضمن موجة عارمة زحفت على حين كان الاستعمار بأنواعه يتراجع ، وإنما نحن الذين صنعنا التاريخ وذلك بحصولنا على استقلالنا فى أصعب الظروف ، بالعرف دائماً وبالدم عند الاقتضاء . لم يكن استقلالنا موجة من موجات التاريخ ولا كان مساومة من مساومات السوق العالمية ، بل كان طريقاً شاقاً غنياً حفرنا فيه الصخر بأظافرنا ، ورسمنا الطريق بالعرف وبالدم . فإن وعينا العميق بحركة التاريخ دفعنا إلى القيام والتصدي للاستعمار والقهر فى عز جبروته ، وذلك هو الدور الطليعى لشعب له دور حضارى خاص حمله التاريخ أمانته ، وكان عليه أن يتحمل مسئولية دفع تيار التاريخ وليس مجرد التعلق بهذا التيار والقيام بهذه المهمة التاريخية يحتم الأصالة الفكرية ، والثقة فى النفس ، ووضوح الرؤية ، ومواجهة الحقائق مهما كانت مريرة ثم تكييفها وتوجيهها مرة أخرى لصالح المستقبل القومى والتعمير الحضارى . ولذلك يقول السادات فى ٥ يونيو ١٩٧٢ فى حديثه إلى المحاربين القدماء :

« لقد كان هذا اليوم - قبل خمس سنوات - يوم هزيمة لنا . ونحن نعتز بذلك ولا نخفى رموسنا كالنعام فى الرمال .

وكان هذا اليوم - قبل خمس سنوات - يوم محنة من أقسى ما واجهنا ونحن نعتز بذلك لا نكذب فيه على أنفسنا أو على الناس ، ولكن تاريخ الأمم العظيمة لا يتجمد عند لحظة معينة من اللحظات ، ولا يتوقف مساره أمام صدمة من الصدمات . فالأمم العظيمة تستوعب مقاديرها وتحمل بالصبر أى خطر داهم ثم ترتفع بالثقة فى الله وفى النفس وفى المبدأ فوق أى خطر داهم . وتبدأ من جديد نضالها وتحشد من جديد صفوفها وتبنى من جديد قدراتها وتعود من جديد تحمل راياتها وتقاتل . »

وهذه الأخطار التى كانت تدهم مسيرتنا الحضارية ، سببها أننا اخترنا الطريق الثورى للتقدم الحضارى كحتمية تاريخية ، وأنا استلهمنا حركة التاريخ بفكر مفتوح ولكن غير منحاز . ولذلك فإن معركتنا الحضارية ليست قاصرة على معركتنا العسكرية على قناة السويس ، فالعدو لا يريد الأرض فقط ، إنما يريد أن يملك مصيرنا وأقدارنا للأجيال المقبلة ، ولذلك فالصراع العسكرى المتخصص جزء من الصراع الحضارى الشامل . وهذا الصراع الشامل قد يطول ولكننا وضعنا هذا فى الاعتبار ، فإذا كان الصراع العسكرى يمكن حسمه فى أيام أو أسابيع فالصراع الحضارى قد يستمر لأجيال عديدة . ولكننا واثقون من النصر فى نهاية الأمر . وفى هذا يقول السادات فى خطابه فى مجلس الشعب فى ١١ نوفمبر ١٩٧١ :

« إننا وضعنا أنفسنا بالفهم والوعى لمجرى التطور الإنسانى العام ، فى القوى المعادية للاستعمار والاستغلال . فآمال الشعوب لا تخدمها قوى السيطرة والإمبريالية ، التى هى بقايا عصر آن له أن يزول وينقضى ، قوى تتعارض مع كل المبادئ والقيم التى يحلم بها ويناضل من أجلها إنسان الثلث الثالث من القرن العشرين . حيث سقطت الفواصل بين الشعوب وضاعت المسافات ، ويتحتم اليوم أن تضيق فيه الفجوة بين التخلف والتقدم ، وإلا وجدنا أنفسنا أمام صراع من أخطر وأعتى ما واجهته البشرية ، لأنه سوف يكون صراعاً طبقياً ودموياً ، بين التقدم والتخلف وبين الغنى والفقير على اتساع الكرة الأرضية كلها . »

ويتفق السادات مع أرنولد توينبى فى أن الوعى بالتاريخ يحتم وجود المنهج العلمى سواء فى قبول التحدى أو فى الرد عليه . فى مجرى التطور التاريخى للمجتمع نجده يواجه ، باستمرار ، صعاباً تهدد كيانه وجوده ، ويتوقف مستقبل المجتمع كله على الأسلوب المناسب للمواجهة الفعالة ، فإذا كان الرد على التحدى فى الوقت والمكان المناسبين ، فإن حياة ذلك المجتمع سوف تستمر مزدهرة بفضل القوة الداخلية والخارجية المستمدة من نجاحه . أما إذا لم يستطع المجتمع مواجهة التحدى بنجاح وفاعلية ، فإنه يفقد كثيراً من مقوماته الأصلية ، من هيئته الخارجية ، ومن رفايته المادية

وربما بلغت خسارته حداً يشكل النهاية الفعلية لذلك المجتمع . ومن هنا كان قول السادات في خطابه في ٢٣ يوليو ١٩٧٤ :

« كانت مرحلة بالغة الحرج والخطورة فعلا ومن نواح متعددة . فمن جهة كانت هناك ثمار نضال وتجربة عمرها ثمانية عشر عاماً أرسينا خلالها الأساس الصلب الذى يمكن أن ننطلق منه إلى مراحل جديدة ومع ذلك فقد كانت هذه المكاسب كلها عرضة للضياع التام لو أن النكسة استمرت ووصلت إلى نهايتها وبالتالي يفتح الباب لينقض المتربصون على هذه المكاسب لتدميرها من الأساس . »

من هنا كانت خطورة وحساسية ودقة وصعوبة المرحلة التى تولى فيها السادات مسئولية القيادة والحكم ، حتى حق المحاولة والخطأ لم يكن متاحاً له كأي زعيم يتمتع بهذا الحق على وجه هذه الأرض . كان الجومهوري والعربي والعالمي زائراً بكل أنواع الإحباط والتشتت والركود بالنسبة لقرار المعركة . كان هناك المتربصون بالثورة في انتظار الانقضاض عليها ، وكان هناك الاحتلال الإسرائيلي بكل مضاعفاته النفسية والمادية ، وكانت هناك حالة الاحتراب واللاسلم كنتيجة للوفاق الدولي ، وكان هناك الركود العربي الشامل الذى ساعد على تجميد المشكلة ولم يكن ركوداً سالباً بل كان موجباً بفعل الشكوك المتبادلة والمزايدات والمناقصات . ولم يظل كل عامل منعزلاً عن الآخر بل تشابكت العوامل وتداخلت بحيث جعلت الظرف الذى تولى فيه السادات المسئولية من أخطر الظروف وأخرجها وأكثرها تعقيداً . حتى إن مهمته في بعض الأحيان كان تبدو وكأنها إصلاح ما أفسده الدهر . لم تترك له هذه المرحلة التاريخية الكابوسية أية فرصة ليستريح أو يستجم من عناء التفكير والإجتهاد والإرهاق المستمر . حتى حق النوم والاسترخاء الذى يتمتع به أصغر مواطن في الدولة لم يكن متاحاً له وبخاصة عندما تتعدد الأمور أكثر من تعقيدها الراهن . كان الكل ينامون ويظل هو ساهراً يعيد تقييم حساباته مع تطورات المرحلة التاريخية اللاحقة . ولذلك يؤكد في خطابه في العيد الثاني والعشرين لثورة يوليو في ٢٣ يوليو ١٩٧٤ :

« كانت مجرد حركة واحدة خاطئة أو خطوة واحدة متسرعة أو إذعان للحظة واحدة لضغط داخلي أو خارجي . كان أي شيء من هذا كفيلاً بأن يضيع معه كل شيء . »

ومرة أخرى أقول كان اعتمادى في مواجهة هذه الغابة الكثيفة من الظروف المعقدة المتشابكة وفي الخروج من هذا التيه الشاسع . كان اعتمادى على ثقتي بالله سبحانه وتعالى وبعادلة قضيتنا وبالوطنية المصرية المستعدة دائماً للتحمل والعطاء . »

وكان الوعي العميق والحاد بأبعاد المرحلة التاريخية ضمن العوامل الجهورية التى ساعدت على تأكيد الثقة بالقضية العادلة وبالوطنية المصرية ، فلم تكن ثقة عاطفية انفعالية بقدر ما كانت ثقة عقلانية منطقية وبخاصة أن التاريخ لا يرحم وليس على استعداد للرجوع قيد أنملة إلى الوراء ، ولذلك فإن حسابات العقل والمنطق تستطيع أن تضع الضوابط والمحاذير بحيث تجعل الأمور تجري وتكيف طبقاً للصالح القومي . وفي هذا المنهج العلمى يتفق السادات مع أرنولد توينبي حول خطأ الفكرة التى تقول إن « المقدس سلفاً » في التاريخ لابد وأن يحدث مهما بذل القادة من جهد لتفادي وقوعه ، فهذه نظرية غيبية لا تتفق مع منطق الوعي بالتاريخ . ولذلك يقول توينبي في كتابه « الحضارة في الميزان » ص ١٤٨ :

« إذا رأت حضارة معينة أن ظروفها قد بدأت في التشابه مع ظروف حضارة سابقة ، وكانت هذه الظروف سبباً في انهيارها ، وآمنت بأن الانهيار هو مصيرها هي الأخرى فقد ارتكبت في حق نفسها جريمة الانتحار الجماعي . ومع هذا فإنه ليس مقدراً علينا أن نجعل التاريخ يعيد نفسه ، والطريق مفتوح أمامنا لكي نبذل جهوداً خاصة لنوجه

التاريخ وجهة جديدة لم يسبق لها مثيل . ونحن ، كبشر ، نتمتع بحرية الاختيار ، ولا يمكننا أن نطرح عنا المسئولية لنلقيا على الله أو على الطبيعة ، وإنما يجب علينا أن نتحملها بأنفسنا . إننا لسنا تحت رحمة القدر الذي لا يرحم . «
وهذا ما فعله السادات بالضبط ، لقد أخذ قدره في يديه ، وحمل المسئولية على كتفيه ، ووضع ثقته في الله سبحانه وتعالى ، واستلهم إيمانه بالوطنية المصرية ، واعتمد على وعيه العميق بأبعاد المرحلة التاريخية الراهنة ، وأثبت لشعبه أنه لا توجد في التاريخ كارثة لا يمكن إصلاحها أو تفاديها . ولكن إذا تقاعس العامل البشري عن إصلاحها وتفاديها فعليه أن يتحمل نتيجة قصوره ومسئولية تهربه . والفائدة العملية من دروس الماضي أنها تساعدنا على تفادي السلبيات وتدعيم الإيجابيات ، والتفكير الضيق أو المغرض هو الذي يجعل من دروس الماضي تشييطاً للهمم وبخاصة في حالة تشابه الظروف الراهنة مع السابقة . ولو كان الأمر هكذا بالنسبة للفراعنة لما نشأت الحضارة المصرية القديمة الباهرة على الإطلاق ولما استعادت مجدها بعد أول اضمحلال لها ، إذ يحدثنا التاريخ أن مصر عرفت ، على الأقل ، ثلاث موجات عالية من الحضارة جاءت بعد ثلاث فترات من الجزر ، وسادت فترات المد العالي مدة تزيد على عشرين قرناً ، وكانت فترة حافلة بالأبجداد الحضارية برغم النكسات التي نخلتها .

لقد بلغت مصر مثلاً لأول مرة في حضارتها ذروة المجد في عهد الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة ، وكان ذلك بين عامي ٢٧٨٠ و ٢٤٢٠ قبل الميلاد . وكان ذلك نتيجة لفترة طويلة من الوحدة والسلام الداخلي الذي استمر منذ عام ٣٢٠٠ ق . م تقريباً . وخلال القرون الأربعة التالية شهد وادي النيل ضعفاً في سلطة الفراعنة تمثل في المنافسة بين مراكز القوى والأعمال الحربية المحلية ، وهجوم الأجناس الأجنبية ذات الأطماع التوسعية والعدوانية ، والتدهور الملحوظ في الإنجازات الاقتصادية والثقافية والإدارية . ويقول شبرد ب . كلوف في كتابه « ارتفاع وسقوط الحضارة » ، الذي صدر عام ١٩٥١ ، أنه في حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . أعاد أمراء طيبة تشكيل حكومة حسنة الإدارة في مصر كلها ، وهو ما نطلق عليه المملكة الوسطى التي بقيت حتى عام ١٧٨٨ ق . م . وأوجدت حضارة مصرية ثانية ، مزدهرة ، تبدو في جمال مقابرها ، ومعمار معابدها ، وهندسة بيوتها ، وروعة رسومها ، ورفق أدبها ، ورقة نحتها ، وبعد ذلك أتاح الاضمحلال الداخلي ، والتفكك السياسي ، والتدهور الاقتصادي ، والتفكك الاجتماعي ، الفرصة لقبائل الهكسوس الأجنبية الدخيلة لتقيم حكمها على مصر بلا قتال أو حرب حقيقية . وبهذا بدأ عصر مظلم ثان . ثم نجح المصريون في طرد الهكسوس واستعادة مجدهم مرة أخرى في الإمبراطورية الجديدة تحت حكم الأسرة الثامنة عشرة حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . واستمرت حتى عام ١٢٥٠ ق . م . وترجع المعابد العظيمة كمعابد الأقصر والكرنك ومقبرة توت عنخ آمون إلى الفترة الثالثة من ازدهار الحضارة المصرية . وبعد عصر طويل متجدد من الظلام استطاعت مصر أن تجمع شملها في فترة الانتعاش التي شهدتها القرن السابع قبل الميلاد .

هكذا كانت مصر دائماً ، قادرة على التجدد والإحياء والازدهار والعطاء مهما طالعت عصور الظلام التي تمر بها . فهذا هو المعنى الكامن وراء روح مصر التي نبعت من الأزل ، ثم واكبت التاريخ في طريقه إلى الأبد الذي لم يأت بعد . ولا يعقل أن تنطفئ شعلة البعث المتجددة على مدار آلاف السنين على يد إسرائيل ، فحتمية التاريخ تؤكد أن هذا من رابع المستحيلات ، فالمستقبل لا ينشأ في عزلة عن الماضي كما يؤكد السادات في بيانه إلى الأمة في ٢٨ ديسمبر ١٩٧٢ :

« إن تاريخنا كله يؤكد للجميع أننا عشنا على مر العصور شعباً واحداً متجانساً متماسكاً ، وأهمية تجربة التاريخ هنا أن المستقبل لا ينشأ في عزلة عن الماضي ، ومن ثم فإن هذه الأمة التي عاشت الحياة بحلوها ومرها ، بخطرها وأمنها ، أمة واحدة سوف تعيش المستقبل بكل ما يحمله لها وبكل ما تحمله له . . أمة واحدة . »

وقد سجل التاريخ المصرى والعربى أن ازدهار هذه الأمة كان مرتبطاً دائماً بوحدة سواء على المستوى الوطنى أو المستوى القومى ومن هنا كان إصرار السادات على ضرورة وحدة الصف العربى برغم الاختلافات السياسية والعقائدية التى قد تنشأ بين الأشقاء العرب . يقول فى بيانه إلى الأمة فى ٣٠ أغسطس ١٩٧١ :

« يا إخوانى ما لم نكون احنا العرب ملمومين على بعض ، الغزاة الى جاين من بره بيقدروا بيغويأخدوا منطقتنا ويدلونا ، يوم ما بتجتمع إرادتنا ويوم ما تتشكل منا إرادة واحدة وقوة واحدة بنستطيع ان احنا نقهر أى غزوة عبر التاريخ . فى التتار حصلت ، فى غزوة الصليبيين حصلت ، فى غزوة الصليبيين أقاموا مستعمرات على شواطئ فلسطين زى الى مقامة النهاردة وقعدت ثمانين سنة . ثمانين سنة لكن قام صلاح الدين جمع مصر وسوريا والإرادة العربية كلها أمكن أن احنا نحرر الإرادة العربية ونخلص من الغزوة الصليبية . النهاردة احنا بنواجه غزوة صهيونية شرسة . شرسة أكثر من الغزوة الصليبية . لأن وراها الصهيونية العالمية الى بتملك مفاتيح المال والدعاية والتلفزيون والبروباجندا والصحافة فى العالم كله وأيضاً ورا هذه الغزوة مش الصهيونية العالمية بس . الولايات المتحدة الأمريكية . يوم ما بتجتمع إرادتنا . التاريخ يقول كده . حكم التاريخ . يوم ما بتجتمع إرادتنا يبقى ماشيين فى الطريق الصحيح نحو حريتنا وتحرير أرضنا . »

ولذلك كان السادات من أوائل الذين بذروا بذرة الوحدة العربية . وكان وعيه العميق بالتاريخ يؤكد له دائماً حتمية هذه الوحدة . فى ١٦ يوليو ١٩٥٦ كتب مقالة بعنوان « عدنا يا صلاح الدين » على صفحات « الجمهورية » يتعرض فيها للأسباب التاريخية التى أحالت الأمة العربية إلى أشلاء فىقول :

« كان ذلك عقب الحرب العالمية الأولى . واجتمع المنتصرون حول مائدة القرصان المشهورة وبدأوا يوزعون الأسلاب . ومن قبل هذا الاجتماع كانت الأمم الصغيرة قد صدقت مبادئ الرئيس ويلسون رئيس الولايات المتحدة التى نادى بها وقتذاك والتى تنادى بالحرية والاستقلال وتقرير المصير . وعلى مائدة القرصان خفت صوت الرئيس ويلسون رويداً رويداً إلى أن تلاشى . وفوجئت الأمم الصغيرة بجيوش المنتصرين تقتحم عليها أرضها باسم الانتداب تارة وتارة أخرى باسم مناطق النفوذ التى اتفق القراصنة على اقتسامها فى أنحاء كثيرة من العالم . . وكان نصيب الأمة العربية أن مزقت أشلاء . »

ثم يربط السادات هذا الماضى المظلم بالحاضر المشرق الذى صمم العرب على صنعه فيختم مقالته بقوله :

« إن اتحاد مصر وسوريا حقيقة تاريخية يحتملها التطور ، فالأصل هو أن الشعبين شعب واحد امتزجت عروقهم وواجه المحن والانتصارات جنباً إلى جنب . . فالدارس يرى عبر التاريخ أن آمال الشعبين كانت دائماً واحدة ، وأن المعارك التى خاضها الشعبان كانت واحدة ، وأن أعداء سوريا كانوا دائماً أعداء مصر وأن لغة الشعبين واحدة وحضارة الشعبين مقوماتها واحدة وتاريخ الشعبين واحد ومرتبطة بالدم والقربى والدين والأصل . . فاتحاد سوريا ومصر إذن علمياً وتاريخياً وعملياً ونظرياً حقيقة لا بد منها . »

وهذه الحتمية التاريخية هى التى جعلت السادات يصرح لأرنودى بورجرف مدير تحرير مجلة « نيوزويك » الأمريكية فى ٤ أبريل ١٩٧٣ « أن العرب لن يهزموا هزيمة شاملة . إن بوسعنا أن نتحمل مزيداً من الهزائم كما فى عام ١٩٦٧ وسوف يضطر الغازى إلى الاستسلام آخر الأمر ، كما فعل الغزاة جميعاً عبر التاريخ . » فلاشك أن الشخصية القومية المصرية تملك من قوة الدفع التاريخى ما يمكنها من السيطرة على مقدراتها عن طريق إبراز القائد الذى يقودها قيادة حكيمة وواعية تؤدى فى النهاية إلى النجاح والتقدم والتعمير الحضارى . ومجرد ظهور السادات وتحمله لكل أعباء المسؤولية الجسيمة فى هذه المرحلة التاريخية الحرجة ، هو أكبر دليل على أن الشعب المصرى العريق لم يفقد

حيويته وقدرته على التجدد والبعث على مر آلاف السنين . وفي هذا المعنى يقول سعيد عثمان في كتابه « أحاديث حول الفكر الذى انتصر » ص ١٩ :

« كان أنور السادات من الثقة فى متانة حق أمته ، والإيمان بحق شعبه ، وكان يقينه ثابتاً فى حتمية التاريخ وضرورة انتصار قضية الحرية على أعداء الحرية . . بحيث قبل التحدى وبدأ ثورته التصحيحية الكبرى التى وقف فيها إلى جانب الشعب يحطم معه كل القيود التى تكبل انطلاقه لتحرير أرضه ومواجهة الموقف البالغ الخطورة ، الناجم عن طبيعة المشكلة وطبيعتها ظروفها المحلية والدولية ، حيث تتداخل النوايا العدوانية التوسعية الإسرائيلية مع الأهداف الإمبريالية فى المنطقة ، ولا يكون أمام شعب مصر إلا أن يواجه مصيره ومصير أجياله المقبلة ، باستعداد جاد ودائب لتحرير أرضه ، ثم بالتقدم إلى المعركة بجدية وحساب واع ، وهذا هو ما تفعله مصر الآن . واثقة أنها بذلك لا بد أن تنتصر . . »

إن عام ١٩٧١ الذى شهد عودة الروح إلى مصر . هو العام الحاسم فى سنوات ما بعد النكسة ، وسيظل كذلك لآجال طويلة . فى هذا العام أمكن اتخاذ قرار التحرير فى إطار جهد فائق سياسى وعسكرى لأمة لم يعد هناك قيد على تحركها تحت قيادة رشيدة تؤمن بأنها عندما تقود شعبها لا بد أن تقوده إلى النصر وإلى مستقبل أفضل .

وفى مجتمع يشهد تحولات تاريخية حاسمة ومعقدة مثل تلك يصبح الوعى بالتاريخ ضرورة وحتمية لا مناص منها ، ولا يجوز أن تنخفض درجة هذا الوعى حتى ولو احتدمت الأحداث باشتعال آتون الحرب ، بل على العكس يجب أن ترتفع هذه الدرجة حتى ندرك المعنى الكامن وراء كل حركة كبيرة كانت أو صغيرة . فى السنين التى أعقبت هزيمة يونيو ١٩٦٧ كانت فوضى الأحداث الواقعة وتنافرها وتأثيرها فى بعض الأحيان على التفسير المعقول تثير اليأس والتشتت والتفكك فى أرجاء العالم العربى ، منها على سبيل المثال الأحداث الدامية التى وقعت فى سبتمبر ١٩٧٠ بين الجيش الأردنى والمقاومة الفلسطينية . ولكن فكر السادات كان دائم البحث عن الصلة بين الأحداث التى تبدو فى الظاهر متعارضة لا تتم على وجود غاية مفهومة أو خطة مقدر مرسومة ، لم يكن فى استطاعة السادات - بكل وعيه بالتاريخ - أن يسلم بأن الحركة التاريخية خالية من المعنى ، وأنها مجرد أحداث متتابعة بغير غاية ولا هدف ، لأن ذلك معناه أن الكون شيء غير مفهوم ، وأن الوجود قد يكون عبثاً لا طائل تحته ، ولم يكن هذا الاتجاه يرضى مفكراً من طراز السادات . فالتاريخ الإنسانى هو تاريخ الفكر ، فالمؤرخ ذو الوعى العميق لا يتناول الحدث فى حقيقته المجردة ، ولكنه يمثل الحوافز والأفكار التى تدفعه وتحفزه ، فالوجود الإنسانى فى جوهره وجود مفكر .

فالواقع التاريخى عند السادات ليس هو المجرى الجامد وإنما هو حركة حية دائبة متصلة ومستمرة بفضل التأصيل الفكرى الذى يربط الماضى بالحاضر بالمستقبل فى وحدة عضوية لا تقبل الانقسام . ولذلك لا بد أن تبرز وقائع التاريخ العوامل الجوهرية التى تتم عن المراحل التى يقطعها الفكر ويبدو الاتساق بينهما متعادلاً . وكما يقول جان بول سارتر إنه عندما يمنح الإنسان للتاريخ غاية ، فإن كل شيء فى هذه الحياة يأخذ معناه . وفى هذا المعنى كتب سارتر رسالة نشرها فى مجلة « العصور الحديثة » عام ١٩٥٢ رداً على ألبير كامى يقول فيها :

« إن حريتنا اليوم ليست سوى اختيارنا الحر أن نناضل لنصبح أحراراً . نحن فى هذا العصر فى قفص حديدى ، فيجب أن نتحد لنحطم القضبان ولكى نكتسب الحق فى التأثير على الناس الذين يناضلون يجب أولاً أن نشارك فى معركتهم . والشخص الذى يرى التزايدات الحاضرة على أنها مجرد صراع غيبى بين وحشين شائهي منحنطين ، هو رجل عزل نفسه عن حقيقة الصراع البشرى والفكر الذى يدفعه من الخلف . فى المجتمع الذى ينهشه التمزق من الداخل لا يستطيع الإنسان أن يتبنى غايات المجتمع ولا أن يرفضها جميعاً . لكن بمجرد أن يختار منها ، فإن كل شيء

يتخذ معناه في الحال . بذلك يعرف لماذا يقاوم الأعداء ولماذا يحارب . ذلك أن الوعي بالتاريخ لا يتوفر إلا في العمل التاريخي نفسه . فعندما تسأل : هل للتاريخ معنى ؟ هل له غاية ؟ فأنا أرى أن سؤالك نفسه ليس له معنى . فالتاريخ إذا انفصل عن الإنسان الذي يصنعه لا يكون سوى مفهوم مجرد لا حياة فيه ، بحيث لا يمكننا أن نقول إن له غاية أوليس له غاية . فالقضية ليست قضية أن نعرف غايته ، بل أن نمنحه غاية .

ومن الواضح أن السادس من أكتوبر العظيم قد منح التاريخ العربي الحديث معناه وغايته يقول السادات في خطابه التاريخي في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، بعد عشرة أيام فقط من اندلاع الحرب المقدسة :

« عاهدت الله وعاهدتكم على أن تثبت للعالم أن نكسة ١٩٦٧ كانت استثناء في تاريخنا وليست قاعدة وقد كنت في هذا أصدر عن إيمان بالتاريخ يستوعب ٧٠٠٠ سنة من الحضارة ويستشرف آفاقاً أعلم علم اليقين نضال شعباً وأمتنا ليعلو عنها وللوصول إليها وتأكيد قيمتها وأحلامها العظمى ، عاهدت الله وعاهدتكم على أن جيلنا لن يسلم أعلامه إلى جيل سوف يجيء بعده منكسة أو ذليلة ، وإنما سوف نسلم أعلامنا مرتفعة هاماتها عزيزة صواريخها . وقد تكون مخضبة بالدماء ، ولكننا ظللنا نحتفظ برووسنا عالية في السماء وقت أن كانت جباهنا تنزف الدم والألم والمرارة . »

والمعنى الذي منحه السادس من أكتوبر للتاريخ العربي من العمق والخصوبة والغزارة بحيث يجب ألا يقتصر استيعابنا له على مجرد الانفعال أو التباهي أو التفاخر ، فالتاريخ الحضاري للإنسانية كلها سوف يتوقف طويلاً بالفحص والدرس والتحليل أمام هذا اليوم الفاصل بين التزييف التاريخي الذي مارسه إسرائيل على مسمع ومرأى من العالم كله ، وبين الحق العربي الذي سطع ظهر السادس من أكتوبر العظيم ولم يستطع أن يتجاهله أي مكابر ، حتى العدو نفسه ، ولذلك فإن ما يطلبه السادات من أمتة أن تهجر نغمة التفاخر الحماسية وأن تبدأ في الاعتماد على المنهج العلمي ، والتفسير الواقعي ، والتحليل الواعي ، والتعليل المنطقي . حتى أثناء المعركة ، والأعصاب مشدودة ، والنفوس متوترة ، والعيون ساهرة ، يطلب السادات في نفس الخطاب من الشعب أن يرتفع بوعيه بالمرحلة التاريخية إلى مستوى الإنجازات الباهرة التي حققها الجيش :

« لست أظنكم تتوقعون مني أن أقف أمامكم لكي نتافخر معاً ونتباهى بما حققناه في أحد عشر يوماً من أهم وأخطر ، بل أعظم وأجعد أيام تاريخنا ، وربما جاء يوم نجلس فيه معاً لا لكي نتفاخر ونتباهى ، ولكن لكي نتذكر وندرس ونعلم أولادنا وأحفادنا جيلاً بعد جيل ، قصة الكفاح ومشاقه ، ومرارة الهزيمة وآلامها ، وحلاوة النصر وآماله . »

ويعتقد السادات أن أهمية الوعي بالتاريخ في زمن النصر لا تقل بأية حال من الأحوال عنها في زمن الهزيمة . فقبل السادس من أكتوبر ومنذ توليه المسؤولية كان يصر دائماً على تذكير الأمة بدروس الماضي ، سواء كان هذا الماضي وطنياً أو عالمياً . وفي هذا لا يتفق السادات مع فيلسوف مثل هيجل الذي يقول إن التجربة والتاريخ يعلماننا أنه لا الحكومات ولا الأمم قد تعلمت شيئاً من التاريخ ، فكل عصر له ظروفه الخاصة التي يتبع في علاجها اعتبارات خاصة به ، والمبادئ العامة لا تفيد كثيراً حينها يشتد ضغط الأحداث العظيمة ، ولا فائدة في هذه الحالة من الرجوع إلى الظروف المشابهة في الماضي . ولكن عندما ينادى السادات بالاستفادة من دروس الماضي فإنه لا يعني بالطبع التطبيق الحرفي لما حدث في الماضي ، بل يعني الاسترشاد بالجزئيات التي تتمشى مع روح التجربة الراهنة وبخاصة فيما يفيد في رفع الروح المعنوية . فمثلاً لا يقصد السادات تطبيق التجربة السوفيتية عندما يقول أكثر من مرة سواء لوزرائه أو لشعبه « إننا عانينا هزيمة في عام ١٩٦٧ ، ولكن الاتحاد السوفيتي واجه نفس الموقف عندما وصل الألمان إلى بعد ١٥ كيلومتراً من موسكو . كانوا هم أيضاً شعباً متخلفاً في ذلك الحين . ولكنهم أصبحوا دولة عظمى بعد ثلاثين

سنة . دعونا أيضاً نتخذ من هزيمتنا سبباً لبناء دولة جديدة . » ولذلك رفع السادات شعار التحرير مع التعمير ، فالهدف ليس مجرد بناء الدولة وتحرير الأرض فقط ، وإنما بناء المواطن ، بناء الإنسان ، بناء الإرادة والوعي بماضى أمتنا وحاضرها ومستقبلها ، باختصار بناء كل ما تحتاجه أجيالنا المقبلة حتى تعيش على مستوى العصر بين أمم العالم المتقدم .

ولم يقصد السادات أيضاً التطبيق الحرفى للتجربة البريطانية عندما تحدث عن عملية سنغافورة ، بل كان هدفه أن ينحى جانباً كل شئ من شأنه أن يشتت التركيز على المعركة ومتطلباتها . يتحدث تشرشل فى مذكراته عن عملية سنغافورة بقوله إنها أكبر هزيمة وعار فى جبين العسكرية البريطانية ، فقد صدرت الأوامر إلى الآلاف من الجنود والضباط بالتسليم بكامل أسلحتهم لليابانيين ، كان الدفاع عن سنغافورة معداً من البحر ، فحدث أن هجم اليابانيون من البر من شبه جزيرة الملايو . وطالب البعض فى بريطانيا بعمل تحقيق ولكن تشرشل رفض الفكرة نظراً لظروف المعركة التى تحتم تركيز كل المجهود والاهتمام على مواجهة العدو ، ولذلك يجب تأجيل هذه الأمور الداخلية والجانبية إلى ما بعد المعركة . وكانت النتيجة المباشرة لهذه السياسة هى صمود الشعب البريطانى برغم هزائم كل يوم فى البر والبحر والجو ، فقد وضع الشعب ثقته فى قيادته ، فزمن المعركة لا يحتمل معالجة المشكلات بالضغط والجدل والمناقشات بينما العدو يقف على الأبواب . ولكى ترد القيادة ثقة الشعب فإنها يجب أن تعتمد على مصارحته فى كل مرحلة من المراحل فى الحدود التى يحتملها الأمن القومى حتى تظل الصلة عضوية بين القيادة والشعب . وهذه الصلة من أخطر أسلحة المعركة على الإطلاق لأنها تربط بين الجبهة الداخلية والجبهة المحاربة .

ولم يهدف السادات إلى تطبيق التجربة الأمريكية عندما رفض روزفلت التفاوض مع اليابان بعد هزيمة امريكا فى معركة بيرل هاربور فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ ، ولكن كان رفض السادات التفاوض مع إسرائيل بينما مازال جزء من أراضينا تحت الاحتلال سببه أن هذا التفاوض لن يكون تفاوض الند للند ، ولكنه سيكون إملاء شروط المنتصر على المهزوم ، أى سيكون الاستسلام بعينه . ومن هنا كان شعار أن ما أخذ بالقوة لا بد أن يسترد بالقوة . فثلاً لو أن روزفلت وافق على التفاوض مع اليابان ، برغم أنه لم تكن هناك أراض أمريكية محتلة فى ذلك الوقت ، فكان أول اتهام سيوجه إليه هو الاستسلام الكامل تحت ستار التفاوض المباشر ، وكان الأشرف لأمريكا أن تنسحب بالكامل من المحيط ولم يمض ٢٥ يوماً على معركة بيرل هاربور حتى تواجه العدو بطرق أخرى أكثر فاعلية . أما المفاوضات المباشرة فلا فائدة ترجى منها لأن نتيجتها معروفة مقدماً .

هنا تبدو القيمة العملية لوعى القائد بالتاريخ ، فهو الضوء الهادى الذى ينير له الطريق ويجنبه الكثير من العثرات والأخطار . وكل القادة العظام - بدون استثناء - وخاصة هؤلاء الذين تركوا بصماتهم واضحة فوق التاريخ القومى لأممهم ، نجدهم من عشاق دراسة التاريخ وتحليل الظواهر الكامنة خلفه . يقول محمد صبيح عن تشرشل مثلاً فى كتابه « تشرشل » الذى صدر عام ١٩٤٤ ص ٤٣ :

« وتحت شمس الهند ، وفى الثكنات التى تقل فيها الأعمال ، بدأت تفتح شبيهة تشرشل للقراءة والتعلم . وكان من أهم الكتب التى طالعها مؤلف « جيبون » الشهير عن قيام وسقوط الدولة الرومانية . وقد كان هذا الكتاب من أكبر هداية والده فى حياته السياسية ، وما هو ذا ابنه ينحو نفس النحو ، ويتخذ من تحليل سيرة هذه الإمبراطورية التى تداعت درساً تعبه ذاكرته ، يديم التأمل فيه . وإلى جانب تاريخ الرومان ، أخذ يقرأ جمهورية أفلاطون وسياسة أرسطو ، وسير بعض العظماء . ومال إلى الفلسفة ، وعلى الأنحصر فلسفة شوبنهاور ، ثم إلى أمور الدين ومسائلها . . »

ولقيمة الوعي بالتاريخ بالنسبة للقادة يؤكد ت . س . اليوت في كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة » ص ٧٣ أنه :

« من المفضل دائماً أن يكون تعلم التاريخ جزءاً من تربية أولئك الذين يولدون في الدرجات السياسية العليا من المجتمع ، أو تؤهلهم قدراتهم لدخولها ، وأن يكون تاريخ النظريات السياسية جزءاً من دراستهم التاريخية . وتمتاز دراسة التاريخ الإغريقي والنظريات السياسية الإغريقية تمهيداً لدراسة غيرها من التاريخ والنظريات ، تمتاز تلك الدراسة بمرونتها ، فهي تتناول منطقة صغيرة من الأرض ، وتتناول الرجال أكثر من الكتل ، والعواطف الإنسانية للأفراد أكثر من تلك القوى اللاشخصية الضخمة التي هي من الوسائل الضرورية للتفكير في مجتمعنا الحديث ، والتي تميل دراستها إلى أن تلقى في الظل دراسة البشر أنفسهم . »

ولذلك كان منهج السادات في معالجة التاريخ هو التحدث بأمثلة حية ملموسة بعيداً عن العموميات المطلقة والشعارات العامة ، فقرأ يحدثنا عن رجال معاصرين من أمثال روزفلت وتشرشل وستالين ، وعن معارك محددة من أمثال بيرل هاربور وسنغافورة ونورماندى ودنكيرك وستالينجراد ، حتى ينبض التاريخ بالحياة في وجدان المستمع ويعرف جيداً الوسائل التي عالج بها كل من هؤلاء القادة تلك المواقف التاريخية المصيرية . وكانت نظرة السادات إلى هؤلاء القادة نظرة تمتاز بالموضوعية الكاملة برغم اختلافه بل كرهه لزعم مثل تشرشل لأنه لم يتكلم باحترام عن مصر في مذكراته . وهذه الموضوعية الكاملة هي التي نتمنى أن يعاد كتابة تاريخنا القومي بها لأن الكتب المتداولة بين يدي هذا الجيل تنطوي على مسخ يصل إلى حد التزييف والتشويه . والجيل الذي يشب على تاريخ غير صادق يصبح بدون شخصية قومية مميزة له . ولا شك فالتاريخ هو المرآة التي تنعكس عليها الشخصية القومية لأية أمة ، والصدق والأمانة والموضوعية والصراحة والديمقراطية والحرية هي الشروط التي يجب أن تتوافر في هذه المرآة حتى يكون انعكاسها صفياً نقياً واضحاً متبلوراً .

ونظراً للارتباط العنصري بين الوعي بالتاريخ والشخصية المصرية في فلسفة التأصيل الفكري عند السادات ، فقد آثرنا أن يكون الفصل التالي في هذه الدراسة عن الشخصية المصرية كما يراها زعيمنا ومعلمنا ورائدنا الفكري أنور السادات .

الشخصية المصرية

الشخصية المصرية من الشخصيات القومية التي تحتاج إلى مجلدات كاملة لدراستها ، فليس في مقدور باحث بمفرده أن يقوم بهذه المهمة الجسيمة ، فهي مهمة في حاجة إلى فريق كامل من العلماء في مختلف أنواع المعرفة الإنسانية ، وأيضاً في حاجة إلى معاهد أبحاث متعددة بأحدث وسائل البحث العلمي . ونحن عندما نتعرض للشخصية المصرية في هذا الفصل ، فسندرسها فقط من وجهة نظرة محددة : هي وجهة نظر السادات ، وبرغم أنها نظرة تتميز بالعمق والشمولية إلا أنها كفيفة بتقديم الضوابط والمحاذير التي تمنعنا من الدخول في كهوف الشخصية المصرية التي تمتد عبر ٧٠٠٠ سنة من التاريخ الحضاري للبشرية . وبذلك لا نفقد العمود الفقري الذي يربط هذا الفصل من أوله إلى آخره ولا نتجاوز الهيكل العام له .

ويتفق معظم علماء الاجتماع والأجناس والتاريخ والجغرافيا على أن المنطقة الجغرافية بمناخها وظروفها البيئية لابد أن تترك بصماتها واضحة على الشخصية القومية التي تنشأ فيها . وإذا طبقنا هذا المفهوم على الشخصية المصرية وجدنا أنها تنتمي إلى منطقة البحر المتوسط عند المدخل الشمالي لقارة أفريقيا . وهي منطقة تتميز بالاعتدال في كل شيء . فمناخها ليس بحار الحرارة التي تؤدي إلى التراخي وفقدان القدرة على العمل الجاد المتواصل ، وليس ببارد البرودة التي تغطي كل شيء بالجليد بحيث لا يجد السكان مهرباً من هذا الجليد الجاثم إلا في العمل المتواصل الذي لا يعرف الراحة . والمنطقة ليست معرضة للرياح والأعاصير أو للزلازل والبراكين بل كل شيء يسير في مجراه الطبيعي دون توقع لأخطار تذكر . والنيل الخالد يسير في يسر ونظام ورتابة يحمل الماء للزرع حيثما كان ، فلا خوف من قحط أو طوفان . والأرض سهول منبسطة في كل مكان فلا توجد جبال أو تلال ، وعلى مدى البصر لا توجد مرتفعات أو منخفضات تكسر الهارمونية البديعة للبانوراما الخضراء .

ولذلك كانت الشخصية المصرية أقرب إلى الوداعة والألفة والبساطة والكرم والطمأنينة والتأمل والتأني والهدوء والتعقل والحكمة ، منها إلى الاندفاع والتهور والعنف والقسوة والتطرف ، وحتى إذا لجأت إلى الثورة فإنها ثورتها غالباً ما تكون بيضاء لا أثر فيها للدماء المراقبة أو الحرب الأهلية ، ومن هنا كان عنصر الاستمرار والاستقرار التي تميزت به الشخصية المصرية وساعدها على الاحتفاظ بخصائصها الأصلية والأصيلة على مدى سبعين قرناً من الزمان . فعلى الرغم من المحن والشدائد والغزوات التي تعرضت لها المنطقة منذ أيام الهكسوس وحتى الغزوة الصهيونية الأخيرة ، فإن الشخصية المصرية كانت قادرة على استيعاب حركة التاريخ بكل أبعادها ، واستطاعت احتواء أولفظ كل عنصر دخيل . ولعل هذه الطاقة الروحية الجبارة الكامنة في الشخصية المصرية كانت نتيجة للحضارة المبكرة التي نشأت على ضفاف النيل والتي انبثق منها فجر الضمير الإنساني ودعوة التوحيد التي عرفها العالم لأول مرة في عقيدة اخناتون ، وكذلك نبعت منها أول الإنجازات العلمية والأنشطة الفنية . ولذلك كان من الطبيعي أن يرفع السادات شعار العلم والإيمان على سبيل التأسيس الفكري ، فقد طبقت مصر دائماً هذا الشعار واستطاعت أن تخرج به متصرة ظافرة من أعتى الأزمات . وفي هذا المعنى يقول السادات في خطابه إلى الأمة في أول سبتمبر ١٩٧٢ :

« شعب مصر . لقد أثبت أصالته وصموده ضد الأحداث مهما عظمت . وأن التاريخ ليشهد على صلابه

عود هذا الشعب وعلى قدرته على التطور والتغيير . إن الأزمات التي مر بها الشعب المصري لخير تجربة له ليعبر هذه الأزمة القائمة . هذه الأزمة التي يريد العالم أن يشكك في موقفنا منها وفيما أنجزناه لتحقيق النصر وطرده المعتدى . أن الشعب المصري نبذ كل من أراد استغلاله والسيطرة عليه أو تفريق صفوفه أو بث روح الهزيمة فيه . وشعب مصر لم يكن يوماً ما حاملاً لشعارات دون ممارسة واقعية وحية ونايضة وخلاقة لهذه الشعارات .

كان شعب مصر يؤمن أن العمل الجاد المخلص هو خير تطبيق للعلم ، وأفضل تعبير عن الإيمان . ولم يقل هيرودوت الحقيقة عندما قال إن مصر هي هبة النيل ، لأن مصر في الحقيقة هي هبة المصريين أنفسهم . ويشير أرنولد توينبي إلى أن الحضارة المصرية القديمة نشأت بسبب مجموعة من الظروف التي تعتبر بمثابة التحدي ، فقد تغير المناخ الذي حول الأراضي العشبية وسهول أفريقيا الشمالية إلى صحراء جافة مجربة يتعذر فيها على سكانها الاستمرار في حياة الصيد . فلم يكن وادي النيل مكاناً يؤدي إلى الرخاء ، والدليل على ذلك موجود في الحالة البدائية الفقيرة التي ظل عليها سكان أعالي وادي النيل حتى عصرنا الحاضر ، فهم يعيشون في ظروف تشبه التي عاشها مؤسسوا الحضارة المصرية الأوائل .

والشخصية القومية تتبلور عندما تجبر الظروف قبيلة ما أو أمة ما على بذل جهد صادق لتحويل مواطن إقامتها التقليدية والتي تعتبر غير ملائمة للحياة على الإطلاق إلى أراض خصبة ومدن عامرة ووجود حضارى ؛ وعندما تنجح هذه الجهود فإنها تكون بمثابة تمهيد لخلق الظروف المواتية لبلورة ما نطلق عليه اصطلاح الشخصية القومية . فلم يكن النيل في البدايات الأولى سوى مجرى بدائياً من الماء المتدفق بين المستنقعات والحشائش البرية ، والصحارى الشاسعة ولم يعرف له بداية أو نهاية ، بل لم يكن له الشكل المحدود الذي تعرف به المجارى المائية الآن . كان مجرد مجموعة من المجارى والمستنقعات في طريقها إلى تكوين ما يعرف بمجرى النيل . وعندما نجح الإنسان المصري القديم في مجهوداته الدائبة للتحكم في النهر والاستفادة منه ، تحول هذا المجرى المائي البدائي إلى نهر النيل . وبذلك يكون النيل هو هبة مصر والمصريين وليس العكس . لقد كان النيل هو المادة الخام الذي صنع منها المصريون حضارتهم العظيمة ، ولم يكن النيل نفسه هو صانع هذه الحضارة . كان النهر يجري في أرض مصر ذات المناخ الجاف والأمطار القليلة ، ولذلك استغل المصريون طميه في تسميد الأرض ، وصناعة مواد البناء لإقامة المعابد والمقابر والمساكن ، وكذلك في صناعة أواني الفخار وصحائفه . واستغل النهر أيضاً كأهم طريق للمواصلات بين أنحاء الوادي فقد كانت كل المدن والقرى تقع على ضفتيه . وإذا كان مؤرخو الغرب قد أغرموا بأن المصريين قد عبدوا النهر في بحثهم عن إله ملموس ، فإنهم تجاهلوا في نفس الوقت الجانب العقلاني والعمل في الشخصية المصرية ، وهو الجانب الذي دفع المصريين إلى إنزال النهر من مراتب الآلهة إلى مراتب أدنى ، ثم أدنى حتى تجرد رسمياً من كل الصفات التي كانت تليق بآلهة القدماء . وأصبح بعد ذلك مجرد مجرى مائي يمكن الاستفادة به في الأغراض العملية للحياة اليومية . ولكن من الواضح أن النيل قد ترك بصماته واضحة على ملامح الشخصية المصرية . وفي هذا يتساءل السادات في خطابه في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٢ :

« ما هي أبعاد هذه الشخصية المصرية ؟ لقد ظلت الشخصية المصرية عبر التاريخ ذات أبعاد أساسية : الأصالة - الصلابة - الإيمان ، أصالة شعب عمره المكتوب أكثر من سبعة آلاف سنة ، صلابة شعب عاش على هذه الأرض الطيبة الخيرة وهو متمسك بها ، معتز بكل ذرة من ترابها ، والإيمان الذي لا حدود له ، إيمان بالله سبحانه وتعالى ، إيمان بهذه الأرض وكل من عليها وما عليها ، إيمان بكل القيم التي أرادها الله سبحانه وتعالى لصلاح هذا الكون ، إيمان بالذات . . بالنفس . . عبر آلاف السنين . .

تعرض هذا الشعب لعشرات الغزوات ولم يذب أبداً شعبنا في أى معتد أو أجنبي جاء إلى هذا البلد بل ذاب كل المعتدين فيه ولم يذب شعبنا أبداً . احتفظ شعبنا عبر الأجيال إلى يومنا هذا بأصالته ، بصلابته ، بإيمانه ، لأنه احتفظ دائماً بشخصيته .

ولا يعقل أن يستورد شعب ، له من الأصالة والصلابة والإيمان والعراقة والتراث والحضارة والتقاليد كل هذا الرصيد الضخم ، لا يعقل أن يستورد من المبادئ والعقائد ما يسير به دفة حياته المعاصرة وليست هذه دعوة إلى الانغلاق والعزلة ، ولكنها دعوة إلى التأصيل الفكرى الذى يحدد مجتمعنا بما يتفق مع تراثنا وحضارتنا وشخصيتنا القومية . وهذا التجديد يكون بالاقتراب والاستيعاب والهضم والتطوير والتأصيل ، اقتباس المادة الخام من أى مصدر على شرط طبعها بطابع الشخصية المصرية الأصيلة ، وهو طابع لا تستغنى عنه الحضارة العالمية المعاصرة لأنه يعد المصدر الأولى لها ، وإشعاعاً من إشعاعاتها ، وانعكاساً من انعكاساتها ، فالحضارة الإنسانية ليست مردودة إلى الغرب ولا وقفاً على الشرق ؛ وإنما هى خلاصة كل تقدم بشرى ، وجوهر كل نشاط فكرى يعود على التعمير الحضارى بالخير والتقدم والسلام . ويعلق محمد عطا على ذلك فى كتابه « الحركة العاقلة » فيقول ص ١٧٧ :

« إنه مما يبشر بالخير أن أصبح لنا فى حياتنا المعاصرة زاد أوتراث يصلح لأن يحدد لنا معالم الطريق ، وعلينا أن نضاعف الجهد ، وأن نفيد من هذه الروح الثورية الخلاقة ، وأن نسير بقدم راسخة على معالم الطريق الذى بدأناه ، واثقين بأنفسنا ، منكرين ذواتنا ، مدركين المسئوليات الجسام التى وضعت على كواهلنا فى هذه الفترة الرائعة من تاريخنا التى تخلصنا فيها من السيطرة الغربية وأصبح زمام الأمور فى أيدينا . »

وتطور الشخصية المصرية لا يتأتى عن طريق تغييرها أو مسحها أو تلوينها ولكنه ينهض على تحسينها وذلك عن طريق تدعيم الإيجابيات والتخلص من السلبيات فنحن لا نستطيع أن نتخيل لأنفسنا شخصية أو هوية أخرى . على أن أهم سؤال يمكننا أن نسأله هو : هل ثمة مقياس ثابت يمكننا به أن نوازن بين شخصية قومية وأخرى ، ويمكننا به أن نحدد الملامح الأساسية للشخصية المصرية ؟ فى الواقع أن النسبية تلعب دوراً كبيراً فى هذا المجال . فليس ثمة عصر واحد من مجتمع يحقق كل ملامح الشخصية القومية ، بل تمتد هذه الملامح لتغطى المجتمع كله منذ نشأته حتى اللحظة الراهنة ، وهناك دائماً تنويعات وتفرعات جانبية تضاف إلى الملامح الأساسية بمرور الزمن . وتطور الوضع نفسه يحدث لأية شخصية قومية أخرى تنشأ فى ظروف حضارية مختلفة . ومن هنا كانت الشخصيات القومية تختلف فيما بينها اختلاف بصمات الأصابع . ولا يمكن المقارنة بينها بأية حال من الأحوال ، وبالتالي يستحيل صلبها فى قالب واحد . وهذا الاختلاف ليس عيباً ، بل إنه العنصر الرئيسى الذى يمنح الحياة البشرية ديناميكيته وحيويتها وتطورها وتقدمها عن طريق التنافس بين الشخصيات القومية المختلفة . فالحفاظ على الشخصية القومية لا تعنى العنصرية الضيقة أو مبدأ سيادة الجنس أو التعصب ضد القوميات الأخرى ، ولكنه يعنى الحفاظ على الدور الحضارى الذى يتحتم على هذه الشخصية القومية القيام به . بالإضافة إلى الأدوار الحضارية التى تنهض بها القوميات الأخرى ، فنسيج الحضارة الإنسانية الشاملة يتألف من الحضارات القومية المختلفة .

ويرجع مفهوم الشخصية القومية فى الحضارة إلى العلاقة الوثيقة بين الإنسان ووطنه الذى يعيش فيه ويتفاعل معه ، وهو مفهوم متبلور ومحدد برغم أنه قد يختلف من عصر إلى آخر ، ومن مجتمع إلى آخر . والشخصية القومية ضرورة لا مناص منها لأنها الروح التى تمنح الإنسان الهوية التى تمكننا من التعرف عليه وبلونها بصيركائناً عديم اللون والأسلوب . وهنا يكمن الفارق الأساسى بين الفكر والعلم باعتبار أن العلم عالمى فى شكله ومضمونه ، فى حين أن الفكر محلى الشكل والمضمون بحيث نستطيع القول إن هناك فكراً إنجليزياً أو فرنسياً أو أمريكياً أو روسياً أو عربياً وهكذا ، بينما لا نستطيع

القول نفسه بالنسبة للكيمياء أو الطبيعة أو الأحياء أو الطب أو الهندسة . . إلخ فنيوتن مثلاً يمكن أن يكون إنجليزياً أو أن ينتمى إلى أية جنسية أخرى لأن هذا لن يعوق عبقريته العلمية في الوصول إلى النظريات والقوانين التي اكتشفها طالما أن إمكانيات البحث العلمى ووسائله متوافرة لديه ، بينما جون لوك مثلاً لا بد أن يكون مفكراً وفيلسوفاً إنجليزياً وإلا فإنه لن يكون شيئاً على الإطلاق ففكره وفلسفته نابعان أساساً من الظروف الموضوعية للبيئة المحلية في إنجلترا ، ومهما كان اطلاعه على الفكر العالمى واسعاً فإنه لن يستطيع التخلص من شخصيته الإنجليزية . بل إن فلسفته هي نتاج الاحتكاك بين نظرتيه إلى بيئته الاجتماعية وبين هضمه للفكر العالمى السابق له ، والنتيجة النهائية هي ميلاد فلسفة إنجليزية جديدة ذات ملامح قومية محددة ، ولكنها - مع هذا - يمكن أن تدخل ضمن نسيج الفكر العالمى .

ولذلك نجد من الظواهر الطبيعية في الفكر الإنسانى أن ترتبط كل أمة بمفكر قومى أو أكثر لأنه يبلور روحها وطبيعتها ونبضها وشخصيتها القومية ، وغالباً ما يكون هذا المفكر القومى هو النموذج الكلاسيكى الذى يفرض ظله على معظم المفكرين الذين يعيشون في المجتمع نفسه ، وقد يحاول بغض المفكرين المجددين رفض هذا المفكر القومى بحجة ان تأثيره يتحول إلى نوع من القالب الثابت الذى يعوق تطور الفكر القومى وانطلاقه ، ومع ذلك فإن مثل هذا المفكر القومى يظل علامة هامة إن لم يكن قمة من القمم التي يمكن تسلفها ولكن يتعذر تجاهلها أو تحطيمها .

ولذلك يصعب علينا تجاهل مفكرين من أمثال رفاة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله نديم ، فقد تركوا شيئاً على الأقل في كل واحد منا على انفراد ، وأضافوا لمسات جديدة ومعاصرة إلى الشخصية المصرية العريقة .

وبروز المفكر القومى لا يخضع لشروط معينة لأنه ظاهرة تختلف باختلاف الزمان أو المكان ، ولكنه - بصفة عامة - المفكر الذى يجعل من فكره مرآة لأبناء أمته حتى يروا فيها أنفسهم وشخصيتهم القومية وتزداد معرفتهم بالعصر والعالم . ومرآة الفكر القومى لا يقتصر دورها على مجرد الانعكاس ولكنه يمتد ليشمل التكثيف والبلورة والتمحيص الصادق . وكلما ارتفعت الأمة في مدارج الحضارة كان من السهل التعرف على خصائصها الفكرية وشخصيتها القومية ، لأن الفكر لا يمكن أن يعيش في عزلة عن المجتمع المحلى ، فهو من أهم الأنشطة الروحية التي تقيس نبضه ، وغالباً ما يسير التطور الفكرى موازياً ومسانداً للتعمير الحضارى ، وهذا يرجع إلى الحقيقة التي تقول إن الفكر يستمد حياته واستمراره من تلك العلاقة العضوية بينه وبين الحياة المعاصرة والمحلية ، وإن شرط التأصيل الفكرى الأساسى يتمثل في ذلك التفاعل الحيوى القائم على التأثير والتأثر . وإذا فقد الفكر القومى هذا العنصر تحول من طاقة مغيرة ومطورة إلى صورة مكررة وباهتة لا تثير في أنفسنا سوى أحاسيس الملل والرتابة والضيق .

وبرغم ثورة المواصلات والتقدم التكنولوجى والعلمى الذى أحرزه عالمنا المعاصر ، وبرغم التشابه الظاهرى بين أسلوب الحياة في عاصمة أوروبية وبين أخرى أفريقية مثلاً ، وبرغم أن تيار العصر أصبح من القوة بحيث يدفع كل المراكز الحضارية والثقافية بطابعه المميز والموحد ، فإن كل هذه العوامل لم تستطع أن تمحو الشخصية القومية بحيث مازالت كل أمة تحتفظ بطابعها المحلى والمميز لها . ولعل هذا هو الفرق الحضارى بين الإنسان والحيوان ، فالحصان هو الحصان في أية بقعة في العالم ، لكن الإنسان يختلف في شخصيته القومية باختلاف الوطن والأمة . فالإنسان يملك الفكر الذى يتأثر ويؤثر في البيئة المحلية ، أما الحيوان فلا يملك سوى السلوك السلبى لأن هدفه كله يتركز في المحافظة على نوعه كما هو دون أدنى تطوير أو تحسين . ولذلك فالشخصية القومية هي انفعال بالحياة واستيعاب لأبعادها المحلية قبل أن تكون انفعالا بالأفكار الواردة من الخارج . فالحياة الخصبية المعاشة بالفعل هي المنبع الذى تستمد منه الأفكار والفلسفات حياتها وكيانها ، ومهما تعددت الفلسفات التي تلبس ثوب العالمية فإن الفكر الإنسانى

في أساسه محلي وقومي . ولابد أن يتفاعل مع هذه الفلسفات تفاعلاً عضوياً وإلا فإنه يلفظها كما يلفظ الجسم البشري أى شيء دخيل عليه .

ومن العبث استيراد أو اقتباس أو استعارة الفكر من بلد أجنبي لأنه لا يوجد إلا في موطنه ، ولا يعني هذا أن يكون الفكر مجرد صورة فوتوغرافية للشخصية القومية ولكنه عبارة عن علاقة عضوية بين الفكر العالمي وأرواح العصر وبين الخصائص القومية للفكر ، وفي حالة غياب هذه العلاقة يحدث الآتي : أما أن تتحول الشخصية القومية إلى مجرد تكرار لمثل أو صورة شائعة أو مرآة عاكسة أو أن تصبح مجرد مادة خام ينقصها التطوير والتحسين ومجاراة العصر . والواقع أن أية معركة حضارية نخوضها أية أمة لابد أن تكون من أجل الحفاظ على شخصيتها القومية ، وهذه الشخصية لا تعني سوى الأصالة والصلابة والإيمان والاستقلال والحرية والديمقراطية والتعمير الحضاري . وعلى كثرة المعارك التي خاضتها الشخصية المصرية على مر آلاف السنين ، كانت تخرج دائماً منتصرة مرفوعة الرأس مهما طالت قرون الظلام وعصور القهر . وهذا يدل على مدى أصالتها وصلابتها وإيمانها وثقتها في نفسها . ولذلك يقول السادات في كتابه « يا ولدي هذا عمك جمال » ص ١٢ :

« وتاريخ هذه المعركة في مصر يا بني قديم ومجيد . . بدأ قبل أن أولد ، وقبل أن يولد جدك ، بل قبل أن يولد جد جدك . . تاريخ طويل كتبه آباؤنا وأجدادنا بدمائهم عبر القرون . . وكان كل جيل يسلم الأمانة إلى الجيل الذي يليه ، وتصميم شعبنا في كل مرحلة صلب لا يلين . . إن كل معركة خاضها شعبنا ، كانت تريده تصميماً على تصميمه . . وكل دماء سالت من الأحرار على أرضنا ، كانت تغذي شجرة الحرية التي تمد ظلها اليوم على وادينا الأخضر من أقصاه إلى أقصاه . . لم يستسلم شعبنا أبداً يا بني للغزو الأجنبي ، ولا للطغيان . . وحين كان يغلب هذا الشعب على أمره من قوى متفوقة عليه ، كان يعتمد من فوره إلى المقاومة الشعبية في تصميم وإصرار ، حتى ينتصر في آخر الأمر على أعدائه . .

وكما كانت لشعبنا في الماضي السحيق حضارة ومدنية ، تنطق إلى يومنا هذا بأروع انتصارات بناءة في العلوم ، والفنون ، والهندسة ، والبناء والطب ، والفلك . . فإن تاريخنا في ماضينا القريب ، يسجل لهذا الشعب سجلاً حافلاً بالكفاح من أجل القيم البشرية . »

وهناك قانون عجيب يحكم كل الاتجاهات الفكرية التي اشتهرت على المستوى العالمي ، هذا القانون يؤكد أنه كلما استغرق الفكر القومي في المحلية الأصيلة اقترب بذلك من مجال العالمية ، وهذا يخالف ظن بعض المفكرين الذين يظنون أن الأمة تستطيع أن تعيش على مستوى العصر إذا تخلت عن شخصيتها القومية ولبست رداء العالمية ، فرداء العالمية محلي في أساسه ونابع من بيئة محلية محددة . ولذلك من الضروري لأي مفكر قومي أن يعايش بيئته من خلال الهضم والاستيعاب والرؤية العميقة والعريضة والبعيدة ثم القيام بمهمة الإفراس الفكري الذي يعتمد على عنصرى التحليل والتشكيل . وكلما تمكن المفكر من هذه النظرة العميقة والموضوعية كثر عدد الذين يستطيعون فهمه في أي مكان من العالم بل وفي أي زمان أيضاً . لأنه مهما اختلفت العادات والتقاليد والمفاهيم والاتجاهات والتكوين الاجتماعي والاقتصادي والنفسي والسياسي بين البشر فإن هناك شيئاً مشتركاً يشدهم بعضاً إلى بعض . وهذا الشيء الذي يصعب تحديده نسميه أحياناً الإنسانية وأحياناً الحضارة وأخرى المشاركة الوجدانية . . إلخ ولكن برغم اختلاف المسميات وتنوعها فنحن نشعر بهذا الشيء وبوجوده في حياتنا ، وهو الشيء الذي يربط ما بين الشخصية القومية والإنسانية الشاملة . وبرغم التعارض الذي قد ينشأ بين الاثنين فإن الفكر الأصيل الناضج كفيلاً بصبيهما في شكل معاصر وأصيل بل وتحويلهما إلى وجهين لعملة واحدة . .

وقد تبلور مفهوم الشخصية القومية في الحضارات العالمية منذ نشأة كل منها على حدة . ولكن هناك من الخصائص العامة ما يوضح لنا أن المفهوم الشامل بدأ من ثلاث نقاط : الأولى تكمن في الرغبة الملحة لأن يرى أبناء الأمة أو المنطقة حياتهم وقد تبلورت في ملامح فكرية وحضارية محددة بحيث تزداد معرفتهم بحياتهم وبمعصرهم ، والنقطة الثانية تركز في إشعال الروح الوطنية عن طريق إخصابها بالجديد من الأفكار والآراء والمشاعر القومية التي أصبحت مرادفة للكرامة والكبرياء والشرف . والنقطة الثالثة تتضح في الاهتمام باللغة القومية والمحافظة عليها لأن اللغة هي الأداة الأولى للتعبير عن الشخصية القومية وإحاطتها بسياج من الأصالة والمناعة .

وبمرور الوقت تطور مفهوم الشخصية القومية وأصبح يعنى النهضة الحضارية الأصيلة التي تعتمد على تجديد وتحسين التراث القومى والفكر المحلى والروح الشعبية . ولكن لا يعنى هذا معاداة القوميات الأخرى التي لا تتفق مع هذه الخصائص ، لأن هذه الروح العدائية قد تؤدي إلى تمجيد جنس من الأجناس البشرية الأخرى كما حدث بالنسبة للجنس الآرى في ألمانيا ، وهو الانجاء الذى استغله هتلر وركب موجته وأذاق به العالم ويلات الحرب العالمية الثانية . ولذلك يحرص المفكرون المعاصرون على وضع حد فاصل بين الاعتزاز بالشخصية القومية والالتواء إليها وبين المناادة بعرقية الجنس على أساس انثروبولوجى وجغرافى بحث . فليس هناك شعب فضله الله على بقية شعوب الأرض بل الجميع سواسية في ظل الإنسانية . وإن كان لشعب الحق في المحافظة على شخصيته القومية فهذا لا يمنحه الحق في فرضها قسراً على الشعوب الأخرى التي تعترف بشخصيتها القومية كذلك . وأكبر دليل على هذا أن كل أمة خاضت معركة حريتها بأسلوب يتمشى مع شخصيتها القومية ويختلف بالتالى عن أساليب المعارك التي خاضتها الأمم الأخرى ، فلا توجد أنماط جاهزة للتطبيق ، بل العملية كلها تتراوح بين الاستكشاف والتأصيل . ولذلك يقول السادات في كتابه « معنى الاتحاد القومى » ص ٣٧ :

« إن الطريق الذى يسلكه كل شعب لنيل حريته يكاد يختلف تماماً عن الطريق الذى يسلكه غيره من الشعوب . . لكل بلد ظروفه وأوضاعه ، والثورة تحدث طبقاً لهذه الأوضاع وتلك الظروف . . والطريقة التي تحدث بها هذه الثورة أو تلك تصبح جزءاً لا يتجزأ من تراث الشعب . . وأصلح طريق لتحقيق الحرية هو دائماً الطريق الذى يحقق هذه الحرية فعلاً ، وقد حققت تلك الطريقة ثورة الشعب المصرى على الاستعمار ، وحققت له الاستقلال والتحرر ، ولهذا فهو طريق حريتنا ، الطريق الذى نفخر أننا سلكناه ، ولا بد أن نفخر أننا نجحنا في سلوكه ، وأننا بلغنا به الهدف . »

ثم يوضح السادات الدور الذى لعبته الشخصية المصرية في توجيه دفة الثورة فيقول ص ٣٨ :

« أجل . بطريقتنا هذه ، بنجاحنا ، بصبرنا ، بأخطائنا ، بدهائنا وببساطتنا ، بمكرنا وبسذاجتنا ، بمكاسبنا وبتضحياتنا ، بعرقنا وبدموعنا ، بساعات ضيقنا ولحظات انتصارنا ، بأزماتنا الاقتصادية الصغيرة التي أصابتنا ، وبإشراق الصبح على بلدنا المستقلة ، بهذا كله ، وبكل هذا انتصرنا . »

هكذا تتعدد أبعاد الشخصية المصرية بحيث لا يمكن لأى دخیل أن يحتويها ، فالشخصية المصرية الخصبة لا تعنى الإقليمية الضيقة التي تؤدي غالباً إلى الركود والموت لعدم اتصالها بالروافد الإنسانية العريضة . ولذلك يجب أن نرسخ الشخصية المصرية على ركيزتين أساسيتين : الأولى استكشاف التراث القومى المحلى وتنقيته من الرواسب والسلبات والشوائب التي تعوق تطوره ونضجه ، والثانية استيعاب التراث الإنسانى والاستفادة منه بحسن التراث المحلى بدماء جديدة على شرط أن تكون من الفصيلة نفسها بحيث لا يرفضها أو تتسبب في موته . ومن التفاعل العضوى بين الشخصية القومية والروح الإنسانية يستطيع أى فكر محلى أن يساهم في الفكر العالمى ويضيف إليه ويؤثر فيه ،

فالفكر العالمى فى حقيقته ليس سوى مجموعة متناسقة من الاتجاهات الفكرية القومية بلغت حدًا من النضج والعمق والأصالة والمعاصرة جعلها تساهم فى الفكر الإنسانى الشامل وذلك بتوسيع أفقه وتطلعاته . وبذلك تنتفى من الأساس فكرة اليمين أو اليسار فى مواجهة الأصالة الوطنية . ومن هنا كان قول السادات فى حديثه مع أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى فى ١٧ أبريل ١٩٧٢ :

« إن نقطة الانطلاق هى القضية الوطنية ويجب أن يتجمع الشمل حولها وبالتالى كل من يحاول من اليمين أو اليسار الذى يفصل عن واقع وطنه ومعركته فإنه يكون قد ساعد فى حملة التشكيك هذه . إن خط مصر واضح : إننا حريصون على نظامنا وتراثنا وقيمنا الروحية وإن إرادتنا الوطنية قد تحررت نهائياً وقد تجاوزنا مرحلة الخوف والحساسية من التعامل مع الدول الكبرى . . . ومن ناحية أخرى فإننا اتخذنا قرار المعركة . وهو قرار نهائى وهى آتية ونحن داخلوها ، ولكننا لن نسمح لأى انفعال أو مزايده مهما كان مصدرها أن تؤثر فى تصميمنا وتحركنا لتحرير بلادنا . »

وفى خطابه فى عيد العمال فى أول مايو ١٩٧٢ يؤكد السادات دور الشخصية المصرية سواء فى الحرب أو السلام فيقول :

« وعندما يجيء السلام بالنصر إن شاء الله لأنه بغير النصر لن يكون سلام ، وحين يوجد كل ما أنجزناه وصنعناه فى خدمة هذا السلام الحق فإن التجربة المصرية سوف تبدو فى أصالتها وفى قيمتها الحقيقية . إننا أنجزنا كثيراً وكثيراً جداً ولا يجب أن نسمح لأحد أن يشككنا فى قيمة ما أنجزناه . وأول دليل على نجاحنا فيما أنجزناه هو أننا الآن قادرون على الوقوف وعلى الصمود وعلى تحمل تبعات المعركة . »

أما فى وقت الحرب فلن يحارب سوى المصريون ، لأن القرار هو قرار مصر وليس قرار أى طرف آخر . ولذلك يقول السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ١٤ مايو ١٩٧٢ :

« عليكم كنواب للشعب أن تكونوا على علم أن هذه المعركة معركتنا ، احنا حناحاربها . فى كل مرة رحى الاتحاد السوفيتى فى الأربع مرات اللى فاتت كانت فيه نقطتين أساسيتين بأعلنهم أمامكم كنواب للشعبت عشان تكونوا على بينة بيهم : الاتحاد السوفيتى يعلم أنى مش عايز جندى سوفيتى يحارب لى معركتى ، لأنى أنا اللى حاحارب معركتى . »

وكان السادات يخطط مسبقاً للسادس من أكتوبر العظيم عام ١٩٧٣ عندما أوضح فى خطابه فى ٢٣ يوليو ١٩٧٢ أن كل شعب لابد أن يحارب معركته ، ولذلك كانت مصر منتصرة دائماً على مر العصور . ولم تكن فى أى وقت من الاوقات تنتظر من أصدقائنا أن يحاربوا عنا معركتنا ، وكنا نحاول قدر ما نستطيع أن نقدر ظروفهم ونظرتهم لأوضاع العالم ، وكنا فى حاجة إلى كل ما يستطيعون أن يقدموه لنا بل إننا سوف نسعى باستمرار إلى توسيع وتعميق روابط الصداقة ولكن علينا الآن أن نعرف أبعاد ما ينتظرنا : الوطنية المصرية والقومية العربية . . فى الميدان وحدهما إذا اقتضى الأمر . لقد كانت هناك أسباب دعت السادات إلى اتخاذ القرار بإنهاء مهمة الخبراء والمستشارين السوفيت ، ولكن سبباً هاماً بينها هو أن السادات أراد تأكيد الشخصية المصرية وبلورتها بعد أن كثرت محاولات طمسها وبخاصة منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ . بل كان المقصود أساساً من استمرار حالة اللا سلم واللاحرب هو تجميع الشخصية المصرية وتشويه ملامحها من جراء التردد والقلق والتوتر وفقدان الثقة فى النفس ، والأمل فى المستقبل . ولا شك فإن ثمن تأكيد الشخصية المصرية فى عالمنا المعاصر ثمن غال جداً لا يقدر إلا بالدم الزكى المراق على أرض المعركة ، ولا يتم إلا بالسواعد المصرية إذ أننا لسنا فى حاجة إلى سواعد أحد إطلاقاً . وإن كنا فى حاجة إلى تكنولوجيا العصر ، ونحن لا ندعى أننا نستغنى عنها ، فإن حاجتنا إليها شئ وأن يتم كل شئ بسواعدنا المصرية شئ آخر .

ومنذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لم يحدث أن كان قرارنا أو إرادتنا خارجة عن أيدينا ، ولكن صعوبة الموقف وتعقيداته الدولية من حولنا قبل السادس من أكتوبر كانت تقتضي في بعض الأحيان أن نقول لجميع الأطراف إننا أصحاب إرادتنا . وعندما جاء السادس من أكتوبر تأكد للعالم كله أن قرارنا المصرى الصميم كان كفيلاً بأن يغير ملامح هذا العالم وأوضاعه بطريقة لم يشهد لها العالم مثيلاً منذ الحرب العالمية الثانية . فعندما اندلعت المعركة لم نضع بمبادئنا أو بأسلوبنا الخاص بنا في الدفاع عن شخصيتنا القومية ، بل على العكس ، تأكدت هذه الشخصية وكسبت احترام العالم كله ، العدو قبل الصديق . ومع حبنا للصديق ومواجهتنا للعدو لم تهتز شخصيتنا لأنها الأساس الذى عليه نعامل الأصدقاء ونواجه الأعداء . وفي هذا يقول السادات في خطابه إلى الأمة في أول سبتمبر ١٩٧٢ :

« لتكن لنا صداقاتنا ولنحرص على هذه الصداقات ، ولكن لنذكر أنه إذا لم نكن مع أنفسنا فإننا سنظل وحدنا .. حتى إذا كانت بجانبنا كل قوى الأرض . ومعنى أن نكون مع أنفسنا أن نكون مع عقائدنا ، مع يقيننا ، مع رؤيتنا للتاريخ والمستقبل ، مع حريتنا واستعدادنا للموت في كل وقت في سبيل حياة باقية كريمة وعزيزة . »

ويتبقى بعد ذلك - كما يقول السادات في خطابه في جامعة الإسكندرية في ٢٧ يوليو ١٩٧٢ - « إننا كأُسرة مصرية لها تقاليد وأصالة ، علينا أن نعطي لكل ذى حق حقه ، ولكي نحاسب أيضاً الصديق ونحاسب العدو ، كل بمعيّاره » . ولن يتأتى هذا المعيار الموضوعى إلا عن طريق الأصالة الفكرية أو ما يسميه السادات بالصمود الفكرى الذى نادى به في خطابه في جامعة أسيوط في ١٠ يناير ١٩٧١ عندما ركز على ضرورته بالإضافة إلى الصمود السياسى والصمود العسكرى والصمود الاقتصادى ، وعاد إلى تأكيده في خطابه في جامعة الإسكندرية في ٢٧ يوليو ١٩٧٤ عندما أوضح أن الصمود الفكرى هو المزج الواعى بين الأصالة والمعاصرة بحيث لا تتجمد أو تتحجر الشخصية المصرية وبحيث لا تتميع أو تنطمس ملامحها أيضاً يقول :

« إن هذا الصمود الفكرى في تقديرى هو سلاح من أهم الأسلحة التى علينا أن نتسلح بها في هذه المرحلة بالذات فالسلاح الذى يزرع اليقين ويقوى الثقة بالنفس لا يقل أهمية عن السلاح الذى يطلق النار وحين أقول بالصمود الفكرى لا ينصرف ذهنى إلى الجمود فالعكس تماماً هو الصحيح . إن الجمود الفكرى نوع من الرجعية والتخلف والتحجر وهو يؤدى بصاحبه إلى الخروج عن منطق العصر ومن يختار لنفسه أن يبقى قاعداً جامداً والعالم يهرول إلى الأمام هو في الواقع يحكم على نفسه بانعدام القدرة على التأثير على مجرى الحوادث والمساهمة فيها وخدمة شعبه وأمتة من خلالها . ولكننى أقول مع ذلك إننا ونحن في عصر حافل بالمتغيرات . المتغيرات على كل المستويات السياسية والدولية والاقتصادية والاجتماعية ، الثقافية والأخلاقية فإننا برغم ضرورة الدراية المستمرة بكل هذا فإنه من المهم أن يكون لنا الأساس الواضح الذى يستند إليه العمود الفقرى القومى الذى ينهض بالجسد كله مهما تحركت في هذا الجسد أطرافه وأينا سارت به قدماه » .

وهذه الدعوة إلى التأصيل الفكرى ضرورة حضارية ملحة وخاصة بعد أن أطلق السادات الحريات وفي مقدمتها حرية المناقشة وإبداء الرأى ، وكان مدركاً تماماً نتيجة هذه التجربة التى تتمثل في هبوب تيارات عديدة فيها الخطأ وفيها الصواب . ولكن من حق المجتمع أن يطلب من كل من يبدى رأياً أن يهتم أولاً بدراسته والتعمق فيه قبل أن يرنجل الآراء اربحالا . فتبسيط الأمور وأخذها من المأخذ السهل معناه تسطيح الشخصية المصرية برغم أعماقها وأبعادها المعروفة لدى الجميع ، وليس هذا هو الطريق نحو تربية الرأى العام وتجديد الشخصية المصرية . إن مشاكل عشرات بل مئات السنين لا تحل بين يوم وليلة وشعبنا الذى ارتفع وعيه ونضجت شخصيته يدرك هذا جيداً ومستعد لمواجهة تبعاته

بشرط أن يعرف الصورة الصحيحة وبشرط آخر هام هو أن يلمس بنفسه أن هناك جهداً يبذل من أجل بناء المجتمع العصري .

والانفتاح ليس مجرد انفتاح اقتصادى فحسب بل إنه انفتاح فكرى ونفسى أيضاً . وتجديد الشخصية المصرية لا يتأتى عن طريق توفير الموارد المادية فقط بل بتوفير المصادر العلمية والفكرية التى تمكنها من الارتقاء بنفسها . والتأصيل الفكرى يحتم أن ينهض توفير المصادر المادية والفكرية على الاختيار الحر والمدرس الذى لا بد أن يشارك فيه رأى العام ، حتى نعصم أنفسنا من الإغراءات السهلة التى سرعان ما تتبدد آثارها ، وحتى لا نحول كل مشكلة تواجهنا إلى كارثة ، وحتى لا نصور الأمور على أننا وحدنا الذين نواجه هذه المشكلات . فالصمود الفكرى يقوم على التعمق والاجتهاد والاطلاع أيضاً على تجارب الغير دون عقد حتى نحصل على ضوء هاد قد لا يؤدي إلى الحل النهائي ولكنه سيساعدنا على الأقل فى تفادى السلبيات التى تعرض لها غيرنا قبلنا . وبخاصة أن الاستفادة بتجربة اجتماعية أو بنظام حكم معين ليس أمراً فى سهولة شراء واستيراد أية سلعة مادية . فهذا أمر يتعلق بالفكر والنفس البشرية والشخصية القومية وهذا يحتم ضرورة الموازنة بين الأصالة والمعاصرة . وفى هذا يقول السادات فى نفس الخطاب السابق :

« لقد قمنا بتجربة وطنية مصرية عمرها ٢٢ سنة مررنا خلالها بتجارب كثيرة ثم إننا فتحنا باب التفكير والتجديد وتصحيح السلبيات وإدراك الجديد من المتغيرات . هكذا تقوم التجارب المثمرة ، تنبت من التربة وتعرض للهواء والشمس ، وقد تتغذى بالمواد الكيميائية المركبة ولكنها لا تنمو ولا تثمر إلا بالجهد البشرى الذى عليه أن يلائم بين هذا كله ومع ذلك فسوف لا تتركوا إلا متأثرة بالبيئة التى نشأت فيها .

وأريد أن أقول إننا شعب له تراثه المجيد وله تجارب فى الحضارة عريقة ربما بادت فاندثرت مظاهرها المادية ولكن رواسبها بقيت كامنة فى ضمير أبسط الناس ، وما نحتاجه هو أن نوقظها من رقادها وأن نعرضها لهواء العصر ولشمس بيثتنا . نحن اشتراكيون تقدميون نعمل لصالح أوسع الجماهير على هدى من كل تلك العوامل الخاصة بنا ، والصمود الفكرى دفاعاً عن هذه المعاني هو الذى يجعل شجرة حضارتنا الجديدة تنمو بثمار تضاهي متطلبات العصر وجذور راسخة فى تراب الوطن . ثم إن الصمود الفكرى لا يتم إلا بإنجاز آخر هام وهو توسيع قاعدة هذا الصمود ونشر الاقتناع بمعناه وأهدافه . »

هذا هو المنهج العلمى لإحياء الشخصية المصرية الأصيلة القادرة على مواجهة التحدى فى فترات التاريخ الحاسمة . ويرى أرنولد توينبى أن بلورة الشخصية القومية إن هو إلا نتيجة إيجابية لعملية الرد على التحدى المصرى ، وأنه إذا كان هناك كثير منها فى تاريخنا الحديث يميز الإحساس بالقلق ، فإن ذلك ينبغى أن يكون حافزاً على العمل وليس حكماً بالإعدام لشل إرادتنا . وتاريخ الأمة لا يكتسب معناه الحقيقى المجسد إلا من خلال وضوح الشخصية القومية لها وبذلك يحدد الأصدقاء والأعداء على السواء مواقفهم منها . والقوى الفكرية والروحية والنفسية هى التى تبلور ملامح هذه الشخصية ، أما العناصر المادية والتكنولوجية فهى نتيجة لنشاط هذه الشخصية فيما بعد . ويؤكد معظم علماء الحضارة والتاريخ أن السبب الرئيسى المؤدى إلى اضمحلال أية حضارة هو الافتقار إلى وجود الشخصية القومية التى تمثل الطاقة الخلاقة فى دفع عجلة هذه الحضارة . فسواء أرجع الإنسان تدهور المجتمع إلى الإخفاق فى تدبير رد مناسب على التحدى ، أو عزاه إلى إخفاق الإدارة الحاكمة فى الارتباط عضوياً بالجماهير ، أو إلى انعدام المنهج العلمى ، أو إلى حلول الغريزة محل العقل ، فإن الخلاصة دائماً هى فقدان الشخصية القومية المتبلورة .

وضياع الشخصية القومية معناه استبدال الأفكار العظيمة والمبادئ الخلاقة بالخصومة الشخصية باعتبارها العوامل

المحركة في الحياة العامة ، وانعدام الأساليب الجديدة في الفن والعلم ، واندثار الفلسفات العظيمة ، وفقدان الإحساس بالأسلوب ، وتغلب الصبغة الذهنية المحدودة على انطلاقات الحياة الروحية . فهذا في حد ذاته يضع حدوداً قاتلة للتفكير والحكمة والمنطق ، وأيضاً نقص ديناميكية المجتمع وحيويته إزاء ما يحيط به ، وانعدام الأمل في المستقبل ، والإحساس بعقم الحياة وضيق المعنى والهدف منها . ويمكن أن نرجع كل هذه السلبيات إلى اضمحلال الشخصية القومية من الناحيتين الروحية والمادية ، فهذه الشخصية هي البوتقة التي تنصهر فيها كل تطلعات الأمة وتتحول إلى طاقة بناء زاخرة بالابتكار والتجديد والتطوير . ولذلك فإن اختبار ما إذا كان المجتمع قد بدأ يضمحل أم لا ، يصبح مسألة تحديد مدى البلورة والوضوح والتجديد والأصالة والمعاصرة الكامنة في شخصيته القومية .

ولإيمان السادات بكل هذا فقد أطلق الحريات لاعتقاده الجازم أن الشخصية المصرية لا يمكن أن تنضج وتنمو وتتطور إلا في جو مشبع بالحرية وفي مقدمتها حرية المناقشة وإبداء الرأي ، مهما كان هذا سبباً في هبوب تيارات عديدة فيها الخطأ وفيها الصواب . فالإنسان الحر هو الذي يهب للدفاع عن شخصيته وكيانه ، أما العبد فليس له من الشخصية أو الكيان ما يدافع عنه أصلاً . وفي هذا يقول ج. دي بويس في كتابه « مستقبل الغرب » ص ١٩٧ : « لقد اكتسب هذا المثل الأعلى القديم معنى جديداً في عصرنا . إنه يعني التحرر من عيوب الحكم الجماعي المستبد ، مثل مهاجمة المنازل ليلاً ، والرحيل عنها بلا عودة ، وتجسس الأبناء على الآباء ، وتجسس الزوجات على الأزواج ، والخوف من التلفظ بكلمة تثير غضب المسؤولين ، ومعسكرات الاعتقال ، وألوان التعذيب التي بلغت القمة من ناحية التقدم العلمي » .

ويؤكد دي بويس أنه من أجل الحفاظ على الشخصية القومية يتحتم المحافظة على الحرية بكل أنواعها المسئولة والناضجة ، وحتى إذا أصبحت الحرية من التقاليد الراسخة التي لا تقبل أي جدل أو نقاش فإنه من الضروري أن نذكر أنفسنا باستمرار أن الحرية كنز يستلزم يقظة أبدية ، فمن الممكن أن نجدها مهددة بشكل خطير بين يوم وليلة . ومهما كانت جذورها راسخة فإنها في حاجة ملحة ودائمة إلى الترسخ المستمر والتأصيل المتواصل ، وبخاصة أنه لا شخصية مميزة لأمة بدونها . ولذلك كان النصر النهائي دائماً في أية معركة لهؤلاء الذين يدافعون عن قضيتهم العادلة وبالتالي يحمون شخصيتهم القومية . وفي هذا يقول هيرودوت إن أحد الأسباب التي جعلت الإغريق يتصرفون على الفرس ، برغم التفوق العددي الكاسح والرهيب للفرس ، أنهم شعروا بأن رعايا أي طاغية لا يستحقون أن يكونوا أنداداً لمواطني الدولة الحرة الذين يعبرون عن إرادتهم الوطنية بالدفاع عن شخصيتهم القومية ، أما رعايا الطاغية فليسوا سوى أدوات صماء لتحقيق أهدافه التوسعية والعدوانية . وفقدان الدافع الإنساني والقضية القومية من أهم الأسباب المؤدية إلى الهزيمة المنكرة مهما كانت القوى المادية التي تساند الطغيان .

ولعل السادس من أكتوبر العظيم كان أول احتكاك فعلي بين الشخصية المصرية العريقة المتماسكة وبين الشخصية الإسرائيلية ذات الروح المتبعة والملاحم المطموسة ، هذا إذا كان لإسرائيل شخصية قومية من الأصل . وهذا شيء نشك فيه كثيراً إذاً لا يعقل أن تأتلف أمة من قوميات مختلفة في الحضارة والثقافة والتاريخ والتراث والتفكير والوجدان . . إلخ ويصبح لها بعد ذلك شخصية قومية ذات ملامح متميزة وخصائص محددة . فنحن نعلم أن الرابطة الوحيدة التي جمعت الإسرائيليين في فلسطين تتمثل في العنصرية الضيقة والعدوان البربري . وهي رابطة لا يمكن أن تقيم أود الشخصية القومية لأية أمة ، وبالتالي لا بد أن يكون هناك من الصراع والتفرقة والتحيز ما يجعل المجتمع منهاراً من أساسه . وهذا الكلام ليس على سبيل الفخر بالشخصية المصرية لأن أحداث أكتوبر المجيدة جعلته واضحاً للعيان مثل الشمس . فقد أغرمت إسرائيل طوال سني الهزيمة على الجمعية بأنها المجتمع المثالي المتحضر

الوحيد في الشرق الأوسط ، وأن تقدمها الحضارى هو الذى منحها هذه السيطرة على جيرانها المتخلفين . وكان جنودها يمرحون وراء التحصينات الطبيعية والصناعية كما لو كانوا سادة هذه المنطقة . ولكن عندما جاء السادس من أكتوبر العظيم وواجهت الشخصية المصرية بكل حضارتها وعراقتها وتماسكها ، الشخصية الإسرائيلية بكل تصنعها وأوهامها وعنصريتها ، لاذ الجنود الإسرائيليون بالفرار برغم احتمائهم بالتحصينات المنيعة المجهزة بأحدث الأساليب العلمية والوسائل التكنولوجية للدفاع والهجوم على حد سواء ، وبرغم النفخة الكاذبة التى صدقوها عن تفوقهم الأسطورى . واكتسح الجنود المصريون كل شىء فى طريقهم برغم طول سنى الهزيمة والمرارة والألم . ولم يكن هذا من المعجزة الخارقة فى شىء ، بل كان انتصاراً طبيعياً ومنطقياً جداً لشخصية قومية عريقة عراقية التاريخ الحضارى للإنسانية كلها ، على شخصية تدعى القومية بينما لم تخلقها سوى أطماع الاستعمار فى منطقة الشرق الأوسط ، ولم تجد سوى العنصرية والعدوان لتقتات عليهما . ولم يكن انتصار السادس من أكتوبر انتصاراً للقوات المسلحة المصرية فحسب بل كان انتصاراً للشخصية الحضارية لمصر كلها وفى هذا يقول السادات فى خطابه فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ :

« لقد كنت أعرف جوهر قواتنا المسلحة ، ولم يكن حديثى عنها رجماً بالغيب ولا تكهنات ، لقد خرجت من صفوف هذه القوات المسلحة وعشت بنفسى تقاليدنا ، وتشرفت بالخدمة فى صفوفها وتحت ألويتها ، إن سجل هذه القوات كان باهراً ولكن أعداءنا : الاستعمار القديم والجديد والصهيونية العالمية ، ركزت ضد هذا السجل تركيزاً مخيفاً لأنها أرادت أن تشكك الأمة فى درعها وفى سيمها ، ولم يكن يخامرنى شك فى أن هذه القوات المسلحة كانت من ضحايا نكسة سنة ٦٧ ولم تكن أبداً من أسبابها » .

ودور القوات المسلحة يبرز أيضاً فى كلمة ألقاها عبد الله نديم فى القرن الماضى ، فهو يعتقد أنها الدرع الواقى للشخصية المصرية من كل نوايا عدوانية . يقول عبد الله نديم فى وداع فرقة عسكرية تتأهب للذهاب إلى ميدان المعركة :

« من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل ، عرف ما وصلت إليه من الشرف ، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات ، فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ، ولا يلحقكم فى إدراكها لاحق ، ألا وهى حماية البلاد ، وحفظ العباد ، وكف يد الاستبداد عنها . فلکم الذكر الجميل والمجد المخلد ، يباهى بكم الحاضر من أهلنا ، ويفخر بأثركم الآتى من أبنائنا . ولقد ذكرتم باتحادكم ، وحسن تعاهدكم ، ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة ، من مبايعة أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم ، فصاروا يعنونون بالعشرة المبشرين بالجنة ، وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان . وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهلکم من كل ما يذهب بالثروة ، أو يضعف القوة ، أو يخذل الشرف ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم » . ويقول حمدى لطفى فى كتابه « أنور السادات : قصة إيمان بالعسكرية المصرية » إن السادات كان حريصاً دائماً على تركيز الإحساس بالأصالة المصرية فى نفوس الضباط والجنود طوال خدمته بالقوات المسلحة . يقول حمدى لطفى ص ١٨ :

« لقد ظل السادات مؤمناً بالعسكرية المصرية فأعطاه من روحه صياغات وطنية جديدة حرص على نشوئها وارتقاها فى أسلحة الجيش التى خدم بها ، كما كانت نوازعته التى يحملها فى ثناياه تدفعه للعمل بتركيز وتكثيف على التفاف الجماعة حول هدف واحد ، وتماسك هذه الجماعة وارتفاعها فوق المثالب والخلافات الصغيرة ، لتتشرى وتثرى من حولها . . .

وكان إحساسه متدفقاً دائماً بتأصل الجنود المصرية العريقة ، ونبتها البشرى ، أبنائنا ، أفراد قواتنا المسلحة ، أمس . . . واليوم . . . وغداً ، فعرف « زملاء الدفعة ، ثم رفاق السلاح » قيمه ومقاييسه حية نابضة خصبة ، تعطى وتجود دائماً بالثراء الإنساني الذى خصه الله به ، برغم نشأته البسيطة وما تعرض له فى شبابه من تنكيل ومطاردة .

كان السادات ، وكل ما أذكره ، حدثنى فيه باستفاضة قدامى المعلمين ، ومنهم من ترك الخدمة العسكرية قبل قيام الثورة ، وبعضهم من تنبأ له بالهزيمة أمام الإنجليز ، حتى شاهدة وهو الضابط الصغير يقف فى وجه ونشاط ومشروعات القيادة الإنجليزية بالشرق الأوسط ، ولكنهم فى الأعماق كانوا يأملون فوزه ، فصريته وعقيدته القتالية التى عمل على تمصيرها بالرغم من أنف كبار القادة البريطانيين ، كانت أحلى وأعظم ما يرجو الإنسان أن يتحلى به ، وبخاصة لدى الضباط المصريين . .

كان السادات متصلاً اتصالاً وثيقاً بالحياة ، وكان يقول لقادته وزملائه :

« إن بعضنا غارق فى إحساس بالرضا عن نفسه وعن عمله ، وهذا البعض ببساطة يفتقر إلى هزة كبيرة ، هزة تقوده إلى فهم جديد ينقذه من التخلف النفسى ، بل من السجن الانفرادى الذى أغلقه على نفسه ، دون أن يرى أنه قابع بين أسوار هذا السجن » . .

جملة ذكرها لى اللواء متقاعد محمود مختار ، أحد قادة السلاح ، الذين أحيوا إلى المعاش قديماً :

كان شاباً بسيطاً يمثل أغلبية شباب مصر ، ثرياً بحبها مؤمناً بضرورة التضحية بالروح من أجلها ، وباقتدار المقاتل المصرى على تحرير أرضه وحماية استقلالها ، وبالقيم التى ترقد فى داخله وبالطاقات الخلاقة لديه ، وبقوة الدفع التى يملكها . ومن أجل هذا استثمر نفسه فى المجموع حوله ، وبتميز وموضوعية عمل دائماً بمفهوم لا خطوة محللك سر ، والنظر إلى الماضى فى شجاعة .

ويذكرنا موقف السادات من الإدارة الإنجليزية للجيش المصرى بموقف مصطفى كمال من الإدارة الألمانية للجيش التركى ، يقول مصطفى كمال فى كتاب « الذئب الأغبر » للكاتب الإنجليزي ه.س. ارسترونج ص ٤٩ : « إنه لمن الجنون أن نسمح للألمان لكى يتحكموا فى جيشنا الذى يعد الدرع الواقى الأساسى للدفاع عن حياتنا . نحن الأتراك يجب أن ندبر أمورنا بأنفسنا . وإنها لإهانة قومية أن ندعو البروسيين للقيام بهذه المهمة بالنيابة عنا » . وبرغم الفارق الشاسع بين ديكتاتورية مصطفى كمال وديمقراطية أنور السادات ، إلا أنه من الواضح أن السادات قد أعجب بدعوة مصطفى كمال إلى التأصيل الفكرى إذ أنه يقول فى مجلة « التحرير » فى أول مارس ١٩٥٤ :

« أما الكتاب الذى أثر فى تفكيرى فكان « الذئب الأغبر » بالإنجليزية ومؤلفه « ارسترونج » وهو يروى تاريخ حياة مصطفى كمال أبو تركيا الحديثة . . قرأته وأنا فى العشرين من عمرى ، ولم أعرف بعد قراءته طعم الراحة » .

وكان قرار السادات بإنها مهمة الخبراء السوفيت استمراراً لنفس خط التأصيل الفكرى الذى يحتم اعتماد المصريين على أنفسهم أساساً . وتعود جذور هذا التأصيل المصرى إلى العصور التى سبقت عهد تحتمس الثالث . والمعلومات القتالية مستقاة من بحث ممتع نشره ر. ا. فوكنر فى المجلد التاسع والثلاثين من مجلة « الآثار المصرية » وفيه يوضح أنه عندما كانت نذر الحرب تتجمع فى الأفق فى عصر المملكة القديمة ، كان « الموظفون المحليون يطالبون بتشكيل وقيادة حصنة من القسوات الخاضعة لسلطتهم » . ومن ثم كان الجيش كامل التعبئة يشتمل على عدد كبير جداً من الكتائب المحلية على هيئة المليشيا ، مكونة من رجال سبق أن أدوا الخدمة العسكرية فعلاً أو حصلوا على قسط معين من التدريب العسكرى . وتوجد على جدران مقابر المملكة القديمة فى سقارة مناظر توحى بأن القوات المصرية كانت حسنة التدريب ، عالية الكفاءة ومن المحتمل أن طلائع القوات كانت تشكل من جنود نظاميين مدربين

يدعمهم مجندون . وكان الملوك يعملون إلى استدعاء الرجال وحشدتهم من جميع أنحاء البلاد إذا ظهرت نذر الحرب في الأفق .

وكانت القوات تحشد أيضاً في وقت السلام لا لأداء المهام العسكرية فحسب ، بل لتنفيذ المشروعات العمرانية العامة كالعمل في المحاجر ، وكان لقب « القائد » يطلق أحياناً على الموظفين الذي ينفذون أعمالاً ليست ذات طبيعة عسكرية ، وكانوا يعاملون بنفس الاحترام الذي يعامل به قادة الحرب . والتاريخ يقارن بين ثلاثة قادوا الحملات إلى سيناء ، وثلاثة تولوا أعمال المحاجر في وادي الحمامات وطره . وقد عرف عن هؤلاء القادة أنهم يعملون ولا يتكلمون ، فهم يؤمنون أن الأعمال أعلى صوتاً دائماً من الأقوال . وهذا على عكس الأقاويل والشائعات المغرضة التي تقول إن الشخصية المصرية بطبيعتها تميل إلى الكلام أكثر من إقبالها على العمل المجدى . فيقول ليونارد كوتريل في كتابه « الحياة في عهد الفراعنة » ص ٣١ :

« كان المصريون القدماء قوماً عمليين ، ولهذا كان التقدم الباهر الذي أحرزوه في الهندسة المعمارية والنحت والفلك والحساب وليد المنفعة الخالصة أساساً ، ولكنهم بعكس الإغريق ، لم تكن تهمهم المعرفة لذاتها لأنهم يهتمون بكل ما يعود عليهم بالفائدة العملية ، فالعبرة بالمحصلة النهائية وليس بمجرد النوايا الحسنة . ومع ذلك فإن الإغريق مدينون للمصريين القدماء بالشئ الكثير ، فقد وجدوا في مصر رصيماً هائلاً من المعرفة العملية النافعة التي كانت بمثابة المادة الخام لكل العلوم التي عرفت البشرية حتى عصرنا هذا . فلقد برع المصريون بدرجة مذهلة في الرياضيات العالية التي طبقوها بإتقان في حياتهم العملية ، وبالتالي كانوا أول من أدرك أهمية التكنولوجيا ، وليس أدل على ذلك من ضخامة مبانيهم وبالأخص الأهرامات التي كان بناؤها إماماً تاماً بالرياضيات العالية .

كانوا يعملون ولا يتكلمون ، ولذلك قل اهتمامهم بالفنون الكلامية مثل المسرح والخطابة . هذا ما عدا الحكم التي كان يدلى بها الحكماء من حين لآخر . ولكن نبوغهم امتد ليشمل الفنون الأخرى مثل النحت ، ولكن روائع فن النحت التي تذهلنا لم تخلق لذاتها ، بل إن صانعيها لم يكونوا يرغبون في أن تقع عين بشرية على الكثير منها ، لأن بعضها يحكى بدقة وبطريقة واقعية حياة الميت . ولهذا وضع في غرف المقبرة البعيدة عن الأنظار باعتبارها - أى المقبرة - المنزل الذي تسكنه الروح . وهناك ، بالإضافة إلى ذلك ، المناظر الجميلة المصنوعة من الجص أو المرسومة والتي ما زالت تثير بهجتنا وإعجابنا حين تقع عيوننا عليها في المقابر والمعابد ، تلك المناظر التي تصور لنا بوضوح رائع حياة المصريين القدماء اليومية . وهذه المناظر لم توضع في أماكنها للمتعة أو الزينة ، ولا للكلام عن ثراء الميت وأهميته ، وإنما كان الغرض منها سحرياً . وهو ضمان حصول الموتي في حياتهم الثانية على كل ما كانوا يملكونه ويتمتعون به في حياتهم الحاضرة : فللضابط الميت جنوده ، وللسيد الثرى مزارعه وضياعه ، فضلاً عن كميات هائلة من الطعام والذبائح .

ويقول ر. ا. فوكر في بحثه الذي نشر في المجلد التاسع والثلاثين من مجلة « الآثار المصرية » إن الحياة العسكرية في مصر القديمة كانت تعتمد أساساً على العلم والعمل والنظام والإيمان . وكانت الانتصارات العسكرية الباهرة التي أحرزها المصريون القدماء ترجع إلى تفوقهم المذهل في تكنولوجيا الحرب ، فكانوا يعتبرون الحرب فناً من الفنون الحيوية التي يتحتم عليهم إجادتها دفاعاً عن وطنهم . بل إن معظم الأنظمة العسكرية المطبقة في جيوش العالم اليوم تنهض على الأسس الأولى التي وضعها المصريون . فثلاً كانت الخدمة العسكرية - التي لم تعرف في أوروبا إلا منذ قرنين تقريباً - نظاماً معمولاً به في المراحل المبكرة من تاريخ مصر . فنذ خمسة آلاف سنة كان الشبان المصريون في سن الخدمة العسكرية يستدعون لأداء هذه الخدمة في المناطق المحلية ، ثم يعودون بعد ذلك لأعمالهم العادية ،

ولكنهم يقفون تحت الطلب إذا دعت الضرورة لاستدعائهم وكانت الدولة تقدم لهم الغذاء والكساء في أثناء فترة الخدمة العسكرية . ولكننا لا نعلم هل كانوا يحصلون على أجور أو لا .

وكان الملوك والقادة المصريون يؤمنون أن دور الجيش ليس مجرد حماية الأراضي المصرية ولكنه حماية الشخصية المصرية بكل ما تحمله من حضارة وثقافة وتراث وتقدم . ولذلك كان من الوظائف الهامة التي اضطلعت بها القوات في عصر المملكة القديمة وما بعدها تعيين حاميات للقلاع ونقط الحراسة الموجودة على حدود مصر ، والطرق المؤدية إلى آسيا والنوبة . وبذلك كان الجيش عاملاً سواء في الحرب أو السلم . فقد كان المقياس الوحيد لحيوية وأهمية أى عنصر في الأمة هو الدور العملى الذى يؤديه هذا العنصر في حماية الأمة وأمنها وسلامتها ورفاهيتها . ومن هنا كان اهتمام المصريين بالجيش ، فقد كان دوره حضارياً أكثر منه حربياً . ولذلك كان تنظيمه على مستوى تنظيم أحدث جيوش عالمنا المعاصر . وبدون ذلك الجيش المتقدم ربما كان من المتعذر أن تنهض الشخصية المصرية بهذا الدور الحضارى الذى ما زال يذهل قرنتا العشرين . فقد كثر الطامعون في مصر وخيراتها ، ومن أجل الحصول على هذه الخيرات والموقع الاستراتيجى الممتاز ، كان الهدف إذلال الشخصية المصرية بكل كبرياتها ووضع أنفها في التراب . ولكن كان الجيش المصرى بالمرصاد لكل هذه المحاولات ، ليس بالاعتماد على الحماس الانفعالى وحده ، ولكن اعتماداً على التنظيم الفعلى ، فقد كان إيمان المصريين بالأفعال أكثر من غرامهم بالانفعال .

وتدل النقوش المتخلفة من المملكة الوسطى على أنه كانت هناك رتب عسكرية إلى جانب رتبة القائد أو الفريق فشلا كان هناك « قائد قوات الصاعقة » و « مدرب القوات غير العاملة » . ويحتمل أن « قوات الصاعقة » كانت مشكلة من رجال مختارين للقيام بأعمال الهجوم . أما رجال « القوات غير العاملة » فكانوا أصلاً رجالاً غير عسكريين ، ولكنهم سرعان ما أصبحوا « حرس الملك الخاص » الذى يرافقه كلما خرج للحرب . وكان « كتبة الجيش » يتولون الجانب الإدارى فى الجيش ، وكان عدد هؤلاء الكتبة كبيراً . وكثيراً ما نصادفهم عند إطلاعنا على سجلات الحملات . وكانت لهم أيضاً درجات مختلفة ، فهناك الكاتب الصغير الذى كان يدير شئون فصيلة صغيرة ، والمكاتب الكبير الذى كان يباشر أعمال كتبية كبيرة بكل عتادها وتموينها . وكانت أعمال هؤلاء الكتبة شبيهة بأعمال « صول التعيين » فى الجيوش الحديثة مع فارق واحد هو أن كتبة الجيوش الفرعونية كانوا مسئولين أيضاً عن تجنيد الشبان المطلوبين للخدمة العسكرية . ولكننا لن نستطيع الحصول على صورة كاملة للدور الحضارى الذى قام به الجيش المصرى القديم فى حماية الشخصية المصرية من أن تنطمس ملامحها على أثر الغزوات والحروب المتتالية ، إلا إذا درسنا سجلات المملكة الحديثة .

ففى عصر الأسرة الثامنة عشرة أصبح المصريون الشعب العسكرى الوحيد والأول فى ذلك الحين . فبعد سقوط المملكة المصرية الوسطى ، غزا مصر البرابرة الآسيويون ، الهكسوس أو « ملوك الرعاة » ولكن أمراء طيبة المحاريين استطاعوا طرد الهكسوس من مصر . وأنشأ خلفاؤهم الأسرة الثامنة عشرة ، بعدها بدأ مجد مصر العسكرى . ولقد صمم ملوك هذه الأسرة وهم أحمس وأمنيوفيس الأول وأمنيوفيس ومن تبعهم من ملوك يحملون اسم تحتمس ، على تأمين بلادهم ضد خطر الغزو من ناحية آسيا فى المستقبل . وكان الفرعون هو القائد الأعلى للجيش ، وكان هو الذى يتولى قيادته عادة فى الميدان . وكان الوزير - وعمله شبيه بعمل وزير الحرية الآن - يصدر أوامره إلى مجلس الحرب الذى يتولى مساعدته . أما فى الميدان ، فكان الملك يستشير كبار ضباطه قبل الاشتباك فى المعارك . وفى ذلك الحين كان الملك يحتفظ بجيش عامل كبير منظم على أساس قومى من جنود نظاميين .

وكان الجيش المصرى القديم لا يركن إلى الراحة والدعة أبداً ، فقد أدرك أن العمل المتواصل واليقظة المستمرة

والتطوير الدائم هو من الضمانات الكافية للحفاظ على معالم الحضارة المصرية . وعلى سبيل التأسيس الفكرى يقول السادات فى خطابه فى عيد العمال فى أول مايو ١٩٧٢ :

« إن الله سبحانه وتعالى أكرمنا بشيء واحد هو العمل . وشعبنا عبر عن عرفانه بهذا الكرم بشيء واحد هو الإخلاص لهذا العمل . كل ما حولنا ، كل ما على أرضنا ، لا يمثل إلا العمل ولا شيء غير العمل . الأرض الزراعية منذ الأزل عمل الإنسان ، الحضارة فى كل العصور والعهود عمل الإنسان ، الصناعة عمل الإنسان ، التطوير المستمر عمل الإنسان . عمل وجهد الإنسان بفكره وذراعه هو عطاء الله سبحانه وتعالى لنا ، نحمده عليه ، ونواصل الشكر إزاءه ، عرفاناً وتقديراً » .

ونحن لا نستطيع أن ندرك مفهوم الشخصية المصرية إلا من خلال العمل الحضارى المجسد لها . ولذلك كانت الشخصية المصرية هى هدف كل الغزوات العدوانية ابتداء من الغزوة الهكسوسية حتى الغزوة الصهيونية فى يونيو ١٩٦٧ . فإذا أصيبت إرادة المصريين ورغبتهم القوية فى العمل بالشلل فإن ملامح شخصيتهم القومية سوف تندثر وبالتالي لن تقوم لهم قائمة . ولهذا كان السادات يرجو مخلصاً ألا يستجيب أى مصرى أو عربى للحملات النفسية الشرسة ضدنا بقصد البلبلة والتشكيك التى هدفها النهائى هو احتلال نفوسنا قبل احتلال أجزاء من أراضينا . ومن هنا تبدو ضرورة وحتمية الالتزام بقيم المجتمع العربى وتقاليد الشخصية المصرية ، وتوكيد ذاتية الإنسان المصرى العربى ، ورفض أى تيار يهدد هذه القيم . فـ شعب مصر الذى أسهم فى كل معارك عالمنا العربى من أجل تحقيق الحرية وعلى طريق البناء الاقتصادى والتقدم الاجتماعى والتعمير الحضارى لن يتخلى عن مواصلة نضال يؤمن عن اقتناع أنه مسئولية تاريخية يحمل عبء قيادتها .

وتبدو حيوية فلسفة التأسيس الفكرى وضرورتها بعد التحول الكبير الذى عاشه العالم ابتداء من عام ١٩٧٢ بدخول الدولتين الأعظم - الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى - مرحلة الوفاق وتبادل المصالح فيما بينهما ثم انفتاح كل منهما على ما كان يعتبره عدواً له . هذا التحول فى السياسة العالمية يحتم على الشعوب والدول النامية ودول الشرق الأوسط فى مقدمتها أن تؤكد شخصيتها القومية وذلك بالاعتماد على قدراتها الذاتية قبل أى شيء آخر ، وأن تكون لطاقتها البشرية القول الفصل فى معاركها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية . وكان السادس من أكتوبر العظيم هو الدرس العملى والرائد فى مجال تأكيد وبلورة الشخصية القومية للمصريين والعرب على حد سواء . وقد نختلف فى العالم العربى اختلافاً شديداً فى آرائنا السياسية ومعتقداتنا الاجتماعية ، ولكن مسئوليتنا المشتركة هى أن نحافظ على شخصيتنا المميزة والمحترمة غير ملوثة بالمؤثرات العابرة والعوامل الطارئة . وليست هذه مسألة عاطفة ، فلا يهم كثيراً أن يمتدح بعضنا أفكار وآراء البعض الآخر ، إنما المهم هو أن نعرف بالصلة الوثيقة بيننا ، وباستنادنا بعضنا إلى بعض . قد لانستطيع فى الوقت الحاضر أن ندمج اندماجاً كلياً ، ولكننا نستطيع على الأقل المحافظة على الشخصية القومية لهذه الأمة العريقة . ففى عالم رأى من الدمار المادى مثل ما رآه عالمنا ، تتعرض هذه الشخصية القومية أيضاً للخطر إذا لم نواصل يقظتنا المستمرة من أجل الحفاظ عليها . فهى الواجهة الوحيدة التى نستطيع أن نتعامل من خلالها مع العالم كله على أساس من الاحترام المتبادل .

هذا هو مفهوم السادات للشخصية المصرية والشخصية العربية على حد سواء . وهناك تنويعات جانبية تتفرع من هذا المفهوم وتتمثل فى روح القرية ، والكيان الأسرى ، وقضية الشباب ، والمرأة الجديدة . ولذلك آثرنا أن يدور كل فصل على حدة ، من الفصول الأربعة التالية ، حول تنويعة من هذه التنويعات الجانبية حتى تتكامل أبعاد الصورة فى ذهن القارئ . وسنبداً فى الفصل التالى بروح القرية فى فلسفة رائدنا فى التأسيس الفكرى : أنور السادات .

الفصل الثامن روح القرية

ترتبط روح القرية ، في فلسفة التأصيل الفكرى عند السادات ، ارتباطاً عضوياً بكل من مفهوم الإيمان عنده ، وكذلك الضرورة الأخلاقية ، والوعى بالتاريخ ، والتعمير الحضارى ، وأخيراً الشخصية المصرية . فليس الأمر مجرد إحساس رومانسى أو عاطفى ، أو حنين جارف إلى براءة الطفولة وحلاوة الصبا الذى ترعرع فى تلك البيئة الريفية الوداعة الهادئة الطيبة الكريمة ، ولكن المسألة تكمن فى أسلوب النشأة والتربية والتعليم والتفكير والخلق والسلوك . إنها نظرة عملية إيجابية أكثر منها نظرة رومانسية حاملة . ولذلك يقول مخاطباً ابنه فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » ص ٢٠ :

« والسنين التى عشتها فى القرية قبل أن أنتقل إلى المدينة يا بنى ، ستظل بخواطرها وذكرياتها زادا يملأ نفسى ووجدانى بالصفاء والإيمان ، فهناك تلقيت يا بنى أول دروسى فى هذه الحياة . . تعلمتها على يد الأرض الطيبة السمحة ، التى لا تبخل على الناس بالزرع والثمر . . وتعلمتها من سماء قرينتنا الصافية المشرقة . . تعلمتها فى ظل الجميزة الخضراء الصامدة ، وعلى أغصان الصفصافة الخجول الوديع . . تعلمتها على حافة الجدول الصغير ، الذى ينقل إلى الحقول ترياق الحياة فى رضا وقناعة . . تعلمتها فى ظلال الأمسيات البريئة مع زملائى من شباب القرية ، ونحن نلعب تحت ضوء القمر فى شوارع القرية الساكنة الهاجعة » .

والحنين الشديد إلى القرية عند السادات لا يعنى رفض روح العصر والحضارة الحديثة ، ولكنه يعنى رفض التعقيدات والتناقضات والصراعات والأزمات التى تنتجها هذه الحضارة . فلقد أدى التخصص الضيق والتنافس المجنون إلى انتهاك القيم الروحية للإنسان ، مما أفقد الإنسان ثقته فى نفسه ، وأضاع راحة باله وسعادته النفسية ، وكان هذا ثمناً باهظاً مقابل الامتيازات المادية والإنجازات التكنولوجية التى حصل عليها . والتمسك بروح القرية ليس دعوة إلى الوراثة أو إلى البدائية بحيث نولى ظهورنا لمدينة العصر ، ولكنه نداء للعودة إلى القيم الإنسانية والإحساسات السامية التى نسيناها فى حومة الصراع من أجل الحصول على كل الامتيازات المادية الممكنة . وروح القرية تعنى أيضاً التخلي عن العبث الذى يسود حياتنا المعاصرة المعقدة ، مما أدى إلى انعدام المعنى والهدف من معظم تصرفاتنا وسلوكنا . وقد مر المجتمع العالمى بمرحلة عصيبة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية تحطم فيها العديد من الأصنام ، وانهار فيها الكثير من التقاليد التى كانت تعد من المقدسات التى لا تمس ، منها على سبيل المثال أن الإنسان مخلوق حضارى ولا يصدر عنه إلا كل ما هو حضارى ، على حين أثبتت الحرب العالمية الثانية أن كل ما بناه الإنسان من حضارة وتراث يمكن أن ينهار فى لحظات بفعل إنسان آخر مثل هتلر . وهذا نتيجة طبيعية للتفتت والضيايق والتشويه والتشتيت والعبث الذى نتج عن صراعات الحضارة المادية المعاصرة ، مما أفقدنا القدرة على رؤية الأشياء بحجمها الطبيعى وذلك من الأعراض الأساسية للانحطاط الفكرى الذى لم تتخلص منه الإنسانية عبر تاريخها الطويل .

وقد أدت القوة الهائلة التى امتلكتها الآلات التى لا نعرف عنها إلا القليل ، وشعور أكثرنا بأنه قد وقع فى شرك وظائف لا تزيد على أن تكون جانباً ضئيلاً من عملية ضخمة ، كل هذا أدى إلى وضع لا يسمح لنا بفهم مغزاها أو أسلوب سيرها ، وسيطرة إحساس العبث والضيايق على الإنسان المعاصر نتيجة لسيطرة الآلة على حياته ، فقد

ابتكر الإنسان الآلة حتى تكون في خدمته ثم انقلب الأمر في عبثية مضحكة مثله بحيث أصبح الإنسان في خدمة الآلة . وتحول الناس بالتالى إلى تروس في الآلة الاجتماعية الكبيرة بفعل التخصص ، كل يعيش في قوقعته ومشكلاته يكاد لا يجد لغة يخاطب بها زميله في العمل أو جاره في السكن . حتى إن الشاعر الألماني هاينى عبر عن هذا العصر الآلى بقوله : « لقد أصبحت الحياة مفتتة أكثر مما ينبغى » .

ومع تضخم المشكلات وتعدد الحياة بدا العالم بأسره كأنه أكداًس مختلطة من الشظايا ، إنسانية وغير إنسانية ، عتلات وأيد ، عجلات وأعصاب ، حوادث يومية تافهة وأحداث مثيرة عابرة ، وأصبح خيال الإنسان عاجزاً عن التأليف بين آلاف التفاصيل المتباينة التى يتلقاها يومياً مما أفقد حياته معناها وبالتالى الهدف الذى يعيش من أجله . ومن هنا كان التمسك بتقاليد القرية وأخلاقها محاولة عملية وجادة للتخلص مما يعانى منه إنسان النصف الثانى من القرن العشرين ، سواء كان يعانى من التفكك أو التشتت أو امتزاج الأفكار غير المتجانسة أو فقدان وضوح الرؤية أو عدم القدرة على تحديد الوسيلة والغاية أو على الفصل بين الواقع والخيال ، أو التكرار الناتج عن الافتقار إلى الأفكار الجديدة الخلاقة ، أو الرتابة التى تحول الحياة إلى مجرد وجود بدائى لا طعم له ولا معنى .

وعندما نقول إن روح القرية هى نظرة عملية وإيجابية أكثر منها نظرة رومانسية حاملة ، فإننا نشير إلى الفوارق الجوهرية بين مفهوم السادات ومفهوم العصر الرومانسى فى أوربا والذى بلغ قمته فى القرن الماضى كنوع من مقاومة طغيان الانقلاب الصناعى الذى سلم مقادير أمور العالم إلى عنصرى التخصص والتنافس . وقد تميز العصر الرومانسى بحنينه الفياض إلى الطبيعة البدائية والوحشية التى لم تمسها يد الإنسان ، وإلى العصور الخوالى ، بل وتقديره الجسم للعصور الوسطى مما يتجلى فى نظرتهم إلى الماضى باعتباره شيئاً له قيمته الدائمة فى حد ذاته كنتاج باهر للعقل الإنسانى ، كما يتجلى فى اعتبار كل عصر وليكن العصر الوسيط مرحلة من مراحل التطور الإنسانى نحو التعمير الحضارى ، هذا فضلاً عن الإحساس الوجدانى بما للماضى من حنين يشد الإنسان إلى ماضيه كما يشد الشعوب إلى ماضيها فيسندو فى محاولة تقليده أو بعثه أو الإشادة به إشادة تدعو إلى العودة إليه وإحيائه كما يبدو من الشعوب ذات الحضارات القديمة الآفلة فى محاولتها للتعمير الحضارى لا بإحياء الماضى فحسب ولكن لأنها ترى فى أمجاد الماضى حافزاً على التعمير الحضارى . وهو الحنين الذى أدى بجان جاك روسو الرائد الأول للرومانسية ، إلى العودة إلى أحضان الطبيعة وتمجيد ما أطلق عليه اصطلاح « الوحشى النبيل » .

هذا الحنين التاريخى هو الذى أدى إلى العصر الرومانسى ، وكانت بداياته الأولى واضحة فى الأدب الأوروبى كما نجد فى قصيدة « القرية المهجورة » للشاعر الإنجليزى أوليفر جولدسميث الذى عبر فيها عن أساه وألمه لما أصاب أوبرن القرية التى أودى الانقلاب الصناعى بطابعها الريفى البسيط وحياتها البريئة الوداعة . فالقصيدة كلها حنين جارف للحياة الريفية الطبيعية الهادئة . وكان الوجدان الأوروبى ممهداً لهذا الاتجاه الرومانسى بحيث طغت موجته على معظم إنتاج المفكرين والأدباء من أمثال وليم وردزورث وشيللى وكينس وكولردج والفريد دى موسيه ومدام دى ستال وفيكتور هوغو وجيته وشيللر وغيرهم . وهذا الاتجاه أشبه بما يسميه جون كينيث جلبريث أستاذ الاقتصاد بجامعة هارفارد « الحنين الاجتماعى » ويقصد به حنين الإنسان إلى الأشياء القديمة البائدة وإن لم يرغب فى العودة الفعلية إليها . فيقول جلبريث إنه « على الرغم من أننا كثيراً ما نفضل القاطرة البخارية بفحيحها وعجيجها على قاطرة الديزل الصامتة المعقدة ذات المحرك الداخلى فإننا لا نصر على العودة إليها » . ولكنه يرى عكس ذلك فيما يختص بالحياة الاجتماعية . فإن الحنين إلى النظرة الاجتماعية القديمة يؤدى بنا فى النهاية إلى تفضيلها والعودة إليها ما أمكن ذلك .

ويرى بعض المفكرين أن الحنين إلى الماضى حيث البراءة والبساطة والوداعة والسباحة هو الذى يدفع المؤرخ

بحثاً في مخلفات الماضي لا بقصد المعرفة في ذاتها ولكن لكي يستشف من معرفته بالماضي ما يرضى حنينه إليه ويشبع عاطفته بما يطالعه من صور ترضى خياله ؛ يراها أحياناً ممثلة للبطولة كما رآها كارليل أو في الأدوار التي لعبها القادة العظام على مسرح التاريخ الإنساني كما رآها بلوتارك ، أو يراها في تميز حضارة من حضاراته بطابع معين أو في الصورة الإنسانية لجهد الإنسان على الأرض . وطبقاً لهؤلاء المفكرين فإنه مهما اختلفت اهتمامات المؤرخين فإنها بلا شك تعبر عن حنينهم المشترك لجانب من جوانب الماضي العديدة .

ولكن روح القرية في فكر السادات لا يقصد بها مجرد الحنين أو العودة إلى الماضي . فهي - كما قلنا - نظرة عملية إيجابية أكثر منها نظرة رومانسية حاملة . فالسادات يعتقد أنه ليس كل ما في الماضي إيجابياً ومثالياً ويتحتم اتباعه ، ولكنه يؤكد أن النظرة الموضوعية تحاول بقدر إمكانها تجنب سلبات الماضي وتدعيم إيجابياته في الوقت نفسه . وعندما ينادى بإعلاء قيم القرية وتقاليدها وأخلاقياتها فإنه بذلك يدعم المثاليات التي افتقدناها من جراء الصراع المادي الرهيب الذي أنتجته المدنية المعاصرة . وهذه المثاليات تبدو واضحة في أخلاقيات القرية التي تنهض على الوفاء والحب والتعاطف والتراحم والتعاون والتسامح والكرم والطيبة والبراءة والإيثار والتضحية . وفي هذا يقول السادات في خطابه في مجلس الشعب في ٢ يونيو ١٩٧١ :

« علينا ألا ننظر إلى الماضي إلا بقدر ما نفيد من تجربته . لقد أراد البعض أن يستغلوا مراكزهم وأن يفرضوا سلطة لا يملكونها على هذا الشعب وعلينا أن نضع الضوابط والحدود التي تضع لكل سلطة حدودها وتنظم التعاون بينها وإن أبعاد الأحداث التي مرت بنا يجب ألا تصرفنا عن المعركة ولكن يجب ألا تنسينا واجبنا في تطهير كامل يصحح أوضاعنا تصحيحاً كاملاً لكي تستمر مسيرتنا أقوى وأقدر دائماً وباستمرار . ومن ذلك كانت مطالبتى أن يتضمن دستور جمهورية مصر العربية باباً يطلق عليه باب الأخلاق . إن القرية المصرية التي تعتبر النواة لشعبنا المصرى زاخرة بالقيم العظيمة التي يمكن أن تكون هادية لنا على طريقنا » .

وروح القرية تسعى إلى أن يسترد الفرد كيانه الذي فقده في حومة الصراع الوحشى على المكاسب المادية ، لأنه بعد أن كانت سعادة الفرد هي الهدف في حين أن كيان المجتمع هو الوسيلة ، انقلبت الآية وأصبح كيان المجتمع هو الهدف في حين تحتم فناء كيان الفرد داخل الكيان الكبير بحيث لم يتعد دوره دور الترس الصغير في الآلة الاجتماعية الكبيرة بعد أن كان سيداً لموقفه في المجتمع القديم . وفي هذا يقول الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل إنه كان لتأثير الفرد وفاعليته في المجتمعات القديمة أساس من نظام اللامركزية السائدة في المذاهب السياسية والاقتصادية في الماضي . كان الفرد المتميز ينشأ في الماضي بفضل مجتمع أو هيئة معينة ينتمى إليها ويلتزم بخدمتها والنهوض بها . وكانت تجري بين هذه الهيئات منافسة وتسابق يثير في أفرادها حمية العمل الجاد من أجل التميز ، كما نرى في المدن الإغريقية القديمة حيث كان لكل مدينة فنائها وفيلسوفها وعالمها ، أو كما نرى في إمارات عصر النهضة في إيطاليا حيث كان لكل إمارة فنائها وفيلسوفها وعالمها أيضاً . لكن عالم اليوم هو عالم الإمبراطوريات الكبيرة التي يضع فيها ارتباط الفرد بمجتمعه ويضع معه أيضاً شعوره بالانتماء إلى أسرة أو مجتمع محدود يعرفه ، كالقرية مثلاً ، ولم يعد عنصر المنافسة الشخصية والتشويق في العمل الابتكارى موجوداً بنفس الدرجة التي كان موجوداً بها حين كانت المنافسة ذات الروح الرياضية والتشويق الدافع إلى الابتكار حافزاً للفرد على الإتقان والتميز ، فلم يعد فنان مانشستر اليوم يشعر نحو فنان شيفيلد بما كان الفنان الأثيني يحس به نحو الكورنثي أو الفنان الفلورنسي نحو الفينيسي .

فالكليات الاجتماعية الكبيرة في العصر الحديث التي تجند الفرد في خدمتها لا تجعل له مكانته القديمة التي تبرز شخصيته من خلال إنتاجه . وضاع في علاقات الإنتاج الحديث ذلك الشعور بالتمتع بملكية العمل أو الاعتزاز به ،

لذلك فقد أصبحت أهم مشكلات الإنتاج الحديث هو إعادة ذلك الشعور الذى كان عند الفلاح والعامل والمنتج القديم . ولا سبيل إلى ذلك فى رأى برتراند راسل إلا الرجوع إلى نوع من المحلية أو اللامركزية التى تعيد للعامل شعور انتهائه إلى أسرة معينة يعرفها ويشعر بالارتباط التام معها بحيث يمكنه فى النهاية أن يقول : « هذا هو عملى أو إنتاجى أو عملنا أو إنتاجنا » . ولعل هذا يتجسد فى أجلى صورة فى روح القرية التى تمنح لكل ذى حق حقه . وخير خدمة يمكن أن تؤدي لتطهير الحضارة المعاصرة من شوائبها ورواسبها وصراعاتها ، هى تطوير روح القرية وتمكينها من السيطرة على تيار العصر بكل سرعته حتى تضع له الضوابط والحدود الكفيلة بتجنب سيطرة قانون الغاب ، وتجعله ينطلق فى الاتجاه الانسانى المنشود .

وروح القرية وأخلاقياتها من الأهمية الحيوية بحيث نجد المشرعين القانونيين وهم يحاولون فرضها على الكيانات الاجتماعية الكبيرة من خلال سن القوانين التى تضع الضوابط والحدود للسلوك الإنسانى داخل المجتمع الكبير . فإنه إذا كان لهذه الكيانات الضخمة سلطان كبير على الأفراد فى نوع إنتاجهم فإن تأثيرها على حياتهم الأخلاقية أمر ضرورى لتربطهم واستمرار حياتهم . ويظهر هذا السلطان فى القواعد العامة والتشريعات الأخلاقية التى يأخذ بها الكيان الاجتماعى الكبير فى عالمنا المعاصر . وهذه القواعد والتشريعات هى التى تحفظ للجماعة بقاءها ، غير أن الكيان الفردى للمواطن هو الذى يضئ قيمة على هذا البقاء ، بل يضمن له الوجود من الأساس لأنه العنصر الرئيسى الذى يقوم بوضعه موضع التنفيذ . ويبدو سمو أخلاقيات القرية فى أنها لا تؤمن بأن القيام بالواجبات نحو الجار مثلا هو مجرد أمر تفرضه الأخلاق المدنية العامة ، فالسمو الأخلاقى للإنسان لا يقتصر على مجرد أداء الواجبات ولا ينبغى أن تستمد الأخلاق السامية مصدرها دائماً من الواجب كفرض لا مفر منه بل من تلقاء ذاتية الفرد . ومن هنا كانت المتعة التى يستشعرها القرويون والفلاحون فى قيامهم بالواجب تجاه أبناء قريتهم . ولذلك يقول السادات لعبد التواب عبد الحى فى مجلة « الإذاعة » بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٥٩ : « فى القرية الطنبور والحقول وصوت ماكينة الطحين . . فى القرية بساطة الإنسان وأصالة المجتمع . . فى القرية السلام » . وعندما سأله عبد التواب عبد الحى : « أنت ابن الريف . . ماذا بقى لك من طباع الريف الغضة ؟ » أجاب السادات : « لا أعرف بالضبط ماذا بقى من طباع الريف وعاداته . . ولكنى أعتقد أننى لو تخليت عن الروح الريفية التى تسرى فى دمنى ، سوف أفشل حتماً فى حياتى » .

ولم تكن روح القرية مجرد إحساس ممتع عند السادات ، بل كانت سلوكاً عملياً مجسداً لكل مقوماتها . فالقرية عنده هى الوحدة الإنسانية الأولى التى يمكن أن ينطلق منها كل نشاط إنسانى خلاق . وفى هذا يقول النقيب رفعت ماضى لحمدى لطفى فى كتابه : « أنور السادات : قصة إيمان بالعسكرية المصرية » ص ١٥٣ :

« كان لى شرف الانتساب إلى نفس القرية التى ولد فيها الرئيس السادات ، وقد زاملته فى مدرسة الأقباط الابتدائية بقرية طوخ دلقة ، وتبعد قليلاً عن قريتنا ، بل كنا فى (كتاب) واحد يملكه الشيخ عبد الحميد عيسى قبل المرحلة الابتدائية . . وفى سلاح الحدود خدمت معه ، كان عليه أن يحاضرنا بمدرسة اللاسلكى بالجبل الأصفر ، وبعد دروس اللاسلكى يبدأ درس الوطنية ، وتوعية الجنود خاصة ممن كانوا فى حاجة إلى التوعية السياسية وفهم ما يدور فى بلادهم . .

ومن أبناء قريته عمل معه عدد ليس بقليل من شباب عمره فى إعداد القنابل اليدوية بعد تدريبهم عليها ، لإلقائها على معسكرات الاحتلال البريطانى . . وفى عام ١٩٤٢ ، كان قادة سلاح الحدود من الضباط الإنجليز ، وكثيراً ما شهدنا مواقف وطنية له ضد تعسف الضباط الإنجليز ومحاولاتهم المستمرة للنيل من كرامة ومعنويات الجنود المصريين ..

وأذكر أنه اعتقل ثلاث مرات في معتقل ماقوسة بالمنيا ، وفي معتقل الزيتون ، وفي معتقل هاكستب ، ودخل سجن الأجانب ، وسجن مصر ، بشرف الاشتغال بالوطنية . . وكنا نجمع النقود من زملائنا لزيارته في سجن الأجانب ، فثمة ضابط إنجليزي كان لا يسمح بالزيارة إلا في مقابل جنبيين عن كل لقاء به .

وفي قريتنا وهذا للتاريخ ، حرص الرئيس السادات على معاونة عدد كبير من الفلاحين على تعليم أبنائهم قبل الثورة ، حتى المرحلة الجامعية ، وما عرف بفلاح يواجه أزمة إلا وأسرع إليه يقف إلى جانبه ويمده بأقصى العون . هذه هي روح القرية عندما تتحول إلى سلوك عملي ، ولذلك يسعى السادات بكل إمكانيات المنهج العلمي إلى تخطيط شامل لإصلاح الريف وحل مشكلاته ، وخاصة أن الريف المصري يشكل أكثر من ثلث تعداد السكان ، ويشكل أيضاً المصدر الأساسي للإنتاج الزراعي كله . ولذلك يمثل الريف نقطة البداية الوحيدة للانطلاق صوب التعمير الحضاري الذي ننشده . ولذلك يؤكد السادات أنه « لا يمكن أن نتكلم عن بناء الدولة الجديدة طالما ظلت حياة الفلاح ، منتج الغذاء للملايين والخامات للعاملين بالصناعة ، على ما هي عليه » . ويقدم سعيد عثمان تحليلاً علمياً لهذه الحقيقة الخطيرة في كتابه « أحاديث حول الفكر الذي انتصر » فيقول ص ٣٥ :

« إن الريف المصري - نتيجة تراكم ظروف تاريخية عديدة من القهر والإهمال والاستغلال - يعيش في كثير من أرجائه حالة مؤسفة من التأخر . ومن الغريب أن بعض سكان الأجزاء الشديدة التخلف ، قد لا يشعرون بمدى هذا التخلف وقد لا يدركون ما بينهم وبين عصرهم من بعد ، فتخلفهم نفسه قد حجب عنهم إدراك ما يجري في الدنيا من حولهم ، فهم لا يرون غير واقعهم ، وبؤسهم يحول بينهم وبين معرفة حتى ما هم فيه من بؤس . . وهنا الخطورة في الأمر . إن هذه الحالة تؤدي إلى غياب عنصر الأمل وافتقاد الطموح والرغبة في التحسين ، وهي عوامل لا غنى عنها في أي عملية إصلاح . فالإصلاح يحتاج إلى المشاركة المتحمسة والكفاء ، إلى جانب التخطيط المستنير . وإذا عرفنا أن المهمة بالنسبة للنهوض بالريف ، وبالنسبة لأكثر مناطقه تخلفاً بصورة خاصة ، ليست مسألة وإنما هي ضرورة من ضرورات التنمية العامة للبلاد . . لتبيننا مدى جسامته المسئولية وضرورة البدء فوراً في عملية الإصلاح في الريف .

أضف إلى ذلك أن الفارق الحضاري بين ريف مصر ومدنها - والعاصمة بصورة خاصة - فارق هائل وغير معتاد في أي دولة من دول العالم . وقد كان ذلك مفهوماً في عهود سحيقة أو في عصور الظلام والقهر والاستبداد ، ولكنه غير مقبول ولا متصور الآن . . فنحن في النصف الثاني من القرن العشرين ، والفارق بين الريف والحضر في معظم دول العالم طفيف وغير صارخ ، إن كان ثمة فارق على الإطلاق . كما أننا نعيش في مجتمع اشتراكي يفترض المساواة وتكافؤ الفرص للجميع ، ويعمل على تعبئة موارد البلاد كلها بأسلوب علمي للتنمية الشاملة » .

وقد أكد الرئيس أنور السادات الحاجة إلى البدء فوراً في بذل جهود جديدة للنهوض بالريف ، في برنامجه للعمل الوطني الذي تقدم به إلى المؤتمر القومي الثاني للاتحاد الاشتراكي . قال : « إن أسلوب الحياة اليومية لفلاحينا الذين يكونون غالبية الشعب ، لم يلحقه تغيير حقيقي ، لا في وسائل وأسلوب الإنتاج ولا في السكن والغذاء والصحة ، ولا في تحصيل العلم والثقافة . »

إننا في الحقيقة نحتاج إلى عملية إصلاح شاملة للريف تضرب بجذورها في صميم مشاكله ولا تكتفي بالمشروعات السطحية وتنتزه عن الارتجال . . يجب أن نضع على الفور إجابات محددة لمشاكل الريف المصري المتأصلة كالأمية التي تصل نسبتها في كثير من المناطق إلى ما يزيد على التسعين في المائة ، والأمراض المتفشية وكثير منها أمراض متوطنة لا بد لها من علاج حاسم يقطع دابرها ، والبطالة السافرة والمقنعة ، والعادات السيئة وانتشار الخرافات والشعوذة .

إن المهمة تاريخية وجلييلة . . . وجديرة بكل ما يبذل فيها من جهد . والجهد يتألف من مجموعة من العناصر التي يجب حشدتها جميعاً لإتمام هذا العمل الكبير . وهذه خطوطها الرئيسية :

* تخطيط مركزي واع وجاد يشفعه تنفيذ محلي يكفل له أكبر درجة من المشاركة الشعبية .

* اعتماد أكبر قدر ممكن من الموارد المالية .

* توجيه أفضل العناصر الفنية وأقدر الكفاءات للعمل في هذا الميدان .

إن مثل هذا الجهد هو أفضل ما نبذله في عملنا الوطني من أجل بناء دولتنا الجديدة . . إنه أحسن استثمار على المستويين الإنساني والاقتصادي ، وعائده مضمون وكبير . فإذا كنا نريد بناء مصر الحديثة ، يجب أن ندخل الكهرباء والمياه الصالحة للشرب في كل أرجائها ، وأن نبني القرى الجديدة ونمد بينها شبكة المواصلات الحديثة ، ونبنى في كل قرية مدرسة على الأقل ووحدة صحية ومصنعاً صغيراً للصناعات البيئية . ويجب في الوقت نفسه أن نمد خطوط الاتصال بين سكان الريف والحياة المعاصرة ، بالتعليم والثقافة ونشر الوعي ، فبذلك نضمن مشاركتهم في عملية تطوير بيئتهم ، وهي مشاركة مطلوبة وضرورية . «

بهذا المنهج العلمي يمكن أن تسود روح القرية مستندة إلى التقدم المادي المنشود ، وبدون هذا التقدم المادي تظل روح القرية قيمة مجردة في حياتنا في حاجة دائمة إلى تجسيدها وتحويلها إلى طاقة حيوية وفعالة في حياتنا المادية المتحضرة . ولذلك يؤكد السادات في خطابه في المحلة الكبرى بمناسبة عيد العمال في أول مايو ١٩٧٣ أن القرية والمصنع هما في الوقت نفسه ، القلعة ، والمدفع ، وبالاعتماد عليهما معاً يمكن حماية حضارتنا وشخصيتنا القومية حتى تسايروا موكب العصر . ومن هنا كان المفهوم الشامل لروح القرية كطاقة حضارية دافعة ، فلا يقصد السادات قرية معينة أو قريته بالذات ، ولكنه يقصد ذلك القطاع العريض الحيوي في كيان الأمة . وفي هذا يقول نبيل أباطة في جريدة « الأخبار » بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٧٠ :

« وحب أنور السادات لقريته . . لا يطغى على حبه للبلد كله . . وهو لا يفضل قريته بأية ميزة على أي قرية أخرى . . فشلا الكهرباء لم تدخل القرية إلا بعد أن دخلت القرى المجاورة . . وعندما طالبه أهل قريته برصف الطريق الموصل من مركز « تلا » إلى القرية رفض أن يتدخل وقال لهم : « الطريق يجب أن يأخذه دوره في الخطة العامة للدولة » .

ويحكى لنا نبيل أباطة ما رآه في بيت السادات في قرية ميت أبو الكوم ، وما يدل على أصالته الفكرية التي ترتبط دائماً بجذورها الأولى حتى لا تفقد الاتجاه . يقول :

« دخلت بيت أنور السادات . . إنه بيت متواضع . . من دور واحد . . ليس له أسوار . . في الخارج المصطبة أو المضيئة التي يجلس فيها مع أقربائه وضيوفه من الفلاحين . . وفي الداخل ثلاث حجرات بها أثاث غاية في التواضع . . والبيت ليس به ثلاجة أو حجرة للطعام . . فأنور السادات يحب أن يشرب من « القلة » وأن يأكل على الطبلية . . طوال وجوده في القرية التي ولد بها » .

ويصل حب السادات للقرية إلى درجة تجعله يصرح على صفحات « الجمهورية » في ٨ نوفمبر ١٩٥٤ بقوله : « أنا أفضل القرية ألف مرة على المدينة ، ولو أنني خیرت اليوم بين القرية وبساطة العيش فيها ، وبين المدينة وزخرف المدينة الذي يزينا ويحليها لما ترددت لحظة في أن أختار القرية . »

حتى في اطلاعه الفكري والأدبي الواسع ، يغرم السادات بالأعمال الفكرية والأدبية التي تبلور الصراع بين القرية والمدينة ، ومن هذه الأعمال ، على سبيل المثال لا الحصر ، كتاب استير فوربس « قوس قزح على الطريق » .

وفي هذا يقول السادات لكمال الملاح على صفحات جريدة « الأهرام » في ٢٣ أبريل ١٩٦٢ :

« أميل جداً في قراءاتي للون طبيعة البلد . مثلاً في هذه القصة التي تمثل النازحين من الريف . قصة تدور في مزرعة الانفعالات . . أبطالها يعيشون ويتفاعلون عندما ينتقلون من هدوء الريف إلى صخب المدينة . التعارض كله في لوحة واحدة . كلها تمثل لونا أحبه وهو اللون الريفي وسط زحام الحياة . »

وفي المجلد الثاني ، الفصل الرابع من كتاب « انهيار الغرب » لأوزولد شبنجلر نجد تحليلاً واعياً للدور الخطير الذي لعبته المدينة في استنزاف الريف حضارياً فيقول ص ٢١٧ :

« منذ زمن بعيد جداً ، ولد الريف المدينة وغزاها بأحسن دمائه ، أما الآن فإن المدينة الضخمة تمتص الريف الهزيل وتبتلع جموع الناس بشراهة وبلا توقف حتى تنهك وتموت في خضم الريف المهجور . وكلما اصطاد الجمال الآثم لهذه الأعجوبة الأخيرة للتاريخ ، ضحية فإنه لا يدعها تفلت من يده . إن القوم البدائيين قد يستطيعون التوقف عن الترحال ، أو الرحيل عن القرية كلية ، ولكن الرجل المولود في المدينة لا يستطيع ذلك أبداً ، لأن قيود المدينة الكبيرة أقوى من أي حنين يكابده الإنسان بالنسبة للقرية . وإن إنسان المدينة ليعتبر المنزل إحدى تلك المدن الهائلة ، ولكن أقرب القرى إليه تعتبر غريبة عنه ، ومن ثم فإنه يفضل أن يموت على الإفريز ، على أن يعود إلى الريف . »

وكانت نتيجة هذا التطور أن اندثرت القيم الروحية تحت وطأة الضغوط المادية ، فبظهور المدينة ذات الخصائص العالمية المشتركة ، واختفاء كل الروابط بالأرض ، وسيادة الاتجاهات العقلانية البحتة ، بلغت القيمة المالية للأشياء ذروة سلطاتها . لقد وجدت النقود أصلاً لتقدير القيمة ، وذلك بالنسبة للأشياء المعترف بقيمتها الفعلية في ذلك الوقت ، كالأرض والماشية والمنازل والرقيق ، ولكن الرابطة بين هذه القيم الأصلية بدأت تضعف بنمو المدن وتعقد النظام الاقتصادي حتى أصبحت النقود في آخر الأمر تعتبر قيمة في حد ذاتها ، مرغوباً فيها أكثر من تلك الأشياء التي وجدت النقود أصلاً لتقدير قيمتها . ولذلك يؤكد شبنجلر أن « الذهب لم يعد يقدر بالبقرة ، وإنما أصبحت البقرة تقدر بالذهب . » ونظراً لاعتماد الحياة في المدينة على القيم المادية وحدها فقد تنبأ شبنجلر بنهاية الحضارة المعاصرة إذا لم تطعم المدينة بروح القرية ، فالقوى المادية تقضي على صاحبها قبل أن تقضي على أي شيء آخر . وفي هذا يقول شبنجلر في المرجع نفسه :

« في النهاية ، ينشئ الرمز الهائل ، وبوتقة العقل الحديث ، أي المدينة ذات الخصائص العالمية . وهي بمثابة المركز الذي ينتهي فيه تاريخ العالم وتطوى صفحته . إن حفنة من المراكز الهائلة في كل حضارة تحرم الأرض الأم من ثقافتها ولا تقيم لها وزناً . فقد أصبحت المدن الآن هي كل شيء . الصغيرة منها والكبيرة على حد سواء . ولم تغد هناك طبقات نبلاء ، وبورجوازية ، وأحرار ، وأرقاء ، وهيلينيين وبرابرة ، ومؤمنين وملحدين ، وإنما أصبح هناك مدنيون وريفيون . »

ونظراً لهذه الأنانية الرهيبة التي تمارسها المدينة ، فقد أصبح تاريخ العالم هو تاريخ المدينة - على حد قول شبنجلر - وتوارت القرية في الظل برغم أنها الأصل الذي تولدت عنه المدينة . وإذا ساد هذا الانقسام بين المدينة والقرية فسيكون انقساماً بين الفرع والأصل ، وستكون النتيجة أن تتحول المدينة إلى نبت غريب فقد جذوره الأصلية وأصبح نباتاً طفيلياً يعيش على حياة ومجهود غيره . فالقيمة الحضارية للمدينة يجب أن تكمن في الكيف لا في الكم ، فالمدينة ليست بحجمها الضخم بل بنوعيتها الخاصة ، وهذه النوعية الخاصة لن تستمد إلا من روح القرية ، عندئذ نستطيع القول أن المدينة تمثل تطوراً طبيعياً للقرية بل وتقدماً حضارياً عليها . وهنا يتحتم أن يكون للمدينة روح نابضة مثل تلك الروح التي تتميز بها القرية والتي لم تتلوث بأدران الصراع المادي الرهيب . إذ لا يعقل أن تقوم

المدينة بدورها الحضارى بشقيه الروحى والمادى فى حين هى كيان آلى يتحرك طبقاً لاتجاهات التيار المادى فقط ، وهذه ظاهرة خطيرة لأن تاريخ الحضارة المعاصرة كله مرتهن بتاريخ المدينة الحديثة كما يقول شبنجلر :

« من النتائج الحاسمة أن كل الحضارات الكبرى هى حضارات المدن ، فإن الإنسان المعاصر هو حيوان مرتبط بالمدينة . وهنا يكمن المعيار الحقيقى لتاريخ العالم الذى يميزه بشكل قاطع عن تاريخ الإنسان بصفة عامة ، إذ أن تاريخ العالم هو تاريخ إنسان المدينة فقط . وتعتمد الشعوب والدولة والسياسات والدين وجميع الفنون والعلوم على ظاهرة واحدة أساسية من الظواهر البشرية ، هى المدينة . ولكن المعجزة الحقيقية هى مولد روح المدينة فإن ما يميز المدينة عن القرية ليس هو حجمها ، بل وجود روح فيها ، مثل تلك الروح التى تمنح لحياة القرية طعمها ومعناها . » ويرى ت . س . إليوت رأياً مناقضاً لشبنجلر ولكنه يتفق معه فى نهاية الأمر فيما يختص بالقيمة الحضارية للقرية . فى كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة » يوضح إليوت أن الثقافة القومية ليست ثقافة المدينة وحدها وإنما هى محصلة عدد غير محدود من الثقافات المحلية التى لو حلت هى نفسها لوجد أنها مكونة من ثقافات محلية أصغر . فالوضع المثالى ، بالنسبة لإليوت ، هو أن تكون لكل قرية ، وبالأحرى لكل مدينة من المدن الكبرى ، شخصيتها الخاصة . ولكن هذا لا يعنى انفصالها عن النسيج الحضارى العام للأمم . ومن هنا يتحتم اتصال ثقافة القرية بثقافة المدينة ، تعطىها وتأخذ منها . وفى هذا فائدة جمة للثقافتين ، لأن ثقافة القرية ستجنب الجمود والتحجر فى حين ستمكن ثقافة المدينة من الاحتفاظ بطابعها المميز بعيداً عن التكرار الممسوخ الذى ينتج عن النمطية العالمية بين المدن الكبرى .

وصلة القرية بالمدينة - كما يهدف إليها إليوت - هى نوع من الوحدة اللاشعورية التى تجمع بين الانسجام والتنوع فى آن واحد . ويركز إليوت على التنوع الإقليمى بصفة خاصة . فن المهم ألا يشعر الإنسان بأنه مواطن فى أمة معينة فحسب ، بل مواطن فى جزء معين من بلاده ، له ولاء محلى . وهذا الولاء ، كالولاء لمسقط رأسه ، ينشأ من الولاء للأسرة أو للقرية . ويقول إليوت فى كتابه كلاماً ينطبق تماماً على التصنع الذى نهض عليه المجتمع الإسرائيلى ، فهو يؤكد أن العلاقة بين المواطن ومسقط رأسه مثل العلاقة بين الابن وأمه ، علاقة لا يمكن اصطناعها بأية حال من الأحوال ، علاقة طبيعية ترتبط بالحمل والولادة والنشأة والتربية ، وتشكل كل لحظة منها تأثيراً معيناً على شخصية الإنسان بحيث تشكل كيانه الفكرى والروحى ، وهو كيان مختلف تمام الاختلاف عما لو كان قد نشأ فى بيئة أخرى . وفى هذا يقول إليوت ص ٤٣ :

« حقاً أن الفرد قد يألف أشد الألفة مكاناً لم يولد فيه ، ومجتمعاً لا تربطه به روابط الأسلاف ، ولكن لا أظن أننا قد نختلف فى أن مجتمعاً من أناس ذوى شعور محلى قوى ، جاءوا كلهم من أمكنة أخرى متفرقة ، هو مجتمع ينهض على التصنع وعلى الوعى المبالغ فيه بأنهم يتمنون إلى أصول فكرية واحدة . فالوحدة الفكرية والوجدانية والروحية لا تأتى عن طريق الدعاية والإعلام ، لأنها نتاج أجيال متعاقبة . وفى مجتمع مثل ذلك الذى تحدثنا عنه يجب أن نتظر عدة أجيال ليظهر ولاء ورثة السكان الذين قدموا من أمكنة متفرقة . فالولاء من الأشياء التى يستحيل اصطناعها لأنها لا تصدر عن اختيار واع تماماً . ولعل من الخير بوجه عام أن يظل معظم البشر يعيشون فى مكان ولادتهم فالأسرة والطبقة والقرية والولاء المحلى تتساند جميعاً ، وإذا انحلت عرى واحدة منها شكى الباقي أيضاً . »

من هنا كانت مناداة السادات بالحفاظ على روح القرية بمثابة مقاومة حضارية متأصلة فى وجه المجتمع الإسرائيلى العدوانى الذى لا يملك شيئاً من جذور التأصيل الفكرى والروحى بطريقة طبيعية وتلقائية . والقرية المصرية بالذات تملك من جذور التأصيل الفكرى ما يتعذر على أية قوة عدوانية شرسة اقتلاعه . فعمر هذه الجذور يصل إلى

سبعين قرناً من الزمان في حين الجذور الفكرية والحضارية والثقافية للمجتمع الإسرائيلي لا تزيد أصالتها على ربع قرن من الزمان . من هنا كان الفارق الحضاري والفكري الشاسع بين ما تملكه مصر وما تدعيه إسرائيل . فإذا تكلمنا نحن عن روح القرية الأصيلة فلن نجد إسرائيل كلاماً تقوله سوى عن روح المستعمرة ، هذا إذا ادعت أن للمستعمرة روحاً من الأصل . فلا شك أن المستعمرة كيان مصطنع جاء نتيجة لأغراض سياسية طارئة وليس تأصيلاً لتراث سبق أن رسخه الأسلاف . ولكي نعرف مدى أصالة القرية المصرية والدور الذي لعبته في إشعال الوعي القومي ومقاومة الاستعمار بكل أنواعه ، والمحافظة على الشخصية المصرية من كل عدوان يهدف إلى طمس ملامحها ، ففي إمكاننا الاطلاع على مقالة السادات التي نشرها في جريدة « الجمهورية » في ٣١ يوليو ١٩٥٤ والتي يقول فيها :

« أذكر أنني أول ما بدأت أتعلم الكلام في القرية علموني جملة كنا نقولها في لونا وفي الغيط وعلى النورج وحين كنا نسهر على الساقية في المناوبة ، في كل هذه الأطوار الساذجة ليومنا الريفي الجميل كنا نردد دائماً ؛ (يا عزيز . . يا عزيز . . كبه تاخذ الانجليز . .) كان هذا هو أول خاطر ينطبع على خيالنا تلقفناه ممن سبقونا من أجيال ومازال إلى اليوم هو الخيال الذي تتلقاه الصبية من الرجال والأخيار . .

ولم يكن هذا النداء عبثاً أو على غير أساس . . فلقد نشأت في القرية أسمع أولاً عن ذلك الضابط الذي كان من عائلة جدتي وكان من ضباط عرابي وكيف أنه فر بعد الهزيمة إلى القرية فتعقبه الخديو إلى هناك وصادر أملأه ومات فقيراً مشرداً بعد أن كان فخرأ لأهله وقريته . ولم يكن الخديو هو المسئول عن هذا التشريد في نظرهم بل هم الإنجليز . .

ثم سمعت ثانية عن « السلطة » وهي كلمة يطلقونها في قريتنا على ما حدث بأمر الإنجليز في الحرب الأولى من جمع الجمال والحمير والأقوات لإرسالها إلى القوات الإنجليزية . . ثم تعدى الأمر ذلك إلى الرجال فأخذوا يجمعون الشباب من القرى ويرسلونهم إلى ميدان فلسطين وقتذاك ليعخدموا القوات الإنجليزية . . وما لبث أن عاد البعض من هؤلاء الرجال بعد انتهاء الحرب مشوهين وكان هذا كافياً لكي يثير حفيظة القرية الوادعة على الإنجليز بعد أن فقدت القرية أبناءها أو عاد لها البعض منهم مشوهين . .

ثم تجلس إلى ركن آخر في القرية فيحكى لك الشاعر على الربابة قصيدة مؤثرة رائعة في وصف الشاب المكافح مصطفى كامل وكيف كانت شجاعته وجراته وفجأة ينختم القصيدة بوصف نهاية هذا البطل الذي مات مسموماً على يد الإنجليز بعد أن أعيتهم الحيل في شأنه وأصبحوا يخشون شجاعته وجراته . . «

ويضيق بنا المقام هنا لتسجيل مقتطفات أخرى من المقال ، توضح مدى إيمان السادات بالدور الحيوي الذي تلعبه روح القرية في التأصيل الفكري للإنسان المصري بصفة عامة . فأخلاق القرية تعلمنا دائماً الأصالة والصلابة والصمود والصبر والثقة والإيمان والوعي بالتاريخ . وهذه الأخلاق كفيلة بأن تتحول إلى صخرة صماء تتكسر عليها كل محاولات الأعداء والمتربصين ، لأنهم إذا تمكنوا - لفترة وجيزة - من التأثير على سير الأمور ، فإنهم لن يتمكنوا بأية حال من الأحوال من التأثير على نوعية الإنسان المصري وجوهره . ويضرب لنا السادات مثلاً لهذه النوعية العريقة في مقال له بجريدة « الجمهورية » في ٥ فبراير ١٩٥٤ فيقول :

« كان فقيراً ولكن نفسه كانت تملك أغلى كنوز هذه الأرض ، فما من أحد مربيكوخه في القرية الذي اتخذ منه سكناً ومجلساً يصنع فيه من (الخوص) سلعة يعيش منها ، إلا وقرأ على وجهه النور والسعادة . ولقد مرت في حياته - على ما روى لنا الأخيار من القوم - أحداث تنوء بها الجبال ، بدأت بموت زوجته في (الكردون) وهو ما يطلق في ريفنا على الحجر الصحي حينما يلم بالقرية وباء ، وانتهت بموت وحيدته منها غريقاً وهو يتعلم أول درس في السباحة . .

ويمضي الزمن ، فما تنعكس الليالي والأيام على وجه صاحبنا إلا هدوءاً في وثوق ودعة ، وإلا ابتسامة حلوة يستقبل بها صباحه ويشيع بها مساءه . .

كنا صفاراً ، وكان مثل هذا الحديث يملأ نفوسنا رهبة وجزعاً ، حتى إننا في مرورنا على ذلك الرجل صاحب الكوخ كنا نتحاشى حتى النظر إليه مكتفين بأن ينظر كل منا إلى صاحبه من غير أن ينطق بكلمة خشية أن يحس الرجل بأننا نعلم . .

ظلت هذه الرهبة تملك على نفسي ردحاً طويلاً حتى عدت مرة في الإجازة المدرسية إلى القرية ، وشاءت الصدفة أن تجمعني بهذا الرجل ليلة الاحتفال بالمولد النبوي حول منصة شاعر الرابطة الذي استقدموه خصيصاً لإحياء هذا الحفل الكريم . . ظلت طوال هذا السامر أختلس النظرة تلو النظرة إلى هذا الرجل فما راغني إلا أن وجدته يستمع بكل نفسه وجوارحه . . زادت حيرتي ورهبتى ، ووجدته قد بلغ قمة الطرب حينما ردد الشاعر في مقطوعة يفتح بها وصلة من وصلاته على عادة هؤلاء الشعراء :

الى جرى امبارح ما يهمنش يا عم
وبكره أمره لبكره ربك يزيل الهم

علقت في ذهني هذه الليلة ، وهذه الأبيات ، إلى أن قرأت يوماً وأنا في السجن لكونفوشيوس إحدى حكمه الخالدة : « جدد نفسك كل يوم . . أجل كل يوم جدد نفسك . »

وبدأت أدرك فلسفة صاحبنا التي رفعت فوق آلام هذه الحياة . . لقد كان قوياً لأنه تناسى يومين في حياته . . أمسه وغده ليستمتع بيومه . .

وبالطبع لا يعني هذا روح التواكل التي يحاول المغرضون إلصاقها بالشخصية المصرية ، فسيان الأمس هنا هو تجنب رواسب الماضي ومآسيه والتي من شأنها أن تعوق حركة الإنسان ، وتعكر عليه صفوح حياته ، وتكبل خطواته بقيود من حديد . ونحن لا نملك سوى اليوم الذي نعيشه وأي تفريط فيه هو تفريط في حياتنا كلها ، فالماضي أصبح ملكاً للتاريخ والمستقبل هو امتداد طبيعي للحاضر . وكلما زاد اهتمامنا بيومنا ، أصبح غدنا مشرقاً . أما البكاء على الأطلال ، أو الخوف من المستقبل ، فلا ينتج عنهما إلا إفساد الحاضر أيضاً وبالتالي يضيع طعم الحياة والهدف منها من هنا كان التفاؤل والبشر اللذان يميزان الشخصية المصرية برغم المحن والويلات والتجارب المريرة التي مرت بها . بل وأصبحت الابتسامة المصرية أكثر أصالة وشهرة من ابتسامة الجيوكوندا التي رسمها فنان النهضة الإيطالية ليوناردو دافنشي . وهي الابتسامة التي تحير كل من زار مصر وتجعله يتساءل : « كيف لشعب مر بكل هذه المحن والأزمات أن يحافظ على هذه الابتسامة الزاخرة بالثقة والتفاؤل والبشر ؟ ! » وبالطبع فإن الإجابة تكمن في مقومات الشخصية المصرية التي قدمت الحضارة الإنسانية إلى العالم منذ سبعين قرناً ومازالت قادرة على العطاء والحب والتسامح والتعاون والابتسام والضحك من أعماق القلب .

هذه هي الشخصية المصرية عندما تتجسد في روح القرية الأصيلة وهي قادرة أيضاً على التجسد في مظاهر إنسانية متعددة ، والكيان الأسرى من هذه المظاهر الإنسانية ، فكان المصريون أول من عرف نظام الحياة الأسرية ، وأول من حافظ على استمراره ، وأول من قدمه إلى العالم كالوحدة الأولى التي ينهض عليها الكيان الإنساني كله . ولذلك فالفصل التالي من هذه الدراسة يدور حول مفهوم الكيان الأسرى في فلسفة رائدنا في التأصيل الفكري : أنور السادات .

الفضل التاسع الكيان الأسرى

يتميز مفهوم الكيان الأسرى في فكر السادات بالموسوعية والشمولية فهو يبدأ بالأسرة أو العائلة التي عرقها البشرية على أبدى المصريين القدماء ، ثم يمتد ليشمل الوطن كله كأسرة واحدة تحمل نفس خصائص وتقاليد ومقومات الأسرة الصغيرة . ولا يقتصر الكيان الأسرى على أسرة الوطن فحسب بل يربطها عضوياً بالأسرة العربية التي تعيش من المحيط إلى الخليج ، ثم بالأسرة العالمية أو مجتمع الدول بكل تياراته واتجاهاته . ولذلك فالكيان الأسرى نظرة شاملة تحوى في طياتها الوعي بالتاريخ ، ومفهوم الإيمان ، والضرورات الأخلاقية ، والتعمير الحضارى ، والممارسة الديمقراطية ، والشخصية المصرية ، وروح القرية ، ودور المرأة في المجتمع الجديد ، باختصار تحوى كل عناصر التأصيل الفكرى في فلسفة السادات .

والسادات يتفق مع معظم مفكرى العالم في أن الأسرة هي الخلية الأولى في جسم المجتمع إذا حللنا الطريقة التي يتكون بها وينمو ، وهي قلبه النابض إذا درسنا القوة الحيوية التي تمكنه من الاحتفاظ بحياته ، وهي محوره إذا نظرنا إلى استمراره في الحركة والنشاط . وبالإضافة إلى أن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الرئيسية التي يصدر عنها كل نشاط إنسانى ، فهي في الوقت نفسه الصورة الصادقة أو المرأة العاكسة لمقومات الأمة وخصائصها . وخير دراسة علمية وعملية لأية أمة هي الدراسة التي تبدأ بالأسرة كنقطة انطلاق . فإن هذا سيوفر الكثير من المجهود والوقت وسيجنب الدخول في متاهات جانبية . وفي هذا يقول عالم الاجتماع الفرنسى إميل دوركايم : « إن الأسرة هي مجتمع كامل يمتد أثره إلى نشاطنا الاقتصادى كما يشمل نشاطنا الدينى والسياسى والعلمى وكل الأنشطة الإنسانية بصفة عامة ، فكل ما نعمله من أعمال هامة ولوقبلية هو مجرد صدى من أصداؤها . »

وإذا كانت جميع الحملات المفرضة الجائرة التي وجهت إلى الأسرة لم تنل من دعائمها الأساسية على الإطلاق ، ولم تؤثر إلا على مظاهرها السطحية والشكلية التي تتلون بألوان البيئة الاجتماعية المتعددة . وإذا كانت الأسرة في قواعدها الجوهرية بهذا القدر من الأصالة والصلابة فقد تحتم أن تكون هي الحقل الطبيعى الذى يمارس فيه الفرد نشاطه منذ بداية حياته في هذا العالم ، وفي هذا يقول الفيلسوف هارولد أوفدينج : « إنه في داخل الأسرة فقط يعيش الإنسان ككائن كامل ، ففيها وحدها تستطيع غرائزه الأشد بدائية ، وعواطفه الأسمى مثالية أن تجد كل رغباتها وأن تشبع كل تطلعاتها ، في حين هو لا يساهم في الكيانات الاجتماعية الأخرى إلا بجانب واحد من كينونته . وبناء عليه فالمهمة العظمى التي تهض بها الحياة الأسرية هي تربية الفرد الذى يعرف حقوقه تجاه نفسه تماماً كما يدرك واجباته تجاه المجتمع الذى يعيش فيه . ويؤكد السادات على صفحات « الجمهورية » في ٢٠ ديسمبر ١٩٥٤ أن حياتنا كأفراد لابد أن تكون حياة كفاح مشترك من أجل بناء أسرة سليمة كريمة هي الحجر الأول في بناء هذا الوطن الذى طالما جحدنا نعمته وأهملنا حقه . » ويربط السادات بين الأسرة الصغيرة والأسرة الكبيرة الممثلة في الوطن كله في خطابه في المؤتمر الشعبى بطنطا في ٤ يناير ١٩٧١ فيقول :

« نحن شعب تؤمن بالقيم وعندنا معتقداتنا التي نشأنا عليها نجعلنا دائماً أقوياء . وفي ٩ و ١٠ يونيو خرج الشعب كله من غير ما حد يقول له : اخرج ولم يقبل الاستسلام وقال لازم نحارب ونصمد . . ده من معتقداتنا ومن قيمنا

ومبادئنا ، من تاريخنا كل واحد منا في عائلته وأسرته ، نحس ببعضها ، عايز في المرحلة القادمة نحس بالقيم النابعة من معتقداتنا وبيئتنا التي تربينا عليها وكل واحد يلحق أخوه ويقف مع أخوه ، لازم نكون إرادة واحدة وعزم واحد ورجل واحد مع الإحساس والحب من داخلنا زى سماحتنا وسماحة أهلنا في القرية وطيبتهم . »

هذا هو التأصيل الفكرى والوطنى الذى يقوم به الكيان الأسرى تجاه الفرد الذى يتعلم في أسرته منذ الحداثة المعنى الإنسانى للممارسة الديمقراطية ، والأصالة الفكرية ، والصلابة النفسية ، والإيمان الناضج ، والتعمير الحضارى ، وبالتالي فإن الشخصية المصرية بكل أبعادها تتشكل أساساً من صميم الكيان الأسرى . وهو الكيان الذى طالما حاربه المدينة الحديثة لكى تنال منه ولكنها لم تؤثر إلا في مظاهره الشكلية فقط ، ولكن جوهره وشكله يظهران على حقيقتهما في القرية التى تعتبر نفسها أسرة كبيرة واحدة . ومن هنا كان تمسك السادات بروح القرية ورغبته الملحة في أن تسود تقاليدها حياة المدينة المعقدة والمرهقة . فلا شك أن أية مدينة يمكن أن تتحول إلى المدينة الفاضلة ، التى طالما داعبت خيال الشعراء والمفكرين والفلاسفة ، إذا تحولت إلى أسرة كبيرة يسود حياتها الحب والوفاء والتسامح والتعاون وكل القيم الإنسانية التى اشتهر بها شعبنا العريق عبر تاريخه الطويل . وفى هذا يقول السادات في خطابه في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٢ :

« لقد عاش شعبنا عبر تاريخه الطويل ولم يفقد شخصيته أبداً ذات الأبعاد الثلاثة : الأصالة والصلابة والإيمان ، رفض ديكتاتورية الطبقة . . أو أية ديكتاتورية . . أياً كان الذى يفرضها . . سواء كانت طبقة . . أو فرداً . . أو جماعة . . أو حزباً ، لأنها لا تصلح لنا بطبيعة تكوين هذا الشعب ، أو النبع الذى يصدر عنه انفعال هذا الشعب ، هو أنه عائلة واحدة ، يحس فيها كل إنسان بأخيه ، كما هو الحال إلى يومنا هذا في القرية . . ليست المدينة أبداً تعبيراً عن شيء ، التعبير الحقيقى عن شعبنا هو القرية ، وستظل القرية إلى الأبد هى التعبير الحقيقى عن شعبنا ، أسرة واحدة ، عائلة واحدة ، إذا حاول أحد أن يفرض سيطرته على هذه الأسرة نبذوه . ولكن برفق وبأخوة . . وعندما يقتضى الأمر يقفون منه الموقف الذى يجب أن يقفونه منه . . شعب استمد أصالته من عمر طويل ، وحضارة هى أول حضارات التاريخ في هذا العالم - بشهادة العالم كله - فهو يرتفع فوق المظاهر ، هو شعب يعنى دائماً بالجوهر . . وليس بالمظهر ، وهو شعب مجامل . . شعب طيب . . ولكنه في الحق صلب ، لأن الأصالة لا بد أن تورث الصلابة ، إلى جانب ذلك شعب مؤمن له قيمه ، يؤمن بالوفاء ، يؤمن بكل القيم . . التى أرادها الله سبحانه وتعالى لهذا الكون وللإنسان ليعيشوا حياة قوية شريفة ، يؤمن بالحب ، يحس كل إنسان بأخيه في القرية ، يشارك كل إنسان أخاه في مآثمه وفى فرحه وفى عمله . . وفى حقله . . فى كل المناسبات ، أسرة واحدة . »

ولذلك فكل القيم الحضارية التى نادى بها المفكرون والمصلحون والفلاسفة لا تقف عند حدود القيم المثالية المجردة داخل الكيان الأسرى للقرية أو العائلة الصغيرة ، بل تترجم إلى سلوك عملى وإيجابى بحيث تتحول الأسرة إلى تجسيد حى ملموس لهذه القيم المجردة . ولذلك يستأنف السادات كلامه في الخطاب نفسه فيقول :

« شعبنا بطبعه كما قلت . . في القرية ينفر من فرض الأمر عليه أياً كان . . فرد . . أو عائلة . . أو طبقة . . يرفض هذا . شعبنا بطبعه سمح . . يريد أن يعيش الكل في إطار الأسرة الواحدة ، ومن واقع إيمانه وما ورثه . . ورسالة السماء . . هنا على هذه الأرض . . يجب أن يكون أمرهم شورى بينهم . »

والوحدة الوطنية تشكل أهم عناصر الكيان الأسرى في فكر السادات ، فبدونها كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نخوض كل هذه المعارك الضارية والمتابعة . ولذلك يقول السادات في استقبال البطريق المعوشى بطريق لبنان في ٢٨ فبراير ١٩٥٨ :

« هذه العروبة التي تظل المسيحي والمسلم على السواء لا تفرق بين واحد ولا تميز بين أحد وإنما الفضل فيها للذي يقدم للقومية العربية خدمة والذي يقدم للقومية العربية منعة وقوة يحتمى بها العرب أجمعون مسلمين ومسيحيين .
إننا نحبي ذلك الرجل الذي يطبق مبادئ الشريعة المسيحية السمحاء فلقد قامت المسيحية على المحبة وعلى الإيمان ،
وقام الإسلام أيضاً على المحبة والإيمان . »

وهذا الخط الفكري الذي برز بوضوح في فلسفة السادات في الخمسينيات يعود ليؤكد وجوده في السبعينيات ،
وذلك في بيان السادات إلى الأمة في ٢٨ ديسمبر ١٩٧٢ عندما يقول :

« إنني واثق كل الثقة من حسن وعي وتقدير الجميع للظروف التي نمارس فيها نضالنا ، وفي الضرورة القصوى
والحيوية لوحدة الأمة ، بل إنني واثق من ذلك كله في كل الظروف ، فلا حرب بغير الوحدة الوطنية ولا سلم بدونها .
فالوحدة الوطنية هي التي مكنتنا من الاستمرار في هذا الصراع الرهيب الطويل والمستمر . ولذلك أكد السادات
باستمرار ، وخاصة قبل السادس من أكتوبر ، أن اشتراك الشعب كل الشعب على اتساع الوقت وامتداده بمختلف
فئاته وطوائفه وأفراده في صياغة القرارات الخطيرة التي تتصل بالمعركة في متابعة تنفيذها والرقابة عليها هي الضمان
الأكيد لوقوف الشعب كله كالبنيان المرصوص خلف قواته المسلحة الباسلة وهي تخوض معركة المصير . إن الوحدة
الوطنية هي صانعة ثورة ٢٣ يوليو وما سبقتها من ثورات على طول تاريخنا القديم والحديث على السواء ، والوحدة
الوطنية هي التي مكنتنا من الصمود السياسي والفكري والعسكري والاقتصادي والاجتماعي ضد مختلف المؤامرات
الاستعمارية والصهيونية ، وألوان الضغوط السياسية والاقتصادية ، وأشكال الحرب النفسية ، بل هي التي هيأت
لنا الصمود الرائع في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، وهو الصمود الذي أذهل أعداءنا من المستعمرين والصهاينة . ولذلك
فجهدنا من أجل تأكيد هذه الوحدة الأسرية جزء لا يتجزأ من جهدنا العسكري في الحرب المقدسة التي نخوضها
أبناءؤنا الأبطال من أجل المستقبل المشرق للأسرة العربية جمعاء من الخليج إلى المحيط . وعندما يقول السادات إنه
لا حرب بغير الوحدة الوطنية ولا سلم بدونها ، فهو يقصد أن الوحدة الوطنية ضرورة تحتمها المعركتان اللتان نخوضهما
جنباً إلى جنب ، وهما معركة التعمير الحضاري ومعركة التحرير الوطني . ولذلك يقول في خطابه في جامعة الإسكندرية
في ٢٧ يوليو ١٩٧٢ :

« إن الوحدة الوطنية هي الأساس في نجاحنا في المعركتين ، وكل منا مطالب بالحفاظ على هذه الوحدة المقدسة
والتعبير بها ، ولن أسمح أبداً بتمزيق هذه الوحدة تحت أي شعار أو ضغوط طائفية أو هزات ، ولن أسمح لأحد أن
يتصور أنه في مركز قوى ، بلدنا طول عمرها في وحدة وطنية وبلدنا يجب أن تعود إلى الأسرة وإلى تقاليدنا وأصلنا
وقيمننا . مثل اجتماعنا هذه الليلة كعائلة واحدة نجلس وتكلم بدون أي رسميات أو كلفة وكل إنسان شاعر أنه فرد
في أسرة وكلنا كشعب يجب أن يكون هذه الأسرة حتى نستطيع أن نتصدى للمعركتين . »

وفي تصديه للكيان الأسري ، لا يسأم السادات أبداً الحديث عن الوحدة الوطنية التي تعني « أن لا امتيازات
طبقية ، ولا حقوق خاصة لفئة من الفئات ، لا انقسامات إلى شيع وطوائف ، لا مزايدات ولا مناقصات ، وأيضاً
لا تشنجات . » ولكنها تعني البدء في « ترتيب البيت » حتى يكون مستعداً لاستقبال الأحداث القادمة وتوجيهها
طبقاً لمصالحه الأسرية والقومية . ووعينا بتاريخنا يؤكد لنا أن وطننا كان دائماً البيت المضياف لكل غريب ولاجئ ،
والضيافة المصرية ذات شهرة تاريخية وعالمية ، فهل يعقل لهذا البيت المضياف الذي يكرم الغريب أن يضمن بالحب
والكرم والوفاء والتعاون على سكانه الأصليين ؟ وفي هذا يصرح السادات في حديثه إلى نقيب الصحفيين اللبنانيين
في ٩ يناير ١٩٧٣ فيقول :

« إن الطائفية وإلهاها في مصر دائماً أمر مفتعل لأنها ليست من أصالتنا في شيء وأريد أن أوضح لك أمراً . . إن منطقتنا شهدت ثلاث غزوات عنصرية تعتبر الدين ستاراً وواجهة للتمويه والتغطية : التتر . . الصليبيون . . وإسرائيل . وفي مصر لا يستطيع أحد أن يعرف ضريح المسلم من ضريح المسيحي لأنهم متعانقون جميعاً في قبورهم نتيجة شعورهم بوحدة وطنية كاملة وقد واجهنا الغزوتين اللتين ليس فيهما شيء من الدين لمناعة وسلامة تفكيرنا وصفوفنا المرصوفة وأريد أن أذكر بواقعة في التاريخ . عندما انتصرنا على المستعمرين الذين استغلوا اسم الصليب لأهداف توسعية وتجارية واقتصادية منعوا أقباط مصر من زيارة القدس لأنهم لم ينصروهم ضد وطنهم . وقد كتب أحد المؤرخين المسلمين وقتذاك ما حرفيته (ولم يكن حزن الأقباط في مصر بأقل من حزن المسلمين لهذا الذي فرضه مسيحيو أوروبا على أقباط مصر بحرمانهم من الحج إلى القدس . .) » .

هكذا يؤكد السادات للعالم كله عمق الوحدة الوطنية والترفع عن التفرقة الدينية في مصر ، فقد كان يدرك تماماً أنها ستكون أحد عناصر نجاحنا المذهل في السادس من أكتوبر العظيم . وخاصة أن مصر لم تعرف العنصرية في أي شكل من أشكالها بل وحاربتها في جميع أشكالها . ويوضح السادات في كلمته مرحباً بالمستشار فيلي برانت في ٢١ أبريل ١٩٧٤ بأننا « كثيراً ما حاولنا إقناع العالم بأننا لسنا دعاة حرب بل نحن رسل سلام ، وأننا لا ننطلق في سياستنا من حقد أو كراهية ولا نحارب العنصرية بالعنصرية ولا التعصب بالتعصب بل إننا نعتصم بقيمتنا السمحة ونتمسك بالمشروعية والعدل في كل المعاملات الدولية كما أن هدفنا هو أن نعلم ولا ندمرون نحن - إذ نتصدى للعدوان - فإننا نحرص على أن نقيم مجتمعاً إنسانياً قوامه العدل والشرف » .

وإذا كانت الأسرة الوطنية تملك كل هذا الوعي التاريخي والحضاري . كذلك الأسرة العربية فهي تعي هدفها جيداً ولا تحيد عنه وتعرف طريقها بوضوح ولا تخطئه . وهي ترفض أن تتعثر مسيرتها أو تتشتت جهودها بفعل الأكاذيب والدعايات المضللة التي أطلقها من تخصصوا في تزيف التاريخ . ونحن وإن كنا نأسف لأن البعض قد سقطوا أو تركوا أنفسهم يسقطون ضحية لهذه الأباطيل التي حاولت تشويه كيان الأسرة العربية وقلب الحقائق ، نثق في أن هؤلاء الذين يتدبرون وينظرون للأمور نظرة عقلانية إنسانية يستطيعون أن يميزوا بين الحق والباطل وبين الحقيقة والتزييف وبين العدل والظلم ، وأن يدركوا أن انتماء الأسرة المصرية إلى الأسرة العربية حتمية مصيرية وضرورة تاريخية تفصل بين البقاء والفناء ، بين أن نكون أولاً نكون . ولذلك يؤكد السادات في « ورقة أكتوبر » :

« أن شعبنا يؤمن بانتمائه العميق للأمة العربية . وهو يعرف أن قدره التاريخي هو أن يتحمل العبء الأكبر كلما تعرض الوطن العربي الكبير لغزوة غاشمة . . كان ذلك هو دور مصر في مواجهة التتار . . وكان دورها في مواجهة الحملات الصليبية . وهو دورها في مواجهة الغزوة الصهيونية ، كما سبق أن أوضحت . . ولكن الإنصاف يقتضي أن تؤكد أن الشعور القومي العربي قد أدى دوراً أساسياً في حرب أكتوبر . فعلى رأس عوامل النصر فيها نجاحنا في قتال إسرائيل على جبهتين .

وإني لأتلهز هذه الفرصة لأحيي مرة أخرى أخى الرئيس حافظ الأسد الذي كان له شجاعة مشاركتي في اتخاذ القرار ، وأحيي القوات المسلحة السورية الباسلة والشعب السوري البطل .

كما أن التفاف الدول العربية حول دول المواجهة وما قدمته من تأييد معنوي ومادى واستخدامها لسلح البترول ، كل ذلك أسهم بلا شك في تحقيق النصر . إن الملوك والرؤساء العرب ومن خلفهم شعوبهم الشقيقة كانوا لنا في المعركة سندا وإن التحية لجهودهم واجبة ، وربما كان من أهم نتائج حرب أكتوبر خروج القومية العربية من حيز الشعار إلى حيز العمل المحدد الملموس . لقد رفعت حرب أكتوبر من شأن العرب جميعاً وأصبح العالم كله يعترف بالوجود

العربي وبدور العرب ويعمل على كسب ودهم . »

وإيمان السادات بالأسرة العربية لم يبرز فقط عند توليه المسئولية بل يمثل خطأ أساسياً في منهجه للتأصيل الفكري منذ اشتغاله بالكفاح الوطني في صدر شبابه المبكر . وكانت ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنجليز في العراق في أوائل الأربعينيات إشارة إلى الأسرة العربية بأن القومية العربية لن تتحقق إلا بالكفاح المسلح بكل تكاليفه . ولذلك يقول السادات عن هذه الثورة في جريدة « الجمهورية » في ٢٩ ديسمبر ١٩٥٣ :

« كانت ثورة رشيد عالي الكيلاني ، هي المتنفس الحقيقي الوحيد لنا ، هنا في مصر . . وكنا نتابع أنباء هذه الثورة في حماسة بالغة ، ونعلق عليها آمالاً واسعة . . كانت نظرتنا مليئة بالارتياح والحماس والتفاؤل . فقد كنا في شبابنا وحماستنا ، نريد أن نصنع ما صنعه رشيد عالي الكيلاني . . ننقض على الإنجليز ونعلنها عليهم في أزمتهم ثورة مسلحة . . وكانت هذه البداية من رشيد عالي هي المفتاح الذي رأيناه يفتح لنا الطريق . ويشعل نار شعوب هذه البلاد على الغزاة فيها . »

وكان الاستعمار يدرك دائماً أنه لو اكتملت مقومات الأسرة العربية فلن يقف في طريقها أى شيء من شأنه أن يعوق المسيرة . ولذلك كان شعار « فرق . . تسد » هو السلاح الذي يستعمله الاستعمار في الوقعة والدسياسة والفرقة بين أعضاء الأسرة العربية الواحدة ، فإذا تم له ما أراد ، نجده ينتقل إلى ساحة الأسرة الوطنية ليبدف فيها بذور الشقاق والعنصرية والطائفية ، وبهذا يضمن تفتيت الأسرة العربية إلى أصغر جزئيات ممكنة حتى لا تقوم لها قائمة بعد ذلك . وفي هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية » في ٢٨ أغسطس ١٩٥٦ :

« اكتوينا نحن العرب بأساليب مدرسة الاستعمار قروناً طويلة . وعرفنا من قاموسهم اصطلاحات طبقوها علينا فزقوا أوطاننا وشتتوا شملنا . . وعلى رأس هذه الاصطلاحات اصطلاح فرق تسد . . وكانت مصيبتنا نحن العرب مصيبتين : الأولى حين فرقوا بين الشعوب . . والثانية حين فرقوا بين أبناء الشعب الواحد . »

إن أول نتيجة مروعة لهذه الفرقة كانت مأساة فلسطين . والاستعمار سيعمل ليل نهار لكي يشكك في نوايانا بعضنا للبعض . . سنواجه يا أهلى يا عرب أخطر حملة للتفرقة والتشكيك . . واذكروا يا أهلى يا عرب حكماً وشعوباً أننا لا نطالب بغير حريتنا في أوطاننا وسيادتنا على أرضنا . . واحذروا المكيدة . . واحذروا الدسياسة . . واحذروا الفرقة لكي لا يسود ثانية مستعمر على أرضكم . »

وعلى صفحات « الجمهورية » أيضاً في ٣١ نوفمبر ١٩٥٦ يشرح لنا السادات كيف فرق المستعمرون بين أبناء الأسرة المصرية بعد أن تمكنوا من تشتيت شمل الأسرة العربية وتقطيع أوصالها . فيقول :

« رأينا القرية الصغيرة ينقسم أبناؤها ، والعائلة الواحدة تقتل فروعها ، كل ذلك من أجل عرض زائل سموه السياسة وسموه الأحزاب وسموه الانتخاب وما هو في حقيقته إلا الجشع والحقد والحسد والكراهية والطمع والفساد . . وهكذا راحت جهود الوطن هباء بيد الحكام من أبنائه ، وأصبح الناس وأمسا في يأس من الحال وجأروا إليك يارب بالشكوى . »

ولإيمان السادات بأن الأسرة العربية هي جسم واحد يخضع لكل الروابط العضوية والعلاقات البيولوجية ، فإن إصابة عضو من هذا الجسم بمثابة إصابة للجسم كله ، ولا يستطيع جسم أن يمارس حياته ووجوده على الوجه الأكمل إذا كان أحد أعضائه يشكو من علة ما . ولذلك لم يعتبر السادات اعتداء إسرائيل الغادر على القادة الفلسطينيين مجرد اعتداء على شقق في بيروت ، وإنما اعتداء على كل أفراد الأسرة العربية دون استثناء ، اعتداء على الكرامة والعزة والشرف العربي . وفي هذا يقول في خطابه في المحلة الكبرى بمناسبة عيد العمال في أول مايو ١٩٧٣ :

« دى مش هجوم على شقق فى بيروت ، ده هجوم على كل إنسان منا . . مرات يوسف النجار الى ماتت وهيه واقفة بتدافع عن جوزها فى قلب شقتها ، هيه أمى وأختى وأمك وأختك . . هيه كل ما نعيش احنا علشان نحافظ عليه من شرف ومن إباء عربى . »

هذه هى روح العائلة التى يجب أن تسود العالم العربى كله ، ويقول اوزوالد شبنجلر إن هذه الروح هى العلاقة الوثيقة بين الإنسان والأرض فى المكان الذى يعيش فيه ، وإذا فقدناها فقد روح الحمية الوطنية وفقد بالتالى الرغبة فى الدفاع عن الأرض والعمل على تعميرها حضارياً . أى أنه فى غياب روح الأسرة تصبح أمة أرض أخرى فى قيمة الأرض نفسها التى يعيش عليها الإنسان بالفعل . وإذا استمر غياب هذه الروح لمدة طويلة دون أمل فى إحياء سريع فلا بد أن يكون هذا بداية انتكاسة حضارية لهذه البقعة من العالم . فالإنسان بطبيعته لا يتحمس للعمل من أجل شيء لا يشعر بالانتماء إليه . هنا تبرز ضرورة الكيان الأسرى لأنه تجسيد حى وملموس ومحدد لهذا الانتماء . وكما يقول ت . س . إليوت إن المجتمع يتعرض لخطر الانحلال حين يعوزه انتماء الأفراد إليه ، والاتصال بينهم فى المجالات المختلفة من النشاط ، بين العقول السياسية والعلمية والفنية والفلسفية والدينية . فالأفراد الذين لا يلتقون إلا لأغراض عملية محددة ، وفى مناسبات رسمية ، لا يلتقون التقاء كاملاً كأعضاء أسرة واحدة . قد يكون بينهم أمر مشترك هم شديدو العناية به ، ولكن الاتصال بينهم ينتهى بانتهاء هذا الأمر المشترك ، وسرعان ما ينصرف كل منهم إلى عالمه الخاص به .

ولكن الكيان الأسرى لا يمكن أن ينهض على فترات متقطعة هكذا ، لأنه أقرب إلى التكوين العضوى وما يحمله من علاقات بيولوجية مستمرة تعتمد على الأخذ والعطاء ، على التأثير والتأثر ، على التجاوب والتلاحم . ولعل الممارسة الديمقراطية هى التى تتيح لهذا الكيان الأسرى الفرصة لكى ينمو نمواً طبيعياً خالياً من الضغوط والعقد والمخاوف التى غالباً ما تقطع الصلة بين الإنسان ومجتمعه ، فمن الطبيعى ألا يشعر الإنسان بالانتماء إلى مجتمع يطالبه بواجباته تجاهه ولا يعترف فى الوقت نفسه بحقوقه عليه . وبالتالي تسرى روح الاغتراب والانتماء فى المجتمع ويصبح الإنسان منفياً فى وطنه . وهو وإن لم يكن منفياً جسدياً فهو قد نى روحياً . ولا شك فإن النفى الروحى أشد وقعاً وتدميراً للإنسان من النفى الجسدى . فهناك دائماً الأمل فى العودة من المنفى الجسدى ، فى حين ينعدم الأمل فى العودة من المنفى الروحى لأن الإنسان يعيش بالفعل فى وطنه ولكن بلا أمل فى الانتماء . ومن هنا كان إصرار السادات على قيمة الوفاء فى حياته ، فالذين ضحوا وخدموا الوطن لهم دين فى عنق الوطن لا بد أن يردده إليهم حتى يشعروا عملياً بمقومات الأسرة التى تحنو على أبنائها . وفى هذا يقول السادات وهويسلم الأوسمة لأبطال أكتوبر الجرحى فى ٩ مايو ١٩٧٤ :

« أيها الأبناء والأبطال . . أريدكم أن تعرفوا جميعاً أنكم أبناء لكل أم وأب وإخوة لكل شاب وشابة ومثل أعلى لكل طفلة وطفل فى هذا البلد . أريدكم أن تعرفوا أن شعبكم لن ينسى جميلكم عليه أبداً . وأنه كما كان مستقبل هذا الشعب كله أمانة فى أعناقكم وأنتم تخوضون المعارك وتواجهون الموت ، فإنكم الآن أمانة غالية فى أعناقنا جميعاً وأنتم تضمّدون جراحكم وتواجهون الحياة . . لذلك فقد اتخذت اليوم قراراً أن أسند إلى كل واحد منكم عملاً يحبه بعد شفائه وتأهيله . . وستأتى إليكم هنا لجان من الخبراء لتقابلكم وتساعدكم على اختيار العمل الذى يريده كل منكم . . فمصر اليوم فى حاجة إلى كل واحد منكم لبنى معها بناء الغد . »

ومن الواضح أن السادات مصر على دوره كأب للشعب المصرى أكثر من إصراره على القيام بدور القائد ، وذلك تأكيداً للروابط الأسرية بين القمة والقاعدة . ومن هنا كان الحب الأصيل الذى يكنه له الشعب بكل طبقاته وفئاته . لقد بدأ السادات بضرب المثل الأعلى فى تجسيد العلاقات العائلية الإنسانية مع كل من عمل معه من بعيد

أو قريب . فقد لمس الجميع أنهم يتعاملون مع أب يحبهم ويحميهم ويوجههم ويرشدهم ويحذرهم ويعاقبهم إذا اقتضى الأمر ولكن في رفق الأب وحنوه أيضاً ، فالجميع أسرة واحدة متآلفة ، الكبير يحب الصغير ، والصغير يحترم الكبير . وليس هناك أزمة ثقة من أى نوع . ونلاحظ أن السادات لا يخاطب العمال أو الفلاحين أو الطلبة أو الجنود أو الشباب بصفة عامة إلا بلفظ « الأبناء » وإذا تكلم عنهم فإنه يستعمل لفظ « الأولاد » أو « أولادى » . وفي هذا يقول العميد ف . خفاجى لحمدى لطفى في كتابه « أنور السادات : قصة إيمان بالعسكرية المصرية » ص ١٤٥ : « لقد رأيته أباً للجنود منذ عملت معه ، كان يناديهم بأولادى في رفح . . نفس النداء الذى يصدر عنه اليوم ، وكثيراً ما قضى إجازاته بينهم . . في الأعياد لا يتركهم ، يقضى الإجازة في الوحدة ثم ينزل إلى القاهرة بعد العيد . . وما سب جندياً في حياته وكان أكثر الضباط أيامها يستعمل ألفاظ السباب في تعامله مع الجنود ، بل كان هناك من يلجأ إلى ضرب الجندي إذا أخطأ أو تكاسل كأنه طفل صغير وكان الرئيس السادات يحرص دائماً على توعية الضباط بمساوئ هذا الأسلوب في قيادتهم للجنود ، ويحثهم على تغيير المعاملة . »

وفي الكتاب نفسه يحكى الملازم عبد المنعم السيد كيف جمعهم الرئيس السادات ذات يوم وقال لهم (ص ١٥٥) : « نحن جميعاً أبناء وطن واحد ، وأنا أتحدث إليكم الآن كواحد من أسرتم ، ولا أطالبكم بغير حماية هذه الأسرة . . إذا استطعنا أن نبقي بالسلاح كأسرة قوية متماسكة نجحنا في مواجهة سيطرة الإنجليز وخطرستهم . . أنا لا يحزننى شيء غير هذه الأيام التى نعيشها تحت قيادة الإنجليز . . وهذا وضع غير طبعى ولذلك أعدكم بأنه لن يستمر طويلاً ، وسنحصل كشعب على حريتنا واستقلال وطننا . »

وفي الكتاب نفسه أيضاً (ص ٧١) يعلق اللواء جمال سلطان على أسلوب معاملة الرئيس السادات لهم عندما عمل معه في الصحراء الغربية وأسوان ووادى حلفا فيقول :

« لقد ظل الرئيس السادات دائماً صديق زملائه الوفى ، وبفضل نشاطه الشخصى بالوحدات التى خدم بها ، ارتفعت العلاقات بين الضباط إلى مستوى أفراد الأسرة الواحدة ، ذلك سر قوته الكامن في أعماقه » ولقد اختبر السادات عملياً قيمة الكيان الأسرى عندما نقل إلى معتقل المنيا . كان هم التفكير في خارج المعتقل ، همّاً ثقيلاً مثيراً للنفس ، باعثاً للكآبة ، والجنون . كان مكافحاً فقيراً لا يملك في هذه الدنيا غير عمله وأسرته الصغيرة ، وكان يعيش في المعتقل لا يعرف لها معيناً غير الذى خلقه وخلقها . وذات يوم وهو في طريقه اليومي إلى مكتبة المعتقل التى السادات بالشهيد اليوزباشى محمد وجيه خليل الذى استشهد في حرب فلسطين ، وانتحى به جانباً ليسر في أذنه أن تشكيل الضباط الأحرار قد رتب لعائلته عشرة جنيهاً في كل شهر ، وأنه جاء لكى يطمئنه بعد أن تعذر على الجميع زيارته . وكانت هذه الروح الأسرية من زملاء السادات هى أسمى ما شعر به في ظلمة الاعتقال وإرهابه . ويعلق السادات على هذا بقوله :

« قد تعرف عن الذين زاولوا الكفاح من أجل فكرة أنهم لا يضعفون أمام الموت ولا يضعفون أمام السجن ولا يضعفون أمام التعذيب ، وقد ينحيل إليهم في لحظات الحماس والانفعال أنهم لن يضعفوا أمام شيء في الوجود ولكنهم في هذا وهمون ، فهناك الشيء الذى يضعفون أمامه والذى لا يملكون حياله شيئاً إلا الفرار من الواقع ، والفرار من التفكير فيه ، والفرار من هذه المطارق التى تطرق الرأس والقلب والضمير ، وتحيل الجبار شخصاً ضعيفاً يكاد يستسلم ، ويكاد يستغيث ، لولا كبرياء الكفاح وتأثير الفكرة المتأصلة في نفسه ومثالية الهدف ، ولعلك عرفت الآن ما هو هذا الشيء الذى يضعف أمامه المجاهدون ، إنه الولد ، الطفل ، العيال ، هؤلاء الصغار الودعاء الذين ندفعهم دفعاً إلى مرارة الكفاح ، ونأخذهم أخذاً على الصبر والحرمان ، والتقصيف ، ولم يبرحوا بعد مراحل الصبا . . هؤلاء هم

نقطة الضعف فينا ، وهي نقطة ضعف أعترف بها ولا تخجلني لأننى إنسان ، وقد كنت أحتمل أن يحرم أطفالى من رعاية أبيهم ولكنى ما كنت أصبر على حرمانهم من ضرورات الحياة . .

وقد كانت هذه الجنيئات العشرة هى العون الوحيد الذى أقبله لأطفالى لأنها لم تصدر عن عطف ، ولا إشفاق ، وإنما صدرت عن فكرة مشتركة وتكافل بين مكافحين ، وبدأت أنسى هم الحياة فى خارج المعتقل ، وبدأت أفكر فى خطوط المستقبل ، وخطوات الجهاد .

من هنا كان إيمان السادات العمل بقيمة الكيان الأسرى ، وهو لا يستطيع رفض أى طلب يطلب منه كأب طالما أن فى استطاعته تلبية . فى أبريل عام ١٩٧١ أرسلت الطفلة الإيطالية فرنشيسكا مانكا - ٩ سنوات - خطاباً إلى الرئيس السادات قالت فيه إنها تحلم بزيارة مصر التى قرأت عن تاريخها فى الكتب ولكن عدم قدرتها المالية يحرمها من تحقيق هذا الحلم . وبعد أسبوعين وصلت دعوة الرئيس وتذاكر السفر . وجاءت الطفلة إلى القاهرة فى زيارة لمصر تستغرق تسعة أيام فى ضيافة الرئيس السادات الذى لم يستطع رفض طلب طفلة مثل هذه ، لأن مشاغله الكثيرة ومسئوليته الجسيمة لا تستطيع أن تتغلب على روح الأبوة عنده ، مما دعا أديباً كبيراً مثل محمود تيمور أن يقدم صورة وصفية للسادات فى مجلة « الجديد » فى أول أغسطس ١٩٧٣ فىقول عنه :

« شاهدناه بين صحبه الجند ، فى الجبهة المقاتلة ، فلمسنا فيه شخصية القائد القادر بعزمه وجسارته ، وقلبه الزاخر بالحيوية والأمل الزاهر . . وإنا لرى فيه ، فى الوقت نفسه ، شخصية أب عطوف ، تشع عيونه رحمة وسلاماً ، ويتفرق حديثه طمأنينة وأمناً » .

ولم يكن حب السادات لعائلته الصغيرة ليشغله عن كفاحه من أجل أسرته الكبيرة : مصر . فكل الشهداء والأبطال أبناء له . فعندما ولد ابنه جمال أثناء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ لم يستطع ولم يرض أن يحتفل بهذه المناسبة العائلية الخاصة فى حين الأسرة المصرية كلها معرضة لخطر داهم . يقول مخاطباً ابنه فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » ص ٥ :

« فقد ولدت يا بنى وأنا فى شغل شاغل عن بيتى وأهلى . . لقد كنا نعيش يا بنى فى تلك الأيام من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٦ ونحن نخوض معركة الموت والحياة من أجل مصر أمنا . . معركة نسينا فيها الأهل ، والعيال . . نسينا فيها كل شئ ، وتضاءلت ، وانمحت ، من نفوسنا كل عاطفة لأهل أو ولد إلا عاطفة واحدة كانت تشغل كيانتنا فى ليلنا ونهارنا ، بأعنف مما يحسه الفرد نحو أهله وولده . . وكانت تلهب عزائمنا للدفاع عما هو أقدس وأجل من من الأهل والمال والولد . . وهى مصر . . » .

ثم يعلق على حقيقة أحاسيسه تجاه مصر : أسرته الكبيرة فىقول ص ٨ :

« كان هناك أولاً أبناؤنا وأطفالنا ، ونساؤنا ، ورجالنا ، الذين نفقدهم كل يوم بل كل ساعة فى بور سعيد ، وفى سيناء وفى غزة ، وفى جميع أنحاء مصر . . بفعل قتابل بريطانيا وفرنسا وأساطيلهما ، مضافاً إليها قتابل حلف الأطلنطى وأساطيله وعتاده بأكمله . »

حتى فى خطبه التاريخية التى قد تحضر لسماعها الآلاف المؤلفة ، نجده يحيلها إلى اجتماع عائلى لأننا أحوج إلى أن نعود إلى أنفسنا وتقاليدها وإلى ما درجنا عليه فى بيتنا المصرية . وهو يصّر دائماً أن تكون صورة مصر هى صورة العائلة الواحدة . « مصر بكل من عليها وما عليها . مصر بفلاحها وعاملها ومثقفها وجنديها ، بتاجرها . . بكل من يعمل على أرضها ، حتى بشجرها وبنيلها بترابها ، بكل شئ وهبنا الله على هذه الأرض » . ولذلك كان فى يقينه وتقديره دائماً أن كل شئ لا بد وأن نتصارع فيه ، لا بد وأن نطرحه أمام الشعب بكل حقائقه حتى تقوى أواصر

الأسرة وأسباب الانتماء بين أبناء الوطن الواحد ، لأنه كما يقول السادات في لقائه مع رجال القضاء في ١٢ يناير ١٩٧١ :
 « المعركة في عالم اليوم ومقاييسه معركة شاملة لن ينجو منها أحد والكل سيكون فيها : القاضي والعامل والموظف والمحامي والطبيب والفلاح في قريته والمواطن العادي في منزله وشارعه . كل مدينة كل قرية كل مكان . . الحرب حربنا جميعاً ولا بد أن نحافظ على وحدتنا الداخلية لأنها سلاح رئيسي من أسلحتنا إلى جانب الأسلحة الحديثة التي يتزود بها أبنائنا . . أن نكون جبهة واحدة متماسكة في كل مكان . . جبهة صلبة تعرف هدفها في كل مكان في الشارع في القرية . . وفي المدينة في المحكمة في كل مكان . . هيئة واحدة صلبة نعرف مكاننا ونكافح من أجل ذلك . أردت أن أقول للمجلس الأعلى للهيئات القضائية إنني أريد أسرة واحدة متماسكة بحس كل واحد فيها بإحساس الآخر ويطمئن كل واحد فيها تمام الاطمئنان ويواجه كل واحد فيها بما يكون عليه حتى نحقق من داخلنا تماسكاً كاملاً هو عماد قيام جبهتنا الداخلية الصلبة . »

ومن أجل هذا أصدر السادات توجيهاته إلى الهيئة القضائية والمخابرات العامة ووزارة الداخلية بأن أمن الجماهير فوق كل اعتبارات استثنائية تستدعي التجسس ومطاردة الناس واعتقالهم . فالكيان الأسرى لا يعنى سوى الأمن والطمأنينة وسيادة القانون وحرمان البيوت وكرامات الناس . حتى الذين تنكروا للأسرة المصرية وخانوها لم يحاول السادات أن يعاملهم بروح الانتقام لأنهم أعضاء في الأسرة نفسها ، بل عاملهم بروح القانون حتى يضع الأمور في نصابها وحتى لا يتساوى المحسن مع المسيء . وإذا كان الصراع هو محور الحياة الإنسانية فيجب أن يدور في حدود الكيان الأسرى للأمة حتى لا يحطمه ويقضى عليه . يقول السادات في خطابه في المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي في ٢٣ يوليو ١٩٧١ :

« يكون الصراع دائماً بالرأى ، وبالحب ، وبدون حقد . . نحل مشاكلنا كلها داخل تنظيمنا السياسي ، نحن جميعاً بالتحالف : فلاحين . . عمال قوات مسلحة . . مثقفين . . رأسمالية وطنية . . لنحل مشاكلنا ، بتناقش في كل أمورنا ، بناخذ كل القرارات في مصير بلدنا ، بتناقش كل شيء ، بالحب ، وبدون حق لا شخصي ولا حقد طبقى . . لن أسمح به وأنا عايش ، وعليكم أنتم تكملوا بعدى . . »

وأيضاً لن يتأتى لنا أن نبني الفرد إلا من خلال مجتمع تظله روح العائلة والحرية الكاملة ولن تتأتى الحرية الكاملة إلا تحت سيادة القانون . ولهذا يوكل السادات للتنظيم الاجتماعي الشعبي دوراً حيوياً وهاماً في دعم جبهتنا الداخلية وخاصة فيما يتعلق برعاية أسر المقاتلين والمهجرين والشهداء ، وأيضاً فيما يختص بتدعيم الأسرة وتنظيمها ورعاية الطفولة وحمايتها وتنمية المجتمعات المحلية ورعاية الطلاب والشيخ والمعوقين . وذلك حتى ننتقل نحو تحقيق مبدأ كفاية الخدمات لتأمين حياة المواطنين وإشعارهم أنهم ينتمون إلى أسرة واحدة . ويوضح السادات أن مبدأ الرعاية الاجتماعية ليس جديداً على مصر ، فقد قامت الرعاية الاجتماعية في مصر منذ فجر التاريخ وتأصلت مسئولية المجتمع نحو أفرادهم عبر العصور والأجيال ثم جاءت الشرائع لتعمل على تأكيدها ، ثم صدرت القوانين الوضعية تحقيقاً للأمن الاجتماعي وتلافياً لمخاطر الزمن ، وتدعيماً لعناصر التقدم والتنمية للأفراد والجماعات وتوفيراً للحياة الحرة الكريمة لكل أفراد أسرة الوطن .

هكذا يقوم السادات بدور رب الأسرة لكل المواطنين ، وكلامه في خطابه في ٢٨ سبتمبر ١٩٧١ ينطبق أول ما ينطبق عليه هو شخصياً عندما يقول :

« لأنه بتبقى منحة كبرى من السماء لما ربنا سبحانه وتعالى يقيض لشعب أب يستطيع في كل الظروف ورغم كل الظروف أنه يجمع الشعب كعائلة واحدة ، ويتخذوا هم منه كاب مهما كانت الخلافات ومهما كانت الأوضاع

الى بتكون موجودة ، أو اختلافات في ديانة ، لغات ، أجناس ، أى حاجة

والسادات - كآب - يحمل دائماً هم أسرته في كل قرار يتخذه حتى في خطابه التاريخي في افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، لم ينس روح الأبوة وإيمانه بقيمة الكيان الأسرى رغم المسئوليات الجسيمة التي ترتبت على معارك أكتوبر المجيدة التي كانت رحاها دائرة أثناء إلقاء الخطاب الذي افتتحه بقوله :

« كان بودى أن أجيء إليكم قبل الآن ، ألتقي بكم وبجماهير شعبنا وأمتنا ، لكن مشاغلي كانت كما تعلمون وكما تريدون ، واثق أنكم تقدرتون وتعذررون ، ومهما يكن فلقد كنت أحس بكم وبشعبنا وأمتنا معي في كل رأى . وكنت أحس بكم وبشعبنا وأمتنا معي في كل قرار ، كنتم جميعاً معي ، فيما أخذته على مسئوليتي تعبيراً عن إرادة أمة ، وتعبيراً عن مصير شعب ، ثم وجدت مناسبا أن أجيء إليكم اليوم أتحدث معكم ومع جماهير شعبنا ومع شعوب أمتنا العربية وأمام عالم يهمه ما يجري على أرضنا لأنه وثيق الصلة بأخطر قضايا الإنسانية ، وهي قضية الحرب والسلام ذلك لأننا لا نعتبر نضالنا الوطني والقومي ظاهرة محلية أو إقليمية لأن المنطقة التي نعيش فيها بدورها الاستراتيجية والحضارى في القلب من العالم وفي الصميم من حركته . »

هنا يبدو مفهوم السادات الشامل للكيان الأسرى ، فهو ينظر إلى العالم كله على أنه أسرة واحدة مهما تنوعت وتعددت الصراعات والحروب داخله . فالكيان الأسرى الوطني والقومي لا يعنى الانغلاق أو الانعزال إذ أنه لا يتحرك في فراغ ، وإنما يتحرك في منطقة القلب من العالم وفي الصميم من حركته . ونحن إذا كنا نسعى إلى تحقيق تقدمنا الاقتصادي وتعميرنا الحضارى ورفاهيتنا الاجتماعية ، فنحن لا نتجاهل في الوقت نفسه رخاء العالم وازدهاره ، لأننا في حاجة إلى كل مشاعر الود والحب والأخوة من إخوتنا في مشارق الأرض ومغاربها ، فبهذا الزاد نسعد ونحس بالدفء في قلوبنا . ولذلك يعلن السادات في الخطاب نفسه :

« أننا على استعداد هذه الساعة ، بل هذه الدقيقة ، أن نبدأ في تطهير قناة السويس وفتحها أمام الملاحة العالمية لكي تعود إلى أداء دورها في رخاء العالم وازدهاره ، ولقد أصدرت الأمر بالفعل إلى رئيس هيئة قناة السويس بالبدء في هذه العملية غداة إتمام تحرير الضفة الشرقية للقناة ، وقد بدأت بالفعل مقدمات للاستعداد لهذه المهمة . »

وقبل أكتوبر العظيم كان السادات دائماً مع كل فرصة يعطيها للأسرة العالمية تقديراً واحتراماً لها ، مع وعيه العميق بأن الأمر في النهاية منوط بقوتنا وحدنا . والواجب على المستوى العالمى مسئولية واسعة وقد تحمل السادات منها ما يكفى ودعا الأسرة العالمية إلى وقفة صريحة لا لبس فيها ولا غموض ، ووضع الأمم المتحدة أمام خيار أن تكون موجودة أو لا تكون ، وأيضاً وضع الدول الكبرى أمام مسئولية صيانة النظام الدولى القائم وهي مسئولية لا تستطيع أن تتحلل منها . وبذلك أخلى السادات مسئوليته أمام الأسرة العالمية التي وقفت عاجزة أو متغاضية أمام الضغوط والدعايات الإسرائيلية المغرضة ، برغم أن العصر الحديث يدعو إلى الحق والعدالة والتعاون والتعايش السلمى ، وإلى أن الحضارة الإنسانية ينبغى أن يسهم في نهوضها العالم أجمع حتى تخفف عن الإنسان عناءه وأثقاله ومتاعبه النفسية والروحية . فلم تعد المشكلات تتعلق بأمة دون غيرها بل أضحت هذه المشكلات تمس الأسرة الإنسانية وتؤثر في حياتها ومستقبلها ومستواها المعيشى . ولكن إسرائيل حاولت طمس كل هذه الحقائق مستهينة بالأسرة الدولية جمعاء . ولذلك قامت حرب أكتوبر المجيدة لتعيد للأسرة الدولية احترامها وكيانها وقيمها التي طالما تلاعبت بها إسرائيل منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

وفي الوقت نفسه لتؤكد الكيان الإنسانى المحترم والمعترف به من العالم لكل من الأسرة العربية والأسرة المصرية . ولأن حرب أكتوبر العظيم قامت أساساً على أكتاف شباب هذه الأسرة الحضارية العريقة ، فقد رأينا أن نخصص الفصل التالى من هذه الدراسة لتحليل قضية الشباب في فلسفة رائدنا في التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفضل العاشر قضية الشباب

تشغل قضية الشباب حيزاً كبيراً في فكر السادات وفلسفته لأنه يعتقد أن كل الإنجازات التي قام بها جيله ، وكل الصعاب التي قهرها ، وكل البناء الذي شيده لا يمكن أن يستمر وينمو في المستقبل إذا لم نعد الشباب من الآن لتحمل تبعته . فليس من قبيل العبارات الإنشائية البلاغية أن نقول إن الشباب هو المستقبل ، فبدون إعداد الشباب لحمل أمانة المستقبل فلن يكون هناك مستقبل على الإطلاق . ولذلك يوجه السادات خطابه إلى الشباب في مؤتمر الطلبة في ٣ أبريل ١٩٧٤ فيقول :

« عليكم الآن أن تعدوا أنفسكم لاستلام هذه الأعلام ، لقد قام جيلنا بما هو فوق طاقته ، واليوم ونحن في هذا المنعطف من تاريخنا ، يوم أن حققنا إرادتنا أمام العالم كله واستعدنا ثقتنا بأنفسنا ، استعدنا ثقتنا بقواتنا المسلحة وأصبح لنا كما قلت لكم من قبل ، أصبحت قواتكم المسلحة درعاً وسيفاً ، اليوم يأتي دوركم ، يأتي دور الجيل الذي يتسلم منا الأمانة ، وأقولها بأمانة وصدق ، كم نرقت جباهنا مرارة وألماً وتمزقاً ، لقد عايشنا الاستعمار ، عايشنا الإقطاع ، عايشنا الاقتصاد المصري في أيد أجنبية بالكامل ، عايشنا مجتمع الخمسة في المائة . لم يكن ينعم بخيرات هذا البلد - وقت أن كنا نحن شباب - إلا هؤلاء الخمسة في المائة وكنا نحن جميعاً من المغترين . عايشنا كل هذا وقامت ثورتكم ، ثورة ٢٣ يوليو وغيرت هذا الواقع كله .

وشببت أتم ولم تعاصروا كل هذه الأحداث . أصبح كل شيء تحت يديكم حتماً مكتسباً تطلبون أكثر منه ، وهذا حق لا أعيبه عليكم لأننا لا بد أن نتطلع دائماً إلى أعلى وإنما أريد أن أقول لكم لقد آن الأوان لكي تتحملوا مسئولياتكم . »

ويؤمن السادات أن الشباب هو حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل ، وحرصه على دور الشباب جزء من حرصه على أن ترتبط حلقات تاريخنا كلها ولا تنفص . ولذلك يتحتم على الشباب أن يعرفوا تاريخ ثورتنا وكل ما مر بها من مراحل حتى يرتبط الماضي بالحاضر بالمستقبل فلا يستطيع أحد أبداً أن يكسر حلقة أو أن يعود بنا إلى الوراء أو يدخل بنا في مناهات . ولعل السؤال الحيوي الذي يطرح نفسه أمام الشباب ويفرض عليهم البحث عن إجابة شاملة وعلمية عليه هو : كيف ننظر إلى الماضي ، وكيف ننظر إلى المستقبل ؟ ولعل أكتوبر العظيم قد أجاب عن العنصر الرئيسي في هذا السؤال وهو أن النظر إلى الماضي أو إلى المستقبل لا بد وأن يتميز بالموضوعية والتأصيل الفكري النابع من شخصيتنا وتراثنا وأخلاقنا وتقاليدها وحضارتنا . فقرار أكتوبر التاريخي كان قراراً مصرياً مائة في المائة وفي هذا درس هام وحيوي لأجيال الشباب القادمة التي يجب ألا تستمع إلى أي صوت إلا صوت مصر الصادر من صميم كيانها . وليس هذا على سبيل الحماس أو الانفعال الوطني ولكنه من قبيل التقييم الموضوعي الذي أثبت لنا أن أية تجربة إنسانية غير نابعة من تربتنا مصيرها الفشل والاندثار . ولذلك يؤكد السادات في « ورقة أكتوبر » :

« أن من حق شبابنا بالذات أن يدرك هذا التقييم الموضوعي للتجربة ليعرف بالدقة ماذا حقق جيلنا ، وماذا كان مقدار جهده ، وما تعرض له العمل الوطني من نواقص ليتخذ عن اقتناع مكانه الطبيعي في حركة العمل الوطني بدل أن تمزقه التيارات التي تحاول أن تنكر التجربة جملة وتفصيلاً .

أما عن الاتجاه الثاني وهو أن نوائم بين حركة العمل الوطني وبين الظروف الجديدة التي نعيشها ويعيشها العالم من حولنا ، فإنني أود أن أقول إن أسلوب العمل الوطني يجب أن يتغير بتغير الظروف التي يواجهها في ظل التمسك بالمبادئ الجوهرية التي ارتضاها الشعب . . ونحن في عام ١٩٧٤ ، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار تغيرات كثيرة شهدناها واقعنا المحلي ومنطقتنا العربية والعالم كله . وإذا كان منهاجنا الأساسي هو حرية الإرادة الوطنية في اتخاذ القرار وفي صياغة المستقبل ، فإن الممارسة الفعالة لهذه الحرية تقتضي حساباً دقيقاً لكل ما يحيط بنا من ظروف لنقرر لأنفسنا ما هو خليق بتحقيق أهدافنا في البناء والتقدم . وفي تقديري أن نقطة البدء هنا في مصر ، فنحن لم نعد نتلقى سلباً نتائج متغيرات خارجية ، بل فتح أكتوبر العظيم عهداً جديداً من شأنه أن يمكن مصر من أن تؤثر بدورها في حركة التطور بالمنطقة ، بل وبالتعاون مع إخواننا من البلاد العربية أن تؤثر في السياسة العالمية . »

وإيمان السادات بتطلعات الطلبة ومعاناة الشباب بصفة عامة صادر عن كفاحه في صدر شبابه أيام كان طالباً بالثانوى ثم بالمدرسة الحربية . وقد جرب بنفسه هذه المعاناة ، ولم تكن معاناة نفسية كالتى يمر بها شبابنا وخاصة قبل السادس من أكتوبر العظيم ، بل معاناة رهيبه تجمع بين الألم النفسى والتعذيب الجسدى فى السجون والمعتقلات ، وعندما حصل على حريته خلصة ، ظل مطارداً من قوات المباحث والمخابرات والبوليس السياسى . ووسط هذا الإرهاب كان مضطراً للبحث عن لقمة العيش ، فعمل شياً فوق اللوريات ثم سائقاً لها . كل هذا حدث وهو ما زال شاباً يافعاً ، بينما أقرانه من السن نفسها ينهلون من متع الحياة وملذاتها . ولذلك لم يشعر الشباب أبداً أنه يتكلم من مركز السلطة بل كان بمثابة الأب الحنون والحازم لهم . ويعلم الشباب جيداً أن كل آراء السادات وتوجيهاته كانت تنبع من مركز الإحساس بالمسئولية والخوف على مستقبلهم من الضياع وخاصة فى مثل عالمنا المعاصر الذى يمجج بآلاف التيارات المتعارضة والاتجاهات المتصارعة .

ولعناية السادات بالكيان الأسرى للأمة ، كان حريصاً على ربط الشباب والطلاب بقوى الشعب العاملة . فهم ليسوا قوة مستقلة عن كيان الأمة ، ولا ينبغي أن تنفصل بمصالحها وحركتها عن مصالح وحركة قوى الشعب المجتمعة فى تحالف داخل إطار التنظيم السياسى . فالوحدة الوطنية لقوى الشعب قضية مصيرية لا يجوز التهاون فى المحافظة عليها ، والشباب والطلاب وهم أبناء قوى الشعب العاملة كلها عليهم أن يجسدوا فى حركتهم هذه الوحدة وأن يجعلوا من أنفسهم حراساً عليها ، فلا بد من اليوم للوحدة الوطنية سوى التشتت والضياع وتفريق الصفوف . وإن التلاحم بين شبابنا بالجامعات وفى المصانع وفى الحقول وعلى الجبهة هو قاعدة نضالنا من أجل المستقبل المشرق . وبهذا يستحيل اعتبار الطلاب سلطة جديدة فى الدولة ، فإن لهم الحق مثل كل الشباب فى أن يمارسوا حقهم السياسى كمواطنين على قدم المساواة بشرط ألا يعطل هذا دراستهم وهى مهمتهم الأولى . فلا أحد ينكر عليهم حقهم فى ممارسة النشاط السياسى من خلال الاتحادات الطلابية والاتحاد الاشتراكى . ولكن المطلوب من الطلاب أولاً وأخيراً الانتهاء من الدراسة لتحمل مسئولية التحرير والتعمير . وقد أكد السادات دائماً حق الشباب والطلاب فى عقد المؤتمرات وإبداء الآراء تحت ظل سيادة القانون ، فثقته فيهم هى ثقته فى مستقبل مصر كلها . وعندما كان هناك من يبدون الخشية من أن يتحول الانفتاح إلى انفلات كان يقول : « فلنمارس ولا نخشى شيئاً . » فالشباب هو الغد وبمقدار ما يستحق الغد من اهتمامنا بمقدار ما يجب أن نعطي للشباب اليوم . ولذلك يؤكد السادات فى خطابه أمام المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى فى ١٦ فبراير ١٩٧٢ :

« إننى واثق فى شبابنا لأننى واثق فى مستقبل شعبنا . وإذا فقدت الثقة فى الشباب فعنى ذلك أن أفقد الثقة فى المستقبل ، وذلك ما أرفضه رفضاً باتاً وقاطعاً ، لأن إيمانى بمصر وقدرها ومستقبلها لا يلحقه ظل من شك ،

وأجدنى فى هذا أعمم الحكم فأقول إن أى شعب يفقد إيمانه بشبابه سوف يصبح شعباً لا عزة له ، شعباً أثر التوقف ليس عن التقدم فحسب ، بل عن مسيرة الحياة كلها . »

ومما يؤكد أن الشباب المصرى جدير بالثقة ، أن المغرضين والعملاء قد حاولوا استخدامه سلاحاً موجهاً ضد الأمة حتى تهتر الجبهة الداخلية وبالتالي تتأثر الجبهة العسكرية ، ولكنهم لم يفلحوا برغم سنوات التمزيق والتشتت النفسى التى عاشها شبابنا فى سنى الهزيمة ، فقد أدرك الشباب المصرى بوعيه الأصيل أن أية حرب نفسية تثور بين دوائر الطلاب لا بد أن تنعكس آثارها السيئة على كيان الأمة كلها ولا يعقل أن يتلعب الشباب المتعلم المثقف الواعى الطعم الذى يقدمه له الأعداء . فعنى ابتلاع مثل هذا الطعم أن الشباب مقتنع بأن الأعداء يعرفون مصلحة هذا الشباب أكثر من معرفته بمصلحته الشخصية والوطنية . فقد أراد الأعداء استغلال الممارسة الديمقراطية عندنا لكى يرفعوا الحواجز فى أذهان الشباب بين ممارسة الحرية وممارسة الفوضى . فإطلاق الحريات وإلغاء الحرس الجامعى وإتاحة مجانية التعليم وسيادة مبدأ تكافؤ الفرص ، كل هذا لا يعنى الفوضى والتسيب والخروج على القيم الأصيلة لهذا الشعب .

والسادات - كآب - كان يدرك جيداً عاطفة الشباب الجامحة و طاقة الانفعال الفوارة التى تدفعه فى بعض الأحيان إلى الإتيان ببعض التصرفات التى قد يندم عليها بعد ذلك إذا رآها فى ضوء هادئ ومتعقل وموضوعى . ولذلك نادى السادات بأن تدعيم قيم الحرية لا يتأتى بإلغائها ولكن بالمزيد من الحرية ذاتها . والحرية تحمل فى داخلها الضوابط والمعايير الكفيلة بتحويل أية فورة عاطفية إلى طاقة خلاقة ذات هدف محدد ومرسوم ، بدلا من أن تتبدد فى الهواء أو تأتى بآثار عكسية تضر الشباب نفسه . وخاصة أن أسلوب تحقيق الهدف لا يقل أهمية عن تحقيق الهدف ذاته . فالأسلوب الأهوج المتسرع الطائش المرجل قد يؤدى إلى نتيجة عكس التى يهدف إليها الشباب تماماً برغم نبل مقصدهم . ولذلك يتحتم عدم الفصل بين الوسائل والغايات . ولم يقتصر تعقيل السادات للشباب المصرى على فترة النكسة بل يرجع هذا التعقيل إلى بدء الثورة عندما كان الشباب المصرى يريد أن يحارب الإنجليز ويطردهم مدفوعاً بالحماسة وحدها . لأن مجرد الحماسة قد يضيع أرواح الشباب هباء ، ومن هنا كانت حتمية المنهج العلمى ، والتخطيط الواقعى ، والتفكير المنطقى حتى تتحول العاطفة إلى طاقة فعالة ومؤثرة . وفى هذا يقول السادات على صفحات مجلة « التحرير » فى ٢ فبراير ١٩٥٤ :

« ليعلم الشباب المشتعل حماساً . . أننا يوم نعلن الحرب على بريطانيا . . سنحارب معها كل الدول التى ستحاربنا معها فى الخفاء ، سنحارب أمريكا . . وسنحارب إسرائيل . . وسنحارب كل دولة يهملها أن ينتصر الاستعمار . . وتتصر الرجعية ، وهى حرب لا ترهبنا ولا تخيفنا . . فإننا نعد لها عدتها التى تكفل لنا النصر . .

إننا لا نريد أيها الشباب المتحمس الوثاب ، أن تقع فيما وقع فيه غيرنا . فإن أروا حكم علينا عزيزة ، ونحن لا نريد لكم أن تبذلوها إلا فى الزمان والمكان اللذين يصبح فيهما بذل الأرواح ضريبة حانت ساعة آدائها . فترقبوا معنا صوت النداء . . ويوم تسمعونه ، فثقوا من أنه يعلن ساعة الخلاص . »

ويحكى السادات لأبنائه الطلبة على صفحات « الجمهورية » فى ٤ أكتوبر ١٩٥٤ كيف كان جيله من الطلبة يستقبل العام الدراسى وكله أمل أنه بتجمعه فى المدرسة يستطيع أن يعلن سخطه بالإضراب على الأوضاع القائمة ، وكان يلذ له أن يخرب فى هذه المظاهرات كل ما يقع بين يديه . ويذكر السادات جيداً ذلك اليوم من عام ١٩٣١ حينما خرجوا فى مظاهرة ضد صدق وأخذوا فى تحطيم الفوانيس وعربات الترام لا لشيء إلا أن حكم صدق كان ضد إرادة الشعب . . ولقد كان الهدف صحيحاً ولكن الخطأ كان فى تطبيق الوسيلة بالتخريب .

ولم يكن التخريب مجرد الاعتداء على موجودات مادية يمكن إصلاحها فيما بعد ، ولكن التخريب كان يقع على نفوس الشباب وعقولهم عندما يجدون ثورتهم تتبدد وضرباتهم تطيش ووقتهم يضيع وبالتالي يضيع معه الهدف الرئيسى لهم وهو الدراسة والتحصيل من أجل التعمير الحضارى . أى أن التخريب كان تخريباً حضارياً دون أن يدرك الشباب . ولكن عندما قامت الثورة أزاحت من طريق الشباب كل ما من شأنه أن يشتت جهوده ويضيع وقته الثمين مما يحتم على الشباب أن يستأنف كفاحه في مجراه الطبيعى والصحيح . وما حدث في السادس من أكتوبر العظيم كان تأكيداً لما حدث في يوليو عام ١٩٥٢ . فقد أزيلت كل أسباب التمزق والتشتت والضيايق وأصبح المناخ صحياً وصالحاً للدرس والتحصيل على أحسن وجه . ولعل كلمات السادات عام ١٩٥٤ تصلح مرة أخرى بعد عشرين عاماً للشباب هذا الجيل حتى يدرك مدى أصالة هذا الرائد الفكرى وبعد نظره . يقول للشباب في العدد السابق ذكره من « جريدة الجمهورية » :

« إن كفاحكم يجب أن يستمر . . ولكن على صورة أخرى . . يجب أن يكون كفاح عقول ، وكفاح نبوغ وتحصيل ، وأنتم تقرءون كل يوم عما يحدث في البلاد الأجنبية من كشف واختراع وابتكار أساسه كله المجهود الشخصى ولا أظنكم تجهلون أن مصر في هذه الحقبة من تاريخها في حاجة قصوى إلى عقولكم ومبتكراتها وإلى جهودكم ومخترعاتها . . لقد تخلفنا طويلاً عن ركب الحضارة . . لا لعب في تكويننا أو لنقص في عقولنا ، وإنما لأننا انصرفنا بمشاكلنا الخاصة عما يجب أن نؤديه نحو وطننا . . إن معركة الحرية التي بدأت منذ قيام هذه الثورة لن تثمر ، ولن تصل بهذا الشعب إلى مكانه اللائق إلا بالجهود المتضافرة من كل فرد يعيش على أرض هذا الوطن . وإن مسئوليتكم في إتقان الدرس والتحصيل تساوى تماماً مسئولية الحاكم في رعاية العدل والمساواة . لذلك فأنا أطلب منكم أن تنفوا بشدة عن أنفسكم كل تلك الإشاعات المغرضة وأن تتجهوا في عزم وصلابة نحو دروسكم ، وما بعدكم الوطن له . »

ونظرة السادات الموضوعية إلى قضية الشباب تحتم عليه أن ينظر إليها من كل الجوانب المحتملة . فقد أوضح دور الشباب تجاه الدولة وفي العدد التالى من جريدة « الجمهورية » أى في ٥ أكتوبر ١٩٥٤ قام بتوضيح واجب الدولة تجاه الشباب ، وهو الواجب نفسه الذى أكدته بالنص بعد عشرين عاماً في « ورقة أكتوبر » . وهذا يدل على مدى الاتساق المنطقى الذى يتمتع به فكر السادات . يقول في جريدة « الجمهورية » في ٥ أكتوبر ١٩٥٤ :

« هذا الغد الذى نضع أسسه الآن ، ونحاول أن نحدد معالمه ، من هو المسئول عنه ومن هم جنوده ؟ هل هو هذا الجيل ؟ أو هى الأجيال القادمة ؟ واتفقنا بادئ ذى بدء ، أنها رسالة الجيل الجديد . ثم بدأنا نتساءل : أو ليس من واجبنا إذن ، وقد وضعنا البذرة في الأرض أن نتطلع إلى من يتعهدنا وأن نعدده إعداداً كاملاً لخدمتها ، حتى تنمو وتزدهر ؟ أو ليس من حق أبنائنا علينا ، أن نجنبهم خطأ آبائنا في تركنا هكذا حيارى بلا طابع ولا هدف ! أو ليس من حقهم علينا أن يعلموا من هم ؟ وماذا نريد منهم ؟

إن أخطر رسالة يمكن أن نقوم بها في الواقع هى إعداد جيش يحمى هذا التراث الذى ورثناه جيلاً بعد جيل ، دون أن نعلم شيئاً من أسرارهِ ! ويوم ننجح في أن نستودع صدور أبنائنا حقيقة هذا التراث ، ونفتح أمام عيونهم الطريق إلى كنوزه وأسراره ، يوم ننجح في تحقيق هذه الرسالة نستطيع أن نرفع رءوسنا لنقول إننا فعلنا شيئاً للغد ! »

واستكمالاً للخط الفكرى نفسه الذى تأكد عام ١٩٥٤ يوضح السادات في بيانه أمام « مجلس الشعب » في ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ أن :

« الشباب اليوم في حاجة إلى شيئين . . إلى حوار بين الأجيال ، بدلا من صراع بين الأجيال . . حوار تنتقل

به التجربة ، وتنتقل به المسئولية . . وإلى أمل لا تصده حواجز ، وأخطر الأشياء أن يشعر شبابنا أن آماله في وطنه مقيدة . »

المهمة الملقة على عاتق روادنا الفكريين أن يوضحوا للشباب باستمرار أن النظرة الموضوعية الملتزمة ليست وهماً من الأوهام ، وإنما هي فكرة حيوية دافعة تغذ السير ملتزمة غايتها الحضارية العليا في التاريخ الإنساني ، ومهمة الرائد الفكري أن يعرف مسيرة التاريخ وخطته وغايته من خلال الفكرة العليا التي تقوده وتحده . وقد لا يدرك الشباب حقيقة الأشياء فيثيرون التدمير ويلجئون في الثورة ، فإذا تقدمت بهم السن غلب عليهم الاعتدال . وليس هذا مصدره الرضا والقناعة ، ولكن مصدره النضج والخبرة وصحة الحكم على الأشياء . فمن خلال الخبرة والتجربة يتعلم الإنسان مع تقدم السن كيف يفرق بين ما هو عارض وما هو جوهري . ومع ذلك يتحتم على روادنا الفكريين ألا ينتظروا الشباب حتى تتقدم به السن لكي يحصل على النضج والخبرة وصحة الحكم على الأشياء . فواجب هؤلاء الرواد الإسراع في تقديم الوسائل والدراسات والإنجازات والكتب التي تساعد الشباب على النضج السريع ، وبذلك نختصر عامل الزمن وننتقل في ركب التعمير الحضاري بسرعة العصر الذي نعيشه فنحن لم نعد نتلقى سلباً نتائج المتغيرات الخارجية بعد السادس من أكتوبر العظيم .

هذا هو المكان الذي تحتله قضية الشباب في فكر السادات ، وهذا هو الحيز الذي يشغله الشباب داخل الكيان الأسرى للأمة . ولكن من يسهر على تربية هذا الشباب ورعايته داخل هذا الكيان الأسرى ؟ لا شك أنها المرأة التي أنجبت كل هذه الأجيال التي نهض عليها بنيان أمتنا . ومن هنا كان الركن الرئيسي الذي تشغله المرأة في فكر السادات ، وهو لا يقل في أهميته وحيويته عن قضية الشباب . ولذلك آثرنا أن يدور الفصل التالي من هذه الدراسة حول مفهوم المرأة الجديدة في فلسفة رائدنا في التأصيل الفكري : أنور السادات .

الفصل الحادى عشر المراة الجديدة

برغم أن الكاتب المسرحى الأيرلندى برنارد شو كان أول من بلور اصطلاح « المراة الجديدة » تعبيراً عما يهدف إليه من تخليص المراة من قيود الماضى ورواسبه ، إلا أننا وجدنا أن هذا الاصطلاح ينطبق تماماً على مفهوم السادات للمراة المصرية ولذلك آثرنا أن يكون عنواناً لهذا الفصل من الدراسة . ومفهوم المراة الجديدة لا يعنى مجرد المراة الحديثة أو المعاصرة ولكنه يعنى المراة التى استطاعت أن تقوم بدورها الخطير والحيوى فى بناء المجتمع الذى تعد نصفه بالتمام والكمال . ولذلك فمفهوم المراة الجديدة يمكن أن ينطبق على المراة الفرعونية برغم أنها عاشت فى مصر منذ آلاف السنين .

فقد كانت الأسرة المصرية فى عهد الفراعنة قوية الدعائم ، متينة البنيان ، وكان السلطان فيها لربها ، ولكنه كان سلطاناً معتدلاً يمتاز بسعة الأفق واحترام الرأى ولين الجانب ، فلم تكن المراة فى الأسرة الفرعونية مستعبدة أو مضطهدة أو مجردة من حقوقها الطبيعية والاجتماعية ، بل كانت على العكس من ذلك ، كانت تستمع بكل أنواع الحرية المسئولة ، فتخرج من المنزل متى شاءت ، وتقف بجوار زوجها تسانده فى كفاحه ، وتسهم فى مجده ورقيه ، وتباهى بشهرته حيث كانت تدعى فى كل مكان بلقب وظيفته ، وترتفع إلى مكانته الاجتماعية فى كل محفل تذهب معه إليه . ولقد تكاثرت الأساطير حول المكانة الرفيعة التى احتلتها المراة فى المجتمع الفرعونى . ولكن الذى لا شك فيه هو ذلك الإيمان الراسخ الذى كان يملأ قلوب المصريين القدماء بقوة المراة وحكمتها ، وذلك الإجلال الذى كانوا يحيطونها به فى كل مكان تذهب إليه . وإذا ألقينا بنظرة سريعة على الحكم الخلقية والمثل الاجتماعية التى تبلور تربية الأمة وفكرها فسنجد لها زاخرة باحترام المراة الفرعونية ووضعها فى الصف الأول إلى جانب زوجها إن لم تكن متقدمة عليه أحياناً . والدليل على ذلك ما جاء فى أقوال الحكيم الفرعونى آتى الذى يوجه نصائحه إلى الجيل الجديد فيقول :

« إن أمك هى التى حملتك واحتملت من أجلك كل الآلام ، وهى التى أدخلتك المدرسة . وفى أثناء دراستك كانت تواظب على زيارتك فى كل يوم عند أستاذك حاملة لك الطعام والشراب من المنزل . ضع دائماً نصب عينيك آلام الوضع التى احتملتها يوم ولادتك ولا تنس كل المتاعب التى تجشمتها لسلامتك ، ولا تعمل ما يجعلها تشكو منك خشية أن ترفع يديها بالدعاء نحو الإله ضدك فيستمع إلى شكواها . »

ولقد كانت المراة فى ذلك العهد تتمتع بمركز ممتاز لدرجة أن كل الميراث كان يؤول إلى الأنثى . حتى فرعون نفسه لم يكن ليصبح ملكاً إلا إذا تزوج من الوريثة الملكية . ويرجع المركز السامى الذى كانت المراة تحتله فى مصر القديمة إلى مبدأ سيادة الأم الذى قامت عليه الأسرة الفرعونية . فجميع الأراضي كانت تورث من الأم إلى بناتها ، فإذا تزوج الرجل بوريثة فإنه يتمتع بدخل أملاكها طالما بقيت زوجته على قيد الحياة ، أما إذا ماتت فإن ملكية الأرض تؤول إلى ابنتها وزوج ابنتها . وكان هذا النظام متبعاً بدقة فى الأسرة المالكة مما يوضح لنا لماذا تزوج كثير من الفراعنة أخواتهم بل وبناتهم ، وفى حالات كثيرة لم يكن هذا الزواج سوى زواج صورى يحمل فى طياته هدفاً اقتصادياً بحثاً - وفى كتاب « مصر العظيمة » كتبت مارجريت مرى تقول :

« إن فرعون كان يعمل على تأمين مركزه بالزواج من الفتاة التي ستؤول إليها ثروة زوجته بعد موتها ليضمن بذلك الاحتفاظ بعرشه ، ذلك لأن الثروة الملكية كانت تؤول إلى الإناث . »

ولذلك فعادة امتلاك النساء للثروة تفسر لنا كثرة زيجات كليوباترة . فقد تزوجت أولاً من أخيها الأكبر فتوطد بذلك حقه في العرش ، فلما مات تزوجت كليوباترة من أخيها الأصغر الذي حكم بحق هذا الزواج . ولكن هاتين الزيجتين لم تثمرا أولاداً . وعندما غزا قيصر مصر ، كان عليه أن يتزوج كليوباترة ليجعل جلوسه على العرش قانونياً في أعين الشعب ، وبعده جاء مارك أنطوني الذي ارتقى العرش نتيجة لزواجه من كليوباترة . وقد أنجبت كليوباترة ابناً من قيصر وابنة من أنطوني ، فلما سقط أنطوني وجاء أوكتافيوس كان هو أيضاً مستعداً للزواج من هذه الملكة المزوجة ، ولكن كليوباترة كانت حصيفة لأنها اكتشفت أن هذه المرة لن تكون سيدة موقفها ، فأثرت الموت انتحاراً . لقد أدى نظام توريث الثروة للنساء إلى منح المرأة المصرية سلطة عظيمة . ولذلك كان من الممكن تتبع الأسلاف عن طريق الإناث بسهولة أكثر من تتبعهم عن طريق الذكور . فقد كان الأب بمثابة شاغل المنصب فقط ، أما الأم فكانت رباط الأسرة . وكان الأمر كذلك بالنسبة للأملاك ، فأيلولتها إلى الأم كانت بحكم العادة . وكانت نصوص عقود الزواج التي عثر عليها توضح إلى أي مدى كانت المرأة المصرية سيدة موقفها . فهذه النصوص تحتوي على تعهد الزوج بأنه إذا ترك زوجته ، سواء للكرهية أو لأنه فضل امرأة أخرى عليها ، فإن عليه أن يعيد إليها بائنتها مع منح حصة من جميع أملاك الأب والأم للأطفال الذين حملتهم . ومن هنا كانت الدلالة الكامنة وراء النصيحة التالية التي كتبها الحكيم بتاح - حوتب :

« إذا كنت رجلاً عظيماً ، فكون لنفسك أسرة ، وأحب زوجتك في المنزل ، واملاً معدنها ، وهب لها الكساء ، والعلاج إذا مرضت . وأدخل السرور على قلبها ما بقيت على قيد الحياة . »

ومعظم الرسومات الموجودة على جدران القبور تصور الزوجة مع زوجها في الحفلات ، ورحلات الصيد ، والإشراف على الضياع وتسلم الخراج ، وكان الأقرباء والأصدقاء يطلقون عليها « زوجته المحبوبة » أو « حبيبته » . وليس من شك في أن كثيراً من الأسماء التي كانت تطلق على النساء تدل على فرط إعزاز الرجال لهن ، كقولهم « المفضلة الأولى » و « محبوبتي » و « زوجتي الشبيهة بالذهب » و « مليكتي » . وأيضاً فإن الأسماء التي كانت تطلق على البنات في مصر القديمة تدل على أنهن كن يعاملن كالذكور سواء بسواء . وبعض هذه الأسماء يدل على مدى الإعزاز التي كانت تتمتع به الفتيات الصغيرات مثل « سيدة أبيها » و « وحيدة أبيها » و « جميلة أبيها » . وكان ضمن الألقاب التي أطلقها أب على ابنته بعد موت أمها هو « خليفتها » .

وعموماً فكانت الأعمال الرئيسية التي تؤديها المرأة في مصر القديمة هي حمل الأطفال وتدبير المنزل . أما الوظائف الأخرى فكانت أعمال الكاهنات والقابلات والراقصات والنادبات . أما نساء وبنات عامة الشعب فنراهن في رسومات المقابر وهن يعملن في الحقول ، في جمع الحصاد أو طحن القمح في المجرشة الحجرية مثلما تفعل بعض الفلاحات المصريات حتى الآن . المهم أن المرأة الفرعونية كانت عضواً عاملاً وفعالاً في المجتمع بكل معاني هذه الكلمة ، وهذا يدل على أن عصر الحريم الذي عاشته المرأة المصرية أيام الاحتلال العثماني لم يكن يمت إلى تراثها وتقاليدها بصلة من بعيد أو قريب . وفي هذا يقول السادات في سلسلة الأبحاث التي نشرها « بالجمهورية » عام ١٩٥٤ تحت عنوان « نحو بحث جديد » وصدرت في كتاب بعد ذلك عام ١٩٦٣ بنفس العنوان ، يقول في الحلقة التي نشرت بتاريخ ٢١ أغسطس ١٩٥٤ :

« الإسلام مثلاً لم يحتم شل نصف المجتمع - المرأة - والحيلولة بين هذا النصف وبين الاشتراك في نضال البشرية

من أجل مستقبلها وأمنها وسلامها ! لكن الكهانة وتجار الدين يفرضون على المرأة المسلمة أن تولد ثم تلد ثم تموت ! !
 أى جعلت منها الكهانة آلة مسيرة لا عقل لها ولا رأى ولا حق . فكيف يمكن إذن أن نبعث ثقافة الفرد المسلم ويتم
 توحيد الشعوب المسلمة . . أى كيف يمكن خلق نهضة المسلمين ونصفهم - باسم الدين - يجب أن يظل مغلولاً
 بلا عقل ! ؟

والتخلف الفكرى نفسه حدث فى المسيحية فى العصور الوسطى عندما فسر رجال الدين المغرضون رسالة المسيحية
 طبقاً لأهوائهم حتى يتمكنوا من التحكم فى البشر ، ويملكوا فى أيديهم السلطتين الدينية والزمنية . وفى هذا يقول
 السادات :

« فقد فسر رجال الكنيسة فى العصور الوسطى الدين المسيحى بما يتفق مع تفكيرهم الرجعى وبما يتفق مع
 مصالحهم ورغباتهم وحبهم للسلطة والنفوذ . . ومن بين تفسيرهم لرسالة عيسى ماحتموه على المرأة من حجاب وعبودية .
 فتم بهذا فصلها عن المجتمع فصلاً تاماً فكان أن أصيبت سيدة بمرض أو بوباء لا يسمح للطبيب من الرجال بإتقادها
 من الموت . . لأن رسالة المسيح كما فهمها الكهنوت تفرض على المرأة أن تموت بدلاً من أن يراها رجل غريب . .
 حتى لو كان يحمل لها الدواء . »

وبالطبع فقد كانت نتيجة التلاعب برسالة المسيح أن ساد الظلام والجهل والتخلف أوربا . فالأصل فى وجود
 جميع الأديان السماوية أنها جاءت لمصلحة الجميع وليس لصالح فئة معينة . وقد هبطت للمرأة كما هبطت للرجل
 أيضاً . وبالتالي لم يكن فى مقدور أوربا أن تستشرف آفاق عصر النهضة إلا بعد أن تم القضاء على الكهانة ، وعرف
 الناس حقيقة رسالة دينهم . فقد أصبحت المرأة - الآن - هناك تعمل وتفكر وتتعلم وتشارك الرجل فى التعمير الحضارى
 لأمته . . ولا يمنعها هذا من أن تلد الأطفال وتربيهم وتدير شئون المنزل فى الوقت نفسه . وأطفالها بلا شك أحسن حالا من
 أطفال العصور الوسطى . وللأسف ما زال البعض فى مصر يعانى من آثار العصور الوسطى التى عشناها فى مصر
 على يد الحكم العثمانى . ويحكى لنا السادات قصة تدل على المدى الذى عانت منه المرأة فى بلادنا فيقول :

« أنا لا أنسى حادثاً وقع أمام عيني ذات يوم هنا فى مصر . . فقد رأيت شاباً متعلماً ينتمى إلى إحدى الهيئات
 المعروفة فى إحدى المناسبات . . وكانت هناك سيدة فاضلة فى المكان . . صافحناها جميعاً - نحن الرجال -
 وكان زوجها طبعاً معنا . . وعندما مدت السيدة الفاضلة يدها إلى ذلك الشاب لتصافحه ارتد إلى الوراء مذعوراً
 كأن إنساناً يهاجمه ليقتله ، ورفض أن يصافح السيدة ! وسألناه لماذا . . والحيرة تستبد بنا ، ففهمنا منه أن الذين
 يوجهونه فى الحياة ويخضع لهم فى نشاطه وفى أفكاره قد أكدوا له أن محمداً الرسول « المناضل الحر » لم يضع يده
 فى يد امرأة ! وهكذا تفسر الكهانة دين محمد الآن مثلما فسرت الكهانة رسالة عيسى فى عصور الذل والاستغلال
 والبطش . . العصور الوسطى ! !

ومن خلال هذا الحادث البسيط العابر يمكننا أن نفهم مدى ما يتمتع به تجار الدين فى بلادنا من وعى وإيمان
 بالتطور الإنسانى . . ورسالة أقوى الثوار وسيد الأحرار محمد . . فهم بدلاً من أن يقولوا لهذا الشاب إن محمداً
 قد دعا إلى العمل وبناء المجتمع وتخليص البشرية من الجهل والجمود والاستغلال ونشر العمران والحضارة فى جميع
 الأقطار . . يحدثونه عن وضع يد الرجل فى يد المرأة وكيف يصبح هذا جريمة . . وكيف أن منع هذه الجريمة هو
 الهدف الذى نزلت من أجله رسالة الإسلام !

الكهانة إذن فى بلاد المسلمين تريد أن تعطل نصف المجتمع . . لحساب من ؟ ! يفعلون ذلك لحساب
 النهضة والبعث والحرية والعدل والحق ؟ ! أم لحساب التطور الإنسانى ومصالح الأفراد والجماعات ؟ ! لا هذا

ولا ذاك . فتعطيل نصف المجتمع معناه تأخر هذا المجتمع وتخلفه عن اللحاق بموكب المدنية والعلم والتقدم ، وهذا إذا لم يكن قطعاً لحساب أعداء البشرية . . لحساب الرجعية . . لحساب المشعوذين ! !
وتمر بخاطري في هذه اللحظة تلك الصيحة الحرة التي انطلقت من فم الشاعر العربي المتنبى بعد أن هاله ما فعلته الكهانة بالبشر في بلاد المسلمين فصرخ في مرارة :

هل غاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأم

هكذا كان السادات رائداً فكرياً يحاول وضع الأمور في نصابها فيما يختص بمكانة المرأة المصرية التي تمثل نصف المجتمع . وإذا كان قد قال هذا الكلام منذ عشرين عاماً فليس معنى هذا أن احترامه للمرأة المصرية لم يكن قبل هذه الفترة . فاحترامه للمرأة يرجع إلى طفولته المبكرة التي ستظل بخواطرها وذكرياتها زاداً يملأ نفسه ووجدانه بالصفاء والإيمان . ففي هذه الفترة تلقى أول دروس الحياة على يد أستاذه الحبيب : جدته . فعلى الرغم من أنها كانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ، ومع ذلك فقد كانت ذات فطرة واعية ، ونظرة بعيدة ، وبصيرة ثاقبة ، وذكاء لمّاح ، وشخصية قوية ، قلما يجدها الإنسان اليوم فيمن تعلموا ، وثقفوا أحسن الثقافات . لقد كانت الحياة بكل خبراتها وتجاربها هي المدرسة التي تلقت عليها جدته الثقافة . لذلك كانت تصرفاتها كلها سديدة . فلا غرو أن قصدها رجال القرية للنصيحة والرأي . وهي في كل ما تشير أو تنصح رزينة الحجة ، ثاقبة البصر ، تعرف للنفس البشرية ضعفها ، وتلتمس الخير والوفاق في حماس يدخل الدفء إلى قلوب أهل القرية السذج الطيبين . ولم تكن أحاديثها للتسلية وترجية وقت الفراغ ، وإنما كانت دروساً وعبراً تعلم منها السادات مفهوم الإيمان ، والضرورة الأخلاقية ، والوعى بالتاريخ ، والشخصية المصرية ، وروح القرية ، والكيان الأسرى ، وأخيراً النموذج الحي الذي يجب أن يتجسد في المرأة المصرية بكل هذا الحب والحنان والحكمة وسعة الصدر والفطرة الواعية ، والشخصية القوية التي ترجع ملامحها إلى آلاف السنين عبر التاريخ .

ودور المرأة العربية بصفة عامة ، والمسلمة بصفة خاصة ، في بناء الحضارة العربية واضح كالشمس لا يمكن إنكاره . لدرجة أن المستشرقين لم يستطيعوا طمس ملامحه وهم الذين حاولوا إظهار الشرق - في كثير من الأحيان - بأنه لن يستطيع الخروج من عصر الحريم بكل تقاليد الرجعية ومقوماته المتخلفة وأفق الضيق . وفي هذا تقول المستشرقة الألمانية المعاصرة آنا ماري شميل في مجلة « فكر وفن » الألمانية في عددها العشرين الصادر عام ١٩٧٢ إن الرجل العربي المسلم - قبل عصر الاضمحلال الفكري - كان يكن لشريكة حياته كل احترام وحب وإعزاز وتقدير ، بل كان يستشيرها في معظم ما يتخذه من قرارات للاستعانة برجاحة فكرها . حتى التصوف في الإسلام لعبت فيه المرأة دوراً لا يقل بحال من الأحوال عن دور الرجل . تقول آنا ماري شميل مستشهدة بشخصية فاطمة النيسابورية : « تعتبر فاطمة النيسابورية (توفيت سنة ٨٤٩) بين الزوجات المتصوفات ، أبرز شخصيات عصر تشكيل الإسلام الأول . وهي زوجة أحمد خضرويه . لقد صاحبت هذه المرأة كلا من ذى النون المصري وبايزيد البسطامي . كما يبدو أنها هي التي أرشدت زوجها في حياته الدينية والعملية . ويروى أنها قالت مرة لذي النون ، حين رفض قبول هدية بحجة أنها من امرأة : « إن الصوفي الحق لا ينظر إلى العلة الثانوية ، وإنما ينظر إلى العلة السرمدية » .

وتستأنف آنا ماري شميل بحثها الأكاديمي فتقول إن الإسلام قد حفظ للمرأة المسلمة شخصيتها وتقواها وعفتها حتى في المجتمعات التي ساد فيها عصر الحريم مثل المجتمع التركي . تقول :

« ولقد لعبت المرأة المسلمة ، بإيمانها الراسخ ، وما برحت تلعب دوراً فعالاً في توطيد دعائم المجتمع الإسلامي . يحدوها في مسيرتها النبراس القرآني الذي خاطب (المسلمين والمسلمات) و (المؤمنين والمؤمنات) بنفس الروح وعلى

ذات الصعيد . إن حرص المسلمة ، اليوم ، على التمسك بفرائض دينها ليفوق حرص الرجل ، سواء كان ذلك في المجتمع التركي أو الباكستاني . إنها لتؤدي صلاتها في أوقاتها ولتصوم شهر رمضان غير منقوص .

ونختم آنا ماري شمبل دراستها مستشهداً بأبيات من المتنبي تعتقد أنها تحمل من الصدق الفكري والفني ما ينسحب على المرأة في كل مجال وزمان . يقول المتنبي :

ولو كان النساء كما ذكرنا لفضلت النساء على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

ويوضح السادات أن روح القرية قد تأثرت إلى حد ما بأفكار عصر الحريم وتقاليده التي تضع الولد في مكانة أعلى من البنت ، برغم أن البنت قد تساهم في أعمال المنزل والحقل ما يزيد بكثير عن الولد . والسادات - كفلاح - قد سائر هذه التقاليد احتراماً منه لروح الجماعة في القرية ولكنه يؤكد أن رأيه الشخصي لا يعترف بأية تفرقة بين الفتاة والولد . فيقص علينا في كتابه « يا ولدي هذا عمك جمال » كيف بلغه نبأ ولادة ابنه جمال في حين كان العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ قائماً على قدم وساق . ولذلك لم يحتفل بمقدم ابنه كما يجب أن يحتفل الفلاح . يقول ص ٧ :

« وحين أيقظوني في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي ، لكي ينشوي بأنك أتيت إلى عالمنا ، وأنت ولد ، لم يغير هذا الخبر من الأمر شيئاً . . . ولو أنه في ظروف أخرى كان يمكن أن يكون حدثاً خطيراً . فستعلم يا بني أننا نحن الفلاحين نعتبر ولادة الولد انتصاراً . . . لا لشيء إلا لأنه ولد وليس بنتاً . . . ولعل هذه العادة موروثه عن أجدادنا العرب ، الذين كانوا يحتفلون بالولد ، ويتجاهلون البنت . . . وقد نشأت في قريتنا على هذه التقاليد . . . ولو أنه قد يكون لي رأي آخر اليوم . . . إلا أنني كأى فلاح في قريتنا ، لا أستطيع إلا أن أحترم تقاليد بيتنا الساذجة الطيبة . . . فهذه التقاليد هي عصارة تجارب الأجيال . . . وهي التي علمتنا السباحة وغرست في نفوسنا اليافعة مبادئ الخلق ، والشرف والكرامة . . .

ويمتاز منهج التأصيل الفكري عند السادات بالواقعية العملية التي تجعله ينظر إلى المشكلة كأحد الذين يعانون منها ، فهو لا يتخذ سمت المفكر المترفع المتباعد الذي يعالج القضية كما لو كانت لا تهمه في شيء . وبرغم ذلك لم يفقد السادات النظرة الموضوعية التي تفرق بين احترام تقاليد القرية وبين عدم الإقتناع بالتفرقة بين البنت والولد . بل إنه لا يقف موقف المدافع دائماً عن المرأة المصرية إذ أنها هي الأخرى لا تخلو من العيوب والرواسب التي تركها عصر الحريم . ولذلك يترك دور المدافع المتحمس إلى دور الناقد المتفحص إذا استدعت الأمور القيام بمثل هذا الدور الحيوي . وهو عندما ينقد لا يعتمد على آراء وأفكار عامة ولكنه يتخذ من حياته أمثلة حية للتدليل على ما يقول ، حتى تكون مرتبطة بالواقع المعاش . فيحكى لنا في مقال تحت عنوان « خطبوها اتعززت » في جريدة « الجمهورية » بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩٥٤ حواراً دار بينه وبين فتاة من ذوى قرابته حول صورة فتى الأحلام وزوج المستقبل الذي تتخيله . فيوضح لنا أن تخلف المرأة المصرية سببه أنها تصورت أن الحياة الزوجية هي أخذ دون عطاء ، هي حلاوة بلا نار ، هي حقوق بلا واجبات ، هي طلبات بلا تنازلات ، هي اعتماد كامل على الزوج في كل كبيرة وصغيرة . في حين من حق الزوج - كما يؤمن السادات - أن يعتمد على زوجته بالقدر نفسه الذي تتمتع هي به . فالحياة الزوجية مشاركة ومساندة من أجل تدليل مشكلات الحياة وصعابها . ودور الزوجة في هذا لا يقل أهمية وحيوية عن دور الزوج . ولذلك فالمواصفات التي ترسمها الفتاة المصرية لزوج المستقبل تدل على ضيق أفقها . إذ أنه يتحتم عليها أن تشاركه في الكفاح بعد الزواج من أجل تحقيق هذه المواصفات لا أن تحصل عليها جاهزة .

فالإنسان ليس سلعة تخضع لقانون العرض والطلب بل هو كيان حي ينمو ويتكامل يوماً بعد يوم . ولذلك يقول السادات في نقده للمرأة المصرية بصفة عامة من خلال حديثه عن هذه الفتاة بصفة خاصة :

« هي تريده مغامراً . . . وتريده طموحاً . . . ثم تفهم من ثنايا حديثها عن المغامرة والطموح أنه يجب أن يكون مضموناً نجاحه في هذه المغامرة وبلوغه ما تشتهي من طموح . . . وهي تريده ذا مرتب يستطيع أن يشمل الكتب والأسفار فيخرج من قراءته أديباً ومفكراً لا يشق له غبار . . . وهي تريده ذا مرتب يستطيع أن يقوم بالنفقات التي يتطلبها واقع الحياة في أيامنا هذه وقد أصبحت هناك كماليات كثيرة من ضرورات الحياة . . . وهي تريده . . . وتريده . . . »

كانت تحدثني فئاتنا - وهي من ذوى قرابتي - بهذا الحديث وأنا شارد بفكرى فيما قرأته واستمتعت به طويلاً عن أمريكا وتعمير الغرب فيها ودور المرأة الأمريكية في تلك المعركة الخالدة التي كسبتها نساء أمريكا على قدم المساواة تماماً مع الرجال ، وكان من أبرز نتائج هذه المعركة أن قام الوطن الأمريكى ونهض هذه النهضة الجبارة في هذا الوقت القصير . فأننا أذكر أننا منذ سبعين سنة أى منذ وقت الاحتلال بالضبط كنا نكاد نشبه أمريكا في وقتها في كل شيء ، وأنظر اليوم فأقارن بين ما وصلت إليه أمريكا وما وصلنا نحن إليه ، وأحمد الله أننى لم أياس ، وإنما على العكس من ذلك أمتلى قوة وحماساً .

ثم يعقد السادات مقارنة بين الفتاة الأمريكية التي تتصرف بحرية ومسئولية وبين الفتاة المصرية التي ما زالت تكبل نفسها بقيود عصر الحريم فيقول :

« تلك الأمريكية حين اختارت زوجها ووقفت إلى جانبه لم يخطر ببالها أبداً أن تشترط مثل شروط فئاتنا المبعجلة ، بل خرجت معه بعد زواجها إلى القفار لكي يكافحاً جنباً إلى جنب برغم كل الأخطار والصعاب والمستقبل المجهول . . . وعلى أكتاف هؤلاء قامت أمريكا وحضارة أمريكا . . . وفي يقينى أن هذه ليست مشكلة فئاتنا وحدها وإنما هي مشكلة الجيل بأكمله من الفتيات . . . فنحن نجتاز اليوم أخطر فترة من فترات تطور هذا الوطن وبقدر ما يتطلبه هذا التطور من مسئوليات تقع على الرجال بقدر ما تقع هذه المسئوليات بل أكثر على الفتيات . . . فيجب أن تتغير نظرة فئاتنا السطحية إلى الحياة ، فالمسألة يجب أن تخرج عن النطاق الضيق الذى تسبح فيه أحلام فتياتنا كأن يكون من شروط الزوج كيت وكيت ، مما لا يخرج عن اللباس والزينة والمفاخرة والمنصب والمال ، لكي تكون حياة كفاح مشترك من أجل بناء أسرة سليمة كريمة هي الحجر الأول في بناء هذا الوطن الذى طالما جحدنا نعمته وأهملنا حقه . . . وأكبر ظنى أن مناهج التعليم والكتب التي نقدمها لفتياتنا هي التي تستطيع أن تنتقل بهن إلى مرحلة المسئولية التي يتطلبها تطور اليوم بشرط أن يتوافر الوعي ، وهو مجهود شخصي ، على فتياتنا بعد الثورة أن تبذله . »

وخطورة دور المرأة لا يتمثل فقط في أنها شريكة الرجل ، ولكنه يتمثل بصورة أخطر في أنها الأم التي تلد وترى الأجيال القادمة . أى أن مستقبل الأمة كله أمانة في عنقها . ونحن نعلم إلى أى مدى يتشكل الطفل طبقاً للأسلوب الذى تتبعه الأم في تربيته ورعايته . فقد كان من الطبيعى أن يظفر دور المرأة بالصدارة من بين مراحل التربية ، وخاصة أن المدرسة لم تحاول أن تفقدها دورها ، أو أن تغض من قيمتها . ومن هنا نستطيع أن نستشهد بقول لامينيه : « إن التعاليم المتلقاة على ركبتي الأم لا تنمحي أبداً » . وإذا كان التعليم في الصغر كالنقش على الحجر ، فإن تعقيدات الحياة التي يواجهها الطفل عندما يشب لا يمكن أن تقضى على ما تلقاه في صغره . ولعلنا نجد في المؤرخ الفرنسى ارنست رينان نموذجاً على المدى الذى يمكن أن يصل إليه أثر الأم على طفلها . فقد أغرم رينان بالكتابة عن بنى إسرائيل للدرجة التي تنكر فيها لعقيدته المسيحية ونبذ لغته الفرنسية إلى اللغة العبرية . ومع هذا يعترف بأنه لم يستطع أن يجبر قلبه ووجدانه على التخلص من العقيدة المسيحية التي تلقاها على يدي أمه في طفولته وصباه .

وهو بصور مدى الصراع النفسى الرهيب الذى وقع فى برائته عندما حاول إجبار نفسه على الانسلاخ من طفولته وبالتالي من جذوره الأصيلة فيقول :

« لقد انتهيت من تصميمى فى أواخر سبتمبر على التخلي عما لقتته لى أمى من عقيدة وإيمان ، وكنت أظن أن ذلك من الأفعال التى تستحق التقدير والتعظيم لأنها تدل على استقلال الرأى وقوة الإرادة ، ولكن أى تمزق داخلى ذلك الذى كان ينهش داخلى ؟ إن أمى هى التى كانت تدمى قلبى أشد من أى شىء آخر ، وإن رسائلها هى التى كانت تفقدنى كل مقاومة حقيقية : لقد كنت فى طفولتى معتاداً أن أسأله عشرين مرة فى كل يوم قائلاً : هل أنت مسرورة منى ؟ ولذلك كان الشعور بتمزق الأواصر بينى وبينها أقسى من أن تتحمله أعصابى التى أنهكها الشد والجذب . وهذا يوضح لنا إلى أى مدى شاعت الطبيعة البشرية أن يكون الطفل متأثراً بأمه أكثر منه بأى كائن آخر . ولقد عبر جان جاك روسو عن هذه الحقيقة الخطيرة بقوله :

« لكى تحفظ الأطفال من الرذائل التى ليست فيهم ، فليس لديك سوى حماية واحدة هى خير من الخطب التى لا يفهمونها بقلوبهم أو عقولهم ، وهى هذه القدوة الخلقية الممثلة فيمن يحوطينهم وعلى الأخص أمهاتهم اللواتى يحبينهم أكثر من أى شىء فى الوجود ، وأيضاً أطراف الأحاديث التى يتجاذبها الآباء والأمهات دون أن تكون موجهة إلى الأطفال أنفسهم ، وجو السلام والتفاهم والحب الذى تضيفه الأمهات على أطفالهن ، كل هذا يشكل الأطفال فى نهاية الأمر وبالتالي فإنه يشكل مصيرهم عندما يشبون . »

والتاريخ زاخر بالأمثلة التى تضيق عن الحصر والتى توضح الدور الخطير الذى تلعبه المرأة فى تحديد مصير الأمة . ولذلك يقول السادات فى عيد الأم فى ٢١ مارس ١٩٧٢ :

« إن فضل الأم لا يقاس ولا ينسى فهى الشمعة التى تحترق لتضيء لأبنائها الطريق إلى السعادة ، وهى التى تغرس فى النفوس الفضائل وتقوى العزائم وتلهب نار الوطنية ، وتقدم فلذة كبدها قرباناً للوطن وللدفاع عن حياضه ومقدساته ، إنها الجانب الطيب فى الحياة كلها ، وهى الحنان الذى لا ينتهى مهما قست الظروف ، وهى الغفران الدائم مهما كانت الخطايا ، وهى البذرة التى تتفجر منها الوطنية والإنسانية ، وهى ينبوع الدائم الذى يمنح ويعطى بلا حساب وبلا ثمن وهى الحب الذى لا يعرف الكراهية وهى النور حينما تملأ الدنيا الظلمات .

ونحن إذ نحتفل بعيد الأم ، نكرم أمنا الحبيبة إلى قلبنا جميعاً . . مصر الخالدة ، فإن المثل الرائع للتضحية الذى تقدمه كل أم مصرية إنما هو فى الواقع التجسيد العملى للتضحيات التى قدمتها وتقدمها أمنا الكبرى مصر مهد الحضارة العريقة والإنسانية ، والتى وهبتنا الحياة والسعادة ومنا تستحق كل الإخلاص والوفاء وكل البذل والفداء . . وكان السادات أول زعيم مصرى يبدأ خطبه بقوله : « أيها الإخوة والأخوات . . » اعترافاً عملياً منه بمشاركة المرأة للرجل فى كل شىء . وهذا يتمشى مع إيمانه العميق بالممارسة الديمقراطية ، لأن الديمقراطية الحققة تعنى أن تضطلع المرأة بدورها فى تسير دفة الأمور مع الرجل على قدم المساواة . وهذا المفهوم التقدمى عرفته المرأة المصرية عملياً لأول مرة فى تاريخها الحديث مع بزوغ فجر ثورة يوليو . ولم يلبث أن تحول المفهوم التقدمى إلى مفهوم ثورى ، وجاء هذا التحول كجزء لا يتجزأ من تحول أعم وأشمل فى طبيعة المرحلة التاريخية التى تجتازها الأمة . ثم جاءت « ورقة أكتوبر » لتؤكد على ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة ، وأنه لا بد من أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية فى صنع حياة جديدة ولقد قدمت الثورة للمرأة الكثير ، والمرأة بدورها قدمت وتقدم للثورة الكثير ، لقد أعطتها الثورة كل ما يمكنها من تحطيم أغلالها وخاصة أن المد الثورى لا تنحسر قواه ما دامت الأمة كلها نساؤها ورجالها تسير فى طريق التعمير الحضارى .

ونظراً للإمكانيات التي أتاحها الثورة للمرأة ، فقد استطاعت أن تثبت وجودها في كل المجالات المتاحة ، في مراكز البحوث العلمية والقومية ، في ميادين الصناعة والزراعة والتجارة ، في ميدان الفن ، في التعليم ، في الخدمة الاجتماعية ، في الصحافة ، في الطب ، في المحاماة ، في الرياضة ، في السياسة ، بل في مجال التخطيط والخبرة أيضاً كوزيرة . وهذا تأصيل للدور الحضارى الذى لعبته المرأة المصرية منذ فجر التاريخ . ولا ينسى السادات دور المرأة العربية في تاريخ الحضارة العربية فيقول في كلمته إلى مؤتمر المرأة العربية في ٢٤ سبتمبر ١٩٧٢ :

« إن المرأة العربية لها في التاريخ منزلة خاصة فقد نشأت وترعرعت على الأرض المباركة التي كانت مهبط جميع الرسالات السماوية أخذت عنها الإيمان العميق بالله واستمدت منها قيمتها وتقاليدها التي ميزتها عن غيرها من نساء الأرض . فكانت مضرب الأمثال في التضحية وإنكار الذات والفناء في سبيل إيمانها وعقيدتها ، فهذه خديجة بنت خويلد زوج الرسول الأعظم أول من تلقى نبأ الوحي والرسالة وأول من صدق بها ، وهذه عائشة أم المؤمنين راوية الحديث الشريف ، وهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق الفدائية المؤمنة الصابرة من أجل نصرة الحق وإعلاء شأن الدين وغيرهن كثير مما يزخر بأسمائهن التاريخ العربى الإسلامى القديم والحديث . »

والمرأة هي وحدها القادرة على أن تخلق جيلاً يملك إرادة التغيير والتطوير والتعمير الحضارى ، وأيضاً يتمتع بالقدرة الذاتية على صنع المستقبل وتشكيله ، وهي وحدها القادرة على أن تجعل من الكيان الأسرى بوتقة تنصهر فيها الشخصية القومية وتتبلور ملامحها الأصيلة ، ثم تنطلق إلى آفاق العصر لتساير موكب الحضارة ، وهي وحدها القادرة على تلقين الأجيال الجديدة مفهوم الإيمان ، والضرورة الأخلاقية ، والممارسة الديمقراطية ، والتعمير الحضارى ، والوعى بالتاريخ ، ومقومات الشخصية المصرية ، وروح العائلة . . إلخ . ولذلك يعتبر السادات المرأة المثقفة المؤمنة أغلى جوهرة تهدي لأمتها ، لما تضيفه على بيتها وأبنائها من أحاسيس الحرية والمسؤولية . وعندما يتكلم السادات عن المرأة الجديدة فإنه لا ينسى أخوات لها في الريف يكافحن كفاحاً من نوع آخر إلى جانب أزواجهن وأبنائهن في سبيل إسعاد هذا المجتمع ومده بالغذاء والكساء . ولا ينسى أيضاً أخوات لها في المصانع يدفعن عجلة الإنتاج إلى الأمام .

كل هذا تطبيق عملي وممارسة فعلية لما نص عليه الدستور في المادة ١١ على أن :

« تكفل الدولة التوفيق بين واجبات المرأة نحو الأسرة وعملها في المجتمع ومساواتها بالرجل في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، دون إخلال بأحكام الشريعة الإسلامية . »

وقد أصبح هذا المبدأ من البديهيات التي لا يختلف حولها اثنان ، مما يدل على قوة جذوره في التربة المصرية حتى إن مفكراً مثل توفيق الحكيم ، أغرم بلقب « عدو المرأة » ، نجده يقول عام ١٩٣٨ في كتابه « تحت شمس الفكر » ص ١٩٦ : « إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الأمة كلها ومات » . ثم يؤكد على ص ٢١٨ أن : « الزوجة الصالحة هي تلك التي تستطيع مشاركة زوجها في سيره الطويل الشاق في طريق الحياة ، وأن تعينه حقيقة أصدق المعاونة على احتمال متاعب السير ، وأن تخفف عنه قسماً وافراً من أعباء الحياة اليومية . »

ولاشك فإن المرأة المصرية لتفخر بما أحرزته من تقدم ورقى ومواكبة لتيار الحضارة المعاصرة ، وخاصة إذا قارنت نفسها بزميلتها في أوروبا . فعلى الرغم من الظروف المواتية بالنسبة للمرأة الأوربية منذ قرون خلت فإنها ما زالت تعاني من بعض ما تعانيه أختها الشرقية فنجد مفكرة فرنسية معاصرة مثل سيمون دى بوفوار ما زالت تدافع عن قضية المرأة ، بل ومخصص لها كتاباً من أهم مؤلفاتها اسمه « الجنس الثانى » وفيه تؤكد أنها لا تتكلم عن المرأة إلا من خلال ظروف ومواقف محددة . وتعلق على منهجها الفكرى هذا في كتاب آخر عنوانه « قوة الأشياء » فتقول :

« إن وضع القضية عندى يختلف تماماً عن وضعه فى التفكير السائد ، فعندى أن الأنوثة ليست طبيعة ثابتة أو ماهية ، بل هى موقف خلقتة حضارات ابتداء من بعض المعطيات الفسيولوجية ولقد أوضحت فى كتابى « الجنس الثانى » كيف أن النساء كن أحوج من الرجال لما يشد أزهرن ويصلب عودهن ليجعل منهن مغامرات . . . وعلى هذا فقد اتفق لى أن أعيش بجانب رجل قدرته فى مستوى يفوقى . لم أنكر أنوثتى ولم أثبتها ، لم أفكر فيها ، وكانت لى نفس الحريات ونفس المسئوليات التى للرجال . ومن جهة أخرى لم يظهر سارتر ولا أى واحد من أصدقائه أى عقدة من عقد التفوق والتعالى . »

ومعنى هذا الكلام أن المرأة الغربية ما زالت تخاف من سلوك الرجل كسيد للموقف ولارادّ لأمره . فتوضح سيمون دى بوفوار أن المرأة الغربية ما زالت مقيدة فى بعض الأحيان بأوضاع لم تهيئ لها مستوى من الوعي والحرية بحيث يمكن أن تشارك الرجل فى صنع العالم الذى تعيش فيه ، فهى ما زالت تعيش فى عالم من صنع الرجل يحتم عليها بعض أوضاع الطفولية والعبودية ؛ شأنها فى ذلك شأن السود فى الجنوب الأمريكى يعيشون فى عالم شيده لهم البيض ، بل لا تزال هناك إلى اليوم كثير من النساء فى بلاد الغرب لم يتدربن بعد على حريتهن من خلال العمل ، وهن ما زلن يحتمن بالقيم التى وضعها الرجل وكثيراً ما يهينهن أنها من صنعهن ، وحين تواتى فرصة التحرر هن يحترن النكوص والإحجام ويرفضن المسئولية لأنهن لم يتعودن عليها . وإذا لم تقم المرأة بنفسها بتسوية وجودها وإثبات ذاتها فلن يقوم الرجل بهذه المهمة نيابة عنها .

وترى سيمون دى بوفوار أن النساء - سواء فى الغرب أو فى الشرق - قد عشن دائماً فى عالم جاهز مغلق من صنع الرجال ، ولم يحدث أن اتحدث النساء وأحسن بكيانهن كما يحس الرجال بحيث يمكن أن ينطبق عليه قول « نحن » . لم ينجحن فى أن يكون لهن وجود أصيل يمكن أن يتصف بأنه ذات على نحو ما يوصف وجود الرجل فى أكثر الحضارات ، بل كن دائماً موضوعاً ، ولم تلتق إرادة النساء أو مشروعاتهن على نحو ما تلتق إرادة طبقة من طبقات المجتمع أو طائفة فيه ، ذلك لأن لكل امرأة وضعاً نسبياً مختلفاً عن الأخرى لأنه مقرون برجل دائماً ومن هنا كانت قضية المرأة قضية معقدة . ومع هذا لا تيأس سيمون دى بوفوار فى أن يتحقق للمرأة التحرر من هذا الوضع الهامشى ، فهى تؤكد أنه من السهل أن نتصور عالماً تتساوى فيه المرأة مع الرجل ، وتربى تربيته ، وتحمل مسئولياتها ، وتحصل على حقوقها ، وتصل إلى منزلة من الحرية والوعي بحيث لا ترى فى الرجل نصف إله ، بل رفيقاً وصديقاً ، ويكون الاثنان معاً ما تسميه علاقة « الزوجى الإنسانى » .

ولكن لا تعنى سيمون دى بوفوار بالمساواة بين الرجل والمرأة أن يقوم كل منهما بوظيفة الآخر بلا تفرقة ، فهذا شئ مضاد للطبيعة والمنطق ، فالمرأة ستظل دائماً مختلفة عن الرجل إذ لها علاقاتها الخاصة بنفسها وبفكرها وبأطفالها وبزوجها ، وهى علاقات تختلف جوهرياً عن علاقات الرجل بذاته وبكيانه وبالمرأة وبالعالم . وفى هذا الاختلاف يكمن مذاق الحياة ومتعتها . ولكن الاختلاف لا يعنى التفضيل أو الانحياز إلى جانب الرجل . وإذا كان هناك ثمة تفرقة فهى تفرقة اجتماعية وليست نوعية . ولهذا نجد سيمون دى بوفوار تربط قضية المرأة بقضية التحرير فى كل مكان . فطالبته بحرية المرأة ليست إلا جزءاً من مطالبته بحرية كل مضطهد سواء على مستوى الطبقات الاجتماعية أو على مستوى الشعوب . ولذلك فوقف المرأة فى البلاد التى تخوض معارك التحرير أفضل بكثير من موقفها فى البلاد التى تتمتع بالهدوء والاستقرار . فالرجال فى معارك التحرير يعرفون معنى الحرية وقيمتها ولذلك يرون أنه من العسف حرمان شريكة كفاحهم من ثمرة مشاركتها الحصول على حرية الأمة جمعاء . وهذا ما تنشده سيمون دى بوفوار من قضية الحرية بأسرها . أى التقاء الحريات كلها ؛ لأن الحرية لا تتجزأ ، فحرية الآخرين كما تقول شرط ضرورى

لتحقيق حريتي . ومضمون الحرية بذلك لا ينحصر في الحرية الفردية وإنما يتسع بحيث يصبح الحر هو من يطلب الحرية للآخرين .

والسادات عندما أطلق الحريات لم يستثن المرأة منها . فهو يرى أن أى نقص يعترى مفهوم الحرية من شأنه أن يقضى على الحرية بأكملها . ولذلك أزال كل العقبات التي تقف في طريق استكمال المرأة لكيانها الإنساني . وتحتم على المرأة المصرية الآن أن تعي بنفسها القوانين والأسباب المادية والنفسية والفكرية والاجتماعية التي تكفل لها الضوابط المرننة لممارستها للحرية المستولة ، والتي تمكنها من صنع المستقبل مع الرجل ، ولا شك أنه سيكون سعيداً عندما يشعر أن العبء قد أصبح خفيفاً وبذلك يكون الانطلاق الحضارى أكثر سرعة وحيوية . عندئذ نستطيع القول بأننا حققنا مفهوم « المرأة الجديدة » الذي أكدته الغرب في القرن الماضي على أبدي مفكرين وأدباء من أمثال هنريك ابسن ورنارد شو وجورج ميريديث ، ولكنه لم يستطع تحقيقه حتى الآن بسبب الرواسب المتبقية من العصر الفيكتوري ، وهي رواسب تشبه مخلفات عصر الحريم في الشرق ، مما أدى بكتاب ومفكرين من أمثال سيمون دى بوفوار وفرانسوا ساجان وجيرمين جرير بالمناداة بما نادى به من قبل كل من هدى شعراوى وقاسم أمين في مصر . وهذا يدل على أن قضية المرأة هي قضية إنسانية عامة من الطراز الأول . وهذا يدحض أقوال الكتاب المفرضين الذين يكررون أن المرأة الشرقية المعاصرة ما زالت تعيش عصر الحريم في حين انطلقت أختها الغربية تشارك الرجل في صنع الحضارة الإنسانية . فلو كان الأمر كذلك لما أدى بسيمون دى بوفوار إلى كتابة مؤلفها الخطير « الجنس الثانى » في حين تعيش في بلد مثل فرنسا. تتصدر الصفوف الأولى من حضارة الغرب المعاصرة .

وعلى هذا يجب على المرأة المصرية ألا تلجأ إلى تقليد المرأة الغربية ، لأن التقليد سيجعلها تقوم دائماً بدور التابعة ، والتبعية هي الاستعمار الفكرى الذى لا نشعر به بطريقة مباشرة مثل أشكال الاستعمار القديم . بل إن استعمار النفوس والعقول أخطر بكثير من استعمار الأراضي والممتلكات . ولا يعنى هذا أن ترفض المرأة المصرية الحضارة الغربية برمتها ، ولكن عليها أن تأخذ منها ما يتمشى مع نسيج حضارتها وتراثها وشخصيتها المصرية الأصيلة ، ثم تضيف إليها من فكرها وأصالتها . فنحن لم نعد ننتلق سلبياً نتائج متغيرات خارجية كما يؤكد السادات في « ورقة أكتوبر » . وعلى المرأة المصرية أن تأخذ بيدها عنصر المبادرة حتى تعيد مجد جدتها الفرعونية التي شهد لها العالم أجمع بريقها الحضارى والفكرى والأنثوى . عندئذ تكون المرأة المصرية الجديدة قد تمكنت من القيام بدورها في استراتيجية التأصيل الفكرى الذى يعمل أنور السادات على إرساء تقاليدها ودعائمه حتى تكون بمثابة الصخرة الصلبة التي ينهض عليها التعمير الحضارى للأمة كلها .

معنى الفن

من الواضح أن السادات من المفكرين الذين يؤمنون بأن الفن لازم للإنسان حتى يفهم العالم الذى يعيش فيه ومن ثم يستطيع تغييره وتطويره . والفن مهما يكن وليد عصره ، فهو يضم قسمات ثابتة من قسمات الإنسانية . أى أنه يمثل الإنسانية بقدر ما يتلاءم مع الأفكار السائدة فى وضع تاريخى معين . ويمضى الفن إلى أبعد من هذا المدى ، فهو يجعل كذلك من اللحظة التاريخية المعينة لحظة من لحظات الإنسانية الخالدة ، لحظة تفتح الأمل نحو تطور متصل وخاصة أن الوعى بتاريخ الإنسانية - شأنه شأن العالم ذاته - ليس مجرد طفرات وتناقضات وإنما هو أيضاً إتصال واستمرار . فنحن نحفظ داخل أنفسنا بأشياء قديمة يبدو أن الزمن عفى عليها واندثرت ، بينما هى تحدث فينا أثرها - وذلك غالباً دون أن ندري - ثم نجدها فجأة وقد طفت إلى السطح إذا توافرت الظروف الاجتماعية المؤدية إلى ذلك . ولذلك فعنى الفن فى منهج التأصيل الفكرى عند السادات يكمن فى تعريف الإنسان بذاته وبتاريخه وبتراثه وخاصة عندما يتجسد فى أعمال فنية ناضجة . وهذا النوع من الإدراك الواعى لأبعاد الحياة يؤدى إلى تنوير الإنسان ومعاونته على التعمير الحضارى .

فلم يعد فى الوسع تصوير التاريخ بعلاقاته المتشابكة ، وتجسيد المجتمع بصراعاته الداخلية فى شكل بدائى من القصيدة الجاهلية . إن هذا المجتمع المعقد يتطلب معرفة واضحة ووعياً شاملاً ، يستلزم الخروج عن الأشكال الفنية الجامدة التى عرقها العصور الماضية والوصول إلى أشكال أكثر تفتحاً ونضجاً ومعاصرة ، أشكال متحررة كالأشكال التى اتخذتها الرواية مثلاً . وفى هذا المعنى يقول السادات على صفحات « الجمهورية » فى ١١ أكتوبر ١٩٥٤ : « نحن فى عصر القصة من غير شك . . فإن أية فكرة أو أى مبدأ أصبح من السهل جداً ، إذا أردت أن تضمن له الذبوع والانتشار بين الناس ، بل أكثر من ذلك إذا أردت أن تضمن له مؤمنين فإليك إلا أن تصوغ قصة تطعمها فى حوارها وحوادثها وانفعالاتها بما تريد أن تقرره من مبادئ ، وأنت واثق أنها ستدخل إلى القلوب . من غير عائق أو صعوبة . . فالحقيقة الثابتة اليوم أن الناس قد خف إقبالهم على الكتب العلمية ، وأصبح لا يقبل عليها إلا النفر القليل من الذين يشتغلون بالبحوث ، وأصبح الكافة يجدون متعتهم فى قراءة القصة والاستمتاع بها بشغف شديد . . »

ولقد تنبه العالم إلى هذه الحقيقة ، فأصبحت تقرأ مبادئ الشيوعية مثلاً فى روايات تقع حوادثها بين العمال ، وكيف أنهم فى حوادث وانفعالات متتالية أصبحوا ملوكاً بعد أن كانوا عبيداً . . وفى الغرب حين يكتبون عن الرأسمالية تراهم يصورون لك كيف بدأ البطل فلاحاً أو عاملاً بسيطاً ، ثم لا يلبث بعد حلقات متتابعة من الحوادث المثيرة والكفاح الرائع أن يصبح مالكا للمزارع الشاسعة إن كان فلاحاً ، أو صاحباً لأكبر مصانع العالم فى إنتاج كذا أو كيت من المواد والمصنوعات إن كان صانعاً .

وبالطبع لا يقصد السادات هنا أن يتحول الفن الروائى إلى مجرد دعاية سطحية ومباشرة لأفكار اجتماعية معينة ، وإلا انتفت عنه صفة الفن أساساً . ولكنه يقصد أن الأدوات التى يستخدمها الفن من تشكيل وحوار وأحداث وصور وانفعالات . . إلخ من شأنها أن تتفاعل مع وجدان القارئ وتجعل هذه الأفكار الاجتماعية تسرى فى تيار الشعور عنده

وبالتالى تتحول إلى جزء مكون لمنهجه الفكرى . وكما أننا لا نستطيع أن نتخيل شكلاً فنياً دون مضمون فكرى ، كذلك لا نستطيع تصور وجود رواية فنية معينة بدون أفكار من نوع محدد . ولكن المهم هو أسلوب تجسيد هذه الأفكار داخل العمل الفنى . هنا فقط يكمن الفارق بين الفن وبين ما هو ليس بفن . وخاصة أن وظيفة الفن هى أساساً التعامل مع أحاسيس الإنسان وانفعالاته ومحاولة تشكيلها وتنقيتها من كل ما يعكر عليه صفو حياته النفسية والروحية . ولذلك فالوعظ والخطابة والإرشاد ، كل هذا لا يمت إلى وسائل الفن بصلة لأنها تحاول فرض نفسها على العقلية المعقدة للإنسان ، فى حين أن التجربة النفسية الناتجة عن الشكل الفنى المتكامل كفيلة بتشكيل نفسية القارئ وإقناعه دون أن يشعر .

ولهذا يربط السادات بين الفن والدين فى مفهومه الشامل للإيمان . فهو يرى أن الاثنين يتعاملان مع الكيان الروحى للإنسان ويحاولان تشكيله وبلورته . ولذلك فالروايات الدينية ذات البناء الفنى الناضج أقوى أثراً فى نفوس الجمهور من الوعظ المباشر والخطابة الحماسية والإرشاد المجرد . فالإنسان بطبيعته لا يميل إلى الاستماع إلى نصائح الغير لاعتزازه بذاته وبتفكيره ، ولرفضه اللاشعورى لفكرة أن الغير يمكن أن يعلم أفضل منه بحيث يمنحه ذلك السلطة التى تخول له أن يعظه ويوجهه . أما الرواية فتتهج نهجاً مختلفاً تماماً ، ولذلك يؤكد السادات أن :

« الذى أدهشنى حقاً هو أن يستطيع أحد من الكتاب أن يدخل هذا اللون من القصص إلى الدين لكى يحدث الناس فى أسلوب خفيف ، وفى حوادث شيقة ، وانفعالات ممتعة ، عن أولئك الأبطال الذين كافحوا فى سبيل تثبيت أركان دين من الأديان . . . فقد فرغت لتوى من قراءة قصة « الصياد الكبير » للكاتب الأمريكى لوييد دوجلاس ، ولعل القراء لم ينسوا بعد روايته المشهورة « الرءاء » التى عرضت أخيراً . ولوييد دوجلاس كان قسيساً فى مستهل حياته ، ولم يحترف صنعة الكتابة إلا فى سن متقدمة ، ولكنه حين بدأ يكتب اتخذ لنفسه طريقاً محدداً . . . إن قصصه جميعاً تتلون دائماً بلون واحد هو الدين . . . وقد نحا بها دائماً أن يبشر قومه بالطريقة التى يستطيعون أن يطبقوا بها الدين على مشكلاتهم وحياتهم فى هذه الدنيا من خلال قصص أشهد أنها فى تركيبها وسبكها من أروع ما كتب حتى اليوم . . . إن قصة « الصياد الكبير » هى الحلقة الأولى لقصة « الرءاء » وهى تحدثنا عن ظهور المسيح عليه السلام ، وعن جانب ضخم من تعاليمه . . . والصياد الكبير هنا هو سيمون بن جوناثان ، أو القديس بيتر كما لقبه المسيح . . .

وما إن فرغت من قراءة هذه القصة حتى وددت لو أن أحداً من كتابنا كتب بمثل هذا الأسلوب الساحر عن سيرة أبطالنا المسلمين الذين قامت على أكتافهم أروع رسالة أضاءت الأرض بالنور والإيمان . إن فى حياة عمر ابن الخطاب قصصاً وأساطير تروى ، لا يدانيها أروع ما كتب حتى اليوم عن القوة ، والعدل ، والحكمة ، وإنكار الذات . . . إن فى حياة عمر وحده مادة لا تنضب ، تنبه لها الأجانب فكتبوا عنه المؤلفات ، ومجدوه ، وأهملنا نحن فى أن نجعل من حياة هذا الإنسان الفذ مثلاً يقتدى به أبناءنا على مر العصور . . . هل من يبدأ المحاولة ؟ »

وقد مارس السادات كتابة الرواية والقصة بنفسه ، إذ يقول فى مجلة « التحرير » فى أول مارس ١٩٥٤ :

« إن هوايتى الخاصة هى فى القراءة والكتابة . وقبل الثورة كان لدى المتسع من الوقت فكتبت رواية وبدأت فى الثانية . أما اليوم فإننى لا أكاد أستطيع ، بواجبى الصحفى إلى جانب الواجبات الأخرى ، ولم أستطع ، إلى اليوم ، منذ قيام الثورة أن أجده فراغاً لشيء آخر . »

ويبدو أن السياسة قد جنت على الفن الأدبى وأخذت من محرابه فناً كبيراً كان يمكن أن يضيف الكثير إلى الأدب المصرى المعاصر . والمطلع على الأعمال الأدبية للسادات يدرك هذه الحقيقة جيداً . وبالطبع لا يتسع المجال

هنا لمناقشة هذه الأعمال - سواء نشرت أو لم تنشر بعد - ولكننا سنحاول أن نعالجها من خلال فلسفة السادات للتأصيل الفكرى ، وسنأخذ القصة القصيرة التى نشرت فى مجلة « أهل الفن » فى ١٢ أبريل ١٩٥٤ تحت عنوان « ليلة خسرها الشيطان » لنبين مدى الارتباط العضوى بين معنى الفن ومفهوم الإيمان فى التأصيل الفكرى عند السادات . فهو فنان من الطراز الأول لأنه يكتب قصة قصيرة خالية من الوعظ والإرشاد برغم أن مضمونها يغرى أى كاتب آخر بذلك . فالبناء الدرامى محكم ومتسق بحيث لا يمكننا حذف أية فقرة أو موقف منها ، والمضمون محدد ومتبلور ليس بأسلوب تقريرى مباشر ولكن من خلال تطور الشكل الفنى بصوره ورموزه وإيحاءاته صوب لحظة التنوير فى نهاية القصة وهذا يدل على الوعى الحاد للسادات فيما يختص بفن القصة القصيرة ، وهو الوعى الذى جنبه تحويل القصة الفنية إلى مقالة مباشرة . ومن الأفضل أن نقدم القصة للقارئ الآن على سبيل المثال حتى يتذوقها ويحكم بنفسه :

ليلة خسرها الشيطان

قصة قصيرة بقلم : أنور السادات

أخذ قرص الشمس يهبط رويداً رويداً ، فتناثرت من تحته ظلال رمادية راحت تغمر سماء قرية (العابدية) معلنة غروباً جديداً . .

وهذه سنة الله . . فلا بد أن يسير الكون ما بين شروق وغروب ، ونور وظلام نحو النهاية التي أرادها له خالقه القادر القوى الرحمن . .

وموكب الغروب في القرية مهرجان رائع يتكرر كل يوم ، فبينما تزدهم الطرق الزراعية بجموع العائدين من كفاح اليوم الطويل في الأرض الطيبة رجالاً وعدداً وماشية وأنعاماً . . . نرى القرية وقد اكتست بدخان داكن يتعالى في هدوء إلى السماء ، فوجبة الطعام الرئيسية لا بد أن تكون في استقبال الرواد العائدين ، شبيهة بقدرما عانوا وبقدرما يسمح به دخل البيت ومهارة سيدته شريكة الكفاح . . .

وحالما ينتهي الزحام على الطرقات يبدأ زحام من لون جديد على المساقى والطللمبات ، فإن أحداً من هؤلاء الرواد لن يأوى إلى عشه من غير أن يطمئن إلى سقاية ماشيته وأنعامه . . .

وفي هذا اليوم وقف « خضر » من خلف سور ذلك القصر الأنيق يرقب كعادته موكب السقاية من ذلك الحوض الكبير الذي أقامته سيدته صاحبة الأرض والجاه والثراء وريثة ذلك القصر ، وربة ذلك الحسن الذي يصرخ من ضحكاتها الحلوة العابثة فتنة وتهياباً . . .

إن « خضراً » اليوم في دوامة تأخذ عليه عقله وقلبه وحسه وكل حياته . . فهو يذكر أول يوم عندما نزع إلى القرية لكي يعمل مع الأجراء من عمال الأرض فانتقته « نورا » من بين عشرات النازحين واختارته لكي يشرف على حديقته الخاصة الملحقة بالقصر بأجر مفر قدره خمسة جنيهاً كاملة . .

وهو يذكر أيضاً أنها لم تسأله عن سابق علمه بالعمل في الحدائق ، وإنما سألته عن نفسه وسماته التي أوصفتها بأنها تدل على النبيل ، وعن قوامه الذي أعجبها أيما إعجاب وعن . . . ولما أن ارتدت عيناه خجلاً واحمرّ وجهه وأراد أن يجيب ، لم يجد إلا تمتمة وهممة ردت عليها « نورا » بتلك الضحكة الحلوة العابثة وهي تربت على كتفيه وكأنها سعدت بذلك الخجل وتلك التمتمة . .

وهو يذكر أيضاً أنها لم تكتف بذلك وإنما أخذته من يده وقادته إلى الحجرة المخصصة له في طرف الحديقة ، وأرشدته إلى ما فيها من امتيازات لم يالفها ، بل ولم تداعب خياله قط وهو الذي لم يعرف إلا تلك الدار المتواضعة التي نزع عنها . . . وكأنما أرادت أن تذهب ما بقي بلبه من رشاد فأمرت الخدم بإعادة تنظيفها وترتيبها من جديد . . . « علشانك ياخضر . . . »

لا لقد أمعنت « نورا » في العبث بفطرة ذلك الفتى الساذج إلى حد أن أذهلته عن أمسه وحاضره وكيانه في مستقبل الأيام ، إنه ليسأل نفسه وهو يقبض بيديه على حديد السور يرقب موكب السقاية ألف سؤال وسؤال . . لماذا تناديه « نورا » في مناسبة وفي غير مناسبة لتروى له طرفاً من حياتها في المدينة وكيف أن الكثيرين من أهل الثراء يتوددون إليها طامعين في مالها وجمالها وفي مجالسها وكيف أنها تفضن بقلبها أن يعبت به الطامعون وأنها لن تسلم قلبها وأموالها

إلا لمن تشعر أنه يريد لها لشخصها حتى ولو كان أحد عمال أرضها الاجراء . .

وذلك الذى حدث يوم أن كان يقلم أشجار الورد فى الحديقة ولم يكن له بهذا الفن سابق علم فكان أن نفذت شوكة طويلة فى راحة يده وتصادف أن « نورا » كانت تمر بالقرب منه فها لها أن ترى الدماء تتزف منه وأخذته مسرعة إلى جناحها الخاص حيث أجرت له الضمادات وكانت ذراعه عارية إلا من قميص مهلهل فأخذت « نورا » بعد أن أسعفته تمسح بيديها على عضلاته وفى عينيها بريق عجيب لم يكن ليراه طيلة حياته فقد عودته النسوة فى القرية أن لا يرى بريق عيونهن من فرط الخجل أو من فرط استحيائهن .

لقد لمست يديها بلطف أول الأمر ثم بعنف وهى تقترب منه لتغسل له الجرح فادمت طهارته وروحه بتلك الأنفاس الحارة التى انبعثت منها مختلطة بذلك العطر القوى الذى شل من فتانا كل حراك ، وعندما قام لينصرف وهو يشكر لها صنيعها فى كلمات لاهثة متقطعة وهو يقبل يدها ما راعه إلا أن همست فى أذنه بصوت حالم انطبع بعنف على وجدانه البريء : « انتظرنى يوم الخميس الجاى يا خضر . . سارجع من مصر علشانك مخصوص » .

هل كان وهمه يطلب صراحة أكثر من هذا ؟ وهل كان شيطان الشك يريد منها وعداً أفضل من هذا ؟ لا لم يعد هنا وهم ولا شك وإنما هو يقين يهز كيانه بأقوى مما يفعل الشك .

لقد عاش يومين بعد هذا اللقاء محمواً مخدراً فى حلم اشتى لا يفيق منه . كان يذكر اللقاء ليسترجه ويردد قولها كلمة كلمة . إن نبرات صوتها لا تزال تعيش فى أذنيه واضحة شجية تطارده وهو ينام وتؤنسه وهو يعمل فى خدمة حديقته التى لم ينقض عليه فيها شهر بعد .

إيه أيتها المشاعر البشرية بل أيتها العواطف الإنسانية . . لقد كان فكره فى أيامه الأولى يدور حول الجنيات الخمسة التى طالما منى نفسه بأنه سيتناولها مماسكة فى ورقة واحدة كان يراها فى أيدي تجار القطن ، وكانت أنامله تأكله ليملس عليها ويرفعها فى احترام إلى شفتيه ليقبلها فى لهف . . كم من ساعات انصرفت عليه وهو يحرك هذه الأنامل وكأنما تمر على صفحة تلك الورقة العريضة التى شاعت فيها الحمرة كما تشيع فى وجنتى سيدته الرشيق الباسمة دائماً .

كان فكره يدور حول الجنيات الخمسة فى سذاجة وبراءة ولكنه أصبح اليوم ولا هم له أو لفكره ولا لخياله سوى سيدته نفسها . . سيدته وسيدته فى إلحاح . . إن هواتف نفسه تتصارع بين رغبة جامحة طارئة وبين ما نشأت عليه فطرته الساذجة من اعتراف بالجميل ولكنها سيدته أيضاً . إنها هى التى شجعت فتشجعت غرائزه وهى التى كشفت بعطرها وأنفاسها عما كان يكبته . إن « خضراً » يعانى صراعاً لم يكن فى حسبانته بين ما حرم الله فى كتابه وما أيقظته فيه سيدته من هواتف . .

ظل « خضر » فى موقفه هذا على السور تائهاً شاردأً ولم يحس أن القوم قد انصرفوا بأنعامهم عن الحوض الكبير وأن الليل قد زحف على القرية ولم يدر إلا والرجفة تأخذه . . إن اليوم هو الخميس الذى واعدته عليه سيدته فلا بد أن يذهب ليعد نفسه للقاءها . . .

وفى خطوات وثيدة توجه « خضر » إلى طرف الحديقة حيث يوجد مسكنه وما إن فتح غرفته حتى وقف كالمصعوق . . لقد وجد « نورا » فى غلالة شفاقة تلف جسمها وهى تفضحه . . وراعتة المفاجأة فتسمر فى مكانه « ونورا » تناديه : نادته بصوتها الذى سحره ونادته بضحكها الذى أذهله ونادته بذلك البريق الذى رآه فى عينيها وهى تضمد جراحه . . ولكن « خضراً » ظل فى مكانه . .

وعصفت الرغبة « بنورا » فأرسلت ضحكة عالية لم تكن كضحكاتها السابقة وإنما كان فيها صراخ الشيطان

وألقت بجسدها بين أحضانها . . وصرخ الوحش في دماء « خضر » فلم يشعر إلا وهو يتلقف ذلك العود الفائر الدافئ بين ساعديه . وأطبقها في عنف وكأنما يريد أن يعتصر كل ما في العود . . وصرخت « نورا » من الألم . فارتد « خضر » في ذهول ليرى على الأرض حلية سقطت من صدر « نورا » بعد أن أدمته . .

* * *

وسط ذلك الليل البهيم انشق الهدوء والسلام في طرقات القرية على صيحات خضر المذعورة وفي يده شيء يطبق عليه . . .
كان كتاب الله في حلية من ذهب .

* * * * *

في هذه القصة نلاحظ اهتمام السادات الفائق بالبناء الدرامي الذي يستخدم لغة الرمز والوصف والتجسيد بدلا من الاعتماد على التقرير والتوضيح والتصريح . ولذلك فالفنان لا يتدخل شخصياً لتوجيه دفة الأحداث الوجهة التي يتطلبها الدرس الأخلاقي . بل إن هذا الدرس نفسه لم يفرض فرضاً على البناء لأنه ينبع من ثناياه وكان النتيجة الطبيعية له . فليس هناك وعظ أو اتهام أو أى تزيد من شأنه أن يصيب القصة بأورام ونتوءات تفسد من جمالها العام فالصراع الدرامي كله يرتبط بالعمود الفقري للأحداث والمواقف ، ويتمثل في الجملة التي وردت في القصة والتي تقول : « إن خضراً يعاني صراعاً لم يكن في حسبانته بين ما حرم الله في كتابه وما أيقظته فيه سيده من هواتف » . وهذا الصراع يشق مجراه طبيعياً دون أن يتهم المؤلف نورا بالفجور أو خضرا بالرضوخ للإغراء . فالفن العظيم لا يحتمل مثل هذا الاتهام الساذج لأن المعنى الأخلاقي للقصة لا ينفصل عن شكلها الفني .

وقد استغل المؤلف تيار الشعور عند بطله لكي يقدم من خلاله المبررات النفسية الكامنة سواء وراء سلوكه او سلوك نورا ، بحيث جاءت تصرفات الشخصيتين مطابقة لتكوينهما النفسي . وبرغم أن الوصف الشعوري أو اللاشعوري للشخصية يغري كثيرين من القصصيين على انتهاج منهج التحليل النفسي بكل ما يحمله من تقرير وتوضيح وتفسير مباشر إلا أن السادات التزم بكل الحتميات الفنية والضرورات الدرامية التي تعتمد على إمكانيات الرمز في إخصاب العمل الفني بظلال المعاني وإيحاءات النفس المتعددة والمتناقضة . فقد كونت الرموز المتلاحقة لوحة تشكيلية تتكلم من خلال الأضواء والألوان والظلال : قرص الشمس ، الظلال الرمادية ، الدخان الداكن ، المساقى والطملمبات ، الجنيات الخمسة ، حديد السور ، أشجار الورد ، الحديقة ، القصر ، الشوكة الطويلة ، الجرح ، الضمادات ، الأنفاس الحارة ، العطر القوى ، الحمرة في الجنيات الخمسة وفي وجنات نورا ، الغلالة الشفافة ، العود الفائر الدافئ ، الدم الأحمر مرة أخرى ، ثم أخيراً كتاب الله في حلية من ذهب .

من خلال هذه الرموز التي تشكل مراكز الثقل الدرامي في الخلفية الوصفية ، يشق الصراع الدرامي مجراه . وقد بدأ الصراع نفسياً ثم أخذ في التجسد حتى تحول إلى صراع جسدى انتهى نهاية طبيعية غير دخيلة عليه . فخضر لم يترك نوراً لأنه تذكر ربه ، ولكن لأن ربه ذكره به من خلال كتابه الكريم الذي علقته نورا حول عنقها في حلية من ذهب . والمعروف أن اللذة تضيق إذا سيطر الألم على الإنسان ، ولذلك كان من المنطقي أن تزهّد نورا هي الأخرى في خضر عند إحساسها بالألم على أثر وخز الحلية لصدرها حتى أدمته . وعلى الرغم من أن المعنى الأخلاقي واضح كالشمس إلا أن الفنان لم يترك تشكيله الفني لكي يشتغل بالوعظ والإرشاد . وهذا بلا شك أقوى أثراً نتيجة للتجربة

النفسية التي يمر بها القارئ . فهو لا يتقبل الأفكار في سلبية ولا مبالاة ولكنه يفعل بها وبالتالي فهي تشكل وجدانه وتفكيره تجاه هذا المعنى الأخلاقي .

وهذا يدل على الحس النقدي الرفيع الذي يتمتع به السادات ، والذي يتجلى في حكمه الموضوعي على الروائيين الذين قرأ لهم . يقول في حديث له مع كمال الملاخ على صفحات « الأهرام » في ٢٣ أبريل ١٩٦٢ إن الرواية عبارة عن عالم متكامل من المشاعر والانفعالات ، وكون واسع عريض بجميع أحداثه وشخصياته ومواقفه ورموزه ولوحه الوصفية وخلفياته الفكرية . ونحن إذا طبقنا هذا المفهوم الشامل على قصته القصيرة « ليلة خسرنا الشيطان » ، فسنجد أنها ليست مجرد حدود بل تجمع في ثناياها الدرامية كل عناصر التأصيل الفكري عند السادات ومنها : مفهوم الإيمان ، والضرورة الأخلاقية ، والشخصية المصرية ، وروح القرية ، وقضية الشباب ، والمرأة الجديدة . . إلخ وهذا يدل على أن المضمون الفكري لا ينفصل عن الشكل الفني عنده ، فهو ينظر إلى الوجود الإنساني كوحدة لا يمكن أن تتجزأ . ولذلك يقول لكامل الملاخ :

« من الناس الذين يحللون الانفعالات والوجود ككل . . لا الحكاية العادية ولد يحب بنتا . . ومتاعب . . ثم نهاية غالباً سعيدة . . هو الروائي (سمرست موم) . وفي نظري للعمل الأدبي لا أقنع بمجرد جوادث أو أحداث تجري أو البحث عن حبكة . أريد أكثر من هذا ، الوجود الذي نعيشه غير منفصل بعضه عن بعض . نحن كبشر نمثل جزءاً من هذا الوجود . من أحسن القصص التي قرأتها في السجن : (حد موسى) لسمرست موم . في هذه الرواية : عملية الوجود كله » .

ولكن الحس النقدي الموضوعي عند السادات لا يجعله ينحاز انحيازاً مطلقاً لسمرست موم ، بل يراه في ضوء تحليلي علمي يوضح الإيجابيات كما يوضح السلبيات . فيستأنف حديثه عن سمرست موم :
« ولكن إذا رجعت لسمرست موم . . الذي يخلق بقارته إلى قمة الانفعال حتى في قصصه القصيرة . . أجد عنده نقطة ضعف ، هو أنك تحس أنه يؤمن بنظرية كيبلينج إلى حد بعيد . . الشرق شرق . . والغرب غرب . . عيبه التفرقة العنصرية التي تجدها واضحة في رواية « خيط من شعاع » وفيها يتجنى على الملونين . قصة يجتمع بين أبطالها أوريون وملونون على مركب . يغرق المركب في وسط النهر . الرجل الملون الذي يصفه الكل بالشجاعة تحول إلى جبان يخاف أن يضحى لإنقاذ رجل يغرق . وينتقد الموقف رجل أبيض ! ولكن إذا خرجنا من رذالته العنصرية وتمييزه الرجل الأبيض . . نجد فيها أبعاداً في الحياة . . من الكون » .

أما عن الروايات فيعتقد السادات أن هن صبراً أكثر من الروائيين في إيراد التفاصيل الدقيقة واللمسات الثانوية واللمحات الجانبية ، وعلى كل حال فروح القرية عنده تجعله يفضل الروايات اللاتي يحسطن ملامحها في رواياتهن من أمثال بيرل باك . فهن على حد قوله :

« يصفن الحياة بتفاصيل وتحليل أكثر ومن بينهن : بيرك باك ، وفيكي باون . ويرل : ولدت في الصين وعاشت فيها بين التقاليد والأسرة القديمة . عندما تصفها كأنك في قرية من قرى مصر . طبعاً أنا من قرية ومشدود بكل ما أحسسته طفلاً . المخرافات البدائية الساذجة . الاعتقادات غير القابلة للمناقشة . التقاليد الصارمة التي لا يعرف لها أصل . ويرل هي مؤلفة « الأرض الطيبة » و « الأم » .

ولا تقتصر التعليقات الأدبية للسادات على الأدب العالمي ، بل ينتقل بنا إلى الحياة الأدبية في مصر . فيأخذ على النقاد المصريين قصورهم الواضح عن مواكبة الحركة الأدبية لدرجة أنها تعيش في فراغ نقدي كان من الممكن أن يقضى عليها لو لم تكن تملك من الأصالة ما يساعدها على الاستمرار . وفي هذا يؤكد السادات أن :

« الشيء الجميل . أن عندنا نهضة أدبية جميلة جداً . بصرف النظر عما يكتبه النقاد . عندنا مثلاً من تأثرت بهم من صغرى . د . طه حسين طبعاً . قرأت له . رجعت السنة الماضية واشتريت (على هامش السيرة) . كان قد فقد منى ثانية . ومن الشبان الجدد : إحسان عبد القدوس . يمثل بلا جدال . . تياراً وفكراً واتجاهاً في غاية الروعة . وطبعاً يوسف السباعي ونجيب محفوظ . »

وقد وقف السادات دائماً نصيراً وسنداً للادباء والمفكرين ، إيماناً منه أنهم ضمير الأمة الحى . ويحكى إحسان عبد القدوس على صفحات مجلة « الجديد » في أول يوليو ١٩٧٣ موقفاً محدداً وقفه السادات ضد كل الاتجاهات المغرضة التي حاولت التشهير بإحسان عبد القدوس . يقول إحتان :

« ما من مرة وقعت فيها في مأزق إلا وأحسست بأن الرئيس السادات واقف بجانبى . . لم يتباعد عني أبداً في أشد المحن التي تعرضت لها . . في الستينيات مثلاً تعرضت لحملة تشهير شنها على خصومى السياسيين ، وأخذت الحملة - في إطارها الخارجى الزائف - شكل الهجوم على أدبى القصصى ، عقب قصة « أنف وثلاث عيون » ووصل الأمر إلى حد مناقشة الموضوع في مجلس « الأمة » وكان الرئيس السادات رئيساً للمجلس ، واستطاع بذكائه ووفائه - معاً - أن يدير المناقشة بموضوعية كاملة وبصورة تحمى سمعتى وكرامتى ، بحيث انتهى الموضوع برد الدكتور حاتم - وكان وزيراً للثقافة والإرشاد القومى - الذى قال فيه : (إن أدب إحسان عبد القدوس يمر بما يمر به أدب غيره من مراجعة رقابية في حدود الحماية الواجبة للآداب العامة . . وإذا كان لأحد من الأعضاء اعتراض خاص أوتاهام معين ، فليتقدم به بصفة شخصية إلى النيابة العامة) . . ولم يتقدم أحد طبعاً بإبلاغ النيابة ضدى . »

والأدب - في مفهوم السادات - ليس مجرد أداة للتسلية وترجية وقت الفراغ ولكنه وسيلة خطيرة لتكوين الشخصية الإنسانية وتطويرها فقد يركن الإنسان إلى قراءة رواية على سبيل التسلية ، ولكنه في حالة الاسترخاء الممتع التي يمارسها أثناء القراءة ، ينشط خياله لتلقى المضمون الفكرى ، فيترسب في وجدانه ويتحول إلى جزء فعال من تفكيره ، وبالتالي يصبح نمطاً سلوكياً مرتبطاً بشخصيته . فقد تعلم السادات الصبر والصمت وكتمان الألم وتحمل المكاره بعد قراءته لكتاب « على هامش السيرة » لطله حسين . يقول في « الجمهورية » في ٣ مارس ١٩٥٤ :

« تعودت أن أحتفظ لنفسى بمثل هذه الأشياء حين أعانيها فأتالم ، خوفاً من أن يكون في إنشائها بادرة ضعف منى وأنا أكره لنفسى أن تبدو لى ضعيفة ، فما بالك إذا ما رأى الناس هذا الضعف . . وقد يكون ذلك مرجعه إلى عبارة قرأتها وأنا صغير السن لأستاذنا الكبير طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) وكان يقول : (إنما يراك الناس بقدر تصويرك لنفسك ، فإن أعزتها رؤيت عزيزة ، وإن أهنها رؤيت مهانة) . »

فالأدب إذن اكتشاف للنفس واكتشاف للحياة في الوقت نفسه ومن هنا كانت العلاقة العضوية بين الأدب والحياة ، هو يستكشفها ، وهي تمدّه بالطاقة والمضمون لكى تساعد على الاستمرار والاستكشاف . وفي هذا يقول السادات في مذكراته التي نشرها في « المصور » عام ١٩٤٨ بعنوان « ٣٠ شهراً في السجن » إن حبه للأدب والفن هو الذى ساعده على اكتشاف الأعماق والأبعاد المتعددة التي تتمتع بها حياة القرية البسيطة الساذجة البريئة الوداعة . هناك الإيمان العميق ، والسريرة النقية ، والرأس المرفوع ، والكفاح الدؤوب . ومن لا يملك هذه النظرة لا يرى في حياة القرية سوى الكآبة والملل والضيق والفجر والسأم واليأس والرتابة . أما السادات فيستشهد في مذكراته في ٢٥ ديسمبر ١٩٤٦ بقول ديهاميل : « إنه لغنى ذلك الذى يرى الحياة اكتشافاً مستمراً » ثم يربط بين هذا المفهوم وحياته في القرية فيقول :

« اليوم هو عيد ميلادى . . لا أدري لماذا تداعبنى خواطرى في ابتهاج ونشوة . . فنذ ثمانية وعشرين عاماً خلت ،

وفي مثل هذا اليوم ، كان مولدى الساذج فى تلك القرية الهادئة بالمنوفية . .
 سأذكر دائماً هذا اليوم ، وسأذكر أيضاً عشيرتى من الفلاحين الكادحين فى بساطة ووداعة . فهذه الذكرى
 ترفعنى فوق لوم المدينة وخداعها ومظاهرها المتكلفة . سأذكر دائماً بيتى القروية الساذجة حيث تمتلئ النفوس بالإيمان
 بالله ، وحيث يرجعون كل شىء إلى الله ، فهناك تعلمت أن الله حى فى كل شىء ، وأن العبرة بنقاء السريرة قبل
 العلانية . سأذكر محصول الثمانية والعشرين عاماً الماضية بفخر واعتزاز ، وسأسير مرفوع الرأس غير خاش أن يساء
 فهمى أويؤول قصدى .

اللهم حمداً وشكراً فأنت وحدك القوى المكين .

ومنذ طفولته تفتح ذهن السادات وخياله لحب القصة والرواية والشعر من خلال دراسته الدينية فى « كتاب »
 القرية . وكما سبق أن قلنا إن الفن والدين يتقاربان فى معالجتهما لحياة الإنسان الروحية والفكرية والنفسية . وعندما
 يفتح خيال الطفل المبكر لقصص القرآن الكريم ، فإن عالماً رجباً يحتويه بين ذراعيه ويمده يوماً بعد يوم بالخصوبة
 الذهنية والروحية التى تمكنه من أن يرى الحياة اكتشافاً مستمراً . وفى هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية »
 فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٤ :

« للدين قدسية ورهبة . . حتى فى نفوس الأشقياء . . سأظل أذكر ما حييت كيف دخلت هذه الرهبة وتلك
 القدسية إلى نفسى وأنا طفل صغير ألعب فى شوارع القرية حافى القدمين ، وما أن بلغت سنى الحد الذى أرسلونى
 فيه إلى الكتاب حتى كان أول شىء فاجأونى به هو أن اشتروا لى ضمن ما اشتروا شبشباً ألبسه لأننى سأقرأ القرآن
 فى الكتاب ، ومن يقرأ القرآن يجب ألا يسير حافى القدمين ، بل إنهم يصلون فيها إلى حد أن يقطع إمام الجامع
 بأغلظ الأيمان أن من يمشى حافياً وهو يحفظ القرآن إنما يرتكب حراماً من أبشع الحرام » .

ثم يقص علينا السادات حياته فى « كتاب » القرية بأسلوب أدبى متمكن يذكرنا بأسلوب طه حسين فى كتابه
 « الأيام » مما يدل على أن السياسة قد حرمت الأدب المصرى المعاصر من أدب كبير نخصب . يقول السادات :
 « وعندما كنت أعود من الكتاب عصر كل يوم أحمل اللوح الصفيح ، والدواة الزجاجية ، والقلم البسط كانت
 تدور فى رأسى الخيالات والأحلام . . فى مثل تلك السن المبكرة يلذ للطفل ألا يحس فى انطلاق خياله بسد أوقيد ،
 فما بالك إذا كان هذا الانطلاق يندفع فى أجواء رهبانية مقدسة كان يحدثنا عنها سيدنا العريف حينما كان يفسر
 لنا بمنطقه البسيط الخفيف السور التى كان يملئها علينا . .

ولا أزال أذكر قصته لنا عن سورة (قريش) . . « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا
 رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » . صدق الله العظيم .
 لا أزال أذكر (سيدنا) وهو يحكى لنا عن رحلة الشتاء ورحلة الصيف إحداها فى الجنوب والأخرى فى الشمال
 وفى كل رحلة يسير بنا مع القافلة وحاديها يردد أروع النغم وأجمل الأراجيز ، ثم ينتقل بنا إلى النار التى تجتمع حولها
 القافلة فى الليل يسمرون ويديرون طلى الحديث ويروون آخر ما جادت به قرائح الشعراء ، ثم ينتهى بالقافلة
 المطاف إلى أسواق الشام وما فيها من خرزوديباج وعطورونفائس مما يقتنيه الرجال وما تتجمل به الحور . .

ويظل (سيدنا) يحكى ويحكى إلى أن يقف بنا فجأة لكى يدعونا إلى طاعة الله ، ليطعم جوعنا كما أطعم
 قريشاً ، ويؤمن خوفنا كما آمن قريشاً . .

هذه هى الصورة التى تنطبع فى قلوب الملايين من سكان القرى فى بلدنا الطيب الوداع ، وتظل تكبر معنا حتى
 ولو تركنا القرية إلى المدينة كما حدث لى . .

لا يمكن بحال من الأحوال أن ترتبط صورة الدين والإيمان في أعماقنا نحن أبناء هذا الشعب في القرى والنجوع والكفور ، إلا بشيء واحد هو الوداعة ، وهو الإيمان الذي يملأ نفوسنا رهبة وخشوعاً لله . . . » .

هذا هو الأسلوب الأدبي الذي كان يحول التعاليم الدينية إلى متعة ذهنية رائقة في خيال الأطفال ، فهذه التعاليم ليست مجرد أوامر صادرة للتنفيذ ولكنها مضمون فكري لحياة متكاملة . فالأمر بطاعة الله يأتي ضمن سياق أدبي جميل يبين مدى حب الله عز وجل للإنسان وحمايته له من شرور هذا العالم . عندئذ تصير طاعة الله مهمة ممتعة كنوع من رد الجميل لله سبحانه وتعالى ، ولا تصبح مجرد تنفيذ حرفي لأمر مجرد .

وعندما شب السادات وبدأ كفاحه الوطني المبكر ، شب معه الأسلوب الأدبي الذي تعلمه منذ سني طفولته لدرجة أنه كان يطغى على مقالاته ومؤلفاته السياسية . فهو يعتقد أنه لا خير في أية دراسة سياسية لا تحمل معها ما يحبب القارئ فيها وفي مضمونها الفكري . فالدراسة الصارمة الجافة لا تتعامل إلا مع عقل القارئ ، وهذا النوع من القارئ ليس الأغلبية ، لأن معظم القراء يفضلون التعامل مع وجدانهم وعاطفتهم بالإضافة إلى عقلهم وفكرهم . لا يعني هذا أن تتحول الكتابات السياسية إلى مظاهرات حماسية وهتافات انفعالية ، ولكنه يعني ذلك التوازن الدقيق بين رحابة العاطفة وانطلاقها وبين منطق العقل وانضباطه . وهذا التوازن يخلق قاعدة عريضة من القراء . ومن هنا كان النجاح الجماهيري الذي لاقت كسب السادات عندما صدرت بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٩ . فمثلاً في سلسلة « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » يحكي لنا في الحلقة التي نشرت بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٥٤ في « الجمهورية » الصعاب التي واجهت الضباط الأحرار قبل قيام الثورة ، ونلاحظ القالب الأدبي الجميل الذي صب داخله المضمون السياسي بحيث أصبحت الصورة الفنية والفكرة السياسية وجهين لعملة واحدة . يقول :

« عندما يتكاثف الظلام ، وتتعدى الرؤية ، ويتخبط الناس في طرقات الحياة ، وتتشعب بهم مسالكها . . . يختار الله من عباده المخلصين من يتيح لهم البصيرة التي تغني عن البصر ، فإذا هم يتوقفون عند العثرة ، لأنهم يتوقعونها ، وإن لم ترها منهم الأبصار . . . وقد كان الله معنا في طريقنا الطويل إلى هذه الثورة ، فأودعنا البصيرة كلما ادلهمت الظلمة . . . وجنب خطواتنا أكثر العثرات . . . »

وفي طريقنا هذا الطويل ، لمعت أمامنا أضواء ، وتبعنا أقدامنا أقدام . . . ولكن خطواتنا ظلت محتفظة باتزانها وشخصيتها ، واستقلال توجيهها . . . واستطاعت أن تؤكد للجميع ، أنها تستطيع أن تلتقي بخطوات الآخرين ، ولكنها لا تستطيع أن ترتبط بها ، لا متبوعة ولا تابعة ، لأنها خطوات لا تمضي إلا بإرادة أصحابها ، وأصحابها لم تكن تعوزهم البصيرة ، مهما افتقدوا الضوء في الطريق . . . »

وفي بعض مقالاته السياسية يرسم السادات صورة فنية رائعة بكل ظلالها وألوانها وخطوطها لدرجة أن القارئ يظن أنها المقصودة لذاتها ، في حين يفاجأ في النهاية بالفكرة السياسية وقد جاءت كامتداد طبيعي للرموز والصور التي وردت في البانوراما الوصفية . ولنلاحظ رمز الضفادع في المقالة التالية التي نشرها في مجلة « التحرير » في ٣ أغسطس ١٩٥٤ :

« كثيراً ما قضيت في ريف مصر الجميل ليالي لا أنساها ، ناجيت فيها الطبيعة الهادئة ، واستمتعت فيها إلى حفيف غصون الأشجار ، وإلى همس النسيم في آذان الخمائل ، ونعمت فيها بالهدوء والدعة وسرحت فيها بخيالي مستعيداً ذكرياتي حلوها ومرها ، وتطلعت فيها إلى آفاق المستقبل أستشف منها ما أترقبه من جميل الأمانى وطيب الآمال .

ومن تلك الليالي التي قضيتها في الريف ما كان مقعراً منيراً ، ومنها ما كان مظلماً حالك السواد . ولكني كنت

أرى في ظلام الريف جمالا لا يقل عن جمال قمره . . فهذه الظلال التي ترسمها الأشجار تتراءى في الظلمة كعذارى ليل استخفين ليرقصن على نغمات نجوى النسيم وخرير الجدول ، وهذه الأكواخ القابعة بين تلك البقع الخضراء الداكنة ، أوكار طير تتناجى فيها أرواح ساكنيها مناجاة الحب والعطف والحنان . . أما إذا أسفر القمر ، وألقى عذارى سحبه الشفافة وأطل من وراء غمامه الرقيق ، فكل ما حولى لوحات فن رائعة ، رسمت لا على الأوراق ، بل على حدقات العيون ، وصفحات القلوب . .

شيء واحد كان يحيل ظلمة الريف الجميل إلى وحشة رهيبة ، وقمر الريف المثير إلى ضجة وصخب . . ذلك هو « نقيق الضفادع » . ولو أنك سمعت نقيق الضفادع في وقت كد وكدح . . أو في ساعة صخب وضجيج ، لهان لديك أمرها . . أما أن تسمع هذه الاصوات القبيحة المنكرة في ساعات هدوء ، أو في أوقات مرح ، فذلك ما يثير الغضب ، ويوتر الأعصاب . إن نقيقها يعكر هدوء الظلام ، وصفو الضياء على السواء .

لقد ذكرني (بنقيق الضفادع) صراخ تلك الصحف الإنجليزية التي أخذت تلطم الخدود وتشق الجيوب حزنا على ضياع مصر من قبضة بريطانيا . . وكان أولى بهذه (الضفادع) ألا تعكر هذا الهدوء بتلك الاصوات التي لا معنى لها ولا وزن . . إنها تلطم في فرح ، وتندب في عرس . وكان عليها أن تفهم أن الفرح فرح بريطانيا والعرس عرسها ، لأن خروج القوات الإنجليزية بهذا الاتفاق الذي يحفظ لها كرامتها ، ويبقى لها صداقة شعب مصر ، وجميع الشعوب العربية ، إنما هو كسب لبريطانيا . »

هذه اللوحة التشكيلية الرائعة قل أن توجد عند كاتب سياسى ، فحفيف الغصون ، وهمس النسيم ، والقمر المنير ، والظلام الحال ك ، وظلال الأشجار ، وخرير الجدول ، والأكواخ القابعة ، والبقع الخضراء الداكنة ، والسحب الشفافة ، والغمام الرقيق . كل هذه اللوحة المتناغمة في ألوانها وظلالها وأصواتها يقطعها صوت النشاز المزعج الصادر من الضفادع ، وفي النهاية نكتشف أن الضفادع ترمز إلى الصحف البريطانية . بعد ذلك يستطيع القارئ أن يفهم جيداً الدور الذى قامت به تلك الصحف دون حاجة إلى شرح توضيحي وتفسير تحليلي له . لأن الرمز بكل أبعاده وإيحاءاته من خلال السياق الأدبي كفيل بتحديد هذا الدور وتجسيده وترسيخه في ذهن القارئ .

وأحياناً يترك السادات مسرح الأحداث التاريخية ليركز على لقطة جانبية تزيد من أبعاد هذه الأحداث وتخصب من دلالاتها ، وذلك لارتباطها بالحياة اليومية للناس بعيداً عن التنظيم السياسى . فمثلاً يحكى لنا ماذا حدث صباح ذلك اليوم التاريخى الذى قامت فيه ثورة يوليو وذلك في كتابه « قصة الثورة كاملة » ص ٨٩ :

« إن الذى كان يطوف بشوارع القاهرة في صباح ذلك اليوم التاريخى ، كان يرى صوراً للشعب مليئة بالأمل والثقة ! إن بائع (الخروب) الذى وزع ما يحمله على الناس مجاناً في ميدان السيدة زينب ، كان يعبر بتصرفه ذاك عن إيمان الشعب بما حدث وأيضاً كان يعبر عن حاجة الشعب الملحة إلى قيام ثورة . . وغير بائع الخروب . . مئات من الصور الباهرة التي كانت تعكس في صدق كبير بهجة الشعب بما حدث في تلك الليلة . . بثورة القوات المسلحة من أجله . . »

هكذا يصل السادات دائماً إلى عقل القارئ وجدانه من خلال بصره . فالصورة الفنية كفيلة بالتعبير عن كل أبعاد الفكرة السياسية دون محاولة للكاتب ليتدخل مفسراً وموضحاً ومحللاً وشارحاً . فهو يرسم المنظر وعلى القارئ أن ينظر إليه ، بعد ذلك يفهم ما يقصده الكاتب في لمحات . ولذلك يستفيد السادات من إمكانيات الوصف التشكيلي والسرد الروائي في تجسيد الفكرة السياسية المجردة من خلال بلورة الأحداث والمواقف والشخصيات . فعلى سبيل المثال نجد ، في الكتاب السابق ذكره ، وصفاً لرحيل فاروق في ٢٦ يوليو ١٩٥٢ عن البلاد بعد أن نحتة الثورة عن العرش . هذه اللحظة التاريخية لا يحللها السادات بقلم الكاتب السياسى ولكنه يجسدها بعدسة المصور الفنان بحيث

تبدو كما لو كان القارئ يشاهد شريطاً سينمائياً . هنا تكمن المتعة والتعلم في الوقت نفسه . فبينما القارئ مستمتع بالمشاهد التي تتوافر أمام بصيرته وخياله ، فإنه يتعلم الكثير عن تاريخ مصر في أخرج لحظاتها . يقول السادات ص ١٢١ : « وظللت في مكاني فوق الطراد (فاروق) أحملق في المنظار المكبر وأشهد أمامي نهاية ملك . . بل نهاية نظام . . ورأيت فاروقاً يجسمه الضخم يستقل للنش إلى المحرسة ، وكان يرتدى بذلة بحرية بيضاء ويقف على مقدمة اللش . . وخيل إلى أنه يريد أن يبدو شجاعاً في لحظاته الأخيرة ، وهو يغادر أرض الثورة . . »

وكانت اللشات تروح وتجيء في الميناء منذ الصباح حتى ساعة الرحيل ، وتقرب تلك اللشات من رأس التين ثم تدور حول المحرسة . . فكل الناس يريدون مشاهدة الفصل الأخير من رواية (فاروق الاول) . بعد أن شهدوا كل فصول الرواية وضاقوا بها .

وكانت ناريمان وبنات فاروق قد وصلن إلى المحرسة قبل الساعة السادسة . وقبل أن يمر اللش الذي يحمل الملك المخلوع أمام الطراد الذي كنت فوقه سمعت طلقات رصاص . . وبحققت في المنظار وقد انتابني شعور بالفرع خيل إلى أن أحداً أطلق الرصاص على فاروق . . وبهذا تكون القيادة قد أخلفت وعدها . . ثم عرفت - في الحال - أن أحد اللشات اقرب من (لنش) الملك المخلوع وكان فيه صحفيون مصريون جاءوا ليلتقطوا صوراً لفاروق ساعة رحيله عن مصر . وما كاد فاروق يراهم وهم يقتربون منه حتى (تهبج) وصرخ بصوت عال وسبهم بشتائم مقذعة ، فما كان من حرس خفر السواحل الذين كانوا في (لنش) يسير بهم محاذياً للنش فاروق إلا أن أطلقوا النار للإرهاب . . . وانطلق لنش الصحفيين بعيداً . . »

وهذا السرد الروائي ينطبق على كل كتابات السادات فيما يختص بتاريخ الثورة . بل إن هذا السرد يتحول أحياناً إلى نوع من السيناريو السينمائي بكل ما يحمله من وصف تفصيلي للمناظر والمواقف والشخصيات والخلفية التي تعكس إحساسات الشخصيات تجاه الموقف . فأحياناً يبدأ السرد وكأننا نشاهد على الشاشة البيضاء تحديداً لتاريخ الأحداث ثم مكان وقوعها يتلوها الخلفية الوصفية بكل تفاصيلها ثم الشخصيات التي تتحرك أمام هذه الخلفية وتتفاعل معها بحيث تبلور إحساساتها تجاه الموقف الراهن . ثم تتوالى الأحداث والمناظر والشخصيات تماماً كما لو كان هناك شريط سينمائي يدور أمام أعيننا . ولذلك لا يمكن أن ينسى القارئ الفكرة السياسية الكامنة وراء هذا التكنيك السينمائي الذي يتسلل في رفق إلى وجدانه وعقله وفكره من خلال الأحاسيس والأفكار والانفعالات التي يثيرها داخله . فالأمر لا يقتصر على فكرة مجردة يقوم الكاتب بتحليلها وتفسيرها ، ولكنه يتحول إلى تجربة نفسية تحتوي القارئ وتملك عليه حواسه الخمس وبالتالي عقله وفكره . وقد طبق السادات هذا المنهج على « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » في الحلقة التي نشرت « بالجمهورية » في ١٠ ديسمبر ١٩٥٣ عندما صور لنا كيف نبتت فكرة الثورة في أذهان الضباط الأحرار . يقول : « ١٩٣٨ . . . »

في منقباد . . .

في هذه البيئة المصرية الخالصة ، حيث يشعر المصري ، بعناصره العربية تملأ كيانه وتسيطر عليه . . وفي الشتاء . . حين يقسو الجو ، وتمرد العواصف ، فترداد الروابط بين الأصدقاء ، يقاومون بها قسوة الطبيعة ويتحصرون بها على عواء الرياح . . .

هناك حول نار في معسكر المناورات ببتاب الشريف ، كنا نقضي طرفاً من كل ليلة . . أصدقاء ، كلهم صغار السن ، صغار المناصب ، كبار الآمال وافر والشباب . . ضباط لم تزد رتبة أحدنا عن الملازم ثان . . نحترق طول النهار في مناورات طويلة ، ونعود إلى الخيام آخر اليوم

نصفي النار في الجبل ، فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب . . !
 وكانت في القلوب نار . . نار لا تنطفئ لأن وقودها يتجدد في كل لحظة من إحساساتنا الشابة المرفقة . . وما يقع
 أمام أعيننا كل يوم من الصباح إلى المساء . .
 كانت آمالنا الكبيرة ، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الأحداث . . .
 فقد كنا ضباطاً صغاراً . . .
 وكان لنا قواد . . .
 وكان هناك أيضاً . . إنجليز . . !

وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم إلا إذلالنا . . وإلا الانحناء أمام الإنجليز . . .
 وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق . . ونسخط . . ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم . . .
 وماذا يستطيع ملازم ثان أن يفعل في داخل النظام العسكري ، وفي تلك الأوضاع الرهيبة إلا أن يسكت ،
 ويكظم الغيظ ، ويدفن النار في حشاه . . .
 هكذا كانت أيامنا . . .

ولكن ليالينا كانت تختلف اختلافاً كبيراً . ففي جومن الصداقة والألفة ، كنا نجلس فنمرح ، ونذيب في هذا
 المرح ، شقاء اليوم الطويل . . شقاء الجسد ، شقاء النفس ، وشقاء الغربة في جبل بعيد . . .
 ثم يقودنا السادات لمشاهدة البانوراما العريضة بما تحويه من جنود الاحتلال الذين يزعمون بلادنا ، وطائراتهم
 التي تجثم على صدور مطاراتنا وتنطلق منها إلى الميادين القريبة الحافلة بالموت . . ودباباتهم تختال في شوارعنا ومن فوقها
 جنود حمر الوجوه . . ومخازن ذخيرتهم ترصع أرجاء الوادي بالبارود والقنابل وأسلحة الدمار . . وكانت أرضنا فوق
 ذلك حقلاً كبيراً يشرب حبات العرق من جباه آبائنا وإخوتنا ليخرجها قمحاً للغاصيين . . ثم يلخص السادات
 الموقف في ضربة فرشاة واحدة عندما يقول : « ماض كله حشرات ، ومستقبل كله مخاوف ، وحرب قائمة لا بد أن
 نصلها » .

والعجيب أن السادات عندما يروي الأحداث التي وقعت بالفعل يصبغها بالصبغة الروائية التي تحمل عناصر التشويق
 والإثارة والتوقع ، في حين يحرص الروائيون المحترفون على صبغ أحداثهم ومواقفهم وشخصياتهم الخيالية بالصبغة
 الواقعية . ولكننا نجد أن الهدف واحد رغم اختلاف الوسيلة ، إنه منح القارئ عنصرى المتعة والتعليم في الوقت نفسه .
 فعلى صفحات « الجمهورية » في ٢٤ ديسمبر ١٩٥٣ يقدم السادات قطعة نابضة من تاريخ مصر أثناء الحرب العالمية
 الثانية من خلال السرد الروائي والدرامي البحت الذي يبدو وكأنه كتب بقلم روائي محترف له باع طويل في هذا الفن .
 فيحكى لنا كيف وقع الألمان ساندى وابلر في قبضة المخابرات البريطانية بسبب فشلها في القيام بمهمتهما في العمل
 ضد جنود الحلفاء وخاصة البريطانيين الجائمين على صدر مصر . إنها لوحة تشكيلية درامية زاخرة بالحياة والحركة
 والألوان والصراع والتشويق والحوار المقتنع فنياً وواقعياً . ولذلك آثرنا أن نقدم اللوحة بكامل أبعادها حتى يستمتع القارئ
 بنموذج واقعي من التكنيك الروائي الذي أغرم به قلم السادات :

« كان ساندى شأن أكثر الألمان ولوعاً بالموسيقى الكلاسيكية الأوربية . . ولم يكن ابلر كذلك ، فقد كان على
 النقيض منه لا يحب إلا موسيقى الجاز . . تترج طرقاتها العنيفة بالخمرة التي تدور برأسه ، فتحيله كائناً عجيباً ،
 نصفه إنسان ، ونصفه حيوان . . !

وفي إحدى الأمسيات ، جلس ساندى في عوامة الراقصة حكمت فهمى ، يستمع إلى موسيقى (شهر زاد)

للموسيقار الروسي ريمسكى كورساكوف . . وكان ابلر مغيضاً محتقاً ، يحاول إغراء صديقه للقيام معه إلى موعد حافل ضربه مع بعض الغواني في ملهى الكيت كات . . وأصر ساندى على سماع الموسيقى الخالدة حتى نهايتها ، فوضع أمامه كأساً من الخمر ، وأخذ يسمع ويحلم ، ويتمثل في خياله آخر مرة شاهد فيها هذا الباليه على مسرح من مسارح برلين . ورويداً ورويداً اندمج ابلر معه في الاستماع إلى الموسيقى . ولكنه لم يسلم نفسه لأنغام الموسيقى بقدر ما أسلم نفسه لهمسات شيطان أخذ يراوده . . وفجأة صاح بصديقه صيحة مخمورة :

– ما كان أسعده هذا الملك . . شهر يار . .

وضحك ساندى وهو مسترسل في أحلامه وقال :

– كان يأتى كل ليلة بعذراء طاهرة . . يبيت معها ليلته ثم يذبحها في الصباح .

وصاح ابلر والخمر في رأسه :

– هكذا الحياة . . ماذا ينقصنا نحن ، لنكون مثله ! ؟ أنا شهر يار الثانى ، وأنت شهر يار الثالث . . ألسنا

في بلاد ألف ليلة وليلة ؟ ! !

وغمز ساندى بعينه :

– أكنت تقرأ مثلى قصص ألف ليلة وليلة أيام الشباب . .

فأجاب ابلر :

– لقد كدت أطرده من المدرسة وأنا أقرأها يوماً فقد كانت معى الترجمة الحقيقية لها ، بكل ما فيها من كلام

لذيذ ! !

وسأله ساندى بنجث :

– وهل تحب أن تذبح النساء . .

فأجاب ابلر :

– ولماذا أذبحهن . . أعطين مالا . . مالا من البنك الأهل . . كم يكون لذيداً أن تعيش كل ليلة في أحضان

عذراء !

واتهت الموسيقى وخرج العرييدان إلى الكيت كات يقضيان سهرتهما . . ولكن خيال ألف ليلة وليلة لم يبرح ذهن

ابلر وساندى في تلك الليلة . . فكانا كلما سكنت الموسيقى رفعا عقيرتهما بألحان شهر زاد ، فتضج القاعة بالضحك على هذين (الإنجليزين) – كما كانت تظن الراقصة ! – اللذين ذهب بعقلهما الشراب . .

ولم تمر الليلة على خير . . فقد أسر ابلر بأحلامه الحيوانية إلى إحدى صديقاته . . فضحكت الصديقة بنجث

ودخلت معه في مفاوضات ، أصبح ابلر بعدها شهر يار الثانى ، وأصبح ساندى شهر يار الثالث أيضاً . . وبدأت العوامة تستقبل كل صباح فتاتين جديدتين من بائعات الهوى ، في ثياب كتياب الطالبات . . يدخلان على استحياء . .

ويخرجان وقد امتلأت حقيبة كل منهما بمائتي جنيه ! ! اخذتاها من الرجلين باعتبارهما من العذارى ! !

واشتهر أمر ابلر وساندى بين مجموعة من فتيات اليهود ، اللواتى كن يقمن بهذه التمثيلية العاطفية الفذة ، حتى

كان يوم السبت السابق للقبض عليهما . . وكانت في العوامة يهوديتان جاءتا لتمثل كل منهما دور عروس من

عذارى شهر يار . . وانهى التمثيل . . والرجلان في نشوة بالغة ، من السكر الشديد ، والخيال المطلق . . وتنهأت

الفتاتان للخروج . . ثم وقفنا في انتظار الأربعمئة جنيه . . ودخل ابلر إلى غرفته ، ليأتى بالنقود ، ولكنه لم يجد

سوى سبعين جنيهاً فقط ، هى كل ما لديه من أوراق مالية مصرية . . ومد ابلر يده بالنقود إلى إحداها فأخذتها ،

٢٣٩٠٣ / ٠١



Bibliotheca Alexandrina



06333464

١٠٠